الجزء الاول من كتاب نفح الطيب
من غصن الاندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب تأليف

العلامة المقري

رحمه

الله

٢

(فهرسة الجزء الاول من كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب)

الجزائر

صحيفة

صحيفة

الباب

صحيفة

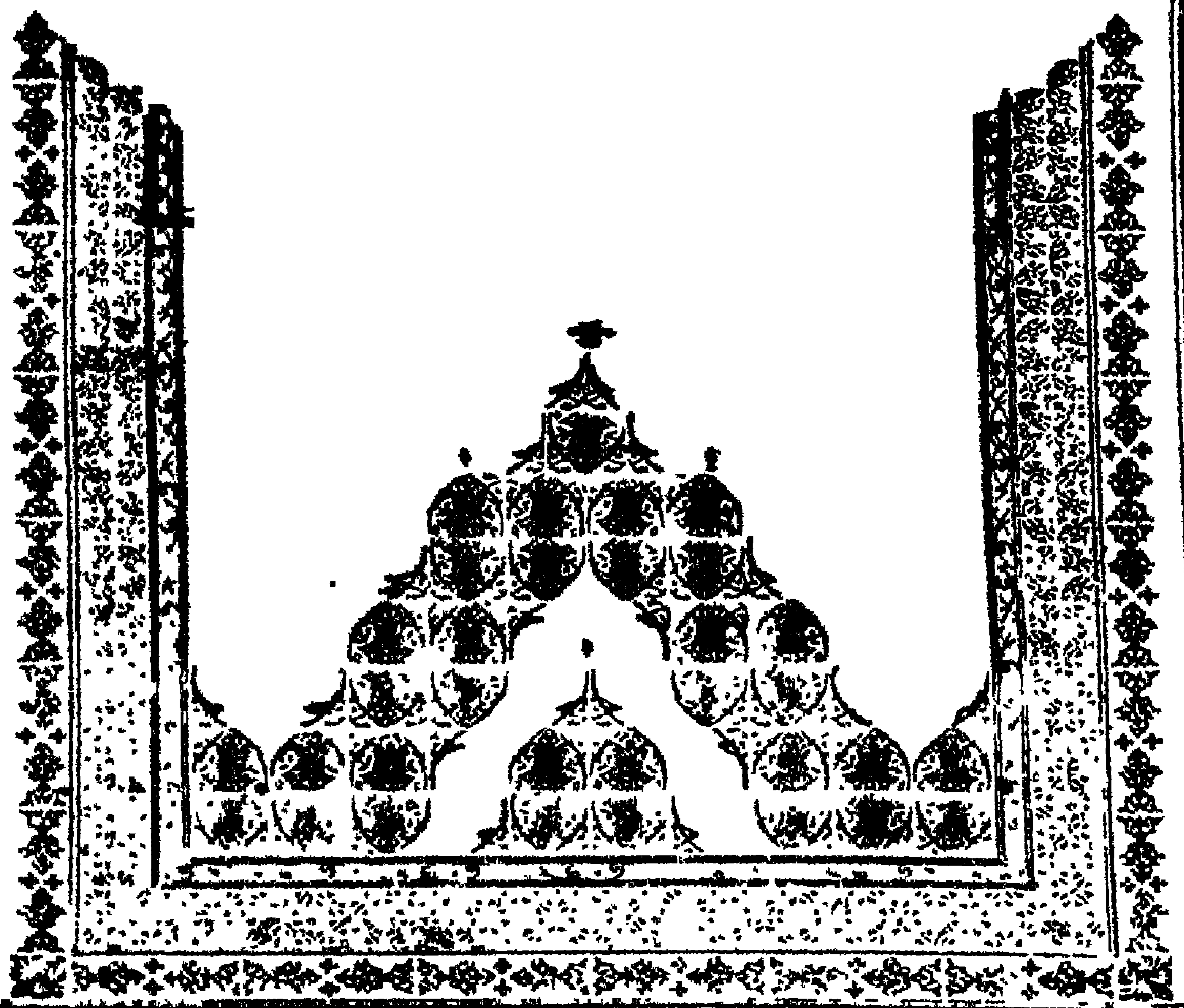
صحيفه

تمت فهرسة الجزء الاول من كتاب نفح الطيب

الجزء الاول من كتاب نفح الطيب
من غصن الاندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان
الدين بن الخطيب

تأليف العلامة

المقرى رحمه



* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

يقول العبد الفقير * الذليل المضطر الحقير * من هو من صالح الاعمال عرى * أحمد بن محمد
الشهير بالمقرى * المغربي المالكي الاشعرى * أصلح الله تعالى حاله * وجعل في مرضاته
حله وترحاله * وسحائب غيث الطاعة والرضوان أخاله * وأنجح ببلوغ آماله اقتضاءه واقتباله
* (أحمد) من عرّف من حلى الامصار وعلى الاعيان * على تداول الاعصار وتناول
الاحيان * ما فيه ذكرى لاولى الابصار وارشاد الى معرفة الديان * واعتبار
بأخبار راع وصفها أوراق * (وشرّف من صرف المطامح والمطامع * الى تحصيل
ما أفاد لسان الدين من كلم جوامع * وتحصيل ما أجاد من حكم بوالغ سحب بلا انتها
هوامع * واقتفاء آثار المهتدين التي تشنفت بدررها اللوامع الآذان والمسامع *
من كل مقصر عن رتبة البراعة أوراق * (حتى توج الخطيب المجيد رؤس المنابر
بفرائد الكلام * وحلى الكاتب الاديب المجيد صدور المزابر من فوائد الاعلام * وكحل
الحكيم الطبيب الاريب المفيد من اثمد المحابر بمراود الاقلام * عيون أوراق * (وأشهد
أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الذى ابتدأ الخلق من غير مثال وبرا * وقسم العباد الى
حاضر وباد وظاهر وخامل وقاصر وكامل تشير اليه بالانامل أيدى الكبرا * وأبدى
في اختلاف ذواتهم وأعراضهم وتباين أدواتهم وأغراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم
وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم ومناسبهم عبرا * وجعل الدنيا من أتى

صغرا

صغيرا أو كبيرا * ولبس منهم مسوحا أو حبرا * أو أخلد الى الارض أو صعد منبرا * جسرا الى الآخرة ومعبرا * وحكم دهره الفاعل المختار فى الجميع بالموت فكان لمبتداهم خبرا * فياله من داء أعيا كل معالج أو راق * (فسبحانه من اله انفرد بوجوب القدم والبقا واختص بفضله من شاء فرقى وعم تعالى ذوى السعادة والشقا بالحدوث والفنا * وأذاق من فراق الدنيا كل من فيها بلا استثنا من وفق فنفى عن جفنه وسنا * او خذل فجرى فى ميدان الاغترار رسنا * وزين له عياذا بالله سوء عمله فرآه حسنا * ظلم شعوب المتزايد * فلم يغن منه عن ذوى الغنى والغنا * واهل السناء والسنا * من استظهروا به من ارباب الصوارم والقنا * وأصحاب النظم والنثر والجدال والفخر والمدح والثنا * فأولئك ألقوا السلاح مذعنين مستبصرين موقنين اذ جاء الحق وزهق الباطل وولى الامترا * وهؤلاء تركوا الاصطلاح معلنين عالمين أنهم لم يكونوا فى التمويه محسنين وكيف لا وقد اضمحل الغرور والاجترا * وذهب والله الجور والافترا * وبدل مذق الاطراء بصدق الاطراق * (وأشكره جل وعلا على أن علم بالقلم ما لم نعلم * ونبه بآثاره الدالة على اقتداره الى سلوك الطريق الاقوم الواضح المعلم * وأرشد من أشرق فكره وأضا الى التفويض لاحكام القضا ومن ذا يرد ما أمضى أو ينقض ما أبرم * والتسليم على كل حال أسلم * وأمر جل اسمه بالتدبر فى أنباء من مضى والنظر فى عواقب احوال الذين زال امرهم وانقضى من صنوف الامم * ووبخ من دياقله بالاعراض عن ذلك وأظلم * وشتان ما بين اللاهى والمتذكر والساهى والمتفكر والناجى والهالك المتحير والداجى الحالك والمشرق النير * وما يستوى الظل والحرور والحزن والسرور والظلمات والنور ذو البهجة والاشراق * (وأصلى ازكى الصلاة والسلام هدية لحضرة سيد الانام ولبنة التمام من زويت له من الارض المغارب والمشارق * وتم به نظام انبياء الله ورسله العظام وأزاح نوره الضلال والظلام حتى اضاءت بوسمه المساجد وازدانت باسمه المهارق * وألقى الموفق الموافق لدعوته يد الاستسلام وذلك شأن ذوى العقول الراجحة والاحلام غير خائف من عتب ولا مترقب لملام فأمن من الطوارئ والطوارق * وتمت كلمة الاسلام الذى اتضح برهانه لذى بصر وبصيرة لا يحتاج الى زيادة الاعلام وعلت سيوف توحيد الملك العلام * من المعاند المفارق المفارق * وخضبتها بحناء النجيع الرقراق * (النبى الامى الامين الداعى جميع العالمين الى سلوك منهاج ماله من هاج ذى أضواء شوارق * سيد الرسل الغر الميامين ملجأ الامة جعلنا الله ممن نجا بالتجا اليه آمين الذى أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وانشق له الزبرقان ونبع الماء من بين أصابعه زيادة فى الايقان * وسلمت عليه الاحجار وانقادت لامره الاشجار متفيئة ظلاله الشريفة وخطت فى الارض أسطرا مبدعة الاتقان الى غير ذلك من معجزاته الخوارق * فهو صاحب الدعوة الجامعه والبراهين الدامعه والادلة التى سقت الثمرة الطيبة غيوثها النافعه الصيبة الهامية الهامعة الصادقة البوارق * فأثمرت النجاة والفوز والفلاح وأورقت بالهدى أحسن

اشراق * (أسنى رسول بعث الى الارض وأعظمهم جلاله * وأكثرهم تابعا في الطول منها والعرض ولا وقد ظهر به الحق لمن أمّه مسترشدا وجلاله * وأسنى من سا بتبيين السنة والفرض وأعمهم دلاله * منقذ البرايا في الدنيا ويوم العرض الآخذ بحجزهم عن النار والضلاله * الداعي الى تقديم الخير وحسن القرض الحريص على هداية الخلق المبلغ لهم أحكام الحق من غير ضجر ولا ملاله * ذو الفضل العظيم الذي لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان والمجد الصميم الثابت الاصول الباسق الافنان المنتقى من محتد معد بن عدنان المنتخب من خير عنصر وأطهر سلاله * شفيعنا وملاذنا وعصمتنا ومعاذنا وثمالنا الذي نجحت به آمالنا وزكت أقوالنا وأعمالنا * ووسيلتنا الكبرى وعمدتنا العظمى في الاولى والاخرى وكنزنا الذي أعددناه لازاحة الغموم ذخرا * وغيثنا وغوثنا وسيدنا ونبينا ومولانا محمد الطيب المنابت والاعراق * (صلى الله وسلم عليه ووجه وفود التعظيم اليه من مفرد في جلاله صار بجمع الانبياء عاما * وفذ في كماله تقدم في حضرة التقديس التي أسست على التشريف أعظم تأسيس بالمرسلين اماما * وصدر تحلى بجميل الاوصاف كالوفاء والعفاف والصدق والانصاف فزكى في أعماله وبلغ اراجي منتهى آماله ولم يخلف وعدا ولم يخفر ذماما * وسيد تسمى حلل العصمه من كل مخالفة وذنب ووصمه فلم يصرف لغير طاعة مولاه الذي أولاه من التفضيل ما أولاه اهتبالا واهتماما * وعلى آله وعترته الناشرين بأثره أنصار الدين والمهاجرين المهتدين وأشياعه وذريته الطالعين نجوما في سماء شهرته وأتباعهم القائمين بحقوق نصرته * أرباب العقل الرصين الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المعقل الحصين حتى بلغت أحكام ملته وأعلام بعثته من بالاندلس والصين فضلا عن الشأم والعراق * (ورضي الله تعالى عن علماء أمته المتضلعين في جميع العلوم والفنون وعظماء سنته الموفين لطلاب بالآراب المحققين لهم الظنون * وحكماء شريعته المتبصرين بحدوث من مرت عليه الايام والشهور وكرت عليه الآناء والدهور والاعوام والسنون * المتدبرين في عواقب من كان بهذه البسيطة من السكان المتذكرين على قدر الامكان عن طحنته رحى المنون * من أملاك العصور الخاليه وملاك القصور العاليه وذوي الاحوال التي هي بسلوك الاختلاف حاليه * من بصير وأعمى وفقير وذي نعما ومختال تردى بكبريائه ومحتال على ما بأيدي الناس بسمعته وريائه * وعاقل أحسن العمل وغافل افتتن بالامل * وكارع في حياض الشريعه ورائع برياض الآداب المريعه وذي ورع سد عما رابه الذريعه وأخي طمع في أن يدرك آرابه من الدنيا الوشيكة الزوال السريعه * ومقتبس من نبراس الروايه وملتبس بأدناس الغوايه * وشاعر هام في كل واد وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الرواد * وجاهل عمر الخراب وخدع بالسراب عن أعذب الشراب * ومحقق علم أنه اذا جاء القدر عمي البصر عمن كان أحذر من غراب وموفق تيقن أن غير الله فان وكل الذي فوق التراب تراب * ومن متخلق متجرد تصوف ومتعلق متفرد تشوق الى ما فيه رضا الرب وتشوف وناه ذكر بأيام الله

ووعظ

ووعظ وخوّف * ولا اغترّ بالباطل فهو بالحق عاطل وطالما أخّره وسوّف * وأبعد الانتجاع ثم أوى من باطنه الى بيت قعيدته لكاع نفس أمّارة بعد ما طوّف * ومن مادح نظم الآل لا نظم اللآل وكادح طمس لألاء العز بظلمة ذل السؤال * يعلّق القصائد مصايد والرسائل وسائل والمقطعات مرقعات فآل أمره الى ما آل * ومن مخبر بما سمع ورأى حين اغترب عن مكانه ونأى أو أقام في أوطانه فبلغ ما قدر ورأى * ومن مجازف لا يفرق بين الغث والسمين والامرار والاحلاء * وعارف ثقة أمين انتظم درّ الصدف الثمين في أسلاك الكتابة والاملاء * وعاشق خنساء فكره ذات الصدار من الشجون والشعار تبكي على صخر قلب المحبوب * وتذكره كلما طلعت شمس أركان الصبا حبوب فتأتي بما يطفئ وقود الجوى المشبوب * من بحار الاشعار * وليلى شوقه العفيفة عن العار ترفل في ثوب من التصبر معار وقيس توقه من ثوب السلو عار * قد تولّه واشتاق خصوصا عند انتشاق البشام والعرار * وقلق لما أرق فلم يقرّ به قرار * فاعتراه ما براه وألف البكاء بحكم الاضطرار * ولبس ثياب النحول والاصفرار وأسر لما هزمت جيوش صبره وأزمعت الفرار * فصيره ما شجاه وسأل النجاء من أسر الفراق

سبحان من قسم الحظو * ظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأعشى ثم ذو * بصر وزرقاء اليمامه
ومسدد أو حائر * أو جائر يشكو ظلامه
لولا استقامة من هدا * ه لما تبينت العلامه
ويجاوز الغرر الخفيف له البشارة بالسلامه
وأخو النجا في سائر الانفاس مرتقب حمامه
وكما مضى من قبله * يمضي ولم يقض التزامه
والجاهل المغتر من * لم يجعل التقوى اغتنامه
فليرفض العصيان من * يخشى من الله انتقامه
وليعتبر بسواه من * لصلاحه صرف اهتمامه
فالعيش في الدنيا الدنية غير مرجو الادامه
من أرضعته ثديها * في سرعة تبدي فطامه
من عز جانبه بها * تنوي على الفور اهتضامه
واذا نظرت فأين من * منعته أو منحت مرامه
ومن الذي وهبته وصلا ثم لم يخش انصرامه
ومن الذي مدت له * حبلا فلم يخف انفصامه
كم واحد غرته اذ * سرته مخفية الدمامه
قعدت به من حيث لم * يعلم فلم يطق قيامه
أين الذين قلوبهم * كانت بها ذات استهامه

أين الذين تفيؤوا * ظل السيادة والزعامه
أين الملوك ذوو الريا * سة والسياسة والصرامه
وبنو أميـــــة حين جمع عصرهم لهم فخامه
وتمكــنوا ممن يحا * ول نقض ما شاؤوا ابرامه
ونشـــــتوا المبدا * لهم محيا الارض شامه
وتأملوا وجه البســــيطة فانتوا يهوون شامه
حتى تقلص ظلهم * وأراهم الدهر اخترامه
أين الخلائف من بني الـــــعباس والبر التسامه
أين الرشـــيد وأهله * وبنوه أصحاب الشهامه
ووزيره يحيى وجعـــــفر ابنه الراوي احتشامه
والفضل مدفي من يقو * ل لمن يلوم على الندى مه
أم أين عنـــترة الشجا * ع وذو الجدى كعب بن مامه
والزاعمون بجهلهم * أن القبور صدى وهامه
والمكثرون من الجنو * ن اذا اشتكا الفكر اهتمامه
أين القريض ومعبد * أو أشعب وأبو دلامه
أين الاولى هاموا بعـــــدى أو بثينة أو أمامه
وبكوا لفرط جواهم * والليل قد أرخى ظلامه
وتتبعوا آثار من * عشقوا بنجد أو تهامه
وتعللوا والشوق يغـــــلب بالاراك والبشامه
أضحى النوى فيما فتا * ى لا بها أغرى غرامه
وغوى هوى غيلان مذ * أبدى بمية هيامه
أين الاكاسر والقيا * صرة الخيلون القمامه
أين الذى الهرمان من * بنيانه الحاكي اعتزامه
أم أين غمدان وسيــــف والوفود به أمامه
أين الخورنق والسديـــــر ومن ثوى بهما أقامه
ومدائن الاسكندر الـــــلاتي لها أعلى دعامه
أين الحصون ومن يصو * ن بها من الاعدا احتطامه
أين المراكــب والموا * كب والعصائب والعمامه
أين العساكر والدسا * كر والنداى فى المدامه
وسقاتها المتلاعبو * ن بلب من أعطوه جامه
من كل أهيف يزدرى * بالغصن ان يهزز قوامه
ذى غرة لألاؤها * تمحو عن النادى ظلامه
فالشمس فى أزراره * والبدر فى يده قلامه

يصمي القلوب ادارى * عن قوس حاجبه سهامه
ويروق حسنا ان رنا * و يفوق آراما براسه
أنى لها ثغر حلا * ذوقا لمن رام التثامه
أنى لها وجه يشب بقلب مبصره ضرامه
أستغفر الله للغو ولا يرى الشرع اعتيامه
بل أين أرباب العلو * م أولو التصدر والامامه
وذوو الوزارة والحجا * بة والكتابة والعلامه
كل ثمة سكنوا بأندلس فلم يشكوا سآمه
هي جنة الدنيا التي * قد أذكرت دار المقامه
لا سيما غرناطة الغراء رائقة الوسامه
وهي التي دعيت دمشق وحسبها هذا فخامه
لنزول أهليها بها * اذ أظهر الكفران هزامه
وأتت جيوش الشام من * باب تقي الفتح انبهامه
فسلوا بها عن جلق * اذ أشبهتها في الفخامه
وبدا لهم وجه المنى * وأراهم الثغر ابتسامه
وتبوءوها حضرة * تبرى من المضنى سقامه
بروائها وبمائها * وهوائها النافي الوخامه
ورياضها المهتزة الاعطاف من شدو الحمامه
وبعربجها النضر الذي * قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزهر التي * يأبى بها الحسن انقسامه
ياليت شعرى أين من * أمضى بها الملك احتكامه
وأتيح في حمرائها * عز ابه زان اتسامه
أين الوزير ابن الخطيب بها فما أحلى كلامه
فلكم أبان العدل في * أرجائها وبها أقامه
ولكم أجار عدا وكم * أجرى ندى والى انسجامه
راعت صروف الدهر دو * لته وما راعت ذمامه
حتى نوى اثر النوى * في حفرة نثرت نظامه
من زارها في أرض فا * س أذهبت شجوا امنامه
اذ نبهته لكل شمل شتت الموت التئامه
هذا لسان الدين أسكته وأسكنه رجامه
ومحا عبارته فمن * حياه لم يردد سلامه
فكأنه ما أمسك القلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يعل متن مطهم بارى النعامه

وكأنه لم يرقها * رب الاعتزاز ولا سنامه
وكأنه لم يجل وجهها حاز من بشر تمامه
وكأنه ما جال في * أمر ولا نهي وسامه
وكأنه ما نال من * ملك حباه ولا احترامه
وكأنه لم يلق في * يده لتدبير زمامه
مذ فارق الدنيا وقوض عن منازلها خيامه
أمسى بقبر مفردا * والترب قد جمعت عظامه
من بعد تنبية الوزا * رة بيادة صوب الغمامه
لم يبق الا ذكره * كالزهر مفتر الكمامه
والعمر مثل الضيف أو * كالطيف ليس له اقامه
والموت حتم ثم بعد الموت أهوال القيامه
والمرء يجزى عن * أعمال ميل واستقامه
فذووالسعادة يضحكو * ن وغيرهم يبكى ندامه
والله يفعل فيهم * ما شاء ذلا أو كرامه
ويشفع المختار فيهم حين يبعثه مقامه
وعليه خير صلاته * مع صحبه تتلو سلامه
والتابعين ومن بدا * برق الرشاد له فشامه
ما فاز بالرضوان عبد كانت الحسنى ختامه

والله سبحانه المسؤل في اسدرواتباة كرامته وحلما * فبيده الخير لا اله الا هو العلي الكبير العليم الخبير الذي أحاط بكل شئ علما * فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء من شمول قدرته على الشمول والاستغراق * (أما بعد) حمد الله مالك الملك * والصلاة على رسوله المنجي من الهلك * والرضا عن آله وصحبه الذين تجلت بأنوارهم الظلم الحلك * وعن العلماء الاعلام الخائضين بحار الكلام المستوين من بلاغته على الفلك * (فيقول العبد الحقير * المذنب الذي هو الى رحمة ربه الغني فقير * المقصر المتبرئ من الحول والقوه المتمسك بأذيال الخدمة للسنة والنبوه وذلك بفضل أمان وبراءه * الضعيف الفاني الخطاء الجاني من هو من لباس التقوى عري * أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقري * المغربي المالكي الاشعري التلمساني المولد المنشا والقراءه * نزيل فاس الباهره ثم مصر القاهره أصلح الله أحواله الباطنة والظاهره وجعله من ذوي الاوصاف الزكية والخلال الطاهره وسدد في كل قصد أنحاءه وآراءه * ووفقه بمنه وكرمه للاعمال الصالحه والطاعات الناجحة الراجحه والمتاجر المغبوطة الرابحه والمساعي الغادية بالخير الرائحه ووقاه ما بين يديه ووراءه * وكفاه مكر الكائد وافتراءه * وجدال الحاسد المتأسد ومراءه * وجعل فيما يرضيه سومه وشراءه * آمين انه المالك الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أورد * ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ود *

اشارة الى اول رحلة المؤلف من بلاده

برحلتي

برحلتي من بلادي ونقلتي عن محل طارفي وتلادي بقطر المغرب الاقصى * الذي تمت محاسنه لولا أن معاسرة الفتن باعت بضائع أمنه نقصا * وطما به بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيث في كامل رونقه من الزحاف اضمارا وقطعا ووقصا

قطر كأن نسيمه * نفحات كافور ومسك
وكأن زهر رياضه * در هوى من نظم سلك

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الالف تاركا المنصب والاهل والوطن والالف

بلد طاب لي به الانس حينا * وصفا العود فيه والابداء
فسقت عهده العهاد وروت * منه تلك المنوادي الانداء

وما عسى أن اذكر في اقليم * تعين تحية فضله التسليم

أصواؤه طيق المنى وهواؤه * يشتاقه الوالهان في الاسحار
والطبع معتدل فقل ماشئته * في الظل والازهار والانهار

محل فتح الكمائم * ومسقط الرأس وقطع التمائم

به كان الشباب اللدن غضا * ودهري كله زمن الربيع
ففرق بيننا زمن خؤون * له شغف بتفريق الجميع

لهوأنس تلك المواسم * التي أيامها للعمر مواسم * وثغورها بالسرور بواسم * فصرت أشير اليها وقد زمت للرحيل القلص الرواسم

ولنا بها تيك الديار مواسم * كانت تقام لطيبها الاسواق
وأبانا عنها الزمان بسرعة * وغدت تعللنا بها الاشواق

وأنشد قول غيلان

أمنزلتي مي سلام عليكما * هل الازمن اللاتي مضين رواجع

واغتنل في تلك الحدائق التي حمائمها سواجع بقول من جفونه من الهوى غير هواجع

تشدو بعيدان الرياض حمائم * شدو القيان عزفن بالاعواد
ماد النسيم بقضبها فتمايلت * مهتزة الاعطاف والاجياد
هذي تودع تلك توديع التي * قد آذنت منها بوشك بعاد
واستعبرت اقراتها عين الندى * فابتل مئزر عطفها المياد

وأحدق النظر الى روض * لانسان العين من فراقه في بحر الدموع سبح وخوض

روض به أشياء ليـ * ـست في سواه تؤلف
فمن الهزار ترنم * ومن القضيب تقطف
ومن النسيم تلطف * ومن الغدير تعطف

والتفت كالمستريب * والحي اذ ذاك قريب * وحديث العهد ليس بمنكر ولا غريب

أهذا ولما تمض للبين ساعة * فكيف اذا مرت عليه شهور

والآثار لائحة * والشمال غادية ورائحة

قوله واسأل الخ المحفوظ واسأل من بفرقتهم بلاني الخ ولعله الانسب بجمع الضمائر قبله وبعده تأمل اه مصححه

أرى آثارهم فأذوب شوقا * وأسكب من تذكرهم دموعي
وأسأل من قضى بفراق حبي * يمن عليّ منهم بالرجوع

والنفس متعلقة ببعض الانس * والمشاهد الحميدة لم تنس

تلك العهود بشدّها مختومة * عندي كما هي عقدها لم يحلل

غير أن الرحيل عن الربع المحيل * فصل به بين الشائق والمشوق وحيل

وقفنا بربع الحب والحب راحل * نحاول رجعاه لنا ونحاول
وألقت دموع العين فيه مسائلا * لها عن عبارات الغرام دلائل
وبالسفح منها كم سقيت لبانها * فيلته والسفح للبان مائل
اذا نسمة الاحباب منها تنسمت * تطيب بها أسحارنا والاصائل
تثير شجوني ساجعات غصونها * غناء على الطالين هاجت بلابل
مرابع ليلى في مرابع لذتي * مطالع أقماري بها والمنازل

فياها الله من منازل ذات أقمار سافرة فيها ومنازه لايستمي الواصف محاسنها وامداح أهلها ولايستوفيها

سلوا عقود اصطباري عند ما رحلوا * وفي الخمائل سلوا قبل أمطار
ان المنازل قد كانت منازه اذ * بانوا بها وهي أوطاني وأوطاري

ورعى الله من بان * وشاق حتى الرند والبان

بانوا لعيني أقمارا تذلهم * لدن الغصون فلما آنسوا بانوا
عهودهم لست أنساها وكيف وقد * رق لعيني عنها الرند والبان

وفي مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرقاق كما قال حائز قصب السبق بالاستحقاق الاديب الاندلسي الشهير بابن الزقاق

وقفت على الربوع ولي حنين * لساكنهن ليس الى الربوع
ولو أني حننت الى مغاني * احبائي حننت على ضلوعي

وكما قال بعض من له في هذه الشعاب مسير

دخولك من باب الهوى ان اردته * يسير ولكن الخروج عسير

وأين من له صفاة لايطمع الدهر القوي في نحتها وجنات دنيوية لاتجري أنهار الفراق من تحتها

فسقى رضيع النبت من ذاك الحمى * بحيا تدور على الربا كاساته
سفح سفحت عليه دمعي في ثرى * كالمسك ضاع من القناة قناته

ولم أزل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق * واتصالي في اثر ذلك الجمع بالفرق

احن اذا خلوت الى زمان * تقضى لي بأفنية الربوع
وأذكر طيب أيام تولت * لنا فتفيض من أسف دموعي

وأتوق وقد اتسع من البعد الخرق * وخصوصا اذا شدا صادح أو ومض برق * الى ديار لايعدوها اختيار

واربع أحباب اذا ما ذكرتها * بكيت وقد يبكيك ما أنت ذاكر
بطاح وأدواح يروقك حسنها * بكل خليج نمقته الازاهر
فما هو الا فضة في زبرجد * تساقط فيه اللؤلؤ المتناثر
بحيث الصبا والتربة والماء والهوى * عبير وكافور وراح وعاطر
وما جنة الدنيا سوى ما وصفته * وما ثم منه الحسن نجد وحاجر
بلادي التي اهلي بها واحبتي * وروحي وقلبي والمنى والخواطر
تذكرني أنجادها ووهادها * عهودا مضت لي وهي خضر نواضر
اذ العيش صاف والزمان مساعد * فلا العيش ممطول ولا الدهر جائر
بحيث ليالينا كغض شبابنا * وايامنا سلك ونحن جواهر
ليالي كانت للشبيبة دولة * بها ملك اللذات ناه وآمر
سلام على تلك العهود فانها * موارد أفراح تلتها مصادر

وأتذكر تلك الايام * التي مرت كالاحلام * فأتمثل بقول بعض الاكابر الاعلام

يا ديار السرور لا زال يبكي * فيك اذ تضحك الرياض غمام
رب عيش صحبته فيك غض * وعيون الفراق عنا نيام
في ليال كأنهن أمان * في زمان كأنه أحلام
وكأن الاوقات فيك كؤس * دائرات وأنهن مدام
زمن مسعد وألف وصول * ومنى تستلذها الاوهام

وبقول الخائف الامي * عندما يكثر شجوي وغمي

لم أنس أياما مضت ولياليا * سلفت وعيشا بالصريم تصرما
اذ نحن لا نخشى الرقيب ولم نخف * صرف الزمان ولا نطيع اللوما
والعيش غض والحواسد نوم * عنا وعين البين قد كلت عمى
في روضة أبدت ثغور زهورها * لما بكى فيها الغمام تبسما
مد الربيع على الخمائل نوره * فيها فأصبح كالخيام مخيما
تبدو الاقاحي مثل ثغر اشنب * اضحى المحب به كئيبا مغرما
وعيون نرجسها كاعين غادة * ترنو فترمي باللواحظ اسهما
وكذلك المنثور منثور بها * لما رأى ورد الخدود منظما
والطير تصدح في فروع فنونها * سحرا فتوقظ بالهديل النوما

وأميل * الى بلاد محياها جميل

كساها الحيا برد الشباب فانها * بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكانما * قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا الوي على رشد ناصح * عناني ولا أثنيه عن غي لائم
أنال سهادي من عيون نواعس * واجني مرادي من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف * من النهر ينساب انسياب الاراقم

تمر الينا ثم عنا كأنها * حواسد تمشى بيننا بالنمائم
وبتنا ولا واش نخاف كأنما * حللنا مكان السر من صدر كاتم

وأفضوا الى قصور ذات بهجة * وصروح توضح معالمها للرائد نهجه

ورياض تختال منها غصون * فى برود من زهرها وعقود
فكأن الادواح فيها غوان * تتبارى زهوا بحسن القدود
وكأن الاطيار فيها قيان * تتغنى فى كل عود بعود
وكأن الازهار فى حومة الرو * ض سيوف تسل تحت بنود

وأصبوا الى بطاح وأدواح * تروح النفوس والارواح

سقيا لها من بطاح خز * ودوح زهر بها مطلة
اذ لا ترى غير وجه شمس * اطل فيه عذار ظله

وانهار جارية * وأزهار فواسها سارية * واربع وملاعب * تزيح عن مصرها المتاعب

تلك المنازل والملا * عب لا أراها الله محلا
أوطنتها زمن الصبا * وجعلت فيها لى محلا
حيث التفت رأيت ما * ءا سائحا ورأيت ظلا
والنهر يفصل بين زهـ * ـر الروض فى الشطين فصلا
كبساط وشى جردت * ايدى القيون عليه نصلا

والى منازل يستوقف حسنها الرائق الجاد والهازل * ويشفى عطرها عليلا * ويكون نشرها للمستفهم دليلا

وجنات ألفتها حين غنت * حولها الورق بكرة وأصيلا
نهرها مسرى سرى وشت * فى رباها الصبا قبيلا دليلا

وتمثلت ان ذكرت حمى وداعى * بقول الشاعر الاديب الوداعى

الغرب خير وعند ساكنه * امانة اوجبت تقدمه
فالشمس من نيره عندهم * يودع ديناره ودرهمه

وبقول غيره * اشارة لفضل الغرب وخيره

اشتاق الغرب واصبو الى * معاهد فيه وعصر الصبا
ياصاحبى نجواى والليل قد * ارخى جلابيب الدجى وخبا
لا تعجبا من ناظر ساهر * بات يراعى [illegible]
القلب فى آثارها طائر * لما رآها تقصد المغربا

وأهيم كلما حللت من غير أن أرى بمكان * وقد صير السائق جدا اسير معمولا لما سلف كما جعله خبر الكان * بقول قاضى القضاة العالم الكبير الشمس بن خلكان

أى ليل على المحب اطاله * سائق الظعن يوم زم جماله
يزجر العيس طاويا يقطع المهـ * ـمه عسفا سهوله ورماله
أيها السائق المجد ترفق * بالمطايا فقد سئمن ارتحاله

وأشجها هيهة وأرحها * اذبراها السرى وفرط الكلاله
لا تطل سيرها العنيف فقد برّ ح بالصب في سراها الاطاله
وارث لنازح الذى اذ رأى ربـ * ـعا ثوى فيه نادبا أطلاله
يسأل الربع عن ظباء المصلى * ما على الربع لو أجاب سؤاله
وبحال من المحيل جواب * غير أن الوقوف فيه علاله
هذه سنة المحبين يبكو * ن على كل منزل لا محاله
يا ديار الاحباب لا زالت الاعـ * ـين فى ترب ساحتيك مذاله
وتمشى النسيم وهو عليل * فى مغانيك ساحبا أذياله
أين عيش مضى لنا فيك ما أسـ * ـرع لما انقضى ذهابه وزواله
حيث وجه الزمان طلق نضير * والتدانى غصونه مياله
ولنا فيك طيب أوقات أنس * ليتنا فى المنام نلقى مثاله
وأردد قول الذى سحر الالباب * مناديا من له من الاحباب
أحبابنا لو لقيتم فى اقامتكم * من الصبابة ما لاقيت فى الظعن
لاصبح البحر من أنفاسكم يبسا * كالبر من أدمعى ينشق بالسفن
وقوله
وما انفصرت عن ذاك الوداد ولا * حالت بى الحال فى عهدى وميثاقى
ذرى غرامى بكم دهرى أكرره * وقد تفنّنت فى وجدى وأشواقى
وقول المجد بن شمس الخلافه معلما أنه لا يريد بدل معهده وخلافه
يا زمان الهوى عليك السلام * وعلى السلو عنك حرام
أى عيش قطعته فيك لو دا * م وهل يرتجى لظل دوام
كنت حلما والعيش فيك خيالا * وسريعا ما تنقضى الاحلام
لهف نفسى على ليال تقضت * سلبتنى برودها الايام
فطمتنى الاقدار عنها وليدا * وشديد على الوليد الفطام
لا تلمنى على البكاء عليها * من بكى شجوه فليس يلام
وقول أبى طاهر الخطيب الموصلى
حى نجدا عنى ومن حل نجدا * أربعا هجن لى غراما ووجدا
واقرعنى السلام آرام ذاك الشعب والاجرع الخصيب الندى
وابك عنى حتى ترنح بالوجـ * ـد أراكا به وبانا ورندا
فلكم وقفة اطلت على الضا * ل بدمع اذاع سرى وأبدى
وعلى البان كم من البين أذريـ * ـت لآلى للدمع مثنى ووحدا
آه والهفتى على طيب عيش * كنت قطعته وصالا وودا
حيث عود الشباب غض نضير * ويد المكرمات بالجود تندى
والخليل الودود ينعم اسعا * فا وصرف الزمان يزداد بعدا

والليالى مساعدات على الوصل وعين الرقيب اذ ذاك رمدا
كم بها من لبانة لى وأوطا * ر تقضت وجازت الحد حدا
فاستعاد الزمان ما كان أعطى * خلسة لى بخله واستردا

وقول بعضهم

سلام على تلك المعاهد انها * شريعة وردى أو مهب شمالى
ليالى لم نحذر حزون قطيعة * ولم نمش الا فى سهول وصال
فقد صرت أرضى من نواحى جنابها * بخلب برق أو بطيف خيال

وقول الجرجانى

للمحبين من حذار الفراق * عبرات تجول بين المآقى
فاذا ما استقلت العيس للبين وسارت حداتها بالرفاق
استهلت على الخدود انحدارا * كانحدار الجمان فى الاتساق
كم محب يرى التجلد دينا * فهو يخفى من الهوى ما يلاقى
ازدهاه الهوى فأعرب بالوجد لسان عن دمعه المهراق
وانحدار الدموع فى موقف البين على الخد آية العشاق
هوّن الخطب لست أول صب * فضحته الدموع يوم الفراق

وقول الخطيب الحصكفى الشافعى

ساروا وأكبادنا بجرحى واعيننا * قرحى وأنفسنا سكرى من القلق
تشكو بواطننا من بعدهم حرقا * لكن ظواهرنا تشكو من الغرق
كأنهم فوق أكوار المطى وقد * سارت مقطرة فى حندس الغسق
درارى الزهر فى الابراج زاهرة * تسير فى الفلك الجارى على نسق
يا موحشى الدار مذ بانوا كما أنست * بقربهم لا خلت من صيب غدق
ان غبتم لم تغيبوا عن ضمائرنا * وان حضرتم جعلناكم على الحدق

وما أحسن قول بعضهم فى هذا المعنى الذى كثر ناذكره ويه ألممنا

سلام على أهل الوداد وعهدهم * اذ الانس روض والسرور رفون
وحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا * ففاضت لروعات الفراق عيون

وكم أنشدت وليالى النوى عاتمة قول الاندلسى ابن ساعة

أيا منزلا بالحى ما كان أخلاك
كم بت أرعاه اجلالا لرأرعاك
لا تنكرى وقفتى ذلا بمغناك
يا دار لولا أحبائى ولولاك * لما رقفت وقوف الهائم الباكى
فهل لهم عطفة من بعد دائهم
تالله ما تسمح الدنيا بمثلهم
اها لقلبى على تبديد شملهم

ما كان

ما كان أحلالنا أيام وصلهم * ويا ليالي الرضا ما كان أضوالك
يا بدر تم تناءت عنه أربعنا
ولم تزل تحتويه الدهر أضلعنا
ما للنوى بضروب البين يوجعنا
اذا تذكرت دهرا كان يجمعنا * تفطرت كبدي شوقا لمرآلك
أحباب أنفسنا كم ذا النوى وكم
ويا معاهد نجوانا بذي سلم
تالله ما شبت دمعا للاسى بدم
ولا لثمت تراب الارض من كرم * الا مراعاة خل ظل يرعالك
عل التعلل يدني منهم وعسى
فيعمر القرب ما بالبين قد درسا
كم ذا أنادي بربع بالنوى طمسا
يا قلب صبرا فان الصبر عاد أسى * ويا منازل سلمى اين سلمالك
وقول بعض من اشتد به الهيام تخاطب بحيرته ما دحا ليالي القرب وذاما تقلب الايام
أيام أنسي قد كانت بقربكم * بيضا فحين نأيتم أصبحت سودا
ذممت عيشي مذ فارقت أرضكم * من بعدما كان مغبوطا ومحسودا
وقول صاحب مصارع العشاق وقد شاقه من الهوى ما شاق
بانوا فادمع مقلتي * وجدا عليهم تستهل
وحدا بهم حادي الفرا * ق عن المنازل فاستقلوا
قل للذين ترحلوا * عن ناظري والقلب حلوا
ما ضرهم لو أنهلوا * من ماء وصلهم وعلوا
وقوله حين زحزحته يد الفراق عن أوطان العراق
قد قلت والعبرات تسفحها على الخد المآقي
حين انحدرت الى الجزيرة وانقطعت عن العراق
وتخبطت أيدي الرفا * ق مهامه البيد الرقاق
يا بؤس من سل الزما * ن عليه سيفا للفراق
وقوله أيضا
يا منزل الحي بذات النقا * سقاك دمع سد نأوا مارقا
هل سلوة هيهات لا سلوة * قد بلغ السيل الزبى وارتقى
وأنت يا يوم النوى عاجلا * أدال منك الله يوم اللقا
وقولي موطنا للثالث وقد تغير لي فيمن تغير حادث
لم أنس معهدنا والشمل مجتمع * والعيش غض وروض الانس معطار
فها أنا بعد بعده عنه في قلق * وقد نبت بي أرجاء وأقطار

تمني الليالي وأشواقي مجددة * وما انقضت لي من الاحباب أوطار

وكلما مررت بمرأى يروق لمعت لي من ناحية الغني بالمني بروق فتذكرت قول بعض من له على غيره من يهوى طروق

ما نظرت عيني سوا المنظرا * مستحسنا الا عرضت دونه

وما تمنيت لقاء غائب * الا سألت الله أن تكونه

ووجارت انحالي مذهب السلو وانحالي خلال أحوال الأمتي وارتحالي فلم ينتقل عن تلك الصفات حالي وأني وجيدي بتلك الأنداب البانات حالي

والشوق أعظم أن يحيط بوصفه * قلم وأن يطوى عليه كتاب

والله ما أنا منصف ان كان لي * عيش يطيب وعيرتي غياب

وكيف ولا ماقي صب ولا تواقي زادة اذا سرى نسيم أوهب

شربت ... * ... الوصل وهو ...

... * ...

... أو ترشاد حدا بي الى الهيام وساقني أو ... فلا ... راقني

واني ليصبيني سنا كل بارق * وكل حمام في الاراك ...

وأرتاح ... طي الفلاة اذا ربا * وأرتاح ... و...

ولم ... الأمر من حيث ذاته * ولكن لمعنى في الحبيب يلوح

ولا أستطيع الاعراب عن أمري الحبيب ... من الدوت المدهل والجوى المدهش الوجيب

ولا ... فليس لي * لسان يؤدي ما الغرام يقول

... البرق ... كلما * أضاء كأن البرق منه رسول

وما بال خداق النسيم يبلني * هل الريح راح والشمال ...

ادموع شوقي عند الذكرى لا ترقا وجفوني ليس لها من الأرق ... وشجوني ... اذا صدحت ... ورقا

رب ورقاء في الاراك تنادى * ... الميده

فتثير الهوى الذي ... * ... أم ... فؤاده

كلما رجعت توجعت حزنا * فكأني وجدت باتقاده

فيالها من ذات طوق مثيرة لكامن شوق ... من ... ذوق

ذكرتني الورقاء أيام أنس * سالفات فبت أذري الدموعا

ووصلت السهاد شوقا لحبي * وغراما وقد هجرت الهجوعا

كيف يحلو قلبي من الذكر يوما * وعلى حبهم حنيت الضلوعا

لما أولع العذول بعتبي * في هواهم يزداد قلبي ولوعا

وربما أتخيل قول من قال انها بالحزن ناحة وعلى فقد ... ...

وهو بالسلب مدنف وعليل

ورب حمامة في الدوح باتت * تجيد النوح فنا بعد فن
أقاسمها الهوى مهما اجتمعنا * فمنها النوح والعبرات مني

ولا غرو ان ظهر سر بائح فيا لمثلي من الشجو نائح

فرجعت بعد فراق أيام الهوى * أثر الصبابة للمحب المولع
دامي الجفون اذا الحمامة غردت * من فوق خوط البانة المترعرع
أسقي الديار وقد تباعد أهلها * عنها عزالي الدموع الهمع
ونواعب الاطلال ليس يجيبني * ما بينهن سوى الصدى بترجع
وهواتف فوق الغصون يجيبني * منهن تغريد الحمام السجع
ناحت على عذب الفروع والبها * منها برأي فوقها وبمسمع
ما فارقت الفا كما فارقته * كلا ولا أجرت سواكب أدمعي

على أوان عيون سعوده رواني وزمان معمور بأماني وأمان وآمال دوان وتهاني ما بين بكر وعوان وفي عذر من طال ليله فاضطرب فيه لوعه وسكن جواه بجوانحه وضلوعه

ان طال ليلي بعدهم فلطوله * عذر وذا لما أقاسي منهم
لم تسر فيه نجومه لكنها * وقفت لتسمع ما أحدث عنهم

فأرق الزائد في حرقتي أشهر المكنون وأبان ووجدي بمن نأى ربان لم يجد فيه تعلل برند وبان

نبهتني يا عذبات الرند * كم ذا الكرا هب نسيم نجد
فلست مثلي في جوى وأرق * وحرقة من فرقة أو صد
عوفيت مما حل بي من جيرة * في الغرب لم يرثوا لفرط وجدي
أعلل القلب ببان عنهم * وهل ينوب غصن عن قد
بانوا فلا مغنى السرور بعدهم * مغنى ولا عهد الرضا بعهد
آها من البعد ومن لم يدره * لم يشجه تأوهي للبعد

وفي شغل من ابكمه الربوع والطلول وذهبت برهة من زمانه بين الترحل والحلول فركب الاخطار الصعب والذلول وحافظ على العهود ولم يسلك سبيل الغادر الملول

سقاها الحيا من أربع وطلول * حكت دنفي من بعدهم ونحولي
ضمنت لها أجفان غير قريحة * من الدمع مدرار الشؤن همول

ومن الغريب الذي ينكره غير الاريب أن الحادي ان سر القلب بكشف رين فقد تسبب في اجتماع أمرين متنافيين متنافرين

ترنم حاد بالصريم فشاقني * الى ذكر من باتت ضلوعي تضمه
فسر وساء النفس تغريدا فربما * كلفت به من حيث صرت أذمه

وقد تبلت حيرمالت من طول السرى مضمناذ كرما أرومه تيسرا وقدأ كثر الرفاق ع

قوله عزالي الدموع يقرأ هكذا بتشديد الياء لاجل الوزن وان كان في كتب اللغة بفتح اللام مقصورا وبكسرها ساكن الياء جمع عزلاء كحمراء وهي فم المزادة الاسفل ولعل الاصل عزالي بالدموع فسقطت الباء من الناسخ فتدبر اهـ مصححه

رؤية مالم يأنسوه من الآفاق تلهفا وتحسرا

قلت لما طال النوى عن بلادى * ولأهل النوى حوى وعويل
هل أرى للفراق آخر عهد * ان عمر الفراق عمر طويل

ثم قلت مضمنا

لا تلمنى فى ذكر أحباب نأوا * لا تلم من أضعف الشوق قواه
ان يوما جامعا شملى بهم * ذاك عيدى ليس لى عيد سواه

ثم قلت مضمنا أيضا

لك الله من صب أضر به النوى * وليس له غير اللقاء طبيب
وان صباحا نلتقى بمسائه * صباح الى قلبى المشوق حبيب

ثم عدت الى التصبر بعد امعان النظر والتدبر

وانى لأدرى أن فى الصبر راحة * ولكن انفاقى على الصبر من عمرى
فلا تطف نار الشوق بالشوق طالما * سلوا فان الجمر يسعر بالجمر

ثم سلكت منهج التعويض والتسليم منشدا قول ابن قطرال المغربى فى مقام التعلل والتعليم ووجهت القصد الى سكان العقيق بذلك التكليم

ان أيام الرضا معدودة * والرضا أجمل شئ بالعبيد
لا تظنوا عنكم لى سلوة * ما على شوقى اليكم من مزيد
راجعوا أنفسكم تستيقنوا * أنكم فى الوقت أقصى ما أريد
ان يوما يجمع الله بكم * فيه شملى ذاك عندى يوم عيد

وقول بعض من ندم على البعد عن المعاهد وأمل العود والعود أحمد الى المشاهد وعذر الدهر ذنبه ان عاد وتلهف ان لم يعامله بغير الابعاد

لئن عاد جمع الشمل فى ذلك الحمى * غفرت لدهرى كل ذنب تقدما
وان لم يعد منيت نفسى بعودة * ومادا عسى تجدى الامانى وقلما
يحق لقلبى أن يذوب صبابة * وللعين أن تجرى مدامعها دما
على زمن ماض بهم قد قطعته * لبست به ثوب المسرة معلما

وقول آخر يخاطب أحبابه ويذكر فواصل بحر النوى الطويل وأسبابه

أعيذكم من لوعتى وشجونى * ونار جوى تذكى بماء شؤنى
وبرح أسى لم يبق فى بقية * سوى حركات تارة وسكون
أرى القلب أضحى بعد طارقة الاسى * أسير صبابات رهين شجون
وكيف سبيل القرب منكم ودونكم * رمال زرود والابارع دونى
سلوا مضجعى هل قر من بعد بعدكم * وهل عرفت طعم الرقاد جفونى
سمرنا بنعمان وعشتم ببابل * فيا لعيون ما وفت لعيون

وفى بعض الاحيان أتسلى بقول بعض الاندلسيين الاعيان

لا تكثرث بفراق أوطان الصبا * فعسى تنال بغيرهن سعودا

فالدر ينظم عند فقد بحاره * بجميل أجياد الحسان عقودا

وقول غيره

فعسى الليالى أن تمن بنظمنا * عقدا كما كان عليه وأكملا
فلربما نثر الجمان تعمدا * ليعاد أحسن فى النظام وأجملا

وأرغب لمن أطال ذيول الغربة أن يقلصها وأطلب ممن أجال النفوس فى سيول الكربة أن يخلصها

فنلتقى وعوادى الدهر غافلة * عما نروم وعقد البين محلول
والدار آنسة والشمل مجتمع * والطير صادحة والروض مطلول

وأضرع اليه سبحانه فى تيسير العود الى أوطانى ومعهدى الذى مطايا العز أوطانى وأن يلحقنى بذلك الافق الذى خيره موفور وحق من فيه معروف لا منكر ولا مكفور

اذا ظفرت من الدنيا بقربهم * فكل ذنب جناه الدهر مغفور

وكأنى بمعاتب يقول ما هذا التطويل فأقول له جوابى قول ابن أبى الاصبغ الذى عليه التعويل

أكثرت عذلى كأنى كنت اول من * بكى على مسكن أوحن للسكن
لا تلح ان من الايمان عند ذوى الايمان منا حنين النفس للوطن

على أنى أقول اللهم يسر لى ما فيه الخيرة لى بالمشارق أو المغارب وجد لى من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب بجاه نبينا وشفيعنا المبعوث رحمة للاحمر والاسود والاعاجم والاعارب عليه أفضل صلاة وأزكى سلام وعلى آله وأصحابه الاعلام والتابعين لهم باحسان ما ذر شارق وتعاقب طالع وغارب ثم جد بنا السير فى البر أياما وأنسانا عن الاوطان التى أطنبنا فى الحديث حبالها وهياما وكأن عن تفاعيل فضلها نياما الى أن ركبنا البحر وحللنا منه بين السحر والنحر وشاهدنا من أهواله وتنافى أحواله ما لا يعبر عنه ولا يبلغ له كنه

ركوب المؤلف البحر

البحر صعب المرام جدا * لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين * فما عسى صبرنا عليه

وكم استقبلنا أمواجه بوجوه بواسر وطارت النا من شراعه عقبان كواسر قد أزعجتها أكف الريح من وكرها كأنما نبهت اللجج من سكرها فلم تبق شيأ من قوتها ومكرها فسمعنا للجبال صفيرا وللرياح دويا عظيما وزفيرا وتيقنا أنا لا نجد من ذلك الافضل الله مجيرا وخفيرا واذا استحكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب فيتعدو يقترب وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق فتخال الجو يأخذ بنواصيها وتجذبها أيديه من قواصيها حتى كاد سطح الارض يكشف من خلالها وعنان السحب يخطف فى استقلالها وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها واذنت الاحوال

بعد انتظامها باختلالها وساءت الظنون وتراءت فى صورها المنون والشراع فى قراع مع جيوش الامواج التى أمدت منها الافواج بالافواج ونحن قعود كدود على عود ما بين فرادى وأزواج وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ونرست من الفرق ألسنتنا وتوهمنا أنه ليس فى الوجود أغوار ولا نجود الا السماء والماء وذات السفين ومن فى قبر جوفه دفين مع ترقب هجوم العدو فى الرواح والغدو لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب دمرالله سبحانه من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب لاسيما الدولة الملعونة التى يتحقق من خلص من معرتها أنه امتد بتأييد الهى ومعونة فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا فزادنا ذلك الحذر الذى لم يبق ولم يذر على ماوصفناه من هول البحر قلقا وأجرينا اذ ذاك فى ميدان الالقاء باليد الى التهلكة طلقا وتشتتت أفكارنا فرقا وذبنا أسى وندما وفرقا اذ البحر وحده لا كمى يقارعه ولا قوى يصارعه ولا شكل يضارعه لا يؤمن على كل حال ولا يفرق بين عاطل وحال ولا بين أعزل وشاكى ومتباك وباكى

ثلاثة ليس لها أمان * البحر والسلطان والزمان

فكيف وقد انضم اليه خوف العدو الغادر الخائن والكافر الحائن الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن وان نهى عنه وأخطأ اللائن فرأينا البر وكأنا قبل لم نره وشفيت به أعيننا من المره وحصل بعد الشدة الفرج وشممنا من السلامة أطيب الارج فيالها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب يقل شكر الهاصوم الاحقاب وعتق الرقاب جعلنا الله بآياته معتبرين وعلى طاعته مصطبرين ولم نخل فى البر من معاناة خطوب ومداراة وجوه للمتاعب ذات تجهم وقطوب فكم جبنا منه مهامه فيحا وسمنا بالنعال منها أديما وصفيحا وقلبنا الفجاج وقرأنا من الطرق خطوطا ذات استقامة واعوجاج وقلوب الرفقة من الفرقة فى اضطراب وارتجاج وربما عميت على المجتهد الادلة التى يعمل بها على المذهب الاحتجاج فترى الانفاس تعثر فى زفرة اشواق والاجسام قد زرت عليها من التعب الاطواق هذا والليل بصفحة البدر مرتاب قد شدت رحال وأقتاب وزمت ركائب ورفعت احداج وقربت من الدعة بعد بعد النصب أوداج وتساوى فى السير نهار مشرق وليل مقمر أوداج وأديم التأويب والاسئاد وحمل الغربة قد أثقل وآد ثم وصلنا بعد خوض بحار يدهش فيها الفكر ويحار وجوب فياف تجادل بضل فيها السالك الماهل الى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الاوجاع شاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والاسجاع وتملينا فى بدائعها التى لانستوفيها بقول ابن ناهض فيها

شاطئ مصر جنة * ما مثلها فى بلد

لاسيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد

وللرياح فوقه * سوابغ من زرد

مسرودة ما مسها * داود بها يسرد

سائلة وهو بها * يرعد عارى الجسد

وصولنا الى مصر المحروسة

والفلك دائر بين حادر ومصعد

وبقول آخر

انظر الى النيل الذى * ظهرت به آيات ربى
فكأنه فى فيضه * دمعى وفى الخفقان قلبى

وبقول أبى المكارم الخطير المعروف بابن مماتى فى جزيرتها

جزيرة مصر لاعدتك مسرة * ولازالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن قامة * يميت ويحيى هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجا * ومختلفات الموج فيك حبالها
ومن أعجب الاشياء أنك جنة * تمد على أهل الضلال ظلالها

لعله أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستولين اذ ذاك على الدولة وتذكرت فى مصر قول القاضى الفاضل

بالله قل للنيل عنى اننى * لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فانه لى شاهد * ان كان طرفى بالبكاء بخيلا
يا قلب كم خلفت ثم بثينة * وأظن صبرك أن يكون جميلا

وقول احمد بن فضل الله العمرى

لمصر فضل باهر * بعيشها الرغد النضر
فى سفح روض يلتقى * ماء الحياة والخضر

وقول آخر

كأن النيل ذو فهم ولب * لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم اليه * ويمضى حين يستغنون عنه

وقول آخر

ولله مجرى النيل منه اذا الصبا * أرتنا به من مرها عسكرا مجرا
بشط يهز السمهرية ذبلا * وموج يهز البيض هندية بترا
اذا مدها كى الورد لونا وان صفا * حكى ماءه لونا ولم يحكه مرا

وقول آخر

واها لهذا النيل أى عجيبة * بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى الماء وهو مسلم * حتى اذا ما مال عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهره * أبدا يزيد كما يزيد ويرجع

وقول ابن النقيب

الصب من بعدهم مفرد * ودمعه النيل وتعليقه
وخده لما بكاهم دما * مقياسه والدمع تخليقه

وقول التهندى

سقيا لمصر وما حوت * من أنسها وأناسها

ومحاسن في مقسمها * تبدو وفي مقياسها
ومسرة كاساتها * تجلى على أكياسها
وسطور قرط خطها الشبارى على قرطاسها
ودمى كأنسها ولا * تنسى ظباء كناسها
ولطافة بجلالة * تبدو على جلاسها
ونواسم كل المنى * للنفس في أنفاسها
ومراكب لعبت بها الامواج في وسواسها

وقول ابن جابر الاندلسى

مازلت أسند من محاسن أرضها * خبرا صحيحا ليس بالمقطوع
كم مرسل من نيلها ومسلسل * ومدبج من هضبها المرفوع

وقول ابراهيم بن عبدون

والنيل بين الجانبين كأنما * صدئت بصفحته صفيحة صيقل
يا نيل من كدر أزور أحرمته * بمسالك من مائه ومسلسل
فكأن ضوء البدر في تموجه * برق تموج في سحاب مسبل
وكأن نور السرح من جنباته * زهر الكواكب تحت ليل اليل
مثل الرياض منقشا أنواره * تبدو لعين مشبه وممثل

وقول ابن الصاحب

فرح الانام بنيلهم * اذ صار أحمر كالشقيق
وتبركوا بشروقه * فكأنه وادى العقيق

وقول آخر

احمر للنيل خده * حتى غدا كالشقيق
وقد ترعت فيه * اذ صار وادى العقيق

ثم شمرت عن ساعد العزم بعد الاقامة بمصر مدة قليلة الى المهم الاعظم والمقصد الاكبر الذى هو سر المطالب الجليلة وهو رؤية الحرمين الشريفين والعلمين المنيفين زادهما الله تنويها وبلغ النفوس ببركة من شرفا به ما آرب لم تزل تنويها فسافرت في البر الى الحجاز راجيا من الله سبحانه في الاجر الانجاز الى أن بلغت جدة بعد مكابدة خطوب اتخذت لها من الصبر عدة فحين حمل القرب واكتحلت العين باثمد تلك الترب ترنمت بقول من قال محرضا على الوخد والارقال

ذهاب المؤلف الى الحرمين

بدالك الحق فاقطع ظهر بيداء * واهجر مقالة أحباب وأعداء
واقصد على عزمة أرض الحجاز تجد * بعدا عن السخط في نزل الاوداء
وقل اذا نلت من أم القرى اربا * وهو الوصول باسرار وابداء
يا مكة الله قد مكنت لي حرما * مؤمنا لست أشكو فيه من داء
فذرأى النازح المسكين مسكنه * في قطرك الرحب لم يشكب بارداء

شوق الفؤاد الى مغناك متصل * شوق الرياض الى طل وأنداء

ثم أنشدت عندما بدت أعلام البيت الحرام قول بعض من غلب عليه الشوق والغرام وقد بلغ من أمانيه الموجبة بثائره وتهانيه المرام

وافى الحجيج الى البيت العتيق وقد * مضى الدجى فرأوا نورا به بزغا

حيوا تحيتنا وقالوا الله أكبر ما * للجوّ مؤتلقا بالنور قد صبغا

قال الدليل ألا هاتوا بشارتكم * نحن نوى كعبة الرحمن قد بلغا

نادوا على العيس بالأشواق وانتحبوا * وحن كل فؤاد نحوها وصغا

وكل من ذم فعلا نال محمدة * فى مكة ومحا ما قد جنى وبغى

ولما وقع بصرى على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود واستشعرت قول العارف بالله الشبلي لما وفد الى حضرة الجود

قلت للقلب اذ تراءى لعيني * رسم دارلهم فهاج اشتياقي

هذه دارهم وأنت محب * ما احتباس الدموع فى الآماق

والمغاني للصب فيها معاني * فهي تدعى مصارع العشاق

حل عقد الدموع واحلل رباها * واهجر الصبر وارع حق الفراق

ثم أكملت العمرة ودعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمره وذلك أوائل القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنية وأقمت هنالك منتظرا وقت الحج الشريف ومتفيأ ذلك الظل الوريف ومقتطفا ثمار القرب الجنية الى أن جاء الاوان فأحرمت بالحج من غير توان وحين حلت مما به أحرمت نويت الاقامة هنالك وأبرمت فحال من دون ذلك حائل وكنت حريا بأن أنشد قول القائل

هذى أباطح مكة حولى وما * جمعت مشاعرها من الحرمات

أدعو بها لبيك تلبية امرئ * يرجو الخلاص بها من الازمات

نلت المنى بمنى لانى لم أخف * بالخيف من ذنب أسال سماتي

وعرفت فى عرفات أنى ناشق * للعفو عرفا عاطر النسمات

وأن أتمثل فى المطاف اذ حفتنى الالطاف بقول من ربعه بالتقوى مشيد البغدادى المشهور بابن رشيد

على ربعهم لله بيت مبارك * اليه قلوب الناس تهوى وتهواه

يطوف به الجانى فيغفر ذنبه * ويسقط عنه جرمه وخطاياه

وكم لذة أو فرحة لطوافه * فلله ما أحلى الطواف وأهناه

ثم قصدنا بعد قضاء تلك الاوطار طيبة الشريفة التى لها الفضل على الاقطار واستشعرت قول من أنشد وطير عزمه عن أوكاره قد طار

حمدت مرادى اذ بلغت مرادى * بأم القرى مستمسكا بعمادى

ومذ رويت من ماء زمزم غلتى * فلست بمحتاج لماء ثماد

فلله سبحانه الحمد على نعمه التي جلت ومننه التي نزلت بها النفوس مواطن التشريف ونيلت

من يهده الرحمن خير هداية * يحلل بمكة كي يساح المقصدا
واذا قضى من حجة الفرض انثنى * يشفى برؤية طيبة داء الصدى

وكان حظى في هذه الحال تذكر قول بعض الوشاحين من الاندلسيين الذين كان اهم ارتحال الى تلك المعاهد الطاهرة والمشاهد الزاهرة التي تشد اليها الرحال

يا من لعبده افتقار الى أياديه جسام فضلك مدن لخير مدن حل بها سيد الانام
لم يهف قلبي لحب ليلى * ولا لسعاد ولا الرباب
لاقى شجونا ونال ويلا * من هام في ذلك الجناب
بل مال منى الفؤاد ميلا * لمن له الحب لا يعاب

قلبي والله مستطار مذ حل في بيته الحرام ذي الحجر والركن خير ركن وزمزم الخير والمقام
ذابت قلوب المطى عشقا ورَكبها ارا ستوى المراد
الى حبيب القلوب حقا * الحي والميت والجماد
الى الذى ليس فيه يشقى * من حبه داخل الفؤاد

شكوا وقد طالت السفار هم ومطاياهم السئام فهي قسى من التنائى والقوم من فوقها سهام
ولست من سكرتى مفيقا * حتى أرى حجرة الرسول
فان يسهل لى الطريقا * فذلك أقصى منى وسول
متى ترى عيني العقيقا * ويفرح القلب بالوصول

كم قلت والصبر مستعار للركب اذ غادروا المنام وسمه الشوق حركتني وزادني الوجد والغرام
قوموا فقد طال ذا الجلوس * وبادروا زورة الحبيب
تاقت الى طيبة النفوس * لا عيش من دونها يطيب
لاحبذا دونها الغروس * والماء والشادن الربيب

وحبذا الرمل والقفار والعرب في تلكم الخيام وأم غيلان ظل لتقي والايك والاثل والثمام
يا طيبة حزت كل طيب * بسيد فيك ذى حلول
نداء مستضعف غريب * في غز أمداحه يقول
وهو من السامع المجيب * لمدحه ينال القبول

أنت الغنى لى فلا افتقار وأنت عزى فلا أضام مستمسك منك حسن ظنى بعروة ما لها انفصام
بسيد العالمين أجمع * بأحمد المجتبى الرسول
ومن هو الشافع المشفع * في موقف المحشر المهول
اذ لا كلام هناك يسمع * للغير والناس في ذهول

اذ السماء لها انفطار والشهب منثورة النظام كذا الجبال انثنت كعهن سريعة المر كالغمام
يا أول الرسل في الفضيله * وان تأخرت في الزمن
شفاعة نات مع وسيله * فمن يضاهى علا لمن

علت بك الرتبة الجليلة * وطبت في السر والعلن
فأنت من خيرهم خيار فمن يضاهيك في المقام والرسل نالت بك التمني وأنت بدر لهم تمام

الوجد قد قر في فؤادي * فما لصبري به قرار
ولا تري ساعد اتقاد * ودمع عيني له انهمار
رها أناجئت من بلادي * لطيبة أبتغي الجوار

فحبذا تلكم الديار والمصطفى مسكة الختام عليه أزكى الصلاة مني وصحبه الغر والسلام
وقول أبي جعفر الرعيني الغرناطي رحمه الله تعالى وهو من التشريع أحد أنواع البديع

يا راحلا يبغي زيارة طيبة * نلت المنى بزيارة الاخيار
حي العقيق اذا وصلت وصف لنا * وادي منى يا طيب الاخبار
واذا وقفت لدى المعرف داعيا * زال العنا وظفرت بالاوطار

ولما من الله تعالى علينا بالحلول في المشاهد التي قام الدين بها وظهر والمعاهد التي بان الحق فيها واشتهر والمواطن التي هزم الله تعالى حزب الشيطان فيها وقهر ونصرت النبوة وعضدت وقطعت غصون الكفر وحصدت ورصت قواعد التوحيد ونضدت وقرت العيون وقضيت الديون أنشد لسان الحال قول بعض من جيده بمحاسن طيبة حال

يا من به طيبة طابت حلى وعلا * ومن بتشريفه قد شرف العرب
يا أحمد المصطفى قد جئت من بلد * قاص ولي خاد قاس ولي أرب
وقد دهتني ذنوب قلت اذ عظمت * لله منها وطه المرتجى الهرب

ونسينا بمشاهدة ذلك الجناب ما كافيه وسبق الدمع الذي لا يعارض الفرح ولا ينافيه

أيها المغرم المشوق هنيئا * ما أنالوك من لذيذ التلاقي
قل لعينيك تهملان سرورا * طالما أسعدا بيوم الفراق
واجمع الوجد والسرور ابتهاجا * وجميع الاشجان والاشواق
وأمر العين أن تفيض انهمالا * وتوالي بدمعها المهراق
هذه دارهم وأنت محب * ما بقاء الدموع في الآماق

وملنا عن الاكوار وغلنا من عرف تلك الانجاد والاغوار وغلينا من هاتيك الانوار وتخلينا عن الاغيار وتحلينا بحلى الاخيار وكيف لا وطيبة مركز للزوار

اذا لم تطب في طيبة عند طيب * به طيبة طابت فأين تطيب
وان لم يجب في أرضها ربنا الدعا * ففي أي أرض للدعاء يجيب
أيا ساكني أكناف طيبة كلكم * الى القلب من أجل الحبيب حبيب

وما أحسن قول عالم الاندلس المالكي اللبيب عبد الملك السلمي المشهور بابن حبيب

لله در عصابة صاحبتها * نحو المدينة تقطع الفلوات
ومهامه قد جبتها ومفاوز * مازلت أذكرها بطول حياتي
حتى أتينا القبر قبر محمد * خص الاله محمدا بصلات

خير البرية والنبي المصطفى * هادي الورى لطرائق النجاة
لما وقفت بقربه لسلامه * جادت دموعي واكف العبرات
ورأيت حجرته وموضعه الذي * قد كان يدعو فيه في الخلوات
مع روضة قد قال فيها انها * مشتقة من روضة الجنات
وبمنزل الانصار وسط قبابهم * بيت الهداية كاشف الغمرات
وبطيبة طابوا ونالوا رحمة * مغني الكتاب ومحكم الآيات
وبقبر حمزة والصحابة حوله * فاضت دموع العين منهمرات
سقيا لتلك معاهدا شاهدتها * وشهدتها بالخطو واللحظات
لازلت زوارا لقبر نبينا * ومدينة زهراء بالبركات
صلى الاله على النبي المصطفى * هادي البرية كاشف الكربات
وعلى ضجيعيه السلام مرددا * مالاح نور الحق في الظلمات

وقول كمال الدين ناظر قوص

أشم هذه والحمد لله يثرب * فبشر فقد نلت الذي كنت تطلب
فعفر بهذا الترب وجهك انه * أحق به من كل طيب وأطيب
وقبل ربوعا حولها قد تشرفت * بمن جاورت والشئ بالشئ يحبب
وسكن فؤادا لم يزل باشتياقه * اليها على جمر الغضى يتقلب
وكفكف دموعا طالما قد سفحتها * وبرد جوى نيرانه تتلهب

وقول الرعيني الغرناطي

هذه روضة الرسول فدعني * أبذل الدمع في الصعيد السعيد
لا تلمني على انسكاب دموعي * انما صنتها لهذا الصعيد

ولما سلمت على سيد الانام عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ذبت حياء وخجلا لما أنا عليه من ارتكاب ما يقتضي وجلا غير أني توسلت بجاهه صلى الله عليه وسلم في أن أكون ممن وضح له وجه الصفح وجلا

اليك أفر من زللي * فرار الخائف الوجل
وكان مزار قبرك بالـ * مدينة منتهى أملي
فوفى الله ما طمحت * له نفسي بلا خلل
فخذ بيدي غريق في * بحار القول والعمل
وهب لي منك عارفة * تعرف ما تنكر لي
وتهديني الى رشدي * وتمنعني من الزلل
وتحملني على سنن * يؤمنني من الوجل
فأنت دليل من عميت * عليه مسالك السبل
وانك شافع بر * ومؤملنا من الوهل
وانك خير مبتعث * وانك خاتم الرسل

فيا أزكى الورى شرفا * وشافيهم من العلل
ويا أندى الانام يدا * وأكرم ناصر وولى
نداء مقصر وجل * بثوب الفقر مشتمل
على جدوالـمعتدى * فأنقذنى من الدخل
وألحقنى بجنات * لدى درجاتها الاول
بصديق وفاروق * وعثمان الرضى وعلى
فأنت ملاذ معتصم * وأنت عماد متكل
عليك صلاة ربك جل فى الغدوات والاصل

ومذ شممنا من أرج تلك الارجاء الذاكية واستضأنا بسرج تلك الاضواء الزاكية طهر من الشوق ما كان بطن ولم يخطر ببالنا سكن ولا وطن وياسعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقطن

مر النسيم بربعهم فتلذذا
حتى كأن النشر صار له غذا
فصحا وصح وصاح لا أشكو أذى
قل للصبا ماذا حملت من الشذا * أمسست طيبا أم علاك عبير

يا أيها الحادى الذى من وسمه
قصد الحبيب وأن يلم برسمه
هذى منازله فزمزم باسمه
بأبى الذى لم تذو زهرة جسمه * لكنه غض الجمال نضير

لله شوق قد تجاوز حده
أوفى على الصبر المشيد فهده
يا ناشق الكافور لا تتعده
طوبى لمشتاق يعفر خده * فى روضة الهادى اليه بشير

فهناك يبذل فى التوسل وسعه
ويصيخ نحو خطيب طيبة سمعه
ويريق فوق حصى المصلى دمعه
ويرى معالم من يحب وربعه * ومحمد للعالمين بشير

صلى عليه الله خير صلاته
وحبا معاليه جليل صلاته
ما حن ذو الاشواق فى حالاته
وأتى مغانيه على علاته * فأتيح حسن الختم وهو قرير

ووقفنا بباب طاب الآمال خاشعين وتوسلنا الى الله بذلك المقام العلى خاضعين وغبطنا قوما سكنوا هنالك فكانوا الخدود هم متى شاءوا على تلك الاعتاب واضعين

أكرم بعبد نحو طيبة منتدى
متوسل مستشفع مسترشد
يفلى الفلاة لها بعزم أيد
وافى الى قبر النبى محمد * ولربعه الاسنى يروح ويغتدى
أزجاه صادق حبه المتمكن
وحداه سائق عزمه المتعين
فحكى لدى شجو حمام الاغصن
هزجا يردد فيه صوت ملحن * ويمد للاطراب صوت المنشد
ويقول جئت بعزمة نزاعة
ونهضت والدنيا تقر كساعة
لمحل أحمد قائلا باذاعة
هذا النبى المرتجى لشفاعة * يوم القيامة بين ذاك المشهد
هذا الرؤف بجاره ونزيله
هذا سراج الله فى تنزيله
هذا الذى لاريب فى تفضيله
هذا حبيب الله وابن خليله * هذا ابن بانى البيت أول مسجد
هذا الذى اصطفت النبوة خيمه
هذا الذى اعتام الهدى تقديمه
هذا الذى نسق غدا تسنيمه
هذا الذى جبريل كان خديمه * فى حضرة التشريف أزكى مقعد
هذا الذى شهد الوجود بخصه
بمزية التفضيل من مختصه
وأبانه من وحيه فى نصه
هذا الذى ارتفع البراق بشخصه * فى ليلة الاسراء أشرف مشهد
هذا الذى غدت الطلول حديقة
بجواره وبدت تروق أنيقة
هذا المكمل خلقة وخليقة
هذا الذى سمع النداء حقيقة * ودنا ولم يك قبل ذاك بمبعد
فهناك كم رسل به تتوسل
وعلى حماه لدى المعاد يعول
يا أرحم الرحماء أنت الموئل
يا خاتم الارسال أنت الاول * فترق فى أعلى المكارم واصعد
الله رفع فى سراه مناره

وأبان في السبع العلا أنواره
فقفت ملائكة السما آثاره
وأراه جنته هناك وناره * خوّ بد ومخلد لمخلد
كم ذاد من وجل وجلى ظلمة
وامتن بالرحمى ومتن حرمة
لما دجا أفق الضلالة دهمة
بعث الاله به ليرحم أمة * لولاه كانت بالضلالة ترتدى
حاز الشفوف فكل خلق دونه
فالغيث يسأل اذ يسيل يمينه
والشمس تستهدى الشروق جبينه
والله فضله وأظهر دينه * ووفى لنافيه بصدق الموعد
نطق يغادي ذكره ويراوح
وبه ينافح مسكه وينافح
تعيى اللسان محامد وممادح
طوبى لمن قد عاش وهو يكافح * عنه يناضل باللسان وباليد
هو صفوة العرب الاولى أحسابهم
أسيافهم قرنت بها أسبابهم
فهم لباب المجد وهو لبابهم
من آل بيت لم تزل أنسابهم * تنبى لهم عن طيب عنصر مولد
شرف النبوة قد رسا في أهلها
وسما على الزهر العلا بمحلها
ساق السوابق للفخار برسلها
نطق الكتاب كما علمت بفضلها * وقضى به نص الحديث المسند
فوق السماك توطنت وتوطدت
وتفردت بالمصطفى وتوحدت
فهي الخلاصة صفيت فتجردت
من معدن فيه الرسالة قد بدت * من عصر آدم نا العصر محمد
طالوا فلم يبقوا المجد مصعدا
صالوا ففي أيمانهم حتف العدا
سئلوا فهم لعفاتهم غيث الجدى
أهل السقاية والرفادة والندى * والكعبة البيت الحرام المقصد
المطعمون وقد طوى ألم الطوى
الناهضون اذا الصريخ لهم نوى

العاطفون اذا الطريق بهم نوى
أهل السدانة والحجابة واللوى * أهل المقام وزمزم والمسجد
المصلحون اذا الجوع تحاذعت
المنجحون اذا المساعى دافعت
الدافعون اذا الاعادى قارعت
المؤثرون اذا السنون تتابعت * وفد الحجيج بنيل كل تفقد
لايقرب الخطب الملم منيعهم
لايطرق الكرب المخيف قريعهم
والله شرف بالنبى جميعهم
من نال رتبتهم وحاز صنيعهم * نال الشفوف وحاز معنى السودد
حلوا من الطود الاشم بمنعة
فى خير معتصم واسمى رفعة
فهم بجنة امنه فى هجعة
الله خصصهم بأشرف بقعة * محجوجة محفوفة بالاسعد
لما أتيت لرامة أصل السرى
من بعد قصدى مكة أم القرى
انشدت جهرا فيه أنثر جوهرا
واليكها ياخير من وطئ الثرى * عذراء تزرى بالعذارى الخرد
كل الحسان لحسنها قد أدهشا
مامثلها فى تربها شادنشا
سفرت بعزم ماأجذ واطيشا
نشات بطى القلب واروت الحشا * زهراء من يرها يهل ويسجد
امتك تشأى فى مداها الالسنا
وترى اجادتها المجيد المحسنا
تغدو ولا تثنى العنان عن الثنا
واتتك تمرح كالقضيب اذا انثنى * مترنحا بين الغصون الميد
قد أعملت فى المدح ثاقب ذهنها
ترجو الحلول لدى قرارة امنها
وعسى اذا غذيت بتربة عدنها
يحاولك الاحسان بارع حسنها * والحسن يحاوها وان لم تنشد
مدحى لخير العالمين عقيدتى
ومطيتى بل طيبتى ونشيدتى
وتيجتى وهدى اليقين مفيدتى

ولئن مدحت محمدا بقصيدتي * فلقد مدحت قصيدتي بمحمد

يا خير خلق الله دعوة حائر
يشكو اليك صروف دهر جائر
والله يعلم في هواك سرائري
وهو الذي ارجو لعفو جرائري * متوسلا بجنابك المتأطد

لولا حقوق عنت بغارب
لمكثت عندك كي تتاح مآربي
ويكون في الزرقاء عذب مشاربي
حتى احلي من ثراك ترائبي * وانال دفنا في بقيع الغرقد

وعليك من ربي حباك صلاته
وسلامه وهباته وصلاته
ما ام بابك من هدته فلاته
لعلاك حتى زحزحت علاته * فأتيح حسن الختم دون تردد

ثم ودعته صلى الله عليه وسلم والقلب من فراقه سقيم ووقعت من البعد عن تلك المعاهد في المقعد المقيم وأنا أرجو أن يكون شكل منطق غير عقيم وأن أحشر في زمرة من سلك الصراط المستقيم

يا شفيع العصاة أنت رجاءى * كيف يخشى الرجاء عندك خيبه
واذا كنت حاضرا بفؤادي * غيبة الجسم عنك ليست بغيبه
ليس بالعيش في البلاد انتفاع * أطيب العيش ما يكون بطيبه

ذهاب المؤلف الى مصر ثم الى بيت المقدس

ثم عدت الى مصر وقد زال عني ببركته صلى الله عليه وسلم الاصر وذلك في محرم سنة ١٠٢٩ ثم قصدت زيارة بيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام وقد شملتني بفضل الله جوائز الانعام وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة قول حافظ الحفاظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى وهو مما زادني في هذه الزيارة رغبة

الى البيت المقدس جئت ارجو * جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا في مسافته عقابا * وما بعد العقاب سوى النعيم

فلما دخلت المسجد الاقصى وابصرت بدائعه التي لا تستقصى بهرني جماله الذي تجلى الله به عليه وسألت عن محل المعراج الشريف فأرشدت اليه وشاهدت محلا أم فيه صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام الهداة * وكان حتى أن أنشد هنالك ما قاله بعض الموفقين وهو مما ينبغي أن ترمزم به الحداة

ان كنت تسأل اين قد * رفع النبي محمد بين الانام
فأصخ الى آياته * تظفر بريك في الاوام
اكرم بعبد سلمت * تقديمه الرسل الكرام
في حضرة القدس وا * فاها بعز واحترام

صفوا وصلوا خلفه * ان الجماعة بالامام
للشهب نور بين * والفضل للقمر التمام
سلك النبوة باهر * وبأحمد ختم النظام
هذا الكتاب دلالة * تبقى الى يوم القيام
شهدت له من بعد عجز ألسن اللدّ الخصام
خير الورى واجلّ أ * ياته خير الكلام
فعليه من رب الورى * ازكى صلاة مع سلام

وربما يقول من يقف على سرد هذه الامداح النبوية الى متى وهذا الميدان تكلّ فيه فرسان البديهة والروية فأنشده في الجواب قول بعض من أمّ نهج الصواب

لادعينّ مديح المصطفى * فعل من في الله قوّى طمعه
فعسى أنعم في الدنيا به * وعسى يحشرني الله معه

واذا كان القريض في بعض الاحيان كذبا صراحا والموفق من تركه والحالة هذه رغبة عنه وله اطراحا فخيره ما كان حقا وهو مدح الله ورسوله وبذلك يحصل القصد منتهى سوله

ليس كل القريض يقبله السمع وتصغى لذكره الافهام
ان بعض القريض ما كان هزءا * ليس شيأ وبعضه أحكام
واجلّ الكلام ما كان في مد * ح شفيع الورى عليه السلام
طيب العرف دائم الذكر لاتأ * تى الليالى عليه والايام
مثل زهر قد شق عنه كمام * او كمسك قد فض عنه ختام
ليس تحصى صفات أحمد بالعدّ كما لم تحط به الاوهام
ولو انّ البحار حبر وما في الارض من كل نابت أقلام
فطويل المديح فيه قصير * وحسام ماض لديه كهام
ولسان البليغ الحىّ يغى * وكذا صيب الفصيح جهام
كيف يحصى مديح مولى عليه الله اثنى وذكره مستدام
وله المعجزات والآى تبدو * لا يغطى وجوه هنّ لثام
فمن المعجزات أن سار ليلا * وجميع الانام فيه نيام
راكبا للبراق حتى أتى القد * س وفيه رسل الاله الكرام
فاستووا خلفه صفوفا وقالوا * صلّ يا أحمد فانت الامام
فعليه من ربه صلوات * زاكيات مع صحبه وسلام

رجوع المؤلف الى مصر

ثم رجعت الى القاهرة وكررت منها الذهاب الى البقاع الطاهرة فدخلت لهذا التاريخ الذى هو عام تسعة وثلاثين وألف مكة خمس مرات وحصلت لى بالمجاورة فيها المسرات وأمليت فيها على قصد التبرك دروسا عديدة والله يجعل أيام العمر بالعود اليها مديدة ووفدت على طيبة المعظمة مع سماما عهدها السديدة سبع مرار واطفأت بالعود اليها ما بالاكباد الحرار واستضأت بتلك الانوار وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلم

بعض ما من الله به علىّ فى ذلك الجوار وامليت الحديث النبوى بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع ونلت بذلك وغيره ولله المنة مالم يكن لى فيه مطمع ولا مطمع ثم أبت الى مصر مفوّضا لله بجميع الامور ملازما خدمة العلم الشريف بالازهر المعمور وكان عودى من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة فتحركت همتى أوائل رجب هذه السنة للعود للبيت المقدس وتجديد العهد بالمحل الذى هو على التقوى مؤسس فوصلت أواسط رجب وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوما بدالى فيها بفضل الله وجه الرشد وما احتجب وألقيت عدة دروس بالاقصى والصخرة المنيفة وزرت مقام الخليل ومن معه من الانبياء ذوى المقامات الشريفة وكنت حقيقا بأن أنشد قول ابن مطروح فى ذلك المقام الذى فضله معروف وأمره مشروح

ذهابه الى بيت المقدس

خليل الله قد جئنا نرجو * شفاعتك التى ليست ترد
أنلنا دعوة واشفع تشفع * الى من لا يخيب لديه قصد
وقل يارب أضياف ووفد * لهم بمحمد صلة وعهد
أتوا يستغفرونك من ذنوب * عظام لا تعد ولا تحد
اذا وزنت بيذبل او شمام * رجحن ودونها رضوى واحد
ولكن لا يضيق العفو عنهم * وكيف يضيق وهو لهم معد
وقد سألوا رضاك على لسانى * الهى ما أجيب وما أرد
فيا مولاهم عطفا عليهم * فهم جمع اتوك وأنت فرد

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم على نبينا وعليهم وعلى سائر المرسلين والانبياء أجمعين أفضل الصلاة والتسليم ثم حدث لى منتصف شعبان عزم على الرحلة الى المدينة التى ظهر فضلها وبان دمشق الشام ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام والادواح المتنوّعة والارواح المتضوّعة حيث المشاهد المكرّمة والمعاهد المحترمة والغوطة الغناء والحديقة والمكارم التى يبارى فيها المرء شانئه وصديقه والاظلال الوريفة والافنان الوريقه والزهر الذى تخاله مبسما والندى ريقه والقضبان الملد التى تشوق رائيها بجنة الخلد

ذهابه الى دمشق

بحيث الروض وضاح الثنايا * انيق الحسن مصقول الاديم

وهى المدينة المستولية على الطباع المعمورة البقاع بالفضل والرباع

تزيد على مر الزمان طلاوة * دمشق التى راقت بحلو المشارب
لها فى أقاليم البلاد مشارق * منزهة اقمارها عن مغارب

ودخلتها أواخر شعبان المذكور وحمدت الرحلة اليها وجعلها الله من السعى المشكور

وجدت بها مايملأ العين قرة * ويسلى عن الاوطان كل غريب

وشاهدت بعض مغانيها الحسنة ومبانيها المستحسنة

نزلنا بها ننوى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى اقمنا بها شهرا

ورأينا من محاسنها مالا يستوفيه من تأنق فى الخطاب وأطال فى الوصف وأطاب وان

ملأ من البلاغة الوطاب كما قلت

محاسن الشام أجلى * من أن تحاط بحدّ
لولا حمى الشرع قلنا * ولم نقف عند حدّ
كأنها معجزات * مقرونة بالتحدّى

فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفكر والغوطة المنوطة بالحسن تسحر الالباب لاسيما اذا حياها النسيم وابتكر

أحب الحمى من أجل من سكن الحمى * حديث حديث فى الهوى وقديم

فلله مرآها الجميل الجليل وبيوتها التى لم تخرج عن عروض الخليل ونهرها الذى هو على فضلها وفضل أهلها أدلّ دليل ومنظرها الذى ينقلب البصر عن بهجته وهو كليل

والروض قد راق العيون بحلة * قد ساكها بسحابه آذار
وعلى غصون الدوح خضر غلائل * والزهر فى أكمامه أزرار

فكم بها من حسن ظاهر وكامن كما قلت موطئا للبيت الثامن

أمّا دمشق فجنة * لعبت بألباب الخلائق
هى بهجة الدنيا التى * منها بديع الحسن فائق
لله منها الصالحيّة فاخرت بذوى الحقائق
والغوطة الغنّاء حيّت بالورود وبالشقائق
والنهر صاف والنسيـ * ـم اللدن للأشواق سائق
والطير بالعيدان أبـ * ـدت فى الغنا أحلى الطرائق
ولآلئ الأزهار حلت جيد غصن فهو رائق
وموارد الامطار قد * كحلت بها حدق الحدائق
لازال مغناها مصو * نا آمنا كل البوائق

وكما قلت مرتجلا أيضا مضمنا الرابع والخامس

دمشق راقت رواء * وبهجة وغضاره
فيها نسيم عليل * صح فوافت بشاره
وغوطة كعروس * تزهى بأعجب شاره
يا حسنها من رياض * مثل النضار نضاره
كالزهر زهرا وعنها * عرف العبير عباره
والجامع الفرد منها * أعلى الاله مناره
وحاصل القول فيها * لمن أراد اختصاره
تذكيرها من رآها * عدنا وحسبى اشاره
دامت تفوق سواها * انالة وانارة

وكما ارتجلت فيها أيضا

قال لى ما تقول فى الشام حبر * كلما لاح بارق الحسن شامه

قلت

قلت ماذا أقول فى وصف قطر * هو فى وجنة المحاسن شامه

وقلت أيضا

قال لى صف دمشق مولى رئيس * جمل الله خلقه واحتشامه
قلت كل اللسان فى وصف قطر * هو فى وجنة البسيطة شامه

وقلت أيضا

واذا وصفت محاسن الدنيا فلا * تبدأ بغير دمشق فيها أولا
بلد اذا أرسلت طرفك نحوه * لم تلق الا جنة أو جدولا
ذا وصف بعض صفاتها وهى التى * يعيا البليغ وان اجاد وطولا

والغاية فى هذا الباب من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الالباب قول أبى الوحش سبعى ابن خلف الاسدى يصف أرضها المشرقة ورياضها المورقة ونسيمها العليل وزهرها البليل

سقى دمشق الشام غيث ممرع * من مستهل ديمة دفاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها * فى سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق أنها * تعزى اليها لا الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر فى اشراقها
نسيم ريا روضها متى سرى * فك أخا الهموم من وثاقها
قد ربع الربيع فى ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لا تسأم العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا انتشاقها

وقول شمس الدين الاسدى الطيبى

اذا ذكرت بقاع الارض يوما * فقل سقيا لجلق ثم رعيا
وقل فى وصفها لا فى سواها * بها ما شئت من دين ودنيا

وكأن لسان الدين ذا الوزارتين بن الخطيب عناها بقوله المصيب

بلد تحف به الرياض كأنه * وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة * ومن الجسور المحكمات سواره

وكنت قبل رحلتى اليها ووفادتى عليها كثيرا ما أسمع عن أهلها زاد الله فى ارتقائهم ما يشوقنى الى رؤيتها ولقائهم وينشقنى على البعد أريج الادب الفائق من تلقائهم حتى لقيت بمكة المعظمة أوحد كبرائها الذين فرائدهم بلبة الدهر منتظمة عين الاعيان وصدر أرباب التفسير بها والبيان صاحب القلم الذى طبق الكلى والمفاصل والفتاوى التى حكمها بين الحق والباطل فاصل والتآليف التى وصفها بالاجادة من باب تحصيل الحاصل وارث العلم عن غير كلاله ذو الحسب المشرق بدره فى سماء الجلاله صاحب المعارف التى زانت خلاله وساحب أذيال العوارف التى أبانت عن فضله دلاله مفتى السلطان فى تلك الاوطان على مذهب الامام النعمان مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الاسلام عماد الدين لا زال سالكا سبيل المهتدين فكان جمل الله به عصرا وأوانا لقضية هذا

القياس عنوانا فلما حللت بدارهم ورأيت ما أذهلني من سبقهم للفضل وبدارهم
صدق الخبر وتمثلت فيهم بقول بعض من غبر

ألمت بنا أوصافهم فامتلا الفضا * عبيرا وأضحى نوره متألقا
وقد كان هذا من سماع حديثهم * بلاغا فأصبح النقل اذحصل اللقا

وقابلوني أسماهم الله بالاحتفال والاحتفاء وعرفني بديع برهم فن الاكتفاء

ثمرتني المكارم الغر منهم * وتوالت على منها فنون
شرط احسانهم تحقق عندي * ليت شعري الجزاء كيف يكون

وقابلوني بالقبول مغضين عن جهلي وما زال بي احسانهم وجميلهم * وبرهم حتى
حسبتهم أهلي بل الاولى أن اتمثل فيهم بما هو أبلغ من هذا المقول في آل المهلب وهو قول
بعض من نزل بقوم برق قصدهم غير خلب في زمن به تقلب

ولما نزلنا في ظلال بيوتهم * أمنا ونلنا الخصب في زمن المحل
ولو لم يزد احسانهم وجميلهم * على البر من أهلي حسبتهم أهلي

لاسيما المولى الذي أمداحه تحلى أجياد الطروس العاطلة وسماحه يخجل أنواء الغيوث
الهاطلة صدر الاكابر الاعاظم الحائز قصب السبق في ميدان الاجادة بشهادة كل ناثر
وناظم الصديق الذي بوده أغتبط والصدوق الذي بأسباب عهده أرتبط الاوحد الذي
ضربت البراعة رواقها بناديه والماجد الذي لم يزل بديع البلاغة من كثب يناديه
السري الحائز من الخلال ما أبان تفضيله اللوذعي الذي لم تزل أوصافه تحكم له بالسودد
وتقضي له والحق أبلج لا يحتاج الى زيادة براهين الاجل المولى أحمد أفندي بن شاهين
لا زالت العزة مقيمة بواديه ولا برحت حضرته جامعة لبواطن الفخر وبواديه والسعد
يراوح مقامه ويغاديه والمجد يترنم بذكره حاديه فكم له أسماه الله ولغيره من أعيان
دمشق لدي من أياد يعجز عن الابانة عنها لو أراد وصفها قس اياد ولو تعرضت لاسمائهم
وحلاهم أدام الله تعالى سوددهم وعلاهم لضاق عن ذلك هذا النطاق وكان من شبه
التكليف بما لا يطاق فليت شعري بأي اسلوب أؤدي بعض حقهم المطلوب أم بأي
لسان أثني على مزاياهم الحسان وما عسى أن أقول في قوم نسقوا الفضائل ولاء وتعاطوا
أكواب المحامد ملاء وسحبوا من المجد مطارف وملاء وحازوا المكارم وبذوا الموادد
والمصارم سوددا وعلاء

فما رياض زهر الربيع * اذا بدت في وشيها البديع
ضاحكة عن شنب الاقاح * عند سفور طلعة الصباح
غنى بها مطوق الحمام * وصافحتها راحة الغمام
وباكرتها نسمة من الصبا * فأصبحت كأنها عهد الصبا
نضارة ورونقا وبهجه * تفدى بكل ناظر ومهجه
أطيب من ثنائهم عبيرا * بين الورى فاسأل به خبيرا

دامت معاليهم على طول الزمن * يروى حديث الفضل عنها عن حسن
وثابت وقرة وسعـــد * وأسعفوا بنيل كل وعد

فهم الذين توهوا بقدرى الخامل وظنوا مع نقصى أن بحر معرفتى وافر كامل حسبما اقتضاه طبعهم العالى فلو شريت بعمرى ساعة ذهبت من عيشى معهم ما كان بالغالى فتعين حقهم لا يترك وحبهم لا يخالط بغيره ولا يشرك وان أطلت الوصف فالغاية فى ذلك لا تدرك

يزداد فى سمعى ترداد ذكرهم * طيبا ويحسن فى عينى مكرره

واذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر فهم كما قال الاعرابى الذى ضلت ناقته فى مدح البدر والبليغ وذو الحصر فى ذلك سيان والحق أبلج والباطل لجلج وليس الخبر كالعيان

هب الروض لا يثنى على الغيث نشره * أتحسبه تخفى مآثره الحسنى

وقد تذكرت بلادى النائيه بذلك المرأى الشامى الذى يبهر رائيه فاشتت من أنهار ذات انسجام أترع فيها من بريال الانس جام وازهار متوجة للادواح مروحة للنفوس بعاطر الارواح وحدائق تغشى أنوارها الاحداق وعيانها للخبر عنها مصداق وأى مصداق

فهى التى ضحك النهار صباحها * وبكت عشيتها عيون النرجس
واخضر جانب نهرها فكأنه * سيف يسل وغمده من سندس

وجنان أفنانها فى الحسن ذوات أفنان

صافحتها الرياح فاعتنق السر * و ومالت طواله للقصار
لائذ بعضه ببعض كقوم * فى عتاب مكرر واعتذار

وبطاح راق سناها وكل حسنها وتناهى كما قلت مضمنا فى ذلك المنحى لقول بعض من نال فى البلاغة مناومنحا

دمشق لا يقاس بها سواها * ويمتنع القياس مع النصوص
حلاها راقت الابصار حسنا * على حكم العموم أو الخصوص
بساط زمرد نثرت عليه * من الياقوت ألوان الفصوص

ولله در القائل فى وصف تلك الفضائل

ان تكن جنة الخلود بأرض * فدمشق ولا يكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها * قد امدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية أوضحاها

وعند رؤيتى لتلك الاقطار الجليلة الاوصاف العظيمة الاخطار تفاءلت بالعود الى أوطان لى بها أوطار اذ التشابه بينهما قريب فى الانهار والازهار ذات العرف المعطار وزادت هذه بالتقديس الذى همعت عليها منه الامطار وتمثلت بقول الاصفهانى وان غيرت يسيرا منه لما اسفرت وجوه التهانى

لما وردت الصالحية حيث مجتمع الرفاق

وشممت من أرض الشآ * م نسيم أنفاس العراق
أيقنت لي ولمن أحب بجمع شمل واتفاق
وضحكت من فرح اللقا * كما بكيت من الفراق
لم يبق لي الا تجشم ازمن السفر البواقي
حتى يطول حديثنا * بصفات ما كنا نلاقي

وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مولعا بالوطن لا سواه فصار القلب بعد ذلك مقسما بهواه

ولي بالحمى أهل وبالشعب جيرة * وفي ساجر خل وفي المنحنى صحب
تقسم ذا القلب المتيم بينهم * سألتكم بالله هل يقسم القلب

فيا لله من صب مراع للذمام منقاد لشوقه بزمام يتخيل له أنه سمع صوت قيان يقول الاول

الى الله أشكو بالمدينة حاجة * وبالشام أخرى كيف يلتقيان

وقد تعددت جوعه ووشت بما أكنت ضلوعه دموعه فأنشد وقد تحير مما بدل فيه من عظم ما به وغير

كتمت شأن الهوى يوم النوى فوشى * بسره من جفوني أى نمام
كانت ليالي بيضا في دنوهم * فلا تسل بعدهم عن حال أيامي
ضنيت وجدا بهم والناس تحسب بي * سقما فأبهم حالي عند لوامي
وليس أصل ضنى جسمي النحيل سوى * فرط اشتياقي لاهل الغرب والشام

وحصل التحير حيث لم يكن الجمع ولا الخلو عند التخير كما قال ابن دقيق العيد في مثل هذا الغرض البعيد

اذا كنت في نجد وطيب نعيمه * تذكرت أهلي باللوى فمحسر
وان كنت فيهم زدت شوقا ولوعة * الى ساكني نجد وعيل تصبري
فقد طال ما بين الفريقين موقفي * فمن لي بنجد بين أهلي ومعشري

وبالجملة فالاعتراف بالحق فريضه ومحاسن الشام وأهله طويلة عريضه ورياضه بالمفاخر والكمالات أريضه وهو مقر الاولياء والانبياء ولا يجهل فضله الا الاغمار الاغبياء الذين قلوبهم مريضه

أنى يرى الشمس خفاش يلاحظها * والشمس تبهر أبصار الخفافيش

ولله در من قال في مثل هذا من الارضياء

وهبني قلت هذا الصبح ليل * ايعمى العالمون عن الضياء

وقال آخر فيمن عن الحق ينفر

اذا لم يكن للمرء عين بصيرة * فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

وحسب الفاضل اللبيب أن يروى قول البدر بن حبيب

عرج اذا ما شمت برق الشآ * م وحى أهل الحى واقر السلام
وانزل باقليم جزيل الحيا * بارك فيه الله رب الانام

العز والنصر لديه وما * لعروة الاسلام عنه انفصام
من أولياء الله كم قد حوى * ركنا بمرآه يطيب المقام
وهو مقر الانبياء الأولى * والاصفياء الاتقياء الكرام
كم من شهيد في حماه وكم * من عالم فرد وكم من امام

ولذلك اعتنت الجهابذة بتخليد أخباره في الدواوين وابتنت الاساتذة بيوت افتخاره المنيفة الاواوين وتناقلت أنباءه البديعة ألسن الراوين وهامت بأماكنه المريعة هداة الشريعة فضلا عن الشعراء الغاوين ومع ذلك فهم في التعبير عن عجائبه غير متساوين أولا يرى أنهم يأتون من مقولهم على قدر رأيهم وعقولهم ولم يبلغ جمع منهم ما كانوا له ناوين
على قدرك الصهباء تولك نشوة * بها سيء أعداء وسر أصحاب
ولو أنها تعطيك منها بقدرها * لضاقت بك الاكوان وهي رحاب
وكنا في خلال الاقامة بدمشق المحوطه وأثناء التأمل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطه كثيرا ما ننتظم في سلك المذاكرة درر الاخبار الملقوطه وتتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الاعيان في مجالس مغبوطه تتجاذب فيها أهداب الآداب ونشرب من سلسال الاسترسال ونتهادى لباب الالباب ونغذ بساط الانبساط ونسدل أطناب الاطناب ونقضي أوطار الاقطار ونستدعي اعلام الاعلام فيجر بنا الكلام والحديث شجون وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون الى ذكر البلاد الاندلسية ووصف رياضها السندسية التي هي بالحسن منوطه وقضاياها الموجهة التي لا يستوفيها المنطق مع أنها ضروريه وممكنة ومشروطه والقطر السليمه والافهام المستقيمه بتسليم براهينها قاضية لاسيما ان كانت بالانصاف مربوطه فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني من الفيض الرحماني وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني صب الله عليه شآبيب رحماه وبلغه من رضوانه الاماني ما تثيره المناسبة وتقتضيه وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه من النظم الجزل في الجد والهزل والانشاء الذي يدهش به ذاكره الالباب ان شاء وتصرفه في فنون البلاغة حالي الولاية والعزل اذ هو أعني لسان الدين فارس النظم والنثر في ذلك العصر والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله ايدي الهصر ونثره تزري صورته بالخريدة ودمية القصر فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة اجماعهم وعلق بقلوبهم وأضحى منتهى مطلوبهم ومنية آمالهم وأطماعهم وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه ويعترفون ببراعته ويستحسنونه ويستنشقون من أزهاره كل ذالك فطلب مني المولى أحمد الشاهيني اذ ذاك وهو الماجد المذكور ذو السعي المشكور أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ومفاخره التي قلد بها جيد الزمان ولبته ومآثره التي أرج بها سري الشمال وهبته وبعض ماله من النثار والنظام والمؤلفات الكبار العظام الرائقة للابصار الفائقة على كلام كثير من

أهل الامصار السائرة مسير القمر والشمس المعقود عليهما بالخناصر بل الخمس كي ما يكون ذلك لهذه الاغراض مشيعا ويخلع على مطالعه بهذه البلاد المشرقية من أغراضه البديعة ومنازعه وشيعا فأجبته أسمى الله قدره الكبير وأدام عرف فضائله المزري بالعنبر والعبير بأن هذا الغرض غير سهل ولست علم الله له بأهل من جهات عديده أولها قصوري عن تحمل تلك الاعباء الشديده اذلا يوفي بهذا الغرض الا الماهر بطرق المعارف السديده وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام لا في خلفتها بالمغرب وأكثرها في المشرق كعنقاء مغرب وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة البالية للفكر غاية الكربه وتقسم البال بين شغل عائق وبلبال [illegible] وأني يطيق سلوك هذا المضيق من اكتحلت جفونه بالسهاد ونبت جنوبه عن المهاد وسدد نحوه الاسف سهمه وشغل باله ووهمه وبث في قلبه تبريحا وعناء لم يجد منه الا أن بلطف الله تسريحا فما شام بارقة أمل الا في النادر ولا ورد منهل صفاء الا وكدره مكر غادر وقد كثر الجفاء وبرح بلا شك الخفاء واستوخمت الموارد والمصادر والقلب مكلوم وذو اللب غير ملوم اذا كان على تلفيق ما يليق غير قادر ولا مؤنس الا شاكي دهر بلسان صريح أو باكي قاصمة ظهر بجفن قريح أو مناضل في معترك العجز طريح أو فاضل دفن من الخمول في ضريح اذ رمته سهام الاوهام الصوائب وعضت منه ابهام الابهام بنابها النوى والنوائب فقلوبهم من تقلبات أحواله ذوائب وكم شابت من أمثاله بصروف الدهر وأهواله ذوائب

على أنها الايام قد صرن كلها * عجائب حتى ليس فيها عجائب

وأدمع اجفارها تسلط فجارها فكم من عدو منهم في ثياب صديق وحسود لنظره الى نعم الله على عباده تحديق لا تخدعه المداراة ولا تردعه المماراة يتتبع العثرات ويقنع بألم البثرات ويتبسم وقلبه من الغل يتقسم ويتودد ومكايده تتجدد وتتعدد

لا ترم من مماذق الود خيرا * فبعيد من السراب الشراب
وزنق كالحباب يعلو على الما * ء ولكن تحت الحباب الحباب
عظمت في النفاق ألسنة القو * م وفي الالسن العذاب العذاب

والصديق الصدوق في هذا الزمن قليل وقد ألف بعض العلماء شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل وهو غير محمول على الاطلاق وان قال به بعض من رهنه من أبناء عصره ذو اغلاق

أبناء دهرك فالقهم * مثل العدا بسلاحكا
لا تغتـــــتر بتبسم * فالسيف يقتل ضاحكا

وداء الحسد أعيا الاول والآخر وقد عظم الامر في هذا الاوان وكثر المزدري والساخر مع أن أسواق الدفاتر كاسده وأمزجة المحابر فاسده

والدهر دهر الجاهليـــن وأمر أهل العلم فاتر
لا سوق أكسد فيه من * سوق المحابر والدفاتر

فالمنسوب للعلم في هذا الزمن زمن وهو بأن ينشد قول الاول قمن

لاي وميض بارقة أشيم * ورعي الفضل عندهم هشيم

وليت شعرى علام يحسد من ابدل الاغتراب شارته وأضعف الاضطراب اشارته وأنهل بالدموع أنواءه وأقلّ أضواءه وكثر علله وأدواءه وقصر عند التأمل رواءه وثنى عن المأمول عنانه وأرهف بالخمول سنانه حتى قدح الذكر جنانه وملأ الفكر جاشه وجنانه فهو فى ميدان النزوح مستبق ومن راحة التعب مصطبح ومغتبق

له أنة المشتاق فى كل ساعة * تغرّ وما للنا كلات من الحزن

ومن مرسلات الدمع واقعة الاسى * ومن عاديات البين قارعة السنّ

تثير الذكرى منه كوامن الشجون وتدير عليه جام الهيام ولو كان بين الصفا والحجون

وتحت ضلوع المستهام كآبة * يخاف على الاحشاء منها التفطرا

ولو أن أحشاء تبوح بما حوت * لغادرت الارض كتبا وأسطرا

وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب والسكون فى الركون والنبوّ عنها والاضطراب فذاك تسهل غالبا فيه الاغراض والمآرب وهذا تتعفر فيه المقاصد وتتكدر المشارب

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز * ولكن أرى تحصيلها بالدنية

وان طاوعتنى رقة الحال مرة * أبت فعلها أخلاق نفس أبية

وكما قلت عند ما صرت الى الاغتراب وألف

تركت رسوم عزى فى بلادى * وصرت بمصر منسىّ الرسوم

ورضت النفس بالتجريد زهدا * وقلت لها عن العلياء صومى

مخافة أن أرى بالحرص ممن * يكون زمانه أحد الخصوم

وكما قال بعض الاكابر من أهل الزمان الغابر

لا عار ان عطلت يداى من الغنى * كم سابق فى الخيل غير محجل

صان اللئيم وصنت وجهى ماله * دونى فلم يبذل ولم أتبذل

أبكى لهم ضافنى متأوبا * ان الدموع قرى الهموم النزل

لا تنكروا شيبا ألمّ بمفرقى * عجلا كأن سناه سلة منصل

فلقد دفعت الى الهموم تنوبنى * منها ثلاث شدائد جمعن لى

أسف على ماضى الزمان وحيرة * فى الحال منه ووحشة المستقبل

ما ان وصلت الى زمان آخر * الا بكيت على الزمان الاول

لله عهد بالحمى لم أنسه * أيام أعصى فى الصبابة عذلى

ويرحم الله ابن قلاقس الاسكندرى اذ قال فى معنى التمنى المصدرى

لعل زمانى بالعذيب يعود * فيقرب قرب أو يصدّ صدود

وأبصر كثبانا وهنّ روادف * عليهنّ أغصان وهنّ قدود

وأقطف ورد الخدّ وهو مضرّج * وأجنى اقاح الثغر وهو برود

وأدنى ذراعى للعناق ذريعة * فتنهى عن الافراط فيه نهود

ويسرى الى البدر وهو ممنع * ويغدو الى الظبى وهو شرود

ونكرع فى شكوى الفراق كأننا * فوارط هيم راقهنّ ورود

وأكبر مقدار الهوى عن كبيرة * وأحمي عفافي دونه وأذود

وفرق ما بين الجوهر والعرض والصحة البينة والمرض والدر والحصا والحسام والعصا والرجوع الى التفويض للاقدار في أمور هذه الدار الكثيرة الاكدار هو المطلوب والمرجو من الله سبحانه جبر القلوب

يارب نفس همومي * واكشف كروبي جميعا

فقد رجوت كريما * وقد دعوت سميعا

ولم يجعل لي المذكور حفظه الله فسحة ولا مندوحه بعد هذه الاعذار المحمودة في الصدق الممدوحه ولسان حالي وقالي يثبتان عجزي عن اداء هذا الحق بشهادة من هو واد وقالي اذ من كان بصفه غير متمكنة مما تكون به متصفه واتسم بنعوت مختلفه وارتسم في غير ذوي الاحوال المؤتلفه كيف يحير في التصنيف جوابا أو ينتحي من التأليف صوابا ومن جفنه همام هامل وقصوره عام شامل كيف يقبض بالانامل على ماء البحر الوافر الكامل ومن لبس من العي ملاه لا يعبر عن طبق مفاصل الكلام وكلاه وقصرت ألسن البلغاء عن علاه ورانت صدور الدواوين حلاه وجمع خلالا حسانا وكان للدين لسانا وزاحمت مفاخره بالمناكب الكواكب وازدانت بعرائها النوادي والمواكب ونفحات الازهار من آدابه ونسمات الاسحار عطر أذياله وأهدابه والسحر من كتابته والسحر من كتابته وروح النسيم من تعريضه والنثرة من نثره والشعرى من شعره وقريضه وحلل المجد لباسه وأنوار العلم اقتباسه

له ذهن يغوص بحر علم * فيأتي منه بالدر النظيم

معانيه الرياض لاجل هذا * سرت ألفاظه مثل النسيم

ومباهيه النجوم ومضاهيه الغيث السجوم الى آباء يحسدهم القمر والشمس وآباء لو كان للمشرفي لما تحيفه لبس وشرف لا مدعي ولا منتحل وهمة لو نالها البدر لاستجدى له زحل وبراعة أرهفت سنان قلمه وبراعة سارت أمراؤها تحت علمه فكم فتح بفكره أقفالها ووسم بذهنه الثاقب أغفالها وسبك معانيها في قالب قلبه ابريزا ورقم بيان لسانه برود احسانه بلفظه البديع تطريزا فرفع في ميدان الاجادة لواءه وأنبع من أنهار البراعة العذبة ارواءه ونال سبقا وتبريزا

وما زمن الشباب وأنت تجري * مع الاحباب في لهو وطيب

ووصل من حبيب بعد هجر * بأحلى من كلام ابن الخطيب

فقصائده أرخصت جواهر البحور المنظومة في قلائد اللبات والنحور من حسان العقائل الحور

معان وألفاظ تنظم منهما * عقود لآل في نحور الشمائل

وزهر كلام كالحدائق نسجه * غنينا به عن حسن زهر الخمائل

وكلماته غدت للابداع اقليدا وجمعت طريفا من البلاغة وتليدا

كسون عبيدا ثياب العبيد * وأضحى لبيد لديها بليدا

ومقطعاته ألذ فى الاسماع من مطرب السماع وأبهى فى الاحداق والنواظر من الحدائق ذوات الاغصان الملد النواضر يعترف بفضلها من انتحل الانصاف دينا وانتحل الاوصاف فاختار العدل منها خدينا

رقيقات المقاطع محكمات * لو ان الشعر يلبس لارتدينا

ورسائله كنقط العروس اللائحة فى البياض أو كوشى الربيع أو قطع الرياض برزت أغصانها الحاليه وتبرجت وتضوعت أفنانها العاليه وتأرجت وقد ألبسها القطر زهرا وجر خلالها نهرا فأخذت زخرفها وازينت ولاحت محاسنها غير محجبة وتبينت فبهرت من لها قابل أستغفر الله لا بل

هى الحديقة الا ان صيبها * صوب النهى وجناها زهرة الكلم

وقوافيه ريشت بها قوادم الاتقان وخوافيه بنان مجاريها يستدر الحصر وباع مباريها يستشعر القصر

خطها روضة وألفاظها الاز * هار يضحكن والمعانى ثمار

تبدى لمبصرها وترى ماقاله أبو عبادة البحترى

وكلام كأنه الزهر الناضر فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع ما يخـ * ـلقه عوده على المستعيد
ومعان لو فصلتها القوافى * هجنت ما لجرول من نشيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا * وتجنبن ظلمة التعقيد

بل هى أجل مما وصف عند التحقيق وامعان النظر الصحيح والتدقيق

أين زهر الرياض وهو اذا ما * طال عهدا بالغيث عاد هشيما
من قواف كأنها الانجم الزهـ * ـر سنا هازئ الظلام البهيما

وناهيك بمن أطلعته العلوم على جلائلها ودقائقها وأرته الفنون ماشاء من بائعات حدائقها وحبته الحكم الرياضية بأزاهرها وشقائقها وأرضعته الوزارة من ثديها وحلت به الامارة صدر نديها وجعلته المرجوع اليه فى تمييز جيد الامور ورديها فغرس فى أرض الرياسة من نخل السياسة ووديها وأعلى علم العدل وأغمد سيف الانتقام ودفع تنين الفتنة الذى فغر فاه للالتقام والعهد اذ ذاك قريب فى وطن الاندلس الغريب باختلال الحال وتوالى الامحال والتجرى على قتل الملوك والتحرى لقطع الطرق ومنع السلوك حيث أهواء المارقين ذات افتراق وضلوع الصادقين فى قلق واحتراق وايدى الاحن باطشه وسيوف المحن الى الدماء عاطشه وعرش الحماية متناول وصارم الكفاية مفلول ونطاق الرعاية مطلول وجيب النصيحة مملول والبنود السلطانية بنار اختلاف الكلمة ملتهب والعدو ينتهز الفرصة ويستلب الانفس والاموال وينتهب وليس له فى غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء وان عقد المهادنة فى بعض الاحيان فهو يسر حسوا فى ارتغاء وكلاب الباطل فى دماء أهل الحق والغية ولله سبحانه وتعالى فى خلقه ارادة نافذة وحكمة بالغة فرقع لسان الدين ثوب الاندلس ورفاه وأرغم رحمه

قوله هجنت الخ فى بعض النسخ هجنت قول جرول والوليد اه

الله الكفر الذى فغرفاه وشمر عن ساعد اجتهاده وحض باللسان وباليد على دفاعه وجهاده حتى لاحت للنصر بوارق وأمنت بالحزم الطوارى والطوارق ثم ضرب الدهر ضربانه وأحرق الحاسد بنار أحقاده أنضر بنه وأظهر ما فى قلبه على لسان الدين وأبانه وتقرب الوشاه وهم ممن كان يخدمه ويغشاه الى سلطانه الذى كان عزة أوطانه الذى كان يامنه ولا يخشاه حتى فسد عليه ضميره وتكدر ومن يسمع يخل غيره فأحس بظاهر التغير وصارف الباطن من أهل التحير وأجال قداح آرائه والتفت الى جهة العدو من ورائه ففر مشمرا عن ذيله فى لمة من خيله الى أمد العز بن سلطان بنى مرين وكان اذ ذاك بتلمسان وهو من أهل العلم والعدل والاحسان فاهتز لقدمه ولقيه بخاصته وخدمه وأكرم مثواه وجعله صاحب نجواه ثم أدرك السلطان الحمام وكسف بدره وقت التمام فرجع لسان الدين الى فاس واستنشق بها أطيب الانفاس وكثرت بعد ذلك الاهوال وتغيرت بسببه بين رؤساء العدوة والاندلس الأحوال فما نجا من مكر العدا ولا سلم وآل أمره من الاغتيال وما نفع الاحتيال الى ما علم على يدى بعض أعدائه الذين كانوا يتربصون الدوائر لارزائه فأصبح كأمس الذاهب وصارت أمواله وضياعه عرضة للناهب وغص بذلك من كان من أوذائه وأخذ الله ثاره من بعض من حرك عليه المكر وأثاره وتسبب فى هلاكه حتى انتثرت جواهر أسلاكه ومات بدائه فالعيون الى هذا الوقت على لسان الدين باكيه ونفوس الاكابر وغيرهم مما فعل به شاكيه والالسنة والاقلام لمقاماته فى الاسلام حاكيه فمن كان بهذه السمات وأكثر منها موصوفا لا يقدر مثلى على تحبير التعبير عنه ويخشى أن تكون فكرته كخرقاء نفضت قطنا أو صوفا ثم انى لما تكرر على فى هذا الغرض الالحاح ولم تقبل أعذارى التى زندها شحاح عزمت على الاجابة لما المذكور على من الحقوق وكيف أقابل بره حفظه الله بالعقوق وهو الذى يروى من أحاديث الفضل الحسان والصحاح فوعدته بالشروع فى المطلب عند الوصول الى القاهرة المعزيه وأزمعت السير عن دمشق المعروفة المزيه وألبسنى السعد منها من الخلع زيه ورحلنا عن تلك الارجاء المتألقه والقلوب بها وبمن فيها متعلقه

رجوع المؤلف من دمشق الى مصر المحروسه

حللنا ديار الغرام سرت بها * الينا صبا نجد بطيب نسيم
وبان ردا الاشجان لما تجاذبت * أكف المنى فيها رداء نعيم
فما أنشبنا العيس أن قذفت بنا * الى فرقة والعهد غير قديم
فان تك ودعنا الديار وأهلها * فما عهد نجد عندنا بذميم

فخرج معنا أسماه الله مع جملة من الاعيان الى داريا المضاهية لدارين فى رياها وحبذا ريا فألفيناها

ربا من الانداء طيبة لها القدر الجليل
تهدى لنا أرجاؤها * أرجا من الزهر البليل
وبها الغصون تمايلت * ميل الخليل على الخليل

ووصلنا عند الظهيره وسرحنا العيون فى محاسنها الشهيره

منزل كالربيع حلت عليه * حاليات السحاب عقد النطاق
يمتع العين من طرائق حسن * تجتلى فى بهاء عن الاطـــــراق

وقلنا بها لمانزلنا بجانبها

وبتنا والسرور لنا نديم * وماء عيونه الصافى مدام
يسايره النسيم اذا تغنت * حمائمه ويسقيه الغمام

فيالك من ليلة أربت فى طيب النفح على ليلة الشريف الرضى بالسفح

ونحن فى روضة مفوفة * قد وشيت بالغمائم الوكفة
نغنى على زهرها فيوقظنا * وهنا هدير الحمائم الهتفة
ودوحها من نداه فى وشح * ومن لآلى الازهار فى شنفة
والغصن من فوقه حمامته * كأنها همزة على ألفه

وما أقرب قول الوزير ابن عمار من وصف ذلك المضمار الجامع للاقمار

ياليـــلة بتنا بها * فى ظل أكناف النعيم
من فوق أكمام الربا * ض وتحت أذيال النسيم

وناهيك بمحل قرب من دمشق الغراء خلعت عليه حلل الحبور والسراء وأمدته بضيائها وأودعته برق حياها وماء حيائها فصار ناضر الدوحات عاطر الغدوات والروحات مونق الانفاس والنفحات مشرق الاسرة والصفحات هذا والقلوب من الفراق فى قلق ولسان الحال ينشد

وبى علاقة وجد ليس يعلمها * الا الذى خلق الانسان من علق

ويحث على انتهاز فرصة اللقاء اذهى غنيمه ويذكر بقول من قال وأكف الدهر موقظة ومنيمه

تمتع بالرقاد على شمال * فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من يحبك باجتماع * فأنت من الفراق على يقين

ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوداع والكل ما بين واجم وباك وداع فتمثلت بقول من قلبه لفراق الاحباب فى انصداع

ودعتهم ودموعى * على الخدود غزار
فاستكثروا دمع عينى * لما استقلوا وساروا

وقول آخر

يا وحشة من جيرة قد نأوا * علو قدرى فى الهوى الخططا
حكت دموعى البحر من بعدهم * لما رأت منزلهم شطا

وحق لى أن أتمثل فى ذلك بقول الغزارى

لا تسلنى عما جناه الفراق * حملتنى يداه ما لا يطاق
اين صبرى أم كيف أملك دمعى * والمطايا بالظاعنين تساق
قف معى نندب الطلول فهذى * سنة قبل سنها العشاق

وأعدلي ذكر الغوير فيكم ما * لي بعطفي نسيمه انخفاق
في سبيل الغرام مافعلت بالعاشقين القدود والاحداق
يوم ولت طلائع الصبر منا * ثم شنت غاراتها الاشواق

ويقول غيره

كنا جميعا والدار تجمعنا * مثل حروف الجمع ملتصقه
واليوم صار الوداع يجعلنا * مثل حروف الوداع مفترقه

وقول آخر

حين هم الحبيب بالتوديع * عيروني أني سفحت دموعي
لم يذوقوا طعم الفراق ولاما * أحرقت لوعة الاسى من ضلوعي
كيف لا أسفح الدموع على ربع حوى شبر ساكن وجموع
هبك أني كتمت حالي أتخفى * زفرات المتيم المصدوع
انما يعرف الغرام بن لا * ح عليه الغرام بين الربوع

وقول من قال

أقول له عند توديعه * وكل بعبرته مبلس
لئن قعدت عنك أجسادنا * لقد سافرت معك الانفس

وقول الصابي

ولما حضرت لتوديعه * وطرف النوى نحونا اشوس
عكست له بيت شعر مضى * يليق به الحال اذ يعكس
لئن سافرت عنك أجسادنا * فقد قعدت معك الانفس

وقول المهذب بن أسعد الموصلي

دعني وماشاء التفرق والاسى * واقصد بلومك من يطيعك أودعي
لاقلب لي فأعي الملام فانني * أودعته بالامس عند مودعي
هل يعلم المتحملون لنجعة * أن المنازل أخصبت من أدمعي
كم غادروا حرضا وكم لوداعهم * بين الجوانح من غرام مودع
والسقم آية ما أجن من الجوى * والدمع بينة على ماادعي

وقول الكمال التنوخي

كم ليلة قد بتها أرعى السها * جزعا لفرقتهم بمقلة أرمد
قضيتها مابين نوم نافر * وزفير مهجور وقلب مكمد
لم أنس أيام السرور وطيبها * بين السدير وبين برقة ثهمد
والروض قد أبدى بدائع نوره * من أزرق ومفضض ومورد
والماء يبدو كالصوارم ساريا * فيعيده مر الصبا كالمبرد
والطير بين مسجع ومرجع * ومغرد ومعدد ومردد

وقول القاضي بهاء الدين السنجاري

أحبابنا مالى على بعد المدى * جلد ومن بعد النوى يتجلد
لله أوقات الوصال ومنظر * نضر وغصن الوصل غض أملد
أنى يطيق أخو الهوى كتمانه * والخد بالدمع المصون مخدد
ما بعد مفترق الركاب تصبر * عمن أحب فهل خليل يسعد
ياسعد ساعد بالبكاء أخا هوى * يوم الوداع بكى عليه الحسد

وقول ابن الاثير

لم أنس ليلة ودعوا * صبا وساروا بالجمول
والدمع من فرط الاسى * يجرى فيعثر بالذيول

وقول الارجانى

ولما وقفنا للوداع عشية * وطرفى وقلبى هامع وخفوق
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة * كأنى سحاب والوشاة بروق

وقول ابن نباتة السعدى

ولما وقفنا للوداع عشية * ولم يبق الا شامت وغيور
وقفنا فمن باك يكفكف دمعه * وملتزم قلبا يكاد يطير

وقول بعضهم

لما حدا الحادى بترحالهم * هيج أشواقى وأشجانى
وراح يثنى القلب عن غيرهم * فهولهم حادولى ثانى

وقول الصفدى

لما اعتنقنا للوداع النوى * وكدت من حر الجوى أحرق
رأيت قلبى سار قدامهم * وأدمعى تجرى ولا تلحق

وقوله أيضا

تذكرت عيشا مرحلوا بقربكم * فهل لليالينا الذواهب واهب
وما انصرفت آمال نفسى لغيركم * ولا انا عن هذى الرغائب غائب
سأصبر كرها فى الهوى غير طائع * لعل زمانى بالحبائب آئب

وقول ابن نباتة المصرى

فى كنف الله وفى حفظه * مسراك والعود بعزم صريح
لوجاز أن تسلك أجفاننا * كأفرشنا كل جفن قريح
لكنها بالبعد معتلة * وأنت لا تسلك الا الصحيح

وقول الحافظ أبى الحسن على بن الفضل

عجبت لنفسى بعدهم ما بقاؤها * ولم أحظ من لقياهم بمراد
لعمرك ما فارقتهم مذ ودعوا * ولكنما فارقت طيب رقادى
وقد منعوا منى زيارة طيفهم * وكيف يزور الطيف حلف سهاد
وأعجب ما فى الامر شوقى اليهم * وهم فى سوادى ناظرى وفؤادى

وقوله رحمه الله تعالى

رعى الله أيام المقام بروضة * تروح علينا بالسرور وتغتدى
كأن الشقيق الغض بين بطاحها * نجوم عقيق فى سماء زبرجد

وقول القاضى الرشيد الاسوانى

رحلوا فلا خلت المنازل منهم * ونأوا فلا سلت الجوانح عنهم
وسروا وقد كتموا الغداة مسيرهم * وضياء نور الشمس ما لا يكتم
وتبدلوا أرض العقيق عن الحمى * روت جفونى أى أرض يمموا
نزلوا العذيب وانما هو مهجتى * رحلوا وفى قلب المتيم خيموا
ما ضرهم لو ودعوا من أودعوا * نار الغرام وسلموا من أسلموا
هم فى الحشا ان أعرقوا أو أيمنوا * أو أشأموا أو أنجدوا أو أتهموا

وقول الشاعر أبى طاهر الاصفهانى المعروف بالوثابى

أشاعوا فقالوا وقفة ووداع * وزمت مطايا للرحيل سراع
فقلت وداع لا أطيق عيانه * كفانى من البين المشت سماع
ولم يملك الكتمان قلب ملكته * وعند النوى سر الكتوم مذاع

وقول أبى المجد قاضى ماردين

رعى الله ربعا انتم فيه أهله * وجاد عليه هاطل وهتون
ولا زال مخضر الجوانب مترع الحياض وفيه للنعيم فنون
لئن قدر الله اللقاء وأينعت * غصون التدانى فالبعاد يهون
وان حكمت أيدى الفراق بعسرة * فكم قضيت للمعسرين ديون

وقول آخر

غبتم فمالى فى التصبر مطمع * عظم الجوى واشتدت الاشواق
لا الدار بعدكم كما كانت ولا * ذاك البهاء بها ولا الاشراق
اشتاقكم وكذا المحب اذا نأى * عنه أحبة قلبه يشتاق

وقول أبى الحسن الهمذانى

ويوم ولت الاظعان عنا * وقوض حاضر وأرن بادى
مددت الى الوداع يدا وأخرى * حبست بها الحياة على فؤادى

وقول ابن الصائغ

قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقا * فظل فى الليل مثل النجم حيرانا
وراودته يستعير الصبر بعدهم * فقال انى استعرت اليوم نيرانا

وقول الصدر بن الادمى مكتفيا

يوم توديعى لاحبابى غدا * ذكرهم شاغلى عن كل شى
فرنت نحوى وقالت يا ترى * أنت حى فى هوانا قلت مى

وقول غيره

ولى فؤاد مذ نأى شخصهم * ظلّ كئيبا مدنفا موجعا
ومقلة مهما تذكرتهم * تذرف دمعا أربعا أربعا
وليس لى من حيلة كلما * بثت بى الاشواق الا الدعا
أسأل من ألف ما بيننا * وقدر الفرقة أن يجمعا

وقول الرعينى الغرناطى

محاسن ربع قد محاهن ما جرى * من الدمع لما قيل قد رحل الركب
تناقض حالى مذ شجانى فراقهم * فمن أضلعى نار ومن أدمعى سكب

وفى معناه قوله أيضا

وقائلة ما هذه الدرر التى * تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت لها هذا الذى قد حشابه * أبو مضر اذنى تساقط من عينى انتهى

وقول الزمخشرى

لم يكفى الاحديث فراقهم * لما أسر به الىّ مودّعى
هو ذلك الدر الذى أودعتم * فى مسمعى أجريته من مدمعى

وقول الزعارى

قد بهتهم قلبى يوم بينهم * بنظرة التوديع وهو يحترق
ولم أجد من بعدها الرد * وجها وكان الرد لو لم نفترق

وقول بعض الاندلسيين

ساروا فودعهم طرفى وأودعهم * قلبى فما بعدوا عنى ولا قربوا
هم الشموس ففى عينى اذا طلعوا * فى القادمين وفى قلبى اذا غربوا

وقلت انا مضمنا بديهة

لا كان يوم فراق * ساق الشجون الينا
فكم أذل نفوسا * يا من يعز علينا

وقلت أيضا مضمنا

سلا أحبته من لم يذب كمدا * يوم الوداع وان أجرى الدموع دما
يا من يعز علينا أن نفارقهم * من بعدكم هد ركن الصبر وانهدما
وان نأى الجسم كرها عن منازلكم * فالقلب ثاويها لم يصحب القدما
وما نسينا عهودا للهوى كرمت * ثم قرعنا عليها سن نادما
وأظلمت بالنوى أرجاء مقصدنا * وصار وجدان ألف غيركم عدما

وقلت أيضا مضمنا

لم أنس بالشام أنسا شمت بارقه * جادت معاهده أنواء نيسان
لهفى لعيش قضينا فى مشاهدها * ما بين حسن من الدنيا واحسان

وقلت كذلك

يا جيرة بانوا وأبقوا حسرة * تجرى دموعى بعدهم وفق القضا

كم قلت اذودّعتهم والانس لا * ينسى وعهد ودادهم لن يرفضا
يا موقف التوديع ان مدامعي * فضت وفاضت في ثرى ذاك القضا

وكم تفاءلت بقول الاول مع على بان على الله المعول

اذا رأيت الوداع فاصبر * ولا يهمنك البعاد
وانتظر العود عن قريب * فان قلب الوداع عادوا

وضاقت بي الرحاب عند مفارقة أعيان الاحباب والصحاب وكاثرت دموعي من بينهم السحاب وزند التذكر يقدح الاسف فيهيج الاقتحاب وقد تمثلنا اذ ذاك والجوانح من الجوى في التهاب وذخائر الصبر ذات انتهاب بقول بعض من مزق البعد منه الاهاب

ولما نزلنا منزلا طله الندى * أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه * منى فتمنينا فكنت الامانيا
وقد طفت في شرق البلاد وغربها * وسيرت خيلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلا * ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلا * وأعذب ألفاظا وأحلى معانيا

وبقول من تأسف على مغاني التداني وهو أبو الحجاج الاندلسي الداني

أبى الله الا أن أفارق منزلا * يطالعني وجه المنى فيه سافرا
كأن على الايام حين غشيته * يمينا فلم أحلله الا مسافرا

وتخيلنا أن اقامتنا بدمشق وقاها الله كل صرف ما كانت الا خطرة طيف ملم أو لمحة طرف

وقفنا ساعة ثم ارتحلنا * وما يغني المشوق وقوف ساعه
كأن الشمل لم يك في اجتماع * اذا ماشتت البين اجتماعه

وطالما علات النفس بالعود اليها ثم الى بقاعي منشدا قول الاديب الشهير بابن الفقاعي

متى عاينت عيناى أعلام حاجر * جعلت مواطي العيس فوق محاجري
وان لاح من أرض العواصم بارق * رجعت بأحشاء صوادر
سقى الله هاتيك المواطن والربا * مواطر أجفان هوام هوامر
وحيا الحيا من ساكني الحي أوجها * سفرن بأنوار زواه زواهر
بحيث زمان الوصل غض وروضه * أريض بأزهار بواه بواهر
وحيث جفون الحاسدين غضيضة * رمقن بآماق سواه سواهر

ثم حاولت خاطري الكليل فيما يشفي بعض الغليل فقال على طريق التضمين وقد غلب عليه الشوق والتخمين

بأبي من أودعوا اذ ودّعوا * قلبي الشوق وللعيس ذميل
جيرة غرّ كرام خيرة * كل شئ منهم يبدو جميل
وعلى الجملة مالي غيرهم * لو أرادوا أن يميلوا أو يميل

ثم قلت وقد سدّد التنائي الى نبله موطئا للبيت الثالث كما في الابيات قبله

يا دمشقا حيالك غيث غزير * ووقاك الاله مما يضير

حسنك الفرد والبدائع جمع * منتاه فيه فعز النظير
أين أيامنا بظلك والشمـ*ـل جميع والعيش غض نضير

ثم أكثرت الالتفات عن اليمين وعن الشمال وقد شبهت البيداء والشوق ببدل الكل والاشتمال وتنسمت من نواحى تلك الارجاء أريج الشمال وضمنت فى المعنى قول بعض من ثنى الحب عطفه وأمال

تنسمت أرواحا سرت من ديار من * بهم كان جمع الشمل لمحة حالم
وجاوبت من يلحى على ذاك جاهلا * بقول لبيب بالعواقب عالم
وما أنشق الارواح الا لانها * تمر على تلك الربا والمعالم

وما أحسن قول الآخر

سرت من نواحى الشام لى نسمة الصبا * وقد أصبحت حسرى من السير ظالعه
ومن عرق مبلولة الجيب بالندى * ومن تعب أنفاسها متتابعه

وقلت أنا

حمدت وحق الله للشام رحلة * اتاحت لعينى اجتلاء محياه
وبعد التنائى صرت أرتاح للصبا * لان الصبا تسرى بعاطر رياه
فلله عهد قد أتاح بجلق * سرورا لحياه الاله وحياه

واستحضرت عند جد السير قول صفوان بن ادريس المرسى ذكره الله تعالى بالخير

أين أيامنا اللواتى تقضت * اذ زجرنا للوصل أيمن طير

ثم قول غيره ممن حن وأن وقلق قلبه وما اطمأن

أحن الى مشاهد أنس الفى * وعهدى من زيارته قريب
وكنت أظن قرب العهد يطفى * لهيب الشوق فازداد اللهيب

وربما تجلدت مغالطا متمثلا بقول من كان لا لفه مخالطا

حضرت فكنت فى بصرى مقيما * وغبت فكنت فى وسط الفؤاد
وما شطت بنا دار ولكن * نقلت من السواد الى السواد

وقول غيره

وكن كما شئت من قرب ومن بعد * فالقلب يرعاك ان لم يرعك البصر

وبقول الوداعى

ياعاذلى فى وحدتى بعدهم * وأن ربعى ماله من جليس
وكيف يشكو وحدة من له * دمع حميم وأنين أنيس

ثم رددت هذه الطريقه بقول بعض من لم يبلغه السلو ريقه

لارعى الله عزمة ضمنت لى * سلوة القلب والتصبر عنهم
ماوفت غير ساعة ثم عادت * مثل قلبى تقول لابد منهم

وبقول ابن آجروم فى مثل هذا الغرض المروم

ياغائبا كان أنسى رهن طلعته * كيف اصطبارى وقد كابدت بينهما

دعواى أنك فى قلبى يعارضها * شوقى اليك فكيف الجمع بينهما

ثم جدّ بى السير الى مصر واستقر فتذكرت قول الصفدى وقد اشتد بالرمل الحر

أقول وحر الرمل قد زاد وقده * ومالى الى شم النسيم سبيل
أظن نسيم الجو قد مات وانقضى * فعهدى به فى الشام وهو عليل

وقول ابن الخياط

قصدت مصرا من رباجلق * بهمة تجسرى بتجريبى
فلم أر الطرة حتى جرت * دموع عينى بالمريزيب

وحين وصلت مصر لم أنس عهد الشام المرعى وأنشدت قول الشهاب الحنبلى الزرعى

أحبتنا والله مذغبت عنكم * سهادى سميرى والمدامع مدرار
ووالله ما اخترت الفراق وانه * برغمى ولى فى ذلك الامر أعذار
اذا شام برق الشام طرفى تتابعت * سحائب جفنى والفؤاد به نار
ألا ليت شعرى هل يعودن شملنا * جميعا ونحو بشار بوع وأقطار

وقول ابن عنين

دمشق بنا شوق اليك مبرح * وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وأنفاس الرياح شمول
تسلسل منها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وقول آخر

نفسى الفداء لانس كنت أعهده * وطيب عيش تقضى كله كرم
وجيرة كان لى الفب بوصلهم * والانس أفضل ما بالوصل يغتنم
بالشام خلفتهم ثم انصرفت الى * سواهم فاعترانى بعدهم ألم
كانوا نعيم فؤادى والحياة له * والآن كل وجود بعدهم عدم

فان أنشد لسان الحال فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال

ياغائبا قد كنت أحسب قلبه * بسوى دمشق وأهلها لا يعلق
ان كان صدك نيل مصر عنهم * لاغرو فهو لنا العدو الازرق

أتيت فى جوابه بقول بعض من برح الجوى به

لله دهر جمعنا شمل لذته * بالشام أعذب من أمن على فرق
مرت لياليه والايام فى خلس * كأنما سلبته كف مسترق
ما كان أحسنها لولا تنقلها * من النعيم الى ذلك من الحرق
رق العذول لحالى بعدها ورثى * لى فى الجوى والنوى والشجو والارق

وبالجملة فتلك الايام من مواسم العمر محسوبه والسعود الى طوالعها منسوبه

وكانت فى دمشق لنا ليال * سرقناهن من ريب الزمان
جعلناهن تاريخ الليالى * وعنوان المسرة والامانى

وهى مغانى التهانى التى ما نسيناها وأمانى زمانى التى نعمت بطور سيناها عليها وعلى

وطني مقصوره والقلب في المعنى مقيم بهما وان كان في غيرهما بالصوره والاشواق اليهما قضاياها موجهة وان كانت غير محصوره

وتله عهـد قد تقضى وان بعـد * فانى عن الايام أعفو وأصفح
بقلبي من ذكراه ما ليس ينقضى * ومن برحاء الشوق ما ليس يبرح
اذا سحت كفى الدموع تسترا * بدت زفرة بين الجوانح تقدح
فان جمعت شملى الليالى بقربهم * تجمع غيلان ومى وصيدح
على أنها الايام جد مزاحها * ورب مجد فى الاذى وهو يمزح

وكثيرا ما يلهج اللسان بقول من قال

وما تفضل الاوقات اخرى لذاتها * ولكن أوقات الحسان حسان

ويردد قول من شوقه متجدد

سقى معهد الاحباب ناقع صيب * من المزن عن مغناه ليس يريم
وان لم أكن من ساكنيه فانه * يحل به خل على كريم

وينشد من يلوم قول من في حشاه وله وفي قلبه كلوم

قد أصبح آخر الهوى أوله * فالعاذل فى هواه ما لى وله
بالله عليك خل ما أوله * وارحم دنفا الذى حشاه وله

وقد امتد بنا الكلام وربما يجعله اللاحى ذريعة لزيادة الملام فلنرجع الى ما كنا بصدده من اجابة المولى الشاهينى أمده الله سبحانه بمدده فنقول مستمدا من واهب العقول انى شرعت بعد الاستقرار بمصر فى المطلوب وكتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الاسماع والقلوب وسلكت فى ترتيبه أحسن اسلوب وعرضت فى سوقه كل نفيس غريب من الغرب الى الشرق مجلوب تستحسن الابصار ما عليه احتوى وتعرف الافكار أنه غير مجتوى ثم وقف بى مركب العزم عن التمام واستوى فأخرته تأخير الغريم لدين الكريم وصدتنى أعراض عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض وأضربت برهة عماله من منحى لاختلاف احوال الدهر نفعا ودفعا وسنعا ومنحا ومرقت عن هدف الاصابة نبال وطرقت فى سدف ليالى الكتابة امور لم تكن تخطر ببال فجاءتنى من المولى المذكور آنفا رسالة دلت على أنه لم يكن عن انجاز الوعد متجانفا فعدت لقضاء الوطر مستقبلا وللجملة مستأنفا وحدانى خطابه الجسيم للاتمام وساقنى ووافقنى كتابه الكريم لتلك الايام وشاقنى وذكرنى تلك الليالى التى لم أنسها وحركنى لتلك المعاهد التى لم أزل أذكر أنسها الالف لا يصبر عن الفه الا كما يطرف بالعين وقد صبرنا عنهم مدة ما هكذا شأن المحبين فياله من كتاب كريم أعرب عن ود صميم وذكر بعهد غير ذميم وود طيب العرف والشميم يخجل ابن المعتز لبلاغته وابن المعزغيم

ولم تر عيناى من قبله * كتابا حوى بعض ما قد حوى
كأن المباسم ميماته * ولاماته الصدغ لما التوى
وأعينه كعيون الحسان * تغازلنا عند ذكر الهوى

كتاب ذكرنا بألفاظه * عهوداً زكت بالحمى واللوى

فكأنه الروض المطرد الانهار والدوح المدبج الازهار

وأشبه روضا تدبج وشيه * اذا جادمن تلك الايادى غمائم

به ألفات كالغصون وقد علا * عليها من الهمز المطل حمائم

وقد سقيت بأنهار البراعة السلساله حدائق حلت بها غانية تلك الرساله تتشوق صبها بالزياره وتشرف بدنوها دياره

زارت الصب فى ليال من البعد فلما دنت رأى الصبح يلمح

قلدت بالعقيان جيد بيان * ليس فيه للفتح من بعد مطمح

فشفت النفس من آلامها وأحيت ميت الهوى مذ حيت بعذب كلامها

كلام كالجواهر حين يبدو * وكالند المعنبر اذ يفوح

له فى ظاهر الالفاظ جسم * ولكن المعانى فيه روح

فصيرت لى ذلك الكتاب سميرا ووردت من السرور مشرعا غميرا وتمثلت بقول بعض من أخلص فى الود ضميرا

يا مفردا أهدى الى كتابه * جلا بحار الذهن فى أثنائها

كالدر أشرق فى سموط عقوده * والزهر والانوار غب سمائها

فأفادنى جذلا وبالى كاسد * وأجار نفسى من جوى برحائها

وحسبت أيام الشباب رجعن لى * فلبست حلى جمالها وبهائها

لا يعدم الاخوان منك محاسنا * كل المفاخر قطرة من مائها

فأكرم به من كتاب جاء من السرى العلى والماجد الاخ الولى

فضضت ختامه فتبينت لى * معانيه عن الخبر الجلى

وكان ألذ فى عينى وأندى * على كبدى من الزهر الجنى

وضمن صدره مالم تضمن * صدور الغانيات من الحلى

وأعرب عن اعتماد متماد ووداد مزداد وأطاب حين أطال وأدى دين الفصاحة دون مطال واشتمل من فصول العبارة على أحسن من الحدق المراض * وأتى من أصول البراعة ببراهين ابن شاهين التى لا خلف فيها ولا اعتراض وروينا من غيث أنامله الهتون ورويناعنه مسند أحمد حسن الاسانيد والمتون وحثنا على العود والرجوع

وكان أجدى من الماء الزلال لذى ظما والمشتهى من الطعام لذى سغب وجوع

وأشهى فى القلوب من الامانى * وأحلى فى العيون من الهجوع

وجلا بنوره ظلام استيحاشى وحشر الى أشتات المسرات دون أن يحاشى ووجدنى فى مكابدة شغوب وأشغال أشربت القلب الكسل واللغوب وحيرت الخواطر وصيرت سحب الاقلام غير مواطر فزحزح عنى الغموم وسلانى وأولانى شكر الله صنيعه من المسرات ما أولانى

حديثه أو حديث عنه يطربنى * هذا اذا غاب أو هذا اذا حضرا

كلاهما حسن عندى أسرّ به * لكنّ احلاهما ماوافق النظرا

وقال آخر

لست مستأنسا بشئ اذا غبت سوى ذكرك الذى لايغيب
أنت دون الجلاس عندى وان كنت بعيدا فالانس منك قريب

وصلت فيه لما ورد مع جملة كتب من تلك الناحيه * وأنوارأهلها ذوى الفضائل الشهيره أظهر من شمس الظهيره في السماء الصاحيه

قلت لما أتت من الشام كتب * من أجلاء نورهم يتألق
مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا * بعيون رأت محاسن جلق

وقلت أيضا

قلت لما وافت من الشام كتب * والليالى تتيح قربا وبعدا
مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا * بعيون رأت محاسن سعدى

وكان من فصول هذا الكتاب الوارد من المولى الشاهينى الذى اقتنص بفضله كل شارد مانصه ومما استخلص قلبى من يدى ترحى وجدد سرورى ونبه فرحى حديث الكتاب وما حديث الكتاب حديث نسخ بحلاوته مرارة العتاب وأنسانى حرارة المصاب فى الانسال والاعقاب وقضى به من حق لسان الدين دينه الذى تبرع به غريم ملىء من البلاغة وهو غير مدين حتى كانى ياسيدى بهذه البشرى أحرزت سوارى كسرى وكان فى مسمعى كل حرف الهامنسوب قميص يوسف فى أجفان يعقوب وحتى كدت أهجر اهلى وبيتى وأسرج لاستقبال هذه البشرى أشهبى وكميتى وحتى انى حاربت نومى وقومى وعزمت على أن أرحل ناقتى فى وقتى ويومى وان ذلك التفليس والتهجير فى جنب ماتبشرت به لحقير وان موقعها الذى هذا العبد الحقير لخطير وقد كنت سألت شيخى حين ورد دمشق الشام واشتم منها العرار والبشام وشرفنى فعرفنى وشاهدنى فعاهدنى على أن يجرى مادار بيننا الذى الجاوره من المسامرة والمحاوره فى ديباجة ذلك الكتاب الذى فتن العقول خبره وسحر الالباب وماقصدت الاأن يجرى اسمى على قلمه ويرقم رسمى فى مطاوى تحريره ورقه ويكون ذكرى مختلطا بذكره كما أن سرّى مرتبط فى المحبة بسرّه فرأيت شيخى لم يتصدّ فى أثناء هذه البشرى لما يفهمنى بالذكرى لانتظر النجاح فى الاخرى ولم يساعدنى على ذلك الملتمس وحبس عنان القلم فاحتبس فانكسرت سورة سرورى بفتورى وتبين لنفسى عن بلوغ ذلك الامل تخلفى وقصورى انتهى * (ثم قال بعد كلام طويل لم نذكره لعدم تعلقه بهذا الغرض ماصورته

وحسبت أن سيدى وحاشاه نسى من ليس ينساه وظننت به الظنون لامور تكون أولا تكون وهل يكره سيدى وشيخى أن يهدى الدنيا فى طبق ثم الاخرى على ذلك النسق ولاشك أن خطه هو الروضة الغنا لابل جنة المأوى فطوبى لنفسى ان جنت ثمرته طوبى ولعمر شيخى انى بذلك لجدير وانى كنت أملك به الخورنق والسدير انتهى مايتعلق بالغرض من ذلك الرقيم الذى شكل منطقه غير عقيم سلك الله تعالى بى وبمن وجهه الصراط المستقيم

وأتى فى المكتوب بأنواع من البلاغه مما تركت ذكره هنا لعدم تعلقه بهذا الامر الخاص الذى يسر الكارع الادب مساغه وختمه بقصيدة نفيسة من نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد وأشهد أنه قد حاز فيها قصب السبق والمجد وما قلت الآبالذى علمت سعد وهذه صورتها

ياسيدا أفديه بالاكثر * من أصغر العالم والاكبر
وياوحيدا قل قولى له * عطارد أنت مع المشترى
ويامجيدا ليس عندى له * الامقال المادح المكثر
أقسمت بالبيت العتيق الذى * حجت اليه الناس والمشعر
ما للعلا والعلم الأبو العباس شيخى أحمد المقرى
ذاك الذى آثرنى منه بالعلم الذى للغير لم يؤثر
وخصنى منه بأشياء لم * يقر بها غيرى ولم يعثر
فرحت عبدا ذا وفاء له * معترفا بالرق لا امترى
فيا أبا العباس يامن غدا * أعظم فى نفسى من معشرى
ومن اذا ماغاب عن ناظرى * كان سمير القلب للمحضر
هات أفدنى سيدى عن علا المولى لسان الدين ذاك السرى
ذاك الوحيد الفذ فى عصره * بل أوحد الدهر والاعصر
ذاك الذى أخبرنى سيدى * عنه مزايا بعد لم تحصر
ذاك الذى العيوق لايعتلى * الى معاليه ولا يجترى
ما قد وعدت العبد فى جمعه * من خبر عن فضله مسفر
بخطك الوضاح وهو الذى * مخبره يربى على المنظر
والشئ لا يرجى اذا ما غدا * منظره يربى على المخبر
نقش على طرس بياض كما * لاحت عيون الرشا الاحور
وأسطر قد سلسلت مثل ما * لاح عذار الشادن الاخفر
ونزهة الانفس معنى غدا * ما بينها ينساب كالكوثر
عذب رقيق مثل ظبى غدا * يلوح طاوى الكشح أوجؤذر
آثار أقلامك وهى التى * أغنت عن الابيض والاسمر
يراعك الجامع راو غدا * يروى اللغى عن لفظك الجوهرى
ينثر مسكا تارة ناظما * وينظم الجوهر بالعنبر
هذا ابن شاهين الفتى أحمد * عن ذكرك المأنوس لم يفتر
فاجعل له ذكرا كريما به * يزدان مغبوطا الى المحشر
واذكر به تاتى وكل الذى * كتبته تحوك فى دفترى
أنت جدير بعد يحيى فكن * ذاكر عبد بالوفا أجدر
وها كها سيارة أعنقت * على جواد كان للبحترى
طرف كريم سابق صافن * مطهم ذى أدب أوفر

ورثيته منه ولكنما * من شاعر وافى الى أشعر
ماللفتى الطائى شوط امرئ * يصطاد نسر الجو بالمنسر
واسلم اعبد لا يرى شيدا * سوى الذى فى ثوبك الاطهر
فى كرم العنصر فردا غدا * طبعك فاشكر كرم العنصر
ما حن مشتاق أخو صبوة * الى خليل فى الهوى مفكر انتهت

فلما وصلنى هذا الخطاب الذى ملأ من الفصاحة الوطاب وحلى فى عينى وقلبى وطاب تحركت دواعى الوجد لذلك المجد الذى ولعت به ولوع ابن الدمينة بصبا نجد وأثار من الهيام والاوار ما يزيد على ما حصل للفرزدق لما فارق النوار وتضاعف الشوق الى تلك الانجاد والاغوار منشدا قول الاول لعل أبى المغوار وتذكرت والذكرى شجون وأطوار تلك الاضواء والانوار المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن وجرى نهره غير آسن فلم يذم فيه الجوار

وان اصطبارى عن معاهد جلق * غريب فما أجفى الفراق وأجفانى
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت بها من شدة الشوق أجفانى

وحصل التصميم على التكميل للتأليف والتتميم رعيا لهذا الولى الحميم أفاض الله تعالى عليه غيث البر العميم وأبقى ظل عزه ممدودا وحلى سودده مودودا وأناله من الخيرات ما ليس محصورا ولا معدودا وجمعنى واياه وأطلع لى بشر محياه وأنشقنى عرف اجتماعه ورياه وكيف لا أستديم أمد بقياه وأعتقد البشائر فى لقياه وأسقى غروس الود بسقياه وهو الصدر الذى أصفى لى الوداد والركن الذى لى بثبوته اعتماد واعتداد

فعليه من مصفى هواه تحية * كالمسك لما فض عنه ختام
تترى بساحته السنية ما دعت * فوق الغصون هديلهن حمام

ودامت فضائله ظاهرة كالشمس محروسة بالسبع المثانى معوذة بالخمس

ولا انفك ما يرجوه أقرب من غد * ولا زال ما يخشاه ابعد من أمس

وبقى من العناية فى حرم امين آمين *(ولما حصل لى كمال الاغتباط عادل على صحة حال الارتباط نشر بساط الانبساط وحدثت لى قوة النشاط وانقشعت عنى سحائب الكسل والنجابت ونادت فكرتى فلبت مع ضعفها وأجابت فاقتدحت من القريحة زندا كان شحاحا وجمعت من مقيد الى حسانا وصحاحا وكنت كتبت شطره وملأت بما تيسر حامشه وسطره ورقت من أنباء لسان الدين بن الخطيب حالا لا تخلق جدتها الاعصر وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامه تكل فيها واسعات الخطا وتقصر * فحدث لى بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الاندلس جملة ومن كان يعضد به الاسلام وينصر * وبعض مفاخرها الباسقه وما ثر أهلها المتناسقه لان كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر * وجئت من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبله وتظهر عمله ونبله وتترع كاس محاسنه من راح المذاكرة واناوه حتى يرى حسن هذا التأليف أبناء هذا التصنيف وأدباؤه وكنت فى المغرب وظلال الشباب ضافيه وسماء الافكار من قزع الاكدار صافيه معتنيا بالفحص

عن أنباء أبناء الاندلس وأخبار أهلها التى تنشرح لها الصدور والانفس وما لهم من السبق في ميدان العلوم والتقدم في جهاد العدوّ الظلوم ومحاسن بلادهم ومواطن جدالهم وجلادهم حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الافاضل الاخيار وانتقيت جواهر فرائدها للعقول بواهر واقتطفت أزاهر أنجمها في أفق المحاضرة زواهر وحصلت فوائد بواطن وظواهر طالما كانت أعين الالباء لنيلها ساواهر وجمعت من ذلك كلما عاليه لو خاطب بها الداعي صمّ الجلامد لانبجس حجرها وحكما غاليه لو عامل بها الايام ربح متجرها وأسجاعا تهتز لها الاعطاف ومواعظ يعمل بمقتضاها من حفت به الالطاف وقوافي موقورة القوادم والخوافي يثني عليها من سلم من الغباوة والصمم ويعترف ببراعتها من لا يعتريه اللمم وطالما أعرض الجاهل الغمر بوجهه عن مثلها وأشاح وأنصت لها الخبر انصات السوار لجرس الحلى ونغم الوشاح وفرح ان ظفر بشئ منها فرح الصائد بالقنيص والسارى العارى ذى البطن الخميص بالزاد والقميص وتركت الجميع بالمغرب ولم استصحب معى منه ما يبين عن المقصود ويعرب الا نزرا يسيرا علق بحفظى وحليت بجواهره جيد لفظى وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظى ولو حضرنى الآن ما خلفته مما جمعت في ذلك الغرض وألفته لقرت به عيون وسرّت ألباب اذ هو والله الغاية في هذا الباب ولكن المرء ابن وقته وساعته وكل ينفق على قدر وسعه واستطاعته وعذر مثلى باد للمنصفين من العباد ان قصرت فيما تصرت أو تخلفت في الذى تكلفت أو أضعت تحرير ما وضعت والتقمت ثدى التقصير ورضعت أو أطعت داعى التوانى فتأخرت عمن سبق وانقطعت ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ومن كانت بضاعته مزجاه فهو من الانصاف بمنجاه اذا أتى بالمقدور وتبرأ من الدعوى في الورود والصدور وعين الرضا عن كل عيب كليله والسلامة من الملامة متعذرة أو قليله وقد قال امامنا مالك صاحب المناقب الجليله كل كلام يؤخذ منه ويردّ الا كلام صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم أزكى صلاة وأتم سلام وشفى بجاهه من الآلام قلوبنا العليله وجعلنا ممن كان اتباع سنته رائده ودليله آمين والحمد لله الذى يسر لى هذا القدر مع ضيق الصدر وقلة بضاعتى وكثرة اضاعتى فان حمده جل جلاله تتضوّع به المطالب طيبا وتقضى ببركته المآرب فيرقى صاحبها على منبر القبول خطيبا وتعذب به المشارب فتنبت في أرض القرطاس من زاكى الغراس ما يروق منظرا نضيرا ويورق غصنا رطيبا وقد أتيت من المقال بما يقر ان شاء الله تعالى عين وامق ويرغم أنف قال وان كنت ممن هو فى ثوب العى رافل وعن نسبته للقصور غير غافل وممن جعل النفس هدفا وصير مكان الدرّ صدفا اذ لسان الدين ابن الخطيب امام هذه الفنون المحقق لذوى الآمال الظنون المستخرج من بحار البلاغة درّها المكنون وله اليد الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها والالفاظ الرائقة التى تزيح وحشة الانفس بايناسها

ناهيك من فرد أغر ممدح * رحب الذرى حر الكلام محسد
بهر الانام رياسة وسياسة * وجلالة فى المنتمى والمحتد

وأتى بكل بديعة في نوعها * لم تخترع وغريبة لم تعهد
ماشئت من شعر أرق من الصبا * وكتابة أزهى من الزهر الندى
وبديع قرطاس توشح متنه * بمنمنم من رقمه ومنجد
بهج كأن الحسن حل أديمه * فكساه ريعان الشباب الاغيد
كالبرد في توشيعه والسلك في * ترصيعه والوشي نمق باليد
وكما سال العذار عليه أو * خطته أيدي الغانيات باثمد
يختال بين موصل ومفصل * ومطرز ومنظم ومنضد
قد قيد الابصار والافكار من * ألفاظه بمثقف ومقيد
ما فيه مغرز اصبع الاوفيه * نتيجة لمخترع ومولد
ولكل جزء حكمة أو ملحة * أو بدعة لمرسل ومقصد
أوليس مثلي قاصرا عن وصفه * والحق نور واضح للمهتدي

وكما قلت وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت الممنون وفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده ليس بممنوع ولا ممنون

ليت شعري أي العبارات توفى * واجب ابن الخطيب مما أروم
وأنا عاجز عن البعض منها * لقصوري وما العيي ملوم
وهو يدعى لسان دين وناهيـ * ـك افتخارا به تتم الرسوم
فبأي الحلي أحلي على من * نال فضلا دونه عرب وروم
وعلى الفرض ما الذي أنتقي منـ * ـه لدى الوصف ان يخص العموم
ألِلَفظ قد ارتوى من معين * لصواب عليه كل يحوم
أم لفهم يستخرج الدر غوصا * من بحار يخشى بها من يعوم
أم لفكر مؤلف في فنون * عن دهاء به تداوى الكلوم
أم لنظم كأنه جوهر السلـ * ـك غلا قدره على من يسوم
تتباهى به الصدور حليا * وتروق العيون منه نجوم
أم لنثر وافى بسحر بيان * فهو كالروح والمعاني جسوم
وأظلته للبديع سماء * تتلالى في جانبيها العلوم
فاستزادت منه النفوس رشادا * واستزانت منه النهى والحلوم
أم لخط منمنم فاق حسنا * مثل وشي تلوح منه الرقوم
أو كزهر في بهجة ورواء * وأريج به تزاح الغموم
والغصون الاقلام والطرس روض * ناضر والمداد غيث سجوم
تلك ست أعجزن وصفي فاني * بسواها مما يجل أقوم

ولم يكن جهي علم الله هذا التأليف لرفد أستهديه أو عرض نائل أستجديه بل لحق ود أؤديه ودين وعد أقدمه وأبديه ووقوف عند حد لا يجوز تعديه وتلبية داع أحييه وأفديه

ان من يرجو نوالا وندى * من بني الدنيا لذو حظ غبين

فلقد كان على غير الهدى * من يسوّيهم برب العالمين
ويرجى منهم الرزق فهل * خالق الكل فقير أو ضنين
أغنى قصد رب مالك * ونريه الخلق جهلا قاصدين
مالنا من مخلص نأتى به * غير جاه المصطفى الهادى الامين
سيد الخلق العماد المرتجى * للملمات شفيع المذنبين
فعليه صلوات تنتحى * حضرة حل بها فى كل حين
والرضا من بعد عن أربعة * هم بحق أمراء المؤمنين
فبهذا ان من يهواهم * ليكونن من أصحاب اليمين
وسط جنات تحييه بها * آنسات قاصرات الطرف عين
بقوارير لجين شربه * وأباريق وكأس من معين
والذى شرفهم يجمعنا * بهم والكون معهم أجمعين

فدونك أيها الناظر فى هذا الكتاب المتجافى عن مذهب النقد والعتاب كلمات سوانح اختلست مع اشتغال الجوانح وتضاد الامور الموانع والموانح وألفاظا بوارح اقتنصت بين أشغال الجوارح وطرفا أسمت الطرف فى مرعاها وكانت هملا غير سوارح وتحفا يحصل بها الناظر الامتاع ولا يعدها من سقط المتاع المبتاع ويلهج بها المرتاح ويستأنس المستوحش المرتاع

وبعد أن ختمت تمام هذا التصنيف وأمعنت النظر فيما يحصل به اشتراط لسامعه والتشنيف قسمته قسمين وكل منهما مستقل بالمطلوب فيصح أن يسميا باسمين

(القسم الاول) فيما يتعلق بالاندلس من الاخبار المترعة الاكواب والانباء المنتجعة صوب الصواب الرافلة من الافادة فى سوابغ الاثواب وفيه بحسب القصد والاقتصار وتحرى التوسط فى بعض المواضع دون الاختصار ثمانية من الابواب

(الباب الاول) فى وصف جزيرة الاندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيرها وكمالها واستوائها واشتمالها على كثير من المنافع والمحاسن واحتوائها وكرم نباتها الذى سقته سماء البركات من جنباتها بنافع أنوائها وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور وتعداد كثير مالها من البلدان والكور المستمدة من أضوائها

(الباب الثانى) فى القاء بلد الاندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وصيرورتها ميدانا لسبق الجياد ومحط رحال الارتياد والارتياد وما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه زياد ونبا وصل اليه اعتيام وتقرر عنده اعتياد

(الباب الثالث) فى سرد بعض ما كان للدين بالاندلس من العز السامى العماد والقهر للعدو فى الرواح والغدو والتحرك للهدو البالغ غاية الآماد واعمال أهلها للجهاد بالجد والاجتهاد فى الجبال والوهاد بالاسنة المشرعة والسيوف المسلة من الاغماد

(الباب الرابع) فى ذكر قرطبة التى كانت الخلافة بمصرها للاعداء قاهره وجامعها الاموى ذى البدائع الباهية الباهره والالماع بحضرتى الملك الزهراء الناصرية والعامرية

الزاهره ووصف جملة من منتزهات تلك الاقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهره وما يجر اليه شجون الحديث من أمور تقتضي بحسن ايرادها القرائح الوقادة والافكار الماهره

(الباب الخامس) في التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق الذاكية العرار والبشام ومدح جماعة من أولئك الاعلام ذوي الالباب الراجحة والاحلام لشامة وجنة الارض دمشق الشام وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوي السودد والاحتشام ومخاطباتهم للمؤلف الفقير حين حلها عام سبعة وثلاثين وألف وشاهد برق فضلها المبين وشام

(الباب السادس) في ذكر بعض الوافدين على الاندلس من أهل المشرق المهتدين في قصدهم اليها بنور الهداية المضيء المشرق والاكابر الذين حلوا منها بحلاهم فيها الجيد والمفرق وافتخروا برؤية قطرها المونق على المشئم والمعرق

(الباب السابع) في نبذة مما من الله تعالى به على أهل الاندلس من توقد الاذهان وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عز أو هان وحوزهم في ميدان البراعة من قصب البراعة خصل الرهان وجملة من أجوبتهم الدالة على لوذعيتهم وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان

(الباب الثامن) في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد اليها وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره واستعماله في أمرها حيل فكره حتى استولى دمره الله عليها ومحا منها التوحيد واسمه وكتب على مشاهدها ومعاهدها وسمه وقرر مذهب التثليث والرأي الخبيث لديها واستغاثة من بها بالنظم والنثر أهل ذلك العصر من سائر الاقطار حين تعذرت بحصارها مع قلة حماتها وأنصارها المآرب والاوطار وجاءها الاعداء من خلفها ومن بين يديها أعاد الله تعالى اليها كلمة الاسلام وأقام فيها شريعة سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام ورفع يد الكفر عنها وعما حواليها آمين ولم أخل بابا في هذا القسم من كلام لسان الدين بن الخطيب وان قل مع أن القسم الثاني بذلك كما ستقف عليه قد استقل وهذا آخر ما تعلق بالقسم الاول وعلى الله سبحانه المتكل والمعول

(القسم الثاني) في التعريف بلسان الدين بن الخطيب وذكر أنبائه التي يروق سماعها ويتأرج نفحها ويطيب وما يناسبها من احوال العلماء الافراد والاعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد وفيه ايضا من الابواب ثمانيه موصلة الى جنات أدب قطوفها دانيه وكل غصن منها رطيب

(الباب الاول) في ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه الذين ورث عنهم المجد وارتضع در أخلافه وما يناسب ذلك مما لا يذهب المنصف الى خلافه

(الباب الثاني) في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ثم قلبه له ظهر المجن على عادته في مصافاته ومنافاته وارتباكه في شباكه وما لقي من احن الحاسد

ذى المذهب الفاسد ومحن الكائد المستأسد وآفاته وذكر قصوره وأمواله وغير ذلك من أحواله فى تقلباته عند ما قابله الزمان بأهواله فى بدئه وإعادته إلى وفاته .

(الباب الثالث) فى ذكر مشايخه الجله هداة الناس ونجوم المله وما يتصل بذلك من الاخبار الشافية للعله والمواعظ المنجية من الاهواء المضله والمناسبات الواضحة البراهين والادله

(الباب الرابع) فى مخاطبات الملوك والاكابر الموجهة الى حضرته العليه وثناء غير واحد من اهل عصره عليه وصرف القاصدين وجوه التأميل اليه واجتلائهم أنوار رياسته الجليه

(الباب الخامس) فى ايراد جملة من نثره الذى عبق أريج البلاغة من نفحاته ونظمه الذى تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته وما يتصل بذلك من بعض أزجاله وموشحاته ومناسبات واثقة من فنون الادب ومصطلحاته

(الباب السادس) فى مصنفاته فى الفنون ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون وما كمل منها أو اخترمته دون اتمامه المنون

(الباب السابع) فى ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستدلين به على المنهاج المتلقين انواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهاج

(الباب الثامن) فى ذكر أولاده الرافلين فى حلل الجلاله المقتفين أوصافه الحميدة وخلاله الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد عن غير كلاله ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا المشتملة على النصائح الكافيه والحكم الشافيه من كل مرض بلا ثنيا المنقذة من انواع الضلاله وما يتبع ذلك من المناسبات القويه والامداح النبويه التى لها على حسن الختام اظهر دلاله (وقد كنت) أولا سميته بعرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب ثم وسمته حين ألحقت أخبار الاندلس به بنفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب وله بالشام تعلق من وجوه عديده هادية لمتأمله الى الطرق السديده أولها أن الداعى لتأليفه اهل الشام أبقى الله مآثرهم وجعلها على مرّ الزمان مديده ثانيها أن الفاتحين للاندلس هم اهل الشام ذووا النجدة والشوكة الحديده ثالثها أن غالب اهل الاندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطنا مستأنفا وحضرة جديده ورابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها شبهها بها فى القصر والنهر والدوح والزهر والغوطة الفيحاء وهذه مناسبة قوية العرى شديده * هذا وانى أسأل ممن وقف عليه أن ينظر بعين الاغضاء اليه كما أطلب ممن كان السبب فى تصنيفه والداعى الى تأليفه وترصيفه استناد الركن الثقه واعتمادا على الود والمقه أن يصفح عما فيه من قصور ويسمح ويلاحظه بعين الرضا الكليلة ويلمح اذ ركبت شكل منطقه والاشجان غالبه وقضية الغربة موجبة للكربة ولبعض الآمال سالبه وهو وان لم يوف بكل الغرض فلا يخلو من فائدة وقد يستدل على الجوهر بالعرض فان أديت المفترض وذلك المرام الذى أرتضيه ويوجب الود ويقتضيه

والانفس بي أن بدأت به جهدي وأنفقت من وجدي على قدر ما عندي وقد توهمت أني لم اسبق الى مثله في بابه اذ لم أقف له على نظير أتعلق بأسبابه ورجوت أن يكون هدية مستملحة مستعذبه وطرفة مقبولة مستغربه

هديتي تقصير عن همتي * وهمتي اكثر من مالي
وخالص الود ومحض الاخا * اكثر ما يهديه أمثالي

وأوردت فيه من نظم وانشاء ما يكفي المقتصر عليه ان شاء ومن أخبار ملوك ورؤساء وطبقات من احسن أو أساء ما فيه اعتبار للمتأمل وادّكار للراحل المتحمل وزينة للذاكر المتجمل وتنكيت على اهل البطر وتبكيت لمن خرج من دنياه ولم يقض من الطاعة الوطر

أرى أولاد آدم ابطرتهم * حظوظهم من الدنيا الدنيه
فلم بطروا وأولهم منيٌّ * اذا نسبوا وآخرهم منيه

وفيه ايقاظ لمثلي من سنة الغفله وحث على عدم الاغترار بالمهله وتنبيه للابس برد الشباب القشيب أنه لابد من حادث الموت قبل أو بعد المشيب

لله درّ الشيب من واعظ * وناصح منهاجه واضح
كل امرئ يحجبه شأنه * وحادث الدهر له فاضح

فكم بالشعلى عصر الشباب وشال لفراق عهد الصبا والاحباب انساه طارق الزمان سلمى والرباب

مضى عصر الشباب كلمح برق * وعصر الشيب بالاكدار شيبا
وما أعددت قبل الموت زادا * ليوم يجعل الولدان شيبا

وما احسن قول بعض الاعلام

مضى ما مضى من حلو عيش ومرّه * كأن لم يكن الا كأضغاث أحلام

وقول من أرشد سفيها

انما هذه الحياة متاع * فالجهول الجهول من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التي انت فيها

وفي معناه لغيره

دنياك شيآن فانظر * ماذانك الشيآن
مافات منها فحلم * وما بقي فأماني

وما احكم قول ابن حطان مع وقوعه من البدعة في أشطان

يأسف المرء على مافاته * من لبانات اذا لم يقضها
وتراه ضاحكا مستبشرا * بالتي امضى كأن لم يمضها
انها عندي كأحلام الكرا * لقريب بعضها من بعضها

ولغيره

والله لو كانت الدنيا بأجمعها * تبقى علينا ويأتي رزقها رغدا

ما كان من حق حر أن يذل لها * فكيف وهي متاع يضمحل غدا

ولآخر

لاحظ في الدنيا لمستبصر * يلمحها بالفكرة الباصره
ان كدرت مشربه ملها * وان صفت كدرت الآخره

ويعجبني قول الوزير ابن المغربي

اني ابثك من حديثي والحديث له شجون
فارقت موضع مرقدي * ليلا ففارقني السكون
قل لي فأول ليلة * للقبر كيف ترى اكون

وقول ناميه

تأمل في الوجود بعين فكر * تر الدنيا الدنية كالخيال
ومن فيها جميعا سوف يفنى * ويبقى وجه ربك ذو الجلال

وقول بعض العارفين

استعدي يا نفس للموت واسعى * لنجاة فالحازم المستعد
قد تبينت أنه ليس للحي خلود ومامن الموت بد
انما أنت مستعيرة ماسو * ف تردين والعواري ترد
أنت تسهين والحوادث لا تسهو وتلهين والمنايا تجد
أي ملك في الارض أو أي حظ * لامرئ حظه من الارض لحد
لا ترجى البقاء في معدن المو * ت ودار حتوفها لك ورد
كيف يرجو امرؤ لذاذة ايا * م عليه الانفاس فيها تعد

وأسأل من مبلغ السائلين مايرجون أن يصفح عن زلاتي ويسامحني فيما أوردت في هذا الكتاب من الهزل والمجون الذي جرت المناسبة اليه والحديث شجون وما القصد منه الا ترويح قلوب الذين يسوقون عيس الاسمار ويزجون وفيما أوردت من المواعظ والنصائح وحكايات الاولياء الذين طيب زهر مناقبهم فائح والتوسل بمحاسن الامداح النبوية أن يستر بفضله سبحانه القبائح ويرينا وجه القبول بلا اكتتام ويمنحنا الزلفى وحسن الختام ومن يتوسل بالنبي محمد شفيع البرايا السيد السند الاسنى فذا الجدير أن يكفر ذنبه ويمنح نيل القصد والختم بالحسنى وهذا اوان الشروع في الاصول من هذا الكتاب والفروع وعلى الله سبحانه أعتمد ومن معونته أستمد

(القسم الاول)

فيما يتعلق بالاندلس من الاخبار المترعة الاكواب * والانباء المنجبة صوب الصواب * الرافلة من الافادة في سوابغ الاثواب وفيه بحسب القصد والاقتصار وتحري التوسط في بعض المواضع دون الاختصار ثمانية من الابواب

(الباب الاول)

في وصف جزيرة الاندلس وحسن هوائها * واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها * واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها * وكرم بقعتها التي سقتها سماء البركات بنافع أنوائها * وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصور وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور المستمدة من أضوائها * فأقول * محاسن الاندلس لا تستوفى بعباره * ومجاري فضلها لا يشق غباره * وأنى تجاري وهي الحائزة قصب السبق * في أقطار الغرب والشرق (قال ابن سعيد) انما سميت بالاندلس بن طوبال بن يافث بن نوح لانه نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها واليه تنسب سبتة (قال) وأهل الاندلس يحافظون على قوام اللسان العربي لانهم اما عرب أو متعرّبون انتهى (وقال ابن غالب) انه اندلس بن يافث والله تعالى اعلم (وقال الوزير) لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى في بعض كلام له اجرى فيه ذكر البلاد الاندلسية أعادها الله تعالى للاسلام ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ما نصه خص الله تعالى بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الانسان ونبل الاذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها انتهى (قال ابو عامر السلمي) في كتابه المسمى بدرر القلائد وغرر الفوائد الاندلس من الاقليم الشامي وهو خير الاقاليم وأعدلها هواء وترابا وأعذبها ماء وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا وهو أوسط الاقاليم وخير الامور أوساطها انتهى (قال ابو عبيد البكري) الاندلس شامية في طيبها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها أهوازية في عظم جبايتها صينية في جواهر معادنها عدنية في منافع سواحلها فيها آثار عظيمة لليونانيين اهل الحكمة وحاملي الفلسفة وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار بالاندلس هرقلس وله الاثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية والاثر في مدينة طركونة الذي لا نظير له (قال المسعودي) بلاد الاندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة انتهى باختصار ونحوه لابن اليسع اذ قال طولها من اربونة الى اشبونة وهو قطع ستين يوما للفارس المجد وانتقد بأمرين احدهما أنه يقتضي أن اربونة داخلة في جزيرة الاندلس والصحيح أنها خارجة عنها والثاني أن قوله ستين يوما للفارس المجد اعياء وافراط وقد قال جماعة انها شهر ونصف (قال ابن سعيد) وهذا يقرب اذا لم يكن للفارس المجد والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر وكذا قال الحجاري وقد سالت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا احسابا بالمراحل الجيدة افضى الى نحو شهر بنيف قليل (قال الحجاري) في موضع من كتابه ان طول الاندلس من الحاجز الى اشبونة ألف ميل ونيف اه وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاحة كما قاله ابن سعيد وأطال في ذلك ثم قال بعد كلام ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلا وهذا عرض الاندلس عند رأسها من جهة الشرق ولقلته سميت جزيرة والا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر

بالارض الكبيرة وعرض جزيرة الاندلس فى وسطها عند طليطلة ستة عشر يوما واتفقوا على أن جزيرة الاندلس مثلثة الشكل واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز اربونة فمن قال انه فى أربونة وان هذه المدينة تقابلها مدينة برديل التى فى الركن الشرقى الشمالى أحمد بن محمد الرازى وابن حيان وفى كلام غيرهما أنه فى جهة اربونة وحقق الامر الشريف وهو أعرف بتلك الجهة لتردده فى الاسفار براً وبحراً اليها وتفرغه لهذا الفن (قال ابن سعيد) وسألت جماعة من علماء هذا الشان فأخبرونى أن الصحيح ماذهب اليه الشريف وأن اربونة وبرشلونة غير داخلتين فى أرض الاندلس وان الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطركونة فى موضع يعرف بوادى زنلقطو وهنالك الحاجز الذى يفصل بين الاندلس والارض الكبيرة ذات الالسن الكثيرة وفى هذا المكان جبل البرت الفاصل فى الحاجز المذكور وفيه الابواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ولم يكن للاندلس من الارض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر وذكر الشريف أن هذه الابواب يقع فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحر الذى بين جزيرتى ميورقة ومنورقة وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى والركن الشمالى أربعون ميلا قال وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل وهى من مدن الافرنجة مطلة على البحر المحيط فى شمال الاندلس قال ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن الى الشمال فى بلاد الفرنجة ولهم به جزائر كثيرة ودوكر امن الركن الشمالى عند شنت ياقوه من ساحل الجلالقة فى شمال الاندلس حيث تبتدئ جزيرة برطانية الكبيرة فيتصور هنالك بحر داخل بين ارضين من الناس من يجعله بحرا منفردا خارجا من البحر المحيط لطوله الى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل (وذكر الشريف) أن عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل مجمع البحرين صنما سطلا مشبها بصنم قادس والركن الثالث بقربه من جبل الاغر حيث صنم قادس والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط ماراً مع ساحل الاندلس الجنوبية الى جبل البرت المذكور انتهى والكلام فى مثل هذا طويل الذيل *(قال الشيخ احمد بن محمد ابن موسى الرازى) بلد الاندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجناب منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام ذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وسطة من الحال لا يتولد فى احدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص تتصل فواكهه اكثر الازمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة أمّا الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره وأمّا الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره فمادة الخيرات بالبلد متمادية فى كل الاحيان وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل اوان وله خواص فى كرم النبات توافق فى بعضها ارض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره منها أن المحلب وهو المقدم فى الافاويه والمفضل فى انواع الاشنان لا ينبت بشئ من الارض الا بالهند والاندلس وللاندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع

الجلالة وليها البرّ والبحر والسهل والوعر وشكلها مثلث وهي معتمدة على ثلاثة أركان الاوّل هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالاندلس ومنه مخرج البحر المتوسط الشامىّ الآخذ بقبلىّ الاندلس والركن الثانى هو بشرقىّ الاندلس بين مدينة بربونة ومدينة برديل مما بأيدى الفرنجة اليوم بازاء جزيرتى ميورقة ومنورقة مجاورة من البحرين البحر المحيط والبحر المتوسط وبينهما البرّ الذى يعرف بالابواب وهو المدخل الى بلاد الاندلس من الارض الكبيرة على بلاد افرنجة ومسافته بين البحرين مسيرة يومين ومدينة بربونة تقابل البحر المحيط والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جليقية حيث الجبل الموفى على البحر وفيها الصنم العالى المشبه بصنم قادس وهو الطالع على بلد برطانية قال والاندلس اندلسان فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها أندلس غربىّ وأندلس شرقىّ فالغربىّ منهما ما جرت أوديته الى البحر المحيط الغربىّ وتمطر بالرياح الغربية ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف الى بلد شنتمرية طالعا الى حوز اغريطة المجاورة لطليطلة مائلا الى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنة الحلفا التى من بلد لورقة والحوز الشرقىّ المعروف بالاندلس الاقصى وتجرى أوديته الى الشرق وأمطاره بالريح الشرقية وهو من حدّ جبل البشكنش هابطا مع وادى ابرة الى بلد شنت مريه ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط وفى القبلة منه البحر الغربىّ الذى منه يجرى البحر المتوسط الخارج الى بلد الشام وهو البحر المسمى ببحر تيران ومعناه الذى يشق دائرة الارض ويسمى البحر الكبير انتهى قال ابو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام بلد الاندلس عند علماء اهله اندلسان فالاندلس الشرقىّ منه ما صبت أوديته الى البحر الرومىّ المتوسط المتصاعد من اسفل ارض الاندلس الى المشرق وذلك ما بين مدينة تدمير الى سرقسطة والاندلس الغربىّ ما صبت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحد الى ساحل المغرب فالشرقىّ منهما يمطر بالريح الشرقية ويصلح عليها والغربىّ يمطر بالريح الغربية وبها صلاحه وجباله هابطة الى الغرب جبلا بعد جبل وانما قسمته الاوائل جزءين لاختلافهما فى حال امطارهما وذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الاندلس الغربىّ وقحط الاندلس الشرقىّ ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الاندلس الشرقىّ وقحط الغربىّ وأوديته هذا القسم تجرى من الشرق الى الغرب بين هذه الجبال وجبال الاندلس الغربىّ تمتدّ الى الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف الى القبلة والاودية التى تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها الى القبلة وبعضها الى الشرق وتنصب كلها الى البحر المحيط بالاندلس القاطع الى الشام وهو البحر الرومىّ وما كان من بلاد جوفى الاندلس من بلاد جليقية وما يليها فان أوديته تنصب الى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف (وصفة الاندلس) شكل مركن على مثال الشكل المثلث ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس وركنها الثانى فى بلد جليقية حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرة برطانية وركنها الثالث بين مدينة بربونة ومدينة برديل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامىّ المتوسط فيكادان يجتمعان

في ذلك الموضع فيصير بلد الاندلس جزيرة بينهما في الحقيقة لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب منه المدخل الى الارض الكبيرة التي يقال لها الابواب ومن قبله يتصل بلد الاندلس بتلك البلاد المعروفة بالارض الكبيرة ذات الالسن المختلفة قال وأول من سكن بالاندلس على قديم الايام فيما نقلته الاخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالاندلش معجمة الشين بهم سمي المكان فعرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة كانوا الذين عمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرا على دين التمجس والاهمال والافساد في الارض ثم أخذهم الله بذنوبهم فحبس المطر عنهم ووالى القحط عليهم وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها وغارت عيونها ويبست أنهارها وبادت أشجارها فهلك اكثرهم وفر من قدر على الفرار منهم فأقفرت الاندلس منهم وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة وذلك من حد بلد الفرنجة الى حد بحر الغرب الاخضر وكان عدة ما عمرتها هذه الامة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة ثم ابتعث الله لعمارتها الافارقة فدخل اليها بعد اقفارها تلك المدة الطويلة قوم منهم اجلاهم ملك افريقية تخففا منهم لاجحال توالى على اهل مملكته وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم فحمل منهم خلقا في السفن مع قائد من قبله يدعى ابطريقس فأرسوا بريف الاندلس الغربي وحتلوا بجزيرة قادس فاصابوا الاندلس قد أمطرت وأخصبت فجرت انهارها وانفجرت عيونها وحييت اشجارها فنزلوا الاندلس مغتبطين وسكنوها معمرين وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة الارض ما بين الساحل الذي ارسوا فيه بغربيها الى بلد الافرنجة من شرقها ونصبوا من انفسهم ملوكا عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على اقامة دولتهم وهم مع ذلك على ديانة من قبلهم من الجاهلية وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من ارض اشبيلية اختزعها ملوكهم وسكنوها فاتسق ملكهم بالاندلس مائة وسبعة وخمسين عاما الى أن أهلكهم الله تعالى ونسخهم بعجم رومة بعد أن ملك من هؤلاء الافارقة في مدتهم تلك احد عشر ملكا ثم صار ملك الاندلس بعدهم الى عجم رومة وملكهم اشبان بن طيطش وباسمه سميت الاندلس اشبانية وذكر بعضهم أن اسمه اصبهان فأحيل بلسان العجم وقيل بل كان مولده باصبهان فغلب اسمها عليه وهو الذي بنى اشبيلية وكان اشبانية اسما خالصا للبلد اشبيلية الذي كان ينزله اشبان هذا ثم غلب الاسم بعده على الاندلس كله فالعجم الآن يسمونه اشبانية لآثار اشبان هذا فيه وكان احد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا وكان غزا الافارقة عند ما سلطه الله عليهم في جموعه فقض عساكرهم وأثخن فيهم ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها منه فابتنى عليهم مدينة اشبيلية اليوم واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها الله عليه وغلبهم واستوت له مملكة الاندلس بأسرها ودان له من فيها فهدم مدينة طالقة ونقل رخامها وآلاتها الى مدينة اشبيلية فاستتم بناءها واتخذها دار مملكته واستغلظ سلطانه في الارض وكثرت جموعه فعلا وعظم عتوه ثم غزا ايليا وهي القدس الشريف من اشبيلية بعد سنتين من ملكه خرج اليها في السفن فغنمها وهدمها وقتل فيها من اليهود مائة ألف واسترق مائة ألف ونقل رخام ايليا وآلاتها الى الاندلس وقهر الاعداء واشتد سلطانه انتهى

(اول من سكن بالاندلس)

(وذكر

(الغرائب التى اصيبت فى مغانم الاندلس ايام فتحها)

(وذكر بعض المؤرخين) أن الغرائب التى اصيبت فى مغانم الاندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقلية الدر التى ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر انما كانت مما صار لصاحب الاندلس من غنيمة بيت المقدس اذ حضر فتحها مع بخت نصر وكان اسم ذلك الملك بريان وفى سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تأتى به نبي الله سليمان على نبينا وعليه وعلى جميع الانبياء الصلاة والسلام انتهى (وقال غير واحد من المؤرخين) كان اهل المغرب الاقصى يضرون بأهل الاندلس لاتصال الارض ويلقون منهم الجهد الجهيد فى كل وقت الى أن اجتاز بهم الاسكندر فشكوا حالهم اليه فأحضر المهندسين وحضر الى الزقاق فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامى فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامى بشئ يسير فأمر برفع البلاد التى على ساحل البحر الشامى ونقلها من الحضيض الى الاعلى ثم امر بحفر ما بين طنجة وبلاد الاندلس من الارض فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبنى عليها رصيفا بالحجر والجيار بناء محكما وجعل طوله اثنى عشر ميلا وهى المسافة التى كانت بين البحرين وبنى رصيفا آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الاعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل فى البحر الشامى ثم فاض ماؤه فأغرق مدنا كثيرة وأهلك امما عظيمة كانت على الشطين وطفا الماء على الرصيفين احدى عشرة قامة فأما الرصيف الذى يلى بلاد الاندلس فانه يظهر فى بعض الاوقات اذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خط واحد وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة وأما الرصيف الذى من جهة العدوة فان الماء حمله فى صدره واحتفر ما خلفه من الارض اثنى عشر ميلا وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسبتة وطنجة وعلى طرفه من الناحية الاخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء وبين سبتة والجزيرة الخضراء عرض البحر انتهى ملخصا وقد تكرر بعضه مع ما جلبناه والعذر بين لارتباط الكلام بعضه ببعض (وقال ابن سعيد) ذكر الشريف أن لاحظ لارض الاندلس فى الاقليم الثالث قال ويمر بجزيرة الاندلس الاقليم الرابع على ساحلها الجنوبى وما قاربه من قرطبة واشبيلية ومرسية وبلنسية ثم يمر على جزيرة صقلية وعلى ما فى سمتها من الجزائر والشمس مدبرته * والاقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة وما فى سمتهما الى بلاد أرغون التى فى جنوبها برشلونة ثم يمر على رومية وبلادها ويشق بحر البنادقة ثم يمر على القسطنطينية ومدبره الزهرة * والسادس يمر على ساحل الاندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة فى قشتالة وبرتقال وما فى سمتها وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ومدبره عطارد * ويمر الاقليم السابع فى البحر المحيط الذى فى شمال الاندلس الى جزيرة انقطرة وغيرها من الجزائر وما فى سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان قال البيهقى وفيه تقع جزيرة تولى وجزيرتا اجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال والبلغار ومدبره القمر انتهى (وقال بعض العلماء) ان النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا

بستانا متصلا من البحر المحيط بالاندلس الى خليج القسطنطينية وعندهم عموم شاه بلوط والبندق والجوز والفستق وغير ذلك مما يكون اكثر وأمكن فى الاقاليم الباردة والتمر عندهم معدوم وكذا الموز وقصب السكر وربما يكون شئ من ذلك فى الساحل لان هواء البحر يدفئ انتهى (قال ابن حيان فى المقتبس) ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على اشبان المذكور وهو يحرث الارض بفدن له ايام حراثته فقال له يا اشبان انك لذو شأن وسوف يحظيك زمان ويعليك سلطان فاذا أنت غلبت على ايليا فارفق بذرية الانبياء فقال له اشبان أساخر بى رحمك الله أنى يكون هذا منى وأنا ضعيف ممتهن حقير فقير ليس مثلى ينال السلطان فقال له قد قدر ذلك فيك من قدر فى عصاك اليابسة ما تراه فنظر اشبان الى عصاه فاذا بها قد أورقت فريع لما رأى من الآية وذهب الخضر عنه وقد وقع الكلام بخلده ووقرت فى نفسه الثقة بكونه فترك الامتهان من وقته وداخل الناس وصحب اهل البأس منهم وسما به جده فارتقى فى طلب السلطان حتى أدرك منه عظيما وكان منه ما كان ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله وكان ملكه كله عشرين سنة وتمادى ملك الاشبانيين بعده الى أن ملك منهم الاندلس خمسة وخمسون ملكا ثم دخل على هؤلاء الاشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات وملكهم طلويش بن بيطه وذلك زمن بعث المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أتوا الاندلس من قبل رومة وكانوا يملكون افرنجة معها ويبعثون عمالهم اليها فاتخذوا دار مملكتهم بالاندلس مدينة ماردة واستولوا على مملكة الاندلس واتصل ملكهم بها مدة الى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ثم دخل على هؤلاء البشتولقات امة القوط مع ملك لهم فغلبوا على الاندلس واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة وتفردوا بسلطانهم واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم وأقروا بها سرير ملكهم فبقى باشبيلية علم الاشبانيين ورياسة أوليتهم (وقد كان عيسى المسيح عليه السلام) بعث الحواريين فى الارض يدعون الخلق الى ديانته فاختلف الناس عليهم وقتلوا بعضهم واستجاب لهم كثير منهم وكان من اسرعهم اجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش ملك القوط فتنصر ودعا قومه الى النصرانية وكان من صميم اعاظمهم وخير من تنصر من ملوكهم وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكما ولا أرشد رأيا ولا أحسن سيرة ولا أجود تدبيرا فكان الذى اصل النصرانية فى مملكته ومضى اهلها على سنته الى اليوم وحكموا بها والانجيلات فى المصاحف الاربعة التى يختلفون فيها من انتساخه وجمعه وتثقيفه فتناسقت ملوك القوط بالاندلس بعده الى أن غلبتهم العرب عليها وأظهر الله تعالى دين الاسلام على جميع الاديان (فوقع فى تواريخ العجم القديمة) أن عدة ملوك هؤلاء القوط بالاندلس من عهد اتاناوينوس الذى ملك فى السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصرى لمضى أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم الى عهد لذريق آخرهم الذى ملك فى السنة التاسعة والاربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر وهو الذى دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ستة وثلاثون ملكا وأن مدة أيام ملكهم بالاندلس ثلثمائة واثنتان وأربعون سنة انتهى (وقال جماعة) ان القوط غير البشتولقات وان البشتولقات من عجم رومة وانهم جعلوا دار ملكهم ماردة واتصل ملكهم

(خبر اشبان الذى بنى اشبيلية)

الى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ثم دخل عليهم القوط واتخذوا طليطلة دار مملكة ثم ذكر تنصر ملكهم خشندش مثل ماتقدم ثم ذكر أن عدة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكا (وذكر الرازي) أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح وقيل غير ذلك انتهى (وذكر الرازي) في موضع آخر نحو ماتقدم وزيادة ونصه ان الاندلس في آخر الاقليم الرابع من الاقاليم السبعة التي تقدم ذكرها التي هي ربع معمور الدنيا فهي موسطة من البلدان كريمة البقعة بطبع الخلقة طيبة التربة مخصبة القاعة منبجسة العيون الثرار منفجرة الانهار الغزار قليلة الهوام ذوات السموم معتدلة الهواء اكثر الازمان لايزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالابدان وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال وفواكهها تتصل طول الزمان فلاتكاد تعدم لان الساحل ونواحيه يبادر بباكوره كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصها برد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيها من ذلك حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان فمادة الخيرات فيها متصلة كل اوان ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدم على أجناسه في الطيب والصبر على النار وبها شجر المحلب المعدود في الافاويه المقدم في انواع الاشنان كثير واسع وقد زعموا انه لايكون الابالهند وبها فقط ولها خواص نباتية يكثر تعدادها انتهى (وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال) يوجد في ناحية دلاية من اقليم البشرة عود الالنجوج لايفوته العود الهندي ذكاء وعطر رائحة وقد سيق منه الى خيران الصقلبي صاحب المرية وان اصل منبته كان بين أحجار هنالك وباكشونية جبل كثيرا مايتضوع ريحه ريح العود الذكي اذا ارسلت فيه النار وبحر شذونة يوجد العنبر الطيب الغربي وفي جبل منت ليون المحلب ويوجد بالاندلس القسط الطيب والسنبل الطيب والجنطيانة تحمل من الاندلس الى جميع الآفاق وهو عقار رفيع والمر الطيب بقلعة ايوب وأطيب كهرباء الارض بشذونة درهم منها يعدل دراهم من الجلوبة وأطيب القرمز قرمز الاندلس واكثر مايكون بنواحي اشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية ومن الاندلس يحمل الى الآفاق وبناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد وقد يوجد في غيرها وعلى مقربة من حضرة لورقة من عمل قرطبة معدن البلور وقد يوجد بجبل شعيران وهو شرقي بيرة وحجر الجادي يوجد بناحية مدينة الاشبونة في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا كالسراج والياقوت الاحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مالقة الا أنه دقيق جدا لايصلح للاستعمال لصغره ويوجد حجر يشبه الياقوت الاحمر بناحية بجانة في خندق يعرف بقرية تاشرة أشكالا مختلفة كانه مصبوغ حسن اللون صبور على النار وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير وحجر الشادنة بجبال قرطبة كثير ويستعمل ذلك في التذاهيب وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت وهو أنفع شئ للحصاة وحجر المرقيشيثا الذهبية في جبال ابدة لانظير لها في الدنيا ومن الاندلس تحمل الى جميع الآفاق لفضلها والمغنيسيا بالاندلس كثير وكذلك حجر الطلق ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشلونة الا أنه جامد اللون ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية مالقط منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربعا ومعدن الذهب بنهر لاردة يجمع منه كثير ويجمع ايضا في ساحل

الاشبونة ومعادن الفضة فى الاندلس كثيرة فى كورة تدمير وجبال بجة بجانة وباقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل وباشكونية معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضة وله معادن بناحية افرنجة وليون ومعدن الزئبق فى جبل البرانس ومن هنالك يتجهز به الى الآفاق ومعادن الكبريت الاحمر والاصفر بالاندلس كثيرة ومعدن التوتيا الطيبة بساحل البيرة بقرية تسمى بطرنة وهى ازكى توتيا وأقواها فى صبغ النحاس وبجبال قرطبة توتيا وليست كالبطرنية ومعدن الكحل المشبه بالاصفهانى بناحية مدينة طرطوشة يحمل منها الى جميع البلاد ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالاندلس اكثر من أن تحصى وما ذكرت هنا وان تكرر بعضه مع ماسبق او يأتى فهو بجمع النظائر وما لم نذكره اكثر والله تعالى أعلم (ومن خواص طليطلة) أن حنطتها لاتتغير ولا تسوّس على طول السنين يتوارثها الخلف عن السلف وزعفران طليطلة هو الذى يعم البلاد ويتجهز به الرفاق الى الآفاق وكذلك الصبغ السماوى انتهى (وقال المسعودى) فى مروج الذهب بعد كلام مانصه والعنبر كثير ببحر الاندلس يجهز الى مصر وغيرها ويحمل الى قرطبة من ساحل لها يقال له شنترين وشذونة تبلغ الاوقية منه بالاندلس ثلاثة مثاقيل ذهبا والاوقية بالبغدادى وتباع بمصر أوقيته بعشرين دينارا وهو عنبر جيد ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع الى بحر الروم ضربته الامواج من بحر الاندلس الى هذا البحر لاتصال الماء وبالاندلس معدن عظيم للفضة ومعدن للزئبق ليس بالجيد يجهز الى سائر بلاد الاسلام والكفر وكذلك يحمل من بلاد الاندلس الزعفران وعروق الزنجبيل وأصول الطيب خمسة اصناف المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران وكلها تحمل من ارض الهند وما اتصل بها الا الزعفران والعنبر انتهى وهو وان تكرر مع ماذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة والله تعالى اعلم (وذكر البعض) أن فى بلاد الاندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهى الرصاص من زحل والقصدير الابيض من المشترى والحديد من قسم المريخ والذهب من قسم الشمس والنحاس من الزهرة والزئبق من عطارد والفضة من القمر (وذكر الكاتب ابراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق بلد الاندلس) فقال اهله اصحاب جهاد متصل يحاربون من اهل الشرك المحيطين بهم امة يدعون الجلالقة يناخون حوزهم ما بين غرب الى شرق قوم لهم شدة ولهم جمال وحسن وجوه فاكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفراهة منهم ليس بينهم وبينهم درب فالحرب متصلة بينهم مالم تقع هدنة ويحاربون بالافق الشرقى امة يقال لهم الفرنجة هم اشد عليهم من جميع من يحاربونه من عدوهم اذ كانوا اخلقا عظيما فى بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الارض الكبيرة هم اكثر عددا من الجلالقة وأشد بأسا وأحد شوكة وأعظم امدادا وهذه الامة يحاربون امة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم اياهم فى الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بارض الاندلس فلهم هنالك كثرة وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بارضهم وفى ثغر المسلمين المتصل بهم فيحمل خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هنالك فصاروا يخصون ويستحلون المثلة (قال

ابن سعيد) ويخرج بحر الروم المتصاعد الى الشام هو بساحل الاندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من ارض المغرب وبين الاندلس فيكون مقدار عرضه هنالك كما زعموا ثمانية عشر ميلا وهذا عرض جزيرة طريف الى قصر مصمودة بالقرب من سبتة وهنالك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الاسكندر بناها ليعبر عليها من بر الاندلس الى بر العدوة ويعرف هذا الموضع بالزقاق وهو صعب المجاز لانه مجمع البحرين لا تزال الامواج تتطاول فيه والماء يدور وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك الى ميناء سبتة ومن هنالك يأخذ البحر فى الاتساع الى ثمانمائة ميل وأزيد ومنتهاه مدينة صور من الشام وفيه عدد عظيم من الجزائر (قال بعضهم) انها ثمان وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرهما انتهى وبعضه بالمعنى (وقال بعضهم) عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبتة ما صورته ثم يتسع كلما امتد حتى يصير الى ما لا ذرع له ولا نهاية (وقال بعضهم) وكان مبلغ خراج الاندلس الذى كان يؤدى الى ملوك بنى امية قديما ثلثمائة ألف دينار دراهم اندلسية كل سنة قوانين وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة الف دينار وينفقون فى امورهم ونوائبهم ومؤن أهليهم مائة ألف دينار ويدخرون لحادث ايامهم مائة ألف دينار انتهى (وذكر غيره) أن الجباية كانت بالاندلس ايام عبد الرحمن الاوسط ألف ألف دينار فى السنة وكانت قبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف حكاه ابن سعيد وقال ان الاندلس مسيرة شهر مدن وعمائر (وقال قاضى القضاة) ابن خلدون الحضرمى فى تاريخه الكبير ما صورته كان هذا القطر الاندلسى من العدوة الشمالية من عدوتى البحر الرومى وبالجانب الغربى منها يسمى عند العجم الاندلوش وتسكنه امم من افرنجة المغرب أشدهم واكثرهم الجلالقة وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على اهله لمئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط الى الاندلس فصاروا اليها وملكوها ولما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من امم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة وكانت دار ملكهم وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشبيلية وماردة وأقاموا كذلك نحوا من اربعمائة سنة الى أن جاء الله بالاسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق وهو سمة لملوكهم كما أن جرجير سمة لملوك صقلية انتهى (ومن اشهر بلاد الاندلس) غرناطة وقيل ان الصواب اغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانة وكفاها شرفا ولادة لسان الدين بها (وقال الشقندى) أما غرناطة فانها دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس ولم تخل من أشراف اماثل وعلماء اكابر وشعراء افاضل ولو لم يكن لها الا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها (وفى بعض كلام لسان الدين) ما صورته وما لمصر تفخر بنيلها وألف منه فى شنيلها يعنى أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف فقولنا شنيل اذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل وفيها قيل

(مدينة غرناطة)

غرناطة مالها نظير * ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي الا العروس تجلى * وتلك من جملة الصداق

وتسمى كورة البيرة التى منها غرناطة دمشق لان جند دمشق نزلوها عند الفتح وقيل انما سميت بذلك لشبهها بدمشق فى غزارة الانهار وكثرة الاشجار حكاه صاحب مناهج الفكر قال ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الاندلس انتقل اهلها اليها فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود ويشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها وفى قبليها بجبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء وفيه سائر النبات الهندى لكن ليس فيه خصائصه انتهى (ومن أعمال غرناطة) قطر لوشة وبها معدن للفضة جيد ومنها اعنى لوشة اصل لسان الدين بن الخطيب وهذا القطر ضخم ينضاف اليه من الحصون والقرى كثير وقاعدته لوشة بينها وبين غرناطة مرحلة وهى ذات أنهار وأشجار وهى على نهر غرناطة الشهير بشنيل *(ومن أعمال غرناطة الكبار) عمل باغة والعامة يقولون بيغة واذا نسبوا اليه قالوا بيغى وقاعدته باغة طيبة الزرع كثيرة الثمار غزيرة المياه ويجود فيها الزعفران *(ومن أعمال غرناطة) وادى آش ويقال وادى الاشات وهى مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين والانهار وقد خص الله اهلها بالادب وحب الشعر وفيها يقول ابو الحسن بن نزار

(لوشة)
(باغة)
(وادى آش)

وادى الاشات يهيج وجدى كلما * اذكرت ما افضت بك النعماء
لله ظلك والهجير مسلط * قد بردت لفحاته الانداء
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة * منه فتطرف طرفها الافياء
والنهر يبسم بالحباب كأنه * سلخ نضته حية رقشاء
فلذاك تحذره الغصون فميلها * ابدا على جنباته ايماء

(ومن اعمال وادى آش) حصن جليانة وهو كبير يضاهى المدن وبه التفاح الجليانى الذى خص الله به ذلك الموضع يجمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء وبين الحصن المذكور ووادى آش اثنا عشر ميلا (ومن غرائب الاندلس) أن به شجرتين من شجر القسطل وهما عظيمتان جدا احداهما بسند وادى آش والاخرى بشرة غرناطة فى جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب وهذا أمر مشهور قاله ابو عبد الله بن جزى وغيره * وكانت البيرة هى المدينة قبل غرناطة فلما بنى الصنهاجى مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس اليها ثم زاد فى عمارتها ابنه باديس بعده (وذكر غير واحد) أن فى كورة سرقسطة الملح الاندرانى الابيض الصافى الاملس الخالص وليس فى الاندلس موضع فيه مثل هذا الملح (قال) وسرقسطة بناها قيصر ملك رومة الذى تؤرخ من مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الانبياء الصلاة والسلام وتفسير اسمها قصر السيد لانه اختار ذلك المكان بالاندلس (وقيل ان موسى بن نصير) شرب من ماء نهر جلق بسرقسطة فاستعذبه وحكم أنه لم يشرب بالاندلس أعذب منه وسال عن اسمه فقيل جلق ونظر الى ما عليه من البساتين فشبهها بغوطة جلق الشام وقيل انها من بناء

(غرائب الاندلس)

الاسكندر والله اعلم * وبمدينة برجة وهي من أعمال المرية معدن الرصاص وهي على واد مبهج يعرف بوادي عذراء وهو محدق بالازهار والاشجار وتسمى برجة بهجة لبهجة منظرها وفيها يقول ابو الفضل بن شرف القيرواني رحمه الله تعالى

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدي ربا * لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

وفيها ايضا قوله

حط الرحال ببرجه * وارتد لنفسك بهجه
في قاعة كسلاح * ودوحة مثل لجه
فحصنها لك امن * وروضها لك فرجه
كل البلاد سواها * كعمرة وهي حجه

وبمالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه ويجلب حتى للهند والصين وقيل انه ليس في الدنيا مثله وفيه يقول ابو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي حسبما انشده غير واحد منهم ابن سعيد

مالقة حييت يا تينها * الفلك من اجلك يأتينها
نهى طبيبي عنه في علتي * ما لطبيبي عن حياتي نهى

وذيل عليه الامام الخطيب ابو محمد عبد الوهاب المنشي بقوله

وحمص لا تنس لها تينها * واذكر مع التين زياتينها

وفي بعض النسخ

لا تنس لاشبيلية تينها * واذكر مع التين زياتينها

وهو نحو الاول لان حمص هي اشبيلية لنزول اهل حمص من المشرق بها حسبما سنذكره (ونسب ابن جزي في ترتيبه لرحلة ابن بطوطة البيتين الاولين للخطيب ابي محمد عبد الوهاب المالقي والتذييل لقاضي الجماعة ابي عبد الله بن عبد الملك فالله اعلم * وقال ابن بطوطة وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى اقاصي البلاد ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرها وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارنج البديعة انتهى وقال قبله ان مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب انتهى (وبكورة اشبونة) المتصلة بشنترين معدن التبر وفيها عسل يجعل في كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه الا الشحري (ومن اشهر مدن الاندلس) مدينة قرطبة أعادها الله تعالى للاسلام وبها الجامع المشهور والقنطرة المعروفة بالجسر *(ذكر قرطبة)* (وقد ذكر ابن حيان) أنه بني على امر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ونصبه وقام فيها

بأمره على النهر الاعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الاكبر الذى ما يعرف فى الدنيا مثله انتهى وفيها يقول بعض علماء الاندلس

بأربع فاقت الامصار قرطبة * منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة * والعلم اعظم شئ وهو رابعها

(وقال الحجارى فى المسهب) كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع أعلام الانام بها استقر سرير الخلافة المروانيه وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانيه واليها كانت الرحلة فى الرواية اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وهى من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ونهرها من احسن الانهار مكتنف بديباج المروج مطرز بالازهار تصدح فى جنباته الاطيار وتنعر النواعير ويبسم النوار وقرطاها الزاهرة والزهراء حاضرتا الملك وافقا النعماء والسراء وان كان قد أخنى عليها الزمان وغير بهجة أوجهها الحسان فتلك عادته وسل الخورنق والسدير وغمدان وقد أعذر بانذاره اذ لم يزل ينادى بصروفه لا امان لا امان وقد قال الشاعر

ومازلت أسمع أن الملو * ك تبنى على قدر أخطارها

انتهى وقال السلطان يعقوب المنصور ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن على لاحد رؤساء أجنادها ما تقول فى قرطبة فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامة الاندلس بقوله جوفها شمام وغربيها اقام وقبلتها مدام والجنة هى والسلام يعنى بالشمام جبال الورد ويعنى بالقمام مايؤكل اشارة الى محرث الكنبانية ويعنى بالمدام النهر ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لابى عمران موسى بن سعيد العنسى ما عندك فى قرطبة قال له ما كان لى أن أتكلم حتى اسمع مذهب امير المؤمنين فيها فقال السلطان ان ملوك بنى امية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة الديار المنفسحة الكبيرة والشوارع المتسعة والمبانى الضخمة المشيدة والنهر الجارى والهواء المعتدل والخارج الناضر والمحرث العظيم والشعرى الكافية والتوسط بين شرق الاندلس وغربها قال فقلت ما ابقى لى امير المؤمنين ما اقول (قال ابن سعيد) ولاهلها رياسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم الا أن عامتها اكثر الناس فضولا وأشدهم تشغيبا ويضرب بهم المثل ما بين اهل الاندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا باامورهم حتى ان السيد أبا يحيى اخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها كيف وجدت أهل قرطبة فقال مثل الجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان اثقلته صاح ما ندرى اين رضاهم فنقصده ولا اين سخطهم فنجتنبه وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق وان العزل عنها لما قاسيته من اهلها عندى ولاية وانى ان كلفت العود اليها لقائل لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين انتهى (وقال ابو الفضل التيفاشى) جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه ابى الوليد بن رشد والرئيس ابى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة ما ادرى ما تقول غير أنه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته

حملت الى اشبيلية قال وقرطبة اكثر بلاد الله كتبا انتهى (وحكى) الامام ابن بشكوال عن الشيخ ابى بكر بن سعادة انه دخل مدينة طليطلة مع اخيه على الشيخ الاستاذ ابى بكر المخزومى قال فسألنا من اين فقلنا من قرطبة فقال متى عهدكما بها فقلنا الآن وصلنا منها فقال اقربا الى اشم نسيم قرطبة فقربنا منه فشم رأسى وقبله وقال لى اكتب

أقرطبة الغراء هل لى اوبة * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك روضة * وتربك فى استنشاقها عنبر ورد

وكتب الرئيس الكاتب ابو بكر بن القبطرنة للعالم ابى الحسين بن سراج بقوله

ياسيدى وأبى هوى وجلالة * ورسول ودى ان طلبت رسولا
عرج بقرطبة اذا بلغتها * بأبى الحسين وناده تمويلا
واذا سعدت بنظرة من وجهه * أهد السلام لكفه تقبيلا
واذكر له شوقى وشكرى مجملا * ولو استطعت شرحته تفصيلا
بتحية تهدى اليه كانما * جرّت على زهر الرياض ذيولا

وفى باب اليهود بقرطبة يقول ابو عامر بن شهيد

لقد أطلعوا عند باب اليهو * دبدرا ابى الحسن أن يكسفا
تراه اليهود على بابها * اميرا فتحسبه يوسفا

واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها فى الباب المنفرد بها ان شاء الله تعالى وكذلك القنطرة (ومن اعظم مدن الاندلس اشبيلية) قال الشقندى من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المبانى ونهرها الاعظم الذى يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر وفيه يقول ابن سفر *(ذكر اشبيلية)*

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هزأ فضم من الحياء ازاره

وقيل لاحد من رأى مصر والشام ايهما رأيت احسن اهذان ام اشبيلية فقال بعد تفضيل اشبيلية شرفها غابة بلا اسد ونهرها نيل بلا تمساح انتهى (ويقال ان الذى بنى اشبيلية اسمه يوليس وانه اول من سمى قيصر وانه لما دخل الاندلس اعجب بساحتها وطيب ارضها وجبلها المعروف بالشرف فردم على النهر الاعظم مكانا وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد وبنى فى وسط المدينة قصبتين بديعتى الشان تعرفان بالاخوين وجعلها أم قواعد الاندلس واشتق لها اسما من رومية ومن اسمه فسماها رومية يوليس انتهى (وقد تقدم) شئ من هذا وكان الاولون من ملوك الاعاجم يتداولون بسكناهم اربعة بلاد من بلاد الاندلس اشبيلية وقرطبة وقرمونة وطليطلة ويقسمون ازمانهم على الكينونة بها وأما شرف اشبيلية فهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة فرسخ فى فرسخ طولا وعرضا لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه (واعلم) أن اشبيلية لها كور جليلة ومدن كثيرة وحصون شريفة وهى من الكور المجندة نزلها جند حمص ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق

وانتهت جباية اشبيلية ايام الحكم بن هشام الى خمسة وثلاثين الف دينار ومائة دينار * وفى اقليم طالقة من اقاليم اشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر معها صبى وكأنّ حية تريده لم يسمع فى الاخبار ولا رؤى فى الآثار صورة أبدع منها جعلت فى بعض الحمامات وتعشقها جماعة من العوام * وفى كورة ماردة حصن شنت افرج فى غاية الارتفاع لا يعلوه طائر البتة لا نسر ولا غيره (ومن عجائب الاندلس) البلاط الاوسط من مسجد جامع اقليش فان طول كل جائزة منه مائة شبر وأحد عشر شبرا وهى مربعة منحوتة مستوية الاطراف (وقال بعض من وصف اشبيلية) انها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة وعليه جسر مربوط بالسفن وبها أسواق قائمة وتجارات رابحة وأهلها ذوو اموال عظيمة واكثر متاجرهم الزيت وهو يشتمل على كثير من اقليم الشرف واقليم الشرف على تل عال من تراب احمر مسافته اربعون ميلا فى مثلها يمشى به السائر فى ظل الزيتون والتين ولها فيما ذكر بعض الناس قرى كثيرة وكل قرية عامرة بالاسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق (وقال صاحب مناهج الفكر) عند ذكر اشبيلية وهذه المدينة من احسن مدن الدنيا وباهلها يضرب المثل فى الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ويعينهم على ذلك واديها الفرح وناديها البهج وهذا الوادى يأتيها من قرطبة ويحرز فى كل يوم ولها جبل الشرف وهو تراب احمر طوله من الشمال الى الجنوب اربعون ميلا وعرضه من المشرق الى المغرب اثنا عشر ميلا يشتمل على مائتين وعشرين قرية قد التحفت باشجار الزيتون واشتملت انتهى * ولكورة باجة من الكور الغربية التى كانت من أعمال اشبيلية ايام بنى عباد خاصية فى دباغة الاديم وصناعة الكتان وفيها معدن فضة وبها ولد المعتمد بن عباد وهى متصلة بكورة ماردة وجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته الى طارق مولى موسى بن نصير اذ كان اول ما حل به مع المسلمين من بلاد الاندلس عند الفتح ولذا اشهر بجبل الفتح وهو مقابل الجزيرة الخضراء وقد تجوّن البحر هنالك مستديرا حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء وفيه يقول مطرف شاعر غرناطة

وأقود قد ألقى على البحر متنه * فأصبح عن فود الجبال بمعزل
يعرّض نحو الافق وجها كانما * تراقب عيناه كواكب منزل

واذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبتة فى البحر بان كأنه سرج قال ابو الحسن علىّ ابن موسى بن سعيد أقبلت عليه مرة مع والدى فنظرنا اليه على تلك الصفة فقال والدى أجز

انظر الى جبل الفتح * راكبا متن لج فقلت
وقد تفتح مثل الافنان فى شكل سرج

(وأما جزيرة طريف) فليست بجزيرة وانما سميت بذلك الجزيرة التى أمامها فى البحر مثل الجزيرة الخضراء وطريف المنسوبة اليه بربرى من موالى موسى بن نصير ويقال ان موسى بعثه قبل طارق فى اربعمائة رجل فنزل بهذه الجزيرة فى رمضان سنة احدى وتسعين وبعده دخل طارق والله اعلم (ومن اعظم كور الاندلس) كورة طليطلة وهى من متوسط الاندلس وكانت دار مملكة بنى ذى النون من ملوك الطوائف وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة *(ذكر طليطلة)*

وسماها

وسماها قيصر بلسانه بزليطلة وتأويل ذلك انت فارح فعرّبتها العرب وقالت طليطلة وكانوا يسمونها وجهاتها فى دولة بنى امية بالثغر الادنى ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الاعلى وتسمى طليطلة مدينة الاملاك لانها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون انسانا ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام وعيسى ابن مريم وذو القرنين وفيها وجد طارق مائدة سليمان وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم الذى بنى اشبيلية اخذها من بيت المقدس كما مرّ وقوّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار وقيل انها كانت من زمرد أخضر ويقال انها الآن برومة والله اعلم بذلك ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والاحجار النفيسة وايوان ممتلئ من اوانى الذهب والفضة وهو كبير حتى قيل ان الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه وقد قيل ان اوانى المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه * وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفة الطعوم والالوان ولها من جميع جهاتها اقاليم رفيعة ورساتيق مريعة وضياع بديعة وقلاع منيعة وبالجملة فمحاسنها كثيرة ولعلنا نلم ببعض منتزهاتها فيما يأتى من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى * وطليطلة قاعدة ملك القوطيين وهى مطلة على نهر باجة وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها وكانت على قوس واحد تكنفه فرجتان من كل جانب وطول القنطرة ثلثمائة باع وعرضها ثمانون باعا وخربت ايام الامير محمد لما عصى عليه اهلها فغزاهم واحتال فى هدمها وفى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس

اضحت طليطلة معطلة * من اهلها فى قبضة الصقر

تركت بلا اهل تؤهلها * مهجورة الاكناف كالقبر

ما كان يبقى الله قنطرة * نصبت لحمل كتائب الكفر

(مدينة المرية)

وسيأتى بعض أخبار طليطلة (ومن مشهور مدن الاندلس المرية) وهى على ساحل البحر ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران بناها عبد الرحمن الناصر وعظمت فى دولة المنصور ابن ابى عامر وولى عليها مولاه خيران فنسبت القلعة اليه وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد وفيها دار الصناعة وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام ومن ابوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر (وقال بعضهم) كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعنابى والمعاجر المدهشة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسنا وساحلها افضل السواحل وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة وقد ألف فيها ابو جعفر بن خاتمة تاريخا حافلا سماه بمزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية فى مجلد ضخم تركته من جملة كتبى بالمغرب والله سبحانه المسؤل فى جمع الشمل فله الامر من بعد ومن قبل * ووادى المرية طوله اربعون ميلا فى مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مغردة (قال بعضهم) ولم يكن فى بلاد الاندلس اكثر مالا من اهل

المرية ولا اعظم متاجر وذخائر وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف وهي بين الجبلين بينهما خندق معمور وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة وعلى الآخر ربضها والسور محيط بالمدينة والربض وغربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة وأحجار اولية وكأنما غربلت ارضها من التراب * ولها مدن وضياع عامرة متصلة الانهار انتهى (وقال ابن اليسع) عند ذكره مدينة شنترة ان من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي اربعين يوما من زراعته وان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة اشبار واكثر قال لي ابو عبد الله الباكوري وكان ثقة ابصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من اهل شنترة أهدى اليه أربعا من التفاح ما يقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة أشبار وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم اقل من هذا فاذا ارادوا أن يجيء بهذا العظم وهذا القدر قطعوا اصلها وأبقوا منه عشرا أو أقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب انتهى * وبحصن شنش على مرحلة من المرية التوت الكثير وفيها الحرير والقرمز ويعرف واديها بوادي طبرنش * وبغربي مالقة عمل سهيل وهو عمل عظيم كثير الضياع وفيه جبل سهيل لا يرى نجم سهيل بالاندلس الا منه (ومن كور الاندلس الشرقية تدمير) وتسمى مصر ايضا لكثرة شبهها بها لان لها ارضا يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ثم ينضب عنها فتزرع كما تزرع ارض مصر وصارت القصبة بعد تدمير مرسية وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها ولها نهر يصب في قبليها * واعلم أن جزيرة الاندلس اعادها الله للاسلام مشتملة على موسطة وشرق وغرب * فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة قرطبة وطليطلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة فمن أعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة والبسانة والقصير وغيرها ومن أعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها ومن أعمال جيان ابذة وبياسة وقسطلة وغيرها ومن أعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة وغيرها ومن أعمال المرية اندرش وغيرها ومن أعمال مالقة بلش والحامة وغيرهما وبلش من الفواكه ما بمالقة وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها * وأما شرق الاندلس ففيه من القواعد مرسية وبلنسية ودانية والسهلة والثغر الاعلى فمن أعمال مرسية اوريولة والقنت ولورقة وغير ذلك ومن أعمال بلنسية شاطبة التي يضرب بحسنها المثل ويعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر وغير ذلك وأما دانية فهي شهيرة ولها أعمال وأما السهلة فانها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ولذا عدها بعضهم من كور الثغر الاعلى ولها مدن وحصون ومن أعمال الثغر الاعلى سرقسطة وهي أم ذلك الثغر وكورة لاردة وقلعة رباح وتسمى بالبيضاء وكورة تطيلة ومدينتها طرسونة وكورة وشقة ومدينتها غريط وكورة مدينة سالم وكورة قلعة ايوب ومدينتها بلدانة وكورة برطانية وكورة باروشة * وأما غرب الاندلس ففيه اشبيلية وماردة واشبونة وشلب فمن أعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبلة وغيرها ومن أعمال ماردة بطليوس ويابرة

(ذكر تدمير)

وغيرها

(الجزائر البحرية)

وغيرها ومن أعمال اشبونة شنترين وغيرها ومن أعمال شلب شنت رية وغيرها (وأمّا الجزر البحرية بالاندلس) فنها جزيرة قادس وهي من أعمال اشبيلية وقال ابن سعيد انها من كورة شريش ولا منافاة لان شريش من أعمال اشبيلية كما مرّ قال ويبد صنم قادس مفتاح ولما ثار بقادس ابن اخت القائد أبي عبد الله بن ميمون وهو علي بن عيسى قائد البحر بها ظنّ أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيأ انتهى وهي اعني جزيرة قادس في البحر المحيط وفي المحيط الجزائر الخالدات السبع وهي غربي مدينة سلا تلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي من الابخرة الغليظة وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات وفيها من المدن والقرى ما لا يحصى ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى أوّلها جزيرة برطانية وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الاندلس ولا جبال فيها ولا عيون وانما يشربون من ماء المطر ويزرعون عليه (وقال ابن سعيد) وفيه جزيرة شلطيش وهي آهلة وفيها مدينة وبحرها كثير السمك ومنها يحمل عملها الى اشبيلية وهي من كورة لبلة مضافة الى عمل أونبه انتهى (وقال بعضهم) لما جرى ذكر قرطاجنة من بلاد الاندلس ان الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطرة واحدة وبها اقواس من الحجارة المقربصة وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة ومن اعجب بناآتها الدواميس وهي اربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوة وارتفاع كل واحد أكثر من مائتي ذراع بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها الى بعض في العلو الشاهق بهندسة عجيبة واحكام بديع انتهى (قلت) أظنّ هذا غلطا فان قرطاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة افريقية لا قرطاجنة الاندلس والله أعلم (وقال صاحب مناهج الفكر) عند ما ذكر قرطاجنة وهي على البحر الرومي مدينة قديمة بقي منها آثارها الخص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى انتهى وذكر قبل ذلك في لورقة أن بناحيتها يوجد حجر اللازورد وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتي ميورقة ومنورقة وبينهما خمسون ميلا وجزيرة ميورقة مسافة يوم بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها يقول ابن اللبانة

بلد أعارته الحمامة طوقها * وكساه حلة ريشه الطاوس
فكأنما الانهار فيه مدامة * وكأن ساحات الديار كؤس

وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت

وغمرت بالاحسان ارض ميورقة * وبنيت ما لم يبنه الاسكندر

وجزيرة يابسة * واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ولو تتبع لكان تأليفا مستقلا وما أحسن قول ابن خفاجة

ان للجنة بالاندلس * مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب * ودجى ليلتها من لعس
واذا ما هبت الريح صبا * صحت واشوقي الى الاندلس

وقال بعضهم فى طليطلة

زادت طليطلة على ماحدثوا * بلد عليه نضرة ونعيم

الله زينه فوشح خصره * نهر المجرة والغصون نجوم

(انشاء فيه مناظرة بين بلاد الاندلس)

ولا حرج ان أوردنا هنا ما خاطب به اديب الاندلس أبو بحر صفوان بن ادريس الامير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على فانه مناسب (ونصه) مولاى امتع الله ببقائك الزمان وأبناءه كما ضم على حبك احناءهم وأحناءه وأوصل لك ماشئت من المن والامان كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان فانك الملك الهمام والقمر التمام ايامك غرر وحجول وفرنيهما تتهادى فى صفحات الدهر يجول ألبست الرعية برود التأمين فتنافست فيك من نفيس ثمين وتلقت دعوات خلدك لها باليمين فكم للناس من امن بك وايناس وللايام من لوعة فيك وهيام وللاقطار من لبانات لديك وأوطار وللبلاد من قراع على تملكك لها وجلاد يتمنون شخصك الكريم على الله ويقترحون ويغتبقون فى رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطبحون كل حزب بما لديهم فرحون محبة من الله ألقاها الله حتى على الجماد ونصرا موزرا تنطق به ألسنة السيوف على أفواه الاغماد ومن اسر سريرة ألبسه الله رداءها ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل اعادتها وابداءها ومن قدم صالحا فلا بد أن يوازيه ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه ولما تخاصمت فيك من الاندلس الامصار وطال بها الوقوف على حبك والاقتصار كلها يفصح قولا ويقول أنا احق وأولى ويصيخ الى اجابة دعوته ويصغى ويتلو اذا بشر بك ذلك ما كنا نبغى تمرت حمص غيظا وكادت تفيظ فيظا وقالت مالهم يزيدون وينقصون ويطمعون ويحرصون ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ألهم السهم الاسد والساعد الاشد والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمد أنا مصر الاندلس والنيل نهرى وسماء التأنس والنجوم زهرى ان تجاريتم فى ذلك الشرف فحسبى أن افيض فى ذلك الشرف وان تجحتم بأشرف اللبوس فأى ازار اشتملتموه كشنتبوس الى ماشئت من ابنية رحاب وروض يستغنى بنضرته عن السحاب قد ملأت زهراتى وهادا ونجادا وتوشح سيف نهرى بحدائقى نجادا فانا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق الآن حصحص الحق (فنظرتها قرطبة شزرا) وقالت لقد كثرت نزرا وبذرت فى الصخر الاصم بزرا كلام العدا ضرب من الهذيان وأنى للايضاح والبيان متى استحال المستقبح مستحسنا ومن أودع أجفان المهجور وسنا افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا يا عجبا للمراكزتقدم على الاسنة وللاثفار تفضل على الاعنه ان ادعيتم سبقا فما عند الله خير وأبقى لى البيت المطهر الشريف والاسم الذى ضرب عليه رواقه التعريف فى بقيعى محل الرجال الافاضل فليرغم انف المناضل وفى جامعى مشاهد ليلة القدر فحسبى من نباهة القدر فالاحد أن يستأثر على بهذا السيد الاعلى ولا أرضى له أن يوطئ غير ترابى نعلا فأقروالى بالابوه وانقادوالى على حكم البنوه ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوه وكفوا عن تباريكم ذلكم خير لكم عند باريكم (فقالت غرناطة) لى المعقل الذى يمتنع ساكنه

من

من النجوم ولاتجرى الاتحته جياد الغيث السجوم فلايلحقنى من معاند ضرر ولا حيف ولايهتدى الى خيال طارق ولا طيف فاستسلموا قولا وفعلا فقد أفلح اليوم من استعلى لى بطاح تقلدت من جداوتها أسلاكا وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ومياه تسيل على أعطافى كادمع العشاق وبردنسيم يردّ ماء المستجير بالاتشاق ففى لايطمع فيه ولا يحتال فدعونى فكل ذات ذيل تختال فأنا أولى بهذا السيد الاعدل ومالى به من عوض ولا بدل ولم لايعطف على عنان مجده ويثنى وان انشد يوما فاياى يعنى

بلاد بها عق الشباب تمائمى * وأول ارض مس جلدى ترابها

فمالكم تعتزون لفخرى وتتمون وتتأخرون فى ميدانى وتتقدمون تبرؤا الى مما تزعمون ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون *(فقالت مالقة) أتتركونى بينكم هملا ولم تعطونى فى سيدنا أملا ولم ولى البحر العجاج والسبل الفجاج والجنات الاثيرة والفواكه الكثيرة لدىّ من البهجة ماتستغنى به الحمام عن الهديل ولا تجنح الانفس الرقاق الحواشى الى تعويض عنه ولا تبديل فمالى لااعطى فى ناديكم كلاما ولاانشر فى جيش فخاركم أعلاما فكأن الامصار نظرتها بالازدراء فلم تر لحديثها فى ميدان الذكر اجراء لانها موطن لايحلى منه بطائل ونظن البلاد تأولت فيها قول القائل

اذانطق السفيه فلاتجبه * فخير من اجابته السكوت

(فقالت مرسية) أمامى تتعاطون الفخر وبحضرة الدر تنفقون الصخر ان عدّت المفاخر فلى منها الاول والآخر اين اوشالكم من بحرى وخرزكم من لؤلؤ نحرى وجعجعتكم من نفثات سحرى فلى الروض النضير والمرأى الذى ماله من نظير ورتقاتى التى صار مثلها فى الآفاق وتبرقع وجه جمالها بغرة الاصفاق فمن دوحات كم لها من بكور وروحات ومن أرجاء اليها تمتد أيدى الرجاء فأبنائى فيه فى الجنة الدنيوية مودعون يتنعمون فيما يأخذون ويدعون ولهم فيها ماتشتهى أنفسهم ولهم فيها مايدّعون فانقادوا لامرى وحاذروا اصطلاء جمرى وخلوا بينى وبين سيدنا ابى زيد والاضربتكم ضرب زيد فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ومايلقاها الاذوحظ عظيم *(فقالت بلنسية) فيم الجدال والقراع وعلام الاستهام والاقتراع والام التعريض والتصريح وتحت الرغوة اللبن الصريح أناأحوزه من دونكم فأخمدوا نارى تحرككم وهدونكم فلى المحاسن الشامخة الاعلام والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد الاستسلام وبرصافتى وجسرى اعارض مدينة السلام فأجمعوا على الانقياد لى والسلام والافعضوا بنانا واقرعوا أسنانا فأناحيث لاتدركون وأنى ومولانا لايهلكنا بمافعل السفهاء منا (فعندذلك ارتمت جرة تدمير بالشرار) واستدت أسهمها النحور والشرار وقالت عش رجبا ترعجبا أبعد العصيان والعقوق تتهيأن لرتب ذوى الحقوق هذه سماء الفخر فمن ضمك أن تعرجى ليس بعشك فادرجى لك الوصب والخبل الآن وقد عصيت قبل ايتها الصانعة الفاعلة من ادلك أن تضربى

قوله والسبل الفجاج فى نسخة والسبل الثجاج اهـ

وما أنت فاعله ما الذى يجديك الروض والزهر أم ما يفيدك الجدول والنهر وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر هل انت الا محط رحل النفاق ومنزل ما السوق الخصب فيه من نفاق ذرالك لا يكتحل الطرف فيه بهجوع وقرالك لا يسمن ولا يغنى من جوع فالام تبرز الاماء فى منصة العقائل ولكن اذكرى قول القائل

بلنسية بينى عن القلب سلوة * فانك روض لا أحن لزهرك
وكيف يحب المرء دارا تقسمت * على صارمى جوع وفتنة مشرك

بيد أنى أسأل الله تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد ويسيل من تسديدك ما جمد ولا يطيل عليك فى الجهالة الامد واياه سبحانه نسأل أن يرد سيدنا ومولانا الى أفضل عوائده ويجعل مصائب اعدائه من فوائده ويمكن حسامه من رقاب المشغبين ويبقيه وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويصل له تأييدا وتأييدا ويمهد له الايام حتى تكون الاحرار لعبيد عبيده عبيدا ويمد على الدنيا بساط سعده ويهبه ملكا لا ينبغى لاحد من بعده

آمين آمين لا ارضى بواحدة * حتى أضيف اليها ألف آمينا

ثم السلام الذى يتأنق عبقا ونشرا ويتألق رونقا وبشرا على حضرتهم العليه ومطالع انوارهم السنية الجليه ورحمة الله تعالى وبركاته *(انتهى) ولما ألم الرحالة ابن بطوطة فى رحلته بدخوله بلاد الاندلس أعادها الله تعالى للاسلام قال فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مدخور للمقيم والظاعن الى أن قال عند ذكره غرناطة ما نصه قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له فى الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين الجليلة والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها انتهى (وقال الشقندى) غرناطة دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس ولم تخل من أشراف اماثل وعلماء اكابر وشعراء افاضل ولولم يكن بها الا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها النساء الشواعر كنزهون القلعية والركونية وغيرهما وناهيك بهما فى الظرف والادب انتهى (ولبعضهم) يتشوق الى غرناطة فيما ذكره بعض المؤرخين والصواب أن الابيات قيلت فى قرطبة كما مر والله أعلم

أغرناطة الغراء هل لى اوبة * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعقع فى ساحات روضتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك جنة * وتربك فى استنشاقها عنبر ورد

وقال ابن مالك الرعينى

رعى الله بالحمراء عيشا قطعته * ذهبت به للانس والليل قد ذهب
ترى الارض منها فضة فاذا اكتست * بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب

وهو القائل

لا تظنوا أن شوقى خمدا * بعدكم أو أن دمعى جمدا

قوله ولولم يكن الخ الجواب محذوف للعلم به من المقام اى لكفى او نحو ذلك اه مصححه

كيف اسلو عن اناس مثلهم * قل أن تبصر عيني احدا

(وغرناطة) من أحسن بلاد الاندلس وتسمى بدمشق الاندلس لانها أشبه شئ بها ويشقها نهر حدرة ويطل عليها الجبل المسمى بشلير الذى لا يزول الثلج عنه شتاء وصيفا ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد وفى أعلاه الازاهر الكثيرة وأجناس الافاويه الرفيعة ونزل بها أهل دمشق لما جاؤا الى الاندلس لاجل الشبه المذكور * وقرى غرناطة فيما ذكر بعض المتأخرين مائتان وسبعون قرية (وقال ابن جزى) مرتب رحلة ابن بطوطة بعد ذكر كلامه مانصه قال ابن جزى لولا خشية أن انسب الى العصبية لاطلت القول فى وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لامعنى لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبى بكر بن محمد بن شبرين السبتى نزيل غرناطة حيث يقول

رعى الله من غرناطة متبوأ * يسر حزينا أو يجير طريدا

تبرم منها صاحبى عندما رأى * مسارحها بالثلج عدن جليدا

هى الثغر صان الله من اهلت به * وما خير ثغر لا يكون برودا انتهى

* وقال ابن سعيد عندما جرى ذكر قرية بارجة وهى قرية كبيرة تضاهى المدن قد أحدقت بها البساتين ولها نهر يفتن الناظرين وهى من أعمال مالقة انه اجتاز مرة عليها مع والده ابى عمران موسى وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم وقد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطعاته خيما وبعضهم يشرب وبعضهم يغنى ويطرب وسألوا لم يعرف ذلك الموضع فقالوا الطراز فقال والدى اسم طابق مسماه ولفظ وافق معناه

وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فان وجدت لسانا قائلا فقل

ثم قال أجز

ببارجة حيث الطراز المنمنم * فقلت أقم فوق نهر ثغره يتبسم

فقال وسمعك نحو الهاتفات فانها * فقلت لما ابصرت من بهجة تترنم

فقال ايا جنة الفردوس لست بآدم * فقلت فلا يك حظى من جناك التندم

فقال يعز علينا أن نزورك مثل ما * فقلت يزور خيال من سليمى مسلم

فقال فلو أنى أعطى الخيار لما عدت * فقلت محلك لى عين عراك تنعم

فقال بحيث الصبا والطل من نفثاتها * فقلت وقت لسع روض فيه للنهر أرقم

فقال فوا أسفى ان لم تكن لى عودة * فقلت فكن مالكا انى عليك متمم

فقال فأحسب هذا آخر العهد بيننا * فقلت وقد يلحظ الرحمن شوقى فيرحم

فقال سلام سلام لا يزال مرددا * فقلت عليك ولا زالت بك السحب تسجم انتهى

(وقال ابن سعيد) ان كورة بلنسية من شرق الاندلس ينبت بها الزعفران وتعرف بمدينة التراب وبها كمثرى تسمى الارزة فى قدر حبة العنب قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة اذا دخل دارا عرف بريحه ويقال ان ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الاندلس وبها منارة ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبى عامر * وقال الشرف ابو جعفر بن مسعدة الغرناطى من أبيات فيها

هي الفردوس في الدنيا جمالا * لساكنها وكارهها البعوض

وقال بعضهم فيها

ضاقت بلنسية بي * وذاد عني غموضي
رقص البراغيث فيها * على غناء البعوض

وفيها لابن الزقاق البلنسي

بلنسية اذا فكرت فيها * وفي آياتها اسنى البلاد
وأعظم شاهدي منها عليها * وان جمالها للعين بادي
كساها ربها ديباج حسن * لها علمان من بحر وواد

(وقال ابن سعيد ايضا) انشدني والدي قال انشدني مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه يحاكي قوله

كأن بلنسية كاعب * وملبسها سندس اخضر
اذا جئتها سترت نفسها * بأكمامها فهي لا تظهر

وأما قول ابي عبد الله بن عياش بلنسية بين البيتين وقد سبقا فقال ابن سعيد ان ذلك حيث صارت ثغرا يصابحها العدو ويماسيها انتهى (وقال ابو الحسن) بن حريق يجاوب ابن عياش

بلنسية قرارة كل حسن * حديث صح في شرق وغرب
فان قالوا محل غلاء سعر * ومسقط ديمتي طعن وضرب
فقل هي جنة حفت رباها * بمكروهين من جوع وحرب

وقال الرصافي في رصافتها

ولا كالرصافة من منزل * سقته السحائب صوب الولي
احن اليها ومن لي بها * وأين السري من الموصلي

(وقال ابن سعيد) وبرصافة بلنسية مناظر وبساتين ومياه ولا نعلم في الاندلس ما يسمى بهذا الاسم الا هذه ورصافة قرطبة انتهى * ومن أعمال بلنسية قرية المنصف التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي وقبره كان بسبتة يزار رحمه الله تعالى ومن نظمه

قالت لي النفس أتاك الردى * وأنت في بحر الخطايا مقيم
فما ادخرت الزاد قلت اقصري * هل يحمل الزاد لدار الكريم

ومن عمل بلنسية قرية بطرنة وهي التي كانت فيها الوقيعة المشهورة للنصارى على المسلمين وفيها يقول ابو اسحق بن يعلى الطرسوني

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم * حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان اقبحهم وأحسنكم بها * لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ومن عمل بلنسية متيطة التي نسب اليها جماعة من العلماء والادباء * ومن عمل بلنسية مدينة اندة التي في جبلها معدن الحديد وأما رندة بالراء فهي في متوسط الاندلس ولها حصن يعرف باندة ايضا * وفي اشبيلية اعادها الله من المتفرجات والمتنزهات كثير ومن ذلك مدينة

طريانة فانها من مدن اشبيلية ومنتزهاتها وكذلك تيطل فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تيطل في المتقرجات (وقال ابو عمران) موسى بن سعيد في جوابه لابي يحيى صاحب سبتة لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن وكتب الى المذكور يرغبه في النقلة عن الاندلس الى مراكش ما نص محل الحاجة منه وأما ماذكر سيدى من التخيير بين ترك الاندلس وبين الوصول الى حضرة مراكش فيكفي الفهم العالي من الاشارة قول القائل

والعز محمود وملتمس * وألذه ما كان في الوطن

فاذا نالت بك السماء في تلك الحضرة فعلى من أسود فيها ومن ذا اضاهي بها

لا رقت بي همة ان لم اكن * فيك قد أمّلت كل الامل

وبعد هذا فكيف افارق الاندلس وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا بما حباها الله به من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وكثافة الافياء وأن الانسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس

هي الارض لا ورد لديها مكدّر * ولا ظل مقصور ولا روض مجدب

افق صقيل وبساط مديج وماء سائح وطائر مترنم بليل وكيف يعدل الاديب عن ارض على هذه الصفة فيا سمو أل الوفاء ويا حاتم السماح ويا جذيمة الصفاء كل لمن املك النعمة بتركه في موطنه غير مكدر لخاطره بالتحرك من معدنه ملتفتا الى قول القائل

وسوّلت لي نفسي أن افارقها * والماء في المزن اصفى منه في الغدر

فان اغناه اهتمام مؤمله عن ارتياد المراد وبلغه دون أن يشد قتبا ولا أن ينضي عيسا غاية المراد انشد ناجح المرغوب بالغ المطلوب

وليس الذي يتبع الوبل رائدا * كمن جاءه في داره رائد الوبل

ورب قائل اذا سمع هذا التبسط على الاماني ماله تشطط وعدل عن سبيل التأدب وتبسط ولا جواب عندى الا قول القائل

فهذه خطة مازلت ارقبها * فاليوم ابسط آمالي وأحتكم

ومالي لا انشد ما قاله المتنبي في سيف الدولة

ومن كنت بحرا له يا علي * لم يقبل الدر الا كبارا

انتهى المقصود منه (وقال الحجاري) ان مدينة شريش بنت اشبيلية وواديها ابن واديها ما اشبه سعدى بسعيد وهي مدينة جليلة ضخمة الاسواق لاهلها همم وظرف في اللباس واظهار الرفاهية وتخلق بالآداب ولا تكاد ترى بها الا عاشقا ومعشوقا ولها من الفواكه ما يعم ويفضل ومما اختصت به احسان الصنعة في المجبنات وطيب جبنها يعين على ذلك ويقول اهل الاندلس من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم انتهى والمجبنات نوع من القطائف يضاف اليها الجبن في عجينها وتقلى بالزيت الطيب * وفي شلب يقول الفاضل الكاتب ابو عمرو بن مالك بن سيدمير

أشمال النسيم حين يهب * أم سنا البرق اذ يخب ويخبو

أم هتوف على الاراكة تشدو * أم هتون من الغمامة سكب

كل هذا للصبابة داع * أى صب دموعه لا تصب
انا لولا النسيم والبرق والور * ق وصوب الغمام ما كنت اصبو
ذكرتنى شلبا وهيهات منى * بعدما استحكم التباعد شلب

ونسمى أعمال شلب كورة اشكونية وهى متصلة بكورة أشبونة وهى أعنى اشكونية قاعدة جليلة لها مدن ومعاقل ودار ملكها قاعدة شلب وبينها وبين قرطبة سبعة أيام ولما صارت لبنى عبد المؤمن ملوك مراكش اضافوها الى كورة اشبيلية وتفتخر شلب بكون ذى الوزارتين ابن عمار منها سامحه الله ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بدران وربما قيل ابن بدرون الاديب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون التى اولها

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله

العشق لذته التعنيق والقبل * كما منغصه التثريب والعذل
باليت شعرى هل يقضى وصالكم * لولا المنى لم يكن ذا العمر يتصل

ومنها نحوى زمانه وعلامته أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسى فان شلبا بيضته ومنها كانت حركته ونهضته كما فى الذخيرة وهو القائل

اذا سألونى عن حالتى * وحاولت عذرا فلم يمكن
أقول بخير ولكنه * كلام يدور على الالسن
وربك يعلم مافى الصدور * ويعلم خائنة الاعين

وقال الوزير أبو عمرو بن الغلاس يمدح بطليوس بقوله

بطليوس لا انساك ما اتصل البعد * فلله غور فى جنابك أو نجد
ولله دوحات تحفك ينعا * تفجر واديها كما شقق البرد

وبنو الغلاس من أعيان حضرة بطليوس وأبو عمرو المذكور أشهرهم وهو من رجال الذخيرة والمسهب رحمه الله تعالى * وفى شاطبة يقول بعضهم

نعم ملقى الرحل شاطبة * لفتى طالت به الرحل
بلدة أوقاتها سحر * وصبا فى ذيله بلل
ونسيم عرفه أرج * ورياض غصنها ثمل
ووجوه كلها غرر * وكلام كله مثل

وفى برجة يقول بعضهم

اذا جئت برجة مستوفزا * فخذ فى المقام وحل السفر
فكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

واعلم أنه لو لم يكن للاندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافيا ورحم الله لسان الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه الى بعض العلماء العاملين ما فيه اشارة الى بعض ذلك ما نصه من امير المسلمين فلان الى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا وصل الله له سعادة تجذبه وعناية اليه تقربه وقبولا منه يدعوه الى خير ما عند الله ويندبه

سلام

قوله سبعة ايام فى تقويم البلدان لابى الفداء تسعة ايام بتقديم المثناة على السين فليحرر اه
مصححه

سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله المرشد المنيب السميع المجيب معود اللطف الخفي والصنع العجيب المتكفل بانجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذي القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب الذي به نرجو ظهور عبدة الله على عبدة الصليب ونستظهر منه على العدو بالحبيب ونعده عدتنا اليوم العصيب والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا من مشاهدته بأوفى النصيب ورموا الى هدف مرضاته بالسهم المصيب فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم عملا صالحا يختم الجهاد صحائف بره وتتمحض لان تكون كلمة الله هي العليا جوامع أمره وجعلكم ممن تهيئ في الارض التي فتح فيها أبواب الجنة مدة عمره من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولطف الله هامي السحاب وصنعه رائق الجناب والله يصل لنا ولكم ما عوده من صلة لطفه عند انبتات الاسباب والى هذا أيها المولى الذي هو بركه المغرب المشار اليه بالبنان وواحده في رفعة الشان المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان المتقلل من المتاع الفان المستشرف الى مقام العرفان من درج الاسلام والايمان والاحسان فاننا لما نؤثره من برّكم الذي نعده من الامر الاكيد ونضمره من ودكم الذي محله محل الكنز العتيد ونلتمسه من دعائكم التماس العدة والعديد لانزال نسأل عن احوالكم التي ترقت في أطوار السعادة ووصلت جناب الحق بهجر العادة وألقت الى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة فنسر بما هيأ الله تعالى لكم من القبول وبلغكم من المأمول وألهمكم من الكلف بالقرب اليه والوصول والفوز بما لديه والحصول وعند ما ردّ الله تعالى علينا ملكنا الرد الجميل وانالنا فضله الجزيل وكان لعثارنا المقيل خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ومحلكم من حسن اعتقادنا ووجهنا الى وجهة دعائكم وجه اعتدادنا والله ينفعنا بجميل الظن في دينكم المتين وفضلكم المبين ويجمع الشمل بكم في الجهاد عن الدين وتعرفنا الآن عزله بأنبائكم اعتناء وعلى جلالكم حمد وثناء وللجناب ودكم اعتزاء وانتماء يتحاول عزمكم بين حج مبرور ترغبون من أجره في ازدياد وتجددون العهد منه بالف اعتياد وبين رباط في سبيل الله وجهاد وتوثير مهاد بين ربا اثيرة عند الله ووهاد يحشر يوم القيامة شهداؤها مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين فرحين بما آتاهم الله من فضله والله اصدق القائلين الصادقين حيث لاغارة لغير عدو والاسلام تتقي الا لابتغاء ما لدى الله ترتقي حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها وحور الجنان قد زينت اترابها دار الغرب الذين قرعوا باب الفتح وفازوا بجزيل المنح وخلدوا الآثار وأرغموا الكفار وأقالوا العثار وأخذوا الثار وأمنوا من لفح جهنم بما علا على وجوههم من ذلك الغبار فكتبنا اليكم هذا نقوي بصيرتكم على جهة الجهاد من العزمين ونهب بكم الى احدى الحسنيين والصبح غير خاف على ذي عينين والفضل ظاهر لاحدى المنزلتين فانكم ان حججتم أعدتم فرضا أديتموه وفضلا ان تديتموه فائدته عليكم مقصورة وقضيته فيكم محصورة واذا اقتحم الجهاد جلبتم الى حسناتكم عملا غريبا واستأنفتم سعيا من الله قريبا وتعدت المنفعة الى الوف من النفوس المستشعرة لباس البوس ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضله لاطنبنا وأعنة الاستدلال

ارسلنا هذا الوقد منتم على هذا الوطن وفضلكم غفل من الاشهار ومن به لا يوجب لكم ترفيع المقدار فكيف وفضلكم أشهر من محيا النهار ولقاؤكم اشهى الآمال وآثر الاوطار فان قوى عزمكم والله يقويه ويعيننا من بركم على ما تنويه فالبلاد بلادكم وما فيها طريفكم وتلادكم وكهولها اخوانكم وأحداثها أولادكم ونرجو أن تجدوا لذكركم الله فى رباها حلاوة زائدة ولا تعدموا من روح الله فيها فائدة وتكيف نفسكم فيها تكيفات تقصر عنها خلوات السلوك الى ملك الملوك حتى تغتبطوا بفضل الله الذى يوليكم وتروا أثر رحمته فيكم وتخلفوا الخير هذا الانقطاع الى الله فى قبيلكم وبنيكم وتختموا العمر الطيب بالجهاد الذى يعليكم ومن الله تعالى يدينكم فنبيكم العربى صلوات الله عليه وسلامه نبى الرحمة والملاحم ومعمل الصوارم وبجهاد الفرنج ختم عمل جهاده والاعمال بالخواتم هذا على بعد بلادهم من بلاده وأنتم احق الناس باقتفاء جهاده والاستباق الى آماده هذا ما عندنا حثثناكم عليه وندبناكم اليه وأنتم فى ايثار هذا الجوار ومتارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار وتصريف الليل والنهار وتقليب القلوب واحالة الافكار واذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للابرار والدار الآخرة دار القرار وخير الاعمال عمل أوصل الى الجنة وباعد من النار ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطلاع بهذه الارجاء والاصقاع قد اتفقت أخبارها واتحدت أسرارها على البشارة بفتح قرب أوانه واظل زمانه فنرجو الله أن تكونوا ممن يحضر مدعاه ويكرم فيه مسعاه ويسلف فيه العمل الذى يشكره الله ويرعاه والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته انتهى * ولما دخل الاندلس أمير المسلمين على بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ملك المغرب والاندلس وأمعن النظر فيها وتأمل وصفها وحالها قال انها تشبه عقابا مخالبه طليطلة وصدره قلعة رباح ورأسه جيان ومنقاره غرناطة وجناحه الايمن باسط الى المغرب وجناحه الايسر باسط الى المشرق فى خبر طويل لم يحضرنى الآن اذ تركته مع كتبى بالمغرب جمعنى الله بها على أحسن الاحوال * ومع كون أهل الاندلس سباق حلبة الجهاد مهطعين الى داعيه من الجبال والوهاد فكان لهم فى الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وتير المهاد وسيأتى فى الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره ما يشفى ويكفى ولكن سنح لى أن اذكر هنا حكاية أبى بكر المخزومى الهجاء المشهور الذى قال فيه لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة انه كان اعمى شديد الشر معروفا بالهجاء مسلطا على الاعراض سريع الجواب ذكى الذهن فطنا للمعاريض سابقا فى ميدان الهجاء فاذا مدح ضعف شعره (والحكاية هى) ما حكاه أبو الحسن بن سعيد فى الطالع السعيد اذ قال حكاية عن أبيه فيما أظن قدم المذكور يعنى المخزومى على غرناطة أيام ولاية أبى بكر بن سعيد ونزل قريبا منى وكنت اسمع به نارا صاعقة يرسلها الله على من يشاء من عباده ثم رأيت أن ابدأه بالتأنيس والاحسان فاستدعيته بهذه الابيات

يا ثانيا للمعرى * فى حسن نظم ونثر
وفرط ظرف ونبل * وغوص فهم وفكر

صل

صل ثم واصل حفيا * بكل برّ وشكر
وليس الا حديث * كأزهار عقد درّ
وشادن يتغنى * على رباب وزمر
وما يسامح فيه الشغفور من كاس خمر
وبيننا عهد حلف * لياسر حلف كفر
ثم نجدده عهدا * بطيب شكر ويسر
والكاس مثل رضاع * ومن كذا ليت يدرى

مجلس أبي بكر المخزومي مع من هون بنت القلاعي الروانية

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبدا صغيرا قاده فلما استقر به المجلس وأنعمته روائح الند والعود والازهار وهزت عطفه الاوتار قال

دار السعيدي ذي ام دار رضوان * ما تشتهي النفس فيها حاضر داني
سقت أباريقها للند سحب ندى * تحدى برعد لاوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطرا * يحيى به ميت أفكار وأشجان
هذا النعيم الذي كنا نحدثه * ولا سبيل له الا بآذان

فقال أبو بكر بن سعيد والى الآن لا سبيل له الا بآذان فقال حتى يبعث الله ولدا زنى كلما انشدت هذه الابيات قال انها الاعمى فقال اما انا فلا انطق بحرف فقال من صمت نجا وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت وتراك يا استاذ قديم النعمة بمجمر ند وغناء وشراب فتعجب من تأتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم الا بالسماع ولا يبلغ اليه بالعيان ولكن من يجيء من حص المدور ونشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة بمجالس النعيم فلما استوفت كلامها تنحنح الاعمى فقالت له ذبحة فقال من هذه الفاضلة فقالت عجوز مقام أمك فقال كذبت ما هذا صوت عجوز انما هذه نغمة قحبة محترقة تشم روائح هنا على فراسخ فقال له أبو بكر يا استاذ هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الاديبة فقال سمعت بها لا اسمعها الله خيرا ولا أراها الا أيرا فقالت له يا شيخ سوء تناقضت واي خير للمرأة مثل ماذكرت ففكر ساعة ثم قال

على وجه نزهون من الحسن مسحة * وان كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها * ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأعملت فكرها ثم قالت

قل للوضيع مقالا * يتلى الى حين يحشر
من المدور أنشئت والخرا منه اعطر
حيث البداوة أمست * في مشيها تتبختر
لذاك أمسيت صبا * بكل شئ مدور
خلقت اعمى ولكن * تهيم في كل اعور
جازيت شعرا بشعر * فقل لعمري من أشعر
ان كنت في الخلق انثى * فان شعري مذكر

فقال لها الجعى

الا قل لزهونة مالها * تجرّ من التيه أذيالها
ولو أبصرت فيشة شمرت * كما عوّدتني سربالها

فحلف أبو بكر بن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر في هجو كلمة (فقال المخزومي) اكون هجاء الاندلس واكف عنها دون شئ فقال انا اشترى منك عرضها فاطلب فقال بالعبد الذى ارسلته فقادنى الى منزلك فانه لين اليد رقيق المشى فقال أبو بكر لولا كونه صغيرا كنت ابلغك به مرادك واهبه لك ففهم قصده وقال اصبر عليه حتى يكبر ولو كان كبيرا ما آثرتني به على نفسك فضحك أبو بكر وقال ان لم تهج نظما هجوت نثرا فقال أيها الوزير لا تبديل لخلق الله وانفصل المخزومي بالعبد بعد ما اصلح الوزير بينه و بين نزهون انتهى * وفى كتاب الدر المنضد فى وفيات اعيان أمة محمد تأليف الامام صارم الدين ابراهيم بن دقماق قال أبو القاسم ابن خلف كان يعنى المخزومي المذكور حيا بعد الاربعين وخمسمائة انتهى * ونقلت من كتاب قطب السرور لابن الرقيق المغربى ما ملخصه وممن أدركته وعاشرته عبد الوهاب ابن حسين بن جعفر الحاجب وذكرته هنا لانه ملحق بالامراء المتقدمين غير خارج منهم ولا مقصر عنهم بل كان واحد عصره فى الغناء الرائق والادب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الانيق ورقة الطبع واصابة النادر والتشبيه المصيب والبديهة التى لا يلحق فيها مع شرف النفس وعلوّ الهمة وكان قد قطع عمره وافنى دهره فى اللهو واللعب والفكاهة والطرب وكان اعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعة اللحون وكثيرا ما يقول المعانى اللطيفة فى الابيات الحسنة ويصوغ عليها الالحان المطربة البديعة المعجبة اختراعا منه وحذقا وكانت له فى ذلك قريحة وطبع وكان اذا لم يزره أحد من اخوانه احضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته منهم ولده وعبد الله ابن أخيه و بعض غلمانه وكلهم يغنى فيجيد فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب فيدعو بالعود ويغنى لنفسه ولهم وكان بشارة الزامر الذى برع عليه من حذاق زمرة المشرق وكان بعيد الهمة سمحا بما يجد تغلّ عليه ضياعه كل عام أموالا جليلة فلا تحول السنة حتى ينفد جميع ذلك و يستسلف غيره فكان لا يطرأ من المشرق مغنّ الا سأل من يقصد بهذا الشأن فيدل عليه فمن وصله منهم استقبله بصنوف البرّ والاكرام وكساه وخلطه بنفسه ولم يدعه الى أحد من الناس فلا يزال معه فى صبوح وغبوق وهو مجدّد له كل يوم كرامة حتى يأخذ جميع ما معه من صوت مطرب أو حكاية نادرة وجلس يوما وقد زاره رجلان من اخوانه وحضر أقرباؤه فطعموا وشربوا وأخذوا فى الغناء فارتج المجلس اذ دخل عليه بعض غلمانه فقال بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ذكر أنه ضيف فأمر بادخاله فاذا رجل اسمر سناط رث الهيئة فسلم عليه قال أين بلد الرجل قال البصرة فرحب به وأمره بالجلوس فجلس مع الغلمان فى صفة وأتى بطعام فأكل وسقى أقداحا ودار الغناء فى المجلس حتى انتهى الى آخرهم فلما سكتوا اندفع يغنى بصوت ندى وطبع حسن

الا يا دار ما الهجر * لسكانك من شانى

حكاية عبد الوهاب الحاجب

قوله سناط بكسر السين المهملة الذى لا لحية له ونحوها هو الكوسج أصلا وقيل غير ذلك انظر القاموس اه مصححه

سقيت الغيث من دار * وان هيجت أشجانى
ولو شئت لما استسقيت غيثا غير اجفانى
بنفسى حل اهلوك * وان بانوا بسلوانى
وما الدهر بمأمون * على تشتيت خلان

فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الحذق فى اشارته والطيب فى طبعه وقال يا غلام خذ بيده الى الحمام وعجل على به فأدخل الحمام ونظف ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فالقيت عليه ورفعه فأجلسه عن يساره وأقبل عليه وبسطه فغنى له

قومى امزجى التبر باللجين * واحتلى الرطل باليدين
واغتنمى غفلة الليالى * فربما أيقظت لحين
فقد لعمرى أقر منا * هلال شوال كل عين
ذات الخلاخيل أبصرته * كنصف خلخالها اللجين

فطرب وشرب واستزاده فغناه

من لى على رغم الحسود بقهوة * بكر ربيبة حانة عذراء
موج من الذهب المذاب تضمه * كاس كقشر الدرة البيضاء
والنجم فى أفق السماء كأنه * عين تخالس غفلة الرقباء

فشرب عبد الوهاب ثم قال زدنى فغناه

وأنت الذى أشرقت عينى بمائها * وعلمتها بالهجر أن تهجر الغمضا
وأغرقتها بالدمع حتى جفونها * لينكر من فقد الكرا بعضها بعضا

فمر يوم من أحسن الايام وأطيبها ووصله وأحسن اليه ولم يزل عنده مقربا مكرما وكان خليعا ماجنا مشتهرا بالنبيذ خلاه وما أحب ثم وصف له الاندلس وطيبها وكثرة خمورها فمضى اليها ومات بها وعلى نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارئ يطرأ من المشرق ولو ذكرتهم لطال بهم الكتاب انتهى وغرضى من ايراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقى الاندلس وطيبها وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب والله المسؤل فى حسن المتاب * ورأيت فى بعض كتب تاريخ الاندلس فى ترجمة السلطان باديس الصنهاجى صاحب غرناطة ما نصه وهو الذى أكمل ترتيب قصبة مالقة وكان أفرس الناس وأنبلهم ذا مروءة ونجدة وقصره بغرناطة ليس ببلاد الاسلام والكفر مثله فيما قيل انتهى وهذا القصر هو الذى عناه لسان الدين بن الخطيب فى قصيدته السينية المذكورة فى الباب الخامس من القسم الثانى من هذا الكتاب فلتراجع ثمة * وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سرقسطة لا يدخلها الثعبان من قبل نفسه واذا أدخله أحد لم يتحرك ونظير هذا المعنى فى بعض الحيوانات بالنسبة الى بعض البلاد كثير وذلك برصد أو طلسم وقد استطرد بعض علماء أصول الدين ذلك عند ما تكلموا على السحر حسبما قرر فى محله والله أعلم هكذا رأيت فى كلام بعض علماء المشارقة والذى رأيته لبعض مؤرخى المغرب فى سرقسطة أنها لا تدخلها عقرب ولا حية الا ماتت من ساعتها ويؤتى بالحيات والعقارب الهاجية فبنفس ما تدخل الى جوف البلد تموت قال ولا يتسوس

قوله فى قصيدته السينية ومطلعها أدرك بخيلك خيل الله أندلسا اه

فيها شئ من الطعام ولا يعفن و يوجد فيها القمح من مائة سنة والعنب المعلق من ستة أعوام والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والاجاص اليابسة من أربعة أعوام والفول والحمص من عشرين سنة ولا يسوس فيها خشب ولا ثوب كان صوفا أو حريرا أو كتانا وليس في بلاد الاندلس اكثر فاكهة منها ولا اطيب طعما ولا اكبر جرما والبساتين محدقة بها من كل ناحية ثمانية أميال ولها أعمال كثيرة مدن وحصون وقرى مسافة أربعين ميلا وهي تضاهي مدن العراق في كثرة الاشجار والانهار وبالجملة فأمرها عظيم وقد أسلفنا ذكرها * واعلم أن بأرض الاندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا مالا يوجد مجموعه غالبا في غيرها فمن ذلك ماذكره الحجاري في المسهب ان السمور الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد في البحر المحيط بالاندلس من جهة جزيرة برطانية ويجلب الى سرقسطة ويصنع بها ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذي يصنع بقرطبة قال هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ماهو ولا ماعني به ان كان هو نباتا عندهم أو وبر الدابة المعروفة فان كانت الدابة المعروفة فهي دابة تكون في البحر وتخرج الى البر وعندها قوة مير وقال حامد بن سمجون الطبيب صاحب كتاب الادوية المفردة هو حيوان يكون في بحر الروم ولا يحتاج منه الا خصاه فيخرج الحيوان من البحر في البر فيؤخذ وتقطع خصاه ويطلق فربما عرض للقناصين مرة أخرى فاذا أحس بهم وخشي أن لا يفوتهم استلقى على ظهره وفرج بين فخذيه ليرى موضع خصييه خاليا فاذا رآه القناصون كذلك تركوه قال ابن غالب ويسمى هذا الحيوان أيضا الجندبادستر والدواء الذي يصنع من خصييه من الادوية الرفيعة ومنافعه كثيرة وخاصيته في العلل الباردة وهو حار يابس في الدرجة الرابعة والقنلية حيوان أدق من الارنب وأطيب في الطعم وأحسن وبرا وكثيرا ما يلبس فراؤها ويستعملها أهل الاندلس من المسلمين والنصارى ولا توجد في بر البربر الا ما جلب منها الى سبتة فنشأ في جوانبها قال ابن سعيد وقد جلبت في هذه المدة الى تونس حضرة افريقية ويكون بالاندلس من الغزال والابل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها كثيرا وأما الاسد فلا يوجد فيها البتة ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة ولها سبع يعرف باللب أكبر بقليل من الذئب في نهاية من القحة وقد يفترس الرجل اذا كان جائعا وبغال الاندلس فارهة وخيلها ضخمة الاجسام حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو في خيل البر الجنوبي ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول وكذلك حيوان البحر ودواب بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض قال ابن سعيد عاينت من ذلك العجب والمسافرون في البحر يخافون منها لانقلاب المراكب فيقطعون الكلام ولها نفخ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط وقال ابن سعيد قال المسعودي في مروج الذهب في الاندلس من أنواع الافاويه خمسة وعشرون صنفا منها السنبل والقرنفل والصندل والقرفة وقصب الذريرة وغير ذلك وذكر ابن غالب أن المسعودي قال أصول الطيب خمسة أصناف المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران وكلها من أرض الهند الا الزعفران والعنبر فانهما موجودان في أرض الاندلس ويوجد العنبر في أرض الشحر قال

ابن

السمور الذي تعمل منه الفراء

قوله والقنلية في نسخة القنلية بالفاء والمثناة الفوقية وانظر اه

أصل العنبر

ابن سعيد وقد تكلموا في أصل العنبر فذكر بعضهم أنه عيون تنبع في قعر البحر يصير منها ما تبلعه الدواب وتقذفه قال الحجاري ومنهم من قال انه نبات في قعر البحر وقد تقدم قول الرازي ان المحلب وهو المقدم في الافاويه والمفضل في أنواع الاشنان لا يوجد في شيء من الارض الا بالهند والاندلس قال ابن سعيد وفي الاندلس مواضع ذكروا أن النار اذا أطلقت فيها فاحت بروائح العود وما أشبهه وفي جبل شلير افاويه هندية قال وأما الثمار وأصناف الفواكه فالاندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ويوجدان في الاقاليم الباردة ولا يعدم منها الا التمر ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين السفري باشبيلية قال ابن سعيد وهذان صنفان لم ترعيني ولم أذق لهما منذ خرجت من الاندلس ما يفضلهما وكذلك التين المالقي والزبيب المنكبي والزبيب العسلي والرمان السفري والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره وقد ذكر ابن سعيد أيضا أن الارض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة وانها في الاندلس التي هي بعض تلك الارض وأعظم معدن للذهب بالاندلس في جهة شنت ياقور قاعدة الجلالقة على البحر المحيط وفي جهة قرطبة الفضة والزئبق والنحاس في شمال الاندلس كثير والصفر الذي يكاد يشبه الذهب وغير ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها والعين التي يخرج منها الزاج في لبلة مشهورة وهو كثير مفضل في البلاد منسوب لجبل طليطلة جبل الطفل الذي يجهز الى البلاد ويفضل على كل طفل بالمشرق والمغرب وبالاندلس عدة مقاطع للرخام وذكر الرازي أن بجبل قرطبة مقاطع الرخام الابيض الناصع اللون والخمري وفي ناشرة مقطع عجيب للعمد وبباغة من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة موشاة في حمرة وصفرة وغير ذلك من المقاطع التي بالاندلس من الرخام الحالك والجزع وحصى المرية يحمل الى البلاد فانه كالدر في رونقه وله ألوان عجيبة ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان الماء وفي الاندلس من الامنان التي تنزل من السماء القرمز الذي ينزل على شجر البلوط فيجمعه الناس من الشعري ويصبغون به فيخرج منه اللون الاحمر الذي لا تفوقه حمرة قال ابن سعيد والى مصنوعات الاندلس ينتهي التفضيل وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق اذا رأوا منه شيأ وفي تنتالة من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالى في ثمنها بالمشرق ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذو الالوان العجيبة ويصنع في مرسية من الاسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والامقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل ومنها تجهز هذه الاصناف الى بلاد افريقية وغيرها ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب والفخار المزجج المذهب ويصنع بالاندلس نوع من المفضض المعروف في المشرق بالفسيفسا ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفضض وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجري مجراه وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والالجم والدروع

والمغافر فأكثرهم اهل الاندلس فيما حكى ابن سعيد كانت مصروفة الى هذا الشان ويصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول قال والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة وبرذيل آخر بلاد الاندلس من جهة الشمال والمشرق والفولاذ الذى باشبيلية اليه النهاية وفى اشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره وقد أفرد ابن غالب فى فرحة الانفس للآثار الاولية التى بالاندلس من كتابه مكانا فقال منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح الى الارحى التى بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به وذلك من أعجب ما صنع ومن ذلك ما صنعه الاول أيضا من جلب الماء من البحر المحيط الى جزيرة قادس من العين التى فى اقليم الاصنام جلبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوف ذكرا فى أنثى وشقوا به الجبال فاذا وصلوا به الى المواضع المنخفضة بنوا له قناطر على حنايا فاذا جاوزها واتصل بالارض المعتدلة رجعوا الى البنيان المذكور فاذا صادف سبخة بنى له رصيف وأجرى عليه هكذا الى أن انتهى به الى البحر ثم دخل به فى البحر وأخرج فى جزيرة قادس والبنيان الذى دخل عليه الماء فى البحر ظاهر بين قال ابن سعيد الى وقتنا هذا ومنها الرصيف المشهور بالاندلس قال فى بعض أخبار رومية انه لما ولى يوليش المعروف بجاشر وابتدأ بتذريع الارض وتكسيرها كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية الى المشرق منها والى المغرب والى الشمال والى الجنوب ثم بدأ بفرش المبلطة وأقبل بها على وسط دائرة الارض الى أن بلغ بها أرض الاندلس وركزها شرقى قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلى قرطبة الى شقندة الى استجة الى قرمونة الى البحر وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية وذكر أنه أراد تسقيفها فى بعض الاماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ثم توقع أن يكون ذلك فسادا فى الارض وتغييرا للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العمران فتركها على ما هى عليه وذكر فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير الا الصنم الذى بطرف جليقية وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة وملعب مربيطر (قال ابن سعيد) وفى الاندلس عجائب * منها الشجرة التى لولا كثرة ذكر العامة لها بالاندلس ما ذكرتها فان خبرها عندهم شائع متواتر وقد رأيت من يشهد بخبرها ورؤيتها وهم جم غفير وهى شجرة زيتون تصنع الورق والنور والثمر من يوم واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية * ومن العجائب السارية التى بغرب الاندلس بزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان اذا أحبوا المطر أقاموها فيمطر الله جهتهم * ومنها صنم قادس طول ما كان قائما كان يمنع الريح أن تهب فى البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار الجرى فيه فلما هدم فى أول دولة بنى عبد المؤمن صارت السفن تجرى فيه * وبكورة قبرة مغارة ذكرها الرازى وحكى أنه يقال انها باب من أبواب الريح لا يدرك لها قعر * وذكر الرازى أن فى جهة قلعة ورد جبلا فيه شق فى صخرة داخل كهف فيه فأس حديد متعلق من الشق الذى فى الصخرة تراه العيون وتلمسه اليد ومن رام اخراجه لم يطق ذلك واذا رفعته اليد ارتفع وغاب فى شق الصخرة ثم يعود الى حالته * وأما ما أورده ابن بشكوال من الاحاديث

ذكر عجائب الاندلس

والآثار

والآثار فى شأن فضل الاندلس والمغرب فقد ذكرها ابن سعيد فى كتابه المغرب ولم أذكرها أنا والله أعلم بحقيقة أمرها وكذلك ماذكره ابن بشكوال من أن فتح القسطنطينية انما يكون من قبل الاندلس قال وذكره سيف عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه والله أعلم بصحة ذلك ولعل المراد بالقسطنطينية رومية والله أعلم قال سيف وذلك أن عثمان ندب جيشا من القيروان الى الاندلس وكتب لهم أما بعد فان فتح القسطنطينية انما يكون من قبل الاندلس فانكم ان فتحتموها كنتم الشركاء فى الاجر والسلام انتهى قلت عهدة هذه الامور على ناقلها وأنا برىء من عهدتها وان ذكرها ابن بشكوال وصاحب المغرب وغير واحد فانها عندى لا أصل لها وأى وقت بعث عثمان الى الاندلس مع أن فتحها بالاتفاق انما كان زمان الوليد وانما ذكرت هذا للتنبيه عليه لا غير والله أعلم (قال ابن سعيد) وميزان وصف الاندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة فتى سافرت من مدينة الى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحارى فيها معدومة ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها فهى كما قال الوزير ابن الحمارة فيها

لاحت قراها بين خضرة أيكها * كالدر بين زبرجد مكنون

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها وفى الاندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة المتمصرة من مثلها والمثال فى ذلك أنك اذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ثم مالقة وهذا كثير فى الاندلس ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدو وحصل لها بذلك التشييد والتزيين وفى حصونها ما بقى فى محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ودربة أهلها على الحرب واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب وكثرة ما تختزن الغلة فى مطاميرها فتها ما يطول صبره عليها نحوا من مائة سنة قال ابن سعيد ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن وان كان العدو قد نقصها من أطرافها وشارك فى أوساطها ففى البقية منعة عظيمة فأرض بقى فيها مثل اشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة المتمصرة الرجاء فيها قوى بحول الله وقوته انتهى قلت قد خاب ذلك الرجا وصارت تلك الارجاء للكفر معرجا ونسأل الله تعالى الذى جعل للهم فرجا وللضيق مخرجا أن يعيد اليها كلمة الاسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا آمين (ومن غرائب الاندلس البيلتان اللتان بطليطلة صنعهما عبد الرحمن لما سمع بخبر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض الهند وقد ذكره المسعودى وانه يدور باصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة فى بيت مجوّف فى جوف النهر الاعظم فى الموضع المعروف بباب الدباغين ومن عجبهما أنهما يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء فاذا أصبح كان فيهما سبعهما من الماء فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من

الشهر سبعة أيام وسبع ليال فيكون فيهما نصفهما ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر فاذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع فاذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شئ من الماء واذا تكلف أحد حين نقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما الا ما كان فيهما في تلك الساعة وكذا لو تكلف عند امتلائهما افراغهما ولم يبق منهما شيئا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين وهما أعجب من طلسم الهند لان ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار وأما هاتان فليستا في سكان الاعتدال ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصارى دمرهم الله طليطلة فأراد القنش أن يعلم حركاتهما فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي اليهما الماء وكيف الحركة فيهما فقلعت فبطلت حركتهما وذلك سنة ٥٢٨ وقيل ان سبب فسادهما حنين اليهودي الذي جلب حمام الاندلس كلها الى طليطلة في يوم واحد وذلك سنة ٥٢٧ وهو الذي أعلم القنش ان ولده سيدخل قرطبة ويملكها فأراد أن يكشف حركة السلتين فقال له أيها الملك أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران في الليل فلما قلعت لم يقدر على ردها وقيل انه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ولم تزل الاخرى تعطي حركتها والله أعلم بحقيقة الحال (وقال بعضهم) في اشبيلية انها قاعدة بلاد الاندلس وحاضرتها ومدينة الادب واللهو والطرب وهي على ضفة النهر الكبير عظيمة الشان طيبة المكان لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم وهي قريبة من البحر المحيط الى أن قال ولو لم يكن لها من الشرف الا موضع الشرف المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ في فراسخ لكفى وبها منارة في جامعها بناها يعقوب المنصور وليس في بلاد الاسلام أعظم بناء منها وعسل الشرف يبقى حينا لا يترمل ولا يتبدل وكذلك الزيت والتين وقال ابن مفلح ان اشبيلية عروس بلاد الاندلس لان تاجها الشرف وفي عنقها سمط النهر الاعظم وليس في الارض أتم حسنا من هذا النهر يضاهي دجلة والفرات والنيل تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الاطيار أربعة وعشرين ميلا ويتعاطى الناس السرح من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى وبالجملة فهي قد حازت البر والبحر والزرع والضرع وكثرة الثمار من كل جنس وقصب السكر ويجمع منها القرمز الذي هو أجل من اللك الهندي وزيتونها يخزن تحت الارض أكثر من ثلاثين سنة ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري انتهى ملخصا * ولما ذكر ابن اليسع الاندلس قال لا يتزود فيها أحد ماء حيث سلك لكثرة انهارها وعيونها وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى وهي بطاح خضر وقصور بيض قال ابن سعيد وأنا أقول كلاما فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الاندلس وطفت في بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت في أفريقية وما جاورها من المغرب الاوسط فرأيت بجاية وتونس ثم دخلت الديار المصرية فرأيت

الاسكندرية

الاسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا ومابينهما لم أر مايشبه رونق الاندلس فى مباهيها وأنهارها الامدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماه مسحة أندلسية ولم أر مايشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع الاماشيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض أماكن فى تونس وان كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية ولكن الاسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن لانها من حجارة صلبة وفى وضعها وترتيبها اتقان انتهى ومن أحسن ماجاء من النظم فى الاندلس قول ابن سفر المرينى والاحسان له عادة

فى أرض أندلس تلتذ نعماء * ولا يفارق فيها القلب سراء

وليس فى غيرها بالعيش منتفع * ولا تقوم بحق الانس صهباء

وأين يعدل عن أرض تحض بها * على المدامة أمواه وأفياء

وكيف لايبهج الابصار رؤيتها * وكل روض بها فى الوشى صنعاء

أنهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء

وللهواء بها لطف يرق به * من لايرق وتبدو منه أهواء

ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتثار لآلى الطل أنداء

وانما أرج الند استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه أرجاء

وأين يبلغ منها ما أصنفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء

قد ميزت من جهات الارض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء

دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهى حسناء

لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللاغصان اصغاء

فيها خلعت عذارى مابها عوض * فهى الرياض وكل الارض صحراء

ولله در ابن خفاجة حيث يقول

ان للجنة بالاندلس * مجتلى مرأى وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب * ودجى ظلمتها من لعس

فاذا ماهبت الريح صبا * صحت واشوقى الى الاندلس

وقد تقدمت هذه الابيات قال ابن سعيد قال ابن خفاجة هذه الابيات وهو بالمغرب الاقصى فى بر العدوة ومنزله فى شرق الاندلس بجزيرة شقر وقال ابن سعيد فى المغرب مانصه قواعد من كتاب الشهب الثاقبة فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة أول ماتقدم الكلام على قاعدة السلطنة بالاندلس فنقول انها مع ما بأيدى عباد الصليب منها أعظم سلطنة كثرت ممالكها وتشعبت فى وجوه الاستظهار للسلطان اعانتها وندع كلامنا فى هذا الشان وننقل ماقاله ابن حوقل النصيبى فى كتابه لما دخلها فى مدة خلافة بنى مروان بها فى المائة الرابعة وذلك انه لما وصفها قال وأما جزيرة الاندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة فى الاحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية فيها ولما هى

قوله بالعيش فى نسخة القلب اهـ

به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته على ذلك منهم مهينهم وأرباب صناعتهم لقلة مؤنتهم وصلاح معاشهم وبلادهم ثم أخذ في عظم سلطانها ووصف وفور جباياته وعظم مرافقه وقال في أثناء ذلك ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضرب به على الدراهم والدنانير دخلها في كل سنة مائتا ألف دينار وصرف الدينار سبعة عشر درهما هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك وذكر ابن بشكوال ان جباية الاندلس بلغت في مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا من السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار ثم قال ابن حوقل ومن اعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الانجاد والابطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها قال علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب لم أر بدا من اثبات هذا الفصل وان كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب مالا يخفى ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة وليت شعري اذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ومن الذين حموها ببسالتهم من الامم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب واني لأعجب منه اذ كان في زمان قد دلف فيه عباد الصليب الى الشام والجزيرة وعاثوا أكل العيث في بلاد الاسلام حيث الجمهور والقبة العظمى حتى انهم دخلوا مدينة حلب وما أدراك وفعلوا فيها ما فعلوا وبلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة الى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم فيسبون ويأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك وقد يستعين به بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يطب وقد كانت جزيرة الاندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره وانما كانت الفتنة بعد ذلك الاعلام بينة والطريق واضح فلنرجع الى ما نحن بسبيله كانت سلطنة الاندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين افريقية واختلاف الولاة داع الى الاضطراب وعدم تأثل الاحوال وتربية الضخامة في الدولة ولما صارت الاندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد اليهم كل أبي فيها وأطاعهم كل عصي عظمت الدولة بالاندلس وكبرت الهمم وترتبت الاحوال وترتبت القواعد وكانوا صدرا من دولتهم يخطبون لانفسهم بأبناء الخلائف ثم خطبوا لانفسهم بالخلافة وملكوا من بر العدوة ما ضخمت به دولتهم وكانت قواعدهم اظهار الهيبة وتمكن الناموس من قلوب العالم ومراعاة أحوال الشرع في كل الامور وتعظيم العلماء والعمل بأقوالهم واحضارهم في مجالسهم واستشارتهم ولهم حكايات في تاريخ ابن حيان منها ماهو مذكور

من توجه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين وانهم كانوا في نهاية من الانقياد الى الحق لهم أو عليهم وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتك أمرهم ثم اضمحل * وكانت ألقاب الاول منهم الامراء أبناء الخلائف ثم الخلفاء أمراء المؤمنين الى أن وقعت الفتنة بحيث بعضهم لبعض وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى رتبت عليه فاستبدت ملوك الممالك الاندلسية ببلادها وسموا بملوك الطوائف وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين وان لم يبق لهم خلافة ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على امامتهم وصار ملوك الطوائف يتباهون فى احوال الملك حتى فى الالقاب فآل امرهم الى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا الى طبقات السلطنة العظمى وذلك بما فى جزيرتهم من اسباب الترفه والفخامة التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة ولاجل توثبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيروانى

مما يزهدنى فى أرض اندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد واقتفى سيرة المعتضد العباسى أمير المؤمنين وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد وكانت لبنى عباد مملكة اشبيلية ثم انضاف اليها غيرها وكان خلفاء بنى أمية يظهرون للناس فى الاحيان على أبهة الخلافة وقانون لهم فى ذلك معروف الى أن كانت الفتنة فازدرت العيون ذلك الناموس واستخفت به وقد كان بنو حمود من ولد ادريس العلوى الذين توثبوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانية بالاندلس يتعاظمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس وكانوا اذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج الى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة ولما حضر ابن مقانا الاشبونى أمام حاجب ادريس بن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالقة وأنشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله

وكأن الشمس لما أشرقت * فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على * بن حمود أمير المؤمنين

وبلغ فيها الى قوله

انظرونا نقتبس من نوركم * انه من نور رب العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر وأحسن اليه ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة وكثير من العامة ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد وكان أكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة ومنذ وقعت الفتنة بالاندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن امام الجماعة وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك وجرنوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع الى أن انقادوا الى عبد المؤمن وبنيه وتلك القواعد فى رؤسهم كامنة والثوارف المعاقل تنور وتروم الكرة الى أن ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل ووجد

القلوب منحرفة عن دولة بر العدوة مهيأة للاستبداد فلكها بأيسر محاولة مع الجهل المفرط وضعف الرأي وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة يمشي في الاسواق ويضحك في وجوههم ويبادرهم بالسؤال وجاء للناس منه مالم يعتادوه من سلطان فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء وكان كما قيل

أمور يضحك السفهاء منها * ويبكي من عواقبها الحليم

فآل ذلك الى تلف القواعد العظيمة وتلك الامصار الجليلة وخروجها من يد الاسلام والضابط فيما يقال في شأن أهل الاندلس في السلطان أنهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان او جوادا يبرع الاجواد تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكا من غير تدبير في عاقبة الامر الام يؤول وبعد أن يكون الملك في مملكة قد توورث وتدوولت و يكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للاجناد ومراعاة قدموه ملكا في حصن من الحصون ورفضوا عيالهم وأولادهم ان كان اهم ذلك بكرسي الملك ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبته وأهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الاخيرة بالاندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له أرجونة و يعرف الرجل بابن الاحمر كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة الى أن طار اسمه في الاندلس وآل ذلك الى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ثم نهض فملك قرطبة العظمى وملك اشبيلية وقتل مالكها الباجي وملك جيان أحصن بلد بالاندلس وأجله قدرا في الامتناع وملك غرناطة ومالقة ودعوه بأمير المسلمين فهو الان المشار اليه بالاندلس والمعتمد عليه * وأما قاعدة الوزارة بالاندلس فانها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب وكانت هذه المراتب اضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك الى أن كانت ملوك الطوائف فكان الملك منهم لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية وأنه كان نائبا عن خليفتهم يسمى بالحاجب ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به وهي موجودة في آمداح شعرائهم وتواريخهم وصار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص بهم وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين وأكثر ما يكون فاضلا في علم الادب وقد لا يكون كذلك بل عالما بأمور الملك خاصة * وأما الكتابة فهي على ضربين أعلاهما كاتب الرسائل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الاندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة وأهل الاندلس كثيروا الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الالسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه والكاتب الآخر كاتب الزمام هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ولا يكون بالاندلس وبر العدوة لا نصرانيا ولا يهوديا البتة اذ هذا الشغل

تنبيه يحتاج الى صاحبه عظماء الناس ووجوههم وصاحب الاشغال الخراجية فى الاندلس أعظم من الوزير واكثر أتباعا وأصحابا واجدى منفعة فاليه تميل الاعناق ونحوه تمد الاكف والاعمال مضبوطة بالشهود والنظار ومع هذا ان تأثلت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نكب وصودر وهذا راجع الى تقلب الاحوال وكيفية السلطان * وأمّا خطة القضاء بالاندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى هذا وصفها فى زمان بنى أمية ومن سلك مسلكهم ولا سبيل أن يتسم بهذه السمة الامن هو وال الحكم الشرعى فى مدينة جليلة وان كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها الامسدد خاصة وقاضى القضاة يقال له قاضى القضاة وقاضى الجماعة * وأمّا خطة الشرطة بالاندلس فانها مضبوطة الى الآن معروفة بهذه السمة ويعرف صاحبها فى ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان وذلك قليل ولا يكون الا فى حضرة السلطان الاعظم وهو الذى يحد على الزنا وشرب الخمر وكثير من الامور الشرعية راجع اليه قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى وكانت خطة القاضى أوقر واتقى عندهم من ذلك * وأمّا خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفطن وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا على الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الاعوان لان الخبز عندهم معلوم الاوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك للثمن وفى ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبى الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الاوزان وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار أن يبيع باكثر أودون ما حدّ له المحتسب فى الورقة ولا يكاد تخفى خيانته فان المحتسب يدس عليه صبيا أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر الوزن المحتسب فان وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس فلا تسأل عما يلقى وان كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس فى الاسواق نفى من البلد ولهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لانها عندهم تدخل فى جميع المبتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره * وأمّا خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب ارباع فى المشرق فانهم يعرفون فى الاندلس بالدرابين لان بلاد الاندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معدّ وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرّهم واعيائهم فى أمور التلصص الى أن يظهروا على المبانى المشيدة ويفتحوا الاغلاق الصعبة ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أويطالبهم بعد ذلك ولا تكاد فى الاندلس تخلو من سماع دار فلان دخلت البارحة وفلان ذبحه اللصوص على فراشه وهذا يرجع التكثير منه والتقليل الى شدّة الوالى ولينه ومع افراطه فى الشدّة وكون سيفه يقطر دما فان ذلك لا يعدم وقد آل الحال عندهم الى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم وما أشبه ذلك ولم ينته اللصوص * وأمّا قواعد أهل الاندلس فى ديانتهم فانها تختلف بحسب الاوقات والنظر الى السلاطين ولكن الاغلب عندهم اقامة

الحدود وانكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وانكاره ان تهاون فيه أصحاب السلطان وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤن بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم وهذا كثير في أخبارهم وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال اذا لم يعدلوا فكل يوم * وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدورة التي تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية واذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه فلا تجد بالاندلس سائلا الا أن يكون صاحب عذر * وأما حال أهل الاندلس في فنون العلوم فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لان هذا عندهم في نهاية القبح والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك ومع هذا فليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤن جميع العلوم في المساجد بأجرة فهم يقرؤن لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشان اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري والله أعلم وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة وللفقه رونق ووجاهة ولا مذهب لهم الا مذهب مالك وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى ان المسلمين كانوا يسمون الامير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لانها عندهم أرفع السمات * وعلم الاصول عندهم متوسط الحال والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى انهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لا يزداد مع هرم الزمان الا جدة وهم كثيروا البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه وكل عالم في أي علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء مع أن كلام أهل الاندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار اليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ولكن ذلك مراعى

عندهم

عنـدهم فى القرآآت والمخاطبات فى الرسائل وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل عـلم عندهم وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفـل مستثقل * والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ ووظائف والجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم الا أن يختل الوقت ويغلب الجهل فى حين ما ولكن هـذا الغالب واذا كان الشخص بالاندلس نحويا أوشاعرا فانه يعظم فى نفسـه لا محالة ويسخف ويظهر العجب عادة قد جبلوا عليها * وأمازى أهل الاندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لا سيما فى شرق الاندلس فان أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الاوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب عـلى سواد شعره وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهـم من تراه بعمة فى شرق منها أو فى غرب وابن هود الذى ملك الاندلس فى عصرنا رأيته فى جميع احواله ببلاد الاندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الاحمر الذى معظم الاندلس الآن فى يده وكثيرا ما يتزيا سلاطينهـم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وأقبيتهم من الاشكرلاط وغيره كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم * ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن ولا يعرفون الدبابيس ولا قسى العرب بل يعدون قسى الافرنج للحصاصرات فى البلاد او تكون للرجالة عند المصافة للحرب وكثيرا ما تصير الخيل عليهم أو تهلكهـم لانه يوثروها ولا تجد فى خواص الاندلس وأكثر عوامهـم من يمشى دون طيلسان الا انه لا يضعه على رأسه منهـم الا الاشياخ المعظمون وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا وخضرا والصفر مخصوصة باليهود ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة والذؤابة لا يرخيها الا العالم ولا يصرفونها بين الاكتاف وانما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى وهذه الاوضاع التى بالمشرق فى العمائم لا يعرفها أهـل الاندلس وان رأوا فى رأس مشرقى داخل الى بلادهـم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ولا يأخذون أنفسهم بتعلمها لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم وكذلك فى تفصيل الثياب * وأهل الاندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها * وهـم أهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى أيديهـم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون للبخل ولهم مروآت على عادة بلادهم لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل فأوينا اليها وكنا على حال ترقب من السلطان وخائف من الرفاهية فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدمة فقال لنا ان كان عندكم ما اشترى لكم فحما تسخنون به فانى أمضى فى حوائجكم وأجعـل عيالى يقومون بشأنكم فأعطيناه ما اشترى به فحما فأضرم نارا فجاء ابن له صغير ليصطلى فضربه فقال له والدى لم ضربته فقال يتعلم استغنام أموال الناس

والخبز للبرد من الصغر ثم لما جاء النوم قال لابنه أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه فدفع كساءه الى ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبي متنبها ويده في الكساء فقلت ذلك لوالدى فقال هذه مروءات أهل الاندلس وهذا احتياطهم أعطاك الكساء وفضلك على نفسه ثم أفكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفا من انفصالك بها وهو نائم وعلى هذا الشئ الحقير فقس الشئ الجليل انتهى كلام ابن سعيد في المغرب باختصار يسير ولله دره فانه أبدع في هذا الكتاب ما شاء وقسمه الى اقسام منها كتاب وشي الطرس في حلى جزيرة الاندلس وهو ينقسم الى أربعة كتب الكتاب الاول كتاب حلى العرس في حلى غرب الاندلس الكتاب الثانى كتاب الشفاة اللعس في حلى موسطة الاندلس الكتاب الثالث كتاب الانس في حلى شرق الاندلس الكتاب الرابع كتاب لحظات المريب في ذكر ما جاء من الاندلس عباد الصليب والقسم الثانى كتاب الالحان المسلية في حلى جزيرة صقلية وهو أيضا ذو أنواع والقسم الثالث كتاب الغاية الاخيرة في حلى الارض الكبيرة وهو أيضا ذو أقسام وصور رحمه الله تعالى أجزاء الاندلس في كتاب وشي الطرس وقال أيضا ان كلا من شرق الاندلس وغربها ووسطها يقرب في قدر المساحة بعضه من بعض وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ليصدق التثليث في القسمة وهذا دون ما بقي بأيدى النصارى وقدم رحمه الله كتاب حلى العرس في حلى غرب الاندلس لكون قرطبة قطب الخلافة المروانية واشبيلية التي مافي الاندلس أجل منها فيه وقسمه الى سبعة كتب كل كتاب منها يحتوى على مملكة ممتازة عن الاخرى الكتاب الاول كتاب الحلة المذهبة في حلى مملكة قرطبة الكتاب الثانى كتاب الذهبية الاصيلية في حلى المملكة الاشبيلية الكتاب الثالث كتاب خدع الممالقة في حلى مملكة مالقة الكتاب الرابع كتاب الفردوس في حلى مملكة بطليوس الكتاب الخامس كتاب الخلب في حلى مملكة شلب الكتاب السادس كتاب الديباجة في حلى مملكة باجة الكتاب السابع كتاب الرياض المصونة في حلى مملكة أشبونة وقد ذكر رحمه الله تعالى في كل قسم ما يليق به وصور أجزاءه على ما ينبغى فالله يجازيه خيرا والكلام في الاندلس طويل عريض وقال بعض المؤرخين طول الاندلس ثلاثون يوما وعرضها تسعة أيام ويشقها أربعون نهرا كبارا وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة وفيها من الحصون والقرى والبروج مالا يحصى كثرة حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية وليس في معمور الارض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه الا بالاندلس ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلا وحيثما سار من الاقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحارى والاودية ورؤس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الاطعمة * وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الاندلس مسيرة أربعين يوما طولا في ثمانية عشر يوما عرضا وهو مخالف لما سبق * وقال ابن سيده أخذت الاندلس في عرض الاقليمين الخامس والسادس من البحر الشامى في الجنوب الى البحر المحيط في الشمال وبها من الجبال سبعة وثمانون جبلا انتهى ولبعضهم

لله أندلس وما جمعت بها * من كل ما ضمنت لها الاهواء
فكأنما تلك الديار كواكب * وكأنما تلك البقاع سماء
وبكل قطر جدول فى جنة * ولعت به الافياء والانداء

وقال غيره

فى أرض أندلس تلتذ نعماء * ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع * ولا تقوم بحق الانس صهباء
وأين يعدل عن أرض يحض بها * على الشهادة أزواج وأبناء
وأين يعدل عن أرض تحث بها * على المدامة امواه وأفياء
وكيف لا تبهج الابصار رؤيتها * وكل أرض بها فى الوشي صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا * ولا انتشار لآلى الطل أنداء
وانما أرج الند استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه ارجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض ثم بدت * فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا ابحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض * فهي الرياض وكل الارض صحراء

وقد تقدمت هذه القصيدة وقال آخر

حبذا أندلس من بلد * لم تزل تنتج لى كل سرور
طائر شاد وظل وارف * ومياه سائحات وقصور

وقال آخر

يا حسن أندلس وما جمعت لنا * فيها من الاوطار والاوطان
تلك الجزيرة لست أنسى حسنها * بتعاقب الاحيان والازمان
نسج الربيع نباتها من سندس * موشية ببدائع الالوان
وغدا النسيم بها عليلا هائما * بربوعها وتلاطم البحران
يا حسنها والطل ينثر فوقها * دررا خلال الورد والريحان
وسواعد الانهار قد مدت الى * ندمائها بشقائق النعمان
وتجاوبت فيها شوادى طيرها * والتفت الاغصان بالاغصان
ما زرتها الا وحيانى بها * حدق البهار وأنمل السوسان
من بعدها ما أعجبتنى بلدة * مع ما حللت به من البلدان

وحكى بعضهم أن بالجامع من مدينة اقليش بلاط افيه جوائز منشورة مربعة مستوية الاطراف طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبرا * وفى الاندلس جبل من شرب من مائه

كثر عليه الاحتلام من غير ارادة ولا تفكر وفيها غير ذلك مما يطول ذكره والله أعلم ولنغلق العنان في هذا الباب فان بحر الاندلس طويل مديد وربما كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض أو لنقل صاحبه المروي عنه أو لاختلاف ما أو غير ذلك من غرض سديد

(الباب الثاني)

في القاء الاندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وصيرورتها ميدانا لسبق الجياد ومحط رحل الارتياد والارتياد وما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه ازدياد وبما وصل اليه اعتيام وتقرر بمثله اعتياد

اعلم انه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسوله صلى الله عليه وسلم زويت لي مشارق الارض ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها وقع الخلاف بين لذريق ملك القوط وبين ملك سبتة الذي على مجاز الزقاق فكان ما يذكر من فتح الاندلس على يد طارق وطريف ومولاهما الامير موسى بن نصير رحم الله الجميع * وذكر الحجاري وابن حيان وغيرهما ان أول من دخل جزيرة الاندلس من المسلمين برسم الجهاد طريف البربري مولى موسى بن نصير الذي ينسب اليه جزيرة طريف التي على المجاز غزاها بعونة صاحب سبتة يليان النصراني لحقده على لذريق صاحب الاندلس وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل جاز البحر في أربعة مراكب في شهر رمضان سنة احدى وتسعين وانصرف بغنيمة جليلة فعقد موسى بن نصير صاحب المغرب لمولاه طارق بن زياد على الاندلس ووجهه مع يليان صاحب سبتة انتهى * وسيأتي في أمر طريف وغيره ما يخالف هذا السياق وهي أقوال * وقال ابن حيان ان أول أسباب فتح الاندلس كان أن ولى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير مولى عمه عبد العزيز على افريقية وما خلفها سنة ثمان وثمانين فخرج في نفر قليل من المطوعة فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا وفعل ذلك في افريقية وجعل على مقدمته مولاه طارقا فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم فحصرها حتى فتحها وأسلم أهلها ولم تكن فتحت قبله وقيل بل فتحت ثم استغلقت * وذكر ابن حيان أيضا استصعاب سبتة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يليان النصراني وأنه في أثناء ذلك وقع بينه وبين لذريق صاحب الاندلس ثم سرد ما يأتي ذكره * وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله وحديث الفتح وما من الله به على الاسلام من المنح وأخبار ما أفاء الله من الخير على موسى بن نصير وكتب من جهاد لطارق بن زياد مما طول قصاص وأوراق وحديث افول واشراق وارعاد وابراق وعظم امتشاش وآلة معلقة في دكان قشاش انتهى * وقال في المغرب طارق بن زياد من افريقية * وقال ابن بشكوال انه طارق بن عمرو وفتح جزيرة الاندلس ودوخها واليه ينسب جبل طارق الذي يعرفه العامة بجبل الفتح في قبلة الجزيرة الخضراء ورحل مع سيده بعد فتح الاندلس الى الشام وانقطع خبره انتهى * وقال أيضا ان طارقا كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه وأما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الاندلس وما فتح فيها من البلاد الى أن وصل سيده موسى بن نصير * ومن تاريخ ابن بشكوال احتل طارق

بالجبل المنسوب اليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين فى اثنى عشر ألفا غير اثنى عشر رجلا من البربر ولم يكن فيهم من العرب الاشئ يسير وانه لما ركب البحر رأى وهو نائم النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا طارق تقدم لشأنك ونظر اليه والى أصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه فهب من نومه مستبشرا وبشر أصحابه وثابت نفسه ببشراه ولم يشك فى الظفر فخرج من الجبل واقتحم بسيط البلد شانا للغارة وأصاب عجوزا من أهل الجزيرة فقالت له فى بعض قولها انه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلدهم هذا فيغلب عليه ويصف من نعته أنه ضخم الهامة فأنت كذلك ومنها أن فى كتفه الايسر شامة عليها شعر فان كانت فيك فأنت هو فكشف ثوبه فاذا بالشامة فى كتفه على ماذكرت فاستبشر بذلك ومن معه * ومن تاريخ ابن حيان لما حرض يليان النصرانى صاحب سبتة للأمر الذى وقع بينه وبين صاحب الاندلس موسى بن نصير على غزو الاندلس جهز لها مولاه طارقا المذكور فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر فى أربع سفن وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم السبت فى شعبان سنة ٩٢ ولم تزل المراكب تعود حتى توافى جميع أصحابه عنده بالجبل قال ووقع على لذريق صاحب الاندلس الخبر وأن يليان السبب فيه وكان يومئذ غازيا فى جهة البشكنش فبادر فى جموعه وهم نحو مائة ألف ذوى عدة وعدد وكتب طارق الى موسى بأنه قد زحف عليه لذريق بما لا طاقة له به وكان عمل من السفن عدة فجهز له فيها خمسة آلاف من المسلمين فكملوا بمن تقدم اثنى عشر ألفا ومعهم يليان صاحب سبتة فى حشده يدلهم على العورات ويتجسس لهم الاخبار وأقبل نحوهم لذريق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها وقلوبهم عليه فتلاقوا فيما بينهم وقالوا ان هذا الخبيث غلب على سلطاننا وليس من بيت الملك وانما كان من أتباعنا ولسنا نعدم من سيرته خبالا واضطرابا وهؤلاء القوم الذين طرقوا لا حاجة لهم فى ايطان بلدنا وانما مرادهم أن يملؤا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنا فهلم فلننهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم فلعلهم يكفونا أمره فاذا هم انصرفوا عنا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه فأجمعوا على ذلك انتهى * وقال ابن خلدون بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الاندلس وأن ملكهم لعهد الفتح يسمى لذريق مانصه وكانت لهم خطوة وراء البحر فى هذه العدوة الجنوبية خطوها من فرضة المجاز بطنجة ومن زقاق البحر الى بلاد البربر واستعبدوهم وكان ملك البربر بذلك القطر الذى هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان فكان يدين بطاعتهم وملتهم وموسى بن نصير أمير الغرب اذ ذاك عامل على افريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الاقصى ودوخ أقطاره وأثخن فى جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الاسلام وخلف مولاه طارق بن زياد الليثى واليا بطنجة وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط لعهده بالاندلس فعلة فعلها زعموا بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز الى لذريق وأخذ ابنته منه ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلهم على عورة فيهم امكنت طارقا فيها الفرصة فانتهزها لوقته

وأجاز البحر سنة ثنتين وتسعين من الهجرة باذن اميره موسى بن نصير فى نحو ثلثمائة من العرب واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة الاف فصيرهما عسكرين أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعى ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به وأداروا الاسوار على انفسهم للتحصن وبلغ الخبر الى لذريق فنهض اليهم يجر أمم الاعاجم وأهل ملة النصرانية فى زهاء أربعين ألفا وزحفوا اليه فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم اموال أهل الكفر ورقابهم وكتب طارق الى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة وكتب الى طارق يتوعده ان توغل بغير اذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج ومعه حبيب بن منده الفهرى ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فى عسكر ضخم من وجوه العرب الموالى وعرفاء البربر ووافى خليج الزقاق مابين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الى الاندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبع وأتم موسى الفتح وتوغل فى الاندلس الى برشلونة فى جهة الشرق وأربونة فى الجوف وصنم قادس فى الغرب ودوخ أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام دروبه ودروب الاندلس ويخوض اليه ما بينهما من امم الاعاجم النصرانية مجاهدا فيهم مستلحما لهم الى أن يلحق بدار الخلافة ونمى الخبر الى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسر الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع وكتب له بذلك عهده ففت ذلك فى عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد أن انزل الرابطة والحامية بثغورها وأنزل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار امارة واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين وارتحل الى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل والظهر يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبى وولى على افريقية ابنه عبد الله وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونكبه وثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز باغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته وكان خيرا فاضلا وافتتح فى ولايته مدائن كثيرة * وولى من بعده أيوب بن حبيب اللخمى وهو ابن اخت موسى بن نصير فولى عليها ستة اشهر ثم تتابعت ولاة العرب على الاندلس تارة من قبل الخليفة وتارة من قبل عامله بالقيروان وأثخنوا فى امم الكفر وافتتحوا برشلونة من جهة المشرق وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف وانقرضت امم القوط وأوى الجلالقة ومن بقى من امم العجم الى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب فتحصنوا بها وأجازت عساكر المسلمين ماوراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا البسائط وراءها وتوغلوا فى بلاد الفرنجة وعصفت ريح الاسلام بامم الكفر من كل جهة وربما كان بين جنود الاندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكرة فرجع الافرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها واستمر الامر على ذلك وكان محمد بن يزيد عامل افريقية لسليمان ابن عبد الملك لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الى الاندلس الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفى فقدم الاندلس وعزل أيوب بن حبيب وولى سنتين وثمانية أشهر

ثم بعث عمر بن عبد العزيز على الاندلس السمح بن مالك الخولانى على رأس المائة من الهجرة وأمره أن يخمس أرض الاندلس فخمسها وبنى قنطرة قرطبة واستشهد غازيا بأرض الفرنجة سنة اثنتين ومائة فقدم أهل الاندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الى أن قدم عنبسة ابن سحيم الكلبى من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل افريقية فقدمها فى صفر سنة ثلاث ومائة فاستقام أمر الاندلس وغزا الفرنجة وتوغل فى بلادهم واستشهد سنة سبع ومائة لاربع سنين وأربعة اشهر ثم تتابعت ولاة الاندلس من قبل أمراء افريقية فكان أولهم يحيى ابن سلمة الكلبى انفذه بشر بن صفوان الكلبى والى افريقية لما استدعى منه أهل الاندلس واليا بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة سبع وأقام فى ولايتها سنتين ونصفا ولم يغز وقدم اليها عثمان بن أبى نسعة اللخمى واليا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى صاحب افريقية وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الاحوص القيسى فوافاها سنة عشر وعزل قريبا يقال لسنة من ولايته واختلف هل تقدمه عثمان أوهو تقدم عثمان ثم ولى بعده الهيثم بن عبيد الكلابى من قبل عبيدة بن عبد الرحمن أيضا قدم فى المحرم سنة احدى عشرة وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائة لسنتين من ولايته وقدم بعده محمد بن عبد الله الاشجعى فولى شهرين ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب افريقية فدخلها سنة ثلاث عشرة وغزا الافرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ثم ولى عبد الملك بن قطن الفهرى وقدم فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين وقال الواقدى أربع سنين وكان ظلوما جائرا فى حكومته وغزا أرض البشكنس سنة خمس عشرة ومائة فأوقع بهم وغنم ثم عزل فى رمضان سنة ست عشرة وولى عقبة بن الحجاج السلولى من قبل عبيد الله بن الحبحاب فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهدا مظفرا حتى بلغ سكنى المسلمين اربونة وصار رباطهم على نهر ردونة ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله ويقال اخرجه من الاندلس وولى مكانه الى أن دخل بلج ابن بشر باهل الشام سنة أربع وعشرين فغلب عليه وولى الاندلس سنة أونحوها وقال الرازى ثار أهل الاندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين فى خلافة هشام بن عبد الملك وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة ستة اعوام وأربعة اشهر وتوفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الامر لعبد الملك ثم دخل بلج بن بشر القشيرى بجند الشام ناجيا من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر علوية فثار على عبد الملك وقتله وهو ابن سبعين سنة واستوثق له الامر بعد مقتل عبد الملك وانحاز الفهريون الى جانب فامتنعوا عليه وكاشفوه واجتمع اليهم من انكر فعلته بابن قطن وقام بأمرهم قطن وامية ابنا عبد الملك بن قطن والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين وهلك بلج من الجراح التى نالته فى حربهم وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أونحوها من امارته ثم ولى ثعلبة بن سلامة الجذامى غلب على امارة الاندلس بعد مهلك بلج وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه وولى سنتين اظهر فيهما العدل ودانت له الاندلس عشرة اشهر الى أن مالت به العصبية فى يمانيته ففسد

أمره وهاجت الفتنة وقدم ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل افريقية ركب اليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين فدان له أهل الاندلس وأقبل اليه ثعلبة وابن أبي نسعة وابنا عبد الملك فلقيهم وأحسن اليهم واستقام أمره وكان شجاعا كريما ذا رأي وحزم وكثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وأنزل اهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق وأنزل اهل حمص اشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين وأهل الاردن رية ومالقة وسماهما الاردن وأهل فلسطين شدونة وهي شريش وسماها فلسطين وأهل مصر تدمير وسماها مصر وقفل ثعلبة الى المشرق ولحق بمروان بن محمد وحضر حروبه وكان أبو الخطار أعرابيا عصبيا افرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية وتحامل على المضرية وأسخط قيسا وأمر في بعض الايام بالصميل بن حاتم كبير القيسية وكان من طوالع بلج وهو الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن ورأس على المضرية فأقيم من مجلسه وتقنع فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر أقم عمامتك يا أبا الجوشن فقال ان كان لي قوم فسيقيمونها فسار الصميل بن حاتم اميرهم يومئذ وزعيمهم وألب عليه قومه واستعان بالمحرفين عنه من اليمانية فخلع أبو الخطار سنة ثمان وعشرين لاربع سنين وتسعة اشهر من ولايته وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامي وهاجت الحرب المشهورة وخاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب افريقية فكتب الى ثوابة بعهده على الاندلس منسلخ رجب سنة تسع وعشرين فضبط الاندلس وقام بامره الصميل واجتمع عليه الفريقان وهلك لسنة من ولايته ووقع الخلاف بافريقية والتاث أمر بني أمية بالمشرق وشغلوا عن قاصية الثغور بكثرة الخوارج وعظم أمر المسودة فبقي أهل الاندلس فوضى ونصبوا للاحكام خاصة عبد الرحمن بن كثير ثم اتفق جند الاندلس على اقتسام الامارة بين المضرية واليمانية وادالتها بين الجندين سنة لكل دولة وقدم المضرية على انفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة تسع وعشرين واستتم سنة ولايته بقرطبة دار الامارة ثم وافته اليمانية لميعاد ادالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم فبيتهم يوسف بمكان نزولهم من شقندة في قرى قرطبة بممالأة من الصميل بن حاتم والقيسية وسائر المضرية فاستلحموهم وثار أبو الخطار رفقا له الصميل وهزمه وقتله سنة تسع وعشرين واستبد يوسف بما وراء البحر من عدوة الاندلس وغلب اليمنية على أمرهم فاستكانوا للغلبة وتربصوا الدوائر الى أن جاء عبد الرحمن الداخل وكان يوسف ولى الصميل سرقسطة فلما ظهر أمر المسودة بالمشرق ثار الحباب الزهري بالاندلس داعيا لهم وحاصر الصميل بسرقسطة واستمد يوسف فلم يمده رجاء هلاكه لما كان يغص به وأمدته القيسية فأفرج عنه الحباب وفارق الصميل سرقسطة فملكها الحباب وولى يوسف الصميل على طليطلة الى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان انتهى كلام ولي الدين بن خلدون ببعض اختصار (وقال بعض المؤرخين) ان عبد الله بن مروان أخا عبد الملك كان واليا على مصر وافريقية فبعث اليه ابن أخيه الوليد الخليفة يأمره بارسال موسى بن نصير الى افريقية وذلك سنة ٨٧ للهجرة فامتثل أمره في ذلك وقال الحميدي في جذوة المقتبس ان موسى بن نصير ولي افريقية والمغرب سنة ٧٧

فقدمها ومعه جماعة من الجند فبلغه أن بأطراف البلاد من هو خارج عن الطاعة فوجه ولده عبد الله فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا ثم ولده مروان الى جهة اخرى فأتاه بمائة ألف رأس * وقال الليث بن سعد بلغ الخمس ستين ألف رأس وقال الصدفي لم يسمع في الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ووجد اكثر مدن افريقية خالية لاختلاف أيدى البربر عليها وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة واصلاح ذات البين وخرج بهم الى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرّق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ والضجيج وأقام على ذلك الى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له ألا تدعو لامير المؤمنين فقال هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى فسقوا حتى رووا ثم خرج موسى غازيا وتتبع البربر وقتل فيهم قتلا ذريعا وسبى سبيا عظيما وسار حتى انتهى الى السوس الادنى لا يدافعه أحد فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم واليا واستعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربرى ويقال انه من الصدف وترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالاسلحة والعدّة الكاملة وكانوا قد أسلموا وحسن اسلامهم وترك موسى عندهم خلقا يسيرا من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم ولما استقرت له القواعد كتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الاندلس فغزاها في اثنى عشر ألفا من البربر خلا اثنى عشر رجلا وصعد على الجبل المنسوب اليه يوم الاثنين خامس رجب سنة ٩٢ وذكر عن طارق أنه كان نائما في المركب وقت التعدية فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد هكذا ذكر ابن بشكوال وقيل ان موسى ندم على تأخره وعلم أن طارقا ان فتح شيأ نسب الفتح اليه دونه فأخذ في جمع العساكر وولى على القيروان ابنه عبد الله وتبع طارقا فلم يدركه الا بعد الفتح وقال بعض العلماء ان موسى بن نصير كان عاقلا شجاعا كريما تقيا لله تعالى ولم يهزم له قط جيش وكان والده نصير على جيوش معاوية ومنزلته لديه مكينة ولما خرج معاوية لصفين لم يخرج معه فقال له ما منعك من الخروج معي ولى عندك يد لم تكافئنى عليها فقال لم يمكنى أن اشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى منك فقال من هو فقال الله عز وجل فأطرق مليا ثم قال استغفر الله ورضى عنه * (رجع الى حديث طارق) قال بعض المؤرخين كان لذريق ملك الاندلس استخلف عليها شخصا يقال له تدمير واليه تنسب تدمير بالاندلس فلما نزل طارق من الجبل كتب تدمير الى لذريق انه قد نزل بأرضنا قوم لا ندرى أمن السماء هم أم من الارض فلما بلغ لذريق ذلك وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغزوله في بعض أعدائه رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ومعه العجل يحمل الأموال والمتاع وهو على سريره بين دابتين وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد فلما بلغ طارقا دنوه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم

ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوّكم وان امتدّت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت وانى لم احذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبدأ بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الألذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفى من حظى وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولىّ انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا أنى اول مجيب الى ما دعوتكم اليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر فى قتال لذريق وأصحابه وما وعدهم من الخير الجزيل انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت رياح النصر عليهم وقالوا له قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه فاحضر اليه فانا معك وبين يديك فركب وأصحابه فباتوا ليلتهم فى حرس الى الصبح فلما أصبح الفريقان تكتبوا وعبوا جيوشهم وحمل لذريق وهو على سريره وقد حمل على رأسه رواق ديباج يظلله وهو مقبل فى غابة من البنود والاعلام وبين يديه المقاتلة والسلاح وأقبل طارق فى أصحابه عليهم الزرد من فوق رؤسهم العمائم البيض وبأيديهم القسىّ العربية وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح فلما نظر اليهم لذريق حلف وقال انّ هذه الصور هى التى رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا فداخله منهم الرعب فلما رأى طارق لذريق قال هذا طاغية القوم فحمل وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة من بين يدى لذريق فخلص اليه طارق فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان وكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة العدوّ على موضع بل كانوا يسلمون بلدا بلدا ومعقلا معقلا ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له يا طارق انه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الاندلس فاستبحه هنيئا مريئا فقال له طارق ايها الامير والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم انته الى البحر المحيط أخوض فيه بفرسى يعنى البحر الشمالى الذى تحت بنات نعش ولم يزل طارق يفتح وموسى معه الى أن بلغ الى جليقية وهى ساحل البحر المحيط انتهى * (وقال الحافظ الحميدىّ فى كتابه جذوة المقتبس) انّ موسى

ابن

ابن نصير نقم على مولاه طارق اذ غزا بغير اذنه وهمّ بقتله ثم ورد عليه كتاب الوليد باطلاقه فأطلقه وخرج معه الى الشام انتهى * وقول لذريق ان هذه الصور هي التي رأيناها في بيت الحكمة الخ أشار به الى بيت حكمة اليونان وكان من خبره فيما حكى بعض علماء التاريخ أن اليونان وهم الطائفة المشهورة بالحكم كانوا يسكنون بلاد المشرق قبل عهد الاسكندر فلما ظهرت الفرس واستولت على البلاد وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك انتقل اليونان الى جزيرة الاندلس لكونها طرفا في آخر العمارة ولم يكن لها ذكر اذ ذاك ولا ملكها أحد من الملوك المعتبرة ولم تك عامرة وكان اول من عمر فيها واختطها اندلس بن يافث بن نوح عليه السلام فسميت باسمه ولما عمرت الارض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكل طائر رأسه المشرق والجنوب والشمال رجلاه وما بينهما بطنه والمغرب ذنبه وكانوا يزدرون المغرب لنسبته الى أخس أجزاء الطير وكانت اليونان لا ترى فناء الامم الا بالحروب لما فيه من الاضرار والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من أهمّ الامور فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس الى الاندلس فلما صاروا اليها أقبلوا على عمارتها فشقوا الانهار وبنوا المعاقل وغرسوا الجنان والكروم وشيدوا الامصار وملؤها حرثا ونسلا وبنيانا فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها ان الطائر الذي صورت هذه العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاوسا معظم جماله في ذنبه (وحكي) أن الرشيد هرون رحمه الله لما حضر بين يديه بعض أهل المغرب قال الرشيد يقال ان الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب فقال الرجل صدقوا يا أمير المؤمنين وانه طاوس فضحك أمير المؤمنين الرشيد وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره (رجع) قال فاغتبط اليونان بالاندلس أتمّ اغتباط واتخذوا دار الحكمة والملك بها طليطلة لانها أوسط البلاد وكان أهمّ الامور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الامم فنظروا فاذا هو أنه لا يحسدهم على رغد العيش الا أرباب الشظف والشقاء والتعب وهم يومئذ طائفتان العرب والبربر فخافوهم على جزيرتهم العامرة فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طلسما فرصدوا لذلك أرصادا ولما كان البربر بالقرب منهم وليس سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الاوضاع ازدادوا منهم نفورا واكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة حتى نبت ذلك في طباعهم وصار بعضه مركبا في غرائزهم فلما علم البربر عداوة أهل الاندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم فلم تجد أندلسيا الا مبغضا بربريا وبالعكس الا أن البربر أحوج الى أهل الاندلس لوجود بعض الاشياء عندهم وفقدها ببلاد البربر وكان بنواحي غرب الاندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس وكانت له ابنة في غاية الجمال فتسامع بها ملوك الاندلس وكانت الاندلس كثيرة الملوك لكل بلدة أو بلدتين ملك فخطبوها وخشي أبوها ان زوجها من واحد أسخط الباقين فتحير وأحضر ابنته وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم واناثهم ولذا قيل ان الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الارض أدمغة اليونان وأيدي أهل الصين وألسنة العرب فقال لها يا بنية اني أصبحت على حيرة في أمرك ممن يخطبك من الملوك وما أرضيت واحدا الا أسخطت الباقين فقالت له اجعل الامر الي تخلص

خبر بيت الحكمة

فقال وما تقترحين فقالت أن يكون ملكا حكيما فقال نعم ما اخترته لنفسك فكتب فى أجوبة الملوك الخطاب انها اختارت من الازواج الملك الحكيم فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما وكان فى الملوك الخاطبين حكيمان فكتب كل واحد منهما أنا الملك الحكيم فلما وقف على كتابيهما قال لها يا بنية بقى الامر على اشكاله وهذان ملكان حكيمان أيهما أرضيت أسخطت الآخر فقالت سأقترح على كل واحد منهما أمرا يأتى به فأيهما سبق الى الفراغ مما التمست كنت زوجته قال وما الذى تقترحين عليهما قالت انا ساكنون بهذه الجزيرة ومحتاجون الى أرحى تدور بها وانى مقترحة على أحدهما ادارتها بالماء العذب الجارى اليها من ذلك البر ومقترحة على الآخر أن يتخذ لى طلسما تحصن به جزيرة الاندلس من البربر فاستظرف أبوها ذلك وكتب الى الملكين بما قالت ابنته فأجاباه الى ذلك وتقاسماه على ما اختارا وشرع كل واحد منهما فى عمل ما أسند اليه من ذلك فأما صاحب الرحى فانه عمد الى أشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها الى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الاندلس والبر الكبير فى الموضع المعروف بزقاق سبتة وسد الفرج التى بين الحجارة بما اقتضت حكمته وأوصل تلك الحجارة من البر الى الجزيرة وآثاره باقية الى اليوم فى الزقاق الذى بين سبتة والجزيرة الخضراء وأكثر أهل الاندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة الى الجزيرة والله أعلم أى القولين أصح غير أن الشائع الى الآن عند الناس هو الثانى فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال فى البر الكبير وسلطه من ساقية محكمة وبنى بجزيرة الاندلس رحى على هذه الساقية * وأما صاحب الطلسم فانه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله غير أنه عمل أمره وأحكمه وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر فى رمل عالج حفر أساسه الى أن جعله تحت الارض بمقدار ارتفاعه فوق الارض ليثبت فلما انتهى البناء المربع الى حيث اختار صور من النحاس الاحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربرى وله لحية وفى رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة فى رأسه لجعودتها وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه فى رجله نعل وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط وهو شاهق فى الهواء طوله ينيف عن ستين أو سبعين ذراعا وهو محدودب الاعلى الى أن ينتهى ما سعته قدر ذراع وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابض عليه مشيرا الى البحر كأنه يقول لاعبور وكان من تأثير هذا الطلسم فى البحر الذى تجاهه انه لم يرقط ساكنا ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربر الا سقط المفتاح من يده وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان الى فراغ العمل اذ بالسبق يستحق زواج المرأة وكان صاحب الرحى فرغ أولا لكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم لتحظى المرأة بالرحى والطلسم فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى آخره أجرى الماء فى الجزيرة من أوله وأدار الرحى واشتهر ذلك فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلى القبة يصقل وجهه وكان الطلسم مذهبا فلما تحقق انه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم وكان

من تقدّم من ملوك اليونان يخشى على الاندلس من البربر للسبب الذى قدمناذكره فاتفقوا وجعلوا الطلسمات فى أوقات اختاروا اوصادها وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام وتركوه فى بيت بطليطلة وركبوا على ذلك الباب قفلا تأكيدا لحفظ ذلك البيت فاستقرّ أمرهم على ذلك ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالاندلس ودخول العرب والبربر اليها وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة وكان لذريق المذكور آنفا هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأى منهم قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلا شئ وأريد أن أفتحه لانظر ما فيه لانه لم يعمل عبثا فقالوا أيها الملك صدقت انه لم يصنع عبثا ولم يقفل سدى والرأى والمصلحة أن تلقى أنت أيضا عليه قفلا أسوة بمن تقدمك من الملوك وكان آباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم فقال لهم ان نفسى تنازعنى الى فتحه ولا بدّ لى منه فقالوا له ان كنت تظنّ أنّ فيه مالا فقدّره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ولا تحدث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته فأصرّ على ذلك وكان رجلا مهيبا فلم يقدروا على مراجعته وأمر بفتح الاقفال وكان على كل قفل مفتاحه معلقا فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيأ الا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ورأى فى البيت ذلك التابوت وعليه قفل ومفتاحه معلق ففتحه فلم يجد فيه سوى رق وفى جوانب التابوت صور فرسان مصوّرة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد ومن تحتهم الخيل العربية وهم متقلدون السيوف المحلاة معتقلون الرماح فأمر بنشر ذلك الرق فاذا فيه متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت الى جزيرة الاندلس وذهب ملك من فيها من أيديهم وبطلت حكمتهم فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل وتحقق انقراض دولتهم فلم يلبث الا قليلا حتى سمع أن جيشا وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفتتح بلاد الاندلس انتهى * فهذا هو بيت الحكمة الذى أشار اليه لذريق والله أعلم بحقيقة الامر فى ذلك كله على أن فى هذا السياق مخالفة لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرّخى الاندلس وغيرهم فى شأن المائدة وغيرها وماذكر فى هذه القصة من جلب الماء من برّ العدوة الخ فيه بعد عندى لان بلاد الاندلس اكثر بلاد الله مياها وأنهارا وأنى تحتاج الى جلب الماء اليها من العدوة الاخرى الا أن يقال ان المرأة أرادت تعجيز الرجل بذلك أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الامر الغريب وعلم الله من وراء ذلك كله وفوق كل ذى علم عليم ومنتهى العلم الى الله الحكيم (وقال ابن حيان فى المقتبس) ذكروا أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك ولا بصحيح النسب فى القوط وأنه انما نال الملك من طريق الغصب والتسور عند ما مات غيطشة الملك الذى كان قبله وكان أثير اليه مكينا فاستصغر أولاده لمكانه واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانتزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم فكانوا هم الذين دبروا عليه فيما ذكر عند ما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بالاندلس من تلقاء بحر الزقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم فى أن يودى ويخلص اليهم ملك

أبيهم فالتقوا بموضع يدعى وادى لكة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الاندلس القبلى مكان عبورهم وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة فانهزم القوط أعظم هزيمة وقتل ملكهم لذريق وغلبت العرب على الاندلس فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ومصداق موعد نبيهم صلى الله عليه وسلم الكفيل بفتح مابين المشرق والمغرب عليهم بوحى الله تعالى اليه أنجزه لهم بفتح الاندلس ولله القوة قال وقام بأمر العرب بالاندلس منذ فتحت الامراء المرسلون منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طوال دولة بنى أمية رضى الله تعالى عنهم الى أن طرأ اليها فلهم عند غلبة بنى العباس عليهم ودخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان فملكها وأعاد اليها الدولة الاموية التى أورثها عقبه حقبة فكانت عدة هؤلاء الامراء من لدن أولهم طارق بن زياد الى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى عشرين عاملا وعدة سنيهم بالشمسى ست وأربعون سنة وبالقمرى سبع وأربعون سنة غير أشهر انتهى (وقال فى موضع آخر) نقلا عن الرازى وافتتحت الاندلس فى أيام الوليد بن عبد الملك فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية وكان عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه متهمما بها معتنيا بشأنها وقد حولها عن نظر والى افريقية وجرد اليها عاملا من قبله اختاره لها دلالة على معنيته بها ووقعت المقاسم فيها عن أمره وبفضل رأيه انتهى (وفى الكتاب الخزائنى وغيره) سياقة فتح الاندلس على أتم الوجوه فلنذكر ملخصه قالوا استعمل أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك رحمه الله تعالى موسى بن نصير مولى عمه عبد العزيز بن مروان ويقال بل هو بكرى وذلك أن أباه نصيرا اصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فى عين التمر فادعوا انهم رهن وأنهم من بكر بن وائل فصار نصير وصيفا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه ففى هذا يختلف فيه وقيل انه لخمى وعقد له على افريقية وما خلفها فى سنة ثمان وثمانين فخرج الى ذلك الوجه فى نفر قليل من المطوعة فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا وأتى افريقية عمله فأخرج من أهلها معه ذوى القوة والجلد وصير على مقدمته طارق بن زياد فلم يزل يقاتل البربر ويفض جموعهم و يفتتح بلادهم ومدائنهم حتى بلغ طنجة وهى قصبة ملك البربر وأم مدائنهم فحصرها حتى افتتحها وقيل انها لم تكن افتتحت قبله وقيل افتتحت ثم ارتجعت فأسلم أهلها وخطها قيروانا للمسلمين ثم ساروا الى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ماحولها ورأس تلك المدائن سبتة وعليها علج يسمى بليان قاتله موسى فألفاه فى نجدة وقوة وعدة فلم يطقه فرجع الى مدينة طنجة فاقام بمن معه وأخذ فى الغارات على ماحولهم والتضييق عليهم والسفن تختلف اليهم بالميرة والامداد من الاندلس من قبل ملكها غيطشة فهم يذبون عن حريمهم ذبا شديدا ويحمون بلادهم حماية تامة الى أن هلك غيطشة ملك الاندلس وترك أولادا لم يرضهم أهلها للملك فاضطرب حبل أهل الاندلس ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق مجرب شجاع بطل ليس من بيت أهل الملك الا أنه من قوادهم وفرسانهم فولوه أمرهم وكانت طليطلة دار الملك بالاندلس حينئذ وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الايام عليه عدة من الاقفال يلزمه قوم من ثقات القوط قد وكلوا به

لئلا يفتح وقد عهد الاول فى ذلك الى الآخر فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون بالبيت فأخذ وا منه قفلا وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدمه فلما قعد لذريق هذا وكان متهما يقظا اذا فكر أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب فقال لهم لا أفعل أو اعلم ما فيه ولا بد لى من فتحه فقالوا له أيها الملك انه لم يفعل هذا أحد من قبلك وتناهوا عن فتحه فلم يلتفت اليهم ومشى الى البيت فأعظمت ذلك العجم وضرع اليه أكابرهم فى الكف فلم يفعل وظن أنه بيت مال ففض الاقفال عنه ودخل فأصابه فارغا لا شئ فيه الا تابوتا عليه قفل فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقنعه نفاسة فألفاه أيضا فارغا ليس فيه الا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العراب متقلدى السيوف متنكبى القسى رافعى الرايات على الرماح وفى أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية فقرئت فاذا فيها اذا كسرت الاقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فان هذه الامة المصورة فى هذه الشقة تدخل الاندلس فتغلب عليها وتملكها فوجم لذريق وندم على ما فعل وعظم غمه وغم العجم بذلك وأمر برد الاقفال واقرار الحراس على حالهم وأخذ فى تدبير الملك وذهل عما أنذر به وقد كان من سير أكابر العجم بالاندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم الى بلاد الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا فى خدمته ويتأدبوا بأدبه وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلافا لآبائهم وحمل صدقاتهم وتولى تجهيز اناثهم الى أزواجهن فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة وكانت يومئذ فى يد صاحب الاندلس وأهلها على النصرانية ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه فلما صارت عند لذريق وقعت عينه عليها فأعجبته وأحبها حبا شديدا ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرا بمكاتبة خفية فأحفظه شأنها جدا واشتدت حميته وقال ودين المسيح لأزيلن ملكه وسلطانه ولأحفرن تحت قدميه فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الاندلس بالذى سبق من قدر الله تعالى ثم ان يليان ركب بحر الزقاق من سبتة فى أصعب الاوقات فى صنبر قلب الشتاء فصار بالاندلس وأقبل الى طليطلة نحو الملك لذريق فأنكر عليه مجيئه فى مثل ذلك الوقت وسأله عما لديه وما جاء فيه ولم جاء فى مثل وقته فذكر خيرا واعتل بذكر زوجته وشدة شوقها الى رؤية بنتها التى عنده وتمنيها لقاءها قبل الموت والحاحها عليه فى احضارها وأنه أحب اسعافها ورجا بلوغها أمنيتها منه وسأل الملك اخراجها اليه وتعجيل اطلاقه للمبادرة بها ففعل وأجاز الجارية وتوثق منها بالكتمان عليه وأفضل على أبيها فانقلب عنه وذكروا أنه لما ودعه قال له لذريق اذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها فانها اثر جوارحنا لدينا فقال له أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قط عرض له بالذى أضمره من السعى فى ادخال رجال العرب عليه وهو لا يفطن فلم يتمهل يليان عندما استقر بسبتة عمله أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير الامير فمضى نحوه بافريقية وكلمه فى غزو الاندلس ووصف له حسنها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها وهون عليه مع ذلك حال رجالها

ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء فشوّق موسى الى ما هنالك وأخذ بالحزم فيما دعاه اليه
يليان فعاقده على الانحراف الى المسلمين واستظهر عليه بأن سامه مكاشفة أهل ملته من
الاندلس المشركين والاستخراج اليهم بالدخول اليها وشن الغارة فيها ففعل يليان ذلك وجمع
جمعا من أهل عمله فدخل بهم في مركبين وحل بساحل الجزيرة الخضراء فأغار وقتل وسبى
وغنم وأقام بها أياما ثم رجع بمن معه سالمين وشاع الخبر عند المسلمين فأنسوا بيليان واطمأنوا
اليه وكان ذلك عقب سنة تسعين فكتب موسى بن نصير الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك
يخبره بالذي دعاه اليه يليان من أمر الاندلس ويستأذنه في اقتحامها فكتب اليه الوليد
أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال فراجعه
انه ليس ببحر زخار وانما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه فكتب اليه وان كان فلا بد من
اختباره بالسرايا قبل اقتحامه فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه
طريف يكنى أبا زرعة في أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم في أربع مراكب فنزل
بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم
ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها وأقام بها أياما حتى التام اليه أصحابه ثم مضى حتى
أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ومالا جسيما وأمتعة وذلك
في شهر رمضان سنة احدى وتسعين فلما رأى الناس ذلك تسرعوا الى الدخول وقيل دخل
طريف في ألف رجل فأصاب غنائم وسبيا ودخل بعده أبو زرعة شيخ من البرابرة وليس
بطريف في ألف رجل منهم أيضا فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرقوا عنها فضرموا عامتها بالنار
وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة وأصابوا سبيا يسيرا وقتلوا وانصرفوا سالمين وقال
الرازي هو أبو زرعة طريف بن مالك المغافري الاسم طبق الكنية قالوا ثم عاود يليان
القدوم على موسى بن نصير محركا في الاقتحام على أهل الاندلس وخبره بما كان منه ومن
طريف وأبي زرعة وما نالوه من أهلها وبا شروه من طيبها فحمد الله على ذلك واستجد عزما
في اقحام المسلمين فيها فدعا مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيا
همدانيا وقيل انه ليس بمولى لموسى وانما هو رجل من صدف وقيل مولى لهم وقد كان بعض
عقبه بالاندلس ينكرون ولاء موسى انكارا شديدا وقيل انه بربري من نفزة فعقد له موسى
وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر والموالي وليس فيهم عرب الا القليل ووجه معه
يليان فهيأ له يليان المراكب فركب في أربع سفن لا صناعة له غيرها وحط بجبل طارق
المنسوب اليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين في شهر أغسطس ثم صرف المراكب الى
من خلفه من أصحابه فركب من بقي من الناس ولم تزل السفائن تختلف اليهم حتى توافى
جميعهم عنده بالجبل وقيل حل طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة في
اثنى عشر ألفا غير ستة عشر رجلا من البرابرة ولم يكن فيهم من العرب الا يسير أجازهم يليان
الى ساحل الاندلس في مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم أولا أولا وركب أميرهم طارق
آخرهم قيل وأصاب طارق عجوزا من أهل الجزيرة فقالت له في بعض قولها انه كان لها زوج
عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلدهم هذا ويغلب عليه ويصف من نعته انه

ضخم الهامة فأنت كذلك ومنها أن في كتفه الايسر شامة عليها شعر فان كانت بك هذه العلامة فأنت هو فكشف طارق ثوبه فاذا بالشامة في كتفه على ماذكرته العجوز فاستبشر بذلك هو ومن معه * وذكر عن طارق أنه كان نائما في المركب فرأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الاربعة أصحابه عليه الصلاة والسلام يمشون على الماء حتى مروا به فبشره النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد * وقيل انه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبي صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا طارق تقدم لشأنك ونظر اليه والى أصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه فهب من نومه مستبشرا وبشر أصحابه وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه فتقويت نفسه ولم يشك في الظفر فخرج من البلد واقتحم بسيط البلاد شانا للغارة قالوا ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس وتوالى غاراتهم على بلد الجزيرة وأتى بلبان السبب فيها وكان يومئذ غائبا بأرض بنبلونة في غزاة له الى البشكنس لامر كان استصعب عليه بناحيتهم فعظم عليه وفهم الامر الذى منه أتى وأقبل مبادرا الفتق في جموعه حتى احتل بحد بثه قرطبة من المتوسطة ونزل القصر المدعو بها ببلاط لذريق المنسوب اليه وليس لانه بناه أو اخترعه وهو بناء من تقدمه من الملوك اتخذوه منزلاهم في قرطبة اذا أتوها الا أن العرب لما غلبوا لذريق وهذا القصر من مواطنه نسبوه اليه اذ لم يعرفوا من بناه ويزعم العجم ان الذى بناه ملك منهم كان ساكنا بحصن المدور أسفل قرطبة وخرج يوما يتصيد حتى انتهى الى مكان قرطبة وهي يومئذ خراب وكان في موضع قصرها غيضة عليق ملتفة أشبة فأرسل الملك بازيا له يكرم عليه على حجلة عنت له من ناحية الكدية المنسوبة بعد الى أبي عبيدة فتخبث في ذلك العليق ولج البازى في الانقضاض عليها فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه ليخرجه فأمر بقطعها لاستنفاذ بازيه ضنا منه به فقطعت وبدا له تحتها أساس قصر عظيم راقه رصه وقد كان ذا همة فأمر بالكشف عنه وتقصى حدوده طولا وعرضا وتتبع اسه وأصله فوجده مبنيا من وجه الماء بصم الحجارة فوق زرجون ووضع بينها وبين الماء باحكم صناعة فقال هذا أثر ملك كريم وأنا أولى من جدده فأمر باعادته الى هيأته واتخاذه منزلا من منازل راحاته فكان اذا طاف بعمله أو مضى في متصيده نزل فيه وصار السبب في بناء قرطبة الى جنبه ونزل الناس فيها وتوارث الملوك قصرها من بعده ونزله لذريق في زحفه الى العرب أياما والحشود من أعماله تتوالى اليه ثم مضى نحو كورة شدونة يبغي لقاءهم في حشوده الكثيرة * وقيل ان آخر ملوك الاندلس الذين تلتهم العرب غيطشة وانه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك فضبطت أمهم عليهم ملك والدهم بطليطلة وانحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم فصار بقرطبة فلما اقتحم طارق الاندلس نفر اليه لذريق واستنفر اليه أجناد أهل الاندلس وكتب الى أولاد غيطشة وقد ترعرعوا وركبوا الخيل واتخذوا الرجال يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب ويحذرهم من القعود عنه ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يدا واحدة فلم يجدوا بدا وحشدوا وقدموا عليه بقرطبة فنزلوا اكناف قرية شقندة بعدوة نهرها قبالة القصر ولم

يطمئنوا الى الدخول على لذريق أخذ بالحزم الى أن استتب جهاز لذريق وخرج فانضموا اليه ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه والاصح والله أعلم ماسبق أن ملك القوط اجتمع للذريق واختلف في اسمه فقيل رذريق بالراء أوله وقيل باللام لذريق وهو الاشهر وقيل ان أصله من أصبهان ويسمى الاشبان والله أعلم قالوا وعسكر لذريق في نحو مائة ألف ذوي عدد وعدة فكتب طارق الى موسى يستمده ويعرفه أن فتح الجزيرة الخضراء فرضة الاندلس وملك المجاز اليها واستولى على أعمالها الى البحيرة وأن لذريق زحف اليه بما لا قبل له به الا أن يشاء الله وكان موسى منذ وجه طارقا لوجهه قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددا فكملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفا أقوياء على المغانم حراصا على اللقاء ومعهم يليان المستأمن اليهم في رجاله وأهل عمله يدلهم على العورات و يتجسس الاخبار وأقبل نحوهم لذريق في جموع العجم وملوكها وفرسانها قتلاة وافيا بهم وقال بعضهم لبعض ان هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وانما كان من أتباعنا فلسنا نعدم من سيرته خبالا في أمرنا وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا وانما مرادهم أن يملؤا أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنا فهلم فلننهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفونا اياه فاذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه فأجمعوا على ذلك والقضاء يبرم ما ارتاه وكان لذريق ولى ميمنته احدا بني غيطشة وميسرته الآخر فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة وأداهما الى ذلك طمع وجوع ملك والدهما اليهما * وقيل لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق وأرسلوا الى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعا وخادما لابيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركي حقهم لديه و يسألونه الامان على أن يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم وأن يسلم اليهم اذا ظفر ضياع والدهم بالاندلس كلها وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك فأجابهم الى ذلك وعاقدهم عليه فالتقى الفريقان من الغد فانحاز الاولاد الى طارق فكان ذلك أقوى أسباب الفتح وكان الالتقاء على وادي لكة من كورة شذونة فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ونصر المسلمين نصرا لا كفاء له ورمى لذريق نفسه في وادي لكة وقد أثقلته الجراح فلم يعلم له خبر ولم يوجد * وقيل نزل طارق بالمسلمين قريبا من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة ٩٢ فوجه لذريق علجا من أصحابه قد عرف نجدته ووثق بأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزر عددهم و يعاين هيآتهم ومراكبهم فأقبل ذلك العلج حتى طلع على العسكر ثم شد في وجوه من استشرفه من المسلمين فوثبوا اليه فولى منصرفا راكضا وفاتهم بسبق فرسه فقال العلج للذريق أتتك الصور التي كشف لك عنها التابوت فخذ على نفسك فقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت أو اصابة ما تحت قدميك قد حرقوا مراكبهم اياسا لانفسهم من التعلق بها وصفوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات اذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب فرعب وتضاعف جزعه والتقى العسكران بالبحيرة واقتتلوا قتالا شديدا الى أن انهزمت ميمنة لذريق وميسرته انهزم بهما ابنا غيطشة وثبت القلب بعدهما قليلا وفيه لذريق فغدر أهله بشيء من قتال ثم انهزموا ولذريق أمامهم فاستمرت

هزيمتهم وأذرع المسلمون القتل فيهم وخفى أثر لذريق فلا يدرى أمره الا أن المسلمين وجدوا
فرسه الاشهب الذى فقد وهو راكبه وعليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد
ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت والزبرجد وقد ساخ الفرس فى
طين وحمأة وغرق العلج فثبت أحد خفيه فى الطين فأخذ وخفى الآخر وغاب شخص العلج ولم
يوجد حيا ولا ميتا والله اعلم بشأنه (وقال الرازى) كانت الملاقاة يوم الاحد لليلتين بقيتا من
شهر رمضان فاتصلت الحرب بينهم الى يوم الاحد لخمس خلون من شوال بعده تتمة ثمانية أيام
ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة
بتلك الارض قالوا وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره فكانوا يعرفون كبار العجم
وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ويميزون
عبيدهم بخواتم النحاس فجمع طارق الفيء وخمسه ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين
سوى العبيد والاتباع وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالاندلس وسعة
المغانم فيها فأقبلوا نحوه من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر
فلحقوا بطارق وارتفع أهل الاندلس عند ذلك الى الحصون والقلاع وتهاربوا من السهل
ولحقوا بالجبال ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شدونة فامتنعوا عليه فشد الحصر عليهم
حتى نهكهم وأضرهم فتهيأ له فتحها عنوة فحاز منها اغنائم ثم مضى منها الى مدور ثم عطف
على قرمونة قريبته المنسوبة اليه ثم مال على اشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ثم نازل أهل
استجة وهم فى قوة ومعهم فل عسكر لذريق فقاتلوا قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح
بالمسلمين ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم فانكسروا ولم يلق المسلمون فيما بعد حربا مثلها
وأقاموا على الامتناع الى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها وكان مغترا سيئ التدبير فخرج الى النهر
لبعض حاجاته وحده فصادف طارقا هنالك قد أتى لمثل ذلك وطارق لا يعرفه فوثب عليه
طارق فى الماء فأخذه وجاء به الى العسكر فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة فصالحه
طارق على ما أحب وضرب عليه الجزية وخلى سبيله فوفى بما عاهد عليه وقذف الله الرعب
فى قلوب الكفرة لما رأوا طارقا يوغل فى البلاد وكانوا يحسبونه راغبا فى المغنم عاملا على
القفول فسقط فى أيديهم وتطاروا عن السهول الى المعاقل وصعد ذوو القوة منهم الى دار
مملكتهم طليطلة قيل وكان من ارهاب طارق لنصارى الاندلس وحيله أن تقدم الى أصحابه
فى تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها فى القدور يرونهم أنهم يأكلونها فجعل من
انطلق من الاسرى يحدثون من وراءهم بذلك فتمتلئ منه قلوبهم رعبا ويجفلون فرارا قالوا
وقال يليان لطارق قد فضضت جيوش القوم ورعبوا فاصمد لبيضتهم وهؤلاء أدلاء من
أصحابى مهرة ففرق جيوشك معهم فى جهات البلاد واعمد أنت الى طليطلة حيث معظمهم
فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع الى أولى رأيهم ففرق طارق جيوشه معهم من
استجة فبعث مغيثا الرومى مولى الوليد بن عبد الملك الى قرطبة وكانت من أعظم مدائنهم فى
سبعمائة فارس لان المسلمين ركبوا جميعا خيل العجم ولم يبق فيهم راجل وفضلت عنهم الخيل
وبعث جيشا آخر الى مالقة وآخر الى غرناطة مدينة البيرة وسار هو فى معظم الناس الى كورة

جيان تريد طليطلة وقد قيل ان الذى سار لقرطبة طارق بنفسه لا مغيث قالوا فكمنوا بعدوة نهر شقندة فى غيضة ارز شامخة وأرسلت الادلاء فأمسكوا راعى غنم فسئل عن قرطبة فقال رحل عنها عظماء أهلها الى طليطلة وبقى فيها أميرها فى اربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها وسئل عن سورها فأخبر انه حصين عال فوق أرضها الا أن فيه ثغرة ووصفها لهم فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل وأقبل المسلمون رويدا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور فلم يظهروا عليه ضيقا بالذى نالهم من المطر والبرد فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور الا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقل وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقا ورجعوا الى الراعى فى دلالتهم على الثغرة التى ذكرها فأراهم اياها فاذا بها غير متسهلة التسنم الا أنه كانت فى أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلق بها فصعد رجل من أشداء المسلمين فى أعلاها ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها وأعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور وركب مغيث ووقف من خارج وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ففعلوا وقتلوا نفرا منهم وكسروا أقفال الباب وفتحوه فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة فصمد الى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه وقد بلغ الملك دخولهم المدينة فبادر بالفرار عن البلاد فى أصحابه وهم زهاء اربعمائة وخرج الى كنيسة بغربى المدينة وتحصن بها وكان الماء يأتيها تحت الارض من عين فى سفح جبل ودافعوا عن أنفسهم وملك مغيث المدينة وما حولها وقال من ذهب الى أن طارقا لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها مغيث انه كتب الى طارق بالفتح وأقام على محاصرة العلج بالكنيسة ثلاثة أشهر حتى ضاق من ذلك وطال عليه فتقدم الى أسود من عبيده اسمه رباح وكان ذا بأس ونجدة بالكمون فى جنان الى جانب الكنيسة ملتفة الاشجار لعله أن يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم ففعل ودعاه ضعف عقله الى أن صعد فى بعض تلك الاشجار وذلك أيام الثمر ليجنى ما يأكله فبصر به أهل الكنيسة وشدوا عليه فأخذوه فملكوه وهم فى ذلك هائبون له منكرون لخلقه اذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله فاجتمعوا عليه وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقه وحسبوا أنه مصبوغ أو مطلى ببعض الاشياء التى تسود فجردوه وسط جماعتهم وأدنوه الى القناة التى منها كان يأتيهم الماء وأخذوا فى غسله وتدليكه بالحبال الخرش حتى أدموه وأعنتوه فاستغاثهم وأشار الى أن الذى به خلقة من باريهم عز وجل ففهموا اشارته وكفوا عنه وعن غسله واشتد فزعهم منه ومكث فى اسارهم سبعة أيام لا يتركون التجمع عليه والنظر اليه الى أن يسر الله له الخلاص ليلا ففر وأتى الامير مغيثا فخبره بشأنه وعرفه بالذى اطلع عليه من شأنهم وموضع الماء الذى يتناوبونه ومن اى ناحية يأتيهم فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة فى الجهة التى أشار اليها الاسود حتى أصابوها فقطعوها عن جريتها الى الكنيسة وسدوا منافذها فأيقنوا بالهلاك حينئذ فدعاهم مغيث الى الاسلام أو الجزية فأبوا عليه فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم مع شدة البلاء غير أن العلج اميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك ففر عنهم وحده وقد

استنفلهم ويأم اللحاق بطليطلة فبلغ خبره الى مغيث فبادر الركض خلفه وحده فلحقه بقرب قرية تطليرة هاربا وحده وتحته فرس أصفر ذريع الخطو وحرك مغيث خلفه فالتفت العلج ودهش لما رأى مغيثا قد رهقه وزاد في حث فرسه فقصر به فسقط عن الفرس واندق عنقه فقعد على ترسه مستأسرا قد هاضته السقطة فقبض عليه مغيث وسلبه سلاحه وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ولم يؤسر من ملوك الاندلس غيره لان بعضهم استأمن وبعضهم هرب الى جليقية وفي رواية ان مغيثا استنزل أهل الكنيسة بعد أسر ملكهم فضرب أعناقهم جميعا فمن أجل ذلك عرفت بكنيسة الاسرى وان مغيثا جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وأنه اختار القصر لنفسه والمدينة لاصحابه * وأما من وجه الى مالقة ففتحوها ولجأ علوجها الى جبال هنالك ممتنعة ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة فحاصروا مدينتها غرناطة فافتتحوها عنوة وضموا اليهود الى قصبة غرناطة وصار ذلك لهم سنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويمضي معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح ثم صنعوا عند فتح كورة رية التي منها مالقة مثل ذلك ومضى الجيش الى تدمير وتدمير اسم العلج صاحبها سميت به واسم قصبتها اريولة ولها شأن في المنعة وكان ملكها علجا داهية وقاتلهم مصحبا ثم استقرت عليه الهزيمة في فحصها فبلغ السيف في أهلها مبلغا عظيما افنى اكثرهم ولجأ العلج الى اريولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيأ فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال وتصدر قداميهن في بقية أصحابه يغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور وعرضوا عليه الصلح فأظهر الميل اليه وتكرز به فنزل اليهم بأمان على أنه رسول فصالحهم على أهل بلده ثم على نفسه وتوثق منهم فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه واعتذر اليهم بالابقاء على قومه وأخذهم بالوفاء بعهده وأدخلهم المدينة فلم يجدوا فيها الا العيال والذرية فندموا على الذي أعطوه من الامان واسترجحوه فيما احتال به ومضوا على الوفاء له وكان الوفاء عادتهم فسلمت كورة تدمير من معرة المسلمين بتدبير تدمير وصارت كلها اصلحا اليس فيها عنوة وكتبوا الى أميرهم طارق بالفتح وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم ومضى معظمهم الى أميرهم لفتح طليطلة قال ابن حيان وانتهى طارق الى طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خالية قد فرعنها أهلها ولجؤا الى مدينة بها خلف الجبل فضم اليهود الى طليطلة وخلف بها رجالا من أصحابه ومضى خلف من فر من أهل طليطلة فسلك وادي الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمي به بعد فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل وهي المنسوبة لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وهي خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها وكان لها ثلثمائة وخمسة وستون رجلا فأحرزها عنده ثم مضى الى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل فأصاب بها حليا ومالا ورجع ولم يتجاوزها الى طليطلة سنة ثلاث وتسعين وقيل انه لم يرجع بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى الى مدينة استرقة فدوخ الجهة وانصرف الى طليطلة والله أعلم وقيل ان طارقا دخل

الاندلس بغير أمر مولاه موسى بن نصير فالله أعلم قال بعضهم وكانت اقامته في الفتوح وتدويخ البلاد الى أن وصل سيده موسى بن نصير سنة وكان ما سيذكر وأنشد في المسهب وابن اليسع في المغرب لطارق من قصيدة قالها في الفتح

وركبنا سفينا بالمجاز مقيرا * عسى أن يكون الله منا قد اشترى

نفوسا وأموالا وأهلا بجنة * اذا ما اشتهينا الشئ فيها تيسرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا * اذا نحن ادركنا الذي كان أجدرا

قال ابن سعيد وهذه الابيات مما يكتب لمراعاة قائلها ومكانته لا لعلو طبقتها انتهى * وأما أولاد غيطشة فانهم لما صاروا الى طارق بالامان وكانوا سبب الفتح حسبما تقدم قالوا الطارق أنت أمير نفسك أم فوقك أمير فقال بل على رأسي أمير وفوق ذلك الامير أمير عظيم فاستأذنوه في اللحاق بموسى بن نصير بافريقية ليؤكدوا سببهم به وسألوه الكتاب اليه بشأنهم معه وما اعطاهم من عهده ففعل وساروا نحو موسى فلاقوه في انحداره الى الاندلس بالقرب من بلاد البربر وعرفوه بشأنهم ووقف على ما خاطبه به طارق في ذمتهم وسابقتهم فأنفذهم الى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق وكتب اليه بما عرفه به طارق من جميل اثرهم فلما وصلوا الى الوليد اكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سجلا وجعل لهم أن لا يقوموا للداخل عليهم فقدموا الاندلس وحازوا ضياع والدهم اجمع واقتسموها على موافقة منهم فصل لوقنها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة في غرب الاندلس فسكن من اجلها اشبيلية مقتربا منها وصار لارطباش ألف ضيعة وهو تلوه في السن وضياعه في موسطة الاندلس فسكن من اجلها قرطبة وصار لثالثهم وقله ألف ضيعة في شرقي الاندلس وجهة الثغر فسكن من أجلها مدينة طليطلة فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية الى أن هلك ألمند كبيرهم وخلف ابنته سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين فبسط يده ارطباش على ضياعهم وضمها الى ضياعه وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فأنشأت سارة بنت المند مركبا باشبيلية حصينا كامل العدة وركبت فيه مع اخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره دمشق فأنهت خبرها وشكت ظلامتها من عمها وتدليه عليها واحتجت بالعهد المنعقد لابيها واخوته على الخليفة الوليد بن عبد الملك فأوصلها هشام الى نفسه وأعجبه صورها وحزمها وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله بافريقية بانصافها من عمها ارطباش وامضائها واخوتها على سنة الميراث فيما كان في يد والدهما مما قاسم فيه اخويه فأنفذها الكتاب بذلك الى عامله بالاندلس أبي الخطار ابن عمه فتم لها ذلك وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مزاحم فابتنى بها بالشام ثم قدم بها الى الاندلس وقام لها في دفاع عمها ارطباش عن ضياعها فنال بها نعمة عظيمة وولد له منها ولداه ابراهيم واسحق فادركا الشرف المؤثل والرياسة باشبيلية وشهرا ونسلهما بالنسبة الى أمهما سارة القوطية وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعد الى الاندلس وعرفها فتوسلت اليه لما دخل الاندلس ووفدت اليه فاعترف بذمامها واكرمها وأذن لها في الدخول الى قصره متى جاءت

الى قرطبة فيجدد تكرمتها ولا يحجب عياله منها وتوفى زوجها عيسى فى السنة التى ملك فيها عبد الرحمن الاندلس فزوجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد وكان لها ولابيها المدد وعمها ارطباش فى صدر الدولة العربية بالاندلس أخبار ملوكية فنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر ابن لبابة المالكى أنه قصد أرطباش يوما الى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصميل وابن الطفيل وأبو عبدة وغيرهم فأجلسهم على الكراسى وبالغ فى تكريمهم ودخل على اثرهم ميمون العابد جد بنى حزم وكان فى عداد الشاميين الا انه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه فلما بصر به ارطباش قام اليه دونهم اعظاما ورقاه الى كرسيه الذى كان يجلس عليه وكان ملبسا صفائح الذهب وجذبه ليجلسه مكانه فامتنع عليه ميمون وقعد على الارض فقعد أرطباش معه عليها وأقبل عليه قبلهم فقال له ياسيدى ما الذى جاء بك الى مثلى فقال له ما تسمعه انا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول فلم نستعد للمقام ولا كثرنا من العقدة ثم حدثت بعدنا على موالينا وفى اجنادنا ما قد آيسنا معه من الرجوع الى أوطاننا وقد وسع الله عليك فأحب أن تدفع الى ضياعا من ضياعك اعمرها بيدى وأؤدى اليك الحق منها وآخذ الفضل لى طيبا اتعيش منه فقال لا ارضى لك بالمساهمة بل أهب لك هبة مسوغة ثم دعا بوكيل له فقال له سلم اليه المجشر الذى لنا على وادى شوش بما فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك وادفع اليه الضيعة التى بجيان فتسلم ميمون الضيعتين وورثهما ولده واليهم نسبت قلعة حزم فشكره ميمون وأثنى عليه وقام عنه وقد أنف الصميل من قيامه اليه فأقبل على ارطباش وقال له كنت اظنك أرجح وزنا أدخل عليك وأنا سيد العرب بالاندلس فى أصحابى هؤلاء وهم سادة الموالى فلا تزيدنا من الكرامة على الاقعاد على أعوادك هذه ويدخل هذا الصعلوك فتصير من اكرامه الى حيث صرت فقال له يا أبا جوشن ان أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرهفك ولو كان لم تنكر على ما فعلته انكم اكرمكم الله انما تكرمون لدنياكم وسلطانكم وهذا انما اكرمته لله تعالى فقد روينا عن المسيح عليه السلام أنه قال من اكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه فكأنما ألقمه حجرا وكان الصميل أميا فلذلك عرض به فقال له القوم دعنا من هذا وانظر فيما قصدناك له فحاجتنا حاجة الرجل الذى قصدك فاكرمته فانظر فى شأننا فقال له أنتم ملوك الناس وليس يرضيكم الا الكثير وها انا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرا عشرا وكتب لهم بها وأمر وكلاءه بتسليمها اليهم فكان القوم يرونها من أطيب املاكهم انتهى * قال ابن حيان وغيره ولما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما اتيح له من الفتوح حسده وتهيأ للمسير الى الاندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم وقيل انهم كانوا ثمانية عشر ألفا وقيل اكثر فكان دخوله الى الاندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وتنكب الجبل الذى حله طارق ودخل على الموضع المنسوب اليه المعروف الآن بجبل موسى فلما احتل الجزيرة الخضراء قال ما كنت لاسلك طريق طارق ولا اقفو أثره فقال له العلوج الادلاء أصحاب يليان نحن نسلك بك طريقا هو أشرف من طريقه وندلك على مدائن هى أعظم خطرا وأعظم خطبا وأوسع غنائم

مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله تعالى فلئ سرورا وكان شفوف طارق قد غمه فساروا به فى جانب ساحل شدونة فافتتحها عنوة وألقوا بأيديهم اليه ثم سار الى مدينة قرمونة وليس بالاندلس أحصن منها ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يليان دخلوا اليهم كأنهم فلال وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوا لهم الباب وأوقعوا بالاحراس فلكت المدينة ومضى موسى الى اشبيلية جارتها فحاصرها وهى اعظم مدائن الاندلس شأنا وأعجبها بنيانا وأكثرها آثارا وكانت دار الملك قبل القوطيين فلما غلب القوطيون على ملك الاندلس حولوا السلطان الى طليطلة وبقى رؤساء الدين فيها اعنى اشبيلية فامتنعت اشهرا على موسى ثم فتحها الله عليه فهرب العلوج عنها الى مدينة باجة فضم موسى يهودها الى القصبة وخلف بها رجالا ومضى من اشبيلية الى القنت الى مدينة ماردة وكانت أيضا دارمملكة لبعض ملوك الاندلس فى سالف الدهر وهى ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف فحاصرها أيضا وكان فى أهلها منعة شديدة وبأس عظيم فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم وعمل موسى دبابة دب المسلمون تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه فلما قلعوا الحجر أفضوا بعده الى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه فنبت عنه معاولهم وعدتهم وثار بهم العدو على غفلة فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة فسمى ذلك الموضع برج الشهداء ثم دعا القوم الى السلم فترسل اليه فى تقريره قوم من اماثلهم اعطاهم الامان واحتال فى توهيمهم فى نفسه فدخلوا عليه أول يوم فاذا هو أبيض الرأس واللحية كالنصل خضابه فلم يتفق لهم معه أمر وعاودوه قبل الفطر بيوم فاذا هو قد قنى لحيته بالحناء فجاءت كضرام عرفج فعجبوا من ذلك وعاودوه يوم الفطر فاذا هو قد سود لحيته فازداد تعجبهم منه وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله فقالوا لقومهم انا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاؤا ويتحولون فى كل صورة احبوا كان ملكهم شيخا فقد صار شابا والرأى أن نقاربه ونعطيه مايسأله فمالنا به طاقة فأذعنوا عند ذلك واكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين ثم فتحوا له المدينة يوم القطر سنة أربع وتسعين فلكها ثم ان عجم اشبيلية انتقضوا على المسلمين واجتمعوا من مدينتى باجة ولبلة اليهم فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلا وأتى فلهم الامير موسى وهو بماردة فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى فى جيش اليهم ففتح اشبيلية وقتل أهلها ونهض الى لبلة ففتحها واستقامت الامور فيما هنالك وعلا الاسلام وأقام عبد العزيز باشبيلية وتوجه الامير موسى من ماردة فى عقب شوال من العام المؤرخ يريد طليطلة وبلغ طارقا خبره فاستقبله فى وجوه الناس فلقيه فى موضع من كورة طلبيرة وقيل ان موسى تقدم من ماردة فدخل جليقية من فج نسب اليه فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحبه فقدمته بمدينة استرقة فغض منه علانية وأظهر ما بنفسه عليه من حقد والله أعلم وقيل لما وقعت عينه عليه نزل اليه اعظاما له فقنعه موسى بالسوط ووبخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه وساروا الى طليطلة فطالبه موسى باداء ما عنده من مال الفىء وذخائر الملوك

واستحجله بالمائدة فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلا وخبأه عنده فسأله موسى عنه فقال لا علم لى به وهكذا أصبتها فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمل ولم يقدر على أحسن منه فأخل بها * وقال ابن الفرضى موسى بن نصير صاحب فتح الاندلس لخمى يكنى أبا عبد الرحمن يروى عن تميم الدارى وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبى وقيل غزا موسى بن نصير فى المحرم سنة ثلاث وتسعين فأتى طنجة ثم عبر على الاندلس فأداخها لا يأتى على مدينة الا فتحها ونزل أهلها على حكمه وسار الى قرطبة ثم قفل عن الاندلس سنة أربع وتسعين فأتى افريقية وسار عنها سنة خمس وتسعين الى الشام يؤم الوليد بن عبد الملك يجر الدنيا جرا احتمله من غنائم الاندلس من الاموال والامتعة يحملها على العجل والظهر ومعه ثلاثون ألف رأس من السبى فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك وولى سليمان فنكب موسى نكبا أداه الى المتربة فهلك فى نكبته تلك بوادى القرى سنة سبع وتسعين (قال ابن حيان) وهذه المائدة المنوه باسمها المنسوبة الى سليمان النبى عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما زعم رواة العجم وانما أصلها ان العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباههما من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا أبرزت فى أيام المناسك ويضعونها على المذابح فى الاعياد للمباهاة بزينتها فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ فى هذه السبيل وتأنقت الاملاك فى تفخيمها يزيد الآخر منهم على الاول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات وطار الذكر مطاره عنها وكانت مصوغة من خالص الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم تر الاعين مثلها وبولغ فى تفخيمها من أجل دار المملكة وانه لا ينبغى أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة الادون ما يكون فيها وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة فأصابها المسلمون هنالك وطار النبأ الفخم عنها وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذى فعله من غيرته على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم ما فى يده اليه فاستظهر بانتزاع رجل من أرجل هذه المائدة خبأه عنده فكان من فلجه به على موسى عدوه عند الخليفة اذ تنازعا عنده بعد الاثر فى جهادهما ما هو مشهور انتهى * وقال بعض المؤرخين ان المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد وكلها مكللة بالجواهر انتهى * وما ذكره ابن حيان من أن الذى نكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد الملك صواب وأما ما حكاه ابن خلكان من أن المنكب له الوليد فليس بصحيح والله أعلم * رجع الى كلام ابن حيان قالوا ثم ان موسى اصطلح مع طارق واظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته على رسمه وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه وسار موسى خلفه فى جيوشه فارتقى الى الثغر الاعلى وافتتح سرقسطة وأعمالها وأوغل فى البلاد وطارق أمامه لا يمر ان بموضع الا فتح عليهما وغنمهما الله تعالى ما فيه وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد الا بطلب صلح وموسى يجىء على أثر طارق فى ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه فلما صفا القطر كله وطامن نفوس من أقام على سلمه ووطأ لاقدام المسلمين فى الحلول به أقام لتمييز ذلك وقسا

وأمضى المسلمين الى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلبوا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادى ردونة فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم وقد دوّخت بعوث طارق وسراياه بلاد افرنجة فلكت مدينتى برشلونة واربونة وصخرة ابنيون وحصن لودون على وادى ردونة فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جدا وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخا وقيل ثلثمائة فرسخ وخمسون فرسخا ولما أوغل المسلمون الى أربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالارض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فحشد لهم وخرج عليهم فى جمع عظيم فلما انتهى الى حصن لودون وعلت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة ابنيون فلم يجد بها أحدا وقد عسكر المسلمون قدامه فيما بين الاجبل المجاورة لمدينة أربونة وهم بحال غرة لاعيون لهم ولا طلائع فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالا شديدا استشهد فيه جماعة منهم وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ولاذوا بحصانتها فنازلهم بها ايا ما أصيب له فيها رجال وتعذر عليه المقام وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين فزال عنهم راحلا الى بلده وقد نصب فى وجوه المسلمين حصونا على وادى ردونة شحنها بالرجال فصيرها ثغرا بين بلده والمسلمين وذلك بالارض الكبيرة خلف الاندلس (وقال الحجارى فى المسهب) ان موسى بن نصير نصره الله نصرا ماعليه مزيد وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الاندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الارض الكبيرة فاجتمعت الافرنج الى ملكها الاعظم قارله وهذه سمة لملكهم فقالت له ماهذا الخزى الباقى فى الاعقاب كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الاندلس وعظيم مافيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم فقال لهم مامعناه الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى اقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر قال فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء انتهى * وقيل ان موسى بن نصير أخرج ابنه عبد الاعلى الى تدمير ففتحها والى غرناطة ومالقة وكورة رية ففتح الكل وقيل انه لما حاصر مالقة وكان ملكها ضعيف الرأى قليل التحفظ كان يخرج الى جنان له بجانب المدينة طلبا للراحة من غمة الحصار من غير نصب عين وتقديم طليعة وعرف عبد الاعلى بامره فاكمن له فى جنبات الجنة التى كان ينتابها قوما من وجوه فرسانه ذوى رأى وحزم أرصدوا له ليلا فظفروا به وملكوه فأخذ المسلمون البلد عنوة وملؤا أيديهم غنيمة * وقيل كانت نفس موسى بن نصير فى ذلك كله تنزعج الى دخول دار الكفر جليقية فبينما هو يعمل فى ذلك ويعدل له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الاندلس والاضراب عن الوغول فيها

ويأخذه

و يأخذه بالقفول اليه فساءه ذلك وقطع به عن ارادته اذلم يكن فى الاندلس بلدلم تدخله العرب الى وقته ذلك غير جليقية فكان شديد الحرص على اقتحامها فلاطف موسى مغيثا رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها والمسير معه فى البلاد أياما و يكون شريكه فى الاجر والغنيمة ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك فأقام هنالك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الاخضر فلم تبق كنيسة الاهدمت ولاناقوس الا كسر وطاعت الاعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين فاتسع نطاق الاسلام بأرض الاندلس وخذل الشرك وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الامل اذقدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبانصر أردف به الوليد مغيثا لما استبطأ موسى فى القفول وكتب اليه يوبخه و يأمره بالخروج وأزم رسوله ازعاجه فانقلع حينئذ من مدينة لك بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ووافاه طارق فى الطريق منصرفا من الثغر الاعلى فأقفله مع نفسه ومضيا جميعا ومعهما من الناس من اختار القفول وأقام من آثر السكنى فى مواضعهم التى كانوا قد اختطوها واستوطنوها وقفل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا باشبيلية فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر نظرا لقربه من مكاره المجاز وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه وكان مقام طارق بالاندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر وحمل موسى الغنائم والسبى وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة منوّها بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الامتعة مالا يقدر قدره وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته أسف على مالحقه من الازعاج وكان يؤمل أن يخترق مابقى عليه من بلاد افرنجة و يقتحم الارض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الارض طريقا مهيعا يسلكه أهل الاندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحرا وقيل انه أوغل فى أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هى يابنى اسمعيل انتهيتم فارجعوا فهاله ذلك وقال ما كتب هذا الالمعنى كبير فشاور أصحابه فى الاعراض عنه وجوازه الى ماوراءه فاختلفوا عليه فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية (وحكى الرازى) أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس فى رجب سنة ثلاث وتسعين واستخلف على افريقية أسنّ ولده عبد الله بن موسى وكان موسى فى عشرة آلاف قال وكان عبد الملك بن مروان هو الذى أغزى موسى المغرب فى خلافته ففتح له فى أهل البرابرة فتوح كبار حتى لقد بعث الى عبد الملك فى الخمس بعشرين ألف سبية ثم اردفها بعشرين ألفا أخرى كل ذلك من البربر فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك * وزعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة وهو المنذر قال ودخلها من التابعين ثلاثة موسى الامير وعلى بن رباح اللخمى وحيوة بن رجاء التميمى وقيل ان ثالثهم انما هو حنش بن عبد الله الصنعانى صنعاء

من دخل الاندلس من الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عنهم

الشام وأنهم قفلوا عنها بقفول موسى وأهل سرقسطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه فالله أعلم * وقيل ان التابعين اربعة بأبي عبد الرحمن الحبلي الانصاري واسمه عبد الله بن يزيد والله أعلم وخمسهم بعضهم بحيان بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار وكان في ديوان مصر فبعث به عمر بن عبد العزيز الى افريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن انعم وغيره وغزا مع موسى حين افتتح الاندلس وانتهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة وقيل بل قفل الى افريقية فتوفي بها بعد العشرين ومائة * وقال بعضهم ان بين قرقشونة هذه وبين برشلونة مسافة خمسة وعشرين يوما وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة شنت مريه وقد حكى ابن حيان ان فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحيط الانسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مفرط * وحنش الصنعاني المذكور تابعي جليل كان مع علي رضي الله عنه بالكوفة وقدم مصر بعد قتله فصار عداده في المصريين وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه وكنى الاندلس شرفا دخوله لها * وعلي بن رباح بصري تابعي يكنى أبا عبد الله وهو لخمي ولد عام اليرموك سنة خمس عشرة قال ابن معين أهل مصر يقولونه بفتح العين وأهل العراق يقولونه بضمها وروى الليث عن ابنه موسى بن علي وكانت لعلي بن رباح عند عبد العزيز بن مروان مكانة وهو الذي زف ابنته أم البنين لزوجها الوليد ثم عتب عليه عبد العزيز فأغزاه افريقية * وأما المنيذر الصحابي فلم ينسبه ابن حبيب وذكره ابن عبد البر في الصحابة وقال انه المنيذر الافريقي وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي قال حدثنا المنيذر الافريقي وكان سكن افريقية وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول من قال رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا فأنا الزعيم له فلآخذن بيده فلأدخلنه الجنة ورواه عنه ابن عبد البر بسنده اليه وسيأتي ان شاء الله تعالى في حق المنيذر مزيد بيان * ولما قفل موسى بن نصير الى المشرق وأصحابه سأل مغيثا أن يسلم اليه العلج صاحب قرطبة الذي كان في اساره فامتنع عليه وقال لا يؤديه للخليفة سواي وكان يدل بولائه من الوليد فهجم عليه موسى فانتزعه منه فقيل له ان سرت به حيا معك ادعاه مغيث والعلج لا ينكر قوله ولكن اضرب عنقه ففعل فاضطغنها عليه مغيث وصار ألبا مع طارق الساعي عليه واستخلف موسى على طنجة وما يليها من المغرب ابنه الآخر عبد الملك وقد كان كما مر استخلف بافريقية أكبر أولاده عبد الله فصار جميع الاندلس والمغرب بيد أولاده وابنه عبد الله الذي خلفه بافريقية هو الفاتح لجزيرة ميورقة وسار موسى فورد الشام واختلف الناس هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده فمن يقول بالثاني قال قدم على سليمان حين استخلف وكان منحرفا عليه فسبق اليه طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة وقالا له انه قد غل جوهرا عظيم القدر أصابه ولم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله فلما وافى سليمان وجده ضغينا عليه فأغلظ له واستقبله بالتأنيب والتوبيخ فاعتذر له

قوله المنيذر هكذا في بعض النسخ وفي بعضها المنذر وليحرر

٥١

بعض

بعض العذر وسأله عن المائدة فأحضرها فقال له زعم طارق انه الذى أصابها دونك قال لا وما رآها قط الا عندى فقال طارق فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التى تنقصها فسأله فقال هكذا اصبتها وعوّضتها رجلا صنعتها لها فحوّل طارق يده الى قبائه فأخرج الرجل فعلم سليمان صدقه وكذب موسى فحقق جميع مارمى به عنده وعزله عن جميع أعماله وأقصاه وحبسه وأمر بتقصى حسابه فأغرمه غرما عظيما كشفه فيه حتى اضطر الى أن سأل العرب معونته فيقال ان لخما حملت عنه فى أعطيتها تسعين ألفا ذهبا وقيل حمله سليمان غرم مائتى ألف فأدّى مائة ألف وعجز فاستجار بيزيد بن المهلب أسير سليمان فاستوهبه من سليمان فوهبه اياه الا انه عزل ابنه عبد الله عن افريقية (وقال الرازى) ان الذى ازعج موسى عن الاندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلا وقفل معه من أحب المشرق وكان اكثر الناس قطنوا ببلاد الاندلس لطيبها فأقاموا فيها * وذهب جماعة من أهل التاريخ الى أنّ موسى انما قدم على الوليد وأنّ سليمان ولى العهد لما سمع بقرب موسى بن نصير من دمشق وكان الوليد مريضا كتب أى سليمان الى موسى يأمره بالتربص رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان فى أوّل خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التى ما رئى ولا سمع مثلها فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس فأبى موسى من ذلك ومنعه دينه منه وجدّ فى السير حتى قدم والوليد حى فسلم له الاخماس والمغانم والتحف والذخائر فلم يمكث الوليد الا يسيرا بعد قدوم موسى وتوفى واستخلف سليمان فحقد عليه وأهانه وأمر باقامته فى الشمس حتى كاد يهلك وأغرمه أموالا عظيمة ودس الى أهل الاندلس بقتل ابنه الذى استخلفه على الاندلس وهو عبد العزيز بن موسى وكان تولى الاندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه اياه كما سبق فضبط سلطانها وضم نشرها وسدّ ثغورها وافتتح فى ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقى على أبيه موسى منها وكان من خير الولاة الا أنّ مدّته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم اياه عقب سنة خمس وتسعين فى خلافة سليمان الموقع بأبيه موسى لاشياء نقموها عليه منها زعموا تزوجه لزوجة لذريق المكناة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح وباءت بالجزية وأقامت على دينها فى ظل نعمتها الى أن نكحها الامير عبد العزيز فحظيت عنده ويقال انه سكن بها فى كنيسة باشبيلية وانها قالت له لم لايسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق زوجها الاوّل أهل مملكته فقال لها انّ هذا حرام فى ديننا فلم تقنع منه بذلك وفهم لكثرة شغفه بها أنّ عدم ذلك مما يزرى بقدره عندها فاتخذ بابا صغيرا قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه فيخنون وأفهمها أنّ ذلك انفعل منهم تحية له فرضيت بذلك فنمى الخبر الى الجند مع ما انضم الى ذلك من دسيسة سليمان لهم فى قتله فقتلوه سامحه الله تعالى * وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا فى الحجر بعد ماتقدم من الكتابة التى هى ارجعوا يابنى اسمعيل الخ مامعناه وان سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض انتهى (قال ابن حيان) وليحيى بن حكم الشاعر المعروف بالغزال فى فتح الاندلس ارجوزة حسنة مطوّلة ذكر فيها السبب فى غزوها نظما وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الامراء عليها وأسماءهم فأجاد وتقصى وهى بأيدى الناس موجودة انتهى وقد عرفت بما سبق

تفصيل ما أجمله ابن خلدون والروايات في فتح الاندلس مختلفة وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية وأشرنا الى بعض الاختلاف في ذلك ولو بسطنا العبارة في الفتح لكان وحده في مجلد أو أكثر وعلم مما ألمعنا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاة للاندلس من لدن الفتح وهم من قبل بني مروان بالمشرق المنفردين بامامة المسلمين أجمعين قبل تفرقهم الى أن انقرضت دولتهم العظيمة التي هي ألف شهر فاقتطع الاندلس عن بني العباس الداعين على بني مروان الناسخين لهم فل المروانيين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان واقتعدها دار مملكة مستقلة لنفسه ولاعقابه وجمع بها شمل بني أمية ومواليهم وأورثها بنيه حقبة من الدهر بعد أن قاسى في ذلك خطوبا واجتمع عليه ثم على ذريته من بعده أهل الاندلس أجمعون رضا بهم دون بني العباس بعد أن حاول بنو العباس ملكها بأن ولوا بعض رؤساء العرب وأمروهم بالقيام على عبد الرحمن والدعاء للعباسيين القاطعين جرثومة دولة بني مروان فلم يتيسر ذلك وظفر عبد الرحمن بمن نصب له الحرب في ذلك وقتل منهم آلافا وذلك في مدة المنصور كما سيأتي ان شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر وسنذكر قريبا ولاة الاندلس من حين الفتح الى امارة الداخل وان سبق في كلام ابن خلدون * وقال بعضهم كانت ولادة موسى بن نصير في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٩ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأجل السلام وعلى آله وصحبه اجمعين انتهى * وقال الحجاري في المسهب يحكى أن موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك وطلب منه أن يكلمه في أن يخفف عنه فقال له يزيد أريد أن أسألك فاصغ الي قال سل عما بدا لك فقال له لم ازل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الاندلس وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار وتيقنت بعد المرام واستصعابه واستخلصت بلادا أنت اخترعتها واستملكت رجالا لا يعرفون غير خيرك وشرك وحصل في يدك من الذخائر والاموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك ثم انك علمت أن سليمان ولي عهد وانه المولى بعد أخيه وقد أشرف على الهلاك لا محالة وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك الى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك قال يعني سليمان وطارقا وما رضا هذا الرجل عنك الا بعيد ولكن لا آلو جهدا فقال موسى يا ابن الكرام ليس هذا وقت تعديد أما سمعت اذا جاء الحين غطى على العين فقال ما قصدت بما قلت لك تعديدا ولا تبكيتا وانما قصدت تلقيح العقل وتنبيه الرأي وأن أرى ما عندك فقال موسى أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الارض عن بعد ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه ثم كلم فيه سليمان فكان من جوابه انه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور وانقياد الجمهور والتحكم في الاموال والابشار على ما لا يمحوه الا السيف ولكن قد وهبت لك دمه وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ما غل من مال الله قال وآلت حاله الى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتك به نفسه وفي تلك الحال مات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادي القرى سائلا من كان نازلا به وقال أحد علمائه ممن وفى له في حال الفقر

والخمول

والجول لقد رأيتنا نطوف مع الامير موسى بن نصير على أحياء العرب فواحد يجيبنا وآخر يحتجب عنا ولم يعادفع الينا على جهة الرحمة الدرهم والدرهمين فيفرح بذلك الامير ليدفعه الى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب ولقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالاندلس نأخذ السلوب من قصور النصارى فنفصل منها ما يكون فيها من الذهب وغير ذلك ونرمى به ولا نأخذ الا الدر الفاخر فسبحان الذى بيده العز والذل والغنى والفقر قال وكان له مولى قد وفى له وصبر عليه الى أن ضاق ذرعه بامتداد الحال فعزم على أن يسلمه وهو بوادى القرى فى أسوأ حال وشعر بذلك موسى فخضع للمولى المذكور وقال له يا فلان أتسلمنى فى هذه الحالة فقال له المولى من شدة ما كان فيه من الضجر قد أسلمك خالقك ومالكك الذى هو أرحم الراحمين فدمعت عيناه وجعل يرفعهما الى السماء خاضعا مهينما بشفتيه فما سفرت تلك الليلة الا عن قبض روحه رحمة الله عليه فقد كان له من الاثر ما يوجب أن يترحم عليه وأن فعل سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذى تركه نائبا عنه بالاندلس وقد جىء به من أقصى المغرب بين يديه من وصماته التى تعد عليه طول الدهر لا جرم أن الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه * وذكر ابن حيان أن موسى كان عربيا فصيحا وقد سبق من مراجعة يزيد بن المهلب ما يدل على بلاغته ويكفى منها ما ذكره ابن حيان أنه كتب الى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الاندلس وغنائمها انها ليست الفتوح ولكنها الحشر * وقال الحجارى ان منازعة جرت بينه وبين عبد الله بن يزيد بن أسيد بحضر عند عبد الملك بن مروان ألجأته الى أن قال شعرا منه

جاريت غير سؤوم فى مطاولة * لو نازع الحقل لم ينزع الى حضر

وتقدم ما ذكره غير واحد كابن حيان أن موسى مولى عبد العزيز بن مروان وكذا ذكره الحجارى تجهز مع أم البنين بنت عبد العزيز حين ابتنى بها الوليد بن عبد الملك فكانت تنمى مكانته عند الوليد الى أن بلغ ما بلغ وأشهر من كان فى صحبة موسى بن نصير من مواليه طارق المشهور بالفتوح العظيمة وطريف وقد جرى ذكرهما فى كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار * وقال ابن سعيد بعد ذكره الخلاف فى أن موسى هل هو لخمى صريح أو بالولاء أو بربرى أو مولى لعبد العزيز بن مروان ما صورته وكان فى عقبه نباهة فى السلطنة ولى ابنه عبد العزيز سلطنة الاندلس وعبد الملك سلطنة المغرب الاقصى وعبد الله سلطنة افريقية وذكر الحجارى أن أصله من وادى القرى بالحجاز وأنه خدم بنى مروان بدمشق وتنبه شأنه فصرفوه فى ممالكهم الى أن ولى افريقية وما وراءها من المغرب فى زمن الوليد بن عبد الملك فدوخ اقاصى المغرب ودخل الاندلس من جبل موسى المنسوب اليه المجاور لسبتة ودوخ بلاد الاندلس ثم أوفده الوليد الى الشام فوافق مرضه ثم موته وخلافة أخيه سليمان فعذبه واستصفى أمواله وآل أمره الى أن وجهه الى قومه بوادى القرى لعلهم يعطفون عليه ويؤدون عنه فمات بها وقد نص ابن بشكوال على انه مات بوادى القرى * أما معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ما خلف مصر الى البحر المحيط بين برى البربر والاندلس وأما الادبية فقد جاءت عنه بلاغة فى النثر والنظم تدخله مع نزارتها فى أصحاب در الكلام وذكر

ابن بشكوال انه من التابعين الذين رووا الحديث وان روايته عن تميم الدارى وذكره فى كتب الائمة من المصنفين ابنه وأوعب من أن يخص بذكره واحدا منهم وهو غرة التواريخ الاندلسية وذكره الى الآن جديد فى ألسن الخاصة والعامة من أهلها * ومن مسهب الحجارى كان قد جمع رحمه الله من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بقى له من المجد المشيد والذكر الشهير المخلد الذى لا يبليه الليل والنهار ولا يبقى جديده بلى الاعصار الا انه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيس يسلم منه وهو الحقد والحسد والمنافسة لا تخلو من ذلك وأنشد بعض الرؤساء وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا فقلبه الرئيس وقال من يترك الحقد انم قال ان السيد اذا ترك اضمار الخير والشر والمجازاة عليهما اجترئ عليه ونسب للضعف والغفلة وهل رأيت صفقة أخسر من غفلة رئيس احقده غيره فنسى ذلك أو تناساه وعدوه لا يغفل عنه وحاسده لا ينفعه عنده الا الراحة منه وهو فى واد آخر عنه ولله در القائل

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ولكن الاصوب أن يكون الرأى ميزانا لا يزن الوافى لناقص ولا يزن الناقص لواف ويدبر أمره على ما يقتضيه الزمان ويقدر فيه حسن العاقبة * ونص ابن بشكوال على ان موسى ابن نصير مات بوادى القرى سنة سبع وتسعين وغزا الاندلس سنة احدى وتسعين ودخلها سنة ثلاث وتسعين وقفل عنها الى الوليد بن عبد الملك بالغنائم سنة أربع وتسعين وذكر أن ولايته على الاندلس بالمباشرة مذ دخلها الى حين خروجه منها سنة واحدة ومكث فيها مولاه طارق سنة انتهى وقد تقدم شئ من ذلك * وذكر ابن بشكوال أيضا ان ابن حبيب قال عن ربيعة غل الناس كلهم يوم فتح الاندلس الا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الجيلى وابن شماسة وعياض بن عقبة انتهى * قال ابن سعيد وممن دخل الاندلس من غير هؤلاء الاربعة من التابعين على بن رباح اللخمى وموسى بن نصير فاتح الاندلس وحيان بن أبى جبلة القرشى مولاهم وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى صاحب الاندلس المذكور فى سلاطينها ومحمد بن أوس بن ثابت الانصارى وزيد بن قاصد السكسكى والمغيرة بن أبى بردة الكنانى وعبد الله بن المغيرة الكنانى وحيوة بن رجاء التميمى وعبد الجبار ابن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ومنصور بن خزامة وعلى بن عثمان بن خطاب * وذكر ابن حبيب أن عدة من دخل الاندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو عشرين رجلا * وفى كتاب ابن بشكوال انه دخل الاندلس من التابعين ثمانية وعشرون رجلا وهم اسسوا قبلة المسجد الجامع بقرطبة وسمى الحجارى فى المسهب هؤلاء المتقدمين * وذكر ابن سعيد أنه لم يتحقق المواضع التى تختص بهؤلاء التابعين من بلاد الاندلس مع جزمه بأنهم دخلوا الاندلس وسكنوا بها وسيأتى ذكر التابعين الداخلين الاندلس بما هو أشمل من هذا وقد تقدم غلول من عدا التابعين من الغنائم * وقال الليث بن سعد بعد ذكره أن طارقا أصاب بالاندلس مغانم كثيرة من الذهب والفضة ان كانت الطنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وكان البربر ربما وجدوها فلا يستطيعون

حملها حتى يأتوا باب الفاس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر لنفسه ويسير معهم جماعة والناس مشتغلون بغير ذلك * وعن يحيى بن سعيد لما افتتحت الاندلس أصاب الناس فيها غنائم فغلوا منها غلولا كثيرا حملوه في المراكب وركبوا البحر فسمعوا مناديا يقول اللهم غرق بهم وتقلدوا المصاحف فانتشبوا أن أصابتهم ريح عاصف وضربت المراكب بعضها بعضا حتى تكسرت وغرق بهم وأهل مصر ينكرون ذلك ويقولون أهل الاندلس ليس هم الذين غرقوا وانما هم أهل سردانية فالله أعلم بحقيقة الحال * ورأيت في بعض كتب التاريخ انه وجد في طليطلة حين فتحت من الذخائر والاموال مالا يحصى فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ووجد فيها ألف سيف ملوكي ووجد فيها من الدر والياقوت اكيال ومن أواني الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ومائدة سليمان وكانت فيما يذكر من زمردة خضراء وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان وانما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة في دينهم اذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم مال له قدر صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة والكراسي من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها الاناجيل في أيام المناسك ويضعونها في الاعياد للمباهاة فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صنع في هذا السبيل وتأنق الملوك في تحسينها يزيد الآخر منهم فيها على الاول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات وطار الذكر بها كل مطار وكانت مصوغة من الذهب الخالص مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد وقيل انها من زبرجدة خضراء حافاتها وأرجلها منها وكان لها ثلثمائة وخمس وستون رجلا وكانت توضع في كنيسة طليطلة فأصابها طارق انتهى وقد ذكرنا فيما مر عن ابن حيان مافيه نظير هذا وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها مافيه بعض تخالف وما ذلك الا لانا ننقل كلام المؤرخين وان خالف بعضهم بعضا ومن ادناه كثير الفائدة وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار وان حصل الخلاف في صفتها وجنسها وعدد أرجلها وهي من أجل ما غنم بالاندلس على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوعة الاجناس التي ذكرها الى الآن شائع بين الناس فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الاسلام بالاندلس وتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم الى الحلول بها فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم الى أن كان من أمرهم ما كان فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الانفس بالاندلس منهم جماعة كلهم من ولد ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الاندلس بعد انتثار سلك بني أمية وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الاندلس قال ابن سعيد ويعرفون هنالك الى الآن بالقرشيين وانما عموا انسابهم الى أمية في الآخر لما انحرف الناس عنهم وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه وأما بنو زهرة فمنهم باشبيلية أعيان متميزون وأما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الاعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدور ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زيدون ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بني عباد * قال

ابن غالب وفى الاندلس من ينسب الى جمح والى بنى عبد الدار وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الظواهر ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الاندلس ومن ولده بنو القاسم الامراء الفضلاء وطوائف من الاعيان العلماء ومن بنى محارب ابن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سلطان الاندلس الذى غلبه عليها عبد الرحمن الاموى الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بافريقية قال ابن حزم ولهم بالاندلس عدد وثروة وأما المنتسبون الى عموم كنانة فكثير وجلهم فى طليطلة وأعمالها ولهم ينسب الوقشيون الكنانيون الاعيان الفضلاء الذين منهم القاضى أبو الوليد والوزير أبو جعفر ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة وقد ذكرناه فى محله وأما هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أن منزلهم بجهة أريولة من كورة تدمير وأما تميم ابن مرة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أيضا انهم خلق كثير بالاندلس ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية وأما ضبة بن أد بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالاندلس فهؤلاء خندف من العدنانية وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففى الاندلس كثير منهم ينتسبون الى العموم ومنهم من ينتسب الى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس كعبد الملك بن حبيب السلمى الفقيه صاحب الامام مالك رضى الله عنه وكالقاضى أبى حفص بن عمر قاضى قرطبة ومن قيس من ينتسب الى هوازن بن منصور بن عكرمة قال ابن غالب وهم باشبيلية خلق كثير ومنهم من ينتسب الى بكر بن هوازن قال ابن غالب ولهم منزل بحوفى بلنسية على ثلاثة أميال منها وباشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ومنهم بنو حزم وهم بيت غير البيت الذى منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهرى وهو فارسى الاصل ومنهم من ينتسب الى سعد بن بكر بن هوازن وذكر ابن غالب أن منهم بغرناطة كثيرا كبنى جودى وقد رأس بعض بنى جودى ومنهم من ينتسب الى سلول امرأة نسب اليها بنوها وأبوهم مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ومنهم من ينتسب الى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن ومنهم من ينتسب الى نمير بن عامر بن صعصعة قال ابن غالب وهم بغرناطة كثير ومنهم من ينتسب الى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومنهم بلج بن بشر صاحب الاندلس وآله وبنو رشيق ومنهم من ينتسب الى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ومنهم من ينتسب الى اشجع بن ريث بن غطفان ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الاشجعى سلطان الاندلس وفى ثقيف اختلاف فمنهم من قال انها قيسية وأن ثقيفا هو قيس بن منبه بن بكر بن هوازن ومنهم بالاندلس جماعة واليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفى صاحب الاندلس وقيل انها من بقايا ثمود انتهى قيس بن عيلان وجميع مضر * وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب الى أسد بن ربيعة بن نزار قال فى فرحة الانفس ان اقليم هؤلاء مشهور باسمهم بحوفى مدينة وادى آش انتهى والاشهر بالنسبة الى أسد أبدا بنو أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ومنهم من ينتسب الى محارب ابن عمرو بن وديعة بن بكير بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة قال ابن غالب فى فرحة الانفس ومنهم بنو عطية اعيان غرناطة ومنهم من ينتسب الى النمر بن قاسط بن

هنب

هنب بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر بن عبد البر ومنهم من ينتسب الى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب كبنى حديس أعيان قرطبة ومنهم من ينتسب الى بكر بن وائل كالبكريين أصحاب أونبة وشلطيش الذين منهم أبو عبيد البكرى صاحب التصانيف انتهت ربيعة * وأما اياد بن نزار وقد يقال انه ابن معد والصحيح الاول فينتسب اليهم بنو زهر المشهورون باشبيلية وغيرهم انتهت العدنانية وهم الصريح من ولد اسمعيل عليه السلام واختلف فى القحطانية هل هم من ولد اسمعيل أو من ولد هود على ما هو معروف وظاهر صنيع البخارى الاول والاكثر على خلافه والقحطانية هم المعروفون باليمانية وكثيرا ما يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالاندلس كما كان يقع بالمشرق وهم الاكثر بالاندلس والملك فيهم ارسخ الا ما كان من خلفاء بنى أمية فان القرشية قدمتهم على الفرقتين واسم الخلافة لهم بالمشرق وكان عرب الاندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والافخاذ الى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الاندلس وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء وقدم القواد على الاجناد فيكون فى جند القائد الواحد فرق من كل قبيل فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالاندلس الا ما جاءت على غير هذه الجهة قال ابن حزم جماع أنساب اليمن من جرم بن كهلان وحمير ابن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح وقيل قحطان ابن الهميسع بن تيمان بن نابت بن اسمعيل وقيل قحطان ابن هود بن عبد الله بن رباح بن جارف بن عاد بن عوص بن ارم بن سام والخلف فى ذلك مشهور فنهم كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ومنهم الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان واليهم ينتسب محمد بن هانئ الشاعر المشهور الالبيرى وهو من بنى المهلب ومن الازد من ينتسب الى غسان وهم بنو مازن ابن الازد وغسان ماء شربوا منه وذكر ابن غالب أن منهم بنى القليعى من أعيان غرناطة وكثير منهم بصالحة قرية على طريق مالقة ومن الازد من ينتسب الى الانصار على العموم وهم الجم الغفير بالاندلس * قال ابن سعيد والعجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالاندلس فى اكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة ولقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه الا شيخا من الخزرج وعجوزا من الاوس قال ابن غالب وكان جزء الانصار بناحية طليطلة وهم اكثر القبائل بالاندلس فى شرقها ومغربها انتهى ومن الخزرج بالاندلس ابو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المشهور بالموشحات والى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الاحمر سلاطين غرناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم وعليهم انقرض ملك الاندلس من المسلمين واستولى العدو على الجزيرة جميعا كما يذكر ومن أهل الاندلس من ينتسب الى الاوس أخى الخزرج ومنهم من ينتسب الى غافق بن عك بن عدثان بن ازان بن الازد وقد يقال عك ابن عدنان بالنون فيكون أخا معد بن عدنان وليس بصحيح قال ابن غالب من غافق أبو عبد الله ابن أبى الخصال الكاتب واكثر جهاته شقورة ينتسبون الى غافق ومن كهلان من ينتسب الى همدان وهو اوسلة بن مالك بن زيد بن اوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان ومنزل

همدان مشهور على ستة أميال من غرناطة ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى ومن كهلان من ينتسب الى مذحج ومذحج اسم اكمة حمراء باليمن وقيل اسم ام مالك وطيئ بن ادد بن زيد ابن كهلان قال ابن غالب بنو سراج الاعيان من أهل قرطبة ينتسبون الى مذحج ومنزل طيئ بقبلي مرسية ومنهم من ينتسب الى مراد بن مالك بن ادد وحصن مراد بين اشبيلية وقرطبة مشهور قال ابن غالب وأعرف بمراد منهم خلقا كثيرا ومنهم من ينتسب الى عنس بن مالك ابن ادد ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب المغرب وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة ومن مذحج من ينتسب الى زبيد قال ابن غالب وهو منبه بن سعد العشيرة بن مالك بن ادد ومن كهلان من ينتسب الى مرة بن ادد بن زيد بن كهلان قال ابن غالب منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة ومنهم من ينتسب الى عاملة وهي امرأة من قضاعة ولدت للحرث ابن عدي بن الحرث مرة بن أدد فنسب ولدها منه اليها قال ابن غالب منهم بنو سماك القضاة من اهل غرناطة وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبا ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وقيل هم من قضاعة ومن كهلان خولان بن عمرو بن الحرث بن مرة وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء واشبيلية ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة ومنهم من ينتسب الى المعافر بن يعفر بن مالك بن الحرث بن مرة منهم المنصور بن أبي عامر صاحب الاندلس ومنهم من ينتسب الى لخم بن عدي بن الحرث بن مرة منهم بنو عباد أصحاب اشبيلية وغيرها وهم من ولد النعمان ابن المنذر صاحب الحيرة ومنهم بنو الباجي أعيان اشبيلية وبنو وافد الاعيان ومنهم من ينتسب الى جذام مثل ثوابة بن سلامة صاحب الاندلس وبني هود ملوك شرق الاندلس ومنهم المتوكل بن هود الذي صحت له سلطنة الاندلس بعد الموحدين ومنهم بنو مردنيش أصحاب شرق الاندلس قال ابن غالب وكان لجذام جزء من قلعة رباح واسم جذام عامر واسم لخم مالك وهما ابنا عدي ومن كهلان من ينتسب الى كندة وهو ثور بن عفير بن عدي بن مرة بن ادد ومنهم يوسف بن هرون الرمادي الشاعر ومنهم من ينتسب الى تجيب وهي امرأة اشرس بن السكون بن اشرس بن كندة ومن كهلان من ينتسب الى خثعم بن أنمار بن اراش ابن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ومنهم عثمان بن أبي نسعة سلطان الاندلس وقد قيل انمار بن نزار بن معد بن عدنان انتهت كهلان * وأما حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب ابن قحطان فمنهم من ينتسب الى ذي رعين قال ابن غالب وذو رعين هم ولد عمرو بن حمير في بعض الاقوال وقيل هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل ابن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن ايمن بن الهميسع بن حمير قال ومنهم أبو عبد الله الحناط الاعمى الشاعر قال الحازمي في كتاب النسب واسم ذي رعين عريم بن زيد بن سهل ووصل النسب ومنهم من ينتسب الى ذي اصبح قال ابن حزم هو ذو أصبح بن مالك بن زيد من ولد سبا الاصغر بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس ووصل النسب وذكر الحازمي أن ذا أصبح من كهلان وأخبر أن منهم مالك بن أنس الامام والمشهور أنهم من حمير والاصبحيون من أعيان قرطبة ومنهم من ينتسب الى يحصب قال ابن حزم انه أخو ذي أصبح وهم كثير بقلعة بني سعيد وقد تعرف من أجلهم في التواريخ الاندلسية بقلعة يحصب ومنهم من ينتسب

الى

قوله الحناط في بعض النسخ أبو عبد الله بن الخياط اه

الى هوازن بن عوف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث قال ابن غالب ومنزلهم بشرق اشبيلية والهوازنيون من أعيان اشبيلية * ومنهم من ينتسب الى قضاعة بن مالك بن حمير وقد قيل انه قضاعة بن معد بن عدنان وليس بمرضي * ومن قضاعة من ينتسب الى مهرة كالوزير أبي بكر بن عمار الذى وثب على ملك مرسية وهو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة * ومنهم من ينتسب الى خشين بن تنوخ قال ابن غالب وهو ابن مالك بن فهم بن عمرو بن وبرة ابن تغلب قال الحازمي تنوخ هو مالك بن فهر بن فهم بن تيم الله بن اسد بن وبرة * ومنهم من ينتسب الى بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ومنهم البلويون الاشبيلية * ومنهم من ينتسب الى جهينة بن اسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة قال ابن غالب وبقرطبة منهم جماعة * ومنهم من ينتسب الى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان كبني أبي عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة ووزراؤها * ومنهم من ينتسب الى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن اسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة * ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة * ومن أهل الاندلس من ينتسب الى حضرموت منهم الحضرميون بمرسية وغرناطة واشبيلية وبطليوس وقرطبة قال ابن غالب وهم كثير بالاندلس وفيه خلاف قيل ان حضرموت هو ابن قحطان وقيل هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بالجيم بن قطن بن العريب بن الغرز بن نبت بن أيمن بن الهميسع بن حمير كذا نسق النسب الحازمي * ومن أهل الاندلس من ينتسب الى سلمان ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر في محله * وقد رأيت أن أسرد هنا اسماء ملوك الاندلس من لدن الفتح الى آخر ملوك بني أمية وان تقدم ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أتم مما هنا فنقول طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير ثم الامير موسى بن نصير وكلاهما لم يتخذ سريرا للسلطنة ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير وسريره اشبيلية ثم أيوب بن حبيب اللخمي وسريره قرطبة وكل من يأتي بعده فسريره قرطبة والزهراء والزاهرة بجانبيها الى أن انقضت دولة بني مروان على ما ننبه عليه ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي ثم السمح بن مالك الخولاني ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثم عنبسة بن سحيم الكلبي ثم عذرة بن عبد الله الفهري ثم يحيى بن سلمة الكلبي ثم عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ثم حذيفة بن الاحوص القيسي ثم الهيثم بن عبيد الكلابي ثم محمد بن عبد الله الاشجعي ثم عبد الملك بن قطن الفهري ثم بلج ابن بشر بن عياض القشيري ثم ثعلبة بن سلامة العاملي ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي ثم ثوابة بن سلامة الجذامي ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الاندلس من غير موارثة افرادا عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ولم يتعدوا في السمة لفظ الامير * قال ابن حيان مدتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الاندلس النصراني وهو يوم الاحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة وهو يوم الاضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى * ثم كانت دولة بني امية أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد

مطلب في ذكر اسماء ملوك الاندلس من لدن الفتح الى آخر ملوك بني امية اجمالا

الملك ثم ابنه هشام الرضى ثم ابنه الحكم بن هشام ثم ابنه عبد الرحمن الاوسط ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ثم ابنه المنذر بن محمد ثم أخوه عبد الله بن محمد ثم ابن ابنه عبد الرحمن الناصر ابن محمد بن عبد الله ثم ابنه الحكم المستنصر وكرسيهما الزهراء ثم هشام بن الحكم وفى أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبى عامر الزهراة ثم المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر وهو أوّل خلفاء الفتنة وهدمت فى أيامه الزهراء والزاهرة وعاد السرير الى قرطبة ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ثم تخللت دولة بنى حمود العلويين وأوّلهم الناصر على بن حمود العلوى الادريسى ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود ثم كانت دولة بنى أمية الثانية وأوّلها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ثم المستكفى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر وهو آخر خلفاء الجماعة بالاندلس وحين خلع اسقط ملوك الاندلس الدعوة للخلافة المروانية واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور فى قرطبة وابن عباد باشبيلية وغيرهما ولم يعد نظام الاندلس الى شخص واحد الى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من برّ العدوة وفتك فى ملوك الطوائف وبعد ذلك ماخلصت له ولا لولده على بن يوسف لان بنى هود نازعوه فى شرقها بالثغر الى أن جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه فاصفت لعبد المؤمن بمحمد بن مردنيش الذى كان ينازعه فى شرق الاندلس ثم صفت ليوسف بن عبد الرحمن بموت ابن مردنيش ثم لمن بعده من بنيه وحضرتهم مراكش وكانت ولاتهم تتردّد على الاندلس وممالكها ولم يولوا على جميعها شخصا واحدا لعظم ممالكها الى أن انقرضت سهادولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بنى هود ملوك سرقسطة وجهاتها فملك معظم الاندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان ولم ينازعه فيها الا زيان بن مردنيش فى بلنسية من شرق الاندلس وابن هلالة فى طبيرة من غرب الاندلس ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته ولما قتله وزيره ابن الرميمى بالمرية زاد الامر الى أن ملك بنو الاحمر وكان غرب أهل الاندلس فى المائة السابعة يخطبون لصاحب افريقية السلطان أبى زكرياء يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ثم تقلصت تلك الظلال ودخل الجزيرة الاختلال الى أن استولى عليها حزب الضلال والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين *(وقد ذكرت) فى هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الاندلس مما يصلح للمذاكرة وربما سرحت طرف القلم فى بعضهم وبنو جهور المشار اليهم قريبا كانوا وزراء الامويين ثم انه لما انتثر سلك الخلافة استبد بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدى اسم الوزارة * قال فى المطمح الوزير الاجل جهور بن محمد بن جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة فى فزارة وأبو الحزم امجدهم فى المكرمات وأنجدهم فى الملمات ركب متون الفنون فراضها ووقع فى بحور المحن فخاضها منبسط غير منكمش لا طائش اللسان ولا رعش وقد كان وزر فى الدولة العامرية فشرفت بجلاله واعترفت باستقلاله فلما انقرضت وعاقت الفتن واعترضت تحيز عن التدبير مدتها وخلى للخلافه أعباء الخلافة وشدّتها وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر ويدير الامر معهم ويدبر غير مظهر للانفراد ولا متصرّف فى ميدان ذلك الطراد الى أن بلغت الفتنة مداها

وسوغت ماشاءت رداها وذهب من كان يجد فى الرياسة ويخب ويسعى فى الفتنة ويدب ولما ارتفع الوبال وأدبر ذلك الاقبال رأى أهل التقوى مستبدا بهم ومعتمدا على بعضهم تحيلا منه وتقويها وتداهيا على أهل الخلافة وذويها وعرض عليهم تقديم المعتد هشام وأومض منه لاهل قرطبة برق خلب بشام بعد سرعة التياثها وتحيل انتكاثها فأنابوا الى الاجابة وأجابوا الى استرعائه الوزارة والحجابة وتوجهوا مع ذلك الامام وألموا بقرطبة أحسن المام فدخلوها بعد فتن كثيرة واضطرابات مستثيرة والبلد مقفر والجلد مسفر فلم يبق غير يسير حتى حيد واضطرب أمره فخلع واختطف من الملك وانتزع وانقرضت الدولة الاموية وارتفعت الدولة العلوية واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ودبر أمرها بالجد والعزم وضبطها ضبطا امن خائفها ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها وخلاله الجو فطار وقضى اللبانات والاوطار فعادت له قرطبة الى أكمل حالتها وانجلى به نور جلالتها ولم تزل به مشرقة وغصون الآمال فيها مورقة الى أن توفى (سنة ٤٣٥) فانتقل الامر الى ابنه أبى الوليد واشتمل منه على طارف وتليد وكان لابى الحزم أدب ووقار وحلم سارت به الامثال وعدم فيها المثال وقد أثبت من شعره ماهو لائق وفى سماء الحسن رائق وذلك قوله فى تفضيل الورد

الورد أحسن مارأت عينى وأز * كى ماسقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه * فتذللت تنقاد وهى شوارد
واذا تبدى الغصن فى أغصانه * يزهو فذا ميت وهذا حاسد
واذا أتى وفد الربيع مبشرا * بطلوع وفدته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه * خبر عليه من النبوة شاهد
واذا تعدى الورد من أوراقه * بقيت عوارفه فهن خوالد

انتهى المقصود منه وكأنه عارض بهذه الابيات فى تفضيل الورد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس عليه من قصيدة

للنرجس الفضل المبين وان أبى * آب وحاد عن الحقيقة حائد

وهى مشهورة ورد على ابن الرومى بعضهم بقوله

يامن يشبه نرجسا بنواظر * دعج تنبه لن فهمك فاسد الخ

وهى أيضا مشهورة * (رجع الى ماكنا فيه) وكانت لاهل الاندلس بين زمان الفتح ومابعده وقائع فى الكفار شفت الصدور من أمراضها ووفت النفوس بأغراضها واستولت على ماكان لملة الكفر من جواهرها وأعراضها ثم وقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف فعصفت ريح العدو والحروب سجال وأعيا العلاج حكماء الرجال فصار أهل الاندلس يتذكرون موسى بن نصير وطارق ومن بعدهما من ملوك الاندلس الذين راعت العدو الكافر منهم طوارق * وما أحسن ما أعرب الامام الكاتب القاضى أبو المطرف بن عميره عما يشمل هذا المعنى وغيره فى كتاب بعث به الى الشيخ أبى جعفر بن أمية حين حل الرزء ببلنسية وهو

ألا أيها القلب المصرّح بالوجد * أمالك من بادي الصبابة من بدّ
وهل من سلوّ يرتجى لمتيم * لهلوعة الصادي وروعة ذي الصدّ
يحنّ الى نجد وهيهات حرّمت * صروف الليالي أن يعود الى نجد
فيا جبل الريان لا ارى بعدما * عدت غير الايام عن ذلك الورد
ويا أهل ودّي والحوادث تقتضي * خلوّي عن أهل يضاف الى الودّ
ألا متعة يوما بعارية المنى * فانا نراها كل حين الى الردّ
أمن بعد رزء في بلنسية ثوى * بأحنائنا كالنار مضطرمة الوقد
يرجى اناس جنة من مصائب * تطاعن فيهم بالمثقفة الملد
ألا ليت شعري هل لها من مطالع * معاد الى ما كان فيها من السعد
وهل أذنب الابناء ذنب أبيهم * فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد

مرحبا بالسحاب وما أعارت افق من الاضاءه وردت تسهر النهى وتسحب ذيلا على السها وتهز من المسرّة أعطافا وتردّ من نجوم المجرة نطافا عامت من الظلمة في موجها ثم غلبت الشهب على أوجها فقلب العقرب يجب وسهيل بداره يحتجب والطرف غضيض وجناح الطائر يهيض وصاحب الاخبية يقرض والذابح عن ذبيحته يعرض وراع السماكين تخونه السلاح وواقع النسرين يودّ لو أنه يخفيه الصباح بلاغة تفتن كل لبيب وترعى روض كل أديب وتغض على رغم العدوّ من حبيبه ان من البيان لسحرا ويا أيها الجواد وجدنا بحرا أدريت أي برى بريته وبأي قمر اهتديت ليلة سريت افتخت بأبياتك الحسان ونظمتها نظم الجمان فعوّذت سننها بالسبع وعرفت منها براعة ذلك الطبع ثم نثرت على القرطاس شذور النثور بل من جواهر البحور ما استوقف النظار وبهرج اللجين والنضار ورأيتك استمددت وللّٰه الباع الامدّ وأعرت محاسنك والعارية تردّ وجئت باللآلىء تروق أربعتها وتحرس بها قعقعة الاشعار وجمعتها فأدّت من حسنها ما يسر واجتمع لمن روى القطعتين ما نظم فيهما وهو الدر وأجريت خبر الحادثة التى محقت بدر التمام وذهبت بنضارة الايام فيا من حضر يوم البطشه وعزى في انسه بعد تلك الوحشه احقا انه دكت الارض ونزف المعين والبرض وصوّح روض المنى وصرّح الخطب وما كنى أين لي كيف فقدت رجاحة الاحلام وعقدت مناحة الاسلام وجاء اليوم العسر وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر حلم ما نرى بل ما رأى ذا حالم طوفان يقال عنده لا عاصم من ينصفنا من الزمان الظالم الله عالم بما يلقى الفؤاد عالم باللّه أي نحو تنحو ومسطور تثبت وتمحو وقد حذف الاصلي والزائد وذهب الصلة والعائد وباب التعجب طال وحال البائس لا تخشى الانتقال وذهبت علامة الرفع وفقدت سلامة الجمع والمعتل اعدى الصحيح والمثلث اردى الفصيح وامتنعت الجمة من الصرف وأمنت زيادتها من الحذف ومالت قواعد الملة وصرنا الى جمع القلة وللشرك صيال وتخمط ولقرنه في شركه تخبط وقد عاد الدين الى غربته وشرق الاسلام بكربته كأن لم يسمع بنصر بن نصير وطرق طارق

بكل خير ونهشات حنش وكيف أعيت الرقى وأذالت بليل السليم يوم الملتقى ولم تخبر عن المروانية وصوائفها وفتى معافر وتعفيره للاوثان وطوائفها لله ذلك السلف لقد طال الاسى عليهم والاسف وبقى الحكم العدل والرب الذى قوله الفصل وبيده الفضل ربنا أمرت فعصينا ونهيت فما انتهينا وما كان ذلك جزاء احسانك الينا أنت العليم بما أعلنا وما أخفينا والمحيط بما لم نأت وما أتينا لو أتنا فيك أحيينا وقلينا لم ترنا من الفرقة ما رأينا ولم تسلط عدونا وعدوّنا علينا لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا وأكرم من أن لا تهب حقوقك الينا وأشرت أيها الاخ الكريم الى استراحة الى وتنسم بما لدى لتبرد كما زعمت حر نفس وتقدح زناد قبس وهيهات صلد الزند وذوى العرار والرند وأقشع الشؤبوب وركد ما كان يظن به الهبوب فالقلم دفين لا يحشر وميت لا ينشر والطبع قد نكص القهقرى وقل منزله أن يدعى له النقرى فها هو لا يملك ميتا ولا يجد لقلمه تنبيتا وأنت أبقاك الله عز وجل بمقتبل الآداب طائر هبيعة الشباب وأين سن السموّ من سن الانحطاط ووقت الكسل من وقت النشاط وقد أجمعتك لاداخلا فى حلبتك بل قاضيا حق رغبتك والله تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقيا وبجنة الطاعة متوقيا ولهناء الانفس مستقبلا ومتلقيا بمنه والسلام انتهى *(وكتب) رحمه الله الى سلطان افريقية الوارث ملك بنى عبد المؤمن بتلك النواحى المستولى على البلدان والضواحى وقد كان لاهل الاندلس امل فى أخذه بثارهم وضم انتثارهم ما صورته

شاقه غب الخيال الوارد * بارق هاج غرام الهاجد
صدق وعد التلاقى ثم ما * طرقا الا بخلف الواعد
وكلا الزورين من طيف ومن * وافد تحت الدياجى وارد
لم يكن بعد السرى مستمتع * فيه للرائى ولا للرائد
وشديد بث قلب هائم * يشتكيه عند ربع هامد
بالامير المرتضى عز الهدى * وثنى عطف الملىّ الواجد
وبه أصحب ما كان يرى * حاملا أنف الابىّ الشارد
انما الفخر لمن ولانا أبى * زكرياء بن عبد الواحد
ملك لولا حلاه الغر لم * يجر بالحمد لسان الحامد
ولو ان العذب أبدى رغبة * عنه لم يشف غليل الوارد
فضله مثل سنى الشمس وهل * لسنى الشمس يرى من جاحد
قهر البغى بجد صادع * ما تعداه وجد صاعد
انما آل ابى حفص هدى * للورى من غائب أو شاهد
قعدوا فوق النجوم الزهر عن * همم تنهن عزم القاعد
وعن الاسلام ذادوا عندما * فل طول العهد غرب الذائد
أىّ فخر عمرى المنتمى * ورثوه ماجدا عن ماجد
ما الفتوح الغر الا لهم * بين ماض بادئ أو عائد

فى محيا الاحق من سابق * وعلى المولود سيما الوالد
وابحى راجح الحلم الذى * ترك الطود بعطفى مائد
فقد أحسابهم تم به * كثل ماتم حساب العاقد
أيها الجامع ماقد أحرزوا * جمع من همته فى الزائد
هذه الامة قد أوسعتها * نظرا يكلأ ليل الراقد
لم تزل منك بخير طارف * ريشه نال قدامى تالد
ولهم منك ليوم حاضر * وغدا رأى البصير الناقد
ارشد الله لاولى نظر * بالورى رأى الامام الراشد
و تولاه بتوفيق الالى * سعدوا من عاقد أوعاهد
وله فى الله أوفى كافل * بالذى يبقى واكفى عاضد

نصر الله تعالى مولانا وأيده وشد ملكه وشيده وأبقى للفضل ايامه وللفصل أحكامه وأظفر بأعناق الاشقياء حسامه ووفر من اتساق النعم والالاء حظوظه وأقسامه والحمد لله ثم الحمد لله على أن جعل به حرم الامة آمنا ووهج الفتنة ساكنا وأبواب الصلة والمعروف لاتعرف الا واصلا أوآذنا وتلافى فل الاسلام منه بنيا نه التى منها ينتظرون الكر وبها يوعدون الفتح الاعز والنصر الاغر فهم بين جدة قبضوها وعدة رضوها وارتقاب للفتح اكبر هممهم منه درك الثار وانتصاف لاهل الجنة من أهل النار فأما الاوطان فقد أسلتهم عنها جهة تنبت العز فيما تنبته وتنفى من الضيم ماتلك تثبته وماذكر الساخط على المحل الساقط منازل عادت على مبانيها اطلالا ومعانيها مجالا وللعبد حال يستقبل بها من النظر الكريم ادامه الله تعالى ماأعين الاتصال اليه صور ورجاء الجميع عليه مقصور انتهى * والغاية فى هذا الباب ما كتب به رحمه الله من جملة كتاب لبعض ذوى الالباب ونص محل الحاجة منه تخص الجهة البعيدة الصيت والاسم الشهيرة العمل والعلم درة تاجنا وضوء سراجنا ونكتة احتجاجنا أبقاها الله تعالى فى اعيننا منارا وللاندلس انخفارا على أنه وان بقيت المفاخر فقد أودى المفاخر وان اضاء الطالع فقد درجت المطالع وغلب عليها عداة زووا عنها وجوهنا وأروافيها مكروهنا حتى انى أتيت بشعر فيه استسقاء للديار على عادة الاشعار فقلت

زدنا على النائين عن أوطانهم * وان اشتركنا فى الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استسقوا لها * من بعد أن شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك فى أوطاننا * مع حبها الشرك الذى فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا * لعدونا أفنستقيم لها الهوى

انتهى

(قلت) ومارأيت ولاسمعت مثل هذه الابيات فى معناها العالية فى مبناها فان فيها الاشارة الى استيلاء النصارى دمرهم الله على تلك الديار وثبوت قدمهم فيها على طبق ماحصل لهم فيه اختيار مع ادماج حبه لها الذى لايشك فيه ولايرتاب واشتمالها على المحاسن التى هى بغية الرائد ونجعة المنتاب ولكل أجل كتاب واذانفذ سهم المقدور فلاعتاب

قوله أبا الحسن فى نسخة أبا الحزم وليحرر اه

﴿ومما يستولى على الخواطر * ويروى رياض الافكار بصوب بلاغته المواطر * قوله رحمه الله تعالى يخاطب أبا الحسن الرعينى سنة ٦٣٤﴾

يا صاحبى والدهر لولا كره * منه على حفظ الذمام ذميم
اصغ وأنت الحديث فانه * ما فيه لا لغو ولا تأثيم
ومروض مرعى مناى فنبته * من طول اخلاف الغيوم هشيم
طال اعتبارى بالزمان وانما * داء الزمان كما علمت قديم
مجفو حظ لا ينادى ثم لا * ينفك عنه الحذف والترخيم
وأرى امالته تدوم وقصره * فعلام يأبى المد والتفخيم
وعلام أدعو والجواب كأنما * فيه بنص قد أتى التحريم
لم ألق الا مقعدا غير الاسى * فلدى منه مقعد ومقيم
وشرابى الهم المعتق خالصا * فمتى يساعدنى عليه نديم
غارات أيام على جوارح * فعديها فى طبعه التحكيم
ولواعج يحتاج صبا لى حرها * امرا به قد خص ابراهيم
ولقد أقول لصاحب هو بالذى * أدركت من علم الزمان عليم
لا يأس من روح الاله وان قست * يوما قلوب الخلق فهو رحيم

ويهزنى ويستفزنى ما كتبه رحمه الله تعالى من رسالة * كتبته الى سيدى وهو السيد حقيقه وأخى وقد كذب الدهر بذلك وثبقه أبقى الله تعالى جلاله محروسا وربع وفائه لا يخشى دروسا من رباط الفتح وأنا بحقه عليم وعلى عهده مقيم وشأنى توقيره وتعظيم وحب فيه خالص كريم ووصلنى خطابه الخطير المبرور فكنت به كالصائم رأى الهلال والهائم عاين ماء الزلال علق ليس يوازيه علق وسحر لكنه حلال طلق ونظم لذكر الطائى طاو وصنعة لم يرها ولم يروها راء ولا راو ورمى ابن الرومى بالخمول وبشرت ابن بشار من النحول وحكمت بأن البحرى فى غمرة الهوان مدرج والسرى عن سراوة الاحسان مخرج فأما النثر فسهل لا يجاوبه الرغاء وطراز لا يحسنه البلغاء وتقدتر بعى معه النقود ومدى تنقطع دونه الضمر القود غادر الصابى وصباه غير ذات هبوب والصاحب وهو من العجز مع شر مصحوب والميكالى وميكاله مرفوض والحريرى وحريره فى سوق الكساد معروض فأما بحر رئيس أرتجان فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان وأبقاه فى ضحضاح بل تركه يمشى بأدرج ضاح فمن ذا يجارى فارس الصفين وامام الصنفين أبلغ من خط بقلم وأشهر من نار على علم وماذا يقال فى أنامل تطرزها الصحف وخمائل تفخر بها الروضة الانف واسم فى شرق البلاد وغربها ظاهر ووسم بالكتابة والنجابة لم يكن لبنى وهب وآل طاهر فالزمان بأثر ما ينثر ويعظم ما ينظم ولو أن الازمنة قبله غمرت المحاضر بكل ناجم ونشرت المقابر عن الصنوبرى وكشاجم وجاءت بالكتاب من كل جيل والشعراء رعيلا بعد رعيل لطال هذا العصر بواحده آلافها وأنسى بخلفه أسلافها انتهى * وكتب رحمه الله تعالى الى صاحبين له فى معنى ما ألمعنا به آنفا ما صورته

تحية منكما أتتني * طابت كما طاب مرسلاها
و يا لها اذ كرت عهودا * قلبي و الله ماسلاها
حللتما في البلاد أرضا * ريح صباها عني سلاها
لم يصب قلبي الى سواها * يوما ولم يسل في سلاها

كتابي أيها الاخوان اللذان بودّهما أقول وعن عهدهما لا أحول أنزلكما الله تعالى خير منزل وجعلكما من النوائب والشوائب بمعزل من رباط الفتح ولي قديما ملكتما رقه وقلبي تعلما وتعلما عرفتما صدقه كيف حالكما من سفر طويتما خبره حين تجشمتما غرره وكيف سمحت نفوسكما بأم الحصون وذات الظلال والعيون تربة الآباء ومنزلة الجيرين الحياء حتى صرتما حيلها وهجرتما حزنها وسهلها وخضتما غبر الفجاج وخضر الامواج وماذا الا التغلب الحادث النكر وتألب المعشر الغدر ومن أجل الداهية النكاد والحادثة الشنيعة على البلاد لزعجتكم حين أزعجتنا وأخرجتكم كما أخرجتنا وطوحت بنا طوائحها واجتاحت ثمرنا وشجرنا جوائحها فشكر الله تعالى على قضائه وتضرع فيما نرفعه من دعائه وهنيأ لنا ولكم معشر الشرداء المنطوين من الشجن على شرداء ذلك الطود الذي اليه أويتما وفي ظله ثويتما وعن رأيه ترويان وبسعيه تسعيان فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحا ولا يعدو لصعبه اذا دجا ليل الهم صبحا انتهى * وكان أبو المطرف بن عميرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب قدوة البلغاء وعمدة العلماء وصدر الجلة الفضلاء وهو أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها وشمسها التي أخفت نواقب كواكبها حين أبدعها مبدع البدائع التي لم يحظ بها قبله انسان ولا ينطق عن تلاوتها لسان اذ كان ينطق عن قريحة صحيحة وروية بدرر العلم فصيحة ذلت له صعب الكلام وصدقت رؤياه حين وضع سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو الذي أوتي جوامع الكلام في يديه الاقلام وأصل سلفه من جزيرة شقر وولد بمدينة بلنسية وروى عن أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وابن نوح والشلوبين النحوي وابن عات وابن حوط الله وغيرهم من الحفاظ وأجازه من أهل المشرق جماعة وكان شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله ثم تفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه ومال الى الادب فبرع براعة عد فيها من مجيدي النظم فأما الكتابة فهو فارسها الذي لا يجارى وصاحب عينها الذي لا يبارى وله وعظ على طريقة ابن الجوزي ورسائل خاطب بها الملوك وغيرهم من الموحدين والحفصيين وله تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها نحا في الخبر عنها منحى الامام الاصبهاني في الفتح القدسي وله كتاب تعقب فيه على الفخر الرازي في كتاب المعالم وله كتاب رد به على كمال الدين الانصاري في كتابه المسمى بالتبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن وسماه بالتنبيهات على ما في البيان من التمويهات وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة وغير ذلك وورد رحمه الله حضرة الامامة حرسها الله كنف صحبة أمير المؤمنين الرشيد حين قفوله من مدينة سلا واستكتبه مدة يسيرة ثم صرفه عن الكتابة

ترجمة أبي المطرف

وقلده قضاء هيلانة ثم نقله الى قضاء سلا ثم نقله السعيد الى قضاء مكناسة الزيتون ثم قصد سبتة وأخذ ماله فى قافلة بنى مرين ثم توجه الى بلاد افريقية ووصف حاله فى رسالة خاطب بها ابن السلطان ابازكريا الحفصى وهو أبو زكرياء ابن السلطان أبى زكرياء وكان صاحب بجاية لابيه ولم يزل رحمه الله تعالى مذ فارق الاندلس متطلعا للسكنى افريقية معمور القلب بسكناها ولما قدم تونس مال الى صحبة الصالحين والزهاد وأهل الخير برهة من الزمان ثم استقضى بالاربس من افريقية ثم بقابس مدة طويلة ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصى وأحضره مجالس انسه وداخله مداخلة شديدة حتى تغلب على أكثر أمره ومولده بجزائر شقر فى شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ وتوفى ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٨ ألحقه الله رضوانه وجدد عليه غفرانه * قال ابن الابار فى تحفة القادم فى حق أبى المطرف المذكور فائدة هذه المائة والواحد بالقمة الذى اعترف باتحاده الجميع واتصف بالابداع فاذا يتصف به البديع ومعاذ الله أن احابيه بالتقديم لماله من حق التعليم كيف وسبقه الاشهر ونطقه الياقوت والجوهر تحلت به الصحائف والمهارق وما تخلت عنه المغارب والمشارق فحسبى أن أجهد فى أوصافه ثم اشهد بعدم انصافه هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره وتناوب المنثور والمنظوم على شكره ثم أورد له جملة منها قوله

وأجلت فكرى فى وشاحك فانثنى * شوقا اليك يجول فى جوال
انصفت غصن البان اذلم تدعه * لتأود مع عطفك الميال
ورحت در العقد حين وضعته * متواريا عن ثغرك المتلالى
كيف اللقاء وفعل وعدك سينه * أبدا تخلصه للاستقبال
وكماة قومك نارهم ووقيدها * للطارقين اسنة وعوال

وله مما يكتب على قوس قوله

ما آنا آد معتقل الفتى الالآن * يحكى تأطرقامتى العوجاء
تحنو الضلوع على القلوب واننى * ضلع نوى فيها بأعضل داء

وله وقد أهدى وردا

خذها اليك أبا عبد الاله فقد * جاءتك مثل خدود زانها الخفر
اتتك تحكى حيا يامنك قد عذبت * لكن تغيرهذا دونه الغير
ان شمت منها بروق الغيث لامعة * فسوف يأتيك من ماءاتها مطر

قال وكتب الى مع تحفة اهداها مكافئا عن مثلها

ياواحد الادب الذى قدزانه * بمناقب جعلته فارس منصبه
بالفضل فى الهبة ابتدأت فان تعر * طرف القبول لما وهبت ختمت به

قال وله ارتجالا بقصر الامارة من بلنسية وأنا حاضر فى صبيحة بعض الجمع وقد حجم صاحب لنا من أهل النظم والنثر وأحسن الى الحجام بالخصوص

أرى من جاء بالموسى مواسى * وراحة ذى القريض تعود صفرا

فهذا محقق ان قص شعرا * وهذا مجمع ان قص شعرا

وله ايضا

هو ما علمت من الامير فا الذى * تزداد منه وفيه لا ارتاب
لا تسبق الاجناد فى أيامه * فقرا ولا يرجو الغنى الكتاب

وله بعد انفصاله من بلنسية عن وحشة فى ذى القعدة سنة ٦٢٨

أسير بأرجاء الرجاء واغما * حديث طريق طلرق الحدثان
وأحضر نفسى ان تقدمت خيفة * لغض عنان أو لعض زمان
أيترك حظى للحضيض وقدسرى * لامكانه فوق الذرى جبلان
وأخبط فى ليل الحوادث بعدما * اضاء لعينى منهما القمران
فيحيى لآمالى حياة معادة * وان عزيزا عزه لمكانى
وقالوا اقترح ان الامانى منهما * وان كن فوق النجم تحت ضمان
فقلت اذا ناجاهما بقضيتى * ضميرى لم احفل بشرح لسانى

وله أيضا

سلب الكرى من مقلتى فلم يجئ * منه على نأى خيال يطرق
اهفو ارتياحا للنسيم اذا سرى * ان الغريق بعارى يتعلق

انتهى ما تلخص من تحفة القادم فى ذكر ابن عميرة أبى المطرف * ومما كتب أبو المطرف رحمه الله وفى اثنائه اشارة الى الكفار الغالبين على بلاد الاندلس ما نصه

الآن خصينا على القطع واحد * وجاحد هذا للضرورة جاحد
فان لم تصدق ما نطقت بصدقه * فانك لى لاح وللود لاحد

ومعاذ الله عز وجل أن تلحانى أو تمنع أنفك ريح ريحانى وكيف تصدعنى بوجهك أو تشهد لى غرب نجهك وأنا على غيبك أمين ولشمالك يمين ولكم دعوت بى فأجبت واستغنيت عنى فحبيت وأردت الاستبداد فما استطعت ونعت الوداد فما أحسنت النعت وانما تحمد فراهة الاعوجى ان جرى وتذكر فضيلة ابن السرى اذا سرى فأما الاقتصار على عظم باد والانتظار لعين عدمت السواد فخطأ من القائل وخطل عند العاقل ولله در أخيك من مغمض طرف التطرف قارئ أدب الصحبة على السبعة الاحرف كرع فى أعز مورد وتواضع فى شرف مولد وسما بنفسه عن أن يستخفه تسبب رفعه وحسب ما منا أحد يدفعه وكذلك الكرام يرون عليهم حقا ويتوقون من لم يكن من الكبر موقى ولعهدى به وظل الثروة بارد وشيطان الشبيبة مارد وبشره فى الحلبات يرف وقدمه الى الحاجات تخف يصون عرضه بماله ويخفى صدقة يمينه عن شماله ويقسم جسمه فى جسوم ويقوم بالحقوق غير ملول ولا ملوم تلك المكارم لا قعبان وما نستوى البدنة المهيضة مع غيرها فى القربان وعرضت بذكر العصر الخالى والقصر العالى وظل من فنن وريق وعيش مع اكرم فريق وما تذكر من زمن ولى وعهد على أن لا يعود تألى فارقناه أحسن ما كان وودعنا به الاطيبين الزمان والمكان فعفت

الرسوم

الرسوم وأفلت تلك النجوم ورمتنا عن قوسها الروم ثم خلفتنا في المغانى وقسمتنا بين الاسير والعانى فأودى القل والكثر واشتفى من الاسلام الكفر فكم كاس أنس أرقناه ومنزل فرقة الابد فارقناه وذكرت اجتيازك بين العلين وقطعك متن اليم في يومين وانك انتقلت من ذوات الالواح الى عذبات الادواح ومن متهافت الشراع الى منابت اليراع ومن سكنى بيت السكان الى متزنه الفلاح والملاح بشتركان حيث اجتمع الضب والنون وأينع التين والزيتون وظللت الساحات وذللت الثمار المباحات فلا تشرقنا بأصيل ولا تم تلك الارض الويل انتهى ووصل هذا الكلام بالابيات التى تقدمت قريبا وهي قوله زدنا على النائين عن أوطانهم الخ * وكتب رحمه الله عن أهل شاطبة أيام كان قاضيا بها مهنئا أمير المسلمين ابن هود المستولى على الاندلس آخر دولة الموحدين بوصول الكتاب العباسي الكريم اليه من بغداد بولاية الاندلس اذ كان ابن هود حين ثار على الموحدين يدعو الى الخليفة العباسي الذى كان اكثر الملوك في ذلك الزمان يدينون بطاعته عن انصه بعد الصدر (أما بعد) فكتب العبيد كتب الله تعالى الى المقام العلى المجاهدى المتوكلى سعادة لا تبلغ آمد الا تخطته ويداعلوها أثبته أيدى الاقدار وخطته من شاطبة وبركات الامر المجاهدى المتوكلى والعهد الواثقى المعتصمى تنسكب كالمطر وتنسحب على البشر وتقضى بعادة النصر والظفر وسعادة الورد والصدر والحمد لله وعند العبيد من اداء فروض الخدم والقيام بحقوق النعم ما عقدت عليه ضمائرهم وسمت اليه نواظرهم واشترك فيه باديهم وحاضرهم فجناب أملهم فسيح ومتجر خدمتهم ربيح وحديث طاعتهم حسن صحيح وبسنى النظر العلى اهتداؤهم وفى الباب الكريم رجاؤهم وبصدق العبودية اعتزازهم واليها اعتزاؤهم والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العليه ويحملهم على المناهج السويه ووصل الكتاب الكريم متحليا برواء الحق ناطقا بلسان الصدق واصفا من التشريف والفخار المنيف ما صدر عن امام الخلق فلا بيان أعجب من ذلك البيان ولا يوم كذلك اليوم تبدى نظره للعيان أو تادى خبره فى أخبار الزمان نثرت فيه الخلع العباسية فى أعلى الصور وبرزمنها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه فى ذيل الحصر ويهدى سواده سواد القلب والبصر فيا لمشهد ها ما أعجب ما كان ومرآها الذى راع الكفر وراق الايمان واشبه يومه بالاندلس يوم خرجت الرايات السود من خراسان وكفى بهذا فخار الاصطلاح ثابته مثبتا أن باشرت برداباشر البدن الذى طاب حيا وميتا فهو علو فى الاسناد ولا نظير له فى العوالى وفخار ضاقت عن مثله العصور الخوالى وجلت بهجته أن تخلق جدتها الايام والليالى ودل الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد والسمة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل فى جنس ذوات الاغماد وخير الاوصاف ما صدقه الموصوف والكريم النسب نسبته يباهى بها الدين وتزهى السيوف

فان نحن حينا لك خلناسيوفنا * من التيه فى أغمادها تتبسم

ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى

آياته فانها تضمنت صفة لله عزوجل من صفات الكمال ودلت على مذهب أهل السنة في خلق الله عزوجل الاعمال وأشعرتنا معشر العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدى المتوكلى أحسن الله تعالى اليه حين تولى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه فانه لما شايعه بعزيمة مساعده ونية في مشارع الصفاء والاخلاص وارده ألهم زيادة في العلامة شاركت الامامة في صفة واحده فهذه كرامة في العلامه هي علامة الكرامه وهبة من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله فاستقم كما أمرت فكان من أهل الاستقامه وتضمن الكتاب الكريم بيعة أهل جيان وما معها وان هذه البشائر وما تبعها لفروع عن هذا الاصل الصحيح وأقيسة من هذا النص الصريح بادلة الخلاف قد استقلت وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلت والحمد لله على أن منح جزيل النعماء وشرح باليقين صدور الاولياء وشرف هذه الامة بامامة نجل الائمة الخلفاء وابن عم سيد الرسل وخاتم الانبياء والعبيد يهنئون بهذه النعم التي لا يستقل بذكرها قلم ولا يقطع علم من وصفها الابداء علم وبهم من الاشواق الى مشاهدة المعالم السنيه ولثم اليمين الطاهرة العليه ما أكده دنو الدار وجدده ما تجدد للمقام العالى المتوكلى من نعم الله تعالى الجليلة المقدار والشاهدة له باسعاد الايام واسعاف الاقدار فلو أمكنهم الاقدام لاقدموا ولو وجدوا رخصة في المسير لعزموا وهم يستلمون البساط الاشرفي توهما ومن أملهم انهم في الحقيقة قد استلموا انتهى وبه تعلم أن الدولة العباسية خطب لها ببلاد الاندلس أعادها الله للاسلام ولا يخفاك أن ما جلبناه من ذلك وغيره مناسب للمقام فلا انتقاد ولا ملام (وقد رأيت) أن اذكر هنا مخاطبة صدرت من الغنى بالله صاحب الاندلس الى السلطان المنصور أحمد ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من انشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله لما اشتملت عليه من أحوال الاندلس ونصها الابواب التي تفتح انصرها أبواب السماء وتستدر من آفاقها سحاب النعماء وتجلى بانوار سعدها دياجى الظلماء وتعرف نكرة البلاد والعباد بالانتساب الى محبتها والانتماء على اختلاف العروض وتباين الحدود وتعدد الاسماء ويجتزأ من صلات صلاتها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالايماء وتحمل لها التحية ذوات الدسر والالواح طاعنة نحر الصباح على كتد الماء أبواب السلطان الكبير الجليل الشهير الطاهر الظاهر الاوحد الاسعد الاصعد الامجد الاعلى العادل العالم الفاضل الكامل سلطان الاسلام والمسلمين عماد الدنيا والدين رافع ظلال العدل على العالمين جمال الاسلام علم الاعلام فخر الليالى والايام ملك البرين والبحرين امام الحرمين مؤمن الامصار والاقطار عاصب تاج الفخار هازم الفرنج والترك والتتار الملك المنصور ابن الامير الرفيع العماده الكريم الولاده الطاهر الظاهر الكبير الشهير المعظم الممجد الاسمى الموقر الاعلى فخر الجلة سيف الملة تاج الامارة عز الاسلام مستظل الانام قمر الميدان أسد الحرب العوان المقدس المطهر الامير أحمد ابن والد السلاطين ومالك المسلمين وسيف خلافة الله على العالمين وولى المؤمنين سلطان الجهاد والحج

ومقيم

ومقيم رسم الحج والثج محيي معالم الدين قامع المعتدين قاهر الخوارج والمتمردين ناصر السنه محيي الملة ملك البرين والبحرين سلطان الحرمين الملك العادل العالم العامل المنصور المؤيد المعان المرفع المعظم المبجل المؤمل المجاهد المرابط المغازى المجيد المكمل المطهر الكبير الشهير المقدس الملك الناصر أبي عبد الله محمد بن قلاوون الصالحي جعل الله فسطاط دعوته معمودا بعمود الصبح وحركات عزمه مبنية على الفتح وجعل سعادته غنيا عن الشرح وجياد أوصافه متبارية في ميدان المدح وزناد رأيه وارية على القدح من موجب حقه ووجوب الشعائر الحسن المرحب لاجل أفقه الشرقية بوفادة الشمس المجتد في اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم الله بالامس أمير المسلمين بالاندلس عبد الله الغني بالله الغالب به محمد بن يوسف بن اسمعيل بن فرج بن نصر سلام كريم كما رحفت راية الصبح تتقدمها طلائع مبشرات الرياح يفاوح أرجه زهر الادواح ويحاسن طرر الوجوه الملاح يخص أبوتكم التي رتب العز فصولها وعضدت نصوص النصر نصولها ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي جعله فاتحة القرآن وخاتمة دعاء أهل الجنان وشكره على ما أولى من مواهب الاحسان حمدا وشكرا يستخدمان من الانسان ملكتي القلب واللسان والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله زهرة كمامة الاكوان وسيد ولد آدم على اختلاف اللغات والالوان الذي أذل بعزة الله نفوس أهل الطغيان وغطى بدينه الحق على الاديان وزويت له الارض فرأى ملك أمته يبلغ ما زوى له فكان الخبر وفق العيان والرضا عمن له من الاصحاب والاحباب والاعمام والاخوال والاخوان صلاة يجددها الجديدان ويمليها الملوان وتتزاحم على تربته المقدسة مع الاحيان ما سجعت طيور البراعة من أعواد اليراعة على الافنان والتفتت عيون المعاني ما بين أجفان البيان والدعاء لابوابكم الشريفة جعل الله تعالى عصمته تقيم بها وظيفتي الحجابة والاستئذان وضرب بدعوتها التي هي لذة الاقامة والاذان على الآذان واستخدم بروج الفلك الدوار في أمرها العزيز استخدام الانصار والاعوان حتى يعلم ما في المدافعة عن حماها مخالب السرحان وفي الاشادة بعدلها كفتي الميزان ويهدي لها من الزهرة كرة الميدان ومن الهلال عوض الصولجان وأبقى في عواملها ضمير الامر والشان الى يوم تعنو وجوه الملوك الى الملك الديان فانا كتبناه الى تلك الابواب كتب الله لعتبتها النصرة الداخله كما أخجل بمكارمها السحب الباخله وجعل مفارق مناصلها المختضبة من نجيع عداها غير ناصله وقرن بكل سبب من أضدادها فاصله من دار ملك الاسلام بالاندلس حمراء غرناطة وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها وشد بأيدي اليقين عرى أملها في الله ورجائها حيث المصاف المعقود وثمن النفوس المنقود ونار الحرب ذات الوقود حيث الافق قد تردى بالقتام وتعمم والسيف قد تجرد وتيمم وغبار الجهاد يقول أنا الامان من دخان جهنم حيث الاسلام من عدوه كالشامة من جلد البعير والثمرة من أوسق العير حيث المصارع تتزاحم الحور على شهدائها والابطال يعلو بالتكبير مسمع ندائها حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زينتها الكلوم بدمائها وان هذا القطر

الذي مهدت لسياستنا أكواره ومطاياه وجعلت بيدنا والمنة لله عياب عطاياه قطر مستقل
بنفسه مرب يومه في البر على امسه زكي المنابت عذب المشارب متمم المآمل مكمل
المآرب فاره الحيوان معتدل السحن والالوان وسيطة في الاقاليم السبعه شاهدة لله
باحكام الصنعه أما خيله ففارهه والى الركض شارهه وأما سيوفه فلمواطن الغمود
كارهه وأما اسله فنداركه الخطف وأما عوامله فبينة الحذف وأما نباله فمحذورة القذف
الا أن الاسلام به في سفط مع الحيات وذريعة للمنيات الوحيات وهدف للنبال واكلة
للشبال تطؤهم الغارات المتعاقبه وتخيفهم الحدود المصاقبه وتجوس خلالهم العيون
المراقبه وتريب من أشكال مختطهم الا أن يتفضل الله بحسن العاقبه فليس الا الصبر
والضرب الهبر والهمز والنبر والمقابلة والجبر وقد سال البحر بينهم وبين اخوان ملتهم
وأساء عاتهم يقومون بهذا الفرض عن أهل الارض ويقرضون ملك يوم العرض أحسن
القرض فلولا بعد المدى وغول الردى ولغط العدا وما عدا مما بدا لسمعتم تكبير الحلات
وزئير تلك الفلات ودوي الحوافر وصليل السيوف من فوق المغافر وصراخ الثكالى
وارتفاع الادعية الى الله تعالى ولو ارتفع هذا المكان وهو للاولياء مثلكم من حيز
الامكان لقلتم مثل الاسنة الزرق حالة من اطراف قصب الرماح محال الورق وأبصرتم
القنا الخطار قد عاد أخله والسيوف قد صارت فوق بدور الخوذ أهله وعقود الشهادة
عند قاضي السعادة مستقله وكان كما تحصره علومكم الشريفة حدق سور الفتح وآخر
ولاء ذلك المنح عرض على الفاروق فاحتاط وأغرى به من بعده فاشتاط وسرحت
خيل ابن أبي سرح في خبر يدعو الى شرح حتى اذا ولدهم وان تقلدوا كرتها التي هوت
وقضوا امانضجت ورثة الحق وشوت ويدهم على الامر احتوت وفازت منه بما نوت
نفل ولأنده الوليد وجلب له الطريف والتليد وطرقت خيل طارق وضاقت عن أخباره
المهارق وجلت الفائده وظهر على الذخيرة التي منها المائده ثم استرسل المهب ونصر
الرب وبكثر الطير حين ينثر الحب وصرفت أشراف الشام أعنتها الى التماس خيره
وطاروا بأجنحة العزائم تيمنا بطيره وقصدته الطلائع صحبة بلج بن بشر وغيره ففتحت الاقفال
ونفلت الانفال ونجح الفال ووسمت الاغفال وافتتحت البلاد الشهيره وانتقيت
العذارى الخيره واقتنيت الذخيره وتجاوز الاسلام الدروب وتخطى وخضد الارطى
وأركب وأمطى واستوثق واستوطا وتشاب وغطى حتى تعددت مراحل البريد
وتخنت عين الشيطان المريد واستوثق للاسلام ملك ضخم السرادق مرهوب البوارق
رفيع العمد بعيد الامد تشهد بذلك الآثار والاخبار والوقائع الكبار والاوداق
والامطار وهل يخفى النهار ولكل هبوب ركود والدهر حسود لمن يسود فراجعت
الفرنج كرتها واستدركت معرتها فدوخت جوارحها وحلقت وأومضت بوارقها
وتألقت وتشبثت وتعلقت وأرسلت الاعنة وأطلقت وراجعت العقائل التي طلقت
حتى لم يبق من الكتاب الا الحاشيه ولا من البيل الا الناشيه وسقطت الغاشيه وأخلدت
الفئة المتلاشيه وتقلصت الظلال الفاشيه الا أن الله تدارك بقوم رجح من سلفنا اثبتوا

في مستنقع

فى مستنقع الحرب أقدامهم وأخلصوا لله بأسهم واقدامهم ووصلوا سيوفهم البارقة بخطاهم وأعطاهم منشور العز من أعطاهم حين تعين الدين وتحيز واشتد بالمدافعة وتميز وعادت الحروب سجالا وعلم الروم أن لله رجالا وقد أوفد جدنا رضى الله عنه على أبواب سلفكم من وقائعه فى العدو كل مبشره ووجوديه منتشره ضحكت لها ثغور الثغور وسرت بها فى الاعطاف حميا السرور وكانت المراجعة عنها شفاء للصدور وتمائم فى درر النحور وخفرا فى وجوه البدور فان ذمام الاسلام موصول وفروعه تجمعها فى الله أصول وما أقرب الحزن ممن داره صول والملة والمنة لله واحده والنفوس لا منكرة للحق ولا جاحده والاقدار معروفه والآمال الى ما يوصل الى الله مصروفه فاذا لم يكن الاستدعاء أمكن الدعاء والخواطر فعاله والكل على الله عاله والدين غريب والغريب يحن الى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله انتهى المقصود من المخاطبة عما يتعلق بهذا الباب والله الموفق للصواب

(الباب الثالث)

فى سرد بعض ما كان للدين بالاندلس من العز السامى العماد والقهر للعدو فى الرواح والغدو والتحرك والهدو والارتياح البالغ غاية الآماد وأعمال أهلها الجهاد بالجد والاجتهاد فى الجبال والوهاد بالاسنة المشرعة والسيوف المسلة من الاغماد

(اقول) قد قدمنا فى الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين وفتحهم الاندلس وما حصل لهم من السلطان بها الى مجىء الداخل فتقررت القواعد السلطانية وعلت الكلمة الايمانية كما نسرده هنا ان شاء الله تعالى (وذكر غير واحد) منهم ابن حزم أن دولة بنى أمية بالاندلس كانت أنبل دول الاسلام وأنكاها فى العدو وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه كما سترى بعضه (وأصل هذه الدولة) كما قال ابن خلدون وغير واحد أن بنى أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وقتل عبد الله بن على مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة وتتبع بنى مروان بالقتل فطلبوا بطن الارض من بعد ظهرها وكان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وكان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مسلمة بن عبد الملك وكان هو قد سمعها منه مشافهة فكان يحدث نفسه بذلك فخلص الى المغرب ونزل على اخواله نفزة من برابرة طرابلس وشعر به عبد الرحمن بن حبيب وكان قد قتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما دخلا افريقية فلحق بمغيلة وقيل بمكناسة وقيل بقوم من زناتة فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بمليلة وبعث بدرا مولاه الى من بالاندلس من موالى المروانيين وأشياعهم فاجتمع بهم وبثوا له فى الاندلس دعوة ونشروا له ذكرا ووافق قدومه ما كان من الاحن بين اليمنية والمضرية فاصفقت اليمنية على أمره لكون الامر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى وصاحبه الصميل ورجع بدر مولاه اليه بالخبر فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة فى خلافة أبى جعفر المنصور ونزل بساحل

المنكب وأتاه قوم من أهل اشبيلية فبايعوه ثم انتقل الى كورة رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور ثم الى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ثم الى مورور فبايعه ابن الصباح ونهد الى قرطبة فاجتمعت اليه اليمنية ونمى خبره الى والى الاندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى وكان غازيا بجليقية فانفض عسكره ورجع الى قرطبة وأشار عليه وزيره الصميل بن حاتم بالتلطف له والمكر به لكونه صغير السن حديث عهد بنعمة فلم يتم ما أراده وارتحل عبد الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جند هاثم برندة ثم بشريش كذلك ثم باشبيلية فتوافت اليه جنود الامصار وتسايلت المضرية اليه حتى اذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الصميل منه زحف حينئذ عبد الرحمن الداخل وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجأ الى غرناطة فتحصن بها واتبعه الامير عبد الرحمن فنازله ثم رغب اليه يوسف فى الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة ثم أقفله معه ثم نقض يوسف عهده وخرج سنة احدى وأربعين ومائة ولحق بطليطلة واجتمع اليه زهاء عشرين ألفا من البربر وقدم الامير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني وكان وفد عليه من المشرق وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم فى كفالة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فلما دخلت المسودة أرض مصر خرج عبد الملك يؤم الاندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين فعقد له على اشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور وسار يوسف اليهما وخرجا اليه ولقياه وتناجز الفريقان فكانت الدائرة على يوسف وأبعد المفر واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة واحتز رأسه وتقدم به الى الامير عبد الرحمن فاستقام أمره واستقر بقرطبة وثبت قدمه فى الملك وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه وبنى مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالاندلس وأثل بها الملك العظيم لبنى مروان والسلطان العزيز وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها واستلحم الثوار عليه على كثرتهم فى النواحى وقطع دعوة آل العباس من منابر الاندلس وسد المذاهب منهم دونها وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل لانه أول داخل من ملوك بنى مروان الى الاندلس وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر قريش لما رأى انه فعل بالاندلس ما فعل وما ركب اليها من الاخطار وأنه نهد اليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا انصار فغلب أهلها على أمرهم وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم حتى انقاد له الامر وجرى على اختياره وأورثه عقبه * وكان يسمى بالامير وعليه جرى بنوه من بعده فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة مقر الاسلام ومنتدى العرب حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر وهو ثامن بنى أمية بالاندلس فتسمى بأمير المؤمنين على ما سنذكره لما رأى من ضعف خلفاء بنى العباس بعد الثلثمائة وغلبة الاعاجم عليهم وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم وتوارث التلقيب بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحدا بعد واحد (قال ابن حيان) وكان لبنى عبد الرحمن الداخل بالعدوة الاندلسية ملك ضخم ودولة متسعة اتصلت الى ما بعد المائة اربعة

وعند ماشغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوى أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم وعمد فرويلة بن ادفونش ملكهم الى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وقشتالة وشقوبية وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور ابن أبي عامر آخر الدولة ثم استعادوها بعده فيما استعادوا من بلاد الاندلس واستولوا على جميعها حسبما نذكره ان شاء الله سبحانه الامر انتهى وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الافرنج وكان من طغاة الافرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكسر تام الرجولية فمال معه الى المداراة ودعاه الى المصاهرة والسلم فاجابه للسلم ولم تتم المصاهرة قال ابن حيان ولما ألقى الداخل الاندلس ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك عاطلا أرهف أهلها بالطاعة السلطانيه وحنكهم بالسيرة الملوكيه وآخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءه وأقامهم على الطريقه وبدأ فدون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطيه وعقد الألويه وجند الاجناد ورفع العماد وأوثق الاوتاد فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ولم يلبث أن دانت له بلاد الاندلس واستقل له الامر فيها فلذلك ما طل عدوه أبو جعفر المنصور بصدق حسه وبعد غوره وسعة احاطته يسترجح عبد الرحمن كثيرا ويعدله بنفسه ويكثر ذكره ويقول لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه فالشان في أمر فتى قريش الاحوذى الفذ في جميع شؤنه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته قاهرا لاعدائه حاميا لذماره مانعا لحوزته خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه وجعل ابن حيان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لابي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصرامة والاجتراء على الكبائر والقساوة فان أم كل واحد منهما بربرية وكان الداخل يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل اليه من أراده من الناس فيصل الضعيف منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه *(وفي كتاب ابن زيدون) انه كان أصهب خفيف العارضين بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان أعور أخشم والاخشم الذى لا يشم وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرب وقطع البر والبحر وأقام ملكا قد أدبر وحده ولما ذكر الحجارى انه أعور قال ما أنشد فيه الاقول امرئ القيس

لكن عويروفى بذمته * لا عور شانه ولا قصر

(وقال ابن خلدون) وفي سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من افريقية الى الاندلس ونزل بباجة الاندلس داعيا لابي جعفر المنصور واجتمع اليه خلق فسار عبد

الرحمن اليه واقيه بنواحى اشبيلية فقاتله أياما ثم انهزم العلاء وقتل فى سبعة آلاف من أصحابه وبعث عبد الرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة فألقيت فى أسواقها سرا ومعها اللواء الاسود وكتاب المنصور للعلاء فارتاع المنصور لذلك وقال ماهذا الا شيطان والحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر أو كلاما هذا معناه وقد مر ذكر ذلك وكثرت ثورة رؤساء العرب بالاندلس على عبد الرحمن الداخل ونافسوه ملكه ولاقى منهم خطوبا عظيمة وكانت العاقبة له واستراب فى آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم فرجع الى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالى ثم غزا بلاد الافرنج والبشكنس ومن وراءهم ورجع بالظفر وكان فى نيته أن يجدد دولة بنى مروان بالمشرق فمات دون ذلك الأمل وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر اذ دخل الاندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة ومات سنة اثنتين وسبعين وقيل احدى وسبعين ومائة فى خلافة الرشيد وأمه أم ولد بربرية اسمها راح ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة بدير حنا من أرض دمشق وقيل بالعلياء من تدمر ومات أبوه فى أيام أبيه هشام سنة ثمان عشرة عن احدى وعشرين سنة وكفله واخوته جدهم هشام ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الاخماس التى اجتمعت للخلفاء بالاندلس وأقطعه اياها ووجه لحيازتها من الشام سعيد بن أبى ليلى وقيل انه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة بدر مولى أبيه وأبو شجاع وزياد وعمرو وقيل ان بدرا لحقه ولم يخرج معه فالله أعلم وخلف من الولد عشرين منهم احد عشر رجلا وتسع اناث *(وحكى غير واحد) انه لما هرب من الشام الى افريقية قاصدا الاندلس نزل بمغيلة فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكنى أبا قرة فاستتر عنده وقتا ولحق به بدر مولى أبيه بجوهر وذهب انفذته اخته اليه فلما دخل الاندلس واستتب أمره به سار اليه أبو قرة وانسوس البربرى فأحسن اليه وحظى عنده وأكرم زوجته تكفات البربرية التى خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه فقال لها عبد الرحمن مداعبا حين استطالت بطاله فى الاندلس لقد عذبتنى بريح ابطيك يا تكفات على ما كان بى من الخوف وسطعتنى بأنتن من ريح الجيف فكان جوابها له مسرعة بل ذلك كان والله ياسيدى منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك فاستظرف جوابها وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك وهذا من آفات المزاح * ومن محاسنه انه أدار السور بقرطبة رحمه الله (وتولى الملك بعده ابنه هشام بعهد منه اليه) وأمه أم ولد اسمها حلال وأفضى اليه الملك وهو بماردة وال عليها وكان أبوه يوليه فى صباه ويرشحه للامر وكان الداخل كثيرا ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام فيذكر له ان هشاما اذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكرا لامور الحرب ومواقف الابطال وما أشبه ذلك واذا حضر سليمان مجلسا امتلأ سخفا وهذيانا فيكبر هشام فى عينه بمقدار ما يصغر سليمان وقال يوما لهشام لمن هذا الشعر

وتعرف فيه من أبيه شمائلا * ومن خاله أو من يزيد ومن حجر

سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا * ونائل ذا اذا صحا واذا سكر

فقال له ياسيدى لامرئ القيس ملك كندة وكأنه قاله فى الامير أعزه الله فضمه اليه استحسانا

عاسح

بما سمع منه وأمر له باحسان كثير وزاد فى عينه ثم قال لسليمان على انفراد لمن هذا الشعر وأنشده البيتين فقال لعلهما لاحد أجلاف العرب أمالى شغل غير حفظ أقوال بعض الاعراب فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية * ولما ولى هشام أشخص المنجم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء الى قرطبة وكان فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقا واصابة فلما أتاه خلا به وقال له ياضبي لست أشك أنه قد عنالك من أمرنا اذ بلغك مالم تدع تحديد النظر فيه فأنشدك الله الا ما نبأتنا بما ظهر لك فيه فلجلج وقال اعفنى أيها الامير فانى ألممت به ولم أحقق النظر فيه لجلالته فى نفسى فقال له قد أجلتك لذلك فتفرغ للنظر فيما بقى عليك منه ثم أحضره بعد أيام فقال ان الذى سألتك عنه جدّ منى مع انى والله ما أثق بحقيقته اذ كان من غيب الله الذى استأثر به ولكنى أحب أن أسمع ما عندك فيه فالنفس طلعة وألزمه الصلة أو العقوبة فقال اعلم أيها الامير انه سوف يستقر ملكك سعيدا جدك قاهرا لمن عاداك الا ان مدتك فيه فيما دل عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال ياضبي ما أخوفنى أن يكون النذير كلمنى بلسانك والله لو أن هذه المدة كانت فى سجدة لله تعالى لقلت طاعة له ووصله وخلع عليه وزهد فى الدنيا ولزم أفعال الخير والبر (ومن حكاياته فى الجود) انه كان قاعد الراحته فى علية على النهر فى حياة والده فنظر الى رجل من قدماء صنائعه من أهل جيان قد أقبل بوضع السير فى الهاجرة فأنكر ذلك وقدر شرا وقع به من قبل أخيه سليمان وكان واليا على جيان فأمر بادخاله عليه فقال له مهيم يا كنانى فلأمر ما وما أحسبك الا مزعجا الشئ دهمك فقال نعم ياسيدى قتل رجل من قومى رجلا خطأ فحملت الدية على العاقلة فأخذ بها من كانة عامة وحملنا على من بينهم خاصة وقصدنى أخوك بالاعتداء اذ عرف مكانى منك فمد هشام يده الى جارية كانت وراء الستر وقطع قلادة عقد نفيس كان فى نحرها وقال له دونك هذا العقد يا كنانى وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار فلا تخدعنّ عنه وبعه وأدّ عن نفسك وعن قومك ولا تمكن الرجل من اهتضامك فقال ياسيدى لم آتك مستجديا ولا لضيق المال عما حملته ولكنى لما اعتمدت بظلم صراح أحببت أن يظهر على عز نصرك وأثر ذلك وامتعاضك فأعتد بذلك عند من يحسدنى على الانتماء اليك فقال هشام فما وجه ذلك فقال ان تكتب الى أخيك فى الامساك عنى والقيام بذمتك لى فقال امسك العقد وركب من حينه الى والده الداخل واستأذن عليه فى وقت أنكره فانزعج وقال ما أتى بأبى الوليد فى هذا الوقت الا أمر مقلق انذنوا له فلما دخل سلم عليه ومثل قائما بين يديه فقال له اجلس ياهشام فقال اصلح الله الامير سيدى وكيف جلوسى بهم وذل مزعج وحق لمن قام مقامى أن لا يجلس الا مطمئنا ولن يقعدنى الا طيب نفسى باسعاف الامير لحاجتى والا رجعت على عقبى فقال له حاشاك من انقلابك خائبا فاقعد مجابا مشفعا فجلس فقال له أبوه فما الحدث المقلق فأعلمه فأمر بحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال فسر هشام وأطنب فى الشكر وكتب الامير الى ولده سليمان فى ترك التعرض لهذا الكنانى بما لم يدر فى خلده * ولما دخل الكنانى لوداع هشام قال له ياسيدى قد تجاوزت بك حد الامنية

وبلغت غاية النصر وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدى العناية الكريمة فتعيده الى صاحبته فأبى من ذلك وقال لا سبيل الى رجوعه الينا * وكان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وانصف منه ولم يستعمله بعد ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا وفى أيامه فتحت اربونة الشهيرة واشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها الى باب قصره بقرطبة وبنى منه المسجد الذى قدام باب الجنان وفضلت منه فضلة بقيت مكومة وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروبا ثم كانت الدائرة له وقصد الى بلاد الحرب غازيا وقصد ألبة والقلاع فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين وبعث العساكر الى جليقية مع يوسف بن بخت فلقى ملكها ابن منده وهزمه وأثخن فى العدو وفى سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبة والقلاع فأثخن فى نواحيها ثم بعثه فى العساكر سنة سبع وسبعين الى اربونة وجريدة فأثخن فيها ووطئ أرض برطانية وتوغل عبد الملك فى بلاد الكفار وهزمهم ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد الى بلاد جليقية فانتهى الى استرقه فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع ادراجه واتبعه عبد الملك وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأثخنوا فى البلاد واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشئ ثم خرجوا سالمين ظافرين * ومن محاسنه انه جدد القنطرة التى يضرب بها المثل بقرطبة كما سبق وكان بناها السمح الخولانى عامل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فأحكم هشام بناءها الى الغاية وقال يوما لاحد وزرائه ما يقول أهل قرطبة فقال يقولون ما بناها الامير الا ليمضى عليها الى صيده وقنصه فآلى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها فلم يمر عليها بعد ووفى بما حلف عليه ثم توفى سنة ثمانين ومائة لسبع سنين وتسعة أشهر من امارته وقيل اثمان وكان من أهل الخير والصلاح كثير الغزو والجهاد * ومن محاسنه أيضا اكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع فيه * ومن محاسنه انه أخرج المصدق لاخذ الزكاة على الكتاب والسنة رحمه الله وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وولد فى شوال سنة ١٣٧ (وولى بعده ابنه الحكم بعهد منه اليه) فاستكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفحل ملكه وباشر الامور بنفسه وفى خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدو الكافر الفرصة فى بلاد المسلمين وقصد برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين وتأخرت عساكر المسلمين الى ما دونها وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الجلالقة فأثخنوا فيها وخالفهم العدو الى المضايق فرجع على التعبية وظفر بهم وخرج الى بلاد الاسلام ظافرا وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لانه فى صدر ولايته كان قد انهمك فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل

يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربي من قرطبة وكان محله متصلا بقصره فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالاسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم الى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها الى أن ملكها الافرنج من أيديهم بعد مدة * وكانت في أيام الحكم حروب وفتن مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم (وفي سنة ثنتين وتسعين) جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وصار الى حصار طرسونة فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه وفتح الله على المسلمين وعاد ظافرا ولما كثر عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه الى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي وأثخن في القتل والسبي والنهب وعاد الى قرطبة ظافرا * (وفي سنة مائتين) بعث العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الافرنج فخرب وهدم عدة حصون وأقبل عليه ألبطالك الجلالقة في جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه اياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الامطار ومد النهر وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين وهو أول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان أفحل بني امية بالاندلس وأشدهم اقداما ونجدة وكان يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعداء وكان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن وحضر يوما عنده وقد غضب على خادم له لايصاله اليه كتابا كره وصوله فأمر بقطع يده فقال له زياد أصلح الله الامير فان مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه أن من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملأه الله تعالى أمنا وايمانا يوم القيامة فأمر أن يمسك عن الخادم ويعفى عنه فسكن غضبه وقال آلله ان مالكا حدثك بهذا فقال زياد آلله ان مالكا حدثني بهذا وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة فاكثر فيها مواساة أهل الحاجات وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري فيه

نكد الزمان فآمنت ايامه * من ان يكون بعصره عسر

ظلع الزمان بأزمة فجلت له * تلك الكريهة جوده الغمر

وكان نقش خاتمه بالله يثق الحكم وبه يعتصم * وذكور ولده عشرون واناثهم عشرون وامه جارية اسمها زخرف وكان أسمر طوالا أشم نحيفا ومدة ملكه ست وعشرون سنة سامحه الله * وقال غير واحد انه اول من جعل للملك بأرض الاندلس أبهة واستعد بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ومولده سنة ١٥٤ * وقال ابن خلدون وغير واحد انه اول من جند بالاندلس الاجناد والمرتزقة وجمع الاسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشي والحشم وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وحكى في عدتهم ما تقدم ثم قال وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس وكان يباشر الامور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذي وطأ الملك لعقبه

بالاندلس انتهى وكان له فيما حكى غير واحد ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلي قصر يجمعها دارا ان وهو القائل لما قتل أهل الربض وهدم ديارهم وحرثها

رأيت صدوع الارض بالسيف راقعا * وقدما لا مت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة * أبادرها مستنضى السيف دارعا
تنبيك انى لم أكن فى قراعهم * بوان وقدما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت اذ وفيتهم صاع قرضهم * فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهذى بلادى انى قد تركتها * مهادا ولم أترك عليها منازعا

* وقال ابن حزم فى حقه انه كان من المجاهرين بالمعاصى السافكين للدماء ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء وقال غير واحد انه تنصل أخيرا وتاب سامحه الله ومن نظمه قوله متغزلا

قضب من البان ماست فوق كثبان * ولين عنى وقد أزمعن هجرانى

ومنها

من لى بمقتضبات الروح من بدنى * يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

وقيل انه كان يمسك أولاد الناس ويخصيهم ونقلت عنه امور ولعله تاب منها كما قدمنا والله أعلم بحقيقة أمره *(ومن بديع أخبار الحكم) أن العباس الشاعر توجه الى الثغر فلما نزل بوادى الحجارة سمع امرأة تقول واغوثاه بك ياحكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا فسألها عن شأنها فقالت كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت فصنع قصيدته التى اولها

تململت فى وادى الحجارة مسئدا * اراعى نجوما مايرون تغيرا
اليك اباالعاصى نضيت مطيتى * تسير بهم ساريا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة * فانك أحرى ان تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه فأنف ونادى فى الناس بالجهاد والاستعداد فخرج بعد ثلاث الى وادى الحجارة ومعه الشاعر وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض العدو كانت فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وأثخن فيها وفتح الحصون وخرب الديار وقتل عددا كثيرا وجاء الى وادى الحجارة فأمر باحضار المرأة وجميع من أسر له أحد فى تلك البلاد فأحضر فأمر بضرب رقاب الاسرى بحضرتها وقال للعباس سلها هل أغاثها الحكم فقالت المرأة وكانت نبيلة والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نصره فارتاح لقولها وبدا السرور فى وجهه وقال

ألم تر يا عباس أنى أجبتها * على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطارا وبردت غلة * ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال عباس نعم جزاك الله خيرا عن المسلمين وقبل يده * (ومما عيب به) انه قتل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مطر الغسانى وكان قدوة فى الدين والورع سمع من سفيان ومالك ابن أنس وروى عنه مالك وقال حدثنا يحيى بن مطر عن سفيان الثورى ان الطلح المنضود هو الموز وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم * (وقام بأمره من بعده

ابنه

ابنه عبد الرحمن بعهد منه اليه ثم لاخيه المغيرة بعده) فغزا عبد الرحمن لاول ولايته الى جليقية وأبعد وأطال المغيب وأثخن في أمم النصرانية هنالك ورجع وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغني من العراق وهو مولى المهدي ومتعلم ابراهيم الموصلي واسمه علي ابن نافع فركب بنفسه لتلقيه على ما حكاه ابن خلدون وبالغ في اكرامه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعة الغناء بالاندلس وخلف أولادا اخلفه كبيرهم عبد الرحمن في صناعته وحظوته * وفي سنة ثمان أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد الى ألبة والقلاع فخرب كثيرا من البلاد واتسفها وفتح كثيرا من حصونهم وصالح بعضها على الجزية واطلاق أسرى المسلمين وانصرف ظافرا * وفي سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد الله بن البلنسي في العساكر لغزو ألبة والقلاع فساروا ولقي العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبي ثم خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم بالثغر فسار اليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والاسر ثم سار الى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه ثم سار عبد الرحمن في الجيوش الى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم * وفي سنة ست وعشرين بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة وانتهوا الى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوهم وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود * وفي سنة تسع وعشرين بعث ابنه محمدا بالعساكر وتقدم الى بنبلونة فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى وفي ايامه ظهر المجوس ودخلوا اشبيلية فأرسل اليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد من قرطبة فنزل المجوس من مراكبهم وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مقام صعب ثم جاءت العساكر مددا من قرطبة فقاتلهم المجوس فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ورحل المجوس الى شدونة فأقاموا عليها يومين وغنموا بعض الشيء ووصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيلية فأقلع المجوس الى لبلة وأغاروا وسبوا ثم الى باجة ثم اشبونة ثم انقطع خبرهم حين اقلعوا من اشبونة وسكنت البلاد وذلك سنة ثلاثين وتقدم عبد الرحمن باصلاح ما خرب من البلاد واكتنف حاميتها * (وفي سنة احدى وثلاثين بعث العساكر الى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لان عرضه كان سبعة عشر ذراعا فثلموا فيه ثلمة ورجعوا ثم اغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم في العساكر الى بلاد برشلونة فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى البرت الى بلاد الفرنجة فدوخها قتلا وأسرا وسبيا وحاصر مدينتها العظمى جرندة وعاث في نواحيها وقفل وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم توفلس بعث الى الامير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم حتى انه ذكرهما له في كتابه له وعبر عنهما بابني مراحل ومارده فكافاه الامير عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهورا

في الشعر والحكمة فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند مناغيه من بني العباس ويعرف الامير عبد الرحمن بالاوسط لان الاول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر ثم توفي عبد الرحمن الاوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من امارته ومولده بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة وكان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت ايامه ايام هدء وسكون وكثرت الاموال عنده واتخذ القصور والمتنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وجعل لفضله مصنعا اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور وبنيت في ايامه الجوامع بكور الاندلس وزاد في جامع قرطبة رواقين ومات قبل أن يستتمه فأتمه ابنه محمد بعده وبني بالاندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة * وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور وخمسون من الاناث ونقش خاتمه عابد الرحمن بقضاء الله راض * وفي ذلك قيل

خاتم للملك أضحى * حكمه في الناس ماضي
عابد الرحمن فيه * بقضاء الله راضي

وهو أول من أحدث هذا النقش وبقي وراثة لمن بعده من ولده (قال ابن سعيد) وفي ايامه انتهى مال الجباية الى ألف ألف دينار في السنة وكان قبل لا يزيد على ستمائة ألف وقد ذكرنا في غير هذا الموضع ما يخالف هذا فليراجع والله أعلم ومن توقيعاته من لم يعرف وجه طلبه فالحرمان أولى به ومن شعر عبد الرحمن المذكور قوله

ولقد تعارض أوجه لاوامر * فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ ان يحو النهى بتجارب * فشباب رأى القوم عند شبابها

وفي زيادته في جامع قرطبة يقول ابن المثنى رحمه الله تعالى

بنيت لله خير بيت * يخرس عن وصفه الانام
حج اليه بكل أوب * كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه اذا ما * حف به الركن والمقام

وقال آخر

بنى مسجد الله لم يك مثله * ولا مثله لله في الارض مسجد
سوى ما بنى الرحمن والمسجد الذي * بناه نبي المسلمين محمد
له عمد حمر وخضر كأنما * تلوح يواقيت بها وزبرجد
ألا يا أمين الله لا زلت سالما * ولا زلت في كل الامور تسدد
فيا ليتنا نفديك من كل حادث * وأنك للدنيا وللدين تخلد

وكان كثير الميل للنساء وولع بجاريته طروب وكلف بها كلفا شديدا وهي التي بنى عليها الباب ببدر المال حين تجنت عليه وأعطاها حليا قيمته مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا وأكرم جوهرا وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا ما بدت لي شمس النهار * طالعة ذكرتني طروبا

انا ابن الميامين من غالب * أشب حروبا وأطفى حروبا

وخرج غازيا الى جليقية فطالت غيبته فكتب اليها

عدانى عنك مزار العدا * وقودى اليهم سهاما مصيبا
فكم قد تخطيت من سبسب * ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهى سموم الهجير * اذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله دين الهدى * فأحييته وأمت الصليبا
وسرت الى الشرك فى جحفل * ملأت الحزون به والسهوبا

(وساق) بعض المؤرخين قضية طروب هذه بقوله ان السلطان المذكور أغضبها فهجرته وصدت عنه وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك فأرسل من خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول اليه فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم وآلت أن لا تخرج اليهم طائعة ولو انتهى الامر الى القتل فانصرفوا اليه وأعلموه بقولها واستأذنوه فى كسر الباب عليها فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا فى المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر فى بيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور مع نصر الخصى فلا يرد شئ أمما تبرمه * وأحب أخرى اسمها مدثرة فأعتقها وتزوجها وأخرى كذلك اسمها الشفاء وأما جاريته قلم فكانت أديبة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للاخبار عالمة بضروب الادب وكان مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاته وله أخبار كثيرة رحمه الله * ولما مات ولى مكانه ابنه محمد فبعث لاول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب طليطلة فعاث فى نواحى ألبة والقلاع وفتح بعض حصونها ورجع وبعث عساكر أخرى الى نواحى برشلونة وما وراءها فعاثوا فيها وفتحوا حصونا من برشلونة ورجعوا * ولما استمد أهل طليطلة المخالفون من أهل بلاد الامير محمد عليه بملكى جليقية والبشكنس لقيهم الامير محمد على وادى سليطة وقد أكمن لهم فأوقع بهم وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفا * (وفى سنة خمس وأربعين) ظهرت مراكب المجوس وعاثوا فى الاندلس فلقيهم مراكب الامير محمد فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين واستشهد جماعة من المسلمين * (وفى سنة سبع وأربعين) اغزى محمد الى نواحى بنبلونة وصاحبها حينئذ غرسية ابن ونقة وكان يظاهر اردون بن أذفنش فعاث فى نواحى بنبلونة ورجع وقد دوخها وفتح كثيرا من حصونها وأسر فرتون ابن صاحبها فبقى أسيرا بقرطبة عشرين سنة ثم بعث سنة احدى وخمسين أخاه المنذر فى العساكر الى نواحى ألبة والقلاع فعاثوا فيها وجمع لذريق للقائهم فلقيهم وانهزم وأثخن المسلمون فى المشركين بالقتل والاسر فكان فتحا لا كفاء له * ثم غزا الامير محمد بنفسه سنة احدى وخمسين بلاد الجلالقة فأثخن وخرب * (وفى سنة ثلاث وستين) اغزى الامير محمد ابنه المنذر الى دار الحرب وفى السنة التى بعدها الى بلاد بنبلونة فدوخها ورجع * وفى سنة ثمان وستين أغزاه أيضا الى دار الحرب فعاث

فى نواحيها وفتح حصونا * وفى ايام الامير محمد خربت ماردة وهدمت ولم يبق لها أثر * وذكر بعضهم انه رأى بالمشرق هذه الابيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام ولم يعلم قائلها وذلك سنة ٢٥٤

ويل لماردة التى مردت * وتكبرت عن عدوة النهر
كانت ترى لهم بها زهر * نخلت من الزهرات كالقفر
فالويل ثم الويح حين غزا * بجميعهم من صاحب الامر

ثم توفى الامير محمد فى شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين لخمس وثلاثين سنة من امارته ومولده سنة سبع ومائتين * وولى بعده ابنه المنذر ولم تطل مدته وأقام فى الملك سنتين الانصف شهر وتوفى منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين وفيه قيل

بالمنذر بن محمد * صلحت بلاد الاندلس

ثم ولى أخوه عبد الله قال ابن خلدون كان خراج الاندلس قبله ثلثمائة ألف دينار مائة ألف للجيوش ومائة ألف للنفقة فى النوائب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفر فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحى الاندلس بالثوار والمتغلبين فى تلك السنين وقل الخراج انتهى * ومن نظم الامير عبد الله قوله

يا مهجة المشتاق ما أوجعك * ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها * بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به * فى مجلس يخفى على من معك
كم حاجة انجزت ابرازها * تبارك الرحمن ما أطوعك

وهذه الابيات عنوان فضله وبراعة استهلال نبله * وكان الوزراء يطالعون بآرائهم الخليفة فى بطاقة فطالعه وزيره النضر بن سلمة برأيه فى أمر فى ورقة فلما وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأى فكتب

أنت يا نضر آبده * ليس ترجى لفائده
انما أنت عدة * لكنيف ومائده

وتوفى الامير عبد الله سنة ثلثمائة ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة * وولى حافده عبد الرحمن الناصر ابن ابنه محمد قتيل أخيه المطرف وكانت ولايته من الغريب لانه كان شابا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى اليها واحتازها دونهم ووجد الاندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين فأطفأ تلك النيران واستنزل أهل العصيان واستقامت له الاندلس فى سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من ايامه ودامت ايامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بنى امية بتلك الناحية وهو أول من تسمى منهم بالاندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالى الترك على بنى العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة فتلقب بألقاب الخلافة وكان كثيرا لجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين ومحص الله فيها المسلمين فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردد الطوائف فى كل

سنة

سنة فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطؤه قبل فى ايام سلفه ومدت اليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن فى مرضاته ووصل الى سدته الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ثم سما الى ملك العدوة فتناول سبتة ونقل الفرضة من ايدى أهلها سنة سبع عشرة وثلثمائة وأطاعه بنو ادريس امراء العدوة وملوك زناتة والبربر وأجاز اليه الكثير منهم كما يعلم من اجناده وبدأ أمره اول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا انتهى كلام ابن خلدون وفيه يقول ابن عبد ربه صاحب العقد يوم تولى الملك

بدا الهلال جديدا * والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى * ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر * فانت للدهر عيد

وأراد بأول الابيات انه ولى مستهل ربيع الاول كما علم * وما أشار اليه ابن خلدون فى غزوة الخندق فصله المسعودى فقال بعد أن اجرى ذكر مخالفة امية بن اسحق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته اياهم على عورات المسلمين ما ملخصه وغزا عبد الرحمن صاحب الاندلس مسمورة دار الجلالقة وكان عبد الرحمن فى مائة ألف أو يزيدون وكانت الوقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالقة فى شوال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر بثلاثة ايام فكانت للمسلمين عليهم ثم ثابوا بعد أن حوصروا وألجئوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفا وقيل ان الذى منع ردمير من طلب من نجا من المسلمين امية بن اسحق وخوفه الكمين ورغبه فيما كان فى عسكر المسلمين من الاموال والعدة والخزائن ولولا ذلك لاتى على جميع المسلمين ثم ان امية استأمن بعد ذلك الى عبد الرحمن وتخلص من ردمير وقبله عبد الرحمن احسن قبول * وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكره مع عدة من قواده الى الجلالقة فكانت لهم بهم عدة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين فى الوقعة الاولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية وردمير ملك الجلالقة الى هذا الوقت وهو سنة ٣٢٦ انتهى * وقال فى موضع آخر ما ملخصه ان عبد الرحمن غزا فى أزيد من مائة ألف من الناس فنزل على دار مملكة الجلالقة وهى مدينة سمورة وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة وبين الاسوار فصلات وخنادق ومياه واسعة وافتتح منها سورين ثم ان أهلها ثابوا على المسلمين فقتلوا منهم من ادركه   وممن غرق أربعون ألفا وقيل خمسون ألفا وكانت للجلالقة والبشكنس على المسلمين انتهى كلام المسعودى * (رجع الى اخبار الناصر) فنقول ان الناصر رحمه الله كان له نظم ومما نسب اليه بعضهم قوله

لا يضر الصغير حدثان سن * انما الشان فى سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم * لم تنله بالركض كف مغير

قوله سنة ٣٢٦ لعله سنة ٣٢٩ لما أن تاريخ الوقعة الاولى كان سنة ٣٢٧ وليحرر اه مصححه

هكذا بياض بالاصل وليراجع اه

هدية ابن شهيد للناصر

هكذا ألفيت البيتين منسوبين اليه بخط بعض الاكابر ثم كتب بأثره مانصه الصحيح انهما لغيره والله أعلم انتهى * وكان الناصر رحمه الله قد استحجب موسى بن محمد بن حدير واستوزر عبد الملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد * وأهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الاصناف وقد ذكرها ابن حيان وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين قال ابن خلدون وهي مما يدل على ضخامة الدولة الاموية واتساع أحوالها وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة لثمان خلون من شهر جمادى الاولى وهي هدية عظيمة الشان واشتهر ذكرها الى الآن واتفق على انه لم يهاد أحد من ملوك الاندلس بمثلها وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا وأقروا أن نفسا لم تسمح باخراج مثلها ضربة عن يدها وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها فاستحسنها الناس وكتبوها وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا واسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا وأضعف له رزق الوزارة وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ولم معروفه الى ألف دينار وثنى له العطمة لتثنيته له الرزق فسماه ذا الوزارتين لذلك وكان اول من تسمى بذلك بالاندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد وأمر بتصدير فراشه في البيت وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق اول التسمية فعظم مقداره في الدولة جدا * وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على مايفسر خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر وصارفة خمسة وأربعون ألف دينار من سبائك الفضة في مائتي بدرة * واقتصر ابن الفرضي على خمسمائة ألف دينار فقط واثنا عشر رطلا من العود الهندي الذي يختم عليه كالشمع ومائة وثمانون رطلا من العود المتخير ومائة رطل من العود الشبه المنتقى هكذا ذكره ابن خلدون * وقال ابن الفرضي مستندا الى الكتاب الذي وجهه ابن شهيد مع الهدية ان العود العالي من ذلك أربعمائة رطل منها قطعة واحدة مائة وثمانون رطلا * وقال ابن خلدون ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه انتهى * وقال ابن الفرضي نقلا عن الكتاب المصحوب مع الهدية ان المسك مائتا أوقية واثنتا عشرة أوقية ومن العنبر الاشهب الباقي على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية منها قطعة عجيبة ملاءمة الشكل وزن مائة أوقية هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي ابن الفرضي ان الكل مائة أوقية وأن هذه القطعة أربعون أوقية ومن الكافور المرتفع النقي الذكي ثلثمائة أوقية * قال ابن خلدون ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الالوان والصنائع وعشرة أفرية من عالي جلود الفنك الخراسانية * وخالفه ابن الفرضي اذقال ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة وخز خاصية للباسه بيضاء وملونة وخمس ظهائر شعيبية خاصية له وعشرة فراء من عالي الفنك منها سبعة بيض خراسانية وثلاث ملونة وستة مطارف عراقية خاصية له وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ومائة ملحفة زهرية لرقاده ولم يذكر ابن خلدون ذلك وابن الفرضي أعرف لاسيما وقد استند الى كتاب المهدي وصاحب البيت ادرى * قال ابن خلدون وعشرة قناطير سمور وقاله ابن الفرضي أيضا وزاد ابن خلدون

وستة

وستة من السرادقات العراقية وثمانية وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب ثم قالا معا وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال وزاد ابن خلدون وثلاثون شقة من الفربون لسروج الهبات وزاد ابن الفرضي في الحرير المذكور قيل انه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت به مع الهدية واعاد فعه لصاحب الطراز وأثبته في الدفتر قالا وثلاثون بساطا من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعا وقال ابن خلدون منتقاة مختلفة الالوان قالا ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة زاد ابن الفرضي الصناعات من جنس البسط قالا وخمسة عشر نوخاما من عمل الخز المقطوع شطرها قال ابن الفرضي وسائرها من جنس البسط قال ابن خلدون ومن السلاح والعدة ثمانمائة من التجافيف المزينة ايام البروز والمواكب وقال ابن الفرضي مائة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها قالا وألف ترس سلطانية ومائة ألف سهم زاد ابن خلدون من النبال البارعة الصنعة قال ابن خلدون ومن الظهر خمسة عشر فرسا من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت وقال ابن الفرضي ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العراب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرسا وخمس من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة بمجالس سروجها خز عراقي وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم وقال ابن خلدون مائة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات وقال ابن الفرضي وخمسة أبغل عالية الركاب وقال ابن خلدون وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية بمجالس سروجها خز جعفري عراقي قال ومن الرقيق أربعون وصيفا وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم وقال ابن خلدون في الجواري متخيرات بكسوتهن وزينتهن وقال ابن خلدون ومن سائر الاصناف قرية تغل آلافا من امداد الزرع ومن الصخر للبنيان ما انفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصله وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار انتهى وقال ابن الفرضي نقلا عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عند ماذكر الرقيق ما صورته وكان قد اوفى أيده الله بابتياعهم من مال الاخماس فابتعتهم من نعمته عندي وصيرتهم من بعثي ومع ذلك عشر قناطير سكر طبرزذ لا محاق فيه وفي آخر الكتاب ولما علمت تطلع مولاي أيده الله تعالى الى قرية كذا بالقنبانية المقطعة الغرس شرفها وترداده أيده الله تعالى لذكرها لم أهنا بعيش حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها وأكتبت وكيلك ابن بقية الوثيقة فيها باسمه وضمها الى ضياعه وكذلك صنعت في قرية شبرة من نظر جيان عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلعه اليها فما زلت اتصدى لمسرته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقية وصار في يده له أبقاه الله سبحانه وأرجو انه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف أمداد من الاطعمة ان شاء الله تعالى ولما علمت نافذ عزمه أبقاه الله تعالى في البنيان وكلفه به وفكرت في عدد الاماكن التي تطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره في بنيانها

مد الله تعالى فى عمره وأوفى بها على أقصى أمله علمت أن اسه وقوامه الصخر والاستكثار منه فأثارت لى همتى ونصيحتى حكمة حيلة أحكمها سعدك وجدك الاذان بمشان مالا يتوهم عليه حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عددما كان يقوم على يدى عبدك ابن عاصم فى عشرين عاما وينتهى تحصيل النفقة فيه الى نحو الثمانين ألفا اجحل شانه فى عام سوى التوفير العظيم الذى بيديه العيان قبلا ان شاء الله تعالى وكذلك ما ناب الى فى أمر الخشب لهذه المنية المكرمة فان ابن خليل عبدك المجتهد الدؤب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج اليه ثلثمائة ألف عود وينف على عشرين ألف عود على انه لا يدخل منه فى السنة الانحو الالفى عود ففتح لى سعدك رأيا اقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجلبة لوقتها وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا والستين ألفا انتهى * ومن غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر المذكور أنه أراد الفصد فقعد بالبهو فى المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو اذ أطل زرزور فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها الفاصد رفقا * بأمير المؤمنينا

انما تفصد عرقا * فيه محيي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف وسر به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة ام ولده ولى عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لذلك الامر فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار * وذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك الوزير أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال لابن شهيد أنى لك هذا قال هو من عند الله فقال له الناصر تتحفونا بالنجوم وتستأثرون بالقمر فاستعذر واحتفل فى هدية بعثها مع الغلام وقال يا بنى كن مع جملة ما بعثت به ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسى وكتب معه بهذه الابيات

أمولاى هذا البدر سار لافقكم * وللافق أولى بالبدور من الارض

أرضيكم بالنفس وهى نفيسة * ولم أر قبلى من بمهجته يرضى

فحسن ذلك عند الناصر وأتحفه بمال جزيل وتمكنت عنده مكانته ثم انه بعد ذلك اهديت اليه جارية من أجمل نساء الدنيا فخاف أن ينتهى ذلك الى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام فاحتفل فى هدية أعظم من الاولى وبعثها معها وكتب له

أمولاى هذى الشمس والبدر أولا * تقدم كيما يلتقى القمران

قران لعمرى بالسعادة قد أتى * فدم منهما فى كوثر وجنان

فمالهما والله فى الحسن ثالث * ومالك فى ملك البرية ثانى

فتضاعفت مكانته عنده ثم ان أحد الوشاة رفع للملك أنه بقى فى نفسه من الغلام حرارة وأنه لا يزال يذكره حين تحركه الشمول ويقرع السن على تعذر الوصول فقال للواشى لا تحرك به لسانك والا طار راسك وأعمل الناصر حيلة فى أن كتب على لسان الغلام

رقعة منها يامولاى تعلم انك كنت لى على انفرادى ولم أزل معك فى نعيم وانى وان كنت عند الخليفة مشاركك فى المنزلة محاذر ما يـد ومن سطوة الملك فتحيل فى استدعائى منه وبعثها مع غلام صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان وأن الملك لم يكلمه قط ان سأله عن ذلك فلما وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام وما تكلم به فى مجالس المدام فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفا

أمن بعد احكام التجارب ينبغى * لدى سقوط الطير فى غابة الاسد
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه * ولا جاهل ما يدّعيه أولوا الحسد
فان كنت روحى قد وهبتك طائعا * وكيف يردّ الروح ان فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد الى استماع واش به ودخل عليه بعد ذلك فقال له كيف خلصت من الشرك فقال لان عقلى بالهوى غير مشترك فأنعم عليه وزادت محبته عنده وممن ذكر هذه الحكاية صاحب مطالع البدور فى منازل السرور * وأخبار الناصر طويلة جدّا وقد منح الظفر على الثوّار واستنزلهم من معاقلهم حتى صفا له الوقت وكانت له فى جهاد العدوّ اليد البيضاء فمن غزواته انه غزا سنة ثمانية وثلثمائة الى جليقية وملكها أردون بن أدفونش فاستنجد بالبشكنس والافرنجة وظاهر شانجة بن فرويلة صاحب بنبلونة أمير البشكنس فهزمهم ووطئ بلادهم ودوّخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرّب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة ثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوّخ البسائط وفتح المعاقل وخرّب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدوّ يحاذيه فى الجبال والاوعار ولم يظفر منه بشئ ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوّار عليه وكان استمدّ بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم وبلغه انتقاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها فى بنبلونة ودوّخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون وقعد بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردّد البعوث والطوائف الى الجهاد وبعث جيوشه الى المغرب فملك سبتة وفاسا وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره كما سبق ولما هلك شانجة بن فرويلة ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أمه طوطة وكفلت ولده ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرّب نواحى بنبلونة وردّد عليها كامرّ الغزوات وكان قبل ذلك سنة ثنتين وعشرين غزا الى خشتمة ثم رحل الى بنبلونة فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبة وبسائطها فدوّخها وخرّب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردمير بن اردون فخام عن لقائه ودخل خشتمة فنازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيرا من معاقلهم وهزمهم مرارا ورجع ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة وهاشه امم النصرانية ثم وفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته وهو يومئذ قسطنطين واحتفل الناصر لقدومهم فى يوم مشهود قال ابن خلدون وركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح فى أكمل شكة وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور وحل السرير الخلافى

بمقاعد الابناء والاخوة والاعمام والقرابة ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم ودخل الرسل فهالهم ما رأوه وقرب بواحتى أدوا رسالتهم وأمر يومئذ الاعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه وذلة عدوه فاستعدوا لذلك ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا في القول فارتج عليهم وكان فيهم أبو علي القالي وافد العراق كان في جملة الحكم ولي العهد وندبه لذلك استئثارا فعجز فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجلى في ذلك القصد وأنشد شعرا طويلا ارتجله في ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع وأعجب به الناصر وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجالات العالم وأخباره مشهورة وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره ثم انصرف هؤلاء الرسل وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الاجابة ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين ثم جاء رسول من ملك الصقالبة وهو يومئذ دوقوة ورسول آخر من ملك الالمان ورسول آخر من ملك الافرنجة وراء البرت وهو يومئذ اوقة ورسول آخر من ملك الافرنجة بناصية المشرق وهو يومئذ كلدة واحتفل الناصر لقدومهم وبعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم دوقوة ورجع بعد سنتين *(وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردون يطلب السلم فعقد له ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردلند قومس قشتيلة في عهده فأذن له في ذلك وأدخل في عهده وكان غرسية ابن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ثم انتقض عليه أهل جليقية وولى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور ومال الى أردون بن ردمير وكان غرسية بن شانجة حافد الطوطة ملكة البشكنس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدومهم وعقد الصلح لشانجة وأمه وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه وخلع الجلالقة طاعة أردون اليه وبعث الى الناصر يشكره على فعلته وكتب الى الامم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة في نكثه ووثوبه ويعيره بذلك عند الامم ولم يزل الناصر على موالاته واعانته الى أن هلك ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالشرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغبا في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار ولنفصل بعض ما أجمله فنقول ذكر ابن حيان وغير واحد أن ملك الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشان وهادته الروم وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ولم تبق امة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الامم الا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى فانه هاداه ورغب في موادعته

وكان وصول ارساله فى صفر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة وتقدّم فى كلام ابن خلدون انها ست وثلاثون فالله أعلم أيهما أصح وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه وأحسن قبول وأكرمه وأخرج الى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة اسباب الطريق فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج الى لقائهم القوّاد فى العدد والعدّة والتعبية فتلقوهم قائدا بعد قائد وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن اخرج اليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسرا وتماما ابلاغا فى الاحتفال بهم فلقياهم بعد القوّاد فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واكرامه لان الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة لانهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطانى وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبة فى الربض ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ومن ملابسة الناس طرّا ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجوه الحشم فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لاربع دول لكل دولة أربع منهم ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه فقعد لهم يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول من السنة المذكورة فى بهو المجلس الزاهر قعودا حسنا نبيلا وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه الحكم ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الاصبغ ثم مروان وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان وتخلف عبد الملك لانه كان عليلا لم يطق الحضور وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم وقد بسط صحن الدار اجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا مكتوب بالذهب بالخط الاغريقى وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضا مكتوبة بفضة بخط اغريقى أيضا فيها وصف هديته التى ارسل بها وعددها وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملوّن البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم وفى سطر آخر العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاءه ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته وتقدّم الى الامير الحكم ابنه ولى عهده باعداد من يقوم بذلك من الخطباء ويقدّمه أمام نشيد الشعراء فأمر الحكم صنيعه الفقيه محمد بن عبد البرّ الكسنيانى بالتأهب لذلك واعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدى الخليفة وكان يدّعى من القدرة على تأليف الكلام ماليس فى وسع غيره وحضر المجلس السلطانى فلما قام يحاول التكلم بما

رأى حاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة فلم يهتد الى لفظة بل غشى عليه وسقط الى الارض فقيل لابى على البغدادى اسمعيل بن القاسم القالى صاحب الامالى والنوادر وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة قم فارقع هذا الوهى فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم هكذا ذكر ابن حيان وغيره وكلام ابن خلدون السابق يقتضى أن القالى هو المأمور بالكلام اولا والمعتذ لذلك ونحوه فى المطمح والخطب سهل ثم انقطع القول بالقالى فوقف ساكتا مفكرا فى كلام يدخل به الى ذكر ما اريد منه وقال فى المطمح ان أبا على القالى انقطع وبهت وما وصل الا قطع ووقف ساكتا متفكرا لا ناسيا ولا متذكرا فلما رأى ذلك منذر بن سعيد وكان ممن حضر فى زمرة الفقهاء قام من ذاته بدرجة من مرقاته فوصل افتتاح أبى على لاول خطبته بكلام عجيب ونادى من الاحسان فى ذلك المقام كل مجيب يسحه سحا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة وبدأ من المكان الذى انتهى اليه أبو على البغدادى فقال أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه فان لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقال وليس بعد الحق الا الضلال وانى قد قمت فى مقام كريم بين يدى ملك عظيم فاصغوا الى معشر الملا بأسماعكم وأتقنوا عنى بأفئدتكم ان من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت وان الجليل تعالى فى سمائه وتقدس بصفاته وأسمائه أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة وانى أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم وأمنت سربكم ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلا فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم وأسند اليه امامتكم ايام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهد كنف العافية بعد استيطان البلاء أنشدكم بالله معاشر الملا ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها والسبل مخوفة فأمنها والاموال منتهبة فأحرزها وحصنها ألم تكن البلاد خرابا فعمرها وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بامامته حتى اذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك الى القواد والاجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والاولاد واعتزل النسوان وهجر الاوطان ورفض الدعة وهى محبوبة وترك الركون الى الراحة وهى مطلوبة بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة وريح هابة غالبة ونصرة من الله واقعة واجبة وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور تحت عدل مشهور متحملا للنصب مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب حتى لانت الاحوال بعد شدتها وانكسرت

شوكة

شوكة الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب الا جبه ولا نجم لاهلها قرن الا جذه فأصبحتم بنعمة الله اخوانا وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا حتى تواترت لديكم الفتوحات وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الاقصين والادنين مستخدمة اليه واليكم يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق لاخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ليقضي الله أمرا كان مفعولا ولن يخلف الله وعده ولهذا الامر ما بعده وتلك اسباب ظاهرة باديه تدل على امور باطنة خافيه دليلها قائم وجفنها غير نائم وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ولكل نبا مستقر ولكل أجل كتاب فاحمدوا الله ايها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمائه فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد وألهمه خالص التوفيق الى سبيل الرشاد احسن الناس حالا وأنعمهم بالا وأعزهم قرارا وأمنعهم دارا وأكثفهم جمعا وأجملهم صنعا لا تهاجون ولا تذادون وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لامامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم فان من نزع يدا من الطاعه وسعى في تفريق الجماعه ومرق من الدين فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الاموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود وبها وصلت الارحام ووضحت الاحكام وبها سد الله الخلل وأمن السبل ووطأ الاكناف ورفع الاختلاف وبها طاب لكم القرار واطمأنت بكم الدار فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فانه تبارك وتعالى يقول أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم الآية وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم وتفريق ملاكم الآخذين في مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين مستغفرا الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين * وساق ابن سعيد في المغرب هذه الحكاية فقال ما صورته منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة خطيب مصقع وله كتب مؤلفة في القران والسنة والورع والرد على أهل الاهواء والبدع شاعر بليغ ولد سنة خمس وستين ومائتين وأول سببه في التعلق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لذكر جلالة مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة ورمي ملوك الامم بسهام بأسه ونجدته وتقدم الى الامير الحكم ابنه وولي عهده باعداد من يقوم لذلك من الخطباء ويقدمه أمام انشاد الشعراء فتقدم الحكم الى أبي علي البغدادي ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة أن يقوم فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم انقطع وبهت فما وصل ولا قطع ووقف ساكتا

مفكرا فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام فانما بدرجة من مرقاة أبي علي ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة وملأ الاسماع جلالة ثم ذكر الخطبة كما سبق وقال بعد ايرادها ما صورته فصاب العلج وغلب على قلبه وقال هذا كبير القوم أو كبش القوم وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه وكان الناصر أشدهم تعجبا منه وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته فسأله عنه فقال له هذا منذر بن سعيد البلوطي فقال والله لقد احسن ما شاء ولئن أخرني الله بعد لارفعن من ذكره فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه وذكرني بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه ثم ولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولاه قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة بالزهراء * ومن شعره في هذه الواقعة قوله

مقالي كحد السيف وسط المحافل * فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتمي جمراته * كبارق رعد عند رعش الانامل
فما دحضت رجلي ولا زل مقولي * ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولي عيون اخالها * كمثل سهام أثبتت في المقاتل
لخير امام كان أو هو كائن * لمقتبل أو في العصور الاوائل
ترى الناس أفواجا يؤمون بابه * وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه * مخافة باس أو رجاء لنائل
فعش سالما اقصى حياة مؤملا * فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب * الى درب قسطنطين أو أرض بابل

انتهى كلام ابن سعيد وهو يؤيد كلام ابن خلدون أن المأمور بالخطبة هو القالي وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه لقد أحسن ما شاء فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهي فانه لبديع من قدرته واحتياطه ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فانه لاعجب وأغرب قال ابن سعيد ولما فرغ منذر من خطبته أنشد

هذا المقام الذي ما عابه فند * لكن قائله ازرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا * لكنني منهم فاغتالني النكد

ويروى بدل هذا الشطر ولا دهاني لهم بغي ولا حسد

لولا الخلافة ابقى الله حرمتها * ما كنت ارضى بارض ما بها أحد

انتهى قلت كأنه عرض بأبي علي القالي وتقديمهم اياه في هذا المقام والله أعلم
ومن نظم منذر بن سعيد قوله

الموت حوض وكلنا نرد * لم ينج مما يخافه أحد
فلا تكن مغرما برزق غد * فلست تدري بما يجيء غد
وخذ من الدهر ما أتاك به * ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تذعه فما * في الناس الا التشنيع والحسد

وله وقد اذاه شخص نخاطبه بالكنية فقيل له أيؤذيك وأنت تخاطبه بالكنية فقال

لا تعجبوا من أنني كنيته * من بعد ما قد سبنا وأذانا
فالله قد كنى أبا لهب وما * كناه الا خزية وهوانا

وقال في المطمح منذر بن سعيد البلوطي آية حركة وسكون وبركة لم تكن معدة ولا تكون وآية سفاهة في حلم وجهامة وورع في طي تبسم اذا جد وجد واذا هزل نزل وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب ولا اكتسب اثما ولا احتقب ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن ناهيك من عدل أظهر ومن فضل أشهر ومن جور قبض ومن حق رفع ومن باطل خفض وكان مهيبا صليبا صارما غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لاحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم واستمر في القضاء الى أن مات الناصر لدين الله ثم ولي ابنه الحكم فأقره وفي خلافته استعفى مرارا فما أعفي وتوفي بعد ذلك لم يحفظ عنه مدة ولايته قضية جور ولا عدت عليه في حكومته زلة وكان غزير العلم كثير الادب متكلما بالحق متينا بالصدق له كتب مؤلفة في السنة والورع والرد على اهل الاهواء والبدع وكان خطيبا بليغا وشاعرا محسنا ولد عند ولاية المنذر بن محمد وتوفي سنة ٣٥٥ ومن شعره في الزهد قوله

كم تصابي وقد علاك المشيب * وتعامى عمدا وأنت اللبيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير * أن سيأتي الحمام منك قريب
يا سفيها قد حان منه رحيل * بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
ان للموت سكرة فارتقبها * لا يداوي اذا أتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهينا * ثم تأتيك دعوة فتجيب
بأمور المعاد أنت عليم * فاعملن جاهدا له يا أريب
وتذكر يوما تحاسب فيه * ان من يذكر فسوف ينيب
ليس من ساعة من الدهر الا * للمنايا بها عليك رقيب

ولعلنا نذكر شيأ من أحوال منذر في غير هذا الموضع (رجع لاخبار الناصر لدين الله) حكي انه لما أعذر لاولاد ابنه أبي مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس فتخلف من بينهم المشاور أبو ابراهيم وافتقد مكانه لارتفاع منزلته فسأل في ذلك الخليفة الناصر اذ أبو ابرهيم من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ووجد الناصر بسبب ذلك على أبي ابراهيم وأمر ابنه ولي العهد الحكم بالكتاب اليه والتفنيد له فكتب اليه الحكم رقعة نسختها بسم الله الرحمن الرحيم حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي أبقاه الله الاولياء الذين يستعدّ بهم وجدك متقدما في الولاية متأخرا عن الصلة على انه قد أنذرك أبقاه الله خصوصا للمشاركة في السرور والذي كان عنده لا أعدمه الله توالي المسرة ثم أنذرت من قبل ابلاغا في التكرمة فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة واستبلغ

أمير المؤمنين في انكاره ومعاتبتك عليه فأعيت عليك عنك الحجة فعرفني أكرمك الله ما العذر الذي أوجب توقفك عن اجابة دعوته ومشاهدة السرور الذي سرّ به ورغب المشاركة فيه لنعرفه أبقاه الله بذلك فتسكن نفسه العزيزة اليه ان شاء الله تعالى * فأجابه أبو ابراهيم سلام على الامير سيدي ورحمة الله قرأت أبقى الله الامير سيدي هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توقفي لنفسي انما كان لامير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه لعلمي بمذهبه وسكوني الى تقواه واقتفائه لاثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم فانهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها ولا بما يغض منها ويطرق الى تنقيصها يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم فلهذا تخلفت ولعلمي بمذهبه توقفت ان شاء الله تعالى فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبي ابراهيم اسحق أعجبه واستحسن اعتذاره وزال ما بنفسه عليه وكان الفقيه أبو ابراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم وحق لهما أن يعظماه وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال كنت أختلف الى الفقيه أبي ابراهيم رحمه الله تعالى فيمن يختلف اليه للتفقه والرواية فاني لعنده في بعض الايام في مجلسه بالمسجد المنسوب لابي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره بجوفي قصر قرطبة ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصلاتين اذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله فان الامر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد أمرت باعجالك فالله الله فقال له سمعا وطاعة لامير المؤمنين ولا عجلة فارجع اليه وعرفه وفقه الله عني أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يقيدونه عني وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته فذلك أوكد من مسيري اليه الساعة فاذا انقضى أمر من اجتمع الى من هؤلاء المحتسبين في ذات الله الساعين لمرضاته مشيت اليه ان شاء الله تعالى ثم أقبل على شأنه ومضى الخصي يهينم متضاجرا من توقفه فلم يك الا ريثما أدى جوابه وانصرف سريعا ساكن الطيش فقال له يا فقيه أنهيت قولك على نصه الى أمير المؤمنين أبقاه الله فأصغى اليه وهو يقول لك جزاك الله خيرا عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين وأمتعهم بك واذا أنت أوعيت فامض اليه راشدا ان شاء الله تعالى وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي فقال له حسن جميل ولكني أضعف عن المشي الى باب السدة ويصعب علي ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي وباب الصناعة الذي يقرب الي من أبواب القصر المكرم أحوط لي وأقرب وأرفق بي فان رأى أمير المؤمنين أيده الله تعالى أن يأمر بفتحه لادخل اليه منه هون على المشي وودع جسمي وأحب أن تعود وتنهي اليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه وكذلك تعود الي فاني أراك فتى شديدا نكن على الخير معينا ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين الى ما سألت وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ومنه خرجت اليك وأمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك وقال افعل راشدا وجلس

الخصي

الخصى جانبا حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بالكمل وأسمح ماجرت به عادته غير منزعج ولا قلق فلما انفض عنه قام الى داره فأصلح من شأنه ثم مضى الى الخليفة الحكم فوصل اليه من ذلك الباب وقضى حاجته من لقائه ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد اغلاقه على اثر خروجه قال مفرج ولقد تعمدنا فى تلك العشية اثر قيامنا عن الشيخ أبى ابراهيم المرور بهذا الباب المعهود اغلاقه بدير القصر الذى تجشم الخليفة له فوجدناه مفتوحا كما وصف الخصى وقد حفه الخدم والاعوان منزعجين ما بين كناس وفراش متأهبين لانتظار أبى ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه انتهى فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء قدس الله تلك الارواح * ثم توفى الناصر لدين الله ثانى أو ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلثمائة أعظم ما كان سلطانه وأعز ما كان الاسلام بملكه (قال ابن خلدون) خلف الناصر فى بيوت الاموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات انتهى وقال غير واحد انه كان يقسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان وحكى انه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا وعدت تلك الايام فكانت أربعة عشر يوما فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الاحوال لاوليائها هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ولم تصف له الا أربعة عشر يوما فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لا اله الا هو * ومما ينسب للناصر من الشعر وقيل لابنه الحكم قوله

ما كل شئ فقدت الا * عوضنى الله منه شيا
انى اذا ما منعت خيرى * تباعد الخير من يديا
من كان لى نعمة عليه * فانها نعمة عليا

ومما زين الله به دولة الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابن شهيد قال فى المطمح أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد مفخر الامامة وزهر تلك الكمامة وصاحب الناصر عبد الرحمن وحامل الوزارتين على سموها فى ذلك الزمان استقل بالوزارة على ثقلها وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها والتفات مقلها فظهر على أولئك الوزراء واشتهر مع كثرة النظراء وكانت امارة عبد الرحمن أسعد امارة بعد عنها كل نفس بالسوء أمارة فلم يطرقها صرف ولم يرمقها محذور بطرف فقرع الناس فيها هضاب الامانى ورباها ورتعت ظباؤها فى ظلال ظباها وهو أسد على براثنه رابض وبطل أبدا على قائم سيفه قابض يروع الروم طيفه ويجوس خلال تلك الديار خيفه ويروى بل يحسم كل آونة سيفه وابن شهيد ينتج الآراء ويلقحها وينقد تلك الانحاء وينقحها والدولة مشتملة بغنائه متجملة بسنائه وكرمه منتشر على الآمال ويكسو الاولياء بذلك الاجمال وكان له أدب تزهر نجمه

وتبهر بهجته وشعره رقيق لا ينقد ويكاد من اللطافة يعقد فمن ذلك قوله

ترى البدر منها طالعا وكأنما * يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى * ولا مفعمة الخلخال مفعمة القلب
من اللاء لم يرحلن فوق رواحل * ولا سرن يوما في ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة * وشدو كما انشدوا القيان على الشرب

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور متولي الامر معه ومشاركه في التدبير اذا حضر مجتمعه منافسه لم تنفصل لهما بهما مداخلة ولا ملابسه وكلاهما يتربص بصاحبه دائرة السوء ويغص فيه غص الافق بالنوء فاجتاز يوما الى ربضه ومال الى زيارته ولم يكن من غرضه فلما استأمر عليه تأخر خروج الاذن اليه فثنى عنانه حنقا من حجابه وضجرا من اجابه وكتب اليه معرضا وكان يلقب بالحمار

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا * اليك ولا قلب اليك مشوق
ولكننا زرنا بفضل حلومنا * فكيف تلاقي برنا بعقوق

فراجعه ابن جهور يغض منه بما كان يشيع عنه بان جده أبا هشام كان بيطارا بالشام بقوله

جبناك لما زرتنا غير تائق * بقلب عدوّ في ثياب صديق
وما كان بيطار الشام بموضع * يباشر فيه برّنا بخليق

ومن شعره قوله يتغزل

حلفت بمن رمى فأصاب قلبي * وقلبه على جمر الصدود
لقد أودى تذكره بقلبي * ولست أشك أن النفس تودي
فقيد وهو موجود بقلبي * فواعجبا لموجود فقيد انتهى

وقد تقدم الكلام على هدية ابن شهيد وبعض أخباره رحمة الله عليه ولما توفي الناصر لدين الله تولى الخلافة بعده ولي عهده الحكم المستنصر بالله فجرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه الا شخصه وولي حجابته جعفر الصقلبي وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الاصناف ما ذكره ابن حيان في المقتبس وهي مائة مملوك من الافرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو الشكة والاسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس والقلانس الهندية وثلثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الاجناس وثلثمائة خودة كذلك ومائة بيضة هندية وخمسون هندية خشبية من بيضات الفرنجة من غير الخشب يسمونها الطشطانة وثلثمائة حربة افرنجية ومائة ترس سلطانية وعشرة جواشن فضة مذهبة وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس انتهى * قال ابن خلدون ولاول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردلند بن غند شلب فنازل شنت اشتبين وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا الى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزى غالبا مولاه بلاد جليقية وسار الى مدينة سالم لدخول

دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فردلند ودوخها وكان شانجة ابن ردمير ملك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها وتقل ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة فعاثت العساكر في نواحيها وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس على يد غالب فعمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح قطوبية على يد قائد وشقة وغنم فيه من الاموال والسلاح والاقوات والاثاث وفي بسيطه من الغنم والبقر والرمك والاطعمة والسبي مالا يحصى (وفي سنة أربع وخمسين) سار غالب الى بلد البة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذى النون فابتنى حصن غرماج ودوخ بلادهم وانصرف وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير وأفسدوا ببسائط اشبونة وناشبهم الناس القتال فرجعوا الى مراكبهم وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ثم وردت الاخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل ثم كانت وفادة اردون بن أدفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير وهو ابن عمه وهو الملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردلند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر فبادر الى الوفادة على الحكم مستجيرا به فاحتفل لقدومه وعبى العساكر ليوم وفادته وكان يوما مشهودا وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ووصل الى الحكم وأجلسه ووعده بالنصر من عدوه وخلع عليه وكتب بوصوله ملقيا بنفسه وعاقده على موالاة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ودفعت الصلات والحملات له ولاصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعته وطاعته مع قواميس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والابراج القريبة من ثغور المسلمين ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه وبعثا بهدية وهي عشرون صبيا من الخصيان الصقالبة وعشرون قنطارا من صوف السمور وخمسة قناطير من القصدير وعشرة أذرع صقلبية ومائتا سيف فرنجية فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الاساقفة والقواميس يسألون الصلح بعد أن كان توقف وأظهر المكر فعقد لهم الحكم فاغتبطوا ورجعوا ثم وفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس بالقرب من جليقية وهو القومس الاكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته

واحتفل لقدومها فى يوم مشهود مشهور رفوصلت وأسعفت وعقد السلم لابنها كما رغبت ودفع لها ما لا تقسمه بين وفدها دون ما وصلت به هى وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت ثم أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الاقصى والاوسط وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ووفد عليه من بنى الخزر وبنى أبى العافية فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية * وكان محبا للعلوم مكرما لاهلها جماعا للكتب فى انواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله قال أبو محمد بن حزم أخبرنى تليد الخصى وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان ان عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الاذكر أسماء الدواوين لا غير وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليه بضائعه من كل قطر * قال أبو محمد بن خلدون ولما وفد على أبيه أبو على القالى صاحب كتاب الامالى من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده وأورث أهل الاندلس علمه واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه وكان يبعث فى شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس مالم يعهدوه وبعث فى كتاب الاغانى الى مصنفه أبى الفرج الاصفهانى وكان نسبه فى بنى أمية وأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرجه الى العراق وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الابهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك وجمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده الا مايذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها فى حصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبى عامر ونهب مابقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم اياها عنوة انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار * (ولنبسط الكلام على الحكم فنقول) ان الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثانى يوم وفاة أبيه يوم الخميس وقام بأعباء الملك أتم قيام وأنفذ الكتب الى الآفاق بتمام الامر له ودعا الناس الى بيعته واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته وضبط قصوره وترتيب أجناده وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الاكابر كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم وتكفلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم وأوصل الى نفسه فى الليل دون هؤلاء الاكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء فبايعوه فلما كملت بيعة أهل القصر تقدم الى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض فى أخيه شقيقه أبى مروان عبيد الله المتخلف بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة

وتقدم

وتقدم الى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض ايضا عن ابى الاصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى فمضى اليهما كل واحد منهما فى قطيع من الجند وأتيا بهما الى قصر مدينة الزهراء وتقدم غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل لاتيان غيرهما من الاخوة وكانوا يومئذ ثمانية فوافى جميعهم الزهراء فى الليل فنزلوا فى مراتبهم بفصلان دار الملك وقعدوا فى المجلسين الشرقى والغربى وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى البهو الاوسط من الابهاء المذهبة القبلية التى فى السطح الممرّد فاول من وصل اليه الاخوة فبايعوه وأنصتوا الصحيفة البيعة والتزموا الايمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وأخوتهم ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة وقعد الاخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله الا عيسى بن فطيس فانه كان قائما بأخذ البيعة على الناس وقام الترتيب على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة فاصطف فى المجلس الذى قعد فيه أكابر الفتيان يمينا وشمالا الى آخر البهو كل منهم على قدره فى المنزلة عليهم الظهائر البيض شعار الحزن قد تقلدوا فوقها السيوف ثم تلاهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين فى السطح وفى الفصلان المتصلة به ذوو الاسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض بأيديهم السيوف يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول شاكين فى الاسلحة الرائقة والعدة الكاملة وقامت التعبية فى دار الجند والترتيب من رجالة العبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض وعلى رؤسهم البيضات الصقلبية وبأيديهم الترَاس الملونة والاسلحة المزينة انتظموا صفين الى آخر الفصل وعلى باب السدة الاعظم البوّابون وأعوانهم ومن خارج باب السدة فرسان العبيد الى باب الاقباء واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة موكبا اثر موكب الى باب المدينة الشارع الى الصحراء فلما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض الا الاخوة والوزراء وأهل الخدمة فانهم مكثوا بقصر الزهراء الى أن احتمل جسد الناصر رحمه الله الى قصر قرطبة للدفن هنالك فى تربة الخلفاء (وفى ذى الحجة من سنة خمسين) تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الاندلس وأصقاعها فتوصلوا الى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضى منذر بن سعيد والملا فأخذت عليهم البيعة ووقعت الشهادات فى نسختها (وفى آخر صفر من سنة احدى وخمسين) أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليه محمدا وزيادا ابنى أفلح الناصرى بكتيبة من الحشم لتلقى غالب الناصرى الذى خرجوا اليه صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث فى الدولة المتغلب على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمه المولك قبله شانجة بن ردمير وتبرع هذا اللعين اردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد وذلك عند ما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو اليه وأخذه فى التأهب له فاحتال فى تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه وخرج قبل أمان يعقد له أو ذمة تعصمه فى عشرين رجلا من

وجوه أصحابه تكنفهم غالب الناصرى الذى خرجوا اليه فجاء به نحو مولاه الحكم وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فانزلاهم ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم الى قرطبة فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفى فى جيش عظيم كامل التعبية وتقدموا الى باب قرطبة فمروا بباب قصرها فلما انتهى اردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله فاشير الى ما به ازى موضعه من داخل القصر فى الروضة فخلع قلنسوته وخضع نحو مكان القبر ودعا ثم رد قلنسوته الى رأسه وأمر المستنصر بانزال اردون فى دار الناعورة وقد كان تقدم فى فرشها بضروب الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك الى الغاية وتوسع له فى الكرامة ولاصحابه فأقام بها الخميس والجمعة فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد اقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والاسلحة والزينة وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح وقعد الاخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفا فى المجلس فيهم القاضى منذر بن سعيد والحكام والفقهاء فاتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك اردون وأصحابه وعالى لبوسه ثوب ديباج رومى أبيض وبلبوان من جنسه وفى لونه وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالاندلس يؤنسونه ويبصرونه فيهم وليد بن خيزون قاضى النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما فدخل بين صفى الترتيب يقلب الطرف فى نظم الصفوف ويجيل الفكر فى كثرتها وتظاهر أسلحتها وراثق حليتها فراعهم ما أبصروه وصلبوا على وجوههم وتأملوا ناكسى رؤسهم غاضين من اجفانهم قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا الى باب الاقباء أول باب قصر الزهراء فترجل جميع من كان خرج الى لقائه وتقدم الملك اردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا الى باب السدة فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الاقدام فترجلوا ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملس فأنزل فى برطل البهو الاوسط من الابهاء القبلية التى بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الاوصال بالفضة وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناويه شانجة بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى فقعد أردون على الكرسى وقعد أصحابه بين يديه وخرج الاذن لاردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقى حاسرا اعظاما لما بان له من الدنو الى السرير واستنهض فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ثم استوى قائما ثم نهض خطوات وعاد الى السجود ووالى ذلك مرارا الى أن قدم بين يدى الخليفة وأهوى الى يده فناوله اياها وكر راجعا مقهقرا على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب جعل له هنالك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير فجلس عليه والبهر قد علاه وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه فدنوا ممتثلين فى تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم ووصل بوصولهم وليد بن خيزون قاضى النصارى بقرطبة

فكان

فيكان الترجمان عن الملك اردون ذلك اليوم فأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك اردون اثر قعوده أمامه وقتا كيما يفرخ روعه فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال ليسرك اقبالك ويغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته فلما ترجم له كلامه اياه تطلق وجه اردون وانحط عن رتبته فقبل البساط وقال أنا عبد أمير المؤمنين مولاى المتورك على فضله القاصد الى مجده المحكم فى نفسه ورجاله فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته رجوت أن اتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة فقال له الخليفة أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ما يغبطك وتتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا فعاد أردون الى السجود عند فهمه مقالة الخليفة وابتهل داعيا وقال ان شانجة ابن عمى تقدم الى الخليفة الماضى مستجيرا به منى فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من اعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته وأنكرت سيرته واختارتنى لمكانه من غير سعى منى علم الله ذلك ولا دعاء اليه فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا فتطول عليه رحمه الله بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه وأعز نصره ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى اسديت اليه وقصر فى أداء المفروض عليه وحقه وحق مولاى أمير المؤمنين من بعده وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطانى وموضع أحكامى محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تحويه من رعيتى فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة فقال الخليفة قد سمعنا قولك وفهمنا مغزاك وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية شأنه ويترادف من احساننا اليك اضعاف ما كان من أبينا رضى الله تعالى عنه الى نذلك وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا والقصد الى سلطاننا فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا ينقصك مما أملناك وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ونشد أواخى ملكك ونملكك جميع ما انحاش اليك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك ونقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ونقبضه عن كل ما يتصرف فيه من البلاد الى يدك وسيترادف عليك من افضالنا فوق ما احتسبته والله على ما نقول وكيل فكرر أردون الخضوع وأسهب فى الشكر وقام للانصراف مقهقرا لا يولى الخليفة ظهره وقد تكنفه الفتيان من جملة الفتيان فأخرجوه الى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البهر وأذهله الروع من هول ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه انحط ساجدا اعظاما له ثم تقدم الفتيان به الى البهو الذى بجوفى هذا المجلس فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب وأقبل نحوه الحاجب جعفر فلما بصر به قام اليه وخضع له وأومأ الى تقبيل يده فقبضها الحاجب عنه وانحنى اليه فعانقه وجلس معه فغبطه ووعده من انجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة وكانت دراعة منسوجة بالذهب وبرنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العلج تجلة فخر ساجدا وأعلن بالدعاء ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم

فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم وخرج جميعهم خاضعين شاكرين ثم انطلق الملك اردون وأصحابه وقدم لركابه فى اول البهو الاوسط فرس من عتاق خيل الركاب عليه سرج حلى ولجام حلى مفرغ وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافة مكان تضييفه وقد أعدله فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون واستقر أصحابه فيما لاكفاء له من سعة التضييف وارغاد المعاش واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الاسلام فيه ما أفاضوا من التبجح به والتحدث عنه اياما وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان وانشادات لاشعار محكمة متان يطول القول فى اختيارها فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادى من قصيدة حيث يقول

ملك الخليفة آية الاقبال * وسعوده موصولة بتوال
والمسلمون بعزة وبرفعة * والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الاعاجم نحوه * متوقعين لصولة الريبال
هذا أميرهم أتاه آخذا * منه أواصر ذمة وحبال
متواضعا لجلاله متخشعا * متبرعا لمبارع بقتال
سينال بالتأميل للملك الرضا * عز ايهم عداه بالاذلال
لايوم أعظم للولاة مسرة * وأشد غيظا على الاقيال
من يوم اردون الذى اقباله * امل المدى ونهاية الاقبال
ملك الاعاجم كلها ابن ملوكها * والى الرعاة الى الاعاجم وال
ان كان جاء ضرورة فلقد أتى * عن عز مملكة وطوع رجال
فالحمد لله المنيل امامنا * حط الملوك بقدره المتعالى
هو يوم حشر الناس الا انهم * لم يسألوا فيه عن الاعمال
أضحى الفضاء مخيما بجيوشه * والافق أقتم أغبر السربال
لا يهتدى السارى لليل قتامه * الا بضوء صوارم وعوال
وكأن اجسام الكماة تسربلت * مذعربت عنه جسوم ضلال
وكأنما العقبان عقبان الفلا * منقضة لتخطف الضلال
وكأن مقتضب القنا مهتزة * اشطان نازحة بعيدة جال
وكأنما قيل التجافيف اكتست * نارا تؤججها بلا اشعال

وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم المستنصر عن فتاه تليد صاحب خزانته العلمية فيما حدث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم ان عدة الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر الدواوين فقط انتهى وقد قدمناه عن ابن خلدون ونقله ابن الابار فى التكملة * وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم انه كان حسن السيرة مكرما للقادمين عليه جمع من الكتب مالا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل انها كانت أربعمائة ألف مجلد وانهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها وكان عالما نبيها صافى السريرة وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام

الخشنى

الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه وأجازله ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي باذلا فيها ما امكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته وكان في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوذيا نسيج وحده وكان ثقة فيما ينقله بهذا وصفه ابن الابار وبأضعافه وقال عجبا لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه الاوله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الاعنده لعنايته بهذا الشان ومما ينسب اليه من النظم قوله

الى الله أشكو من شمائل مسرف * على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه داري فاستزاد صدوده * واني على وجدي القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقي بالغ * من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت * وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيا مقلتي العبرا عليها اسكبي دما * ويا كبدي الحرا عليها تقطعي

وتوفي رحمه الله تعالى بقصر قرطبة ثاني صفر سنة ست وستين وثلثمائة لست عشرة سنة من خلافته وكان أصابه الفالج فلزم الفراش الى أن هلك رحمه الله تعالى وكان قد شدد في ابطال الخمر في مملكته تشديدا عظيما (وولي بعده ابنه) هشام صغيرا سنه تسع سنين ولا ينافيه قول ابن خلدون قد ناهز الحلم وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر ونقله من خطة القضاء الى وزارته وفوض اليه اموره فاستقل قال ابن خلدون وترقت حال ابن أبي عامر عند الحكم فلما توفي الحكم وبويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم المرشح لامره تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بمالاة من جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ ورؤساؤهم فائق وجودر فقتل ابن أبي عامر المغيرة بمالاة من ذكر وتمت البيعة لهشام ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن وثاب له رأي في الاستبداد فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض وكان من رجال اليمنية من معافر دخل جده عبد الملك مع طارق وكان عظيما في قومه وكان له في الفتح أثر وعظم ابن أبي عامر هذا وغلب على المؤيد ومنع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الايام يسلمون وينصرفون وأرضخ للجند في العطاء وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضا ببعض كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصلهم وفرق جموعهم وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم وأخرجهم من القصر وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ثم اصهر الى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة

ثم استعان على غالب بجعفر بن احمد بن على بن حمدون صاحب المسيلة وقائد الشيعة ممدوح ابن هانئ بالفائية المشهورة وغيرها وهو النازع الى الحكم اول الدولة وبمن كان معه من زناتة والبربر ثم قتل جعفرا بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذى النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ثم لما خلا الجوّ من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع الى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبنى يفرن وبنى برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة وملأ الدنيا وهو فى جوف بيته من تعظيم الخلافة والخضوع لها ورد الامور اليها وترديد الغزو والجهاد وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالامر وبنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخاطبات والاوامر باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ومحا رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه فى السكة والطرز وأغفل ديوانه مما سوى ذلك وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة وقهر من تطاول اليها من العلية فظفر من ذلك بما أراد وردّد الغزو بنفسه الى دار الحرب فغزا ستا وخمسين غزوة فى سائر ايام ملكه لم تنتكس له فيها راية ولا فل له جيش وما أصيب له بعث وما هلكت له سرية وأجاز عساكره الى العدوة وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض فاستوثق له ملك المغرب وأخبتت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه وأجاز ابنه عبد الملك الى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر ولما سخط زيرى بن عطية ملكهم لما بلغه ما بلغه من اعلانه بالنيل منه والغض من منصبه والتأفف لحجر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين ونزل بفاس وملكها وعقد للملوك زناتة على ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها وشرد زيرى بن عطية الى تاهرت فأبعد المفر وهلك فى مفره ذلك ثم قفل عبد الملك الى قرطبة واستعمل واضحا على المغرب وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا وأشد استيلاء سنة أربع وتسعين وثلثمائة بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه انتهى كلام ابن خلدون وبعضه بالمعنى وزيادة يسيرة ولا بأس أن نزيد عليه فنقول مما حكى أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى

آثاره تنبيك عن أخباره * حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله * أبدا ولا يحمى الثغور سواه

وعن شجاع مولى المستعين بن هود لما توجهت الى أدفونش وجدته فى مدينة سالم وقد نصب على قبر المنصور بن أبى عامر سريره وامرأته متكئة الى جانبه فقال لى يا شجاع أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر ملكهم قال فحملتنى الغيرة أن قلت له لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ولا استقر بك قرار فهم بى فحالت

امرأته بيني وبينه وقالت له صدقك فيما قال ايفخر مثلك بمثل هذا * وهذا ملخص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد قال رحمه الله ترجمة الملك الاعظم المنصور أبي عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من قرية تركش وعبد الملك جده هو الوافد على الاندلس مع طارق في اول الداخلين من العرب واما المنصور فقد ذكره ابن حيان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية والفتح في المطمح والحجاري في المسهب والقشتندي في الطرف وذكرا الجميع أن أصله من قرية تركش وأنه رحل الى قرطبة وتأدب بها ثم اقتعد دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان الى أن طلبت السيدة صبح ام المؤيد من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس اليه بالجلوس من فتيان القصر فترقى الى أن كتب عنها فاستحسنته ونبهت عليه الحكم ورغبت في تشرفه بالخدمة فولاه قضاء بعض المواضع فظهرت منه نجابة فترقى الى الزكاة والمواريث باشبيلية وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة مالم يتمكن لغيره ولم يقصر مع ذلك في خدمة المصحفي الحاجب الى أن توفي الحكم وولي ابنه هشام المؤيد وهو ابن اثنى عشرة سنة فجاشت الروم فجهز المصحفي ابن أبي عامر لدفاعهم فنصره الله عليهم وتمكن حبه من قلوب الناس وكان جوادا عاقلا ذكيا استعان بالمصحفي على الصقالبة ثم بغالب على المصحفي وكان غالب صاحب مدينة سالم وتزوج ابن أبي عامر ابنته اسماء وكان أعظم عرس بالاندلس ثم بجعفر بن الاندلسي ممدوح ابن هانئ على غالب ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبي على جعفر وله في الحزم والكيد والجلد ما افرد له ابن حيان تأليفا وعدد غزواته المنشأة من قرطبة نيف وخمسون غزوة ولم تهزم له راية وقبره بمدينة سالم في أقصى شرق الاندلس ومن شعره

رميت بنفسي هول كل عظيمة * وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبي الا جنان مشيع * وأسمر خطي وأبيض باتر
فسدت بنفسي أهل كل سيادة * وفاخرت حتى لم أجد من افاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة * على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالي بالعوالي مثلها * وأورثناها في القديم معافر

وجوده مع صاعد البغدادي اللغوي مشهور وصدر عن بعض غزواته فكتب اليه عبد الملك بن شهيد وكان قد تخلف عنه

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا * يا بنفسي اقيك كل الرزايا
ورسول الاله أسهم في الفيء لمن لم يخب فيه المطايا

فبعث اليه بثلاث جوار من أجمل السبي وكتب معهن وكانت واحدة أجملهن قوله

قد بعثنا بها كشمس النهار * في ثلاث من المها أبكار
وامتحنا بعذرة البكر ان كنت ترجي بوادر الاعذار
فاجتهد وابتدر فانك شيخ * قد جلا ليله بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها * فمن العار كلة المسمار

فافتضهن من ليلته وكتب له بكرة

قد فضضنا ختام ذاك السوار * واصطبغنا من النجيع الجاري
وصبرنا على دفاع وحرب * فلعبنا بالدر أو بالدراري
وقضى الشيخ ما قضى بحسام * ذي مضاء عضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا * واتخذه خلا على الكفار

(وقدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس فتجرد ليسبح في النهر وترك الكيس وكان أحمر على ثيابه فرفعته حدأة في مخاليبها لحرى تابعها أوقد ذهل فتغلغلت في البساتين وانقطعت عن عينه فرجع متحيرا فشكا ذلك الى بعض من يأنس به فقال له صف حالك لابن أبي عامر فتلطف في وصف ذلك بين يديه فقال ننظر ان شاء الله تعالى في شأنك وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين ويسأل خدامها عن ظهر عليه تبديل حال فأخبروه أن شخصا ينقل الزبل اشترى حمارا وظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك فأمر بجيئه فلما وقعت عينه عليه قال له أحضر الكيس الاحمر فتملك الرعب قلبه وارتعش وقال دعني آتي به من منزلي فوكل به من حمله الى منزله وجاء بالكيس وقد نقص منه مالا يقدح في مسرة صاحبه بخبره ودفعه الى صاحبه فقال والله لاحدثن في مشارق الارض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور وينصف منها والتفت ابن أبي عامر الى الزبال فقال له لو أتيت به أغنيناك لكن تخرج كفافا فالا عقابا ولا ثوابا وتوفي رحمه الله في غزاته للافرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى أن وصل الى مدينة سالم ودامت دولته ستا وعشرين سنة غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف انتهى كلام ابن سعيد وفي بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون * وقال الفتح في المطمح في حق المصحفي الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ما صورته تجرد للعليا وتمرد في طلب الدنيا حتى بلغ المنى وتسوغ ذلك الجنى ووصل الى المنتهى وحصل على ما اشتهى دون مجد تفرع من دوحته ولا فخر نشأ بين مغداه وروحته فسما دون سابقة ورمى الى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة فبلغ بنفسه ونزع عن جنسه ولم يزل يستقل ويطلع وينتقل من مطلع الى مطلع حتى التماح في افق الخلافه وارتاح اليه معظمها كنشوان السلافه واستوزره المستنصر وعنه قد كان يسمع وبه يبصر وحجب الامام وأسكب برأيه ذلك الغمام فأدرك لذلك ما أدرك ونصب لامانيه الحبائل والشرك فاقتنى اقتناء مدخر وأزرى بمن سواه وسخر واستعطفه ابن أبي عامر وخجمه غائر لم يلح وسره مكتوم لم يبح فعاطف ولاجنى من روضة دنياه ولا قطف وأقام في تدبير الاندلس ما أقام وبرهانه مستقيم ومن الفتن عقيم وهو يجري من السعد في ميدان رحب ويباع من العز في مشرب عذب ويفض ختام السرور وينهض من الملك على لبنة عز وركان له أدب بارع وخاطر الى نظم القريض مسارع في محاسنه التي بعثها ايناس دهره واسعاده وقاله حين ألهته سلماه وسعاده قوله

لعينيك في قلبي عليك شجون * وبين ضلوعي للشجون فنون

نصيبي من الدنيا هواه وأنه * غذاءى ولكنى عليه ضنين

وستأتى هذه الترجمة من المطمح الصغير ان شاء الله تعالى بما فيه بعض زيادة ونقصان فى الباب الرابع * وقال فى المطمح فى حق ابن أبى عامر انه تترس ببلاد الشرك أعظم تترس ومحا من طواغيتها كل تجبرف وتغطرس وغادرهم صرعى البقاع وتركهم أذل من وتد بقاع ووالى على بلادهم الوقائع وسدد الى أكبادهم سهام الفجائع وأغص بالحمام أرواحهم ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم ومن أوضح الامور هنالك وأفصح الاخبار فى ذلك أن أحد رسله كان كثير الانتياب لذلك الجناب فسار فى بعض مسيراته الى غرسية صاحب البشكنس فوالى فى اكرامه وتناهى فى بره واحترامه فطالت مدته فلا متنزه الا مرّ عليه متفرجا ولا منزل الاسار عليه معرجا فحل فى ذلك اكثر الكنائس هنالك فبينا هو يجول فى ساحتها ويجيل العين فى مساحتها اذ عرضت له امرأة قديمة الاسر قوية على طول الكسر فكلمته وعرفته بنفسها وأعلمته وقالت له أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بوسها ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسه وبكل ذل وصغار ملبسه وناشدته الله فى انهاء قصتها وابراء غصتها واستحلفته بأغلظ الايمان وأخذت عليه فى ذلك أوكد مواثيق الرحمن فلما وصل الى المنصور عرّفه بما يجب تعريفه به واعلامه وهو مصغ اليه حتى تم كلامه فلما فرغ قال له المنصور هل وقفت هنالك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ماذكرته فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه اليه وبالمواثيق التى أخذت عليه فعتبه ولامه على أن لم يبدأ بها كلامه ثم أخذ للجهاد من فوره وعرض من اجناد فى نجده وغوره واصبح غازيا على سرجه مباهيا مروان يوم مرجه حتى وافى ابن شانجة فى جمعه فأخذت مهابته ببصره وسمعه فبادر بالكتاب اليه يتعرف ما الجلية ويحلف له بأعظم ألية انه ما جنى ذنبا ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا فعنف أرساله وقال لهم كان قد عاقدنى أن لا يبقى ببلاده ماسورة ولا مأسور ولو حملته فى حواصلها النسور وقد بلغنى بعد بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة ووالله لا انتهى عن أرضه حتى اكتسحها فأرسل اليه المرأة فى اثنتين معها وأقسم انه ما ابصرهن ولا سمع بهن وأعلمه أن الكنيسة التى أشار بعلمها قد بالغ فى هدمها تحقيقا لقوله وتضرع اليه فى الاخذ فيه بطوله فاستحيى منه وصرف الجيش عنه وأوصل المرأة الى نفسه وألحق توحشها بأنسه وغير من حالها وعاد بسوابغ نعمائه على جدبها وامحالها وحملها الى قومها وكلاها بما كان شرد من نومها انتهى * وقال فى المطمح أيضا فى حقه ما نصه فزد نابه على من تقدمه وصوّبه واستحزمه فانه كان امضاهم سنانا واذكاهم جنانا وأتمهم جلالا وأعظمهم استقلالا فآل أمره الى ما آل وأوهم العقول بذلك المآل فانه كان آية الله فى اتفاق سعده وقربه من الملك بعد بعده بهر برفعة القدر واستظهر بالاناة وسعة الصدر وتحرك فلاح نجم الهدى وتملك فما خفق بأرضه لواء عدو بعد خمول كابد منه غصصا وشرقا وبعد رماًمول طارد فيه سهرا وأرقا حتى أنجز له الموعود وفرخه

أمام تلك السعود فقام بتدبير الخلافة وأقعد من كان له فيها انافة وساس الامور أحسن سياسة وداس الخطوب بأخشن دياسة فانتظمت له الممالك واتضحت به المسالك وانتشر الامن في كل طريق واستشعر اليمن بكل فريق وملك الاندلس بضعا وعشرين حجة لم تدحض لسعادته حجة ولم تزل لمكروه مبايلة لبست فيه البلاد الاشراق وتنفست عن مثل أنفاس العراق وكانت ايامه أحمد أيام وسهام بأسه أشد سهام غزا الروم شاتيا وصائفا ومضى فيما يروم زاجرا وعائفا فما مرّ له غير سنيح ولا فاز الا بالمعلى لا بالمنيح فأوغل في تلك الشعاب وتغلغل حتى راع ليث الغاب ومشى تحت ألويته صيد القبائل واشتجرت في ظلها بيض الظبا وسمر الذوابل وهو يقتضي الارواح بغير سوم وينتضي الصفاح على كل روم ويتلف من ينساق للخلافة وينقاد ويخطف منهم كل كوكب وقاد حتى استبد وانفرد وأنس اليه من الطاعة ما نفر وشرد وانتظمت له الاندلس بالعدوة واجتمعت في ملكه اجتماع قريش بدار الندوة ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة ولم يدع السمع لخليفته والاجابة ظاهر يخالفه الباطن واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن وأذل قبائل الاندلس باجازة البرابر وأخمل بهم اولئك الاعلام الاكابر فانه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا عنهم الظهور ووثبوا عليهم الوثوب المشهور الذي أعاد أكثر الاندلس قفرا يبابا وملأها وحشا وذئابا وأعراها من الامان برهة من الزمان وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الاندلس وحد السرور بهما والتأنس وغزواته فيها شائعة الاثر رائعة كالسيف ذي الاثر وحسبه وافر ونسبه معافر ولذا قال يفخر رميت بنفسي الابيات وزاد هنا بعد قوله وأبيض باتر بيتا وهو

وانى لزجاء الجيوش الى الوغى * أسود تلاقيها أسود خوادر

وكانت امه تميمية فحاز الشرف بطرفيه والتحف بطرفيه ولذا قال القسطلي فيه

تلاقت عليه من تميم ويعرب * شموس تلالا في العلا وبدور

من الحميريين الذين أكفهم * سحائب تهمى بالندى وبحور

وتصرف قبل ولايته في شتى الولايات وجاء من التحدث بمنتهى أمره بآيات حتى صح زجره وجاء بصبحه فجره تؤثر عنه في ذلك أخبار فيها عجب واعتبار وكان أديبا محسنا وعالما متفننا فمن ذلك قوله يمنى نفسه بملك مصر والحجاز ويستدعى صدور تلك الاعجاز

منع العين أن تذوق المناما * حبها أن ترى الصفا والمقاما

لى ديون بالشرق عند أناس * قد أحلوا بالمشعرين الحراما

ان قضوها نالوا الامانى والا * جعلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام * يبلغ النيل خطوها والشاما

انتهى ما نقلته من المطمح * وفى المنصور المذكور أيضا قال بعض مؤرخى المغرب مازجا كلامه ببعض كلام الفتح بعد ذكر استعانته ببعض الناس على بعض وذكر قتله لجعفر بن عثمان فقال بعده ما صورته ثم انفرد بنفسه وصار ينادى هل من مبارز فلما لم يجده حل

الدهر على حكمه فانقاد له وساعده فاستقام أمره منفردا بمملكة لاسلف له فيها ومن أوضح الدلائل على سعده انه لم ينكب قط فى حرب شهدها وماتوجهت عليه هزيمة وما انصرف عن موطن الا قاهرا غالبا على كثرة مازاول من الحروب ومارس من الاعداء وواجه من الامم وانها الخاصة ماأحسب أحدا من الملوك الاسلامية شاركه فيها ومن أعظم ما اعين به مع قوة سعده وتمكن جده سعة جوده وكثرة بذله فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان وأول ما اتكأ على ارائك الملوك وارتفق وانتشر عليه لواء السعد وخفق حط صاحبه المصحفى وأثار له كامن حقده الخفى حتى اصاره للهموم لبيسا وفى غايات السجن حبيسا فكتب اليه يستعطفه بقوله

هبنى أسأت فأين العفو والكرم * اذقادنى نحوك الاذعان والندم
ياخير من مدّت الايدى اليه أما * ترثى لشيخ رماه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر * ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك الا احنقا وحقدا وما أفادته الابيات الا تضرّما ووقدا فراجعه بما أيأسه وأراه مرمسه وأطبق عليه محبسه وضيق تروّحه من المحنة وتنفسه

الآن ياجاهلا زلت بك القدم * تبغى التكرم لما فاتك الكرم
أغريت بى ملكا لولا تثبته * ما جازلى عنده نطق ولا كلم
فايأس من العيش اذقد صرت فى طبق * ان الملوك اذا ما استنقموا انقموا
نفسى اذا سخطت ليست براضية * ولو تشفع فيك العرب والعجم

وكان من أخباره الداخلة فى أبواب البرّ والقربة بنيان المسجد الجامع الى أن قال ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الاعظم ابتدأ بناءها المنصور سنة ثمان وسبعين وثلثمائة وفرغ منها فى النصف من سنة تسع وسبعين وانتهت النفقة عليها الى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار فعظمت بها المنفعة وصارت صدرا فى مناقبة الجليلة وكانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنها فأمر المنصور أمناءه بارضائه فيها فحضر الشيخ عندهم فساوموه بالقطعة وعرّفوه وجه الحاجة اليها وأن المنصور لايريد الا انصافه فيها فرماهم الشيخ بالغرض الاقصى عنده فيما ظنه أنها لاتخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبا كانت عنده أقصى الامنية وشرطها صحاحا فاغتنم الامناء غفلته ونقدوه الثمن وأشهدوا عليه ثم أخبروا المنصور بخبره فضحك من جهالته وأنف من غبنه وأمر أن يعطى عشرة أمثال ماسأل وتدفع له صحاحا كما قال فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا فكاد أن يخرج من عقله وأن يجن عند قبضها من الفرح وجاء محتفلا فى شكر المنصور وصارت قصته خبراسائرا (ومن ذلك أيضا) بناء قنطرة على نهر أستجة وهو نهر شنيل وتجشم لها أعظم مؤنة وسهل الطريق الوعرة والشعاب الصعبة (ومن ذلك أيضا) انه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييره فى حنوطه وكان يحملها حيث سارمع

أكفانه توقعا لحلول منيته وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك وكان متسماً بصحة باطنه واعترافه بذنبه وخوفه من ربه وكثرة جهاده واذا ذكر بالله ذكر واذا خوف من عقابه ازدجر ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين وكان عدله في الخاصة والعامة وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروبا به المثل *(ومن عدله انه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه فنادى يا ناصر الحق ان لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك وأشار الى الفتى صاحب الدرقة وكان له فضل محل عنده ثم قال وقد دعوته الى الحاكم فلم يأت فقال له المنصور أو عبد الرحمن بن القطيس بهذا العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك اذكر مظلمتك يا هذا فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف فقال المنصور ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ثم نظر الى الصقلبي وقد ذهل عقله فقال له ادفع الدرقة الى فلان وانزل صاغراً وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك ففعل ومثل بين يديه ثم قال لصاحب شرطته الخاص به خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه الى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره ففعل ذلك وعاد الرجل اليه شاكرا فقال له المنصور قد انتصفت أنت اذهب لسبيلك وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي فتناول الصقلبي بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة *(ومن ذلك) قصة فتاه الكبير المعروف بالبورقي مع التاجر المغربي فانهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور وهو يومئذ أكبر خدم المنصور واليه أمر داره وحرمه فدافع الحاكم وظن أن جاهه يمنع من احلافه فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه الى الجامع متظلما من الفتى فوكل به في الوقت من حمله الى الحاكم فأنصفه منه وسخط عليه المنصور وقبض نعمته منه ونفاه *(ومن ذلك) قصة محمد فصاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه فان المنصور احتاج يوما الى الفصد وكان كثير التعهد له فانفذ رسوله الى محمد فألفاه الرسول محبوسا في سجن القاضي محمد بن زرب لحيف ظهر منه على امرأته قد رأت سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة فلما عاد الرسول الى المنصور بقصته أمر باخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه الى أن يفرغ من عمله عنده ثم يرده الى محبسه ففعل ذلك على ما رسمه وذهب الفاصد الى شكوى ما ناله فقطع عليه المنصور وقال له يا محمد انه القاضي وهو في عدله ولو أخذني بالحق ما أطقت الامتناع منه عد الى محبسك واعترف بالحق فهو الذي يطلقك فانكسر الحاجم وزالت عنه ريح العناية وبلغت قصته للقاضي فصالحه مع زوجته وزاد القاضي شدة في أحكامه * وقال ابن حيان انه كان جالسا في بعض الليالي وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر فدعا بأحد الفرسان وقال له انهض الآن الى فج طبالس وأقم فيه فأول خاطر يخطر عليك سقه الي قال فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريح والمطر واقفا على فرسه اذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب فقال له الفارس الى أين تريد يا شيخ فقال وراء حطب فقال الفارس في نفسه هذا شيخ

مسكين نهض الى الجبل يسوق حطبا فماذا عسى أن يريد المنصور منه قال فتركته فسار عني قليلا ثم فكرت في قول المنصور وخفت سطوته فنهضت الى الشيخ وقلت له ارجع الى مولانا المنصور فقال له وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي يسألنك بالله أن تتركني أذهب لطلب معيشتي فقال له الفارس لا افعل ثم قدم به على المنصور ومثله بين يديه وهو جالس لم ينم ليلته تلك فقال المنصور للصقالبة فتشوه ففتشوه فلم يجدوا معه شيأ فقال فتشوا برذعة حماره فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا الى المنصور يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى ليضربوا ويقتلوا في احدى النواحي الموطوءة فلما انبلج الصبح أمر باخراج أولئك النصارى الى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم ثم ذكر هذا المؤرخ قصة الجوهري التي قدمنا نقلها من مغرب ابن سعيد ولكنا رأينا اعادتها بلفظ هذا المؤرخ لانه أتم مساقا اذ قال عطفا على دهائه ومن ذلك قصة الجوهري التاجر وذلك أن رجلا جوهريا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ودفع الى التاجر الجوهري صرته وكانت قطعة يمانية فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر فلما توسطها واليوم قائظ وعرقه منصب دعته نفسه الى التبرد في النهر فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط فمرت حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحما وصاعدت في الافق بها ذاهبة فقطعت الافق الذي تنظر اليه عين التاجر فقامت قيامته وعلم انه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسر الحزن في نفسه ولحقه لاجل ذلك علة اضطرب فيها وحضر الدفع الى التجار فحضر الرجل لذلك بنفسه فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة فسأله المنصور عن شانه فأعلمه بقصته فقال له هلا أتيت الينا بحدثان وقوع الامر فكنا نستظهر على الحيلة فهل هديت الى الناحية التي أخذ الطائر اليها قال مر مشرقا على سمت هذا الجبل الذي يلي قصرك يعني الرملة فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة فمضى وجاءهم سريعا فأمرهم بالبحث عمن غبر حال الاقلال منهم سريعا وانتقل عن الاضاقة دون تدريج فتناظروا في ذلك ثم قالوا يا مولانا ما نعلم الا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بايديهم ويتناولون السبق بأقدامهم عجزا عن شراء دابة فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة فأمر باحضاره من الغد وأمر التاجر بالغدو الى الباب فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور فاستدناه والتاجر حاضر وقال له سبب ضاع منا وسقط اليك ما فعلت به قال هو ذا يا مولاي وضرب بيده الى حجزة سراويله فأخرج الصرة بعينها فصاح التاجر طربا وكاد يطير فرحا فقال له المنصور صف لي حديثها فقال بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة اذ سقطت أمامي فأخذتها وراقني منظرها فقلت ان الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار فاجترت بها ودعتني فاقتي الى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة وقلت أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها فأعجب المنصور ما كان منه وقال للتاجر خذ صرتك وانظرها واصدقني عن عددها ففعل وقال وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شئ سوى

الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له فقال له المنصور ونحن أولى بذلك منك ولا تنغص عليك فرحتك ولولا جمعه بين الاصرار والاقرار لكان ثوابه موفورا عليه ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضا من دنانيره وللجناني بعشرة دنانير ثوابا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده وقال لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لاوسعناه جزاء قال فأخذ التاجر في الثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه وقال والله لايبثن في الاقطار عظيم ملكك ولا بينن أنك تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها فلا تعتصم منك ولا تمتنع ولا تؤذي جارك فضحك المنصور وقال اقصد في قولك يغفر الله لك فعجب الناس من تلطف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كربته *(ومن ذلك) غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الارض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الاعلى فبها يحلفون واليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه للزومه اياه وياقب بلسانهم يعقوب وكان أسقفا ببيت المقدس فجعل يستقري الارضين داعيا لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ثم عاد الى أرض الشام فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة وهي غزوته الثامنة والاربعون ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم وعلى أتم احتفالهم فصاروا في عسكر المسلمين وركبوا في المفاوزة سبيلهم وكان المنصور تقدم في انشاء اسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجالة البحريين وصنوف المترجلين وحمل الاقوات والاطعمة والعدة والاسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة الى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة فدخل في النهر الى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه فعقد هنالك من هذه الاسطول جسرا بقرب الحصن الذي هنالك ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الاقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الاخضر ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق لم يهتد الادلاء الى سواه فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منية وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين واسعة وانتهت مغيرتهم الى دير قشان وبسيط بلنبو على البحر المحيط وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا سباحة الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي فسبوا من فيها ممن لجأ اليها وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا

قوله ياقب الذي في تقويم البلدان لابي الفداء ياقو اه مصححه

غنائمه ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجا فى معبر بن أرشد الادلاء اليهما ثم نهر أيلة ثم افضوا
الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب
القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ومن
بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعا وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب
البائسة وذلك يوم الاربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها
فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور
بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الاذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن
لم تغن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش
منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها الغير أهلها قدم فلم
يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية
لم يبلغها مسلم قبله فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بن اردون يستقرّ به عائثا ومفسدا
حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره فأمر بالكف عنها ومرّ مجتازا حتى
خرج على حصن بليقية من افتتاحه فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم وكساهم
وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه
للملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز
الطرازى واحدى وعشرين كساء من صوف البحر وكساءين عنبريين وأحد عشر سقلاطونا
وخمس عشرة مريشا وسبعة انماط ديباج وثوبى ديباج رومى وفروى فنك ووافى جميع
العسكر قرطبة غانما وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجد بشنت ياقب الاشيخا من
الرهبان جالسا على القبر فسأله عن مقامه فقال اونس يعقوب فأمر بالكف عنه قال وحدّث
شعلة قال قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها قد أفرط مولانا فى السهر وبدنه يحتاج الى أكثر
من هذا النوم وهو أعلم بما يحرّكه عدم النوم من علة العصب فقال يا شعلة الملك لا ينام
اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة انتهى ما نقلته
من الكتاب المذكور * وقد رأيت أن أذكر هنا أخبارا نقلتها من كتاب الازهار المنثورة
فى الاخبار المأثورة * (قال فى الزهرة التاسعة والعشرين) تقدم الى المنصور واترمار بن أبى
بكر البربرى والى أحد جنود المغاربة وقد جلس للعرض والتمييز والميدان غاص بالناس
فقال له بكلام يضحك الثكلى يا مولاى مالى ولك أسكنى فانى فى الفحص فقال وماذا لك
يا واترمار وأين دارك الواسعة الاقطار فقال أخرجتنى عنها والله نعمتك اعطيتنى من الضياع
ما انصب على منها من الاطعمة ما دملا بيوتى وأخرجنى عنها وأنا بربرى مجوّع حديث عهد
بالبؤس اترانى أبعد القمح عنى ليس ذلك من رأيى فتطلق المنصور وقال لله درك من فذعى
لعيك فى شكر النعمة ابلغ عندنا وآخذ بقلوبنا من كلام كل اشدق متزيد وبليغ متفنن وأقبل
على من حوله من اهل الاندلس فقال يا أصحابنا هكذا فلتشكر الايادى وتستدام النعم
لا ما انتم عليه من الجحد اللازم والتشكى المبرح وأمر له بأفضل المنازل الخالية
*(وفى الموفية ثلاثين) مانصه أصبح المنصور صبيحة أحد وكان يوم راحة للخدمة الذى

أعفوا فيه من قصد الخدمة فى مطر وابل غب ايام مثله فقال هذا يوم لا عهد بمثله ولا حيلة للمواظبين لقصدنا فى مكابدته فليت شعرى هل شذ أحد منهم عن التقرير فأغرب فى البكور اخرج وتأمل بقوله لحاجبه فخرج وعاد اليه ضاحكا وقال يا مولاى على الباب ثلاثة من البرابرة ابو الناس بن صالح واثنان معه وهم بحال من البلل انما توصف بالمشاهدة فقال أوصلهم الى وعجل فدخلوا عليه فى حال الملاح بالاوندا وة فضحك اليهم وأدنى مجلسهم وقال خبرونى كيف جئتم وعلى أى حال وصلتم وقد استكان كل ذى روح فى كنه ولاذ كل طائر بوكره فقال له أبو الناس بكلامه يا مولانا ليس كل التجار قعد عن سوقه واذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بادراكها بالبدر ومن غير رؤس الاموال وهم يتناوبون الاسواق على أقدامهم ويذيلون فى قصدها ثيابهم ونحن نأتيك على خيلك ونذيل على صهواتها ملابسك ونجعل الفضل فى قصدك مضمونا اذ جعله اوائك طمعا ورجاء فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا فضحك المنصور ودعا بالكسا والصلات فدفعت لهم وانصرفوا مسرورين بغدوتهم *(وفى الزهرة الرابعة والاربعين) مانصه كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر فتى من أهل الادب قد رقت حاله فى الطلب فتعلق بكتاب العمل واختلف الى الخزانة مدة حتى قلد بعض الاعمال فاستهلك كثيرا من المال فلما ضم الى الحساب ابرز عليه ثلاثة آلاف دينار فرفع خبره الى المنصور فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه ولزم الاقرار بما ابرز عليه قال له يا فاسق ما الذى جرأك على مال السلطان تنتهبه فقال قضاء غلب الرأى وفقر أفسد الامانة فقال المنصور والله لاجعلنك نكالا لغيرك ليحضر كبل وحداد فأحضر فكبل الفتى وقال احملوه الى السجن وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه فلما قام انشأ يقول

اواه اواه وكم ذا ارى * أكثر من تكرار أواه
مالامرئ حول ولا قوة * الحول والقوة لله

فقال المنصور ردوه فلما رد قال أتمثلت أم قلت قال بل قلت فقال حلوا عنه كبله فلما حل عنه انشأ يقول

أما ترى عفو أبى عامر * لابد أن تتبعه منه
كذلك الله اذا ما عفا * عن عبده أدخله الجنه

فأمر باطلاقه وسوغه ذلك المال وأبرأه من التبعة فيه *(وفى الخامسة والاربعين) عرض على المنصور بن أبى عامر اسم أحد خدمه فى جملة من طال سجنه وكان شديد الحقد عليه فوقع على اسمه بأن لا سبيل الى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية وعرف الرجل بتوقيعه فاهتم واغتم وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة فأرق المنصور اثر ذلك واستدعى النوم فلم يقدر عليه وكان يأتيه عند تنويمه آت كريه الشخص عنيف الاخذ يأمره باطلاق الرجل ويتوعده على حبسه فاستدفع شأنه مرارا الى أن علم انه نذير من ربه فانقاد لامره ودعا بالدواة فى مرقده فكتب باطلاقه وقال فى كتابه هذا طليق الله على رغم انف ابن أبى عامر وتحدث الناس زمانا بما كان منه *(وفى السادسة والاربعين) مانصه انتهت هيبة المنصور بن

ابى عامر وضبطه للجند واستخدام ذكور الرجال وقوام الملك الى غاية لم يصلها ملك قبله فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الاطراق حتى ان الخيل لتمثل اطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله فقال على بشاهر السيف فمثل بين يديه لوقته فقال ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه الاعن اذنى فقال انى أشرت به الى صاحبى مغمدا فذلق من غمده فقال ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودى عليه بذنبه *(وفى السابعة والاربعين) ان المنصور كان به داء فى رجله واحتاج الى الكى فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته يفعل يأمر وينهى ويفرى الفرى فى أموره ورجله تكوى والناس لا يشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث *(وأخباره رحمه الله تعالى) تحتمل مجلدات فليمسك العنان على أنا ذكرنا فى الباب الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره رحمه الله تعالى فليراجع الى آخره *(وفى الثامنة والاربعين) وكان مما اعين به المنصور على المصحفى ميل الوزراء اليه وايثارهم له عليه وسعيهم فى ترقيه وأخذهم بالعصبية فيه فانها وان لم تكن حمية أعرابية فقد كانت سلفية سلطانية يقتفى القوم فيها سبيل سلفهم ويحفلون بها ابتذال شرفهم غادروها سيرة وتخلقوها عادة أثيرة تشاح الخلف فيها تشاح سلفهم أهل الديانة وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ورأوا ان أحدا لا يلحق فيها غاية ولا يتعاقد لها راية فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه ووضعه من أثرته حيث وضعه وهو نزيع بينهم ونابغ فيهم حسدوه وذموه وخصوه بالمطالبة وعموه وكان أسرع صنف الطائفة من أعالى الوزراء وأعاظم الدولة على معاودة المنصور عليه والانحراف عنه آل أبى عبدة وآل شهيد وآل فطيس من الخلفاء واصحاب السدانة من اولى الشرف والامانة وكانوا فى الوقت ازمة الملك وقوام الخدمة ومصابيح الائمة وأغيرا الخلق على جاه وحرمة فأحظوا محمد بن أبى عامر مشايعة وبعض أسبابه الجامعة متابعة وشادوا بناءه وقادوا الى عنصره سناءه حتى بلغ الامل واتصف بناءوا كمل وعند التئام هذه الامور لابن أبى عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة وأيقن بالنكبة وزوال الحال وانتقال الرتبة وكف عن اعتراض محمد وشركته فى التدبير وانقبض الناس من الرواح اليه والتبكير واثالوا على ابن أبى عامر فخف موكبه وغار من سماء العز كوكبه وتوالى عليه سعى ابن أبى عامر وطلبه الى أن صار يغدو الى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة الا تجردا سمها وابن أبى عامر مشتمل على رسمها حتى محاه وهتك ظله وأضحاه قال ابن اسمعيل رأيته يساق الى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلا فأقبل يدرم وجوارحه باللواعج تضطرم وواثق الضاغط ينهره والزمع يقهره والبهر والنفس قد هاضاه وقصرا خطاه فسمعته يقول رفقا بى فستدرك ما تحبه وتشتهيه وترى ما كنت ترتجيه ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من اطال عليه حومه

لا تأمنن من الزمان تقلبا * ان الزمان بأهله يتقلب
ولقد اراني والليوث تخافني * فأخافني من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مذلة ومهانة * أن لا يزال الى لئيم يطلب

فلما بلغ المجلس جلس في آخره دون أن يسلم على احد أو يومئ اليه بعين اويد فلما أخذ مجلسه تسرع اليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعنفه واستجفاه وأنكر عليه ترك السلام وجفاه وجعفر معرض عنه الى أن كثر القول منه فقال له ياهذا جهلت المبرة فاستجهلت معلمها وكفرت النعم فقصدت بالاذى ولم ترهب مقدمها ولو أتيت نكرا لكان غيرك أدرى وقد وقعت في أمر ما أظنك تخلص منه ولا يسعك السكوت عنه ونسيت الايادي الجليله والمبرات الجليله فلما سمع محمد بن حفص ذلك من قوله قال هذا البهت بعينه وأي ايا ديك الغر التي مننت بها وعنيت اداء واجبها أيد كذا أم يد كذا وعين اشياء انكرها منه أيام امارته وتصرف الدهر طوع اشارته فقال جعفر هذا مالا يعرف والحق الذي لا يرد ولا يصرف رفعي القطع عن يمناك وتبليغي لك الى مناك فأصر محمد بن حفص على الجحد فقال جعفر أنشد الله من له علم بما أذكره الا اعترف به فلا ينكره وأنا أحوج الى السكوت ولا تحجب دعوتي فيه عن الملكوت فقال الوزير أحمد بن عباس قد كان بعض ماذكرته يا أبا الحسن وغير هذا أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك فقال أحرجني الرجل فتكلمت وأحوجني الى ما به اعلمت فأقبل الوزير ابن جهور على محمد ابن حفص وقال اسأت الى الحاجب وأوجبت عليه غير الواجب أوما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لانه ان فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فان فعلوا طاف بهم من انكار السلطان ما يخشى ويخاف لانه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف وان تركوا الرد اسخطوا الله فصار الامساك أحسن ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن فانكسر ابن حفص وخجل مما أتى به من النقص وبلغه أن قوما توجعوا له وتفجعوا مما وصله فكتب اليهم

أحن الى أنفاسكم فأظنها * بواعث انفاس الحياة الى نفسي
وان زمانا صرت فيه مقيدا * لاثقل من رضوى وأضيق من أمس

انتهى ماترجم به المنصور بن أبي عامر ولنرجع فنقول ولما توفي المنصور قام بالامر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه اعيادا دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيها بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفرا الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلثمائة في المحرم وقيل سنة ثمان وتسعين وكاتبه المعز بن زيري ملك مغراوة بعد أن استرجع فاسا والمغرب اثر موت أبيه فكتب اليه العهد على المغرب وثارت الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم (قال ابن خلدون) ثم قام بالامر بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وقيل بالمأمون وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطالب

المظفر عبد الملك بن المنصور

الناصر لدين الله

من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوماً مشهوداً فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد ما نصه هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين الى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة وأهمه ما جعل الله اليه من الامامة وعصب به من أمر المؤمنين واتقى حلول القدر بما لا يؤمن وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشي ان هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الامة علماً تأوي اليه وملجأ تنعطف عليه أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق اليها وتقص عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند هذا الامر اليه ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته بعد اطراح الهوى والتحري للحق والزلفى الى الله جل جلاله بما يرضيه وبعد أن قطع الاواصر وأسخط الاقارب فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ويفوض اليه الخلافة بعده لفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه من المأمون الغيب الناصح الجيب أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر وفقه الله اذ كان أمير المؤمنين أيده الله تعالى قد ابتلاه واختبره ونظر في شأنه واعتبره فرآه مسارعاً في الخيرات سابقاً في الحلبات مستولياً على الغايات جامعاً للمأثرات ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه ويحوي من خلال الخير ما حواه مع ان أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاصي وأبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه فلما استوى له الاختبار وتقابلت عنده فيه الآثار ولم يجد عنه مذهبا ولا الى غيره معدلا خرج اليه من تدبير الامور في حياته وفوض اليه الخلافة بعد وفاته طائعا راضيا مجتهدا وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنجزه وأنفذه ولم يشرط فيه مثنوية ولا خيارا وأعطى على الوفاء به في سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول وأشهد الله على ذلك والملائكة وكفى بالله شهيدا وأشهد وهو جائز الامر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى وقبوله ما قلده والزامه نفسه ما ألزمه وذلك في شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم وتسمى بعدها بولي العهد * ونقم عليه أهل الدولة ذلك فكان فيه حتفه وانقراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الامويين والقرشيين فغصوا بامره واسفوا من تحويل الامر جملة من المضرية الى اليمنية فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور بلاد الجلالقة في غزاة من صوائفه ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين

وثلثمائة وخلعوا هشاما المؤيد * وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء ولقبوه المهدى بالله وطار الخبر الى عبد الرحمن الحاجب ابن المنصور بمكانه من الثغر فانفض جمعه وقفل الى الحضرة مدلا بمكانه زعيما بنفسه حتى اذا اقرب من الحضرة تسلل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدى القائم بالامر وأغروه بعبد الرحمن الحاجب لكونه ماجنا مستهترا غير صالح للامر فاعترضه منهم من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدى والى الجماعة وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن ولله عاقبة الامور وفى المهدى يقول بعضهم

قد قام مهدينا ولكن * بملة الفسق والمجون
وشارك الناس فى حريم * لولاه مازال بالمصون
من كان من قبل ذا اجا * فاليوم قد صار ذا قرون

وكان رؤساء البربر وزناتة لحقوا بالمهدى لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره وكانت الاموية تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين وتنسب تغلب المنصور وغيره على الدولة اليهم فسخطتهم القلوب وخزرتهم العيون ولولا مالهم من العصبية لاستأصلهم الناس ولفظت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم وأمر المهدى أن لا يركبوا ولا يتسلحوا ورد بعض رؤسائهم فى بعض الايام من باب القصر فانتهبت العامة دورهم وشكا بعضهم الى المهدى ما أصابهم فاعتذر وقتل من اتهم من العامة فى أمرهم وهو مع ذلك مظهر لبغضهم مجاهر بسوء الثناء عليهم وبلغهم انه يريد الفتك بهم فتمشت رجالاتهم وأسروا نجواهم واشتوروا فى تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر وفشا فى الخاصة حديثهم فعوجلوا عن مرامهم ذلك وأغرى بهم السواد الاعظم فثاروا بهم وأزعجوهم عن المدينة وتقبض على هشام وأخيه أبى بكر وأحضرا بين يدى المهدى فضرب أعناقهما ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتوامروا فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى ثغر طليطلة فاستجاش بابن ادفونش ثم نهض فى جموع البرابرة والنصرانية الى قرطبة وبرز اليه المهدى فى كافة أهل البلد وخاصة الدولة فكانت الدائرة عليهم واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفا وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة ولحق المهدى بطليطلة واستجاش بابن ادفونش ثانية فنهض معه الى قرطبة وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من ظاهر قرطبة ودخل قرطبة أعنى المهدى وملكها وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا فى البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء فخرج المهدى ومعه ابن أدفونش لاتباعهم فكروا عليهم فانهزم المهدى وابن أدفونش ومن معه من المسلمين والنصارى واتبعهم المستعين الى قرطبة فأخرج المهدى هشاما المؤيد للناس وبايع له وقام بأمر حجابته ظنا منه ان ذلك ينفعه وهيهات وحاصرهم المستعين والبربر فخشى أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم فأغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدى وان الفتنة انما جاءت من قبله وتولى كبر ذلك واضح العامرى فقتلوا المهدى واجتمع

الكافة على المؤيد وقام واضح بحجابته واستمر الحصار ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيأ الى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة وعدمت المرافق وجهدهم الحصار وبعث المستعين الى أهل ادفونش يستعديهم لمظاهرته فبعث اليهم هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتالة التى كان المنصور افتتحها فسكن عن مظاهرتهم عزم ادفونش ولم يزل الامر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة وقتل هشام سرا ولحق بيوتات قرطبة معرة فى نسائهم وأبنائهم وظن المستعين أن قد استحكم أمره وتوثبت البرابرة والعبيد على الاعمال فولوا المدن العظيمة وتقلدوا البلاد الواسعة مثل باديس بن حبوس فى غرناطة والبرزالى فى قرمونة واليفرنى فى رندة وخزرون فى شريش وافترق شمل الجماعة بالاندلس وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة مثل ابن عباد باشبيلية وابن الافطس ببطليوس وابن ذى النون بطليطلة وابن أبى عامر ببلنسية وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامرى بدانية والجزائر قال ابن خلدون وكان ما تلا لبنى حمود يهجو سليمان المستعين

لا رحم الله سليمانكم * فانه ضد سليمان
ذاك به غلت شياطينها * وحل هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا * لهلك سكان وأوطان

*(وكان من أعظم الاسباب) فى فساد دولة المستعين انه قال هذه الابيات مستريحا بها الى خواصه وهى قوله

حلفت بمن صلى وصام وكبرا * لاغمدها فيمن طغى وتجبرا
وأبصر دين الله تحيا رسومه * فيبدل ما قد كان منه وغيرا
فواعجبا من عبشمى مملك * برغم العوالى والمعالى تبربرا
فلو أن أمرى بالخيار نبذتهم * وحاكمتهم للسيف حكما محررا
فاما حياة تستلذ بفقدهم * واما حمام لا نرى فيه مأزرا

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المروانى فقال

قد بلغ البربر فينا بنا * ما أفسد الاحوال والنظما
كالسهم للطائر لولا الذى * فيه من الريش لما أصمى
قوموا بنا فى شأنهم قومة * تزيل عنا العار والرغما
اما بها نملك أو لا نرى * ما يرجع الطرف به أعمى

وكان على بن حمود الحسنى وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العدوة الى الاندلس فدعوا لانفسهم واعصوصب عليهم البربر فملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة وقتلوا المستعين ومحوا ملك بنى أمية واتصل ذلك فى خلف منهم سبع سنين ثم رجع الملك الى بنى أمية وكان المستعين المذكور أديبا بليغا ومن شعره يعارض هرون الرشيد فى قوله ملك الثلاث الآنسات عنانى الابيات قوله

عجبا يهاب الليث حد سنانى * وأهاب لحظ فواتر الاجفان

وأقارع الاهوال لا متهيبا * منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى * زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظلماء لحن لناظري * من فوق أغصان على كثبان
حاكمت فيهن السلو الى الهوى * فقضى بسلطان على سلطاني
هذي الهلال وتلك بنت المشترى * حسنا وهذي اخت غصن البان
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني * في عز ملكي كالاسير العاني
لا تعذلوا ملكا تذلل في الهوى * ذل الهوى عز وملك ثاني
ما ضر أني عبدهن صبابة * وبنو الزمان وهن من عبداني
ان لم اطع فيهن سلطان الهوى * كلفا بهن فلست من مروان

(وولى الامر بعده ابن حمود الحسني) تلقب بالناصر وخرج عليه العبيد وبعض المغاربة وبايعوا المرتضى أخا المهدي ثم اغتيل المرتضى واستقام الملك لعلي بن حمود نحو عامين الى أن قتله صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمائة فولى مكانه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون ونازعه الامر بعد أربع سنين من خلافته يحيي ابن أخيه وكان على سبتة فأجاز الى الاندلس سنة عشر واحتل بمالقة وكان أخوه ادريس بها منذ عهد أبيهما فبعثه الى سبتة ثم زحف يحيي الى قرطبة فملكها سنة ثنتي عشرة وأربعمائة وتلقب المعتلي وفر عمه المأمون الى اشبيلية وبايع له القاضي ابن عباد واستجاش بعض البرابرة ثم رجع الى قرطبة سنة ثلاث عشرة وملكها ثم لحق المعتلي بمكانه من مالقة وتغلب على الجزيرة الخضراء وتغلب أخوه ادريس على طنجة من وراء البحر وكان المأمون يعتدها حصنا لنفسه وفيها ذخائره فلما بلغه الخبر اضطرب وثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته وخرج فحاصرهم فدافعوه ولحق باشبيلية فمنعوه وكان بها ابنه فأخرجوه اليه وضبطوا بلدهم واستبد ابن عباد بملكها ولحق المأمون بشريش ورجع عنه البربر الى يحيي المعتلي ابن أخيه فبايعوه سنة خمس عشرة وزحف الى عمه المأمون فتغلب عليه ولم يزل عنده أسيرا وعند أخيه ادريس بمالقة الى أن هلك بمحبسه سنة سبع وعشرين وقيل انه خنق كما سيأتي واستقل المعتلي بالامر واعتقل بني عمه القاسم وكان المستكفي من الامويين استولى على قرطبة في هذه المدة عندما أخرج أهلها العلوية ثم خلع أهل قرطبة المستكفي الاموي سنة ست عشرة وصاروا الى طاعة المعتلي واستعمل عليهم ابن عطاف من قبله ثم نقضوا سنة سبع عشرة وصرفوا عاملهم وبايعوا المعتلي الاموي أخا المرتضى وبقي المعتلي يردد لحصارهم العساكر الى ان اتفقت الكلمة على اسلام الحصون والمدائن له فعلا سلطانه واشتد أمره الى أن هلك سنة تسع وعشرين اغتاله أصحابه بدسيسة ابن عباد الثائر باشبيلية فاستدعى أصحابه أخاه ادريس بن علي من سبتة وملكوه ولقبوه المتأيد وبايعته رندة وأعمالها والمرية والجزيرة الخضراء وبعث عساكره لحرب ابي القاسم اسمعيل بن عباد والد المعتضد بن عباد فجاؤه برأسه بعد حروب وهلك ليومين بعد ذلك سنة احدى وثلاثين وبويع ابنه يحيي ولم يتم له أمر وبويع حسن المستنصر بن المعتلي وفر يحيي الى قمارش فهلك بها سنة أربع وثلاثين

ويقال انه قتله نجاء وهلك حسن مسموما بيد ابنة عمه ادريس ثائرا منه بأخيها وكان ادريس بن يحيى المعتلي معتقلا بمالقة فأخرج بعد خطوب وبويع بها وأطاعته غرناطة وقرمونة ولقب العالى وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة بالمغرب التى قالها فيه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الفنداقى الاشبونى من شعراء الذخيرة وهى

ألبرق لائح من أندرين * ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية * كمخاريق بأيدى اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين * ولقلبى زفرات وأنين
وأناجى فى الدجى عاذلتى * ويك لا أسمع قول العاذلين
عيرتنى بسقام وضنى * ان هذين لدين العاشقين
قد بدا لى وضح الصبح المبين * فاسقنيها قبل تكبير الاذين
اسقنيها مزة مشمولة * لبثت فى دنها بضع سنين
نثر المزج على مفرقها * دررا عامت فعادت كالبرين
مع فتيان كرام نجب * يتهادون رياحين المجون
شربوا الراح على خد رشا * نور الورد به والياسمين
وجلت آياته عامرة * سبج الشعر على عاج الجبين
لوت الصدغ على حاجبه * ضمة اللام على عطفة نون
فترى غصنا على دعص نقا * وترى ليلا على صبح مبين
ويسقون اذا ما شربوا * بأباريق وكأس من معين
ومصابيح الدجى قد طفئت * فى بقايا من سواد الليل جون
وكأن الطل مسك فى الثرى * وكأن الطل در فى الغصون
والندى يقطر من نرجسه * كدموع اسكبتهن الجفون
والثريا قد هوت من افقها * كقضيب زاهر من ياسمين
وانبرى جنح الدجى عن صبحه * كغراب طار عن بيض كنين
وكأن الشمس لما اشرقت * فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على بن حمود أمير المؤمنين
ملك ذو هيبة لكنه * خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه * ادخلوها بسلام آمنين
فاذا ما رفعت راياته * خفقت بين جناحى جبرئين
واذا اشكل خطب معضل * صدع الشك بمصباح اليقين
فيسراه يسار المعسرين * ويمناه لواء السابقين
يابنى أحمد ياخير الورى * لابيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحى عليه فاحتبى * فى الدجا فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقا * وجميع الناس من ماء وطين

قوله من ماء وطين فى نسخة من ماء مهين اه

انظرونا نقتبس من نوركم * انه من نور رب العالمين

وقيل انه أنشده اياها من وراء حجاب اقتفاء لطريقة خلفاء بني العباس فلما بلغ الى قوله

انظرونا نقتبس من نوركم * انه من نور رب العالمين أمر حاجبه أن يرفع الحجاب

وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب وأمر له باحسان جزيل فكان هذا من أنبل ما يحكى عنه وخلع العالي سنة ثمان وثلاثين وولي ابن عمه محمد بن ادريس بن علي وتلقب بالمهدى وتوفي سنة أربع وأربعين وبويع ادريس بن يحيى بن ادريس ولقب الموفق ولم يخطب له بالخلافة وزحف العالي ادريس المخلوع الممدوح بالقصيدة السابقة وكان بقمارش فدخل عليه مالقة وأطلق ايدى عبيده عليها لحقده عليهم ففر كثير منهم وتوفي العالي سنة ست أو سبع وأربعين وبويع محمد بن ادريس ولقب المستعلي ثم سار اليه باديس بن حبوس سنة تسع وأربعين وأربعمائة فتغلب على مالقة وسار محمد الى المرية مخلوعا ثم استدعاه أهل المغرب الى مليلة وبايعوه سنة ست وخمسين وتوفي سنة ستين وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة أربع عشرة فر من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها وتلقب بالمعتصم الى أن هلك سنة أربعين ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق الى أن هلك سنة خمسين وصارت الجزيرة للمعتضد بن عباد ومالقة لابن حبوس منازعا لابن عباد وانقرضت دولة الاشراف الحموديين من الاندلس بعد أن كانوا يدعون الخلافة وأما قرطبة فان أهلها لما قطعوا دعوة الحموديين بعد سبع سنين من ملكهم وزحف اليهم القاسم بن حمود في البربر فهزمهم أهل قرطبة ثم اجتمعوا واتفقوا على رد الامر لبني امية واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدى وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ولقبوه المستظهر وقاموا بأمره ومن شعره قوله

طال عمر الليل عندى * قد تولعت بصدى

يا غزالا نقض العهد ولم يوف بوعد

انسيت العهد اذ بتنا على مفرش ورد

واجتمعنا في وشاح * وانتظمنا نظم عقد

ونجوم الليل تحكى * ذهبا في لازورد

قال الحجارى لو قال لؤلؤا في لازورد لكان أحسن تشبيها وأنشد متمثلا

انا عصابتك الاولى * كنا نكابد ما تكابد

هذا أوان غنا النعمى وانجاز المواعد

وكان حسان بن أبي عبدة من وزراء المستظهر ولما أكثر المستظهر دونه الاستبداد كتب اليه بقوله

اذا غبت لم أحضر وان جئت لم أسل * فسيان مني مشهد ومغيب

فأصبحت تيميا وما كنت قبلها * لتيم ولكن الشبيه نسيب

يشير الى قول الاول

ويقضى الامر حين يغيب تيم * ولا يستأذنون وهم شهود

وعاتبه أيضا بقوله

اذا كان مثلى لا يجاز بصبره * فمن ذا الذى بعدى يجازعلى الصبر
وكم مشهد جاريت فيه عدوكم * وأملت فى حربى له راحة الدهر
أخوض الى أعدائكم لجج الوغى * وأسرى اليهم حيث لا أحد يسرى
وقد نام عنهم كل مستبطن الحشى * أكول الى المسى نؤوم الى الظهر
فما بال هذا الامر أصبح ضائعا * وأنت أمين الله تحكم فى الامر

وسيأتى ان شاء الله تعالى من كلام الوزير المذكور ما يدل على عظيم قدره وهنالك نذكر تحلية الفتح له ثم سار عليه لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله فاتبعه الغوغاء وفتك بالمستظهر وتلقب بالمستكفى واستقل بأمر قرطبة وهو والد الاديبة الشهيرة ولادة واعلها نلم ببعض أخبارها ان شاء الله تعالى فيما بعد وكان أبو عبد الرحمن قتله المنصور بن أبى عامر لسعيه فى الخلافة ثم بعد ستة عشر شهرا من بيعة المستكفى رجع الامر الى المعتلى يحيى بن على بن حمود سنة ست عشرة وخلع أهل قرطبة المستكفى وولى عليهم المعتلى من قبله وفر المستكفى الى ناحية الثغر ومات فى فره ثم بدا لاهل قرطبة فخلعوا المعتلى بن حمود سنة سبع عشرة وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخى المرتضى وكان بالثغر فى لاردة عند ابن هود وذلك سنة ثمان عشرة وتلقب المعتمد بالله وأقام مترددا فى الثغر ثلاثة أعوام واشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف واتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة فاستقدمه ابن جهور والجماعة ونزل آخر سنة عشرين وأقام بها يسيرا ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين وفر الى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين وانقطعت الدولة الاموية من الارض واستبدلت الخلافة بالمغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف وانتزى الامراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات واقتسموا خطتها وتغلب بعض على بعض واستقل أخيرا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم وأقاموا على ذلك برهة من الزمان حتى قطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى فخلعهم وأخلى منهم الارض فمن أشهرهم بنو عباد ملوك اشبيلية فى غرب الاندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق وفى الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كاف شاف ومنهم بنو جهور وكانوا بقرطبة فى صورة الوزارة حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد وأخذ قرطبة وجعل عليها ولده ثم كانت له وعليه حروب وخطوب وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها واستفحل أمره بغرب الاندلس وعلت يده على من هنالك من ملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة وابن الافطس ببطليوس وابن صمادح بالمرية وغيرهم فكانوا يخطبون سلمه ويغلون فى مرضاته وكلهم يداورون الطاغية ويتقونه بالجزى الى أن ظهر يوسف بن تاشفين واستفحل ملكه فتعلقت آمال الاندلس باعانته وضايقهم الطاغية فى طلب الجزية فقتل المعتمد اليهودى الذى جاء فى طلب الجزية للطاغية بسبب كلمة قالها آسفه بها ثم أجاز البحر صريخا الى يوسف بن تاشفين فأجاز

معه البحر والتقوا مع الطاغية فى الزلاقة فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ونصر الله تعالى الاسلام نصرا لا كفاء له حتى قال بعض المؤرّخين انه كان عدد النصارى ثلثمائة ألف ولم ينج منهم الا القليل وصبر فيها المعتمد صبر الكرام وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء ثم طلب الفقهاء بالاندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال حتى اذا رجع من بلادهم رجعوا الى حالهم وهو خلال ذلك يردد عساكره للجهاد ثم أجاز اليهم وخلع جميعهم ونازلت عساكره جميع بلادهم واستولى على قرطبة واشبيلية وبطليوس وغرناطة وغيرها وصار المعتمد بن عباد كبير ملوك الاندلس فى قبضته أسيرا بعد حروب ونقله الى اغمات قرب مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة واعتقله هنالك الى أن مات سنة ثمان وثمانين وسلم بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه لما زار قبره وللمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصا مع زوجته أم أولاده الرميكية الملقبة باعتماد وقد روى أنها رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن فى القرب وهن رافعات عن سوقهن فى الطين فقالت له ياسيدى أشتهى ان أفعل أنا وجوارىّ مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طينا فى القصر وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين فيقال انه لما خلع وكانت تتكلم معه مرة فجرى بينهما ما يجرى بين الزوجين فقالت له والله ما رأيت منك خيرا فقال لها ولا يوم الطين تذكيرا لها بهذا اليوم الذى أباد فيه من الاموال ما لا يعلمه الا الله تعالى فاستحيت وسكتت وولى بعده غير من تقدم بنو رزين أصحاب السهلة وبنو الفهرى أصحاب البونت وتغلب عليهما أخيرا يوسف بن تاشفين * ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذى النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفى وكانت لهم دولة كبيرة وبلغوا فى البذخ والترف الى الغاية ولهم الاعذار المشهور الذى يقال له الاعذار الذنونى وبه يضرب المثل عند أهل المغرب وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق والمأمون من بنى ذى النون هو صاحب ذلك وهو الذى عظم بين ملوك الطوائف سلطانه وكان بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة وغلب على قرطبة وملكها من يد ابن عباد المعتمد وقتل ابنه أبا عمرو وغلب أيضا على بلنسية وأخذها من يد بنى ابن أبى عامر * وفى ايام حافد المأمون وهو القادر بن ذى النون كان الطاغية بن أدفونش قد استفحل أمره لما خلا الجو من مكانة الدولة الخلافية وخف ما كان على كاهله من اصر العرب فاكتسح البسائط وضايق ابن ذى النون حتى اخذ من يده طليطلة فخرج له عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما سبق وشرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية فقبل شرطه وتسلمها الفونش ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ثم زحف على الموالى العامريين مثل خيران وزهير وأشباههما وأخبار الجميع تطول * ومن ملوك الطوائف بالاندلس بنو هود ملوك سرقسطة وما اليها ومن أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وكان المؤتمن قائما على الامور الرياضية وله فيها تآليف ومنها كتاب الاستكمال والمناظر وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طليطلة وعلى يده كانت وقعة وشقة وكان زحف

سنة تسع وثمانين فى آلاف لا تحصى من المسلمين لمدافع الطاغية عن وشقة وكان محاصرا لها فلقيه الطاغية وهزمه وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف وهلك هو شهيدا سنة ثلاث وخمسمائة بظاهر سرقسطة فى زحف الطاغية اليها وولى ابنه عبد الملك عماد الدولة وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثنتى عشرة وتولى ابنه سيف الدولة وبالغ فى النكاية بالطاغية ثم اتفق معه وانتقل بحشمه الى طليطلة فكان فيها حمامه * ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله فى مبانيه

قصر السرور ومجلس الذهب * بكما بلغت نهاية الارب

لو لم يحز ملكى خلافكما * كانت لدى كفاية الطلب

ومن مشاهير ملوك بنى الافطس أصحاب بطليوس وما اليها والمظفر منهم هو صاحب التأليف المسمى بالمظفرى فى نحو الخمسين مجلدا والمتوكل منهم قتل على يد جيش يوسف بن تاشفين وفيه قال ابن عبدون قصيدته المشهورة

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهى من غرر القصائد الاندلسية وأزالوا ملوك الطوائف منها وبقيت عمالهم تتردد اليها وبنوهم حتى فشلت ريحهم وهبت ريح الموحدين أعنى عبد المؤمن بن على وبنيه فحاربوا لمتونة واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ثم جازوا البحر الى الاندلس وملكوا أكثر بلاد الاندلس وملك بنو مردنيش شرق الاندلس وملخص ذلك أن الاندلس كان ملكها مجموعا للمتونة بعد خلعهم ملوك الطوائف فلما اشتغل لمتونة فى العدوة بحرب الموحدين اضطربت عليهم الاندلس وعادت الى الفرقة بعض الشئ ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب ومنها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مردنيش وقائده ابن همشك بفحص غرناطة وقد استعان ابن مردنيش بالنصارى على الموحدين فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم أبرح قتل واستخلص غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مردنيش * وولى الامر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف وأجاز الى الاندلس وكانت له مواقف فى جهاد العدو * وولى بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت وكانت له فى النصارى بالاندلس نكاية كبيرة ومن أعظمها غزوة الارك التى تضاهى وقعة الزلاقة أو تزيد والارك موضع بنواحى بطليوس وكانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره وكان عدة من قتل من الفرنج فيما قيل مائة ألف وستة وأربعين ألفا وعدة الاسارى ثلاثين ألفا وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة والخيل ثمانين ألفا والبغال مائة ألف والحمير أربعمائة ألف جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لانهم لا ابل لهم وأما الجواهر والاموال فلا تحصى وبيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم والفرس بخمسة دراهم والحمار بدرهم وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ونجى الفنش ملك النصارى الى طليطلة فى أسوإ حال فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وآلى أن لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ بالثار وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه الى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها

قوله وستة وأربعين فى بعض النسخ وخمسين فليحرر اه

ولم يبق الا فتحها فخرجت اليه والدة الادفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه ابقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن بها ووهب لهن من الاموال والجواهر ما جل ورده ن مكرمات وعفا بعد القدرة وعاد الى قرطبة فأقام شهرا يقسم الغنائم وجاءته رسل الفنش بطلب الصلح فصالحه وأمن الناس مدته وفيه يقول بعض شعراء عصره

أهل بأن يسعى اليه ويرتجى * ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلدا * وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره * وتعطرت منه الرياح تأرجا

ولما أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمس الدين بن منقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة ولم يخاطبه بأمير المؤمنين فلم يجبه الى ما طلبه وكل ذلك في سنة ٥٨٧ ومدحه ابن منقذ بقوله من قصيدة

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود ما لأخراه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الندى * الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المؤمنين ولم تزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا * بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلا فبلغتها * وأدنى عطاياك العلا والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا * تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدتها أربعون بيتا فأعطاه بكل بيت ألفا وقال له انما أعطيناك لفضلك ولبيتك وكان عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين الى أمير المسلمين وفي أوله الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب وبعده من انشاء الفاضل الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الارض وأغنى من أهلها من سأله القرض وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض وهو كتاب طويل سأله فيه أن يقطع عنه مادة البحر واستنجده على الافرنج اذ كانت له اليد عليهم وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ بغير فائدة وبعث معه هدية حقيرة وأما ابن منقذ فانه أحسن اليه وأغناه لا لاجل صلاح الدين بل لبيته وفضله كما مر وما وقع من يعقوب في صلاح الدين انما هو لاجل انه لم يوفه حقه في الخطاب *(رجع)* ولما استفحل أمر الموحدين بالاندلس استعملوا القرابة على الاندلس وكانوا يسمونهم السادة واقتسموا ولايتها بينهم ولهم مواقف في جهاد العدو مذكورة وكان صاحب الامر بمراكش يأتي الاندلس للجهاد وهزم يعقوب المنصور كما سبق قريبا بالارك ابن ادفونش ملك الجلالقة الهزيمة الشنعاء وأجازابنه الناصر الوالي بعده البحر الى الاندلس من المغرب سنة تسع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يحصى حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب انه اجتمع معه من أهل الاندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل فمحص الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب واستشهد منهم عدة وكانت سبب ضعف المغرب والاندلس أما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأقطاره وأما الاندلس فبطلب العدو عليها لانه لما التاث أمر الموحدين بعد الناصر

ابن المنصور وانتزى السادة بنواحى الاندلس كل فى عمله وضعف ملكهم عن اكتش فصاروا الى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض واسلام حصون المسلمين اليه فى ذلك فمشت رجالات الاندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الاموية وأجمعوا على اخراجهم فساروا به ملين واحد واخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامى الثائر بالاندلس وابن مردنيش وثوار آخرون * وقال ابن خلدون ثم خرج على بن هود فى دولته من أعقاب دولة العرب أيضا وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر وتلقب محمد هذا بالشيخ فجاذبه الحبل وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه انتهى * وكان ابن هود يخطب للعباسى صاحب بغداد ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروب وخطوب الى أن كان آخرهم الواثق ابن المتوكل فضايقه الفنش والرشلونى فبعث بالطاعة لابن الاحمر فبعث اليه ابن اشقيلولة وتسلم مرسية منه وخطب لابن الاحمر بها ثم خرج منها راجعا الى ابن الاحمر فأوقع به النصارى فى طريقه ثم رجع الواثق الى مرسية ثالثة فلم يزل بها الى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين وستمائة وعوضه عنها حصنا يسمى يسر وهو من عملها فبقى فيه الى أن هلك وانقرضت دولة ابن هود والله وارث الارض ومن عليها (رجع) الى ذكر دولة اولاد الاحمر لان لسان الدين وزير أحدهم ولانهم آخر ملوك الاندلس ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره وقيل أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف من أبناء الجند ويعرفون ببنى نصر وينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين نصر بن يوسف بن نصر ويعرف بالشيخ وأخوه اسمعيل وكانت له وجاهة فى ناحيتهم * ولما فشلت ريح الموحدين وانتزى الثوار بالاندلس وأعطى السادة حصونها للطاغية واستقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية بدعوة العباسية وتغلب على شرق الاندلس أجمع فتصدى الشيخ هذا للثورة عليه وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ودعا لابى زكريا صاحب افريقية وأطاعته جيان وشريش سنة ثلاثين بعدها واستظهر على أمره بقرابته من بنى نصر وأصهاره بنى اشقيلولة ثم بايع لبنى هود سنة احدى وثلاثين عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد ثم ثار باشبيلية أبو مروان الباجى عند خروج ابن هود عنها ورجوعه الى مرسية فداخله محمد بن الاحمر فى الصلح على أن يزوجه ابنته فأطاعه ودخل اشبيلية سنة اثنتين وثلاثين ثم فتك بابن الباجى فقتله وتناول البطش به على بن اشقيلولة ثم راجع أهل اشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هود وأخرج ابن الاحمر ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها حين ثار ابن أبى خالد بدعوته فيها ووصلته بيعتها وهو بجيان فقدم اليها على بن اشقيلولة ثم جاء على أثره ونزلها وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله ثم تغلب على مالقة ثم تناول المرية من يد ابن الرميمى وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاث وأربعين ثم بايعه أهل لورقة سنة ثلاث وستين وكان ابن الاحمر أول أمره وصل يده بالطاغية استظهارا على أمره فعضده وأعطاه ابن هود ثلاثين حصنا فى كف غربه بسبب ابن الاحمر وليعينه على ملك قرطبة فتسلمها ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أعادها الله ثم نازل اشبيلية

سنة ست وأربعين وابن الاحمر معه ثم دخلها صلحا وملك أعمالها ثم ملك مرسية سنة خمس وستين ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورة كورة وثغرا ثغرا الى أن ألجأ المسلمين الى سيف البحر ما بين رندة من المغرب الى شرق الاندلس نحو عشر مراحل ثم سخط ابن الاحمر وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه وتلاحق بالاندلس الغزاة من بني مرين وغيرهم وعقد ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم فأجازوا في حدود الستين وستمائة وتقبل ابن الاحمر اجازتهم ودفع بهم في نحر عدوهم ورجعوا ثم تناسلوا اليه بعد ذلك ولم يزل الامر على ذلك الى أن هلك الشيخ بن الاحمر سنة احدى وسبعين وستمائة وولي بعده ابنه محمد الفقيه وأوصاه باستصراخ بني مرين ملوك المغرب بعد الموحدين ان طرقه أمر أن يعتضد بهم فأجاز الفقيه الى يعقوب بن عبد الحق سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين فأجاب صريخه وأرسل ابنه وعساكره معه ثم أجاز على اثره وتسلم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وخطها ركابا للجهاد ونزل اليه ابن الاحمر عن طريف وما اليهما من الحصون وهزم هو وابن الاحمر زعيم النصرانية دننة وفرق جمعه وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة وبث سراياه وبعوثه في أرض النصرانية ثم خاف ابن الاحمر على ملكه وصالح الطاغية ثم عاد انتهى كلام ابن خلدون ملخصا وثبتت عقب ابن الاحمر بالاندلس واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورندة التي كانت بيد بني مرين وقعد مدة ألب ملوك النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غرناطة وجاءها الطاغية دون بطرة في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا وكان من خبر هذه الوقعة أن الافرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بطرة الى طليطلة ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا وسجد له وتضرع وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالاندلس وأكد عزمه فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها وعزموا على الاستنجاد بالمريني أبي سعيد صاحب فاس ونفذوا اليه رسلا فلم ينجع ذلك الدواء فرجعوا الى أعظم الادوية وهو اللجأ الى الله تعالى وأخلصوا النيات وأقبل الافرنج في جموع لا تحصى فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزم أمم النصرانية وقتل طاغيتهم دون بطرة ومن معه وكان نصرا عزيزا ويوما مشهورا مشهودا وكان السلطان اذ ذاك بالاندلس الغالب بالله ابو الوليد اسمعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الاحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء فانتدب السلطان ابن الاحمر لردهم وجهز الاساطيل والرجال فلما رأوا ذلك طلبوا الى طليطلة وعزموا على استئصال المسلمين وبلادهم وتأهبوا لذلك غاية الاهبة ووصلت الاثقال والمجانيق وآلات الحصار والاقوات في المراكب ووصل العدو الى غرناطة وامتلأت الارض بهم فتقدم السلطان الى شيخ الغزاة الشيخ العالم ابي سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني بالخروج الى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم فخرج اليهم يوم الخميس الموفي عشرين لربيع الاول ولما كانت ليلة الاحد أغارت سرية من العدو على سرية من المسلمين فخرجت اليهم جماعة من فرسان الاندلس الرماة فقطعوهم عن الجيش وفرت تلك السرية أمامهم

الى

الى جهة سلطانهم فتبعهم المسلمون الى الصبح فاستنا صلوهم وكان هذا اول النصر ولما كان يوم الاحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو فى خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين فلما شاهدهم الفرنج ثبتوا من اقدامهم مع قلتهم فى تلك الجيوش العظيمة فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين الى الديار المصرية وكان من جملة الاسارى امرأة الطاغية وأولاده فبذلت فى نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك وزادت عدة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال انه هلك منهم بالوادى مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم واستمر البيع فى الاسرى والاسباب والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد ومن العجب انه لم يقتل من المسلمين والاجناد سوى ثلاثة عشر فارسا وقيل عشرة أنفس وقيل كان عسكر الاسلام نحو ألف وخمسمائة فارس والرجالة نحوا من أربعة آلاف راجل وقيل دون ذلك وكانت الغنيمة تفوق الوصف وسلخ الطاغية دون بطره وحشى جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقى معلقا سنوات وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم وبعد أن ملكوا جبل الفتح الذى كان من أعمال فاس والمغرب وهو جبل طارق لم يزل بأيديهم الى أن ارتجعه أمير المسلمين ابو الحسن المرينى صاحب فاس والمغرب بعد أن أنفق عليه الاموال وصرف اليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به الى أن استرجعوه ليد المسلمين واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال مال فى بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومحاربه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصبر المسلمون وخيب الله سعى الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو فى منازلته ولا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الاموال وأنصف العمال فأحاط بجموعه احاطة الهالة بالهلال وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر وزاد فى تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ولما أجاز السلطان أبو الحسن المذكور الى الاندلس واجتمع عليه ابن الاحمر وقاتلهم الطاغية هزمهم فى وقعة طريف واستولى على الجزيرة الخضراء حتى قيض الله من بنى الاحمر الغنى بالله محمدا الذى كان لسان الدين بن الخطيب وزيره فاسترجعها وجملة بلاد كجيان وغيرها وكانت له فى الجهاد مواقف مشهورة واستند ملكه حتى تحادولة سلاطين فاس عما وراء البحر وملك جبل الفتح ونصر الله الاسلام على يده كما ستقف عليه فى بعض مكاتبات لسان الدين رحمه الله فى مواضع من هذا الكتاب وسعد هذا الغنى بالله من العجائب وبقى ملك الاندلس فى عقبه الى أن أخذ ما بقى من الاندلس

العدو الكافر واستولى على حضرة الملك غرناطة أعادها الله للاسلام كما نبين ذلك ان شاء الله وخلت جزيرة الاندلس من أهل الاسلام فأبدلت من النور بالظلام حسبما اقتضته الاقدار النافذة والاحكام والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين قال ابن خلدون واتفق بنو الاحمر سلاطين غرناطة أن يجعلوا مشيخة الغزاة لواحد يكون من أقارب بني مرين سلاطين المغرب لانهم أول من ولى الاندلس عند استيلاء بني عمهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة وكان لهؤلاء في الجهاد مواقف مشهورة منها ما كتب على قبر شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء لتستدل عند ذلك على ما ذكرناه بحمد الله تعالى هذا قبر شيخ الحماه وصدر الابطال والكماه واحد الجلاله ليث الاقدام والبساله علم الاعلام حامى ذمار الاسلام صاحب الكتائب المنصوره والافعال المشهوره والمغازى المسطوره وامام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد وقاصم الاعاد وأسد الآساد العالى الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الارضى البطل الباسل الامضى المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الاصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق كان عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوه حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوه وقطع عمره مجاهدا مجتهدا في طاعة الرب محتسبا في ادارة الحرب ماضي العزائم في جهاد الكفار مصادما بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الاقطار أشهر من المثل السيار حتى توفى رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفي ملحمة الجهاد قبضه الله تعالى اليه واستأثر به سعيدا مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول واسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلا على نيته الصالحه وتجارته الرابحه فارتجت الاندلس لبعده أتحفه الله تعالى رحمة من عنده توفى يوم الاحد الثانى لذى الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة انتهى * ومنها ما كتب به لسان الدين بن الخطيب رحمه الله في تولية على بن بدر الدين مشيخة الغزاة ما نصه هذا شيخ الغزاة الذى فتح على الاسلام أبواب السراء وراق طرازا مذهبا على عاتق الدولة الغراء وأعمل عوامل الجهاد في طاعة رب العباد شارعة لاهل الكفر والعناد من باب الاعمال والاغراء أمر به فلان صدر صدور أوداته وحسامه المشهور على أعدائه ووليه الذى خبر صدق وفائه وجلى في مضمار الخلوص له مغبرا في وجوه اكفائه شيخ شيوخ المجاهدين وقائد كتائبه المنصورة الى غزو الكافرين والمعتدين وعترته التي يدافع بها عن الدين وسابق ودّه المبرور في الميادين الشيخ الاجل الى آخر ما وصفه به مما ضاق الوقت عن مثله والله ولي التوفيق

(الباب الرابع)

في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها للاعداء قاهره وجامعها الاموي ذى البدائع

الباهية الباهره والالماع بحضرة الملك الناصرية الناصره والعامرية الزاهره ووصف جملة من منتزهات تلك الاقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهره وما يجر اليه شجون الحديث من أمور تقضي بحسن اداتها القرائح الوقادة والافكار الماهرة قال ابن سعيد رحمه الله *(مملكة قرطبة في الاقليم الرابع وايالته للشمس وفي هذه المملكة معدن الفضة الخالصة في قرية كرتش ومعدن الزئبق والزنجفر في بلد بسطانسه ولاجزائها خواص مذكورة في متفرقاتها وأرضها أرض كريمة النبات انتهى وقدم رحمه الله في المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الاندلس وقال انما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الاندلسية لكون سلاطين الاندلس الاول اتخذوها سريرا لسلطنة الاندلس ولم يعدلوا عن حضرتها ثم سلاطين بني أمية وخلفاؤهم لم يعدلوا عن هذه المملكة وتقلبوا منها في ثلاثة أقطار أداروا فيها خلافتهم قرطبة والزهراء والزاهرة وانما اتخذوها لهذا الشان لما رأوها لذلك أهلا وقرطبة أعظم علما وأكثر فضلا بالنظر الى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها ثم قسم ابن سعيد كتاب الحلة المذهبة في حلى ممالك قرطبة بالنظر الى الكور الى أحد عشر كتابا الكتاب الاول كتاب الحلى الذهبية في حلى الكورة القرطبية الكتاب الثاني كتاب الدرر المصونة في حلى كورة بلكونة الكتاب الثالث كتاب محادثة السير في حلى كورة القصير الكتاب الرابع كتاب الوشي المصور في حلى كورة المدور الكتاب الخامس كتاب نيل المراد في حلى كورة مراد الكتاب السادس كتاب المزنة في حلى كورة كزنة الكتاب السابع كتاب الدر النافق في حلى كورة غافق الكتاب الثامن كتاب النفحة الارجه في حلى كورة استجه الكتاب التاسع كتاب الكواكب الدريه في حلى الكورة القبريه الكتاب العاشر كتاب رقة المحبه في حلى كورة استبه الكتاب الحادي عشر كتاب السوسانه في حلى كورة البسانه انتهى قال رحمه الله تعالى ان العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انه كان يمشي فيها لضوء السرج الممتدة عشرة أميال حسبما ذكره الشقندي في رسالته ثم قال ولكل مدينة من مدن قرطبة وأعمالها ذكر مختص به ثم ذكر المسافات التي بين ممالك قرطبة المذكورة فقال بين المدور وقرطبة ستة عشر ميلا وبين قرطبة ومراد خمسة وعشرون ميلا وبين قرطبة والقصير ثمانية عشر ميلا وبين قرطبة وغافق مرحلتان وبين قرطبة واستبه ستة وثلاثون ميلا وبين قرطبة وبلكونة مرحلتان وبين قرطبة والبسانه أربعون ميلا وبين قرطبة وقبرة ثلاثون ميلا وبين قرطبة وبيانة مرحلتان وبين قرطبة واستجة ثلاثون ميلا وكورة رندة كانت في القديم من عمل قرطبة ثم صارت من مملكة اشبيلية وهي أقرب وأدخل في المملكة الاشبيلية انتهى (ثم قسم رحمه الله كتاب الحلة الذهبية في حلى الكورة القرطبية الى خمسة كتب)* الكتاب الاول كتاب النغم المطربه في حلى حضرة قرطبة الكتاب الثاني كتاب الصبيحة الغراء في حلى حضرة الزهراء الكتاب الثالث كتاب البدائع الباهرة في حلى حضرة الزاهرة الكتاب الرابع كتاب الوردة في حلى مدينة شقندة الكتاب الخامس كتاب الجرعة السيغة في حلى كورة

وزغة وقال رحمه الله تعالى فى كتاب النغم المطربة فى حلى حضرة قرطبة ان حضرة قرطبة احدى عرائس مملكتها وفى اصطلاح الكتاب ان للعروس الكاملة الزينة منصة وهى مختصة بما يتعلق بذكر المدينة فى نفسها وتاجا وهو مختص بالايالة السلطانية وسلكا وهو مختص بأصحاب درر الكلام من النثار والنظام وحلة وهى مختصة بأعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر ولا يجب اهمال تراجمهم وأهدابا وهى مختصة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه انتهى ثم فصل رحمه الله ذلك كله بما تعددت منه الاجزاء وقد لخصت منه هنا بعض ما ذكر ثم أردفته بكلام غيره فأقول قال فى كتاب اجاران قرطبة بالظاء المعجمة ومعناه أجرسا كنها يعنى عربت بالطاء ثم قال ودور مدينة قرطبة ثلاثون ألف ذراع انتهى وقال غيره ان تكسيرها ومساحتها التى دار السور عليها دون الارباض طولا من القبلة الى الجوف ألف وستمائة ذراع واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا وفرسخين عرضا وذلك من الاميال أربعة وعشرون فى الطول والعرض ستة وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى الكبير وليس فى الاندلس وادى يسمى باسم عربى غيره ولم تزل قرطبة فى الزيادة منذ الفتح الاسلامى الى سنة أربعمائة فانحطت واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن الى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدو الكافر لها فى ثانى وعشرى شوال سنة ستمائة وثلاث وعشرين * ثم قال هذا القائل ودور قرطبة المسور منها دون الارباض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ودور قصر امارتها ألف ذراع ومائة ذراع انتهى وعدد أرباضها احد وعشرون فى كل ربض منها من المساجد والاسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون الى غيره وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القلانس منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وحفظ المدونة وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال بلدهم انتهى قال وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبى عامر الى ثلاثة آلاف ألف دينار بالانصاف وقد ذكرنا فى موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا فالله أعلم وما أحسن قول بعضهم

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها * ولا تعظم بلاد الفرس والصين

فما على الارض قط مثل قرطبة * وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

(وقال بعضهم) قرطبة قاعدة الاندلس ودار الملك التى يجبى لها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية واسطة بين الكور موفية على النهر زاهرة مشرقة أحدقت بها المنى فحسن مرآها وطاب جناها وفى كتاب فرحة الانفس لابن غالب أما قرطبة فانه لفظ يحو الى لفظ اليونانيين وتأويله القلوب المشككة وقال أبو عبيد البكرى انها فى لفظ القوط بالطاء المعجمة وقال الحجارى الضبط فيها باهمال الطاء وضمها وقد يكسرها المشرقيون فى الضبط كما يعجمها آخرون انتهى (وقال بعض العلماء) أما قرطبة فهى قاعدة الاندلس وقطبها

وقطرها الاعظم وأم مدائنها ومساكنها ومستقر الخلفاء ودار المملكة فى النصرانية والاسلام ومدينة العلم ومستقر السنة والجماعة نزلها جملة من التابعين وتابع التابعين ويقال نزلها بعض الصحابة وفيه كلام * وهى مدينة عظيمة ازلية من بنيان الاوائل طيبة الماء والهواء أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب وبها المحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد الاندلس نظير ولا أعظم منه بركة * وقال الرازى قرطبة أم المدائن وسرة الاندلس وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والاسلام ونهرها أعظم أنهار الاندلس وبها القنطرة التى هى احدى غرائب الارض فى الصنعة والاحكام والجامع الذى ليس فى بلاد الاندلس والاسلام أكبر منه * وقال بعضهم هى أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل وسعة محل وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق ويزعم قوم من أهلها انها كأحد جانبى بغداد وان لم تكن كأحد جانبى بغداد فهى قريبة من ذلك ولاحقة به وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة وفيها كان سلاطينهم قديما ودورهم داخل سورها المحيط بها وأكثر أبواب القصر السلطانى من البلد وجنوب قرطبة على نهرها قال وقرطبة هذه بائنة عن مساكن ارباضها ظاهرة ودرت بها فى غير يوم فى قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشيا * وقال وكانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع علماء الانام الاعلام بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية واليها كانت الرحلة فى رواية الشعر والشعراء اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ويبارى فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ولم تبرح ساحاتها مجر عوالى ومجرى سوابق ومحط معالى ومحى حقائق وهى من بلاد الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد والزور من الاسد ولها الداخل الفسيح والخارج الذى يمتع البصر بامتداده فلا يزال مستريحا وهو من تردد النظر طليح * وقال الحجارى حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة وهى كانت الغاية ومركز الراية وأم القرى وقرارة اولى الفضل والتقى ووطن اولى العلم والنهى وقلب الاقليم وينبوع متفجر العلوم وقبة الاسلام وحضرة الامام ودار صوب العقول وبستان ثمر الخواطر وبحر درر القرائح ومن أفقها طلعت نجوم الارض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة والسبب فى تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لانواع العلم والادب انتهى * (وقال على بن سعيد) أخبرنى والدى أن السلطان الاعظم أبا يعقوب بن عبد المؤمن قال لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد ما عندك فى قرطبة قال فقلت له ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها فقال السلطان ان ملوك بنى أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة الديار الكثيرة المنفسحة والشوارع المتسعة والمبانى الضخمة والنهر الجارى والهواء المعتدل والخارج النضر والمحرث العظيم والشعرى الكافية والتوسط بين شرق الاندلس

وغربها * قال فقلت ما أبقى لى أمير المؤمنين ما أقول * ثم قال ابن سعيد ومن كلام والدى فى شأنها هى من أحسن بلاد الاندلس مبانى وأوسعها مسالك وأبرعها ظاهرا وباطنا وتفضل اشبيلية بسلامتها فى فصل الشتاء من كثرة الطين ولأهلها رياسة ووقار ولا تزال سمة العلم متوارثة فيهم الا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشنيعا وتشغيبا ويضرب بهم المثل ما بين أهل الاندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بأمورهم حتى ان السيد أبا يحيى بن يعقوب بن عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له كيف وجدت أهل قرطبة قال مثل الجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان أثقلته به صاح ما ندرى أين رضاهم فنقصده ولا أين سخطهم فنجتنبه وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق وان العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندى ولاية وان كانت العودة اليها القائل لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين *(قال والدى) ومن محاسنها ظرف اللباس والتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة وتعظيم أهلها لجامعها الاعظم وكسر أوانى الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها والتستر بأنواع المنكرات والتفاخر بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم وهى أكثر بلاد الاندلس كتبا وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة حتى ان الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس الا لأن يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به * (قال الحضرمى) أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء الى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة على الى أن بلغ فوق حده فقلت له يا هذا أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوى قال فأرانى شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده قال فقال لى لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ولكنى أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين أعيان البلد وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير قال الحضرمى فأحرجنى وحملنى على أن قلت له نعم لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك يعطى الجوز من لا له أسنان وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه * (قال ابن سعيد) وجرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين الفقيه العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه ما أدرى ما تقول غير أنه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية * (وسئل ابن بشكوال) عن قصر قرطبة فقال هو قصر أولى تداولته ملوك الامم من لدن عهد موسى النبى صلى الله على نبينا وعليه وسلم وفيه من المبانى الاولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط

والامم السالفة ما يعجز الوصف ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الاندلس بما فيها فى قصرها البدائع الحسان وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الانيقة وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة وتموّنوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموّه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى احواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة قال وفى هذا القصر القصاب العالية السموّ المنيفة العلوّ التى لم ير الراؤن مثلها فى مشارق الارض ومغاربها *(قال) ومن قصوره المشهورة وبساتينه المعروفة الكامل والمجدّد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرستق وقصر السرور والتاج والبديع *(قال) ومن أبوابه التى فتحها الله لنصر المظلومين وغياث الملهوفين والحكم بالحق الباب الذى عليه السطح المشرف الذى لا نظير له فى الدنيا وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها وقد صوّرت صورة انسان فاتح فمه وهى حلق باب مدينة أربونة من بلد الافرنج وكان الامير محمد قد افتتحها فجلب حلقها الى هذا الباب وله باب قبلى أيضا وهو المعروف بباب الجنان وقدام هذين البابين المذكورين على الرصيف المشرف على النهر الاعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الامير هشام الرضى يستعمل الحكم فى المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل وله باب ثالث يعرف بباب الوادى وله باب بشماله يعرف بباب قورية وله باب رابع يدعى بباب الجامع وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع على الساباط وعدد أبوابا بعد هذا طمست أيام فتنة المهدى بن عبد الجبار *(وذكر ابن بشكوال رحمه الله) أن أبواب قرطبة سبعة أبواب باب القنطرة الى جهة القبلة ويعرف بباب الوادى وبباب جزيرة الخضراء وهو على النهر وباب الحديد ويعرف بباب سرقسطة وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التى تشق دائرة الارض من جزيرة قادس الى قرمونة الى قرطبة الى سرقسطة الى طركونة الى أربونة مارّة فى الارض الكبيرة ثم باب طليرة وهو أيضا باب ليون ثم باب عامر القرشى وقدامه المقبرة المنسوبة اليه ثم باب الجوز ويعرف بباب بطليوس ثم باب العطارين وهو باب اشبيلية انتهى وذكر أيضا ان عدد أرباض قرطبة عند انتهائها فى التوسع والعمارة احد وعشرون ربضا منها القبلية بعدوة النهر ربض شقندة وربض منية عجب وأما الغربية فتسعة ربض حوانيت الريحانى وربض الرقاقين وربض مسجد الكهف وربض بلاط مغيث وربض مسجد الشفا وربض حمام الالبيرى وربض مسجد السرور وربض مسجد الروضة وربض السجن القديم وأما الشمالية فثلاثة ربض باب اليهود وربض مسجد أم سلمة وربض الرصافة وأما الشرقية فسبعة ربض سبلار وربض فرن بريل وربض البرج وربض منية عبد الله وربض منية المغيرة وربض الزاهرة وربض المدينة العتيقة قال ووسط هذه الارباض قصبة قرطبة التى تختص بالسور ونها

وكانت هذه الارباض بدون سور فلما كانت أيام الفتنة صنع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع *(وذكر ابن غالب) انه كان دور هذا الحائط أربعة وعشرين ميلا وشقندة معدودة فى المدينة لانها مدينة قديمة كانت مسورة *(قال ابن سعيد) فى المغرب ولنذكر الآن من منتزهات قرطبة ومعاهدها المذكورة فى الالسن نظما ونثرا ما انتهى اليه الضبط من غير تغلغل فى غير المشهور منها والاهم ونوشى ذلك بجميع ما يحضرنى من مختار النظم فى قرطبة وما يحتوى عليه نطاقها المذكور فأول ما نذكر من المنتزهات منتزهات الخلفاء المروانية وهو قصر الرصافة فنقول كان هذا القصر مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية فى أول أيامه لتنزهه وسكناه أكثر أوقاته منية الرصافة التى اتخذها بشمال قرطبة منحرفة الى الغرب فاتخذ بها قصرا حسنا ودحا جنانا واسعة ونقل اليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية فى المدة القريبة أشجارا معتمة أثرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الاندلس فاعترف بفضلها على أنواعها قال وسماها باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الاثيرة لديه ولميله فى اختيار هذه وكلفه بها وكثرة تردده عليها وسكناه أكثر أوقاته بها طار لها الذكر فى أيامه واتصل من بعده فى ايثارها قال وكلهم فضلها وزاد فى عمارتها وانبرى أوصاف الشعراء لها فتنازعوا فى ذلك فيما هو الى الآن مشهور مأثور عنهم مستجاد منهم * وقال ابن سعيد والرمان السفرى الذى فاض على أرجاء الاندلس وصاروا لا يفضلون عليه سواه أصله من هذه الرصافة وقد ذكر ابن حيان شأنه وأفرد له فصلا فقال انه الموصوف بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ودقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة وكان رسوله الى الشام فى توصيل أخته منها الى الاندلس قد جلب طرائف منها من رمان الرصافة المنسوبة الى هشام قال فعرضه عبد الرحمن على خواص رجاله مباهيا به وكان فيمن حضره منهم سفر بن زيد الكلاعى من جند الاردن ويقال هو من الانصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته قال وهم يحملون الألوية بين يدى الخلفاء من بنى أمية فأعطاه من ذلك الرمان جزءا فراقه حسنه وخبره فسار به الى قرية بكورة رية فعالج عجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجرا أغر وأينع فنزع الى عرقه وأغرب فى حسنه فجاء به عما قليل الى عبد الرحمن فاذا هو أشبه شئ بذلك الرصافى فسأله الامير عنه فعرفه وجه حيلته فاستبرع استنباطه واستنبل همته وشكر صنعه وأجزل صلته واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جنانه فانتشر نوعه واستوسع الناس فى غراسه ولزمه النسب اليه فصار يعرف الى الآن بالرمان السفرى قال وقد وصف هذا الرمان محمد بن روح الشاعر فى أبيات كتب بها الى بعض من أهداه له فقال

ولابسة صدفا أحمرا * أتتك وقد ملئت جوهرا
كأنك فاتح حق لطيف * تضمن مرجانه الاحمرا
حبوبا كمثل لثات الحبيب * رضابا اذا شئت أو منظرا
وللسفر تعزى وما سافرت * فتشكو النوى أو تقاسى السرى

بلى فارقت ايكهما ناعما * رطيبا وأغصانها نضرا
وجاءتك معتاضة اذ أتتك * بأكرم من عودها عنصرا
بعود ترى فيه ماء الندى * ويورق من قبل أن يثمرا
هدية من لو غدت نفسه * هدية ظنه قصرا

(وقال ابن سعيد) وأخبرني والدى قال أخبرني الوشاح المبرز المحسن أبو الحسن المريني قال بينما أنا أشرب مع ندمائي بازاء الرصافة اذ بانسان رث الهيئة مجفو الطلعة قد جاء فجلس معنا فقلنا له ما هذا الاقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة فقال لا تعجلوا على ثم فكر قليلا ورفع رأسه فأنشدنا

اسقنيها ازاء قصر الرصافه * واعتبر في ماآل أمر الخلافه
وانظر الافق كيف بدل ارضا * كي يطيل اللبيب فيه اعترافه
ويرى أن كل ما هو فيه * من نعيم وعز أمر سخافه
كل شئ رأيته غير شئ * ماخلا لذة الهوى والسلافه

قال المريني فقبلت رأسه وقلت له بالله من تكون فقال قاسم بن عبود الرياحي الذي يزعم الناس انه موسوس أحمق قال فقلت له ما هذا شعر أحمق وان العقلاء لتعجز عنه فبالله الا ما تممت مسرتنا بمؤانستك ومنادمتك ومناشدة طرف أشعارك فنادم وأنشد وما زلنا معه في طيبة عيش الى أن ودعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سكرا ويقول اللهم غفرا انتهى (قال) ومن قصور خارج قرطبة * قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن وهو على متن النهر الاعظم تحمله أقواس وقيل للسيد كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة فقال علمت انهم لا يذكرون والبا بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي في رؤسهم من الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر اذكر به على رغمهم * قال ابن سعيد وأخبرني والدي أن ناهض بن ادريس شاعر وادي آش في عصره أنشد لنفسه في هذا القصر

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به * على الماء من تحت الحواجب اقواس
هو المصنع الاعلى الذي انف الثرى * ورفعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزا ورفعة * وفي موضع الاقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجناب وبابه * يغص وحلت أفقه الدهر أعراس

وقال الفتح في قلائده لما ذكر الوزير ابن عمار وتنزه بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد وجرى في اتقانه الى غير أمد وأبدع بناؤه وغرقت ساحاته وفناؤه واتخذوه ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم وحكوا به قصرهم بالمشرق وأطلعوه كالكوكب المشرق وأنشد فيه لابن عمار

كل قصر بعد الدمشق يذم * فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير * وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى * عنبر أشهب ومسك أحم

وهي منسوبة للحاجب ابي عثمان جعفر بن عثمان المصحفي * وذكر الحجاري في المسهب أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفي اجتاز بالمنية المصحفية التي كانت لجده أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر فاستعبر حين تذكر ما آل اليه حال جده مع المنصور بن أبي عامر واستيلائه على ملكه وأملاكه فقال

قف قليلا بالمصحفية واندب * معقلا أصبحت بلا انسان
واسألنها عن جعفر وسطاه * ونداه في سالف الازمان
جعفر مثل جعفر حكم الدهر * عليه بعزة وهوان
ولكم حذر الردى فصمنا * لا أمان لصاحب السلطان
بينما يعتلي غدا خافضا منه * اكتساب ككفة الميزان

ومنية الزبير منسوبة الى الزبير ابن عم الملثم ملك قرطبة (قال ابن سعيد أخبرني والدي عن أبيه قال خرج معي الى هذه المنية في زمان فتح النوار ابو بكر بن بقي الشاعر المشهور فجلسنا تحت سطر من أشجار اللوز قد نورت فقال ابن بقي

سطر من اللوز في البستان قابلني * ما زاد شيء على شيء ولا نقصا
كأنما كل غصن كم جارية * اذا النسيم ثنى اعطافه رقصا

ثم قال شعرا منه

عجبت لمن أبقى على خمرد نه * غداة رأى لون الحديقة نورا

ولا أذكر بقية الابيات قال جدي ثم اجتمعت به بعد ذلك بغرناطة فذكرته باجتماعه في منية الزبير فتنهد وفكر ساعة وقال اكتبوا عني فكتبنا

سقى الله بستان الزبير ودام في * ذراه مسيل النهر ما غنت الورق
فكائن لنا من نعمة في جنابه * كبرته الخضراء طالعها طلق
هو الموضع الزاهي على كل موضع * أما ظله ضاف أما ماؤه دفق
أهيم به في حالة القرب والنوى * وحق له مني التذكر والعشق
ومن ذلك النهر المدفوق فؤاده * بقلبي ما غيبت عن وجهه خفق

قال فقلت له جمع الله بينك وبينه على الحالة التي تشتهي قال ذلك لك قلت وكيف ذلك قال تدفع لي هذا السيف الذي تقلدت به أتزود به اليه وأنفق الباقي فيه على ما تعلم قال فقلت له هذا السيف شرفني به السلطان أبو زكريا ابن غانية وما لعطائه سبيل ولكن أعطيك قيمته فخرج وأتى بشخص يعرف قيمة السيوف فقدره وجعل يقول انه سيف السلطان ابن غانية ليعظم قدره في عينه فيزيد في قيمته ثم قبض ما قدر به وأنشد ارتجالا

أطال الله عمر فتى سعيد * وبقاه ورقته السعود
غدا لي جوده سببا لعودي * الى وطني فها أنا ذا أعود
وألثم كفه شكرا وأتلو * طريق آي نعماه النشيد
حباني من ذخائره بسيف * به لم يبق للاحزان جيد

* والقصر الفارسي من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة وقد ذكره الوزير أبو الوليد

ابن زيدون فى قصيدة ضمنه من متنزهات قرطبة ما تقف عليه وكان قد فرّ من قرطبة أيام بنى جهور فخضره فى فراره عيد ذكره بأعياد وطنه ومعاهده الانسية مع ولادة التى كان يهواها ويتغزل فيها فقال

خليلىّ لا فطر يسرّ ولا أضحى * فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

وستأتى هذه القصيدة فى هذا الباب كما ستأتى قصيدة أبى القاسم بن هشام القرطبىّ التى أولها * ياهبة باكرت من نحو دارين * وفيها كثير من متنزهات قرطبة * قال ابن سعيد كان والدى كثيرا ما يأمرنى بقراءتها عليه ويقول والله لقد أنبأت عن فضل لهذا الرجل قال وكان أبو يحيى الحضرمىّ يحفظها ويزين بها مجالسه ويحلف أن لا ينشدها بحضر جاهل لا يفهم أو حاسد لا ينصف فى الاهتزازلها وانه لجديربذلك وانها لمن كنوز الادب ثم قال والمرج النضير المذكور بها هو مرج الخز أخبرنى والدى انه حضر فى زمان الصبا بهذا المرج على راحة ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبى جعفر الوقشى والمسنّ ابن دويدة المشهور بخفة الروح قال فسبحت أمامنا أوز وجعلت تمرح وتنثر ما عليها من الماء فوق المرج والمرج قد أحدق به الوادى والشمس قد مالت عليه للغروب فقال لى أبو الحسين بالله صف يومنا وحسن هذا المنظر فقلت لا أصفه أو تصفه أنت ولك منى ذلك فأفكر كل منا على انفراد بعد ما ذكرنا ما نصف نثرا فقال أبو الحسين الوقشى

لله يوم بمرج الخز طاب انا * فيه النعيم بحيث الروض والنهر
وللاوز على أرجائه لعب * اذا جرت بددت ما بيننا الدرر
والشمس تجنح نحو البين مائلة * كان عاشقها فى الغرب ينتظر
والكاس جائلة بالراح حائرة * وكلنا غفلات الدهر يبتدر

قال فقلت

ألا حبذا يوم ظفرنا بطيبه * بأكناف مرج الخز والنهر يبتسم
وقد سرحت فيه الاوز وأرسلت * على سندس درّا به يتنظم
ومدّ به للشمس فهو كأنه * لثام لها ملقى من النور معصم
أدرنا عليه اكؤسا بعثت به * من الانس ميتا عاد وهو يكلم
غدونا اليه صامتين سكينة * فرحنا وكلّ بالهوى يترنم

فأظهر كل منا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطا وتتميما للمسرة ثم قلنا للمسنّ ما عندك أنت تعارض به هاتين القطعتين قال بهذا ورفع رجله وحبق حبقة فرفعت منها أرجاؤه فقال له أبو الحسين ما هذا يا شيخ السوء فقال الطلاق يلزمه ان لم تكن أوزن من شعركما وأطيب رائحة وأغنّ صوتا وأطرب معنى فضحكنا منه أشد ضحك وجعلنا نترغاية الاهتزار لموقع نادرته فقال والدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر مما طربتم من شعركم * ثم قال ابن سعيد ومن متنزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق مقصود للفرجة يسرح فيه البصر وتبتهج فيه النفس أخبرنى والدى عن أخيه أبى جعفر بن عبد الملك بن سعيد قال خرجت مع الشريف الاصمّ القرطبىّ الى بسيط الجزيرة الخضراء وقد تدبج بالنوار فلما

حوّ كما حسن المكان وتشوّقنا الى الاركان قال الشريف لقد ذكرني هذا البسيط بسيط خص السرادق فقلت له فهل ثار في خاطركم نظم فيه قال نعم ثم أنشد

ألا فدعوا ذكرا العذيب وبارق * ولا تسأموا من ذكر خص السرادق
مجرّ ذيول السكر من كل مترف * ومجرى الكؤس المترعات السوابق
قصرت عليه اللحظ مادمت حاضرا * وفكري في غيب لمرآه شائق
أيا طيب أيام تقضت بروضة * على لج غدران وشم حدائق
اذا غرّدت فيها حمائم دوحها * تخيلتها الكتاب بين المهارق
وما باختيار الطرف فارقت حسنها * ولكن بكيد من زمان منافق

قال أبو جعفر فلما سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار وحرّكني ذلك الى أن قلت في حوز مؤمل سيد منتزهات غرناطة ولم يذكرهنا ما قاله فيه وذكره في موضع آخر لم يحضرني الآن حتى أورده هنا والله أعلم * ومن منتزهات قرطبة السد قال ابن سعيد أخبرني والدي أن الشاعر المبرّز أبا شهاب المالقي أنشده لنفسه واصفا يوم راحة بهذا السد

ويوم لنا بالسد لورد عيشه * بعيشة أيام الزمان رددناه
بكرناله والشمس في خدر شرقها * الى أن أجابت اذ دعا الغرب دعواه
قطعناه شدوا واغتباقا ونشوة * ورجع حديث لورقى الميت أحياه
على مثله من منزه تبتغي المنى * فلله ما أحلى و أبدع مرآه
شدتنا به الارحا وألقت شارها * علينا فأصغينا له و قبلناه
لئن بان انا بالانين لفقده * وبالدمع في اثر الفراق حكيناه

وأنشدني والدي موشحة لابي الحسن المريني معاصره وصاحبه يذكر فيها هذا السد وهي

(مطلع)

في نغمة العود والسلافه * والروض والنهر والنديم
أطال من لامني خلافه * فظل في نصحه مليم

(دور)

دعني على منهج التصابي * ما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في المنى عتابي * فلست اصغي الى عتاب
لا ترج ردّى الى جواب * والكاس تفترّ عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه * اذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا اقتطافه * واختال في برده الرقيم

(دور)

يا حبذا عهدى القديم * ومن به همت مسعدى
ريم عن الوصل لا يريم * مولع بالتودّد
ماتم الا به النعيم * طوعا على رغم حسدى
معتدل القدّذو نحافه * أسقمني طرفه السقيم

ورام

ورام طرفى به اتصافه * نحدقى خدمه الكليم

(دور)

غصن الصبا عاطر المقبل * أحلى من الامن والامل
ظامى الحشا مفعم المخلخل * حلو اللمى ساحر المقل
لكل من رامه توصل * لم يخش ردا بما فعل
أشكو فيبدى لى اعترافه * ان حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيه رافه * تحق لى فيه أن أهيم

(دور)

لله عصر لنا تقضى * بالسد والمنبر البهيج
أرى اذكارى اليه فرضا * وشوقه دائما يهيج
فكم خلعنا عليه غضا * وللصبا مسرح أريج
وردا أطال المنى ارتشافه * حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انصرافه * وهكذا الدهر لا يديم

(دور)

يا من يحث المطى غربا * عرج على حضرة الملوك
وانثر بها ان سفحت غربا * من مدمع عاطل سلوك
واسمع الى من أقام صبا * واحك صداه لا فض فوك
بلغ سلامى قصر الرصافه * وذكره عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافه * وقف بها وقفة الغريم

قال ابن سعيد والمنبر المذكور فى هذه الموشحة من منتزهات قرطبة والسد هو الارحاء التى ذكرها فى زجله قاسم بن عبود الرياحى رويته عن والدى عن قائله وهو

(مطلع)

بالله أى نصيب * من ليس لى فيه نصيب
محبوب امخالف * ومعو رقيب

(دور)

حين نقصد مكانو * يقيم فى المقام
ويبخل علينا * برد السلام
أدخلت باقلبى * روحك فى زحام
سلامتك عندى * هى شى عجيب
وكيف بالله يسلم * من هو فى لهيب

(دور)

بالله ياحبيبى * اترك ذا النفار
واعمد أن نطيب * فى هذا النهار

واخرج معي للوادى * لشرب العقار
تتمم نهارنا * فى لذة وطيب
فى الارحاوالا * فى المرج الخصيب

(دور)

اوعند النواعير * والروض الشريق
أوقصر الرصافه * أو وادى العقيق
حرق والله دونك * هو عندى الحريق
وفى حبك امسيت * فى أهلى غريب
وماالموت عندى * الا حين تغيب

(دور)

اتكل على الله * وكن قط جسور
وان ريت فضولى * فقل أى عور
كش عنى وجهك * فان رآك نفور
يهرب عنك خائف * ويبقى هريب
وامش انت موقر * كانك خطيب

(دور)

ماأعجب حديثى * ايش هذا الجنون
نطلب وندبر * أمرا لايكون
وكم ذا نهون * شيأ لايهون
وايش مقدار مانصبر * لبعد الحبيب
رب اجمعنى معو * عاجلا قريب

قال ابن سعيد وأمانهر قرطبة فانه يصغر عن عظمه عند اشبيلية بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لايتأتى مثلها فى نهر اشبيلية ومنبعه من جهة شقورة يمر النصف منه الى مرسية مشرقا والنصف الى قرطبة واشبيلية مغربا ولماذكر الرازى قرطبة قال ونهرها الساكن فى جريه اللين فى انصبابه الذى تؤمن مغبة ضرره فى حاله وقال هذا لانه يعظم عند اشبيلية فاذا حان حاله فى أيام الامطار أشفت اشبيلية على الغرق وتوقع أهلها الهلاك والقنطرة التى على هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الاندلس وأعجبها اقواسها سبع عشرة قوسا وبانيها على ماذكره ابن حيان وغيره السمح بن مالك الخولانى صاحب الاندلس بأمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وشيدها بنو أمية بعد ذلك وحسنوها قال ابن حيان وقيل انه قد كانت فى هذا المكان قنطرة من بناء الاعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتى سنة أثرت فيها الازمان بمكابدة المدد حتى سقطت حناياها ومحيت أعاليها وبقيت أرجلها وأسافلها وعليها بنى السمح فى سنة احدى ومائة انتهى وقال فى مناهج الفكر ان قنطرة قرطبة احدى أعاجيب الدنيا بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقى وطولها

ثمانمائة ذراع وعرضها عشرون باعا وارتفاعها ستون ذراعا وعدد حناياها ثمان عشرة حنية وعدد أبراجها تسعة عشر برجا انتهى * (رجع الى قرطبة) * ذكر ابن حيان والرازى والحجارى أن التنبان ثانى قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا وصفح نهر رومية بالصفر فأرخت الروم من ذلك العهد وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة أمر ببناء المدن العظيمة بالاندلس فبنيت فى مدته قرطبة واشبيلية وماردة وسرقسطة وانفرد الحجارى بأن التنبان المذكور وجه أربعة من أعيان ملوكه للاندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها وسماها باسمه وان هذه الاسماء الاربعة كانت أسماء لاولئك الملوك وغير الحجارى جعل أن هذه المدن مشتقة مما تقتضيه أوضاعها كما مرّ وذكروا انه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الاخيرة الذين هم بنو عيصو بن اسحق بن ابراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام الى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يافث المتغلبون على الاندلس الى أن أخذها منهم المسلمون ولم تكن فى الجاهلية سريرا لسلطنة الاندلس بل كرسيا لخاص مملكتها وسعدت فى الاسلام فصارت سريرا للسلطنة العظمى الشاملة وقطبا للخلافة المروانية وصارت اشبيلية وطليطلة تبعا لها بعدما كان الامر بالعكس والله يفعل مايشاء بيده الملك والتدبير وهو على كل شئ قدير لا اله الا هو العلى الكبير وقال صاحب نشق الازهار عندما تعرض لذكر قرطبة هى مدينة مشهورة دار خلافة وأهلها أعيان ناس فى العلم والفضل وبها جامع ليس فى الاسلام مثله انتهى ومن الاسباب فى سلب محاسن قرطبة عيث البربر بها فى دخولهم مع سليمان المستعين الاموى حين استولى على قرطبة فى دولته التى افتتحت بالقهر وسفك الدماء وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان على بن حمود من بنى على بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين وجده ادريس هرب من هرون الرشيد الى البربر فتبربر ولده وبنى ابنه ادريس مدينة فاس وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم ووقف على أن دولة بنى أمية تنقرض بالاندلس على يد علوى أول اسمه عين فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحوا كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم على بن حمود وبلغ هشاما المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه فدس اليه ان الدولة صائرة اليك وقال له ان خاطرى يحدثنى أن هذا الرجل يقتلنى يعنى سليمان فان فعل فخذ بثارى وكان هذا الامر هو الذى حرّى نفس ابن حمود على طلب الامامة وحمله على الاخذ بثار هشام المؤيد فكان المؤيد أحد من أخذ بثاره بعد موته وتولى بعد ذلك على بن حمود وبويع بقرطبة فى قصرها فى اليوم الذى قتل فيه سليمان المستعين وأخذ الناس بالارهاب والسطوة وأذل رؤس البربر وبرقت للعدل فى أيامه بارقة خلب لم تكد تقد حتى خبت وجلس للمظالم وقدمت له جماعة من البربر فى اجرام فضرب رقابهم وأهلهم وعشائرهم ينظرون وخرج يوما على باب عامر فالتقى فارسا من البربر وأمامه حمل عنب فاستوقفه وقال له من أين لك هذا فقال أخذته كما يأخذ الناس فأمر بضرب عنقه ووضع رأسه وسط الحمل وطيف به فى البلد واستمر على هذا مع أهل قرطبة فى أحسن عشرة نحو ثمانية أشهر حتى بلغه قيام الاندلسيين

بالمرتضى المرواني في شرق الاندلس فتغير عما كان عليه وعزم على اخلاء قرطبة وابادة اهلها فلا يعود لا عمتهم بهاسلطان آخر الدهر وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء الى حاله وانتزع أهل قرطبة وهدم المنازل واستهان بالاكابر ووضع المغارم وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال فلما غرموه سرحهم فلما يجيء اليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب وتركهم ينزلون الى منازلهم على أرجلهم وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بعد وصارت دولته بوراثة ولده معدودة في دول الطوائف فاجتمعت عن علي النفوس وتوالى عليه الدعاء فقتله صبيان أغمار من صقالبة بني مروان في الحمام وكان قتله غرة ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا في أماكن يعرفونها وصح عند الناس موته ففرحوا وكانت مدته كامر نحو عامين وحققها بعض فقال احد وعشرون شهرا وستة أيام وكان الناصر علي بن حمود على عجمته وبعده من الفضائل يصغي الى الامداح ويثيب عليها ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ومن شعرائه المختصين به ابن الخياط القرطبي ومن شعره قوله

راحت تذكر بالنسيم الراحا * وطفاء تكسر للجنوح جناحا
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت * من برقها كي تهتدى مصباحا

وعبادة بن ماء السماء وكان معروفا بالتشيع وفيه يقول من قصيدة

أبوكم علي كان بالشرق بدأما * ورثتم وذا بالغرب أيضا نعيمه
فصلوا عليه أجمعون وسلموا * له الامر اذ ولاه فيكم وليه

ومدحه ابن دراج القسطلي بقوله

لعلك يا شمس عند الاصيل * شجيت لشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي لابن الشفيع * وكوني رسولي لابن الرسول

وكان أخوه القاسم بن حمود أكبر منه بعشر سنين وأمهما واحدة وهي علوية ولما قتل الناصر كان القاسم واليا على اشبيلية وكان يحيى بن علي واليا على سبتة فاختلف هؤلاء البربر فمال أكثرهم الى القاسم لكونه غبن أولا وقدم عليه أخوه الاصغر ولكونه قريبا من قرطبة وبينهم وبين يحيى البحر فلما وصلت رسلهم الى القاسم لم يظهر فرحا بالامامة وخاف أن تكون حيلة من أخيه عليه فتقهقر الى أن اتضح له الحق فركب الى قرطبة وبويع فيها بعد ستة أيام من قتل أخيه وأحسن السيرة وأحس من البربر الميل الى يحيى ابن أخيه علي صاحب سبتة فتهالك في اقتناء السودان وابتاع منهم كثيرا وقودهم على أعماله فأنفت البربر من ذلك وانحرفوا عنه وفي سنة تسع وأربعمائة قام عليه بشرق الاندلس المرتضى عبد الرحمن من أعقاب الناصر لان أهل الاندلس صعب عليهم ملك بني حمود العلويين بسبب البربر فأرادوا رجوع الامامة الى بني مروان واجتمع له أكثر ملوك الطوائف وكان معه حين أقبل لقرطبة منذر التجيبي صاحب سرقسطة وخيران العامري الصقلبي صاحب المرية وانضاف اليهم جمع من الفرنج وتأهب القاسم والبرابرة للقائهم فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر وخيران على المرتضى وقالا أورانا

فى الاول وجها ليس بالوجه الذى نراه حين اجتمع اليه الجم الغفير وهذا ما كرغير صافى النية فكتب خيران الى ابن زيرى الصنهاجى المتغلب على غرناطة وهو داهية البربر وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه الى قرطبة خذل عن نصرته الموالى العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور فأصغى ابن زيرى الى ذلك وكتب المرتضى الى ابن زيرى يدعوه لطاعته فقلب الكتاب وكتب فى ظهره قل يا أيها الكافرون السورة فأرسل اليه كتابا ثانيا يقول فيه جئتك بجميع أبطال الاندلس وبالفرنج فماذا تصنع وختم الكتاب بهذا البيت

ان كنت منا أشر بخير * أولا فأيقن بكل شر

فأمر الكاتب أن يحول الكتاب ويكتب فى ظهره ألهاكم التكاثر السورة فازداد حنقه وحمله الغيظ الى أن ترك السير الى حضرة الامامة قرطبة وعدل الى محاربته وهو يرى أن يصطلمه فى ساعة من نهار ودامت الحرب أياما وأرسل ابن زيرى الى خيران يستنجزه وعده فأجابه انما توقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ولو كانبوا اطننا معك فأثبت جعلك لنا ونحن نهزم عنه ونخذله فى غد ولما كان من الغد رأى أعلام خيران وأعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولت عنه فقط فى يد المرتضى وثبت حتى كادوا يأخذونه واستحر القتل وصرع كثير من أصحابه فلما خاف القبض عليه ولى فوضع عليه خيران عيونا فلحقوه بقرب وادى آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه فهجموا عليه فقتلوه وجاؤا برأسه الى المرية وقد حل بها خيران ومنذر فتحدث الناس أنهما اصطحبا عليه سرورا بهلاكه وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الاندلس للبرابرة ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به اليهم وضرب القاسم بن حمود سرادق المرتضى على نهر قرطبة وغشيه خلق من النظارة وقلوبهم تتقطع حسرات وأنشد عبادة بن ماء السماء قصيدته التى أولها

لك الخير خيران مضى لسبيله * وأصبح أمر الله فى ابن رسوله

وتمكنت امور القاسم وولى وعزل وقال وفعل الى أن كشف وجهه فى خلع طاعته ابن أخيه يحيى بن على وكتب من سبتة الى أكابر البرابر بقرطبة ان عمى أخذ ميراثى من أبى ثم انه قدم فى ولاياتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان وأنا أطلب ميراثى وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد والسودان كما هو عند الناس فأجابوه الى ذلك فجمع ما عنده من المراكب وأعانه أخوه ادريس صاحب مالقة فجاز البحر بجمع وافر ووصل بمالقة مع أخيه وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه فى اعانة أبيه وأكد المودة فقال له أخوه ادريس ان خيران رجل خداع فقال يحيى ونحن متخدعون فيما لا يضرنا ثم ان يحيى أقبل الى قرطبة واثقا بأن البرابر معه ففر القاسم الى اشبيلية فى خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت ٢٨ شهر ربيع الآخر سنة ٤١٣ ودخل يحيى بقرطبة فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مستهل جمادى الآخرة وكان يحيى من النجباء وأمه فاطمية وانما كانت آفته العجب واصطناع السفلة واشتط أكابر البرابر عليه وطلبوا ما وعدهم من اسقاط مراتب السودان فبذل لهم ذلك فلم يقنعوا منه وصاروا

يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت المال وفر السودان الى عمه باشبيلية ومن البرابر ومن جند الاندلس من احتجب عنهم يحيى وتكبر عليهم ولم يعل اليه ملوك الطوائف وبقي منهم كثير على الطاعة لعمه القاسم الى أن اختلت الحال بحضرة قرطبة وأيقن يحيى انه متى أقام بها قبض عليه وكان قد ولى على سبتة أخاه ادريس وبلغه أن أهل مالقة خاطبوا خيران وكاتبوه فطمع خيران فيها وفر يحيى في خواصه تحت الليل الى مالقة ولما بلغ القاسم فراره ركب من اشبيلية الى قرطبة فخطب له بها يوم الثلاثاء ١٢ ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ ولم يصلح الحال للقاسم منذ وصل الى الحضرة ووقع الاختلاف وكان هوى السودان معه وهوى كثير من البرابرة مع يحيى وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر وكثر الارجاف بذلك ووقع الطلب على بني أمية فتفرقوا في البلاد ودخلوا في أغمار الناس وأخفوا زيهم ثم ان الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة وتكاثر البلديون وأخرجوا القاسم وبرابرته فضرب خيمة بغربيها وقاتلهم مدة خمسين يوما قتالا شديدا وبني القرطبيون أبواب مدينتهم وقاتلوا القاسم من الاسوار الى أن طال عليهم الحصار فهدموا بابا من الابواب وخرجوا خرجة رجل واحد وصفروا فخصهم الله تعالى الظفر وفر السودان مع القاسم الى اشبيلية وفر البرابرة الى يحيى وهو بمالقة وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس ١٢ ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤ وكان ابنه محمد بن القاسم واليا على اشبيلية وثقته المدبر لامره محمد بن زيري من أكابر البرابرة وقاضيها محمد بن عباد فعمل القاضي لنفسه وهو جد المعتمد بن عباد وأطمع ابن زيري في الملك فأغلق الابواب في وجه مصطنعه وحاربه فقتل من البرابر والسودان خلق كثير وابن عباد يضحك على الجميع فيئس القاسم وقنع أن يخرجوا اليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم فأخرجوهم اليه فسار بهم الى شريش وعندما استقر بها وصل اليه يحيى ابن أخيه من مالقة ومعه جمع عظيم وحاصره في المدينة عشرين يوما كان فيها حروب صعاب وقتل من الفريقين خلق كثير وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه واستلام أهل شريش له وفر سودانه وحصل القاسم وابنه في يد يحيى وكان قد أقسم أنه ان حصل في يده ليقتلنه ولا يتركه حتى يلي الامامة بقرطبة مرة ثالثة فرأى التربص في قتله حتى يرى رأيه فيه فحدث عنه بعض أصحابه انه حمله بقيد الى مالقة وحبسه عنده وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماؤه في الابقاء عليه لانه لا قدرة له على الخلاص وكان كلما نام رأى والده عليا في النوم ينهاه عن قتله ويقول له أخي أكبرني وكان محسنا الي في صغري ومسلما الي عند ما ولي الله الله فيه واستمرت الحال على ذلك الى أن قتله خنقا بعد ١٣ سنة من حين القبض عليه لانه قد كان حبسه في حصن من حصون مالقة فنمي اليه انه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان فقال أوبقي في رأسه حديث بعد هذا العمر فقتله سنة ٤٢٧ وبقي أهل قرطبة بعد فرار القاسم نيفا عن عشرين يوما رأيهم فيمن يبايعونه بالامامة ولما كان يوم الثلاثاء نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ أحضر المستظهر وسليمان بن المرتضى وأموي آخر معه فبايعا المستظهر وقبلا يده بعد ما كان قبل البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الاماثل فبشر اسمه وكتب اسم المستظهر

وركب الى القصر وحمل معه ابنى عمه المذكورين فحبسهما وكان قد رفع جماعة من الاتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر بن شهيد المنهمك فى بطالته وأبى محمد بن حزم المشهور بالردّ على العلماء فى مقالته وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف فى حالته فأحقد بذلك مشايخ الوزراء والاكابر وبادر المستظهر باصطناع البرابر وأكرم مثواهم وأحسن ماواهم واشتغل مع ابن شهيد وابن حزم بالمباحثة فى الآداب ونظم الشعر والتمسك بتلك الاهداب والناس فى ذلك الوقت أجهل ما يكون وكان جماعة من أهل الشر فى السجون يتعين أن لا يخرج منهم انسان فأخرج منهم شخصا يقال له أبو عمران وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم اخراجه فأخرجه وخالفه فى ذلك ولم يقبل النصيحة وفعل ما أدّاه الى الفضيحة فسعى القوم الذين خرجوا من الحبوس على افساد دولته وابدال فرحه بالبوس لما اشتغل عنهم بالادباء والشعراء حسبما اقتضاه رأيه المعكوس فسعوا فى خلعه مع البرابر وقتل فى ذى القعدة من السنة التى بويع فيها وصار كأمس الدابر بعد سبعة واربعين يوما من يوم بويع بالخلافة واذا أراد الله أمرا فلا يقدر أحد أن يأتى خلافه وعمره ثلاث وعشرون سنة كأنها سنة ومن شعر المستظهر المذكور وهو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة المشكور

طال عمر الليل عندى * مذ تولعت بصدّى
ياغزالا نقض العهـ * ـد ولم يوف بوعدى
أنسيت العهد اذ بتـ * ـنا على مفرش ورد
واعتنقنا فى وشاح * واتظمنا نظم عقد
ونجوم الليل تسرى * ذهبا فى لازوردى

وكتب اليه شاعر فى طرس مكشوط السطر مبشور وفيه بشارة ببقاء الامام الفاضل المستظهر

ملك أعاد العيش غضا ملكه * وكذا يكون به طوال الاعصر

فأجزل صلته وكتب فى ظهر الورقة

قبلنا العذر فى بشر الكتاب * لما أحكمت فى فصل الخطاب

وقد قدّمنا فى الباب الثالث شيأ من هذه الاخبار وما حصل بعد ذلك بقرطبة الى أن تولى الامر ابن جهور فى صورة الوزارة ثم ابنه الى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد حسبما ذكر فى أخباره ثم آل الامر بعد ذلك كله الى استيلاء ملوك العدوة من الملثمين والموحدين على قرطبة الى أن تسلمها النصارى أعادها الله تعالى للاسلام كما يذكر فى الباب الثامن * وقال صاحب مناهج الفكر فى ذكر قرطبة ما ملخصه فأما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة من البلاد الخطيرة فمنها قرطبة وكانت مقرّ الملك ودار الامارة وأمّ ما عداها من البلاد منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك الى أن خرجت عن أيديهم وتنقلت فى ايدى ملوك المسلمين الى أن وصلت الى الناصر عبد الرحمن فبنى فى تجاهها مدينة سماها الزهراء يجرى بينهما نهر عظيم انتهى * واعلم أن المبانى دالة على عظم قدر بانيها كما ذكرناه

فى كلام الناصر الذى طابت له من الزهراء مجانيها ولم يزل البلغاء يصفون المبانى بأحسن الالفاظ والمعانى ورأينا أن نذكر هنا بعض ذلك زيادة فى توسيع المسالك فن ذلك قول ابن حمديس الصقلى فى دار بناها المعتمد على الله

وياحبذا دار قضى الله انها * يجدد فيها كل عز ولا يبلى
مقدسة لو أن موسى كليمه * مشى قدما فى أرضها خلع النعلا
وما هى الا خطة الملك الذى * يحط اليه كل ذى أمل رحلا
اذا فتحت أبوابها خلت انها * تقول بترحيب لداخلها أهلا
وقد نقلت صناعها من صفاته * اليها افانينا فأحسنت النقلا
فن صدره رحبا ومن نوره سنى * ومن صيته فرعا ومن حلمه أصلا
فأعلت به فى رتبة الملك ناديا * وقل له فوق السماكين أن يعلى
نسيت به ايوان كسرى لانى * أراه له مولى من الحسن لا مثلا
كأن سليمان بن داود لم تبح * محافته للجن فى صنعه مهلا
ترى الشمس فيه ليقة تستمدها * أكف أقامت من تصاويرها شكلا
لها حركات أودعت فى سكونها * فما تبعت فى نقلهن يدا رجلا
ولما عشينا من توقد نورها * تخذنا سناه فى نواظرنا كحلا

وقال من أخرى يصف دارا بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية

أعمر بقصر الملك ناديك الذى * أضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره * أعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه * فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسى الصبيح مع الفصيح بذكره * وسما ففاق خورنقا وسديرا
لو أن بالايوان قوبل حسنه * ما كان شيأ عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الالى * رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا * لملوكهم شبهاله ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا * غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم * ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت * حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه * حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر * ثم انثنيت بناظرى محسورا
فظننت أنى حالم فى جنة * لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت أبوابه * جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم * فغرت بها أفواهها تكبيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها * من لم يكن بدخوله مأمورا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة * فيه فتكبو عن مداه قصورا

بمرخم الساحات تحسب أنه * فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه * مسكا تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الابصار منه اذا أتى * صبحا على غسق الظلام منيرا

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها المياه وتفنن فذكر اسودا على حافاتها قاذفة بالمياه أيضا فقال

وضراغم سكنت عرين رياسة * تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها * وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك * فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما * أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها * نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول * ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه * درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها * عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى * سحر يؤثر فى النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما * قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها * أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها * ماء كسلسال اللجين غزيرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت * جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة * لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها * فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما * جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبرا نظروا * بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت * تلك النهود من الجنان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسيه * شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه * أبصرت روضا فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى * حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعها أقلامها * فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة * مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه مخرم * بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة * تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله

يا مالك الارض الذى أضحى له * ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت * واستوجبت بقصورك التأخيرا

فعمرتها وملكت كل رياسة * منها ودمرت العدا تدميرا

قلت لم أر لهذه القصيدة من نظير في معناها البارع النضير ولفظها العذب النمير الذى شمر فيه قائلها عن ساعد الاجادة أى تشمير غير أن فيها عندى عيبا واحدا وهو ختمها بلفظ التدمير وعلى كل حال فالحسن والاحسان يقادان فى أرسان لعبد الجبار بن حمديس المذكور ذى المقاصد الحسان وخصوصا فى وصف المبانى والبرك فما أبقى لسواه فى ذلك حسنا ولا ترك *(ومن ذلك) قوله فى وصف بركة تجرى اليها المياه من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود وكل ذلك فى قصر أطنب فى وصفه فى قصيدة طويلة

والماء منه سبائك من فضة * ذابت على درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب * ألقته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجبا * من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها تسقى الرياض ينابعا * نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فننها * حسنت فأفرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغة * وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أتيح لها الكلام تكلمت * بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة * فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها * منها على العجب العجاب روانى
فكأنها ظنت حلاوة مائها * شهدا فذاقته بكل لسان
وزرافة فى الجوف من أنبوبها * ماء يريك الجرى فى الطيران
مركوزة كالرمح حيث ترى له * من طعنة الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمى السماء ببندق * مستنبط من لؤلؤ ومجان
لو عاد ذاك الماء نفطا أحرقت * فى الجو منه قميص كل عنان
فى بركة قامت على حافاتها * أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها * فلذلك انتزعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفئ * نارا مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها * يطرحن أنفسهن فى الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها * أخذت من المنصور عقد أمان

وهاتان القصيدتان لابن حمديس كافى المناهج مع طولهما تدلان على الابداع الذى ابتكره والاختراع الذى ماولج سمع أحد من الفضلاء الا شكره لما اسكره وقال أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الاندلسى يصف قصرا بمصر يسمى منزل العز بناه حسن بن على بن تميم ابن المعز العبيدى

منزل العز كاسمه معناه * لا عدا العز من به سماه
منزل ودت المنازل فى اعـ * ـلى ذراه لو صيرت اياه
فأجل فيه لحظ عينيك تبصر * أى حسن دون القصور حواه

سال فى سقفه النضار ولكن * جمدت فى قراره الامواه
و بأرجائه مجال طراد * ليس تنفك من وغى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه * ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للنز * ع بعيدا من قرنه مرماه
وصفوفا من الوحوش وطير الجو * كل مستحسن مرآه
سكنات تخالها حركات * واختلاف كأنه اشباه
كحيا الحبيب حرفا بحرف * ماتعدى صفاته اذحكاه
ورده وجنتاه نرجسه الفتان عيناه آسه عارضاه
وكان الكافور والمسك فى الطيب وفى اللون صبحه ومساه
منظر يبعث السرور ومرأى * يذكر المرء طيب عصر صباه
وقال أبو الصلت أمية الاندلسى المذكور يذكر بناء بناه على بن تميم بن المعز العبيدى
لله مجلسك المنيف قبابه * بموطد فوق السماك مؤسس
موف على حبك المجرة تلتقى * فيه الجوارى بالجوارى الكنس
تتقابل الانوار من جنباته * فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه * عطف الاهلة والحواجب والقسى
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت * بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف * وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم * وأقر بالتقصير كل مهندس
فبدا لحظ العين أحسن منظر * وغدا لطيب العيش طيب معرس
فاطلع به قمرا اذا ما أطلعت * شمس الخدور عليك شمس الاكؤس
فالناس أجمع دون قدرك رتبة * والارض أجمع دون هذا المجلس
ويعجبنى من قول أبى الصلت أمية المذكور يصف حالى زيادة النيل ونقصانه
ولله مجرى النيل منها اذا الصبا * أرتنا به من مرها عسكرا مجرا
اذا زاد يحكى الورد لونا وان صفا * حكى ماءه لونا ولم يحكه مرا
وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذى بظاهر مصر
يانزهة الرصد التى قد اشتملت * من كل شئ حلافى جانب الوادى
فذا غدير وذاروض وذا جبل * والضب والنون والملاح والحادى
وهو ماخوذ من قول الاول يصف قصر أنس بالبصرة
زروادى القصر نعم القصر والوادى * لابد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له شئ يشاكله * من منزل حاضر ان شئت أوبادى
تلقى به السفن والظلمان حاضرة * والضب والنون والملاح والحادى
وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرمين
بعيشك هل أبصرت أحسن منظرا * على طول ماعاينت من هرمى مصر

أناقا بأكناف السماء وأشرفا * على الجو اشراف السماك على النسر
وقد وافيا نشزا من الارض عاليا * كأنهما نهدان قاما على صدر

وسيأتي ترجمته ان شاء الله تعالى في الباب الخامس * وعلى ذكر الانهار والبرك فما أحسن قول بعض الاندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات

غضبت مجاريها فأظهر غيظها * ما في حشاها من خفي مضمر
وكان نبع الماء من جنباتها * والعين تنظر منه أحسن منظر
قضب من البلور أثمر فرعها * لما انتهت باللؤلؤ المتحدر

وقال ابن صارة الاندلسي يصف ماء بالرقة والصفا يجري على الصفا

والنهر قد رقت غلالة خصره * وعليه من صبغ الاصيل طراز
تترقرق الامواج فيه كأنها * عكن الخصور تهزها الاعجاز

وما أحسن قول بعض الادباء ولم يحضرني الآن اسمه

والنهر مكسو غلالة فضة * فاذا جرى سيلا فثوب نضار
واذا استقام رأيت صفحة منصل * واذا استدار رأيت عطف سوار

وقال ابن حديس المغربي يصف نهرا بالصفاء

ومطرد الامواج يصقل متنه * صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى * عليها شكا أوجاعه بخريره

وهذا النهج متسع ولم نطل السير في هذه المهامه وانما ذكرنا بعض كلام المغاربة ليتنبه منتقصهم من سنة أوهامه ولان في أمرها عبرة لمن عقل اذ أصدأ مرآة حسنها ولطالما كان انثلها اصقل وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج في هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصا وهو ونلحق بذكر المنازل التي راق منظرها وفاق مخبرها وارتفع بناؤها واتسع فناؤها طرفا من الكلام على ما عفاه الدهر من رسومها ومحاه من محاسن صور كانت أرواحا لجسومها * وصف أعرابي محلة قوم ارتحلوا عنها فقال نثرا ارتحلت عنها ربات الخدور وأقامت بها أثافي القدور ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياح آثارهم وذهبت بأبدانهم وأبقت أخبارهم والعهد قريب واللقاء بعيد وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن

يادار أمسى دارسا رسمها * وحشا قفارا ما بها اهل
قد جرت الريح بها ذيلها * واستن في أطلالها الوابل

ومن كلام الفتح بن خاقان في قلائد العقيان يذكر آل عباد من فصل أكثر فيه التفجع وأطال به التوجع والقصور تختال في أدواحها والازاهر يحيي ميت الصبابة شذا أرواحها وأطيار الرياض كثكالى ينحن على ترابها وانقراض أترابها والوهي بمشيدها لاعب وعلى كل جدار منها غراب ناعب وقد محت الحوادث ضياءها وقلصت ظلالها وأفياءها ولطالما أشرقت بالخلائق وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت أيام نزلوا خلالها وتفيؤا ظلالها وعمروا حدائقها وجناتها ونبهوا الآمال من سناتها وراعوا

الليوث فى آجامها وأجلوا الغيوث عند انسجامها فأصبحت ولها تلفع واعتجار ولم يبق من آثارها الا نوى وأحجار قد هوت قبابها وهرم شبابها وقد يلين الحديد ويبلى على طيه الجديد * وقال أبو صخر القرطبي يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها

ديار عليها من بشاشة أهلها * بقايا تسر النفس أنسا ومنظرا
ربوع كساها المزن من خلع الحيا * برودا وحلاها من النور جوهرا
تسر لنطور وراثم تشجيك تارة * فترتاح تأنيسا وتشجى تذكرا

(ومن كلام أبي الحسن القاشاني) يصف نادى رئيس خلا من ازدحام الملا وعوضه الزمان عن تواصل أحبابه هجرا وقلا قد كان منزله مألف الاضياف ومانس الاشراف ومنتجع الركب ومقصد الوفد فاستبدل بالانس وحشة وبالضياء ظلمة واعتاض من تزاحم المواكب تلاطم النوادب ومن ضجيج النداء والصهيل ضجيج البكاء والعويل *(ومن رسالة لابن الاثير الجزرى) يصف دمنة لعبت بها أيدى الزمن وفرقت بين المسكن والسكن كانت مقاصير جنة فأصبحت وهى ملاعب جنة وقد عميت أخبار قطانها وآثار أوطانها حتى شابهت احداهما فى الخفاء الاخرى فى العفاء وكنت أظن انها لا تسقى بعدهم بغمام ولا يرفع عنها جلباب ظلام غير أن السحاب بكاهم فأجرى بها هوامع دموعه والليل شق عليهم جيوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه * وقد لمح فى بعض كلامه قول الشريف من ابيات يصف فيها ما كان فى الحيرة من منازل النعمان ابن المنذر

مازلت أطرق للمنازل باللوى * حتى نزلت منازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت * شم العماد عريضة الاعطان
شهدت بفضل الرافعين قبابها * ويبين بالبنيان فضل البانى
ما ينفع الماضين ان بقيت لهم * خطط معمرة بعمر فانى

يقول فيها

ولقد رأيت بدير هند منزلا * ألما من الضراء والحدثان
يغضى كمستمع الهوان تغيبت * أنصاره وخلا من الاعوان
بالى المعالم أطرقت شرفاته * اطراق منجذب القرينة عان
أمقاصر الغزلان غيرك البلا * حتى غدوت مرابض الغزلان
وملاعب الانس الجميع طوى الردى * منهم فصرت ملاعب الجنان

ومنها

مسكية النفحات تحسب تربها * بردا لخليع معطر الاردان
وكأنما نسى التجار لطيمة * جرت الرياح بها على العقيان
ماء كجيب الدرع يصقله الصبا * ويقى بدوحته النسيم الوانى
زفر الزمان عليهم فتفرقوا * وجلوا عن الاقطار والاوطان

وقال أبو اسحق الصابي وتوارد مع الشريف الرضي فى المعنى والقافية يصف قصر روح

بالبصرة

أحب الى بقصر روح منزلا * شهدت بنيته بفضل الباني
سورعلا وتمنعت شرفاته * فكأن احداهن هضب أبان
وكأنما يشكو الى زواره * بين الخليط وفرقة الجيران
وكأنما يبدى لهم من نفسه * اطراق محزون الحشا حران

ولاحمد بن فرج الالبيرى من أبيات

سألت بها فما ردت جوابا * عليك وكيف تخبرك الطلول
ومن سفه سؤالك رسم دار * مضى لعفائه زمن طويل
فان تك أصبحت قفرا خلاء * لعينك فى مغانيها همول
فقد ماقد نعمت قرير عين * بها وبربعها الرشأ الكحيل

وقال أبو عبد الله بن الخياط الاندلسى الاعمى

لو كنت تعلم ما بالقلب من نار * لم توقد النار بالهندى والقار
يادار علوة قد هيجت لى شجنا * وزدتنى حرقا حييت من دار
كم بت فيك على اللذات معتكفا * والليل مدرع ثوبا من القار
كأنه راهب فى المسح ملتحف * شد المجرة له وسطا بزنار
يدير فيه كؤس الراح ذو حور * يدير من لحظه ألحاظ سحار

ولامزيد فى التفجع على الديار والتوجع للدمن والآثار على قول البحترى من قصيدة يرثى بها المتوكل

محل على القاطول أخلق داثره * وعادت صروف الدهر جيشا تغادره
كأن الصبا توفى نذورا اذا انبرت * تراوحه أذيالها وتباكره
ورب زمان ناعم ثم عهده * ترق حواشيه ويونق ناضره
تغير حسن الجعفرى وأنسه * وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة * فعادت سواء دوره ومقابره
اذا نحن زرناه أجد لنا الاسى * وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر اذ ريع سربه * واذ ذعرت أطلاؤه وجاآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أستاره وستائره
وأوحشه حتى كأن لم يكن به * أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة * بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها * وبهجتها والعيش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت * بهيبتها أبوابه ومقاصره
وأين عميد الناس فى كل نوبة * تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره

وعلى قول أبى اسحق بن خفاجة الاندلسى

ومرتبع حططت الرحل فيه * بحيث الظل والماء القراح

تخترم حسن منظره مليك * تخترم ملكه القدر المتاح
بخربة ماء جدوله بكاء * عليه وشدو طائره نواح

وهذا النوع من البكاء على الدمن والتأسف على مافعلت بها أيدى الزمن كثير جدا لايعرف الباحث عنه له حدا وذلك لشدة ولوع النفوس بذكر أحبابها وحنينها الى أماكنها التى هى مواطن اطرابها ولهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة وجعلناها نابغة يشفى المشوق بها غليله وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم انه لايجدى ولايدفع عادية الدهر الملوّن ولايعدى ونهوا عنه لمافيه من تجديد المصاب الجزع لصاحبه الصاب والاوصاب قال أبو عمر بن عبد البرّ

عفت المنازل غير أرسم دمنة * حييتها من دمنة ورسوم
كم ذا الوقوف ولم تقف فى منسك * كم ذا الطواف ولم تطف بحريم
فكل الديار الى الجنائب والصبا * ودع القفار الى الصدى والبوم

انتهى كلامه رحمه الله تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار * (رجع الى قرطبة فنقول) وقد ألمّ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة وبعض أوصافها فى كتاب له كتبه على لسان سلطانه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرناه بجملته فى الباب الخامس من القسم الثانى فليراجع ثمة ونص محل الحاجة منه هنا ثم كان الغزو الى أم البلاد ومثوى الطارف والتلاد قرطبة وماقرطبة المدينة التى على عمل أهلها فى القديم بهذا الاقليم كان العمل والكرسىّ الذى بعصا ه رعى الهمل والمصر المعمور الذى فى خطه الناقة والجمل والافق الذى هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل نخيم الاسلام فى عقرتها المستباحة وأجاز نهرها المغنى عن السباحة وعمّ دوحها الاشب بوارا وأدار الحلات بسورها سوارا وأخذ بمخنقها حصارا وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ماشاء واهتصارا وجدّل من أبطالها من لم يرض انحجارا فأعمل الى المسلمين اصحارا حتى قرع بعض جهاتها غلابا جهارا ورفعت الاعلام اعلاما بعز الاسلام واظهارا فلولا استهلال الغوادى وان آتى الوادى لافضت الى فتح الفتوح تلك المبادى ولقضى تفثه العاكف والبادى انتهى * (ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى فى وصف هذه الغزوة لسلطان بنى مرين على لسان صاحب الاندلس ماصورته * المقام الذى نطالعه بأخبار الجهاد ونهدى اليه عوالى العوالى صحيحة الاسناد ونبشره بأخبار الفتح البعيد الآماد ونسأل الله تعالى دوام الاسعاد والامداد ونرتقب من صنع الله تعالى على يديه تكييفا يخرق حجاب المعتاد وامتعاضا يطلع بآفاق البلاد نجوم غرر الجياد ويفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف الحداد ويبنى عن مكارم من سلف من الآباء الكرام والاجداد مقام محل أخينا الذى نستفتح له بالفتح الظهور ونهدى الى مجده لما نعلم من فضل نيته وحسن قصده لطائف السرور ونستظهر بملكه المؤيد المؤمّل ومجده المشهور ونتوعد منهما العدوّ والحبيب المدخور والولىّ المنصور السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى عالى القدر قرير العين منشرح الصدر ولازال

حديث فخر وسائر اسير الشمس والبدر عظم سلطانه الخليق بالتعظيم الواثق منه بالذخر الكريم المثنى على مجده الصميم وفضله العميم أمير المسلمين عبد الله الغنى بالله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أمير المسلمين أبي الوليد اسمعيل بن فرج بن نصر سلام كريم بر عميم يخص مقامكم الاعلى واخوتكم الفضلى ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله رب العباد وملهم الرشاد ومكيف الاسعاف والاسعاد الولى النصير الذى نلقى الى التوكل عليه مقاليد الاعتماد ونمد الى انجاده وامداده أيدى الاعتداد ونرفع اليه أكف الاستمداد ونخاص لوجهه الكريم عمل الجهاد فنعرف عوارف الفضل المزداد ونجتنى ثمار النصر من أغصان القنا المناد ونجتلى وجوه الصنع الوسيم أبهر من وجه الصباح الباد ونظفر بالنعيم العاجل فى الدنيا والنعيم الآجل يوم قيام الاشهاد ونتفيأ ظلال الجنة من تحت اوراق السيوف الحداد والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله النبى الهاد رسول الملحمة المؤيد بالملائكة الشداد ونبى الرحمة الهامية العهاد أكرم الخلق بين الرائح والغاد ذى اللواء المعقود والحوض المورود والشفاعة فى يوم التناد الذى بجاهه نجدع أنوف الآساد يوم الجلاد وببركته ننال أقصى الامل والمراد وفى مرضاته نصل أسباب الوداد فنعود بالتجر الرابح من مرضاة رب العباد ونستولى فى ميدان السعادة المعادة على الآماد والرضى عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه الكرماء الامجاد دعائم الدين من بعده وهداة العباد أنجاد الانجاد وآساد الاساد الذين ظاهروه فى حياته بالحلوم الراجحة الاطواد والبسالة التى لا تنال بالعدد فى سبيل الله والاعداد حتى بوؤا الاسلام فى القواعد الشهيرة والبلاد وأرغموا أنوف أهل الجحد والالحاد فأصبح الدين رفيع العماد منصور العساكر والاجناد مستصحب العز فى الاصدار والايراد والدعاء لمقامكم الاعلى بالسعد الذى يغنى عن اختيار الطوالع وتقويم الميلاد والنصر الذى تشرق أنباؤه فى جنح ليل المداد والصنع الذى تشرع له أبواب التوفيق والسداد من حمراء غرناطة حرسها الله واليسر قد وطأ المهاد والخير واضح الاشهاد والحمد لله فى المبدا والمعاد والشكر له على آلائه المتصلة الترداد ومقامكم الذخر الكافى العتاد والمردد المتكفل بالانجاد والى هذا وصل الله سعدكم وحرس مجدكم ووالى نصركم وعضدكم وعددكم وعددكم وبلغكم من فضله العميم أملكم وقصدكم فاننا نؤثر تعريفكم بتافه المتزيدات ونورد عليكم أشتات الاحوال المتجددات اقامة لرسم الخلوص فى التعريف بما قل ومودة خالصة فى الله عز وجل فكيف اذا كان التعريف بما تهتز له منابر الاسلام ارتياحا لوروده وتنشرح الصدور منه لمواقع فضل الله وجوده والمكيفات البديعة الصفات فى وجوده وهو أننا قدمنا اعلامكم بما نويناه من غزو مدينة قرطبة أم البلاد الكافرة ومقر الحامية المشهودة والخيرات الوافرة والقطر الذى عهده بالمام الاسلام متقادم والركن الذى لا يتوقع صدمة صادم وقد اشتمل سورها من زعماء ملة الصليب على كل رئيس بئيس وهزبر خبيس وذى مكر وتلبيس ومن له سمة تذيع مكانه وتشيعه وأتباع على المنشط والمكره تطيعه فاستدعينا المسلمين من أقاصى البلاد وأذعنا فى الجهات

نعير

نفير الجهاد وتقدمنا الى الناس بسعة الازواد وأعطينا الحركة التي يخلف المسلمون فيها وراءهم جمهور الكفر من الاقطار والاعداد حقها من الاستعداد وأقصينا العطاء والاستلحاق والاستركاب في أهل الغناء وأبطال الجهاد والجلاد فحشر الخلق في صعيد وأخذوا الاهبة والزينة في عيد سعيد وشمل الاستدعاء كل قريب وبعيد عن وعد ووعيد ورحلنا وفضل الله شامل والتوكل عليه كاف كافل وخيمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس آرابهم واستكملوا أسرابهم ودسنا منهم بلاد النصارى بجموع كثرها الله وله الحمد وأغاها وأبعد في التماس ما عنده من الاجر منتهاها وعند ما حللنا قاشرة وجدنا السلطان دون بطرة مؤمّل نصرنا وانجادنا ومستعيد حظه من مواقع جهادنا ومقتضى دين كدحه باعاتنا اياه وانجادنا قد نزل بظاهرها في محلات ممن استقر على دعوته وتمسك بطاعته وشمله حكم جماعته فكان لقاؤنا اياه على حال أقرت عيون المسلمين وتكفلت باعزاز الدين وبجملها يغني عن التعيين والشرح والتبيين ورأى هو ومن معه من وفور جيش الله ما هالهم وأشك في حال اليقظة خيالهم من جموع تسد الفضا وأبطال تقارع أسد الغضى وكتائب منصورة ورايات منشورة وأمم محشورة تفضل عن مرأى العين وتردى العدو في مهاوي الحين فاعترفوا بما لم يكن في حسابهم واعتبر في عزة الله سبحانه أولو ألبابهم واذا كثر الله تعالى العدد نما وزكا واذا أزاح العلل ما اعتذر غاز ولا شكا وسالت من الغد الاباطح بالاعتراف وسمت الهوادي الى الاستشراف وأخذ الترتيب حقه من المواسط الجهادية والاطراف وأحكمت التعبية التي لا ترى العين فيها خللا ولا يجد الاعتبار عند شهادتها خللا وكان النزول على فرسخ من عدوة النهر الاعظم من خارج المدينة أنجز الله تعالى وعد دمارها وأعادها الى عهدها في الاسلام وشعارها ومحا ظلام الكفر من آفاقها بملة الاسلام وأنوارها وقد برزت من حاميتها شوكة سابغة الدروع وافرة الجموع واستحمت من أسوار القنطرة العظمى بحمى لا يخفر وأخذ عقابها من الحماة والكماة العدد الاوفر فبادر اليهم سرعان خيل المسلمين فصدقوهم الدفاع والقراع والمصال والمصاع وخالطوهم هبر بالسيوف ومباكرة بالحتوف فتركوهم حصيدا وأذاقوهم وبالا شديدا وجدلوا منهم جملة وافرة وأمة كافرة وملكوا بعض تلك الاسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة وظهرت عليها عزماتهم الصادقة واقتحم المسلمون الوادي سبحا في غمره واستهانة في سبيل الله بأمره وخالطوا حامية العدو في ضفته فاقتلعوها وتعلقوا بأوائل الاسوار ففرعوها فلو كان في ذلك اليوم على عزم من القتال وتيسير الآلات وترتيب الرجال لدخل البلد وملك الاهل والولد لكن أجار الكفار من الليل كافر وقد هلك منهم عدد وافر ورجع المسلمون الى محلاتهم ونصر الله سافر والعزم ظافر ومن الغد خضنا البحر الذي جعلنا العزم فيه سفينة والتوكل على الله للبلاغ ضمينا ونزلنا من صفة القوي العزيز منزلا عزيزا مكينا بحيث يجاوز سورها طنب القباب وتصيب دورها من بين الخيمات بوارق النشاب وبرزت حاميتها على متعددات الابواب مقيمة أسواق

الطعان والضراب فآبت بصفقة الخسر والتباب ولما شرعنا في قتالها ورتبنا أشتات النكايات لنكالها وإن كان لم يبق على مطاولة نزالها أنزل الله المطر الذي قدم بعهاده العهد وساوى النجد من طوفانه الوهد وعظم به الجهد ووقع الابقاء على السلاح والكف بالضرورة عن الكفاح وبلغ المقام عليها والاخذ بمخنقها والثواء لديها خمسة أيام لم يخل فيها الاسوار من اقتراع ولا الابواب من دفاع عليها وقراع وأنفذت مقاتل الستائر أنقابا وارتقب الفتح الموعود ارتقابا وفشت في أهلها الجراح والعيث الصراح وساءهم المساء بعزة الله والصباح ولولا عائق المطر لكان الاجهاز والاستفتاح والله بعدها الفتاح وصرفت الوجوه الى تخريب العمران وتسليط النيران وعقر الاشجار وتعفية الآثار وأتى منها العفاء على المصر الشهير في الامصار وتركت زروعها المائحة عبرة للابصار ورحلنا عنها وقد ألبسها الدخان حدادا ونكس من طغاتها أجيادا فاعتادت الذل اعتيادا وألفت الهون قيادا وكادت أن تستباح عنوة لولا أن الله تعالى جعل لها ميعادا وأتى القتل من أبطالها ومشاهير رجالها على من يبارز ويشاطح ويماسي بالناس ويصابح على عدد جم أخبرت سماهم المشهورة بأسمائهم ونبهت علاماتهم على نباهاتهم وظهر اقدام المسلمين في المعتركات وبروزهم بالحدود المشتركات وتنفيلهم الاسلاب وقودهم الخيل المسومة قود الغلاب وكان القفول وقد شمل الامن والقبول وحصل الجهاد المقبول وراع الكفر العز الذي يهول والاقدام الذي شهدت به الرماح والخيول وخاض المسلمون من ذرع الطرق التي ركبوها والمنازل التي استباحوها وانتهبوها بحورا بعد منها الساحل وفلاة موركة تتعدد فيها المراحل فصيروها صريما وسلطوا عليها النار غريما وحلوا بظاهر حصن اندجر وقد أصبح مالقا ادمار عير أوشاب ووكر طير نشاب فلما بلونا مراسه صعبا وابراجه ملئت حرسا شديدا وشهبا ضننا بالنفوس أن تفيض دون افتتاحه فسلطنا العفاء على ساحه وأغرينا الغارات باستيعاب ما باحوازه واكتساحه وسلطنا النار على حزونه وبطاحه وألصقنا بالرغام ذوائب أدواحه وانصرفنا بفضل الله والمناجل دامية والاجور نامية وقد وطئنا المواطئ التي كانت على الملوك قبلنا بسلا ولم نترك بها حرفا برفد ولانسلا ولا ضرعا برسل رسلا والحمد لله الذي يتم النعيم بحمده ونسأله حلل النصر فما النصر الا من عنده عرفنا كم بهذه الكيفيات الكريمة الصفات والصنائع الروائع التي بعد العهد بمثلها في هذه الاوقات علما بأنها لديكم من أحسن الهديات الوديات ولما نعلمه لديكم من حسن النيات وكرم الطويات فانكم سلالة الجهاد المقبول والرفد المبذول ووعد النصر المفعول ونرجو الله عز وجل أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهادية الى المعاينة ونصر الملة المحمدية وأن يجمع الله بكم كلمة الاسلام على عبدة الاصنام ويتم النعمة على الانام وودنا لكم ما علمتم يزيد على مر الايام والله يجعله في ذاته لكم متصل الدوام مبلغا الى دار السلام وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويضاعف الآلاء عندكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته انتهى

*(ومن

*(ومن هذا المنحى ما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى عن سلطانه ونصه المقام الذى أحاديث سعادته لاتمل على الاعادة والتكرار وسبيل مجادته الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار وأخبار صنائع الله لملكه ونظم فرائد الآمال فى سلكه تخلدها أقلام الاقدار بمداد الليل فى قرطاس النهار وترسمها بمذهب الاسفار فى صفحات الاقمار وتجعلها هجيرى حلاء الاسفار وحداة القطار فى مسالك الاقطار مقام محل أخينا الذى نلذ عادة هنائه مع الاعادة ونتلقى أنباء علائه بالاذاعة والاشادة ونطرز بأعلام ثنائه صحائف الجادة ونشكر الله أن وهب لنا من اخوته المضافة الى المحبة والودادة ما يرجح فى ميزان الاعتبار أخوة الولادة وعرفنا بيمن ولايته عوارف السعادة السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابقاه الله تعالى فى أعلام الملك السعيد بيت القصيد ووسطى القلادة ومجلى الكمال الذى بارى عيدان بأسه وجوده جنسا الابادة والافادة ولازالت آماله القاصية تنثال طوع الارادة ويمن نقيبته يجمع من أشتات الفتوح والعز الممنوح بين الحسنى والزيادة معظم سلطانه العالى المثنى على مجده المرفوع اسناده فى عوالى المعالى المسرور بما يسنيه الله له من الصنع المتوالى والفتح المقدم والتالى أمير المسلمين عبد الله الغنى بالله محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر أيد الله امره وأسعد نصره سلام كريم يتأرج فى الآفاق شذا طيبه وتسمع فى ذروة الود بلاغة خطيبه ويتضمن نوره سواد المداد عند مراسلة الوداد فيكاد يذهب بعبوسة المجهول وتقطيبه ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله فاتح الابواب بمقاليد الاسباب مهما استصعبت وميسر الامور بحكم المقدور اذا أجهدت الحيل وأتعبت مخمد نيران الفتن ما التهبت وجامع كلمة الاسلام وقد تصدعت وتشعبت ومسكن رجفان الارض بعدما اضطربت ومحييها بعهاد الرحمة مهما اهتزت وربت اللطيف الخبير الذى قدرت حكمته الامور ورتبت منهى كل نفس الى ما خطت الاقلام عليها وكتبت ونفت وأوجبت وشاءت وأبت ومجازيها يوم العرض بما كسبت والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله هازم الاحزاب لما تألفت وتألبت وجالب الحتف اليها عندما أجلبت رسول الملحمة اذا الليوث وثبت ونبى الرحمة التى هيأت النجاة وسببت وأبلغت النفوس المطمئنة من السعادة ما طلبت ومداوى القلوب المريضة وقد انكبت وانقلبت بلطائفه التى راضت وهذبت وقادت الى الجنة العليا واستجلبت وأدت عن الله وأدبت الذى بجاهه نستكشف الغماء اذا أطنبت ونستوكف النعماء اذا أخلفت البروق وكذبت ونتحاب فى طاعته ابتغاء الوسيلة الى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه التى استحقت المزية المرضية واستوجبت لما انتمت الى كماله وانتسبت وبذلت نفوسها فى الله ومرضاته تقربت والى نصرته فى حياته انتدبت والمناصل قد رويت من دماء الاعداء وأخصبت وخلفته فى أمته بعد مماته بالهمم التى عن صدق اليقين أعربت وتداعت لمجاهدة الكفار وانتدبت وأبعدت المغار وادربت حتى بلغ ملك أمته

قوله وأخصبت هكذا فى نسخة وهى أنسب بقوله رويت وفى أخرى واختضبت اه

أقاصي البلاد التي نبت فكسرت الصلب التي نصبت ونعلت التيجان التي عصبت ماهمت السحب وانسحبت وطلعت الشمس وغربت والدعاء لمثابتكم العليا بالنصر العزيز كلما جهزت الكتائب وتكتبت والفتح المبين كلما ركنت عقائل القواعد اذا خطبت والصنائع التي مهما حدقت فيها العيون تعجبت أوجالت في لطائفها الافكار فاستطابت مذاق الشكر واستعذبت حتى تنجز لكم مواعيد النصر فقد اقتربت فانا كتبنا اليكم كتب الله لكم أغيا ماسألت الالسن السائلة واستوعبت من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وجنود الله بفضل الله تعالى ونعمته قد غلبت وفتحت وسلبت وأسود جهاده قد أوردت الاعداء بعدما كلبت ومراعي الآمال قد أخصبت والحمد لله حمدا يجلو وجوه الرضا بعدما احتجبت ويفتح أبواب المزيد فكلما استقبلها الامل رحبت والشكر لله شكرا يقيد شوارد النعم مما أبقت وماهربت والى هذا وصل الله لمقامكم أسباب الظهور والاعتلاء وعرفكم عوارف الآلاء على الولاء فاننا ما ورد علينا كتابكم البر الوفادة الجم الافادة الجامع بين الحسنى والزيادة جالى غرة الفتح الاعظم من ثنايا السعادة وواهب المنن المتاحة وواصف النعم المعادة فأوقفنا من رقه المنشور على تحف سنية وأماني هنية وقطاف للنصر جنية ضمنت سكون البلاد وقرارها وأن الله قد أذهب الفتن وأوارها وأخمد نارها ونضح عن وجه الاسلام عارها وجمع الاهواء على من هو بيته السعادة بعد أن أجهد اختيارها فاصبح الشتيت مجتمعا وجنح الجناح مرتفعا والجبل المخالف خاشعا متصدعا وأصحب في القياد من كان ممتنعا فاستوثقت الطاعه وتبجحت السنة والجماعه وارتفعت الشناعه وتمسكت البلاد المكرهة بأذيال وليها المارأته وعادت الاجياد العاطلة الى حليها بعد ما أنكرته أجلنا جياد الاقلام في ملعب الهناء وميدانه لاول أوقات امكانه على بعد مكانه وأجهدنا عبارة الكلام في اجلال هذا الصنع وتعظيم شانه وأغرينا الثناء بشيم مجدكم في شرحه لنا وبيانه رأينا أن لانكل ذلك الى البراع ونفرده فيه بالاجتماع ومايتعاطاه من منة الذراع وأن نشد برده من المشافهة أزره ونعضد بعين من اللسان أمره فعينا لذلك من يفسر منه المجمل ويعهد المقصد المعمل حتى يجمع بين اغراض البر والعلن منه والسر ويقيم شتى الادلة على الوداد المستقر ووجهنا في عرض الرسالة به اليكم واخترنا لشرحه بين يديكم خطيب الوفود وبركة المشايخ في هذا المقام المحمود الشيخ الجليل الشهير الكبير الصالح الفاضل أبا البركات ابن الحاج وصل الله حفظه وأجزل من الجد واللطف حظه وهو البطل الذى لايعلم الاجالة في الميدان ولايبصر بوظائف ذلك الشان ومرادنا منه أن يطيل ويطيب ويجيل في وصف محاسنكم اللسان الرطيب ويقرر ماعندنا لمقامكم من التشيع الذى قام على الحب المتوارث أساسه واطرد حكمه وأنتج قياسه وليجعل تلو مقصد الهناء بمجلسكم الباهر السناء الصارف الى الجهاد في سبيل الله والفناء وجه التهمم والاعتناء على مر الآناء ماتجدد لدينا من الانباء في جهاد الاعداء وان كان رسولكم أعزه الله تعالى قد شارك في السرى

والسير

والسير وعن الطير وأغنى فى الحكاية عن الغير ولاسرف فى الخير وهو أننا لما انصرفنا من منازلة قرطبة نظر اللحشود التى نفدت معدات أزوادها وشابت بهشيم الغلة المستغلة مفارق بلادها واشفاقا فالفساد أقواتها بفوات أوقاتها رحلنا عنها وقد انطوينا من اعفاء أكثر تلك الزروع المائلة الفروع الهائلة الروع على هم ممض وأسف للمضاجع مقض اذ كان عاذل المطر يكف ألسنة النار عن المبالغة فى التهابها وخلاق اهابها ونفض أغوارها ونهب شوارها واذاعة أسرارها وهى البحور المتلاطمة اذا حطمتها الرياح الحاطمة واللجج الزاخرة اذا حركتها السوافى الماخرة تودّ العيون أن تتحدى حدودها القاصية فلا تطيق والركائب الراكضة أن تشرف على غاياتها فيفضل عن مراحلها الطريق قد جللها الربيع أرزاقا تغص بها الخزائن والاطباق وحبو بامفضلة لا يرزؤها الانفاد والانفاق ولو اعتصت على انتسافها الآفاق لخضنا فى سبيل الله لتعقيب غزو تلك الاقطار المخالفة بحق الصائفة واعانة تلك الطائفة بكلوم الجماع الحائفة خفوقا لم نقنع فيه بالاستنابة حرصا على استئصال الصبابة وأعفينا الرحل من اتصال الكد وقابلنا قبولهم على استصحابنا فيها بالرد وأطللنا على قرطبة بجحلاتنا ننسف الجبال نسفا ونعم الارض زلزالا وخسفا ونستقرى مواقع البذر احتراقا ونخترق أجوابها المخترقة بحب الحصيد اختراقا ونسلط عليها من شرر النار أمثال الجمالات الصفر مدت من الشواظ أعناقا ونوسع القرى الواسعة قتلا واسترقاقا وندير على مستديرها كؤس الحتوف دهاقا وأخذت النيران واديها الاعظم من كلا جانبيه حتى كأن العيون أجت سبيكته فاستحالت وأذابت صفيحته فسالت وأتت الكفار سماؤهم بالدخان المبين وصارت الشمس من بعد سفورها وعموم نورها منقبة المحيا معصبة الجبين وخضنا أحشاء الغريرة نعم أشتات النعم انتساقا وأقوات أهلها اتلافا وآمال سكانها اخلافا وقد بهتوا السرعة الرجوع ودهشوا لوقوع الجوع وتسبيب تخريب الربوع نحن المنكر البعيد أن يأتى بعد عمرانها المعهود وقد اصطلم الزرع واجتث العود وصار الى العدم منها الوجود ورأوا من عزائم الاسلام خوارق تشذ عن نطاق العوائد وعجائب تستريب فيها اعين المشاهد اذا شمل هذا العام المتعرف فيه من الله تعالى الانعام على غرفات أربع دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميرا وعلا فوق مراقيها الاذان عز بزاجهيرا وضويقت كراسى الملك تضييقا كبيرا وأذيقت وبالا مبيرا ورياح الادالة ان شاء الله تعالى تستأنف هبوبا وبأسا مشبوبا والثقة بالله قد ملأت نفوسا مؤمنة وقلوبا والله سبحانه المسؤل أن يوزع شكر هذه النعم التى أثقلت الاكتاد وأبهظت الطوق المعتاد وابهجت المشيم والمرتاد فبالشكر يستدر فريدها ويتوالى تجديدها وقطعنا فى بحبوحة تلك العمالة المستبحرة العماره والفلج المغنى وصفها عن الشرح والعباره مراحل ختمنا بالتعريج على حرب جيان حربها فقللنا ثانية غربها وجددنا كربها واستوعبنا حرقها وخربها ونظمنا البلاد فى سلك البلاء وحشنا فى أنجادها وأغوارها ركائب الاستيلاء فلم نترك بها ملقط طير فضلا عن معاف عير ولا أسأرنا لغلها المحروب بلالة

خير وقفلنا وقد تركنا بلاد النصارى التى منها الكاد فالمدد والعدة والعدد وفيها الحصام واللدد قد لبست الحداد حريقا وسلكت الى الخلاء والجلاء طريقا ولم تترك لها مضغة تخالط ريقا ولا نعمة تصون من الفراق فريقا وما كانت تلك النعم لولا أن أعان الله تعالى من عنصرى النار والهواء بجنود كونه الواسع ومدركه البعيد الشاسع لتولى الايدى البشرية تغريبها ولا ترزأ كثيرها الالتماح بالاعتراف غدير ها بل لله القدرة جميعا فقدرته لا تتحامى ريعا ولا حمى حريعا منيعا وعدنا والعود فى مثلها أحمد وقد بعد من شفاء النفوس الامد ونسخ بالسرور الكمد ورفعت من عز الاسلام العمد والحمد لله حمد الشاكرين ومنه نلتمس عادة النصر على أعدائه فهو خير الناصرين عرفنا كم به لبسر دينكم المتين ومجدكم الذى راق منه الجبين والله يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويبلغكم أملكم من فضله وقصدكم بمنه وطوله والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى *(رجع الى ما كنا بسبيله) من أخبار قرطبة الجليلة الوصف وذكر جامعها البديع الاتقان والرصف فنقول قد شاع وذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس فى هذه البلاد المشرقية وغيرها أن فى جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق الى أن يتم الدور ثم تعود وهذا شئ لم أقف عليه فى كلام المؤرخين من أهل المغرب والاندلس ولو كان كما شاع لذكروه وتعرضوا له لانه من أعجب ما يسطر مع انهم ذكروا ما هو دونه فالله أعلم بحقيقة الحال فى ذلك وسيأتى فى الباب السابع رسالة الشقندى الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الاندلس الطم والرم وقد ذكرنا فى الباب الاول جملة من محاسن قرطبة فأغنى ذلك عن اعادتها هنا على أن رسالة الشقندى تكرر فيها بعض ما ذكرناه لانا لم نرد أن نخل منها بحرف فأتينا بها بلفظها وان تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه والعذر واضح للمنصف المغضى والله نسأل سلوك السبيل الذى يرضى بمنه وكرمه * وقال صاحب نشق الازهار ان فى جامع قرطبة تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح وفيه أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون قيل أحكم عمله فى سبع سنين وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر مكتوب على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف وعلى الآخر صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع انتهى قلت لم أر أحدا من محققى المؤرخين للاندلس وثقاتهم ذكر هذا على قلة اطلاعى وهو عندى بعيد لانه لو كان لذكره الائمة * وقد حكى عياض فى الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يذكر هذا ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره والله تعالى أعلم بحقيقة الامر * وقال فى موضع آخر من هذا الكتاب ان دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وهى على النهر الكبير وعليه جسران وبها الجامع الكبير الاسلامى وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى وبهذه المدينة معدن الفضة ومعدن الشاذنج وهو حجر من شأنه أن يقطع الدم وكان يجلب منها البغال التى تباع كل واحدة منها بخمسمائة دينار من حسنها وعلوها الزائد انتهى *(رجع الى أخبار

البنيان) ولاخفاء أنه يدل على عظم قدر بانيه ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المرواني باني الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعض العلماء وبعض ينسبهما لغيره وسيأتيان في ترجمة نور الدين بن علي منسوبين

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم قدره * أضحى يدل على عظيم الشان

وتذكرت هنا قصيدة قالها بعض الشاميين وهو الاديب الفاضل الشيخ أسد بن معين الدين مما يكتب على أبراج دار الحسيب النسيب الشهير البيت الكبير الحي والميت القاضي عبد الرحمن بن الفرفور الدمشقي وضمنها بيتي الناصر المذكورين

زر مجلسا أضحى أعز مكان * ومحل أهل العلم والعرفان
المجد خيم في ذرى أبراجه * والسعد عبد الباب طول زمان
كالخلد مرفوع البناء وأرضه * مفروشة بالدر والعقيان
بيت به فخر البيوت لانه * بيت القصيد ومنزل الضيفان
مغنى فسيح فيه معنى مفصح * عن قدر بانيه بغير لسان
قد قال بعض ذوي الفضائل قبلنا * قولا بديعا واضح التبيان
هم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم قدره * أضحى يدل على عظيم الشان
قد شاده من ساد أهل زمانه * بالاصل والافضال والرجحان
ورث السيادة كابرا عن كابر * وسما برفعته على كيوان
قاضي القضاة ومفخر العصر الذي * قد جاء فيه سابق الاقران
في العلم بحر لا ينال قراره * في الحكم مثل مهند وسنان
يروي عطاء عن يديه قد اقتفى * آثار آباء ذوي احسان
لا زال يبقى شائدا بيت العلا * وعدوه في الوهن والنقصان
يا أيها المولى الذي يجري مع الاقبال والاسعاد طلق عنان
دم شامخ المقدار مرتفع البنا * والناس تحت رضاك كالغلمان
متمتعا ببنيك سادات الورى * في عز رب دائم السلطان
ما رجع القمري في تغريده * في الروض فوق منابر الاغصان

وكان القاضي عبد الرحمن بن فرفور المذكور عالي الهمة تضيق يده عما يريد فلذلك كان كثيرا ما يبث شكواه في الطروس والدفاتر ويعتب على الزمان الذي أخنى على أهل الادب وقطع آمالهم بحسامه الباتر ويرحم الله القائل

هذا زمان دريهمي لاغيره * فدع الدفاتر للزمان الفاتر

فمن نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض اخوانه فكتب اليه معتذرا وأدمج شكوى الزمان الذي كان من شماتة الاعداء به حذرا

أبطأت في ذا الجزء يا سيدي * كآبة من جور دهر بغيض

صابرته فالجسم منى لقى * تجلدا والقلب منى مريض
فاذ أبى الا تلافى وقد * أحلنى منه محل النقيض
واقتادنى قسرا الى مصرع * قد رق منه اللحم والعظم هيض
سلمت للاقدار مستسرعا * لباب مولى ذى عطاء عريض
جموم صبر كنت أسطو به * على رواياالدهر بالهم غيض
فلا تلم يا صاح من بعد ذا * اذا تغلت بحال الجريض

ورأيت بخطه رحمه الله تعالى مما نسبه جده القطب الخيضرى الحافظ لابراهيم بن نصر الحموى ثم المصرى المعروف بابن الفقيه

يازمانا كلما * ولت أمرا يتنع
ان تعصبت فانى * باصطبارى أ تقنع

وهذه تورية بديعة للغاية فى التعصب والتقنع مع حلاوة النظم وجودة السبك وخفة الوزن والله سبحانه يروح تلك الارواح فى الجنان ويعاملنا واياهم بمحض الفضل والامتنان ويكفينا شجون دهر جرى بنا طلق العنان (رجع الى ما كنا فيه) وكنت وقفت فى كلام بعض العلماء على أن البيتين السابقين المنسوبين الى أمير المؤمنين الناصر المروانى رحمه الله تعالى قالهما فى الزهراء التى بناها وسيأتى ذكرها قريبا وقال الشيخ سيدى محيى الدين بن العربى فى المسامرات قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش وبناؤها عجيب فى بلاد الاندلس وهى قريبة من قرطبة أبياتا تذكر العاقل وتنبه الغافل وهى

ديار بأكناف الملاعب تلمع * وما ان بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب * فيصمت احيانا وحينا يرجع
فخاطبت منها طائرا متغردا * له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى * فقال على دهر مضى ليس يرجع

(ثم قال) وأخبرنى بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر أن يفك بذلك المال اسرى المسلمين وطلب فى بلاد الافرنج أسيرا فلم يوجد فشكر الله تعالى على ذلك فقالت له جاريته الزهراء وكان يحبها حبا شديدا اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة لى فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة اميال أو نحو ذلك وأتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها وجعلها مستنزها ومسكنا للزهراء وحاشية أرباب دولته ونقش صورتها على الباب فلما قعدت الزهراء فى مجلسها نظرت الى بياض المدينة وحسنها فى حجر ذلك الجبل الاسود فقالت ياسيدى ألا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى فأمر بزوال ذلك الجبل فقال بعض جلسائه أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفرا ولا قطعا ولا يزيله الا من خلقه فأمر بقطع شجره وغرسه تينا ولوزا ولم يكن منظر أحسن منها ولا سيما فى زمان الازهار وتفتح

الاشجار وهى بين الجبل والسهل انتهى ببعض اختصار وقال ابن خلكان فى ترجمة المعتمد بن عباد ماصورته الزهراء بفتح الزاى وسكون الهاء وفتح الراء بعدها همزة ممدودة وهى من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أحد ملوك بنى أمية بالاندلس بالقرب من قرطبة فى أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل وطول الزهراء من الشرق الى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع وعرضها من القبلة الى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع وعدد السوارى التى فيها أربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند وثلث مدخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء وكانت جباية الاندلس خمسة آلاف ألف ألف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق المستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار وهى من أهول ما بناه الانس وأجله خطرا وأعظمه شأنا ذكر ذلك كله ابن بشكوال فى تاريخ الاندلس انتهى كلامه * وحكى فى المطمح أن الوزير الكبير الشهير اباالحزم بن جهور قال وقد وقف على قصور الامويين التى تقوضت أبنيتها وعوضت من أنيسها بالوحش أفنيتها

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

وفيه أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة باحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور وائتناس وقرع النواقيس يبهج سمعه وبرق الحميا يسرع لمعه والقس قد برز فى عبدة المسيح متوشحا بالزنانير أبدع توشيح قد هجروا الافراح واطرحوا النعم كل اطراح لايعمدون الى ماء بايلة الا اغترافا من الغدران بالراح وأقام بينهم يعملها حميا كانما يرشف من كاسها شفة لميا وهى تنفح له بأطيب عرف كلما رشفها أعذب رشف ثم ارتحل بعد ما ارتحل فقال

ولرب حان قد شممت بديره * خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم * متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا * يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر * كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم * لسلافهم والاكل من خنزيره انتهى

*(رجع الى أبناء الزهراء) قال بعض من أرخ الاندلس كان يتصرف فى عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل انتهى وسيأتى فى الزهراء مزيد كلام وقال ابن حيان ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥ وجعل طولها من شرق الى غرب ألفين وسبعمائة ذراع وتكسيرها تسعمائة

ألف ذراع وتسعون ألف ذراع كذا نقله بعضهم وللنظر فيه مجال قال وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤنة حملها وجلب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردى والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة والحوض المنقوش المذهب من الشام وقيل من القسطنطينية وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان وليس له قيمة ولما جلبه أحد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثنى عشر تمثالا وبنى فى قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافى لونه المتلونة أجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت فى وسطه اليتيمة التى أتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وهذا المجلس فى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ الى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور و يأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من فى المجلس ان المحل قد طار بهم مادام الزئبق يتحرك وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس وقيل كان ثابتا على صفة هذا الصهريج وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناؤه فى الجاهلية ولا فى الاسلام وانما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم وكان بناء الزهراء فى غاية الاتقان والحسن وبها من المرمر والعمد كثير وأجرى فيها المياه وأحدق بها البساتين وفيها يقول الشاعر السميسر

وقفت بالزهراء مستعبرا * معتبرا أندب أشتاتا
فقلت يا زهرا الا فارجعى * قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكى وأبكى بها * هيهات يغنى الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى * نوادب يندبن أمواتا

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصا وسيأتى ما يوافق جله ويخالف قله والله سبحانه يعلم الامر كله فانه ربما ينظر المتأمل هذا الكتاب فيجد فى بعض الاخبار تخالفا فيحمل ذلك على الغلط وليس كذلك وانما السبب الحامل لذلك جلب كلام الناس بعباراتهم والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا وربما يقع التكرار وذلك من أجل ما ذكر والله أعلم

* وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر غير واحد ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذى شاده ملك طليطلة المأمون بن ذى النون بها وذلك انه أتقنه الى الغاية وأنفق عليه أموالا طائلة وصنع فى وسطه بحيرة وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج

لا يفتر من الجرى والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ولا يصله ويوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة اذ سمع منشدا ينشد

أتبنى بناء الخالدين وانما * مقامك فيها لو عقلت قليل

لقد كان فى ظل الأراك كفاية * لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فنغص عليه حاله وقال انا لله وانا اليه راجعون أظن أن الاجل قد قرب فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى ولم يجلس فى تلك القبة بعدها وذلك سنة ٤٦٢ تجاوز الله تعالى عنه هكذا حكاه بعض مؤرخى المغرب * وقد ذكر فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع وتذكرت هنا قول أبى محمد المصرى فى صفة قصر طليطلة

قصر يقصر عن مداه الفرقد * عذبت مصادره وطاب المورد

نشر الصباح عليه ثوب مكارم * فعليه ألوية السعادة تعقد

وكأنما المأمون فى أرجائه * بدر تمام قابلته أسعد

وكأنما الاقداح فى راحاته * درجان ذاب فيه العسجد

وله فى صفة البركة والقبة عليها

شمسية الانساب بدرية * يحار فى تشبيهها الخاطر

كأنما المأمون بدر الدجى * وهى عليه الفلك الدائر

وكان ملوك الاندلس فى غاية الاحتفال بالمجالس والقصور وللوزير الجزيرى رحمه الله تعالى فى وصف مجلس للمنصور بن أبى عامر ما يشهد لذلك وهو قوله

وتوسطتها لجة فى قعرها * نبت السلاحف ما تزال تنفق

تنساب من فلكى هزبران يكن * نبت الجنان فانق فاه أخرق

صاغوه من ند وخلق صفحتى * هاديه محض الدر فهو مخلق

للياسمين تطلع فى عرشه * مثل الملك غداة وهو مطوق

ونضائد من نرجس وبنفسج * وجنى خيرى وورد يعبق

ترنو بسحر عيونها وتكاد من * طرب اليك بلا لسان تنطق

وعلى يمينك سوسنات أطلعت * زهر الربيع فهن حسنا تشرق

فكأنما هى فى اختلاف رقومها * رايات نصرك يوم باسك تخفق

فى مجلس جمع السرور لأهله * ملك اذا جمعت قناه يفرق

حازت بدولته المغارب رفعة * فغدا ليحسدها عليه المشرق

ومن هذه القصيدة

أما الغمام فشاهد لك انه * لاشك صنوك أو أخوك الأوثق

وانى الصنيع لحين تم تمامه * فى الصحو انشأ ودقه يتدفق

وأظنه يحكيك جودا اذرأى * فى اليوم بحرك زاخرا يتفهق

وكان السبب في هذه الابيات أن المنصور صنع في ذلك الأوان صنيعا لتطهير ابنه عبد الرحمن وكان عام قحط فارتفع السعر بقرطبة وبلغ ربع الدقيق الى دينارين فجلا الناس من قرطبة فلما كان يوم ذلك الصنيع نشأت في السماء سحابة عمت الافق ثم أتى المطر الوابل فاستبشر الناس وسر المنصور بن أبي عامر فقال الجزيري بديهة أما الغمام الخ وهو القائل على لسان نرجس العامرية

حييتك يا قمر العلا والمجلس * أزكى تحيتها عيون النرجس

زهر تريك بحسنها وبلونها * زهر النجوم الجاريات الكنس

ملكن افئدة الندامى كلما * دارت بمجلسهم مدار الاكؤس

ملك الهمام العامري محمد * للمكرمات وللنهى والانفس

قال ابن بسام ومن شعر الجزيري ما اندرج له أثناء مدحه الذي ملح فيه بمخاطبته للمنصور على ألسنة أسماء كرائمه بزهر رياضه فمن ذلك عن بهار العامرية

حدق الحسان تقر لي وتغار * وتضل في صفتي النهى وتحار

طلعت على قضبي عيون تمائمي * مثل العيون تحفها الاشفار

وأخص شئ بي اذا شبهتني * درر تنطق سلكها دينار

أهدى له قضب الزمرد ساقه * وحباه أنفس عطره العطار

أنا نرجس حقا بهرت عقولهم * ببديع تركيبي فقيل بهار

ومن أخرى عن بنفسج العامرية اذا تدافعت الخصوم أيد الله مولانا المنصور في مذاهبها وتعاورت في مفاخرها فاليه مفزعها وهو المقنع في فصل القضية بينهما لاستيلائه على المفاخر باسرها وعلمه بسرها وجهرها وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنها والفخر بمشابهها كل مذهب وما منهما الا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا وأعذب من الغمام الذي يسقينا وان كانا قد تشبها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الارض ومصابيح السما وهي من الموات الصامت فاني أتشبه بأحسن ما زين الله به الانسان وهو الحيوان الناطق مع أني أعطر منهما عطرا وأحمد خبرا وأكرم امتاعا شاهدا وغائبا ويانعا وذابلا وكلاهما لا يمتع الا ريثما ينع ثم اذا ذبل تستكره النفوس شمه وتستدفع الأكف ضمه وأنا أمتع يابسا ورطبا وتدخرني الملوك في خزائنها وسائر الاطبا وأصرف في منافع الاعضا فان نفرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقي فلا غرو أن الوشي ضعيف والهوى لطيف والمسك خفيف وليس الجديد رك بالصراع وقد أودعت ايد الله مولانا قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه وحضرت بنفسي لئلا أغيب عن حضرتهما فقديما فضل الحاضر وان كان مفضولا ولذا قالوا ألذ الطعام ما حضر لوقته وأشعر الناس من أنت في شعره فلو لانا أتم الحكم في أن يفصل بحكمه العدل وأقول

شهدت لنوار البنفسج ألسن * من لونه الاحوى ومن ايناعه

لمشابه الشعر الاثيث أعاره الـ * قمر المنير الطلق نور شعاعه

ولربما جمع النجيع من الطلى * من صارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف فى لونه * لافى روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل العلا * حتى وضحن بنهجه وشراعه
فى سيفه قصر لطول نجاده * وتمام ساعده وفسحة باعه
ذوهمة كالبرق فى اسراعه * وعزيمة كالحين فى ايقاعه
تلقى الزمان له مطيعا سامعا * وترى الملوك الشم من أتباعه

وما أحسن قول بعض الاندلسيين يصف حديقة

وحديقة مخضرة أثوابها * فى قضبها للطير كل مغرد
نادمت فيها فتية صفحاتهم * مثل البدور تنير بين الاسعد
والجدول الفضى يضحك ماؤه * فكأنه فى العين صفح مهند
واذا تجعد بالنسيم حسبته * لما تراه مشبها للمبرد
وتناثرت نقط على حافاته * كالعقد بين مجمع ومبدد
وتدحرجت للناظرين كأنها * در تنثر فى بساط زبرجد

وكان بحمام الشطارة باشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الاندلس بقوله

ودمية مرمر تزهو بجيد * تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا * ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن * تتيمنا بألحاظ مراض

وكان بسرقسطة فى القصر المسمى بدار السرور مجلس الذهب أحد قصور المقتدر بن هود وفيه يقول ذو الوزارتين بن عبد شلب يهجو وزيرا كان ينبز بحقون

ضج من تحقون بيت الذهب * ودعا مما به واحربى
رب طهرنى فقد دنسنى * عار تحقون ألوف الذنب

(وكتب) بعض كبراء الاندلس الى اخوانه كتابى هذا من وادى الزيتون ونحن فيه مختلفون بقعة اكتست من السندس الاخضر وتحلت بأنواع الزهر وتخايلت بأنهار تخللها وأشجار تظللها تحجب أدواحها الشمس لالتفافها وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها وماشئتم من محاسن تروق وتعجب وأطيار تتجاوب بألحان تلهى وتطرب فى مثلها يعود الزمان كله صبا وتجرى الحياة على الامل والمنى وانا فيها أبقاكم الله سبحانه بحال من طاب غذاؤه وحسن استمراؤه وصحا من جنون العقار واستراح من مضض الخمار وزايلته وساوسه وخلت من الخباط هواجسه ثم ذكر كلاما من هذا النمط فى وصف الخمار والدعاء الى العقار * فراجعه ابو الفضل بن حسداى برقعة قال فى صدرها الى سيدنا الذى ألزمنا بامتنانه الشكر وكبيرنا الذى علمنا ببيانه السحر وعميدنا الذى عقدنا بحرمه الحل ورمانا بدائه وانسل أبقاك الله تعالى لتوبة نصوح تتمها وعين غموس تبرها وردأ بقاك الله تعالى كتابك الذى أنفذته من معرسك بوادى الزيتون ووقفا على ما القنت فى أوصافه من جنة المفتون واعجابك بالتفاف شجره ودوحاته واحترازك بلطيف بواكره

وروحاته وسروره به وهو جو تلاعه موروودة هضابه وأجراعه وكل المشارب ما خلاه ذميم وماؤه الدهر خصر والمياه حميم وتلك عادة تلونك وسجية تحضرمك وشاكلة ملالك وسآمك وأشعر الناس عندك من أنت في شعره وأحب البلاد اليك ما أنت في عفره فأين منك بساتين جلق وجنانه ورياضه المونقة وخلجانه وقبابه البيض في حدائقه الخضر وجون العطر في جنانه النضر وما تضمه حيطانه وتجمعه أنجاده وغيطانه من أمهات الراح التي هجرتها بزعمك ومورد الشمول التي طلقتها برغمك وهيهات فوالله ما فارقتك تلك الاجارع والمجاني ولا شاقتك تلك المنازل والمغاني الا تذكرا لما الدنيا من طيب المعاهد وحنينا لما عندنا من جميل المشاهد وأين من مشتاق عنقاء مغرب * ثم ذكر كلاما في جواب ما مر من الحمار لم يتعلق لى به غرض *(وما أحلى) ما كتب به أبو اسحق بن خفاجة من رسالة في ذكر منتزه ولما أكب الغمام اكبابا لم أجد منه اغبابا واتصل المطر اتصالا لم ألف منه انفصالا أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته وينشر صحيفته فقشعت الريح السحاب كطوى السجل الكتاب وطفقت السماء تخلع جلبابها والشمس تميط نقابها وطلعة الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت ذهبت في لمة من الاخوان نستبق الى الراحة ركضا ونطوى التفرج أرضا فلا اندفع الا الى غدير نمير قد استدارت منه في كل قرارة سماء سحابة عماء واثاب في تلعته حباب فترددنا بتلك الاباطح نتهادى تهادى أغصانها ونتضاحك تضاحك أقحوانها وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشى على بساط وشى فاذا مر بغدير نسجه درعا وأحكمه صنعا وان عثر بجدول شطب منه نصلا وأخلصه صقلا فلا ترى الا بطاحا مملوءة سلاحا كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول وسيف مسلول * ومن فصل منها فاحتللنا قبة خضراء ممدودة اشطان الاغصان سندسية رواق الاوراق ومازلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ونشتمل عليه برداء نسيم عليل ونجيل الطرف في نهر صقيل صافى لجين الماء كأنه مجرة السماء مؤتلق جوهر الحباب كأنه من ثغور الاحباب وقد حضرنا مسمع يجرى مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها وهواها ويغنى لها مقترحها ومناها فصيح لسان النقر يشفى من الوقر كأنه كاتب حاسب تمشق يمناه وتعقد يسراه

يحرك حين يشدو ساكنات * وتنبعث الطبائع للسكون

انتهى * (وكانت) بين أبى اسحق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق أن ولى ذلك الصديق حصنا فخاطبه أبو اسحق برقعة منها أطال الله بقاء سيدى النبيهة أوصافه النزيهة عن الاستثناء المرفوعة امارته الكريمة بالابتداء ما انحذفت ياء يرى للجزم واعتلت واو يغزو ولموضع الضم كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله يجعل هاتيك من الاحوال الثابتة اللازمة ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة وانما استنهض طولك الى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل وتعدية فعل الفصل وعدولك عن باب ألف القطع الى باب الوصل والجمع

حتى يسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ويدخل الاتصال حال الصمت فلا تخل أعزك الله أن رسم اخائك عندى دوحه قد درس عفاء ولا أن صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء وانما أنا فعل اذا تنى ظهر من ضمير ودك ما بطن وبدا منه ما كمن وهنيئا أعزك الله أن فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعه تغيير وأن فعل سيفك ماض ماله للعوامل تأثير وأنت بجدك جماع ابواب الظرف تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ودرس حروف العطف وتدخل لام التبرئة على ماحدث من عتبك وتوجب بعد النفى ماسلف من عبدك وتدع ألف الالفة أن تكون بعد من حروف اللين وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين وتسوم ساكن الود أن يتحرك ومعتل الاخاء أن يصح وكأنى هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة وتصير هذه النكرة معرفة فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبل ومنك اشتقاق اسم السودد والفضل وانك وان تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا وعدوك وان تكبر كالكميت لم يقع الا مصغرا وللايام علل تبسط وتقبض وعوامل ترفع وتخفض فلا دخل عروضك قبض ولا عاقب رفعك خفض ولا زلت مرتبطا بالفضل شرطك وجراؤك جاريا على الرفع سرورك الكريم وسناؤك حتى يخفض الفعل ويبقى على الكسر قبل ان شاء الله * وكتب رحمه الله تعالى يستدعى عود غناء * انتظم من اخوانك أعزك الله تعالى عقد شرب يتساقون فى ودك ويتعاطون ريحانة شكرك وحمدك ومامنهم الا شره المسامع الى رنة حمامة ناد لا حمامة بطن واد والطول لك فى صلتها بجماد ناطق قد استعار من بنان لسانا وصار لضمير صاحبه ترجمانا وهو على الاساءة والاحسان لا ينفك من ايقاع به من غير اجاع له فان هفا عركت أذنه وأدب وان تأبى واستوى بعج بطنه وضرب لا زلت منتظم الجذل ملتئم الأمل انتهى

*(ومن نظمه رحمه الله تعالى يتفجع ويتوجع

شراب الامانى لو علمت سراب * وعتبى الليالى لو عرفت عتاب
وهل مهجة الانسان الاطريدة * يحوم عليها للحمام عقاب
يخب بها فى كل يوم وليلة * مطايا الى دار البلى وركاب
وكيف يغيض الدمع أو يبرد الحشا * وقد باد أقران وفات شباب
أقلب طرفى لا أرى غير ليلة * وقد حط عن وجه الصباح نقاب
كانى وقد طار الصباح حمامة * يمد جناحيه على غراب
دعاهم داعى الردى فكأنما * تبارت بهم خيل هناك عراب
فها هم وسلم الدهر حرب كأنما * جنى بينهم طعن لهم وضراب
هجود ولا غير التراب حشية * لجنب ولا غير القبور قباب
ولست بناس صاحبا من ربيعة * اذا نسيت رسم الوفاء صحاب
ومما شجانى أن قضى حتف أنفه * وما اندق رمح دونه وكعاب
وانا تجارينا ثلاثين حقبة * فمات سباقا والحمام قصاب
كأن لم يبت فى منزل القصف ليلة * يجيب بها داعى الصبا ويجاب

اذا قام منا قائم هزعطفه * شبـاب أرقناه بها وشراب
ولما تراءت للمشيب بريقة * وأقشع من ظل الشباب سحاب
نهضنا باعباء المعالى جزالة * وأرست بها فى النائبات هضاب
فيا ظاعنا قد حط فى ساحة البلى * بمنزل بين ليس عنه مآب
كفى حزنا أن لم يزرنى على النوى * رسول ولم ينفذ اليك كتاب
وأنى اذا يممت قبرك زائرا * وقفت ودونى للتراب حجاب
ولو أن حيا كان جاورميتا * لطال كلام بيننا وخطاب
وأعرب عما عنده من جلية * فأقشع عن شمس هناك طباب

وقد أبعدنا عما كنا بصدده من ذكر قرطبة أعادها الله للاسلام فنقول * قال بعض من أرخ الاندلس انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل الى أربعمائة وتسعين مسجدا ثم زادت بعد ذلك كثيرا كما سيأتى ذكره * وقال بعضهم كانت قرطبة قاعدة الاندلس وأم المدائن وقرارة الملك وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلثمائة وكانت عدة الدور فى القصر الكبير أربعمائة دار ونيفا وثلاثين وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها الواجب على أهلها المبيت فى السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض * ورأيت فى بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لمتونة والموحدين قال وكانت ديار أهل الدولة اذ ذاك ستة آلاف دار وثلثمائة دار انتهى وعدد أرباضها ثمانية وعشرون وقيل أحد وعشرون ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدا وعدد الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام وقيل ثلثمائة حمام وقال ابن حيان ان عدة المساجد عند تناهيها فى مدة ابن أبى عامر ألف وستمائة مسجد والحمامات تسعمائة حمام وفى بعض التواريخ القديمة كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا منها بشقندة ثمانية عشر مسجدا وتسعمائة حمام وأحد عشر حماما ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصا وربما نقص العدد أو أكثر لارباب الدولة وخاصتها هكذا نقله فى المغرب وهو أعلم بما يأتى ويذر رحمه الله تعالى * وقال بعض المؤرخين بعد ذكره نحو ما تقدم ووسط الارباض قبة قرطبة التى تحيط بالسور دونها وأما اليتيمة التى كانت فى المجلس البديع فانها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية الى الناصر مع تحف كثيرة سنية انتهى ونحوه لابن الفرضى وغير واحد لكن خالفهم صاحب المسالك والممالك فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجدا وهو بعيد وقال قبله ان دور قرطبة فى كمالها ثلاثون ألف ذراع * وتفسيرها باللسان القوطى القلوب المختلفة وهى بالقوطية بالظاء المشالة وقيل ان معنى قرطبة أجزفاسكنها قال وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة * وكانت جباياتها فى أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين دينارا وسبق ما يخالف هذا ومن القمح أربعة آلاف مدى وستمائة مدى ومن الشعير سبعة آلاف مدى وستمائة مدى وسبعة وأربعين مديا وقال بعض

العلماء أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكانت مائتي ألف دار وسبعة وسبعين دارا وهذه دور الرعية وأما دور الاكابر والوزراء والكتاب والاجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلثمائة دار سوى مصارى الكراء والحمامات والخانات وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران ومحيت آثار تلك القرى والبلدان انتهى ملخصا * وسيأتي في رسالة الشقندي ماهو أشمل من هذا * ولما فارق حال أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي بقرطبة وزين له بعض أصحابه الرحلة الى حضرة ملك الموحدين مراكش قال وذكر المتنزهات القرطبية

يا هبة باكرت من نحو دارين * وافت الي على بعد تحييني
سرت على صفحات النهر ناشرة * جناحها بين خيري ونسرين
ودت الي جسدي روح الحياة وما * خلت النسيم اذا ما مت يحييني
لولا تنسمها عن نشر أرضكم * ما أصبحت من أليم الوجد تبريني
مرت على عقدات الرمل حاملة * من سركم خبرا بالوحي يشفيني
عرفت من عرفه ما كنت أجهله * لما تبسم في تلك الميادين
نزوت من طرب لما هفا سحرا * وظل بنشرني طورا ويطويني
خلت الشمال شمالا اذ سكرت بها * سكرا بعالست أرجوه يجنيني
أهدت الي أريجا من شمائلكم * فقلت قرّبني من كان يقصيني
وخلت من طمع أن اللقاء على * اثر النسيم وأضحى الشوق يحدوني
فظلت ألثم من تعظيم حقكم * مجرّ أذيالها والوجد يغريني
مسارح كم بها سرحت من كبد * قلبي وطرفي ولا سلوان يثنيني
بين المصلي الى وادي العقيق وما * يزال مثل اسمه ان بان يبكيني
الى الرصافة فالمرج النضير فوا * دي الدير فالعطف من بطحاء عبدون
لباب عبد سقته السحب وابلها * فلم يزل بكؤس الانس يسقيني
لا باعد الله عيني عن منازهه * ولا يقرّب لها أبواب جيرون
حاشا لها من مجلات مفارقة * من شيق دونها في القرب محزون
أين المسير ورزق الله أدركه * من دون جهد وتأميل يعنيني
يا من يزين لي الترحال عن بلدي * كم ذا تحاول نسلا عند عنين
وأين يعدل عن أرجاء قرطبة * من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
قطر فسيح ونهر ما به كدر * حفت بشطيه ألفاف البساتين
ياليت لي عمر نوح في اقامتها * وأن مالي فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا * ت الراح نهبا ووصل الحور والعين
وانما أسفي أني أهيم بها * وأن حظي منها حظ مغبون
أرى بعيني ما لا تستطيل يدي * له وقد حازه من قدره دوني

وأنكد الناس عيشا من تكون له * نفس الملوك وحالات المساكين
يغض طرف التصابي حين يبهته * قضبان نعمان في كثبان يبرين
قالوا الكفاف مقيم قلت ذاك لمن * لا يستخف الى بيت الزراجين
ولا يلبله هب الصبا سحرا * ولا يلطفه عرف الرياحين
ولا يهيم بتفاح الخدود ورمان الصدور وترجيع التلاحين
لا تجتني راحة الاعلى تعب * ولا تنال العلا الامن الهون
وصاحب العقل في الدنيا أخو كدر * وانما الصفو فيها للمجانين
يا آمرى أن أحث العيس عن وطني * لما رأى الرزق فيه ليس يرضيني
نعمت لكن لي قلبا ينازعني * فلو ترحلت عنه حل دوني
لا ازمن وطني طورا تطاوعني * قود الامانى وطورا فيه تعصيني
مذللا بين عرفاني وأضرب عن * سير لارض بها من ليس يدريني
هذا يقول غريب ساقه طمع * وذاك حين أريد البر يجفوني
اليك عني آمالي فبعدك يهديني وقربك يطغيني ويغويني
يالحظ كل غزال لست أملكه * يدنو ومالي حال منه تدنيني
ويا مدامة دير لا ألم به * لولا كما كان ما أعطيت يكفيني
لاصبرن على ما كان من كدر * لمن عطاياه بين الكاف والنون

وتسمى هذه القصيدة عند أهل الاندلس كنز الادب وقد أشرنا في الفصل الاول الى كثير مما يتعلق بقرطبة أعادها الله تعالى الى الاسلام فأغنى عن اعادته وان كان ذكره هنا أنسب لان ما تقدم انما هو في ذكرها مع غيرها من بلاد الاندلس وهذا الفصل لها بالاستقلال وأنشد أبو العاصي غالب بن أمية المروزي لما جلس على نهر قرطبة بازاء الربض ملتفتا الى القصر بديهة

ياقصر كم حويت من نعم * عادت لقى بعوارض السكك
ياقصر كم حويت من ملك * دارت عليه دوائر الفلك
ماشئت فابق فكل متخذ * يوما يعود بحال مترك

وقال القاضي أبو الفضل عياض عند ارتحاله عن قرطبة

أقول وقد جد ارتحالي وغردت * حداي وزمت للفراق ركائبي
وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي * وصارت هواء من فؤادي ترائبي
ولم يبق الا وقفة يستحثها * وداعي للاحباب لا للحبائب
رعى الله جيرانا بقرطبة العلا * وجادر باها بالعهاد السواكب
وحيا زمانا بينهم قد ألفته * طليق المحيا مستلان الجوانب
أاخواننا بالله فيها تذكروا * مودة جار أو مودة صاحب
غدوت بهم من برهم واحتفالهم * كأني في أهلي وبين أقاربي

(وأما) مسجد قرطبة فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه ولكن نذكر من أوصافه ونشر من

أحواله

أحواله مالا بدّ منه فنقول قال بعض المؤرّخين ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء وأتقن صنعة وكلما اجتمعت منه أربع سوارى كان رأسها واحدا ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد فى اعلاه وأسفله انتهى وكان الذى ابتدأ بناء هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ولم يكمل فى زمانه وكمله ابنه هشام ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه حتى صار المثل مضروبا به والذى ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء * وقال بعض المؤرّخين ان عبد الرحمن الداخل لما استقرّ أمره وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع وأنفق عليه ثمانين ألف دينار وبنى بقرطبة الرصافة تشبيها برصافة جدّه هشام بدمشق وقال بعض انه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار واشترى موضعه اذ كان كنيسة بمائة ألف دينار فالله تعالى أعلم * وقال بعض المؤرّخين فى ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته انه لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة فجدد مغانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ووسع فناءه وأصلح مساجد الكور ثم ابتنى مدينة الرصافة منتزها له واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة نقل اليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الاقطار انتهى وكانت أخته أم الاصبغ ترسل اليه من الشام بالغرائب مثل الرمّان العجيب الذى أرسلته اليه من دمشق الشام كما مرّ وسيأتى كلام ابن سعيد بما هو أتمّ من هذا * ولما ذكر ابن بشكوال زيادة المنصور بن أبى عامر فى جامع قرطبة قال ومن أحسن ما عاينه الناس فى بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفدين فى الحديد من أرض قشتالة وغيرها وهم كانوا يتصرّفون فى البنيان عوضا من رجالة المسلمين اذلالا للشرك وعزة للاسلام ولما عزم على زيادته هذه جلس لارباب الدور التى نقل أصحابها عنها بنفسه فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له ان هذه الدار التى لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها فى جامعهم وموضع صلاتهم فشطط واطلب ما شئت فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضا منها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة فقال تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ فى الثمن وحكى ذلك ابن حيان أيضا * وقيل ان انفاق الحكم فى زيادة الجامع كان مائة ألف وواحدا وستين ألف دينار ونيفا وكله من الاخماس * وقال صاحب كتاب مجموع المفترق كان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة الى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسا وعشرين ذراعا والعرض من الشرق الى الغرب قبل الزيادة مائتا ذراع وخمسة أذرع ثم زاد الحكم فى طوله مائة ذراع وخمسة أذرع فكمل الطول ثلثمائة ذراع وثلاثين ذراعا وزاد محمد بن أبى عامر بأمر هشام بن الحكم فى عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعا فتم العرض مائتى ذراع وثلاثين ذراعا وكان عدد بلاطه أحد عشر بلاطا عرض أوسطها ستة عشر ذراعا وعرض كل واحد من اللذين يليانه غربا واللذين يليانه شرقا أربع عشرة ذراعا وعرض كل واحد من الستة الباقية احدى عشرة ذراعا وزاد ابن أبى عامر فيه ثمانية عرض كل واحد

عشرة أذرع وكان العمل فى زيادة المنصور سنتين ونصفا وخدم فيه بنفسه وطول الصحن من المشرق الى المغرب مائة ذراع وثمان وعشرون ذراعا وعرضه من القبلة الى الجوف مائة ذراع وخمس أذرع وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعا وعدد أبوابه تسعة ثلاثة فى صحنه غربيا وشرقيا وجوفيا وأربعة فى بلاطاته اثنان شرقيان واثنان غربيان وفى مقاصير النساء من السقائف بابان وجميع ما فيه من الاعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عمودا رخاما كلها وباب مقصورة الجامع ذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء وثريات المقصورة فضة محضة وارتفاع الصومعة اليوم وهى من بناء عبد الرحمن بن محمد ثلاث وسبعون ذراعا الى اعلى القبة المتفتحة التى يستدبرها المؤذن وفى رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ودور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف فاثنان من التفافيح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج وهى احدى غرائب الارض * وكان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه الذى خطه بيده وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت وعليه أغشية الديباج وهو على كرسى العود الرطب بمسامير الذهب (رجع الى المنارة) وارتفاع المنارة الى مكان الاذان أربع وخمسون ذراعا وطول كل حائط من حيطانها على الارض ثمان عشرة ذراعا انتهى بحروفه وفيه بعض مخالفة لما ذكره ابن الفرضى وبعضهم اذ قال فى ترجمة المنصور بن أبى عامر ما صورته وكان من أخبار المنصور الداخلة فى أبواب البر والقرب بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلثمائة وذلك انه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب اليها قبائل البربر من العدوة وافريقية وتناهى حالها فى الجلالة ضاقت الارباض وغيرها وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس فشرع المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربى بقصر الخلافة فبدأ ابن أبى عامر فى هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولا من أول المسجد الى آخره وقصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى الاتقان والوثاقة دون الزخرفة ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم وأول ما عمله ابن أبى عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بانصافهم من الثمن وصنع فى صحنه الجب العظيم قدره الواسع فناؤه وهو أعنى ابن أبى عامر هو الذى رتب احراق الشمع بالجامع زيادة للزيت فتطابق بذلك النوران وكان عدد سوارى الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره بين كبيرة وصغيرة ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية وقيل أكثر وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا وعدد الكؤس سبعة آلاف كاس وأربعمائة كاس وخمسة وعشرون كاسا وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤس ووزنة مشاكى الرصاص للكؤس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها ووزنة ما يحتاج اليه من الكتان للفتائل فى كل شهر رمضان ثلاثة ارباع القنطار وجميع ما يحتاج

اليه

اليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربع أو نحوها يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد وممّا كان يختص برمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة ارباع القنطار من الكتان المقطن لاقامة الشمع المذكور والكبيرة من الشمع التى توضع بجانب الامام يكون وزنها من خمسين الى ستين رطلا يحترق بعضها بطول الشهر ويعم الحرق بجميعها ليلة الختمة وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر ويتصرف فيه من ائمة ومقرئين وامناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصا ويوقد من البخور ليلة الختمة أربعة أواق من العنبر الاشهب وثمان أواق من العود الرطب انتهى * وقال بعض المؤرخين كان للجامع كل ليلة جمعة رطل عود وربع رطل عنبر يتبخر به انتهى * وقال ابن سعيد نقلا عن ابن بشكوال طول جامع قرطبة الاعظم الذى هو بداخل مدينتها من القبلة الى الجوف ثلثمائة وثلاثون ذراعا الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعا وغير ذلك مقرمد وعرضه من الغرب الى الشرق مائتان وخمسون ذراعا وعدد أبهائه عشرون بهوا كمالها بالشمالية التى زادها المنصور بن أبى عامر بعد هذا تسعة عشر بهوا وتسمى البلاطات وعدد أبوابه الكبار والصغار أحد وعشرون بابا فى الجانب الغربى تسعة أبواب منها واحد كبير للنساء يشرع الى مقاصيرهن وفى الجهة الشرقية تسعة أبواب منها لدخول الرجال ثمانية أبواب وفى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب منها لدخول الرجال بابان كبيران وباب لدخول النساء الى مقاصيرهن وليس لهذا الجامع فى القبلى سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة فى قبلته متصل بالساباط المفضى الى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر الى الجامع لشهود الجمعة وجميع هذه الابواب ملبسة بالنحاس الاصفر بأغرب صنعة وعدد سوارى هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألف وأربعمائة سارية وتسع سوارى منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية وذكر المقصورة البديعة التى صنعها الحكم المستنصر فى هذا الجامع فقال انه خطر بها على خمس بلاطات من الزيادة الحكمية وأطلق حفافيها على الستة الباقية ثلاثة من كل جهة فصار طولها من الشرق الى الغرب خمسا وسبعين ذراعا وعرضها من جدار الخشب الى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعا وارتفاعها فى السماء الى حد شرافاتها ثمان أذرع وارتفاع كل شرافة ثلاثة أشبار ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة الى الجامع شرقى وغربى وشمالى ثم قال وذرع المحراب فى الطول من القبلة الى الجوف ثمان أذرع ونصف وعرضه من الشرق الى الغرب سبعة أذرع ونصف وارتفاع قبوه فى السماء ثلاث عشرة ذراعا ونصف والمنبر الى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين أبنوس وصندل وبقم وشوحط وما أشبه ذلك ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وقيل غير ذلك وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله وذكر أن عدد ثريات الجامع التى تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة سوى ما منها على الابواب مائتان وأربع وعشرون ثريا جميعها من لاطون

مختلفة الصنعة منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الاوسط أكبرها الضخمة المعلقة فى القبة الكبرى التى فيها المصاحف حيال المقصورة وفيها من السرج فيما زعموا ألف وأربعمائة وأربعة وخمسون تستوقد هذه الثريات الضخام فى العشر الاخير من شهر رمضان تسقى كل ثريا منها سبعة ارباع فى الليلة وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح فى هذا المسجد فى السنة أيام تمام وقوده فى مدة ابن أبى عامر مكملة بالزيادة المنسوبة ألف ربع منها فى شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربعا قال وفى بعض التواريخ القديمة كان عدد القومة بالمسجد الجامع بقرطبة فى زمن الخلفاء وفى زمن ابن أبى عامر ثلثمائة انتهى وفيه مخالفة لبعض ما تقدم وذكر بعضهم الزيت ولكن قوله أولى بالاتباع لنقله عن ابن بشكوال ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره والله سبحانه أعلم فقال ألف ربع وثلاثون ربعا منها فى رمضان خمسمائة ربع وفى الثريات التى من الفضة وهى ثلاثة اثنان وسبعون رطلا لكل واحدة ثمانية عشر فى ليلة وقدها وقال فى المنبر انه مركب من ستة وثلاثين ألف وصل قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة وسمرت بمسامير الذهب والفضة وفى بعضها نفيس الاحجار واتصل العمل فيه تسعة ثم قال ودور الثريا العظيمة خمسون شبرا وتحتوى على ألف كاس وأربعة وثمانين كلها موشاة بالذهب الى غير ذلك من الغرائب * وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد ابراهيم ابن صاحب الصلاة الولبى يصف جامع قرطبة بما نصه عمر الله سبحانه بشمول السعادة ربعك ووفر من جزيل الكرامة قسمك ولا برحت سحائب الانعام تهمى عليك ثره وأنامل الايام تهدى اليك كل مسره لئن كان أعزك الله طريق الوداد بيننا عامرا وسبيل المحبة غامرا لوجب أن نفض ختمه ونرفض كتمه لا سيما فيما يدرأ أخلاف الفضائل ويهز أعطاف الشمائل وانى شخصت الى حضرة قرطبة حرسها الله تعالى منشرح الصدر لحضور ليلة القدر والجامع قدس الله تعالى بقعته ومكانه وثبت أساسه وأركانه قد كسى ببردة الازدهاء وحلى فى معرض البهاء كأن شرفاته فلول فى سنان أو أشر فى أسنان وكأنما ضربت على سمائه كال أو خلعت على أرجائه حلل وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها ونسجت على أقطاره افياءها فترى نهارا قد أحدق به ليل كما أحدق بربوة سيل ليل دامس ونهار شامس وللذبال تألق كنضنضة الحيات أو اشارة السبابات فى التحيات قد أترعت من السليط كؤسها ووصلت بمحاجن الحديد رؤسها ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة أو كالثعابين العائمة عصبت بها تفاح من الصفر كالقاح الصفر بولغ فى صقلها وجلائها حتى بهرت بحسنها ولألائها كأنها جليت بالالهب وأشربت ماء الذهب ان سمتها طولا رأيت منها سبائك عسجد أو قلائد زبرجد وان أتيتها عرضا رأيت منها أفلاكا ولكنها غير دائره ونجوما ولكنها ليست بسائره تتعلق تعلق القرط من الذفرى وتبسط شعاعها بسط الاديم حين يفرى والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود وعرضت عليها عرض الجنود ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ويستوى فى هداية ضيائها الشقى والسعيد وقد قوبل منها مبيض بمحمر

وعورض

وعروض مخضرة بصفرة تضحك بسكانها وتبكى بضحكها وتهلك بحياتها وتحيا بهلكها والطيب تفغم أفواحه وتتنسم أرواحه وقتا الا لنجوح والند يسترجع من روح الحياة ماند *وكلما تصاعد وهو متحاصر أطال من العمر ما كان تقاصر فى صفوف مجامر كعوب مقامر وظهور القباب مؤلله وبطونها مهلله كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان قد قوس محرابها أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس حتى كأنه بالمجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق وكان اللازورد حول وشومه وبين رسومه نتف من قوادم الحمام أو كسف من ظلال الغمام والناس أخياف فى دواعيهم وأوزاع فى اغراضهم ومراميهم بين ركع وسجد وأيقاظ وهجد ومزدحم على الرقاب يتخطاها ومقتحم على الظهور يتمطاها كأنهم برد خلال قطر أو حروف فى عرض سطر حتى اذا قرعت أسماعهم روعة التسليم تبادروا بالتكليم وتجاذبوا بالاثواب وتساقوا بالاكواب كأنهم حضور وطال عليهم غياب أو سفر أتيح لهم اياب وصفيك مع اخوان صدق تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق فى مكان كوكر العصفور أستغفر الله أو ككناس اليعفور كأن اقليدس قد قسم بيننا مساحته بالموازين وارتبطنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين حتى صار عقدنا لا يحل ووعدنا لا يفل بحيث نسمع سور التنزيل كيف تتلى ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى والقومة حوالينا يجهدون فى دفع الضرر ويعمدون الى قرع العمد بالدرر فاذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين وسرت نحوهم سرى القين وتوهموا انها الى أعطافهم واصلة وفى أقفافهم حاصلة ففروا بين الاساطين كما تفر من النجوم الشياطين كأنما ضربهم أبو جهم بعصاه أو حصبهم عين بن صاف بحصاه فأكرم بها من مساع تسوق الى جنة الخلد وتهون فى السعى اليها الطوارف والتلد تعظيما لشعائر الله وتنبيها لكل ساه ولاه حكمة تشهد لله تعالى بالربوبيه وطاعة تذل بها كل نفس أبيه فلم أر أدام الله سبحانه عزك منظرا منها أبهى ولا مخبرا أشهى واذا لم تتأمله عيانا فخذه بيانا وان كان حظ منطق من الكلام حظ السفيه من الازلام لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها وذمة تقلدنا حمائلها يوجب قبول اتحافى سمينا وغثا ولبس الطاقى جديدا ورثا لا زلت لزناد النبل موريا والى آماد الفضل مجريا والتحية العبقة الريا المشرقة المحيا عليك ما طلع قمر وأينع ثمر ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى * (وذكر ابن بشكوال) أن الحكم المستنصر هدم الميضأة القديمة التى كانت بفناء الجامع التى يستسقى لها الماء من بئر الساقية وبنى موضعها أربع ميضا آت فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى والغربى منها ثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء اجرى فى جميعها الماء من قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة الى أن صبت ماءها فى احواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار وأجرى فضل هذا الماء العذب الى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية اجراها هنالك الى ثلاث جوابى من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير وألقاه الرخاميون هنالك واحتفروا أجوافها عنا قبرهم

فى المدة الطويلة حتى استوت فى صورها البديعة لاعين الناس فخفف ذلك من ثقلها وأمكن من احياطها الى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع وأمد الله تعالى على ذلك بعونه فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على قلل موثقة بالحديد المثقف محفوفة بوثاق الحبال قرن بجرها سبعون دابة من أشد الدواب وسهلت قدامها الطرق والمسالك وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة فى مدة اثنى عشر يوما فنصبت فى الاقباء المعقودة لها قال وابتنى المستنصر فى غربى الجامع دار الصدقة واتخذها معهد التفريق صدقاته المتوالية وابتنى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربى انتهى واعلم انه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب حتى انهم يقولون فى الاحكام هذا مما جرى به عمل قرطبة وفى هذه المسئلة نزاع كثير ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك قال الامام ابن عرفة رحمه الله تعالى فى اشتراط الامام على القاضى الحكم بمذهب معين وان خالف معتقد المشترط اجتهادا وتقليدا ثلاثة أقوال * الصحة للباجى ولعمل أهل قرطبة والظاهر شرط سحنون على من ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة قال المازرى مع احتمال كون الرجل مجتهدا * الثانى البطلان للطرطوشى اذ قال فى شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم * الثالث تصح التولية ويذهب الشرط تخريجا على أحد الاقوال فى الشرط الفاسد فى البيع للمازرى عن بعض الناس انتهى مختصرا *(قال ابن غازى) ان ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقا وابن شاس انما نسب له التفصيل انتهى ولما ذكر مولاى الجد الامام قاضى القضاة بالاندلس ثم انتقل الى المغرب بفاس سيدى أبو عبد الله المقرى التلمسانى فى كتابه القواعد شرط أهل قرطبة المذكور قال بعده ما نصه وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالاندلس ثم انتقل الى المغرب فبينما نحن نتنازع الناس فى عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الامة كعلى وابن مسعود ومن كان معهما ليس التكحل فى العينين كالكحل سنح لى بعض الجود ومعدن التقليد

الله أخر مدتى فتأخرت * حتى رأيت من الزمان عجائبا

يالله وللمسلمين ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ماذا الا لان الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه والباطل لازال يلقنه ويلقيه ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك وأسماؤها كالعتمة ويثرب وكذا التنابز بالالقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تزل من أهلها وانتقلت الى غيرهم مع تيسر أمرها حتى كانهم لا يرفعون بالدين رأسا بل يجعلون العادات القديمة أساسا وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسب وما انخرط فى هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة لا نحفظه الا قولا ولا نحمله الا كلا انتهى *(وقال الحافظ ابن غازى) بعد ذكر كلام مولاى الجد ما نصه وحدثنى ثقة ممن لقيت انه لما قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيى الشريف التلمسانى وتصدى لاقراء التفسير بالبلد

الجديد

الجديد وأمر السلطان أبو سعيد المريني الحفيد أعيان الفقهاء بحضور مجلسه كان مما ألقاه اليهم مشرع المقري هذا فبالغوا في انكاره ورأوا انه لامعدل عما عوّل عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطي من اعتماد عمل أهل قرطبة ومن في معناهم انتهى *(وقال بعض المؤرخين) حين ذكر قرطبة ما ملخصه هي قاعدة بلاد الاندلس ودار الخلافة الاسلامية وهي مدينة عظيمة وأهلها أعيان البلاد وسراة الناس في حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء وأجلاد الغزاة وأنجاد الحروب وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضا وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز وكل مدينة مستقلة بنفسها وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات والاسواق والصناعات وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل واحد وهي في سفح جبل مطل عليها وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرة والجامع الذي ليس في معمور الارض مثله وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين وفيه من السواري الكبار ألف سارية وفيه مائة وثلاثة عشر ثريا للوقود أكبرها تحمل ألف مصباح وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه وبقبلته صناعات تدهش العقول وعلى فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون في حسن وضعها وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران واثنان لازورديان ليس لها قيمة لنفاستها وبه منبر ليس على معمور الارض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعته وخشبه ساج وابنوس وبقم وعود قاقلي ويذكر في تاريخ بني أمية انه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين وكان يعمل فيه ثمانية صناع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي فكان جملة ما صرف على المنبر لاغير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا وفي الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لاجل وقوده وبهذا الجامع مصحف يقال انه عثماني وللجامع عشرون بابا مصفحات بالنحاس الاندلسي مخرمة تخريما عجيبا بديعا يعجز البشر ويبهرهم وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكي المعروف بالرشاشي وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف وعلى الثالث صورة غراب نوح والجميع خلقة ربانية وأما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة عجيبة المرأى فاقت قناطر الدنيا حسنا وعدة قسيها سبعة عشر قوسا سعة كل قوس منها خمسون شبرا وبين كل قوسين خمسون شبرا وبالجملة فمحاسن قرطبة أفضل المحاسن وأعظم من أن نحيط بها وصفا انتهى ملخصا وهو وان تكرر بعضه مع ما قدمته فلا يخلو من فائدة زائدة والله الموفق * وما ذكره في طول المسجد وعرضه مخالف لما مر ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك كما أشار اليه هو في أمر الصومعة وكذا ما ذكره في عدد السواري الآن يقال ما تقدم باعتبار الصغار والكبار وهذا العدد الذي ذكره هنا انما هو للكبار فقط كما صرح به والله تعالى أعلم * وأما الثريات فقد خالف في عدها ما تقدم مع أن المتقدم

هو قول ثقات مؤرخي الاندلس ونحن جلبنا النقل من مواضعه وان اختلفت طرقه ومضموناته وقال في المغرب عند تعرضه لذكر جامع قرطبة مانصه اعتمدت فيما نقلته في هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال فقد اعتنى بهذا الشان أتم اعتناء وأغنى عن الاستطلاع الى كلام غيره عن الرازي انه لما افتتح المسلمون الاندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر رضي الله تعالى عنه من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور وكانوا يسمونها بشنت نجنت وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جامعا وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة واقتنع المسلمون بما في أيديهم الى أن كثروا وتزيدت عمارة قرطبة ونزلها أمراء العرب فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها حتى كان الناس ينالون في الوصول الى داخل المسجد الاعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف وقصر أبوابها وتطامن سقفها حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الارض ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الامير عبد الرحمن بن معاوية المرواني الى الاندلس واستولى على امارتها وسكن دار سلطانها قرطبة وتمدنت به فنظر في أمر الجامع وذهب الى توسعته واتقان بنيانه فاحضر أعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه فأبوا من بيع ما بأيديهم وسألوا بعد الجهد أن يباحوا بناء كنيستهم التي هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به فتم الامر على ذلك وكان ذلك سنة ثمان وستين فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها الاحاجة الى تفسير الزيادة فيه وانما الحاجة في وصفه لكماله وفي شأنه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوي من قصيدة

وأنفق في دين الاله ووجهه * ثمانين ألفا من لجين وعسجد
توزعها في مسجد اسه التقي * ومنهجه دين النبي محمد
ترى الذهب الناري فوق سموكه * يلوح كبرق العارض المتوقد

قال وكمل سنة سبعين ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضا وما جدده فيه وأنه بناه من خمس في أربونة ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الاوسط لما تزايد الناس قال وهلك قبل أن يتم الزخرفة فأتمها ولده محمد بن عبد الرحمن ثم رم المنذر بن محمد ما وهي منه وذكر ما جدده خليفتهم الناصر ونقضه للصومعة الاولى وبنيانه للصومعة العظيمة قال ولما ولي الحكم المستنصر بن الناصر وقد اتسع نطاق قرطبة وكثر أهلها وتبين الضيق في جامعها لم يقدم شيأ على النظر في الزيادة فبلغ الجهد وزاد الزيادة العظمى قال وبها كملت محاسن هذا الجامع وصار في حد يقصر الوصف عنه وذكر حضوره لمشاورة العلماء في تحريف القبلة الى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء لان اهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة الى نحو الغرب فقال له الفقيه أبو ابراهيم يا أمير المؤمنين انه قد صلى الى هذه

القبلة خيار هذه الامة من أجداد الائمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم منذ افتتحت الاندلس الى هذا الوقت متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعانى وأمثالهم رحمهم الله تعالى وانما فضل من فضل بالاتباع وهلك من هلك بالابتداع فأخذ الخليفة برأيه وقال نعم ماقلت وانما مذهبنا الاتباع قال ابن بشكوال ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة فى هذه الزيادة وما اتصل بها انتهت الى مائتى ألف دينار وأحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين دينارا ودرهمين ونصف ثم ذكر الصومعة نقلا عن ابن بشكوال فقال أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الاولى سنة ٣٤٠ وأقام هذه الصومعة البديعة فحفر فى أساسها حتى بلغ الماء مدة من ثلاثة وأربعين يوما ولما كملت ركب الناصر اليها من مدينة الزهراء وصعد فى الصومعة من أحد درجيها ونزل من الثانى ثم خرج الناصر وصلى ركعتين فى المقصورة وانصرف قال وكانت الاولى ذات مطلع واحد فصير لهذه مطلعين فصل بينهما البناء فلا يلتقى الراقون فيها الا بأعلاها تزيد مراقى كل مطلع منها على مائة تسعا * قال وخبر هذه الصومعة مشهور فى الارض وليس فى مساجد المسلمين صومعة تعدلها * قال ابن سعيد قال ابن بشكوال هذا لانه لم ير صومعة مراكش ولا صومعة اشبيلية اللتين بناهما المنصور من بنى عبد المؤمن فهما أعظم وأطول لانه ذكر أن طول صومعة قرطبة الى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعا والى أعلى الرمانة الاخيرة بأعلى الزج ثلاثة وسبعون ذراعا وعرضها فى كل تربيع ثمانية عشر ذراعا وذلك اثنان وسبعون ذراعا قال ابن سعيد وطول صومعة مراكش مائة وعشر أذرع * وذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة القطعة مجددة غاية التجديد وفى أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانة ملصقة فى السفود البارز فى اعلاها من النحاس اثنتان منها ذهب ابريز والثالثة منها وسطى بينهما من فضة اكسير وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة فى طرف الزج البارز بأعلى الجو * وكان تمام هذه الصومعة فى ثلاثة عشر شهرا * وذكر ابن بشكوال فى رواية أن موضع الجامع الاعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قماماتهم وغيرها فلما قدم سليمان بن داود صلى الله وسلم عليهما ودخل قرطبة قال للجن اردموا هذا الموضع وعدلوا امكانه فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه ففعلوا ما أمرهم به وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور قال ومن قضائه أن الدارات الماثلة فى تزاويق سمائه مكتوبة كلها بالذكر والدعاء الى غيره بأحكم صنعة انتهى * وذكر مصحف عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه الذى كان فى جامع قرطبة وصار الى بنى عبد المؤمن فقال هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه مما خطه بيمينه وله عند أهل الاندلس شأن عظيم انتهى وسنذكر فيه زيادة على هذا * وأما الزهراء فهى مدينة الملك التى اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله وقد تقدم ذكره وهى من المدن الجليلة العظيمة القدر قال ابن الفرضى وغيره كان يعمل فى جامعها حين شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منها ثلثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الاجراء وسائر الصنائع فاستتم بنيانه واتقانه فى مدة من ثمانية وأربعين يوما وجاء فى غاية

الاتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة وطوله من القبلة الى الجوف حاشا المقصورة ثلاثون ذراعا وعرض البهو الاوسط من أبهائه من الشرق الى الغرب ثلاث عشرة ذراعا وعرض كل بهو من الاربعة المكتنفة له اثنتا عشرة ذراعا وطول صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ثلاث وأربعون ذراعا وعرضه من الشرق الى الغرب احدى وأربعون ذراعا وجميعه مفروش بالرخام الخمرى وفى وسطه فوارة يجرى فيها الماء فطول هذا المسجد أجمع من القبلة الى الجوف سوى المحراب سبع وتسعون ذراعا وعرضه من الشرق الى الغرب تسع وخمسون ذراعا وطول صومعته فى الهواء أربعون ذراعا وعرضها عشرة أذرع فى مثلها

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد فصنع فى نهاية من الحسن ووضع فى مكانه منه وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة وكان وضع هذا المنبر فى مكانه من هذا المسجد عندا كماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلثمائة * قال وفى صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر مطلى بذهب ابريز وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد فيمجه فى تلك البركة من فيه فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاته وجنباته ويمد النهر الاعظم بما فضل منه فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسمو أبراجها التى يرقى الماء منها ويتصوب من أعاليها وكانت مدة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل الى أن وصلت أعنى القناة الى هذه البركة أربعة عشر شهرا وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الاخيرة من السنة وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته ووصل المهندسين والقوام بالعمل بصلات حسنة جليلة جزيلة * وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلثمائة الى آخر دولة الناصر وابنه الحكم وذلك نحو من أربعين سنة ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان وكان الامام القاضى أبا عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبى عيسى ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة وأول من خطب به القاضى المذكور ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة والفخامة أطبق الناس على انه لم يبن مثله فى الاسلام البتة وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وجهيد وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة الا وكلهم قطع انه لم ير له شبها بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله حتى انه كان أعجب ما يؤمله القاطع الى الاندلس فى تلك العصور النظر اليه والتحدث عنه والاخبار عن هذا تتسع

جدا والادلة عليه تكثر ولولم يكن فيه الا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الاشخاص لاتهتدى الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على ابداعها واختراعها من أجزاء الارض المنحلة كيما يرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعده لاهل السعادة فى دار المقامة التى لا يتسلط عليها الفناء ولا تحتاج الى الرم لا اله الا هو المنفرد بالكرم * (وذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان صاحب الشرطة أن مبانى الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ونيف هو على ثلثمائة سارية وستة عشر قال منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما اهداه صاحب القسطنطينية وان مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه والله سبحانه أعلم فانها كانت من أهول ما بناه الانس وأجله خطرا وأعظمه شانا انتهى قلت فسر بعضهم ذلك النيف فى كلامه بثلاث عشرة والله أعلم (وقال بعض من أرخ الاندلس) كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا أنواع الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة انتهى وقيل ان عدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون وجعل بعض مكان الخمسين سبعة وثمانين (وقال آخر) ستة آلاف صقلبى وسبعة وثمانون والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثناعشر ألف خبزة كل يوم وينقع لها من الحمص الاسود ستة أقفزة كل يوم انتهى ثم قال الاول وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل تقسم من عشرة ارطال للشخص الى ما دون سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان انتهى (وقال ابن حيان) ألفيت بخط ابن دحون الفقيه قال مسلمة ابن عبد الله العريف المهندس بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بعمارة الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المجور المعدل ستة آلاف صخرة سوى الصخر المصرف فى التبليط فانه لم يدخل فى هذا العدد وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل وقيل أكثر منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة ألف بغل لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال وكان يرد الزهراء من الجير والجص فى كل ثالث من الايام ألف ومائة حمل وكان فيها حمامان واحدة للقصر وثانية للعامة * وذكر بعض أهل الخدمة فى الزهراء انه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلثمائة ألف دينار مدة خمسة وعشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها لانه توفى سنة خمسين فحصل جميع الانفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال * قال وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين

لم يذكر فى هذه العبارة جوابا ولعل ذلك لظهوره من المقام أى لكفى مثلا اه مصححه

قوله هو لعل مرجعه قصر الزهراء اه مصححه

وحسن وعلى بن جعفر الاسكندرانى وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير انتهى وقال بعض ثقات المؤرخين انه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية دنانير قيل وكان عدد السوارى المجلوبة من افريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ومن بلاد الافرنج تسع عشرة سارية وأهدى اليه ملك الروم مائة وأربعين سارية وسائرها من مقاطع الاندلس تركونة وغيرها فالرخام المجزع من رية والابيض من غيرها والوردى والاخضر من افريقية من كنيسة اسفاقس وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه اليه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الاسقف القادم من ايليا وأما الحوض الصغير الاخضر المنقوش بتماثيل الانسان فجلبه أحمد من الشام وقيل من القسطنطينية مع ربيع الاسقف أيضا وقالوا انه لاقيمة له لفرط غرابته وجماله وحمل من مكان الى مكان حتى وصل فى البحر ونصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره وكان يخبز فى أيامه فى كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة وقيل أكثر الى غير ذلك مما يطول تتبعه * وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنيمة فلا يحصيها ديوان وقد سبق هذا كله وانما كررته لقول بعضهم اثر حكايته له ما صورته وقيل ان مبلغ تحصيل النفقة فى بناء الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة وقيل ان مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديا وسبعة أقفزة من الدراهم المذكورة واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر خمسا وعشرين سنة شطر خلافته ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها وكانت خمسة عشر عاما وأشهرا فسبحان الباقى بعد فناء الخلق لا اله الا هو انتهى (وقال ابن البديع الهمدانى والفتح فى المطمح) كان الناصر كلفا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة فأفضى به الاغراق فى ذلك الى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره الزائد المنتشر صيته فى الارض واستفرغ جهده فى تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ثلاث جمع متواليات فاراد القاضى منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير بالانابة والرجوع فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى أتبنون بكل ريع الى قوله من الواعظين ثم وصله بقوله فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهى دار القرار

ومكان

ومكان الجزاء ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته والاسراف فى الانفاق عليه بكل كلام جزل وقول فصل يجرى فيه طلقا وانتزع فيه قوله تعالى افمن أسس بنيانه الى آخر الآية وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير من فجائه والدعاء الى الزهد فى هذه الدار الفانية والحض على اعتزالها والرفض لها والندب الى الاعراض عنها والاقصار عن طلب اللذات ونهى النفس عن اتباع هواها فأسهب فى ذلك كله وأضاف اليه من آى القرآن ما يطابقه وجلب من الحديث والاثر ما يشاكله حتى اذكر من حضره من الناس وخشعوا ورقوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا وأعلنوا التضرع الى الله تعالى فى التوبة والابتهال فى المغفرة وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ وقد علم انه المقصود به فبكى وندم على ما ناله من فرطه واستعاذ بالله من سخطه الا انه وجد على منذر لغلظ ما تقرعه به فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر وقال والله لقد تعمدنى منذر بخطبته وما عنى بها غيرى فأسرف على وأفرط فى تقريعى وتفزيعى ولم يحسن السياسة فى وعظى فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى واستشاط غيظا عليه فأقسم أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب الصلاة بالزهراء وقال له الحكم فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه اذ كرهته فزجره وانتهره وقال له أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه لا أم لك يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد هذا ما لا يكون وانى لاستحى من الله أن لا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر فى ورعه وصدقه ولكنه أحرجنى فأقسمت ولوددت انى أجد سبيلا الى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض منه أبدا وقيل ان الحكم اعتذر عما قال منذر وقال يا أمير المؤمنين انه رجل صالح وما أراد الا خيرا ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك فأمر حينئذ الناصر بالقصور ففرشت وفرش ذلك المجلس بأصناف فرش الديباج وأمر بالاطعمة وقد أحضر العلماء وغص بهم المجلس فدخل منذر فى آخرهم فأومأ اليه الناصر أن يقعد بقربه فقال يا أمير المؤمنين انما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس ولا يتخطى الرقاب فجلس فى آخر الناس وعليه ثياب رثة ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاما من كلام المنذر يأتى قريبا وقحط الناس آخر مدة الناصر فأمر القاضى منذر المذكور بالبروز الى الاستسقاء بالناس فتأهب لذلك وصام بين يديه أياما ثلاثا تنفلا وانابة ورهبة واجتمع له الناس فى مصلى الربض بقرطبة بارزين الى الله تعالى فى جمع عظيم وصعد الخليفة الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس ويشاركهم فى الخروج الى الله تعالى والضراعة له فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس وغصت بهم ساحة المصلى ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مخبتا متخشعا وقام ليخطب فلما رأى بدار الناس الى ارتقابه واستكانتهم من خيفة الله واخباتهم له وابتهالهم اليه رقت نفسه وغلبته عيناه فاستعبر وبكى حينا ثم افتتح خطبته بان قال يا أيها الناس سلام عليكم ثم سكت ووقف شبه الحصر ولم يك من عادته فنظر الناس بعضهم الى بعض لا يدرون ما عراه ولا ما أراد بقوله ثم اندفع

تاليا قوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة الى قوله رحيم ثم قال استغفروا ربكم انه كان غفارا استغفروا ربكم ثم توبوا اليه وتزلفوا بالاعمال الصالحة لديه قال الحاكى فضج الناس بالبكاء وجأروا بالدعاء ومضى على تمام خطبته ففزع النفوس بوعظه وانبعث الاخلاص بتذكيره فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر روى الثرى وطرد المحل وسكن الازل والله لطيف بعباده وكان لمنذر فى خطب الاستسقاء استفتاح عجيب ومنه أن قال يوما وقد سرح طرفه فى ملا الناس عندما شخصوا اليه بأبصارهم فهتف بهم كالمنادى يا أيها الناس وكررها عليهم مشيرا بيده فى نواحيهم أنتم الفقراء الى الله الى بعزيز فاشتد وجد الناس وانطلقت أعينهم بالبكاء ومضى فى خطبته * وقيل ان الخليفة الناصر خرج مرة للاستسقاء وأسرع عزمه عليه فتسابق الناس للمصلى فقال للرسول وكان من خواص الناس ليت شعرى ما الذى يصنعه الخليفة سيدنا فقال له ما رأيناه قط أخشع منه فى يومنا هذا انه منتبذ حائر منفرد بنفسه لابس أخس الثياب مفترش التراب وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول هذه ناصيتى بيدك اتراك تعذب بى الرعية وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك شئ منى قال الحاكى فتهلل وجه القاضى منذر عندما سمع قوله وقال يا غلام احمل المطر معك فقال أذن الله تعالى بالسقيا اذا خشع جبار الارض فقد رحم جبار السماء وكان كما قال فلم ينصرف الناس الاعن السقيا وكان منذر شديد الصلابة فى أحكامه والمهابة فى أقضيته وقوة الحكومة والقيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده لا يهاب فى ذلك الامير الاعظم فمن دونه (وقال ابن الحسن النباهى) وأصله فى المطمح وغيره ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر فى انكاره عليه الاسراف فى البناء أن الناصر كان اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم المخصوصة التى كانت ماثلة على الصرح الممرد المشهور وشأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة أنفق عليها مالا جسيما وقرمد سقفها به وجعل سقفها صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة تستلب الابصار بأشعة نورها وجلس فيها اثر تمامها يوما لاهل مملكته فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين وانك لأوحد فى شأنك كله وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى الينا خبره فأبهجه قولهم وسره وبينما هو كذلك اذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد واجما ناكس الرأس فلما أخذ مجلسه قال له كالذى قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على ابداعه فأقبلت دموع القاضى تتحدر على لحيته وقال له والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين قال فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له انظر ما تقول وكيف أنزلنى منزلتهم قال نعم أليس الله تعالى يقول ولولا أن يكون الناس أمة واحدة الآية فوجم الخليفة وأطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى ثم أقبل على منذر وقال له جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين

أجل تجزائه وكثر فى الناس أمثالك فالذى قلت هو الحق وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى وأمر بنقض سقف القبيبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها انتهى ما حكاه ابن الحسن النباهى ولنذكر هذه الحكاية وغيرها وان خالف السياق ما سبق وهذا منقول من كلام الحجارى فى المسهب فى أخبار المغرب فانه أتم فائدة اذ قال رحمه الله دخل منذر بن سعيد يوما على الناصر بانى الزهراء وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه فأنشده عبد الرحمن الناصر

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبالسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم * ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

(قال فما أدرى أهذا شعره أم تمثل به) فان كان شعره فقد بلغ به غاية الاحسان وان كان تمثل به فقد استحقه بالتمثل به فى هذا المكان وكان منذر يكثر تعنيفه على البنيان ودخل عليه مرة وهو فى قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضة واحتفل فيها احتفالا ظن أن أحدا من الملوك لم يصل اليه فقام خطيبا والمجلس قد غص بأرباب الدولة فتلا قوله تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون الآية وأتبعها بما يليق بذلك فوجم الملك وأظهر الكآبة ولم يسعه الا الاحتمال لمنذر بن سعيد لعظم قدره فى علمه ودينه * وحضر معه يوما فى الزهراء فقام الرئيس أبو عثمان ابن ادريس فأنشد للناصر قصيدة منها

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن * مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى * وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشدا

يا بانى الزهراء مستغرقا * أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقا * لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى فقال منذر اللهم اشهد أنى قد بثثت ما عندى ولم آل نصحا انتهى ولقد صدق القاضى منذر رحمه الله تعالى فيما قال فانها ذبلت بعد ذلك فى الفتنة وقلما كان فيها من منحة محنة وذلك عندما ولى الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر الملقب بشنجول وتصرف فى الدولة مثل ما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور ما ساء التدبير ولم يميز بين القبيل والنقير فدس الى المؤيد هشام بن الحكم من خوفه منه حتى ولاه عهده كما بينا نص العهد فيما سبق فأطبق الخاصة والعامة على بغضه واضمار السوء له وذلك سنة ثمان وتسعين وثلثمائة فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدى وخلع المؤيد وحبسه وأسلمت الجيوش شنجول فأخذ وأسر وقتل (قال ابن الرقيق) ومن أعجب ما روى انه من نصف نهار يوم الثلاثاء لاربع بقين من جمادى الاخيرة الى نصف نهار يوم الاربعاء فتحت قرطبة وهدمت الزهراء وخلع

قوله القبيل والنقير فى نسخة القبيل والدبير اهـ

خليفة وهو المؤيد وولى خليفة وهو المهدى وزالت دولة بنى عامر العظيمة وقتل وزيرهم محمد بن علاجة وأقيمت جيوش من العامة ونكب خلق من الوزراء وولى الوزارة آخرون وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين وهم جند المهدى انتهى وقد تقدم بعض الكلام على المهدى هذا وقد قيل فيه لما قام على الدولة

قد قام مهدينا ولكن * بملة الفسق والمجون
وشارك الناس فى حريم * لولاه مازال بالمصون
من كان من قبل ذا أجما * فاليوم قد صار ذا قرون

(ومن شعر المهدى هذا وقد حياه فى مجلس شرابه غلام بقضيب آس

أهديت شبه قوامك المياس * غصنا رطيبا ناعما من آس
وكأنما يحكيك فى حركاته * وكأنما تحكيه فى الانفاس

(وقد ذكرنا فيما سبق فى الفصل الثالث خبر المهدى هذا وقتله ولقد كان قيامه مشؤما على الدين والدنيا فانه فاتح أبواب الفتنة بالاندلس وماحى معالمها حتى تفرقت الدولة وانتثر السلك وكثر الرؤساء وتطاول العدو اليها وأخذها شيأ فشيأ حتى محى اسم الاسلام منها أعادها الله تعالى وقد ألم الولى بن خلدون فى تاريخه بذكر الزهراء فى جملة مبانى الناصر فقال مانصه ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمبانى وكان جده الامير محمد وأبوه عبد الرحمن الاوسط وجده الحكم قد احتفلوا فى ذلك وبنوا قصورهم على أكمل الاتقان والضخامة وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف فبنى هو الى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة وجلب الماء الى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ثم أخذ فى بناء المتنزهات فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها لنزله وكرسيا لملكه وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ماعفا على مبانيهم الاولى واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دور الصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس انتهى وأما الزاهرة فهى من مبانى المنصور محمد بن أبى عامر (قال ابن خلدون) أثناء كلامه على المنصور ما صورته وابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة انتهى (وقال غيره) وأظنه صاحب المطمح وفى سنة ثمان وستين وثلثمائة أمر المنصور بن أبى عامر ببناء الزاهرة وذلك عندما تكامل واستفحل أمره واتقد جمره وظهر استبداده وكثر حساده وأضداده وأنداده وخاف على نفسه فى الدخول الى قصر السلطان وخشى أن يقع فى أشطان فتوثق لنفسه وكشف له ما استتر عنه فى أمسه من الاعتزاز عليه ورفع الاستناد اليه وسما الى ماسمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويحله بأهله وذويه ويضم اليه رياسته ويتم به تدبيره وسياسته ويجمع فيه فتيانه وغلمانه فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة الموصوفة

بالقصور

بالقصور الباهرة وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الاعظم ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة وحشد الصناع والفعلة وجلب اليها الآلات الجليلة وسربلها بهاء يرد الاعين كليلة وتوسع في اختطاطها وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها وبالغ في رفع أسوارها وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة وصار بناؤها من الانباء الغريبة وبنى معظمها في عامين * وفي سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور اليها ونزلها بخاصته وعامته فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته واتخذ فيها الدواوين والاعمال وعمل في داخلها الاهراء وأطلق بساحتها الارحاء ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة وقامت بها الاسواق وكثرت فيها الارفاق وتنافس الناس في النزول بأكنافها والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة وتناهى الغلو في البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بحوزتها العمارة واستقرت في بحبوحتها الامارة وأفرد الخليفة من كل شئ الا من الاسم الخلافي وصير ذلك هو الرسم العافي ورتب فيها جلوس وزرائه ورؤس أمرائه وندب اليها كل ذي خطة بخطته ونصب ببابها كرسي شرطته وأجلس عليها واليا على رسم كرسي الخليفة وفي صفة تلك المرتبة المنيفة وكتب الى الاقطار بالاندلس والعدوة بأن تحمل الى مدينته تلك أموال الجبايات وتقصدها أصحاب الولايات وينتابها طلاب الحوائج وحذر أن يعوج عنها الى دار الخليفة عائج فاقتضيت اليها اللبانات والاوطار وانحشد الناس اليها من جميع الاقطار وتم لمحمد بن أبي عامر ما أراد وانتظم بلبة أمانيه المراد وعطل قصر الخليفة من جميعه وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه وسد باب قصره عليه وجد في خبر لا يصل اليه وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهي والامر ويشرف منه على كل داخل ويمنع ما يحذره من الدواخل ورتب عليه الحراس والبوابين والسمار والمنتابين يلازمون حراسة من فيه ليلا ونهارا ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا وقد حجر على الخليفة كل تدبير ومنعه من تملك قبيل أو دبير وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء محجوز الغناء خفي الذكر عليل الفكر مسدود الباب محجوب الشخص عن الاحباب لا يراه خاص ولا عام ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه انعام ولا يعهد فيه الا الاسم السلطاني في السكة والدعوة وقد نسخه ولبس أبهته وطمس بهجته وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيرهم لا يعرفونه وأمرهم لا يذكرونه واشتد ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الايام في تشييد بنيتها حتى كملت أحسن كمال وجاءت في نهاية الجمال تفاوت بناء وسعة فناء واعتدال هواء ورق أديمه وصقالة جو واعتلال نسيمه ونضرة بستان وبهجة للنفوس فيها افتنان وفيها يقول صاعد اللغوي

يا أيها الملك المنصور من يمن * والمبتنى نسبا غير الذي انتسبا
بغزوة في قلوب الشرك رائعة * بين المنايا تناغي السمر والقضبا

أماترى العين تجرى فوق مرمرها * هوى فيجرى على أحفافها الطربا
أجرتها فطنة الزاهى بجريتها * كما طموت فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة * مستلئمات تريك الدرع واليلبا
تحفها من فنون الايك زاهرة * قد أورقت فضة اذ أورقت ذهبا
بديعة الملك ماينفك ناظرها * يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشى لها مثلا * ولو تعنت فيها نفسه طلبا

ودخل عليه ابن أبي الحباب فى بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية والروض قد تفتحت أنواره وتوشحت أنجاده وأغواره وتصرف فيها الدهر متواضعا ووقف بها السعد خاضعا فقال

لا يوم كاليوم فى أيامك الاول * بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل
ما ان يبالى الذى يحتل ساحتها * بالسعد أن لا تحل الشمس بالحمل

ومازالت هذه المنية رائقة والسعود بلبتها متناسقة تراوحها الفتوح وتغاديها وتجلب اليها منكسرة أعاديها لا تزحف عنها راية الا الى فتح ولا يصدر عنها تدبير الا الى نجح الى أن حان يومها العصيب وقيض لها من المكروه أوفر نصيب فتولت فقيدة حلت من بهجتها كل عقيدة انتهى (وقد حكى الحميدى فى جذوة المقتبس) هذه الحكاية الواقعة لابن أبي الحباب بزيادة فقال بعد أن ذكر هذه المنية العامرية وهى الى جانب الزهراء أن أبا المطرف بن أبي الحباب الشاعر دخل الى المنصور فى هذه المنية فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد فتحتا وواحدة لم تفتح فقال

لا يوم كاليوم فى أيامنا الاول * بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل
ما ان يبالى الذى يحتل ساحتها * بالسعد أن لا تحل الشمس فى الحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا الـ * ـسوسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثا من السوسان مائلة * أعناقهن من الاعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح * والبعض منغلق عنهن فى شغل
كأنها راحة ضمت أناملها * من بعد ما ملئت من جودك الخضل
وأختها بسطت منها أناملها * ترجو نداك كما عودتها فصل انتهى

وقد ذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوى البغدادى فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات

فالعامرية تزهى * على جميع المبانى
وأنت فيها كسيف * قد حل فى غمدان

فقام صاعد وكان مناقضا له فقال أسعد الله تعالى الحاجب الاجل ومكن سلطانه هذا الشعر الذى قد أعده وتروى فيه أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا فقال له المنصور قل ليظهر

صدق

صدق دعوا لتجعل يقول من غير فكرة كثيرة

يا أيها الحاجب المعتلي على كيوان
ومن به قد تناهى * فخار كل عيان
العامرية أضحت * كجنة الرضوان
فريدة لفريد * ما بين أهل الزمان

ثم مر في الشعر الى أن قال في وصفها

انظر الى النهر فيها * ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا * على ذرى الاغصان
والقضب تلتف سكرا * بميس القضبان
والروض يفتر زهوا * عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو * لوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا * رنفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها * في غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله وقال لابن العريف مالك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله فكيف تكون رويته فقال ابن العريف انما انطقه وقرب عليه المأخذ احسانك فقال له صاعد فيخرج من هذا أن قلة احسانه لك اسكتتك وبعدت عليك المأخذ فضحك المنصور وقال غير هذه المنازعة أليق بأربكما (قلت) وقد ذكر مؤرخو الاندلس منى كثيرة بها منها منية الناعورة السابقة ومنية العامرية هذه ومنية السرور ومنية الزبير منسوبة الى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة (قال أبو الحسن) بن سعيد أخبرني أبي عن ابيه قال خرج معي الى هذه المنية في زمان فتح نوار اللوز أبو بكر بن بقي الشاعر المشهور فجلسنا تحت سطر لوز قد نور فقال ابن بقي

سطر من اللوز في البستان قابلني * ما زاد شيء على شيء ولا نقصا
كأنما كل غصن كم جارية * اذا النسيم ثنى أعطافه رقصا

ثم قال

عجبت لمن أبقى على خردنه * غداة رأى لوز الحديقة نورا انتهى

(وذكر) بعض مؤرخي الاندلس أن المنصور بن ابي عامر كان يزرع كل سنة ألف مدي من الشعير قصيلا لدوابه الخاصة به وأنه كان اذا قدم من غزوة من غزواته لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش وصاحب الابنية لما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره قال وكان له دخالة كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم حاشا الصيد والطير والحيتان وكان يصنع في كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء قال وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة العامرية ذات القصور والمنتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة انتهى * ومن المطمح ان المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها الايغال وغال فيها من عظماء

الروم من غال وحل من أرضهم مالم يطرق وراع منهم مالم يرع قط ولم يفرق وصدر صدراً سماته على كل حسناء عقيله وجلا به كل صفحة للحسن صقيله ودخل قرطبة دخولا لم يعهد وشهد له فيها يوم مثله لم يشهد وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عائده وحداه متجعة وروائده وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر وله على ابن أبي عامر أياد محكمة الاواصر وهو الذى نهض به أول انبعاثه وشفى أمره زمن التياثه وناصم المصحفي عنه بلسان من الحماية ألد وتوخاه باحسان قلده من الرعاية ما قلد وأسمى رتبته وحلى باعظام جاهه لبته وكان كثيرا ما يتحفه ويصله ويلطفه فلما صدر المنصور من غزوته هذه وقفل نسى متاحفته وغفل فكتب اليه ابن شهيد

أناشيخ والشيخ يهوى الصبايا * بنفسى اقيك كل الرزايا
ورسول الاله أسهم فى الفى‌ء * لمن لم يخب فيه المطايا
فاجعلنى فديت أشكر معرو * فك وابعث بها عذاب الثنايا

فبعث اليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار كأنهن نجوم سوار وكتب اليه

قد بعثنا بها كشمس النهار * فى ثلاث من المها أبكار
فاتئد واجتهد فانك شيخ * سلخ الليل عن بياض النهار
صانك الله عن كلالك فيها * فمن العار كلة المسمار

فكتب اليه ابن شهيد

قد فضضنا ختام ذاك السوار * واصطبغنا من النجيع الجارى
ونعمنا فى ظل أنعم ليل * ولهونا بالبدر ثم الدرارى
وقضى الشيخ ماقضى بحسام * ذى مضاء عضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا * واتخذه سيفا على الكفار

انتهى

وقد قدمنا هذه الحكاية فى أخبار المنصور من الباب الثالث ولكنا أعدناها هنا بلفظ المطمح لما فيه من العذوبة والفائدة الزائدة * وممن كان فى أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن ادريس الخولانى قال فى المطمح علم من الاعلام فريد الزمان وعين من أعيان البيان باهر الفصاحه طاهر الجناب والساحه تولى التحبير أيام المنصور والانشاء وأشعر بدولته الافراح والانتشاء ولبس العزة مدة ضافية البرود وورد بها النعمة صافية الورود وامتطى من جياد التوجيه وأعنق من لاحق والوجيه وتمادى طلقه ولا أحد يلحقه الى أيام المظفر فمشى على سننه وتمادى السعد يترنم على فننه الى أن قتل المظفر صهره عيسى بن القطاع صاحب دولته وأميرها المطاع وكان أبو مروان قديم الاصطناع له والانقطاع فاتهم معه وكاد أن يذوق حمامه ومصرعه الا أن احسانه شفع وبيانه نفع ودفع فحط عن تلك الرتب وحمل الى طرطوشة على القتب فبقى هنالك معتقلا فى برج من أبراجها نائى المنتهى كالماء يناجى السها قد بعد ساكنه عن الانيس وقعد من النجم بمنزلة الجليس تمر الطيور دونه ولا تجوزه ويرى منه الثرى ولا يكاد يحوزه فبقى فيه دهرا لا يرتقى اليه راق ولا يرجى لبثه راق

الى

الى أن أخرج منه الى ثراه واستراح عماعراه فمن بديع نظمه قوله يصف المعتقل الذى فيه اعتقل

ياوى اليه كل أعور ناعق * وتهب فيه كل ريح صرصر
ويكاد من يرقى اليه مرة * من عمره يشكو انقطاع الابهر

ودخل ليلة على المنصور والمنصور قد اتكأ وارتفق وتحلى بمجلسه ذلك الافق فكم اماني بمجلسه ذلك مسوقه واحاديث الامانى به منسوقه فأمره بالنزول عنده فنزل فى جملة الاصحاب والقمر يظهر ويحتجب فى السحاب والافق يبدو به أغر ثم يعود مبهما والليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهما وأبو مروان قد انتشى وجال فى ميدان الانس ومشى وبرد خاطره قد دبجه السرور ووشى فأقلقه ذلك المغيب والالتياح وأنطقه ذلك السرور والارتياح فقال

أرى بدر السماء يلوح حينا * فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذلك انه لما تبدى * وأبصر وجهك استحيا فغابا
مقال لو نمى عندى اليه * لراجعنى بذا حقا جوابا

وله فى مدة اعتقاله وتردده فى قيله وقاله

شحط المزار فلا مزار ونافرت * عينى الهجوع فلا خيال يعترى
أزرى بصبرى وهو مشدود العرى * والآن عودى وهو صلب المكسر
وطوى سرورى كله وتلذذى * بالعيش طى صحيفة لم تنشر
ها انما ألقى الحبيب توهما * بضمير تذكارى وعين تذكرى
عجبا لقلبى يوم راعتنى النوى * ودنا وداع كيف لم يتفطر

(رجع الى المنصور) وكان المنصور اذا أراد أمرا مهما شاور أرباب الدولة والاكابر من خدام الدولة الاموية فيشيرون عليه بالوجه الذى عرفوه وجرت الدولة الاموية عليه فيخالفهم الى المنهج الذى ابتدعه فيقضون فى أنفسهم بالهلاك فى الطريق الذى سلكه والمهيع الذى اخترعه فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التى اقتضاها سعده فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها * وقيل له مرة ان فلانا مشؤم فلا تستخدمه فقال أف لسعد لا يغطى على شؤمه فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذى جرت به العادة شئ * وحكى عنه انه كان فى قصره الذى بالزاهرة فتأمل محاسنه ونظر الى مياهه المطردة وأنصت لاطياره المغردة وملأ عينه من الذى حواه من حسن وجمال والتفت فى الزاهرة من اليمين الى الشمال فانحدرت دموعه وتجهم وقال ويل لك يا زاهرة فليت شعرى من الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب فقال له بعض خاصته ما هذا الكلام الذى ما سمعناه من مولانا قط وما هذا الفكر الردىء الذى لا يليق بمثله شغل البال فقال والله لترون ما قلت وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت وبرسومها قد غيرت وبمبانيها قد هدمت ومحيت وبخزائنها قد نهبت وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت (قال الحاكى) فلم يكن الا أن توفى المنصور وتولى المظفر فلم تطل مدته فقام بالامر أخوه عبد الرحمن الملقب

بسجور فقام عليه المهدى والعامة وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة وانقرضت دولة آل عامر ولم يبق منهم آمر

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وخربت الزاهرة ومضت كأمس الدابر وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح وصارت قاعا صفصفا وبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا (ويروى) أن بعض أولياء ذلك الزمان مر بها ونظر الى مصانعها السامية الفائقه ومبانيها العالية الرائقه فقال يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك فى كل دار (قال الحاكى فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح الا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها وعم بالخراب سائرها فلم تبق دار فى الاندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذى همته مع ربه جليلة (ولقد حكى) أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضى ملكه لا اله الا هو (وتذكرت) هنا ما رآه فى المنام بعض أهل المغرب بالليلة التى انقرض فيها ملك الموحدين أن شخصا ينشده

ملك بنى مؤمن تولى * وكان فوق السماك سمكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا * سبحان من لا يبيد ملكه لا اله الا هو

وكان المهدى القائم على العامريين ماجنا فاتكا قال وقد حياه فى مجلس شرابه غلام بقضيب آس

أهديت شبه قوامك المياس * غصنا رطيبا ناعما من آس
وكأنما يحكيك فى حركاته * وكأنما تحكيه فى الانفاس

وكان المنصور بن أبى عامر حين تغلب على ملك الامويين غير مكترث بمثل المهدى المذكور فسلطه الله تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه وأخر كل ما قدمه ولم ينفع فى ذلك احتياط ولا حزم ولا راد للقضاء المبرم الجزم والله يحكم ما يشاء * فلا تكن متعرضا) وقد قدمنا شيئا من أخبار المنصور ولا بأس أن نتكلم هنا ببعضها وان حصل منه نوع تكرار فى نبذة منها الارتباط الكلام بعضه ببعض (قال بعض المحققين من المؤرخين) حجر المنصور بن أبى عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الخلافة وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنسا وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ويأمر من ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد الى موضع تنزهه ثم يعود وغير أنه اركبه بأبهة الخلافة فى بعض الايام لغرض له كما ألمعنا به فيما سبق وكان المنصور اذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك فكان هذا من فعله سببا لانقطاع ملك بنى أمية من الاندلس وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفا أن يثوروا به ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم فرق باقيهم فى البلاد وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد وربما سكن بعضهم البادية وترك مجلس الابهة وناديه حتى قال بعض من ينقم

على

على المنصور ذلك الفعل من قصيدة

أبني أمية اين اقمار الدجى * منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها * فلذاك حاز الملك هـذا الثعلب

مع أن للمنصور مفاخر لديها الاوائل والاواخر من المثابرة على جهاد العدو وتكرار الذهاب بنفسه فى الرواح والغدو وله مع المصحفى وغيره أخبار مرت ويأتى بعضها ولا بأس أن نلخص ترجمة المصحفى فنقول (قال الفتح فى المطمح) الحاجب جعفر المصحفى تجرد للعليا وتمرد فى طلب الدنيا حتى بلغ المنا وتسوغ ذلك الجنى فسما دون سابقة وارتقى الى رتبة لم تكن لبيته بمطابقة والتاح فى أفياء الخلافة وارتاح اليها بعطفه كنشوان السلافة واستوزره المستنصر وعنه كان يسمع وبه يبصر فأدرك بذلك ما أدرك ونصب لامانيه الحبائل والشرك واقتنى وادخر وزرى بمن سواه وسخر واستعطفه المنصور بن أبى عامر ونجمه بعد غائر لم يلح وسره مكتوم لم يبح فما عطف ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف فأقام فى تدبير الاندلس ما أقام والاندلس متغيرة والاذهان فى تكييف سعده متحيرة فناهيك من ذكر خلد ومن فخر تقلد ومن صعب راض وجناح فتنة هاض ولم يزل بنجاد تلك الخلافة معتقلا وفى مطالعها متنقلا الى أن توفى الحكم فانتقض عقده المحكم وانبرت اليه النوائب وتسددت اليه سهام صوائب واتصل الى المنصور ذلك الامر واختص به كامال بيزيد اخوة الغمر وأناف فى تلك الخلافة كاشب قبل اليوم عن طوقه عمرو وانتدب للمصحفى بصدر كان أوغره وساءه وصغره فاقتص من تلك الاساءه وأغص حلقه بأى اشاءه فأخمله ونكبه وأرجله عما كان الدهر أركبه وألهب جوارحه حزنا ونهب له مدخرا ومختزنا ودمر عليه ما كان حاط وأحاط به من مكروهه ما أحاط وغبر سنين فى مهوى تلك النكبه وبرانى تلك الكربه ينقله المنصور معه فى غزواته ويعتقله بين ضيق المطبق ولهواته الى أن تكورت شمسه وفاظت بين أثناء المحن نفسه ومن بديع ما حفظ له فى نكبته قوله يستريح من كربته

صبرت على الايام لما تولت * وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان طمعت تاقت والا تسلت
فواعجبا للقلب كيف اعترافه * وللنفس بعد العز كيف استذلت
وكانت على الايام نفسى عزيزة * فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وكان له أدب بارع وخاطر الى نظم القريض يسارع فمن محاسن أنظامه وانشاده التى بعثها اينام دهره باسعاده قوله

لعينيك فى قلبى على عيون * وبين ضلوعى للشجون فنون
لئن كان جسمى مخلقا فى يد الهوى * فحبك عندى فى الفؤاد مصون

(وله) وقد أصبح عاكفا على حمياه هاتفا باجابة دنياه مرتشفا ثغر الانس متنسما رياه والملك يغازله بطرف كليل والسعد قد عقد عليه منه اكليل يصف لون مدامة

قوله كامال الخ كذا فى نسخة وفى أخرى كامال بين يديه اخوة الغمر وليحرر وينأمل اهـ

وما تعرّف له متهادون ندامة

صفراء تطرق في الزجاج فان سرت * في الجسم دبّت مثل صلّ لادغ

خفيت على شرّابها فكأنما * يجدون ريا من اناء فارغ

ومن شعره الذي قاله في السفرجل مشبها وغدا به لنائم البديع منبها قوله يصف سفرجله ويقال انه ارتجله

ومصفرّة تختال في ثوب نرجس * وتعبق عن مسك ذكيّ التنفس

لها ريح محبوب وقسوة قلبه * ولون محب حلة السقم مكتسي

فصفرتها من صفرتي مستعارة * وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنسي

وكان لها ثوب من الزغب أغبر * على جسم مصفرّ من التبر أملس

فلما استتمت في القضيب شبابها * وحاكت لها الاوراق أثواب سندس

مددت يدي باللطف أبغي اجتناءها * لاجعلها ريحانتي وسط مجلسي

فبزت يدي غصبا لها ثوب جسمها * وأعريتها باللطف من كل ملبس

ولما تعرّت في يدي من برودها * ولم تبق الا في غلالة نرجس

ذكرت لها من لا أبوح بذكره * فأذبلها في الكف حرّ التنفس

وله وقد أعاده المنصور الى المطبق والشجون تسرع اليه وتستبق معزيا لنفسه ومجتزيا باسعاد أمسه

أجازي الزمان على حاله * مجازاة نفسي لانفاسها

اذا نفس صاعد شفها * توارت به دون جلاسها

وان عكفت نكبة للزمان * عطفت بنفسي على راسها

ومما حفظ له في استعطافه واستنزاله للمنصور واستلطافه قوله

عفا الله عنك ألا رحمة * تجود بعفوك أن أبعدا

لئن جلّ ذنب ولم أعتمده * فانت أجل وأعلى يدا

ألم تر عبدا عدا طوره * ومولى عفا ورشيدا اهدى

ومفسد أمر تلافيته * فعاد فاصلح ما أفسدا

أقلني أقالك من لم يزل * يقيك ويصرف عنك الردى

*(عود وانعطاف الى أخبار المنصور بن أبي عامر) رحمه الله تعالى وجازاه عن جهاده أفضل الجزاء بمنه وكرمه وفضله وطوله فنقول وكان له في كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر الاسلامية فمنها أن بعض الاجنادنسي رايته مركوزة على جبل بقرب احدى مدائن الروم فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر وهذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث لانهم لما أشرب قلوبهم خوف شر زمة المنصور وحزبه وعلم كل من ملوكهم انه لا طاقة له بحربه لجؤا الى الفرار والتحصن بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم غير الاشراف من بعد والاطلاع (ومن مفاخر المنصور) في بعض غزواته انه مرّ بين جبلين عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الافرنج

فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يمينا وشمالا لم يجسر أحد من الافرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ثم عاد فوجد الافرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين وكان الوقت شتاء فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر وتقدم ببناء الدور والمنازل وبجمع آلات الحرث ونحوها وبث سراياه فسبت وغنمت فاسترق الصغار وضرب أعناق الكبار وألقى جثثهم حتى سد بها المدخل الذي من جهته وصارت سراياه تخرج فلا تجد الا بلدا خرابا فلما طال البلاء على العدو أرسلوا اليه في طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك فلم تزل رسلهم تتردد اليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم ان أصحابي أبوا أن يخرجوا وقالوا انا لا نكاد نصل بلادنا الا وقد جاء وقت الغزوة الاخرى فنقعد ههنا الى وقت الغزاة فاذا غزونا عدنا فما زال الافرنج يسألونه الى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي وان يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده وأن ينحوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ففعلوا ذلك كله وانصرف ولعمري ان هذا لعز ما وراءه مطمح ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح خصوصا ازالتهم جيف قتلاهم من الطريق وغصصهم في شرب ذلك بالريق (ومن مآثره التي في جبين عصره غرة ولعين دهره قرة) انه لما ختن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ومن أولاد الضعفاء عدد لا يحصر فبلغت النفقة عليهم في هذا الاعذار خمسمائة ألف دينار وهذه مكرمة مخلده ومنة مقلده فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء (ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظن) ان اكثر جنده من سبيه على ما حققه بعض المؤرخين وذلك غاية المنح من الله والمن (ومن أخباره الدالة على اقبال أمره وخيبة عدوه وادباره) انه ما عاد قط من غزوة الا استعد لأخرى ولم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة وكفاه ذلك فخرا * ومنها انه لقيته وقد عاد من بعض غزواته امرأة نغصت عليه بلوغ مناه وشهواته وقالت له يا منصور استمع ندائي فأنت في طيب عيشك وأنا في بكائي فسألها عن مصيبتها التي عمتها وغمتها فذكرت له أن لها ابنا أسيرا في بلاد سمتها وأنها لا يهنأ عيشها لفقده ولا يخبو ضرام قلقها من وقده وأنشد لسان حالها لذلك الملك العلي ويح الشجي من الخلي فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وخرج من القابلة الى تلك المدينة التي فيها ابنها وجاس أقطارها وتخللها حتى دوخها اذ اناخ عليها بكلكله وذللها وأعراها من حماتها وبنود الاسلام المنصورة تظللها وخلص جميع من فيها من الاسرى وجلبت عوامله الى قلوب الكفرة كسرا وانقلبت عيون الاعداء حسرى وتلا لسان حال المرأة فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا فهكذا تكون الهمة السلطانية والنخوة الاعيانية فالله سبحانه يروح تلك الارواح في الجنان ويرقى درجاتها ويعاملها بمحض الفضل والامتنان وقد تذكرت هنا والحديث شجون وبذكر المناسبات يبلغ الطلاب ما يرجون كتابا كتبه الاديب الكاتب أبو محمد ابن الامام الحافظ محدث الاندلس أبي عمر بن عبد البر النمري

الى المنصور بن أبي عامر وهو من ذرية المنصور الكبير الذي كانت تحدثت في أخباره حيث اليه بسلفه ومعاملتهم لمن تقدم من آبائه بتعظيم قدره وأكباره وهو عمر الله ببقاء سيدي ذكرى السابقين بهجة أوطانه وملكه عنان زمانه ومد عليه ظلال أمانه ابقى الله الملك الكريم والسيد الزعيم لما أضاءت لي أهلة مفاخركم في سماء الفخار وأشرقت شموس مكارمكم على مفارق الاحرار وأبصرت شمائلك الزهر تهدى اليك من الهمم محامدها ومحاسنك الغر توقظ لك من الآمال رواقدها ايقنت انه يحق انقادت لك القلوب باعنتها وتهادت اليك النفوس بأزمتها فآليت أن لا آلم الا بجمالك ولا أحط رحلا الا بفنائك علما بأنك ثمرة الفخر وغرة الدهر فتيممت ساريا في ساطع نورك متيمنا بين طائرك محققا للربح موقنا بالفلح والنجح حتى حللت في دوحة المجد وأنخت بدولة السعد واستشعرت لبسة الشكر والحمد وجعلت أنظم من جواهر الكلام ما يربي على جواهر النظام وأنشر من عطر الثناء ما يزري بالروضة الغناء وحاشا للفهم أن يعطل ليلي من أقمارك أو يخلي أفقي من أنوارك فأراني منخرطا في غير سلكه ومنحطا الى غير ملكه لاجرم انه من استضاء بالهلال غنى عن الذبال ومن استنار بالصباح ألقى سنى المصباح وتالله ما هزت آمالي ذوائبها الى سواك ولا حدت أوطاري ركائبها الى من عداك ايكون في أثر الوسمي في الماحل وعلى جمال الحلى على العاطل لسيادتك السنيه ورياستك الاوليه التي يقصر عنها لسان افصاحي ويعيا في بعضها بياني وايضاحي فالقراطيس عندبث مناقبك تفنى والاقلام في رسم مآثرك تحفى وما أمل الجدب في حياة المخصب ولا جذل المذنب برضا المعتب كأملي في التعزز بحوزتك والتجمل بجملتك والترفع بخدمتك فالسعيد من نشأ في دولتك وظهر في أمتك واستضاء بعزتك لقد فاز بالسبق من لحظته عين رعايتك وكنفته حوزة حمايتك فأنت الذي أمنت بعدله نوائب الايام وقويت بسلطانه دعائم الاسلام تختال بك المعالي اختيال العروس وتخضع لجلالك أعزة النفوس سابقة أشهر من الفجر وفطنة أنور من البدر وهمة أنفذ من الدهر

لقد فاز من أضحى بكم متمسكا * يشد على تأميل عزكم يدا
سلكت سبيل الفخر خلقا مركبا * وغيرك لايأتيه الا تجلدا
فأنتم لواء الدين لا زال قيما * بآرائكم في ظلمة الخطب يهتدى
ليهنكم مجد تليد بنيتم * أغار سناه في البلاد وأنجدا

ومثله أبقاه الله سبحانه يستثمر ايراقه فيغترجناه ويستمطر ابراقه فيمطر حياه لاسيما وانى نشأة حفها احسان أوائلك الطاهرين وألفها انعام أكابرك الاخيار الطيبين وجدير بقبولك واقبالك وبرك واجمالك من أصله ثابت في أهل محبتكم وفرعه نابت في خاصتكم

ومارغبتي في عسجد أستفيده * ولكنها في مفخر أستجده
فكل نوال كان أو هو كائن * فلحظة طرف منك عندي نده

فكن فى اصطناعى محسنا لمجرّب * يبن لك تقريب الجواد وشدّه
اذا كنت فى شك من السيف فابله * فاما تنفيه واما تعده
وما الصارم الهندى الا كغيره * اذا لم يفارقه النجاد وغمده

ولا باس أن يتطوّل مولاى بغرس الصنيعة فى أزكى الترب ووضع الهناء موضع النوب والله سبحانه يبقى مولاى آخذا بزمام الفخر ناهضا بأعباء البرّ مالكا لاعنة الدهر وصنع الله سبحانه لسيدى أتم الصنع وأجله وأفضله وأكمله بمنه لا رب سواه انتهى (رجع الى أخبار المنصور الكبير) محمد بن أبى عامر رحمه الله وكما قد ذكرنا انه قبض على الوزير الحاجب المصحفى مع انه كان أحد أتباعه (قال صاحب كتاب روضة الازهار وبهجة النفوس ونزهة الابصار) ولما أمر المنصور بن أبى عامر بسجن المصحفى فى المطبق بالزهراء ودّع أهله وودّعوه وداع الفرقة وقال لهم لستم ترونى بعدها حيا فقد أتى وقت اجابة الدعوة وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة وذلك انى أشركت فى سجن رجل فى عهد الناصر وما أطلقته الا برؤيا رأيتها بأن قيل لى أطلق فلانا فقد أجيبت فيك دعوته فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته علىّ فقال دعوت على من شارك فى أمرى أن يميته الله فى أضيق السجون فقلت انها قد أجيبت فانى كنت ممن شارك فى أمرك وندمت حين لا ينفع الندم فيروى انه كتب للمنصور بن أبى عامر بهذه الابيات

هبنى أسأت فأين العفو والكرم * اذ قادنى نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدّت الايدى اليه أما * ترثى لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر * ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيرى

يا جاهلا بعد ما زلت به القدم * تبغى التكرم لما فاتك الكرم
ندمت اذ لم تعد منى بطائلة * وقلما ينفع الاذعان والندم
نفسى اذا جمحت ليست براجعة * ولو تشفع فيك العرب والعجم

فبقى فى المطبق حتى مات نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم انتهى * وقد ذكر بعضهم فى هذه الابيات زيادة حسبما ذكرناه فى غير هذا المحل فان هذه الابيات للمنصور وهذا المؤرخ مصرّح بأنها لعبد الملك الجزيرى وقد يقال لا منافاة بينهما فان المنصور أجاب بالابيات وهل هو قائلها أم لا الامر أعمّ فبين هنا والله أعلم *(وقال بعض مؤرّخى المغرب) ان الحاجب المصحفى حصل له فى هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظنّ انه يصدر من مثله حتى انه كتب الى المنصور بن أبى عامر يطلب منه أن يقعد فى دهليزه معلما الاولاده فقال المنصور بدهائه وحذقه ان هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لانهم طالما رأونى بدهليزه خادما ومعلما فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلما وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه فى غزواته حتى انه حكى بعضهم انه رأى الحاجب المصحفى فى ليلة نهى المنصور فيها الناس عن ايقاد النيران تعمية على العدو الكافر وهو ينفخ فحما فى كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه أو كما قال فسبحان مديل الدول لا اله الا هو فان هذا المصحفى

بلغ من الجلالة والعظم والتحكم في الدولة المدة المديدة أمر الاعن يدعليه والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين *(ولقد ذكر بعض علماء المغاربة) أن من أعاجيب انقلاب الدنيا باهلها قصة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ولم يزل اعداء المنصور بن أبي عامر يتربصون به الدوائر فغلب سعده الذي هو المثل السائر وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعا اذ قال

اقترب الوعد وحان الهلاك * وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب * وأمه حبلي وقاض ينالك

يعني بالخليفة هشاما المؤيد لكونه كان صغيرا وأمه صبح البشكنية كان الاعداء يتهمون بها المنصور وذلك بهتان وزور وأقطع منه رميهم القاضي بالفجور والله عالم بسرائر الامور ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون الا ولا ذمة ويطلقون ألسنتهم في العلماء والائمة وأظلم أهل الارض من كان حاسدا * لمن بات في نعمائه يتقلب جدير بأن لا يدرك ما يؤمل ويطلب لانه يعترض على الله سبحانه في أحكامه نعوذ بالله من شر أنفسنا ومن شر كل ذي شر بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه وقد قدمنا أن المنصور بن أبي عامر كان يخدم أولا جعفر بن عثمان المصحفي مدبر مملكة هشام المؤيد ويريه النصيحة وأنه ما زال يستجلب القلوب بجوده وحسن خلقه والمصحفي ينفرها ببخله وسوء خلقه الى أن كان من أمره ما كان فاستولى على الحجابة وسجن المصحفي وفي ذلك يقول المصحفي

غرست قضيبا خلته عود كرمة * وكنت عليه في الحوادث قيما
واكرمه دهري فيزداد خبثه * ولو كان من أصل كريم تكرما

ولما يئس المصحفي من عفو المنصور قال

لي مدة لا بد أبلغها * فاذا انقضت أيامها مت
لو قابلتني الاسد ضارية * والموت لم يقرب لما خفت
فانظر الي وكن على حذر * في مثل حالك أمس قد كنت

ومن أحسن ما نعي به نفسه قوله حسبما تقدم

صبرت على الايام حتى تولت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فوا عجبا للقلب كيف اعترافه * وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان طمعت تاقت والا تسلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة * فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتي كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وأنشد له الفتح في المطمح ونسبهما غيره لاحمد بن الفرج صاحب الحدائق

كلمتني فقلت در سقيط * فتأملت عقدها هل تناثر
فازدهاها تبسم فأرتني * نظم در من التبسم آخر

وله كما مر

صفراء تطرق فى الزجاج فان سرت * فى الجسم دبت مثل صل لادغ
خفيت على شرابها فكأنما * يجدون ريا من اناء فارغ

وله

ياذا الذى أودعنى سره * لاترج أن تسمعه منى
لم أجره بعدك فى خاطرى * كأنه مامر فى اذنى

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات

سألت نجوم الليل هل ينقضى الدجى * فخطت جوابا بالثريا كخط لا
وكنت أرى أنى بآخر ليلتى * فأطرق حتى خلته عاد أولا
وماعن هوى سامرتها غير أننى * أنافسها الجرى الى طرق العلا انتهى

(رجع) وكان كاتقدم بقرطبة المصحف العثمانى وهو متداول بين أهل الاندلس قالوا ثم آل أمره الى الموحدين ثم الى بنى مرين قال الخطيب بن مرزوق فى كتاب المسند الصحيح الحسن ماملخصه وكان السلطان أبو الحسن لايسافر موضعا الا ومعه المصحف الكريم العثمانى وله عند أهل الاندلس شأن عظيم ومقام كبير وكيف لاويقال ان ابن بشكوال أخرج هذا المصحف منها أى قرطبة وغرب منها وكان بجامعها الاعظم ليلة السبت ١١ شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فى أيام أبى محمد عبد المؤمن بن على وبامره وهذا أحد المصاحف الاربعة التى بعث بها عثمان رضى الله تعالى عنه الى الامصار مكة والبصرة والكوفة والشام وماقيل ان فيه دم عثمان بعيد وان يكن أحدها فلعله الشامى قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبى السبتى أما الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى امية بدمشق المحروسة وعاينته هنالك سنة ٦٥٧ كما عاينت المكى بقبة اليهودية وهى قبة التراب قلت عاينتهما مع الذى بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيها قال النخعى لعله الكوفى أو البصرى وأقول اختبرت الذى بالمدينة والذى نقل من الاندلس فألفيت خطهما سواء وماتوهموه انه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحدا منها وانما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدنى ونص ماعلى ظهره هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وذكر العدد الذى جمعه عثمان رضى الله تعالى عنه من الصحابة رضى الله تعالى عنهم على كتب المصحف انتهى واعتنى به عبد المؤمن بن على ولم يزل الموحدون يحملونه فى أسفارهم متبركين به الى أن حمله المعتضد وهو السعيد على بن المأمون أبى العلا ادريس بن المنصور حين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥ فقتل قريبا من تلمسان وقدم ابنه ابراهيم ثم قتل ووقع النهب فى الخزائن واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ونهب المصحف ولم يعلم مستقره وقيل انه فى خزانة ملوك تلمسان قلت لم يزل هذا المصحف فى الخزانة الى أن افتتحها امامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ فظفر به وحصل عنده الى أن أصيب فى وقعة طريف وحصل فى بلاد برتقال وأعمل الحيلة فى استخلاصه ووصل الى فاس سنة ٧٤٥ على يد

أحد تجار ازمور واستقر بقاؤه في الخزانة انتهى باختصار واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء كما ذكره ابن رشيد في رحلته ولا بأس أن أذكر كلامه بجملته والرسالة في شأن المصحف لما فيها من الفائدة ونص محل الحاجة منه أنشدني الخطيب أبو محمد بن برطالة من لفظه وكتبته من خطه قال أنشدني الشيخ الفقيه القاضي أبو القاسم عبد الرحمن ابن كاتب الخلافة أبي عبد الله بن عياش لابيه رحمهم الله تعالى مما نظمه وقد أمر أمير المؤمنين المنصور بتحلية المصحف

ونقلته من كل ملك ذخيرة * كأنهم كانوا برسم مكاسبه
فان ورث الاملاك شرقا ومغربا * فكم قد أخلوا جاهلين بواجبه
وكيف يفوت النصر جيشا جعلته * أمام قناه في الوغى وقواضبه
وألبسته الياقوت والدر حلية * وغيرك قد رواه من دم صاحبه

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الامر في وصوله الى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن وما أبدى في ذلك من الامور الغريبة التي لم يسمع بمثلها في سالف الدهر حسبما اطرفنا به الوزير الاجل أبو زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي حفظه الله تعالى وشكره مما استفاده وأفاده لنا مما لم نسمع به قبل عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور مما تضمنه من وصف قصة المصحف فقال وصل اليهم ادام الله سبحانه تأييدهم قمرا الاندلس النيران وأميراها المتخيران السيدان الاجلان أبو سعيد وأبو يعقوب أيدهما الله وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهو الامام الذي لم يختلف فيه مختلف وما زال ينقله خلف عن سلف وقد حفظ شخصه على كثرة المتناولين وذخره الله لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمته من المتداولين وله من غرائب الانباء ومتقدم الاشعار بما آل اليه أمره من الاغمار ما ملئت به الطروس وتحفظه من أهل الاندلس الرائس والمرؤس فتلقي عند وصوله بالاجلال والاعظام وبودر اليه بما يجب من التبجيل والاكرام وعكف عليه أطول العكوف والتزم أشد الالتزام وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الالباب وبلاغ في الاغراب والاعجاب وذلك أن سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين أدام الله له عوائد النصر والتمكين كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره الكريم وحركته اليه دواعي خلقه العظيم وتراءى مع نفسه المطمئنة المرضية وسجاياه الحسنة الرضيه في معنى اجتلابه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم ووطنه الموصل بحرمته للتقديم فتوقع أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه ويستوحشوا لفقدان اضاءته في أفقهم واشراقه فوقف عن ذلك لما جبل عليه من رحمته واشفاقه فأوصله الله اليه تحفة سنيه وهدية هنيه وتحية من عنده مباركة زكيه دون أن يكدرها من البشر اكتساب أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب بل أوقع الله سبحانه وتعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بارساله الى مستحقه والتبرع به الى القائم الى الله تعالى بحقه ما اطلع بالمشاهدة والتواتر على صحته وصدقه وعضدت مخايل برقه سواكب

ودقه

ودقـه وكان ذلك من كرامات سيدنا ومولانا الخليفة معدودا والى أمره الذى هو أمر الله مردودا وجمع عند ذلك بحضرة مراكش حرسها الله تعالى سائر الابناء الكرام والسادة الاعلام بدور الآفاق وكواكب الاشراق وأهل الاستهال للمقامات الرفيعة والاستحقاق فانتظم عند ذلك هذا القصيد مشيرا الى اجتماع هذه الدرارى الزاهرة والتئام خطوطها على مركز الدائرة ووصول المتقدم ذكره المشهور فى جميع المعمور أمره وهو هذا

دراري من نور الهدى تتوقد * مطالعها فوق المجرة أسعد
وأنهار جود كلما أمسك الحيا * عدتها طامى الغوارب مزبد
وآساد حرب غابها شجر القنا * ولا لبد الا العجاج الملبد
مساعير فى الهيجا مساعير للندى * بأيديهم يحمى الهجير ويبرد
تشب بهم نارانِ للحرب والقرى * ويجرى بهم سيلان جيش وعسجد
ويستمطرون البرق والبرق عندهم * سيوف على أفق العداة تجرد
اذا من سجف السائرات مضاؤها * فماذا الذى يغنى الحديد المسرد
ويسترشدون النجم والنجم عندهم * نصول الى حب القلوب تسدد
تزاحم فى جو السماء كأنما * عواملها فى الافق صرح ممرد
تجاوز ألحاظ الكواكب دونها * ويفرق منها المرزمان وفرقد
ألم ترها فى الافق خافقة الحشا * كما تطرف العينان والقلب يرأد
وليس احمرار الفجر من أثر السنى * ولكنه ذاك النجيع المورد
وما انبسطت كف الثريا فدا فعت * ولكنها فى الحرب شلو مقدد
وحط سهيلا ذعره عن سميه * فأضحى على أفق البسيطة يرعد
ولما رأى نسر وقوع أليفه * تطاير من خوف فما زال يجهد
مواقع أمر الله فى كل حالة * يكاد لها رأس الثرى يتميد
اهاب بأقصى الخافقين فنظمت * وهيب جميع المخفقين فبددوا
وأضفى على الدنيا ملابس رحمة * نضارتها فى كل حين تجدد
واخضل أرجاء الربا فكأنما * عليها من النبت النضير زبرجد
فمن طرب ما أصبح البرق باسما * ومن فرح ما أضحت المزن ترعد
وغنى على أفنان كل أراكة * غذاها حيا النعما حمام مغرد
وكبر ذو نطق وسبح صامت * وكاد به المعدوم يحيا ويوجد
وأبرز للاذهان ما كان غائبا * فسيان فيها مطلق ومقيد
سلام على المهدى أما قضاؤه * فحتم وأما أمره فمؤكد
امام الورى عم البسيطة عدله * على حين وجه الارض بالجور أربد
بصير رأى الدنيا بعين جلية * فلم يغنه الا المقام المعجد
ولما مضى والامر لله وحده * وبلغ مأمول وأنجز موعد

تردّى أمير المؤمنين رداءه * وقام بأمر الله والناس هجّد
بعزمة شيحان الفؤاد مصمم * يقوم به أقصى الوجود ويقعد
مشيئته ما شاءه الله انه * اذا هم فالحكم الالهي يسعد
كتائبه مشفوعة بملائك * تزاحمها في كل حال وترفد
وما ذاك الا نية خلصت له * فليس له فيما سوى الله مقصد
اذا خطبت راياته وسط محفل * ترى قمم الاعداء في الترب تسجد
وان نطقت بالفصل فيهم سيوفه * أقر بأمر الله من كان يجحد
معيد علوم الدين بعد ارتفاعها * ومبدى علوم لم تكن قبل تعهد
وباسط أنوار الهداية في الورى * وقد ضم قرص الشمس في الغرب ملحد
وقد كان ضوء الشمس عند طلوعها * يغار بأكناف الضلال ويغمد
فما زال يجلو عن مطالعها الصدى * ويبرزها بيضاء والجو أسود
جزى الله عن هذا الانام خليفة * به شربوا ماء الحياة فخلدوا
وحياه ما دامت محاسن ذكره * على مدرج الايام تتلى وتنشد
لمصحف عثمان الشهيد وجمعه * تبين ان الحق بالحق يعضد
تحامته أيدي الروم بعد اتسافه * وقد كاد لولا سعده يتبدد
فها هو الا ان تترس صارخ * بدعوته العليا فصين المبدد
وجاء ولي الثار يرغب نصره * فلباه منه عزمه المتجرد
ورأى أثر المسفوح في صفحاته * فقام لاخذ الثار منه مؤيد
وشبهه بالبدر قبل خسوفه * فلله تشبيه به الشرع يشهد
زمان ارتفاع العلم كان خسوفه * وقد عاد بالمهدي والعود أحمد
أتتك أمير المؤمنين ألوكة * من الحرم الاقصى لامرك تمهد
سيوف بني عيلان قامت شهيرة * لدعوتك العلياء تهدي وترشد
وطافت ببيت الله فاشتد شوقه * اليك والي منه حجر ومسجد
وحج اليك الركن والمروو الصفا * فأنت لذاك الحج حج ومقصد
مشاعرها الاجسام والروح أمركم * ومنكم لها يرضى المقام المخلد
فلله حج واعتمار وزورة * أتتنا ولم يبرحك بالغرب مشهد
ولله سبع نيرات تقارنت * بها فئة الاسلام تحيا وتسعد
اذا لم يكن الا فناؤك عصمة * فما ذا الذي يرجو القصي المبعد
فدم للورى غيثا وعزا ورحمة * فقربك في الدارين منج ومسعد
وزادت بك الاعياد حسنا وبهجة * كأنك للاعياد زي مجدد
ولازلت للايام تبلي جديدها * وعمرك في ريعانه ليس ينفد

ثم انهم أدام الله سبحانه تأييدهم ووصل سعودهم لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير شرعوا في انتخاب

كسوته وأخذوا في اختيار حليته وتأنقوا في استعمال أحفظته وبالغوا في استجادة أصونته فحشر والله الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القرية والقصية فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزراقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب الى الحذق في صناعة الا أحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة وأشكال مبتدعة وضمنوها من غرائب الحركات وخفي امداد الاسباب للمسببات ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم واستفرغوا فيه جهد قوتهم والهمة العلية أدام الله سموها تترقى فوق معارجهم وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء موالجهم وتنيف على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم فسلكوا من عمل هذه الامثلة كل شعب وركبوا من منتشرها كل شعب وأشرفوا عند تحقيقها وابراز دقيقها على كل صعب فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تيأس عن مطلبها والخواطر تنكر راجعة عن خفي مذهبها حتى أطلع الله خليفته في خلقه وأمينه المرتضى لاقامة حقه على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ألقوا ذلك أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ويسره الى المهندسين والصناع فقبلوه أحسن القبول وتصوروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول فوقفهم حسن تنبيهه على ما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم وعلموا أن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وسيأتي بعد هذا الاشارة الى تفصيل تلك الحركات المستغربة والاشكال المونقة المعجبة ان شاء الله تعالى مما صنع للمصحف العظيم من الاصونة الغريبة والاحفظة العجيبة انه كسي كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضا قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يعهد له في العصر الاول مثال ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال وله مفاصل تجتمع اليها أجزاؤه وتلتئم وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم قد أميلت للتحرك أعطافها وأحكم انشاؤها على البغية وانعطافها ونظم على صحيفته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس في أفراده وتتوارثه على مرور الزمن وترداده وتظن العز الاقعس والملك الانفس في ادخاره واعداده وتسمي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنعه واتحاده فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكوكب في تلألئه واتقاده وأشبهه الروض المزخرف غب سماء أقلعت عن امداده وأتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر آخذا بمجامع القلب والبصر مستوليا بصورته الغريبة على جميع الصور يدهش العقول بهاء ويحير الالباب رواء ويكاد يغشي الناظر تألقا وضياء فحين تمت خصاله واستركبت أوصاله وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله رأوا أدام الله تأييدهم وأعلى كلمتهم بما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات والاشراف على جميع الثنيات أن يتلطف في وجه

يكون به هذا الصوان المذكور طورا متصلا وطورا منفصلا ويتأتى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبذلا وتارة للعموم متجملا اذ معارج الناس فى الاستبصار تختلف وكل له مقام اليه ينتهى وعنده يقف فعمل فيه على مشاكلة هذا المقصد وتلطف فى تتميم هذا الغرض المعتمد وكسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الاخضر ذى حلية عظيمة خفيفة تلازمه فى المغيب والمحضر ورتب ترتيبا يتأتى معه أن يكسى بالصوان الاكبر فيلتئم به التئاما يغطى على العين من هذا الاثر وكمل ذلك كله على أجمل الصفات وأحسنها وأبدع المذاهب وأتقنها وصنع له محمل غريب الصنعة بديع الشكل والصبغة ذو مفاصل ينبو عن دقتها الادراك ويشهد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك مغشى كله بضروب من الترصيع وفنون من النقش البديع فى قطع من الابنوس والخشب الرفيع لم تعمل قط فى زمان من الازمان ولا انتهت قط الى أيسره نواقد الاذهان مدار بصنعة قد أجريت فى صفائح الذهب وامتدت امتداد ذوائب الشهب وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال ويشاركه فى أكثر الاحوال مرصع مثل ترصيعه الغريب ومشاكل له فى جودة التقسيم وحسن الترتيب وصنع لذلك كله تابوت يحتوى عليه احتواء المشكاة على أنوارها والصدور على محفوظ أسرارها مكعب الشكل سام فى الطول حسن الجملة والتفصيل بالغ ما شاء من التتميم فى أوصافه والتكميل جار مجرى المحمل فى التزيين والتجميل وله فى أحد غواربه باب ركبت عليه دفتان قد أحكم ارتجاجهما ويسر بعد الابهام انفراجهما ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسى من تلقائه وتركب المحمل عليه مادبرت الحركات الهندسية وتلقيت التنبيهات القدسية وانتظمت العجائب المعنوية والحسية والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يدخل فيه فاذا أدخل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما وخرج الكرسى من ذاته بما عليه الى أقصى غايته وفى خلال خروج الكرسى يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته يأتى بها من مؤخر الكرسى زحفا الى مقدمه فاذا كمل الكرسى بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق الباب برجوع الدفتين الى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد وترتيب هذه الحركات الاربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شئ آخر فاذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التى أدير اليها أولا انفتح أولا الباب وأخذ الكرسى فى الدخول والمحمل فى التأخر عن مقدم الكرسى الى مؤخره فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين أيضا من تلقائه كل ذلك يترتب على حركة المفتاح كالذى كان فى حال خروجه وصحة هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسببات غائبة عن الحس فى باطن الكرسى وهى مما يدق وصفها ويصعب ذكرها أظهرتها بركات هذا الامر السعيد وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة أدام الله تعالى أمرهم وأعز نصرهم وفى خلال الاشتغال بهذه الاعمال التى هى غرر الدهر وفرائد العمر أمروا أدام الله تعالى تأييدهم ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله

تعالى

تعالى فبدئ بنائه وتأسيس قبلته فى العشر الاول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع وأفسح المساحة وأبعد البناء والنجارة وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر والمقصورة مالو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه فكيف فى هذا الامد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه فضلا عن بنائه وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ونهضوا أدام الله سبحانه تأييدهم عقب ذلك لزيارة البقعة المكرمة والروضة المعظمة بمدينة تينملل أدام الله رفعتها فأقاموا بها بقية شعبان المكرم وأكثر شهر رمضان المعظم وحملوا فى صحبتهم المصحف العزيز ومعه مصحف الامام المهدى المعلوم رضى الله تعالى عنه فى التابوت الموصوف اذ كان قد صنع له غرفة فى أعلاه وأحكمت فيه احكاما كمل به معناه واجتمع فى مشكاته فعاد النور الى مبتداه وختم القرآن العزيز فى مسجد الامام المعلوم ختمات كادت لا تحصى لكثرتها وهنا انتهى ماوجدناه من هذا المكتوب ثم قال ابن رشيد بعد ايراد ماتقدم ماصورته نجزت الرسالة فى المصحف العظيم والحمد لله رب العالمين انتهى محل الحاجة منه * وما أحسن قول الشيخ الامام أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية يستودع أهل قرطبة

أستودع الله أهل قرطبة * حيث وجدت الحياء والكرما
والجامع الاعظم العتيق ولا * زال مدى الدهر مأمنا حرما

وقال ابو الربيع بن سالم حدثنى بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع الاشعرى قال أنشدنى أبو محمد بن عطية لنفسه فذكرهما بعد أن قال انه لما أزمع القاضى أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع وأنشدنى البيتين انتهى * وقال ابن عطية أيضا رحمه الله تعالى

بأربع فاقت الامصار قرطبة * وهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة * والعلم أكبر شئ وهو رابعها

وقد تقدم انشادنا لهذين البيتين من غير نسبتهما لأحد * ومما يدخل فى أخبار الزاهرة من غير ماقدمناه ماحكاه عن نفسه الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم قال نادمت يوما المنصور بن أبى عامر فى منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير وهى جامعة بين روضة وغدير فلما تضمخ النهار بزعفران العشى ورفرف غراب الليل الدجوجى وأسبل الليل جنحه وتقلد السماك رمحه وهم النسر بالطيران وعام فى الافق زورق الزبرقان أوقدنا مصابيح الراح واشتملنا ملاء الارتياح وللدجن فوقنا رواق مضروب فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب وقالت

قدم الليل عند سير النهار * وبدا البدر مثل نصف السوار
فكان النهار صفحة خد * وكان الظلام خط عذار
وكان الكؤس جامد ماء * وكان المدام ذائب نار
نظرى قد جنى على ذنوبا * كيف مما جنته عينى اعتذارى

يا لقومى تعجبوا من غزال * جائر فى محبتى وهو جارى
ليت لو كان لى اليه سبيل * فأقضى من الهوى أوطارى

قال فلما أكملت الغنا أحسست بالمعنى فقلت

كيف كيف الوصول للاقمار * بين سمر القنا وبيض الشفار
لو علمنا بأن حبك حق * لطلبنا الحياة منك بثار
واذا ما الكرام هموا بشئ * خاطروا بالنفوس فى الاخطار

قال فعند ذلك بادر المنصور لحسامه وغلظ فى كلامه وقال لها قولى واصدقى الى من تشيرين بهذا الشوق والحنين فقالت الجارية ان كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى والله ما كانت الا نظرة ولدت فى القلب فكرة فتكلم الحب على لسانى وبرح الشوق بكتمانى والعفو مضمون لديك عند المقدرة والصفح معلوم منك عند المعذرة ثم بكت فكان دمعها در تناثر من عقد أو طل تساقط من ورد وأنشدت

أذنبت ذنبا عظيما * فكيف منه اعتذارى
والله قدر هذا * ولم يكن باختيارى
والعفو أحسن شئ * يكون عند اقتدار

قال فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب الى وسل سيف السخط على فقلت أيدك الله تعالى انما كانت هفوة جرها الفكر وصبوة أيدها النظر وليس للمرء الا ما قدر له لا ما اختاره وأمله فأطرق المنصور قليلا ثم عفا وصفح وتجاوز عنا وسمح وخلى سبيلى فسكن وجيب قلبى وغليلى ووهب الجارية لى فبتنا بأنعم ليلة وصحبنا فيها الصبا ذيله فلما شمر الليل غدائره وسل الصباح بواتره وتجاوبت الاطيار بضروب الالحان فى أعالى الاغصان انصرفت بالجارية الى منزلى وتكامل سرورى * قال بعضهم ذكرتنى حكاية أبى المغيرة هذه حكاية قرأتها فى النوادر لابى على القالى البغدادى حذت فى الظرف حذوها وزهت فى الاغراب زهوها وهى ما أسنده عن منصور البرمكى انه كانت للرشيد جارية علامية وكان المأمون يميل اليها وهو اذ ذاك أمرد فوقفت تصب على يد الرشيد من ابريق معها والمأمون خلف الرشيد فأشار اليها يقبلها فأنكرت ذلك بعينها وأبطأت فى الصب على قدر نظرها الى المأمون واشارتها اليه فقال الرشيد ماهذا ضعى الابريق من يدك ففعلت فقال لها والله لئن لم تصدقينى لأقتلنك فقالت ياسيدى أشار الى كأنه يقبلنى فأنكرت ذلك عليه فالتفت الى المأمون فنظر اليه كأنه ميت لما داخله من الجزع والخجل فرحمه وضمه اليه وقال ياعبد الله أتحبها قال نعم ياأمير المؤمنين قال هى لك فادخل بها فى تلك القبة ففعل ثم قال له هل قلت فى هذا الامر شيأ فقال نعم ياسيدى وأنشد

ظبى كنيت بطرفى * من الضمير اليه
قبلته من بعيد * فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد * بالكسر من حاجبيه

فبارحت مكانى * حتى قدرت عليه

وفى هذا المعنى يقول بعض البلغاء اللحظ يعرب عن اللفظ (وقال آخر) رب كناية تغنى عن ايضاح ورب لفظ يدل على ضمير ونظمه الشاعر فقال

جعلنا علامات المودة بيننا * دقائق لحظ هنّ أمضى من السحر
فأعرف منها الوصل فى لين لحظها * وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

(وفى هذا قال بعض الحكماء) العين باب القلب فما فى القلب يظهر فى العين (وقال الشاعر)

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها * من المحبة أو بغض اذا كانا
فالعين تنطق والافواه صامتة * حتى ترى من ضمير القلب تبيانا انتهى

(وأبو المغيرة بن حزم قال فى حقه فى المطمح مانصه) الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب ابن حزم وأبوه حزم فقيه علم وأدب ونبيه مجد وحسب وأبو المغيرة هذا فى الكتابة أوحد لا ينعت ولا يحد وهو فارس المضمار حامى ذلك الذمار وبطل الرعيل وأسد ذلك الغيل نسق المعجزات وسبق فى المفصلات الموجزات اذا كتب وشى المهارق ودبج وركب من بحر البلاغة الثبج وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلى صفاء وحليفى وفاء لا ينفصلان فى رواد ولا مقيل ولا يفترقان كمالك وعقيل وكانا بقرطبة رافعى ألوية الصبوة وعامرى اندية السلوة الى أن اتخذ أبو عامر فى حبالة الردى وعلق وغدا رهنه فيها وغلق فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان واسترد من سبقه مافاته منذ زمان فلم تذكر له مع أبى عامر حسنة ولا سرت له فقرة مستحسنة لتعذر ذلك وامتناعه بشفوف أبى عامر وامتداد باعه وأما شعر أبى المغيرة فرتبط بنثره ومختلط زهره بدره وقد أثبت له منه فنونا تجن بها الافهام جنونا فن ذلك قوله

ظعنت وفى أحداجها من شكلها * عين فضحن بحسنهن العينا
ماأنصفت فى جنب توضح اذ قرت * ضيف الوداد بلابلا وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده * اذ لم يجد بالرقتين قطينا

(وله)

لما رأيت الهلال منطويا * فى غرة الفجر قارن الزهره
شبهته والعيان يشهد لى * بصولجان انثنى لضرب كره انتهى

(وأبو عامر بن شهيد المذكور قال فى حقه ماصورته) الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد الاشجعى عالم بأقسام البلاغة ومعانيها حائز قصب السبق فيها لا يشبهه أحد من أهل زمانه ولا ينسق مانسق من در البيان وجمانه توغل فى شعاب البلاغة وطرقها وأخذ على متعاطيها مابين مغربها ومشرقها لا يقاومه عمرو بن بحر ولا تراه يغترف الامن بحر مع انطباع مشى فى طريقه بأمتد باع وله الحسب المشهور والمكان الذى لم يعده ظهور وهو من ولد الوضاح المتقلد تلك المفاخر والاوضاح والضحاك صاحب يوم المرج وراكب ذلك الهرج وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب ونبع لا يراش الامن ذلك الزغب وقد أثبت له ماهو بالسحر لاحق ولنور المحاسن ماحق

(فمن ذلك) قوله

ان الكريم اذا نابته مخمصة * أبدى الى الناس رياوهو ظمآن
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا * والوجه غمر بماء البشر ريان

وهو مأخوذ من قول الرضى

ما ان رأيت كمعشر صبروا * عزا على الازلات والازم
بسطوا الوجوه وبين أضلعهم * حر الجوى وما آلم الكلم

(وله أيضا)

كلفت بالحب حتى لودنا أجلى * لما وجدت لطعم الموت من ألم
كلا الندى والهوى قدما ولعت به * ويلى من الحب أوويلى من الكرم

(وأخبرنى الوزير أبو الحسن بن سراج الدين وهو بمنزلة ابن شهيد وكان من البلاغة فى مدى غاية البيان ومن الفصاحة فى أعلى مراتب التبيان وكان يحضر مجلس شرابه ولا يغيب عن بابه وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ولا يخليه من نثر دروه وأزهاره فقعد فيه ليلة ٢٧ من رمضان فى لمة من اخوانه وأئمة سلوانه وقد حفوا به ليقطعوا انحت ادبه وهو يخلط لهم الجد بهزل ولا يفرط فى انبساط مشتهر ولا انقباض بجزل واذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها وهى تتأدموضعا للمناجاة ربها وتبتغى منزلا لاستغفار ذنبها وهى متنقبة خائفة ممن يرقبها مترقبة وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أوظبى يمرح فى كناس فلما وقعت عينها على أبى عامر ولت سريعة وتولت مروعة خيفة أن يشبب بها أويشهرها باسمها فلما نظرها قال قولا فضحها به وشهرها

وناظرة تحت طى القناع * دعاها الى الله بالخير داعى
سعت خفية تبتغى منزلا * لوصل التبتل والانقطاع
فجاءت تهادى كمثل الرؤم * تراعى غزالا بروض اليفاع
وجالت بموضعنا جولة * فحل الربيع بتلك البقاع
أتتنا تبختر فى مشيها * فحلت بواد كثير السباع
وريعت حذارا على طفلها * فناديت ياهذه لاتراعى
غزالك تفرق منه الليوث * وتفزع منه كماة المصاع
فولت وللمسك فى ذيلها * على الارض خط كظهر الشجاع

انتهى المقصود منه (رجع) ومما ينخرط فى سلك أخبار الزهراء ما حكاه الفتح فى ترجمة المعتمد ابن عباد قال وأخبرنى الوزير أحمد بن سراج انه حضر مع الوزراء والكتاب بالزهراء فى يوم غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرف ولم يطرقه بصرف أرخت به المسرات عهدها وأبرزت له الامانى خدها ونهدها وأرشفت فيه لماها وأباحت للزائرين حماها ومازالوا ينتقلون من قصر الى قصر ويتبدلون الغصون بجنى وهصر ويتنقلون فى تلك الغرفات ويتعاطون الكؤس بين تلك الشرفات حتى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك

الآثار أوطارا ووقروا بالاعتبار قطارا فخلوا منها في دوانك ربيع محفوفة بالازهار مطرزة بالجداول والانهار والغصون تختال في أدواحها وتثنى في أكف أرواحها وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها وانقراض أترابها وأطرابها والوهى بشيدها لاعب وعلى كل جدار غراب ناعب وقد محت الحوادث ضياءها وقلصت ظلالها وأفياءها وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت أيام نزلوا خلالها وتفيؤا ظلالها وعمروا حدائقها وجناتها ونبهوا الآمال من سناتها وراعوا الليوث في آجامها وأخجلوا الغيوث في انسجامها فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار ولم يبق من آثارها الانوى وأحجار قد وهت قبابها وهرم شبابها وقد يلين الحديد ويبلى على طيه الجديد فبينما هم يتعاطونها اصغارا وكبارا ويديرونها انسا واعتبارا اذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها

حسد القصر فيكم الزهراء * ولعمري وعمركم ما أساء

قد طلعتم بها شموسا صباحا * فاطلعوا عندنا بدورا مساء

فساروا الى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلسا قد حار فيه الوصف واحتشد فيه اللهو والقصف وتوقدت نجوم مدامه وتأودت قدود خدامه وأربى على الخورنق والسدير وأبدى صفحة البدر من أزرار المدير فأقاموا ليلتهم ما عراهم نوم ولا عداهم عن طيب اللذات سوم وكانت قرطبة منتهى أمله وكان روم أمرها أشهى عمله ومازال يخطبها بمداخلة أهلها ومواصلة واليها اذ لم يكن في منازلتها قائد ولم يكن لها الا حيل ومكايد لاستمساكهم بدعوة خلفائها وأنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها وحين اتفق له تملكها وأطلعه فلكها وحصل في قطب دارتها ووصل الى تدبير رياستها وادارتها قال

من للملوك بشأو الاصيد البطل * هيهات جاءتكم مهدية الاول

خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت * من جاء يخطبها بالبيض والاسل

وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها * فأصبحت في سرى الحلى والحلل

عرس الملوك لنا في قصرها عرس * كل الملوك لها في مأتم الوجل

فراقبوا عن قريب لا أبا لكم * هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

ولما انتظمت في سلكه واتسمت بملكه أعطى ابنه الظافر زمامها وولاه نقضها وابرامها فأفاض فيها نداه وزاد على أمده ومداه وجلها بكثرة حبائه واستقل بأعبائها على فتائه ولم يزل فيها آمرا وناهيا غافلا عن المكر ساهيا حسن ظن بأهلها اعتقده واغترارا بهم ما رواه ولا انتقده وهيهات كم من ملك كفنوه في دمائه ودفنوه بدمائه وكم من عرش ثلوه وكم من عزيز ملك أذلوه الى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلا وجر اليها حربا وويلا فبرز الظافر منفردا عن كماته عاريا من حماته وسيفه في يمينه وهاديه في الظلماء نور جبينه فانه كان غلاما قد بلله الشباب بأندائه وألحفه الحسن بردائه فدافعهم أكثر ليله وقد منع منه تلاحق رجله وخيله حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعا ولا استقال

منها ولا سعي فتركه ملتحفا في الظلماء تحت نجوم السماء معفرا في وسط الكماء تحرسه الكواكب بعد المواكب ويستره الحندس بعد السندس قد جعل صرعه سحرا أحد أئمة الجامع المغلسين فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى وهو أعرى من الحسام المنتضى فخلع رداءه عن منكبيه وغشاه وستره به سترا أقنع الجدب وأرضاه وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة فكان المعتمد اذا تذكر صرعته وسعر الحزن لوعته رفع بالعويل نداءه وأنشد ولم أدر من ألقى عليه رداءه ولما كان من الغد حز رأسه ورفع على سن رمح وهو يشرق كالزهر على علم ويرشق نفس كل ناظر بألم فلما رمقته الابصار وتحققته الحماة والانصار رموا أسلحتهم وسوّوا للفرار أجنحتهم فمنهم من اختار فراره وجلاه ومنهم من أتت به الى حينه رجلاه وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره وعدل عن تأبينه الى البحث عن مفرقه وحينه فلم تحفظ له فيه قافية ولا كلمة للوعته شافية الا اشارته اليه في تأبين اخويه المأمون والراضي المقتولين في أول النائرة والفتنة الثائرة انتهى (وقد رأيت) أن أزيد على ما تقدم مما قصدت جلبه في هذا الموضع نبذة من كلام الفتح في ذكر منتزهات قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس ووصف مجالس الانس التي كانت بها مما تنشرح له الانفس ووقع ذكر غير قرطبة والزهراء لهما تبعا ولا يخلو ذلك من عبرة بحال من جعل في اللهو مصيفا ومرتبعا ثم طواه الدهر طي السجل ومحا آثاره التي كانت تسمو وتجل وما قصدنا علم الله غير الاعتبار بهذه الاخبار لا الحث على الحرام وتسهيل القصد اليه والمرام والاعمال بالنيات والله سبحانه كفيل بفضله وكرمه ببلوغ الامنيات وتعويضنا عن هذه النعم الفانيات بالنعم الباقيات السنيات *(قال الفتح رحمه الله تعالى) في ترجمة الوزير أبي الوليد بن زيدون ما صورته وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى انه في وقت فراره أضحى غداة الاضحى وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام وتراءت لعينيه تلك الظباء الاوانس والآرام وقد كان الفطر وافاه والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى أعفاه فلما عاده منهما ما عاد وأعياه ذلك النكد المعاد استراح الى ذكر عهده الحسن وأراح جفونه المسهدة بتوهم ذلك الوسن وذكر معاهد كان يخرج اليها في العيد ويتفرج بها مع اولئك الغيد فقال

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى * فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل * أخص بمحوض الهوى ذلك السفحا
وما انفك جوفي الرصافة مسعري * دواعي بث تعقب الاسف البرحا
ويهتاج قصر الفارسي صبابة * لقلبي لا يألو زناد الاسى قدحا
وليس ذميما عهد مجلس ناصح * فأقبل في فرط الولوع به نصحا
كأني لم أشهد لدى عين شهده * نزال عتاب كان آخره الفتحا
وقائع جانيها التجني فان مشى * سفير خضوع بيننا أكد الصلحا
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته * فان لم يكن ميعاده العيد فالفصحا

وآصال

وآصال لهو في مسناة مالك * معاطاة ندمان اذا شئت أو سجا
لدى راكد تصبيك من صفحاته * قوارير خضر خلتها مرّدت صرحا
معاهد لذات وأوطان صبوة * أجلت المعلى في الاماني بها قدحا
ألا هل الى الزهراء أوبة نازح * تقضت مبانيها مدامعه نزحا
مقاصر ملك شرفت جنباتها * فخلنا العشايا الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطيها الى الوهم جهرة * فقبتها فالكوكب الجون فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه * اذا عزأن يصدى الفتى فيه أو يضحى
هنالك الجام الزرق تبدى خفافها * طلالا عهدت الدهر فيها الفتى سمحا
تعوضت من شرق القيان خلالها * صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
ومن حلى الكاس المندّى مديرها * تقحم أهوال حلت لها الرمحا
أجل ان ليلى فوق شاطئ نيطة * لاقصر من ليلى بيانة فالبطحا

وهذه معاهد بني أمية قطعوا بها الليالي وأياما وظلت فيها الحوادث عنهم نياما فهاموا بشرق العقاب وشاموا به برقا يبدو من نقاب ونعموا بجوفي الرصافة وطعموا عيشا تولى الدهر جلاءه وزفافه وأبعدوا نصح الناصح وجددوا أنس مجلس ناصح وعموا بالزهراء وصموا عن نبا صاحب الزوراء حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم وعوضهم عنها ما عوضهم فصاروا أحاديث وأنباء ولم يتزودوا منها الا حنوطا وكباء وغدت تلك المعاهد تصافحها أيدي الغير وتناوحها نعبات الطير وراحت بعد الزينة سدى وأمست مسرحا للبوم وملعبا للصدى يسمع للجن بها عزيف ويصرع فيها البطل الباسل والغطريف وكذا الدنيا أعمالها خراب وما لها آل وسراب أهلكت أصحاب الاخدود وأذهبت ما كان بمأرب من حيازات وحدود انتهى *(وقال الفتح بعد كلام ما صورته) ولما عضته ناب الاعتقال ورضته تلك النوب الثقال وعوض بخشانة العيش من اللين وكابد قسوة خطب لا تلين تذكر عهد عيشه الرقيق ومراحه بين الصفا والعقيق وحن الى سعد زرت عليه جيوبه واستهدى نسيم عيش طاب له هبوبه وتأسى بمن باتت له النوائب بمرصاد ورمته بسهام ذات اقصاد فقال

الهوى في طلوع تلك النجوم * والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرّنا عيشنا الرقيق الحواشي * لو يدوم السرور للمستديم
وطرما انقضى الى أن تقضى * زمن ما ذمامه بالذميم
أيها المؤذني بظلم الليالي * ليس يومي بواحد من ظلوم
ما ترى البدر ان تأملت والشمس هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك ينحو * بالمصاب العظيم نحو العظيم

(وقال الفتح أيضا في شأن ابن زيدون ما صورته) ولما تعذر انفكاكه وعفر فرقده وسماكه وعادته الاوهام والفكر وخانه من أبي الحزم الصارم الذكر قال يصف ما بين مسراته وكروبه ويذكر بعد طلوع سعده وغروبه ويبكي لما هو فيه من التعذير ويعذر أبا

الحزم وليس له غيره من عذير ويتعزى بانحناء الدهر على الاحرار والحاحه على الفمام بالبرار ويخاطب ولادة بوفاء عهده ويقيم لها البراهين على ارقه وسهده

ماجال بعدك لحظى فى سنى القمر * الاذكرتك ذكر العين بالاثر
ولا استطلت ذما الليل من أسف * الاعلى ليلة مرت مع القصر
فى نشوة من شباب الوصل موهقة * الامسافة بين الوهن والسحر
ياليت ذاك السواد الجون متصل * قد استعار سواد القلب والبصر
يا للرزايا لقد شافهت منهلها * غمرا فما أشرب المكروه بالغمر
لا يهنأ الشامت المرتاح خاطره * انى معنى الامانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الارض عاصفة * أم الكسوف لغير الشمس والقمر
ان طال فى السجن ايداعى فلا عجب * قد يودع الجفن حد الصارم الذكر
وان يثبط أبا الحزم الرضا قدر * عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
من لم أزل من تدانيه على ثقة * ولم أبت من تجنيه على حذر

وله يتغزل ويعاتب من يستعطفه ويتنزل

يامستخفا بعاشقيه * ومستغشا لناصحيه
ومن أطاع الوشاة فينا * حتى أطعنا السلو فيه
الحمد لله اذ أرانى * تكذيب ما كنت تدعيه
من قبل أن يهزم التسلى * ويغلب الشوق مايليه انتهى

وما أحسن قول ابن زيدون المذكور فى قصيدته النونية الشهيرة

غيص العدا من تساقينا الهوى فدعوا * بأن نغص فقال الدهر آمينا

ومن أغرب ما وقفت عليه موشحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون وهى

غدا منادينا محكما فينا يقضى علينا الاسى لولا تناسينا

بحر الهوى يغرق * من فيه جهده عام
وناره تحرق * من هم أوقد هام
وربما تقلق * فتى عليه نام

قد غير الاجسام وصير الايام سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

ياصاحب النجوى * قف واستمع منى
اياك أن تهوى * ان الهوى يضنى
لا تقرب البلوى * اسمع وقل عنى

بحاره مره خضنا على غره حينا فقام بها للنعى ناعينا

من هام بالغيد * لاقى بهم هما
بذلت مجهودى * لا حور ألمى
يهتم بالجود * وردماه هما

وعندما قد جاد بالوصل أو قد كاد أضحى التنائى بديلا من تدانينا

بحق ما بيني * وبينكم الا
أقررتم عيني * فتجمعوا الشملا
فالعين بالبين * بفقدكم أبلى
جديد ما قد كان بالاهل والاخوان ومورد اللهو صاف من تصافينا
يا جيرة بانت * عن مغرم صب
لعهده خانت * من غير ما ذنب
ما هكذا كانت * عوائد العرب
لا تحسبوا البعد ا يغير العهد اذ طالما غير النأى المحبينا
يا نازلا بالبان * بالشفع والوتر
والنمل والفرقان * والليل اذا يسر
وسورة الرحمن * والنحل والحجر
هل حل في الاديان أن يقتل الظمآن من كان صرف الهوى والود يسقينا
يا سائل القطر * عرج على الوادى
من ساكنى بدر * وقف بهم نادى
عسى صبا تسرى * لمغرم صادى
ان شئت تحيينا بلغ تحيينا من لو على البعد حيا كان يحيينا
وافت لنا أيام * كأنها أعوام
وكان لى أعوام * كأنها أيام
تمر كالاحلام * بالوصل لى لو دام
والكاس مترعه حثت مشعشعه فيها الشمول وغنانا مغنينا
*(رجع الى ما يتعلق بقرطبة قال الوزير أبو بكر بن القبطرنة يخاطب الوزير أبا الحسين ابن سراج ويذكر له اخوانه بقرطبة

ياسيدى وأبى هوى وجلالة * ورسول ودى ان طلبت رسولا
عرج بقرطبة ولذا ان جئتها * بأبى الحسين وناده تعويلا
فاذا سعدت بنظرة من وجهه * فاهد السلام لكفه تقبيلا
واذكر له شكرى وشوقى مجملا * ولو استطعت سردته تفصيلا
بتحية تهدى اليه كأنما * جرت على زهر الرياض ذيولا
وأشم منها المصحفى على النوى * نفسا ينسى السوسن المبلولا
والى أبى مروان منه نفحة * تهدى له نور الربا مطلولا
واذا لقيت الاخطبى فسقه * من صفو ودى قرقفا وشمولا
وأبو على سق منها ربعه * مسكا بماء غمامة محلولا
واذكر لهم زمنا يهب نسيمه * أصلا كنفث الراقيات عليلا
مولى ومولى نعمة وكرامة * وأخا اخاء مخلصا وخليلا

بالحير ما عبست هناك غمامة * الا تضاحك اذ نوا وجلالا
يوما وليلا كان ذلك كله * سحرا وهذا بكرة وأصيلا
لا أدركت تلك الاهلة دهرها * نقصا ولا تلك النجوم أفولا

قال أبو نصر الحير الذى ذكرهنا هو حير الزجالى خارج باب اليهود بقرطبة الذى يقول فيه أبو عامر بن شهيد

لقد أطلعوا عند باب اليهو * د شمسا أبى الحسن أن تكسفا
تراه اليهود على بابها * أميرا فتحسبه يوسفا

وهذا الحير من ابدع المواضع وأجلها وأتمها حسنا وأكملها صحنه مرمر صافى البياض يخترقه جدول كالحية النضناض بهجاية كل لجة بها كابية قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه وتأزرت بهما جوانبه وأرجاؤه والروض قد اعتدلت أسطاره وابتسمت من كمائمها أزهاره ومنع الشمس أن ترمق ثراه وتعطر النسيم بهبوبه عليه ومسراه شهدت به ليالى وأياما كأنما تصورت من لمحات الاحباب أو قدّت من صفحات أيام الشباب وكانت لابى عامر بن شهيد به فرج وراحات اعطاه فيها الدهر ما شاء ووالى عليه الصحو والانتشاء وكان هو وصاحب الروض المدفون بازائه أليفى صبوة وحليفى نشوة عكفا فيه على جريالهما وتصرفا بين زهوهما واختيالهما حتى ردّاهما الردى وعداهما الحمام عن ذلك المدى فتجاوروا فى الممات تجاورهما فى الحيات وتقلصت عنهما وارفات تلك الفيآت والى ذلك العهد أشار ابن شهيد وبه عرض وبشوقه صحح ومرض حيث يقول عند موته يخاطب أبا مروان صاحبه أن يدفن بازائه ويكتب على قبره

يا صاحبى قم فقد أطلنا * أنحن طول المدى هجود
فقال لى ان نقوم منها * مادام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا * فى ظلها والزمان عيد
وكم سرور همى علينا * سحابة ثرة تجود
كله مسرعا تقضى * وشؤمه حاضر عتيد
حصله كاتب حفيظ * وضمه صادق شهيد
يا ويلنا ان تنكبتنا * رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت مولى * قصر فى أمرك العبيد

انتهى

ثم قال بعد كلام وركب أبو الحسن بن القبطرنة الى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسين ابن سراج فنظر الى أبى الحكم بن حزم غلاما كما عق تمائمه وهو يروق كأنه زهر فارق كمائمه فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فيه فارتج عليه فثنى عنان القول اليه فقال

رأى صاحبى عمرا فكلف وصفه * وحملنى من ذاك مالبس فى الطوق
فقلت له عمرو كعمرو فقال لى * صدقت ولكن ذا أشب على الطوق

انتهى

وكان بنو القبطرنة بالاندلس أشهر من نار على علم وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ولهم

الوزارة المذكورة والفضائل المشكورة ولذا قال أبو نصر في حقهم مأصورته هم للمجد كالاثافي ومامنهم الاموفور القوادم والخوافي ان ظهروا زهروا وان تجمعوا تضوّعوا وان نطقوا صدقوا ماؤهم صفو وكل منهم لصاحبه كفو أنارت بهم نجوم المعالي وشموسها ودانت لهم أرواحها ونفوسها ولهم النظام الصافي الزجاجة المضمحل الجاجة انتهى ثم قال وبات منهم أبو محمد مع اخويه في أيام صباه واستطابة جنوب الشباب وصباه بالمنية المسماة بالبديع وهو روض كان المتوكل يكلف بموافاته ويبتهج بحسن صفاته ويقطف رياحينه وزهره ويوقف عليه اغفاءه وسهره ويستفزه الطرب متى ذكره وينتهز فرص الانس فيه روحاته وبكره ويدير حمياه على ضفة نهره ويخلع سرّه فيه لطاعة جهره ومعه اخوه فطاردوا اللذات حتى أنضوها ولبسوا برود السرور وما نضوها حتى صرعتهم العقار وصلحتهم تلك الاوقار فلما همّ رداء الفجر أن يندى وجبين الصبح أن يتبدى قام الوزير أبو محمد فقال

ياشقيقي وافى الصباح بوجه * ستر الليل نوره وبهاؤه
فاصطبح واغتنم مسرّة يوم * ليست تدري بما يجيء مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال

يا أخي قم ترى النسيم عليلا * باكر الروض والمدام شمولا
لاتنم واغتنم مسرّة يوم * ان تحت التراب نوما طويلا
في رياض تعانق الزهر فيها * مثل ماعانق الخليل خليلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن وقد ذهب من غفلة الوسن فقال

ياصاحبيّ ذرا لومي ومعتبتي * قم نصطبح خمرة من خير ماذخروا
وبادروا غفلة الايام واغتنما * فاليوم خمر ويبدو في غد خبر

وساق صاحب البدائع هذه القصة فقال وذكر أبو الفتح ماهذا معناه انه خرج الوزراء بنو القبطرنة الى المنية المسماة بالبديع وهو روض قد اخضرّت مسارح نباته واخضلت مساري هباته ودمعت بالطل عيون ازهاره وذاب على زبرجده بلور أنهاره وتجمعت فيه المحاسن المتفرقة وأضحت مقل الحوادث عنه مطرقة فخيول النسيم تركض في ميادينه فلاتكبو ونصول السواقي تحسم أدواء الشجر فلاتنبو والزروع قد نقبت وجه الثرى وحجبت عن الارض العيون فاتبصر ولاترى وكان المتوكل بن الافطس يعده غاية الارب مشهدا للطرب ومدفعا للكرب فباتوا فيه ليلتهم يديرون لمع لهب يحنون فيه الخلود ويحسون ذوب ذهب لايصهر به مافي بطونهم والجلود حتى تركتهم ابنة الخابية كأنهم أعجاز نخل خاوية فلما هزم رومي الصباح زنجي الظلام ونادى الديك حيّ على المدام انتبه كبيرهم أبو محمد مستعجلا وأنشد مرتجلا ياشقيقي الخ فانتبه أخوه أبو بكر لصوته وتخوّف لذهاب ذلك الوقت وفوته وأنبه أخاهما أبا الحسن وهو يرتجل يا أخي قم ترى النسيم الى آخره فانتبه أخوهما لكلامه دافعا لذة منامه للذة قيامه وارتجل ياصاحبيّ ذرا الخ انتهى (قال الفتح) ولما أمر المعتمد بن عباد أبابكر بن القبطرنة

السابق الذكر مع الوزير أبى الحسين بن سراج بلقاء ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليسع القائد والمشى اليه والنزول عليه تنويها بقدمه وتنبيها على حظوته لديه وتقدمه قصدا الى بابه فوجداه مقفرا من حجابه فاستغربا خلوه من خوله وظن كل واحد منهما وتأول ثم أجمعا على قرع الباب ورفع ذلك الارتياب فخرج وهو دهش وأشار اليهما بالتحية ويده ترتعش وأنزلهما عجلا ومشى بين أيديهما عجلا وأشار الى شخص فتوارى بالحجاب وبارى الريح سرعة فى الاحتجاب فقعدا ومقلة الخشف ترمق من خلال السجف فانصرفا عنه وعزما أن يكتبا اليه بما فهماه منه فكتبا اليه

سمعنا خشفة الخشف * وشمنا طرفة الطرف
وصدقنا ولم نقطع * وكذبنا ولم نشف
وأغضينا الاجلالك عن اكرومة الطرف
ولم تصف وقد جئنا * لما تنهض من ضعف
وكان الحكم أن تحمل أو تردف فى الردف

فراجعهما فى الحين بقطعة منها

أيا أسفى على حالى * سلبت بها من الظرف
ويالهفى على جهل * بنصف كان من نصف

انتهى

ولأهل الاندلس فى معانى الانس الحسان ما لا يفى به لسان وقال الفتح فى ترجمة الوزير أبى الفضل بن حسداى بعد كلام ما صورته فمنها هذه القطعة التى أطلعها نيرة وترك الالباب بها متحيرة فى يوم كان عند المقتدر بالله مع عليه قد اتخذوا المجد حليه والامل قد سفر لهم عن محياه وعبق لهم عن رياه فصافحه الكل منهم وحياه وشمس الراح دائرة على فلك الافراح والملك ينشر فضله ويشروا به وطله يسدى العلاء ويهب الغنى والغناء فصدحت الغوانى وأفصحت المثالث والمثانى بما استنزل من مرقب الوقار وسرى فى النفوس مسرى العقار

تورد خدك للاحداق لذات * عليه من عنبر الاصداغ لامات
نيران هجرك للعشاق نار لظى * لكن وصلك ان واصلت جنات
كأنما الراح والراحات تحملها * بدور تم وأيدى الشرب هالات
حشاشة ما تركنا الماء يقتلها * الا لتحيا بها منا حشاشات
قد كان فى كاسها من قبلها ثقل * فخف اذ ملئت منها الزجاجات
عهد للبى تقاضته الامانات * بانت وما قضيت منها لبانات
يدنى التوهم للمشتاق منتزحا * من الامور وفى الاوهام راحات
تقضى عدات اذا هب الكرى واذا * هب النسيم فقد تهدى تحيات
زور يعلل قلب المستهام به * دهرا وقد بقيت فى النفس حاجات
لعل عتب الليالى أن يعود الى * عتبى فتبلغ أوطار ولذات
حتى يفوز بما جاد الخيال به * فربما صدقت تلك المنامات

(ولما أعرس المستعين بالله بنت الوزير الاجل أبي بكر عبد العزيز احتفل ابوه المؤتمن في ذلك احتفالا اشتهره وأبدع فيه ابداعا راق من حضره وبهره فانه أحضر فيه من الآلات المبتدعة والادوات المخترعة مابهر الالباب وقطع بذكائه دون معرفتها الاسباب واستدعى اليه جميع أعيان الاندلس من دان وقاص ومطيع وعاص فأتوه مسرعين ولبوه متبرعين وكان مدير تلك الآراء ومدبرها ومنشئ مخاطباتها ومحبرها الوزير الكاتب أبو الفضل وصدرت عنه في ذلك الوقت كتب ظهر اعجازها وبهر اقتضابها وايجازها * فمن ذلك ماخاطب به صاحب المطاهر أباعبد الله بن طاهر محلك أعزك الله في طي الجوانح ثابت وان نزحت الدار وعيانك في احناء الضلوع باد وان شحط المزار فالنفس فائزة منك بتمثل الخاطر بأوفر الحظ والعين نازعة الى أن تمتع من لقائك بتطر اللحظ فلا عائدة أسبغ بردا ولا موهبة أسوغ وردا من تفضلك بالحوق الى مايتم بمشاهدتك التئامه ويتصل بحاضرتك انتظامه ولك فضل الاجمال بالامتاع من ذلك بأعظم الآمال وأنا أعزك الله على شرف سودد لذاكم وعلى مشرع سنائك حائم وحسبي ماتحققه من نزاعي وتشوقي وتتيقنه من تطلعي وتتوقي وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة واعترض الاقتراح باستحباب الصلة وأنت وصل الله سعدك بسماحة شيمك وبارع كرمك تنشئ للمؤانسة عهدا وتوري بالمكارمة زندا وتقتضي بالمشاركة شكرا حافلا وحمدا لازلت مضيئا بالسعود المقتبلة مسوغا اجتلاء غرر الاماني المتهللة عنه انتهى (ثم قال بعد هذا) بيسير مانصه وركب المستعين بالله يوما نهر سرقسطة يريد طرادلذته وارتياد نزهته وانقياد أحد حصونه المنتظمة بلبته واجتمع له من أصحابه من اختصه لاستصحابه وفيهم أبو الفضل مشاهد الانفراجهم سالكا منهاجهم والمستعين قد أحضر من آلات ايناسه وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه ماراق من حضر وفاق حسنه الروض الانضر والزوارق قد حفت به والتفت بجوانبه ونغمات الاوتار تحبس السائر عن عدوه وتخرس الطائر المفصح بشدوه والسمك تثيرها المكايد وتغوص اليها المصايد فتبرز منها باللعين قضبان در أو سبائك لجين والراح لايطمس لها مالع ولايخس منها بصر ولاسمع والدهر قد غضت صروفه واقتص من نكره معروفه فقال

لله يوم أنيق واضح الغرر * مفضض مذهب الآصال والبكر
كأنما الدهر لما ساء أعتبنا * فيه بعتبي وأبدى صفح معتذر
نسير في زورق حف السفين به * من جانبيه بمنظوم ومنتثر
مدّ الشراع به نشرا على ملك * بذ الاوائل في أيامه الاخر
هو الامام الهمام المستعين حوى * علياء مؤتمن عن هدى مقتدر
تحوي السفينة منه آية عجبا * بحر تجمع حتى صار في نهر
تصاد من قعره النينان مصعدة * صيدا كما ظفر الغواص بالدرر
وللندامى به عب ومرتشف * كالريق يعذب في ورد وفي صدر

والشرب فى مدح مولى خلقه زهر * يذكو وغرته أبهى من القمر انتهى
(وقال) فى ترجمة العلامة الكبير الاستاذ أبى محمد عبد الله بن السيد البطليوسى شارح أدب الكاتب وسقط الزند وغيرهما ماصورته أخبرنى انه حضر مع المأمون ابن ذى النون فى مجلس الناعورة بالمنية التى تطمح اليها المنى ومرآها هو المقترح والمتمنى والمأمون قد احتبى وأفاض الحبا والمجلس يروق كالشمس فى أفقه والبدر فى مفرقه والنور عبق وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق والدولاب يئن كناقة اثر الحوار أو كثكلى من حر الاوار والجو قد عنبرته أنواؤه والروض قد رشته أنداؤه والاسد قد فغرت أفواهها ومجت أمواهها فقال

يا منظرا ان نظرت بهجته * اذكرنى حسن جنة الخلد
تربة مسك وجو عنبرة * وغيم ند وطش ماورد
والماء كاللازورد قد نظمت * فيه اللآلى فواغر الاسد
كأنما جائل الحباب به * يلعب فى جانبيه بالنرد
تراه يزهو اذا يحل به الـ * ـمأمون زهو الفتاة بالعقد
تخاله ان بدا به قمرا * تمايدا فى مطالع السعد
كأنما ألبست حدائقه * ماحازمن شيمة ومن مجد
كأنما جادها فروضها * بوابل من يمينه رغد
لازال فى رفعة مضاعفة * متمم الوفد وارى الزند

(وقال) فى وصف هذا المجلس بعينه فى الكتاب الذى أفرده لترجمة ابن السيد ماصورته فمن ذلك انه حضر مع القادر بالله بن ذى النون بمجلس الناعورة بطليطلة فى المنية المتناهية البهاء والاشراق المباهية لزوراء العراق التى ينفح شذاها العطر ويكاد من الغضارة يقطر والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه وحكم العقار فى جوده ونداه والمجلس يشرق كالشمس فى الحمل ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل والزهر عبق وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق والدولاب يئن كناقة اثر حوار الى آخر ماسبق
(وقال الفضل) فى وصف هذا المجلس حاذيا حذو الفتح ماصورته حضر الاستاذ أبو محمد ابن السيد عند المأمون بن ذى النون فى بعض منتزهاته فى وقت طاب نعيمه وسرت بالسعود نجومه والروض قد أجاد وشيه راقه والماء قد جرت بين الاعشاب أراقمه وثم بركة علاوه كأنها مرآة مجلوه قد اتخذت سباع الصفر بشاطئها غابا ومجت بها من سائغ الماء لعابا فكانها آساد عين ادلعت ألسنة من لجين وهى لاتزال تقذف الماء ولاتفتر وتنظم لآلئ الحباب بعد ماتنثر فأمره بوصف ذلك الموضع الذى تجد اليه ركائب القلوب وتوضع فقال بديها يامنظرا الخ انتهى (ثم قال الفتح فى هذا التصنيف بعد كلام فى المذكور مانصه وماأبدع قوله فى وصف الراح واحاض على النبذ للهموم والاطراح بمعاطاة كاسها وموالاة ايناسها ومعاقرة دنانها واهتصار غمار الفتوة من أفنانها والاعراض عن الايام وأنكادها والجرى فى ميدان الصبوة الى أبعد آمادها

سل الهموم اذا نبا زمن * بمدامة صفراء كالذهب
مزجت فمن درّ على ذهب * طاف ومن حبب على لهب
وكأن ساقيها بشير شذى * مسك لدى الاقوام منتهب

ولله هو فقد ندب الى المندوب وذهب الى مداواة القلوب من الندوب وابرائها من الآلام واهدائها كل تحية وسلام وابهاجها بآصال وبكر وعلاجها من هموم وفكر في زمن حلي عاطله وجلي في أحسن الصور باطله ونفقت محالاته وطبقت أرضه وسماءه واستحالاته فليثه كاسد وذئبه مستأسد واضغانه تنسر وبغاثه قد استنسر فلا استراحة الا في معاطاة حميا ومواخاة وسيم المحيا وقد كان ابن عمار ذهب مذهبه وفضضه بالابداع وذهبه حين دخل سرقسطة ورأى غباوة أهلها وتكاثف جهلها وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فضلا وواصل من لا يعرف قطعا ولا وصلا فأقبل على راحه يتعاطاها وعكف عليها ما تعداها ولا تخطاها حتى بلغه أنهم نقموا معاقرته العقار وجالت ألسنتهم في توبيخه مجال ذي الفقار فقال

نقمتم على الراح أدمن شربها * وقلتم فتى راح وليس فتى مجد
ومن ذا الذي قاد الجياد الى الوغى * سواي ومن أعطى كثيرا ولم يكد
فديتكمو لم تفهموا السر انما * قليتكم جهدي فأبعدتكم جهدي

ودعى ابن السيد ليلة الى مجلس قد احتشد فيه الانس والطرب وقرع السرور نبعه بالغرب ولاحت نجوم أكواسه وفاح نسيم رنده وآسه وأبدت صدور أباريقه أسرارها وضمت عليه المجالس أزرارها والراح يديرها أهيف أوطف والاماني تجني وتقطف فقال

يارب ليل قد هتكت حجابه * بمدامة وقادة كالكوكب
يسعى بها أحوى الجفون كأنها * من خده ورضاب فيه الاشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه * يسعى ببدر جانح للمغرب
فاذا نعمت برشف بدر غارب * فانعم برشفة طالع لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها * حول المجرة ربرب في مشرب
والليل منفجر يطير غرابه * والصبح يطرده ببازأشهب

(ثم قال الفتح بعد كلام كثير) ما صورته ودخل يعني ابن السيد سرقسطة أيام المستعين وهي جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف ملك غمير البشاشة كثير الهشاشة وملك أبهج الفناء أرج الارجاء يروق المجتلى ويفوق النجم المعتلى وحضرة منسابة الماء منجابة السماء يبسم زهرها وينساب نهرها وتتفتح خمائلها وتتضوع صباها وشمائلها والحوادث لا تعترضها والكوارث لا تفترضها ونازلها من عرس الى موسم وآملها متصل بالاماني ومتسم فنزل منها في مثل الخورنق والسدير وتصرف فيها بين روضة وغدير فلم يخف على المستعين احتلاله ولم تخف لديه خلاله فذكره معلما به ومعرفا وأحضره منوها به ومشرفا وقد كان

فرّ من ابن رزين فرار السرور من نفس الحزين وخلص من اعتقاله خلوص السيف من صقاله فقال يمدحه

همو سلبوني حسن صبري اذ بانوا * باقمار أطواق مطالعها بان
لئن غادروني باللوى ان مهجتي * مسايرة أظعانهم حيثما كانوا
سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم * ينازعها نهر من الدمع هتان
أأحبابنا هل ذلك العهد راجع * وهل لي عنكم آخر الدهر سلوان
ولي مقلة عبرى وبين جوانحي * فؤاد الى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم * وحفت بنا من معضل الخطب ألوان
أناخت بنا في أرض شنتمرية * هواجس ظن خان والظن خوان
وشمنا بروقا للمواعيد أتعبت * نواظرنا دهرا ولم يهم هتان
فسرنا وما نلوي على متعذر * اذا وطن أقصاك آوتك أوطان
ولا زاد الا ما انتشته من الصبا * أنوف وحازته من الماء أجفان
وحلنا سوام الحمد منها لغيرها * فلا ماؤها صدّا ولا النبت سعدان
الى ملك حاباه بالمجد يوسف * وشاد له البيت الرفيع سليمان
الى مستعين بالاله مؤيد * له النصر حزب والمقادير أعوان
حقتنا بلا جرم كان مودّة * ثنى نحونا منها الاعنة شنآن
ولو لم تفد منا سوى الشعر وحده * لحق لنا بر عليه واحسان
فكيف ولم نجعل بها الشعر مكسبا * فيوجب للمكدي جفاء وحرمان
ولا نحن ممن يرتضي الشعر خطة * وان قصرت عن شأونا فيه أعيان
ومن أوهمته غير ذاك ظنونه * فثم مجال للمقال وميدان
خليلي من بعدي على زمن له * اذا ما قضى حيف على وعدوان
وهل رىء من قبلي غريق مدامع * يفيض بعينيه الحيا وهو حران
وهل طرفت عين لمجد ولم يكن * لها مقلة من آل هود وانسان
بوجه ابن هود كلما أعرض الورى * صحيفة اقبال لها البشر عنوان
فتى المجد في برديه بدر وضيغم * وبحر وقدس ذو الهضاب وثهلان
من النفر الشم الذين أكفهم * غيوث ولكن الخواطر نيران
ليوث شرى ما زال منهم لدى الوغى * هزبر يمناه من السمر ثعبان
وهل فوق ما قد شاد مقتدر لهم * ومؤتمن بالله لقياه ايمان
ألا ليس فخر في الورى غير فخرهم * والا فان الفخر زور وبهتان
فيا مستعينا مستغاثا لمن نبا * به وطن يوما وعضته أزمان
كسوتك من نظمي قلادة مفخر * يباهي بها جيد المعالي ويزدان
وان قصرت عما لبست فربما * تجاور در في النظام ومرجان
معان حكت غنج الحسان كأنما * بهن حبيب أو بطليوس بغدان

اذا غرست كفاك غرس مكارم * بأرضي أجنتك الثنا منه أغصان

(وقال) في وصف مجلس لابي عيسى بن لبون أحضر اليه ابن السيد منوّها بقدره ماصورته وأحضره الى مجلس نام عنه الدهر وغفل وقام لفرط أنسه واحتفل قد بانت صروفه ودنت من الزائر قطوفه وقال هلم بنا الى الاجتماع بمذهبك والاستمتاع بماشئته من براعة أدبك فأقاموا يعملون كاسهم ويصلون ايناسهم وباتوا ليلتهم ماطرقهم نوم ولاعداهم عن طيب اللذات سوم ثم قال بعد كلام كثير وحضر ابن السيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذي النون مجلسا رفعت فيه المنى لواءها وخلعت عليه أضواءها وزفت اليه المسرّات أبكارها وفارقت اليه الطير أوكارها فقال يصف

لم ترعيني مثله ولاترى * أنفس في نفسي وأبهى منظرا
اذا تردّى وشيه المصوّرا * من حوله صنعاء وحوله عبقرا
ونسج قرقوب ونسج تسترا * خلت الربيع الطلق فيه نوّرا
كأنما الابريق حين قرقرا * قد أم لثم الكاس حين فغرا
وحشية ظلت تناغي جوذرا * ترضعه الدرّ وبرنو حذرا
كأنما مج عقيقا أحمرا * أوفت من رياه مسكا أذفرا
أوعابد الرحمن يوماذكرا * فنمّ مسكا ذكره وعنبرا
الظافر الملك الذى من ظفرا * بقربه نال العلاء الاكبرا
لوأن كسرى راءه أوقيصرا * هلل اكبارا له وكبرا
تبدى سماء الملك منه قمرا * اذا جاب المجد عنه سفرا
ياأيها المضنى المطايا بالسرى * تبغي غمام المكرمات الممطرا انتهى

(وقال الفتح) في ترجمة الاديب أبي القاسم بن العطار ماصورته هو أحد أدباء اشبيلية ونحاتها العامرين لارجاء المعارف وساحاتها لولا مواصلة راحاته وتعطيل بكره وروحاته ومولاته للفرج ومغالاته في عرف الانس والارج لايعرّج الاعلى ضفة نهر ولايبتهج الا بقطفة زهر لم يحفل بملام ولم يتنقل الافي طاعة غلام ناهيك من رجل مخلوع العنان في ميدان الصبابه مغرم بالحسان غرام يزيد بحبابه لاتراه الافي ذمة انهماك ولاتلقاه الافي لمة انهتاك رافع الرايات الهوى قارعا لثنيات الجوى لايقفر فؤاده من كلف ولايبيت الارهن تلف أكثر خلق الله تعالى علاقه وأحضرهم لمشهد حلاقه مع جزالة تحرّك السكون وتضحك الطير في الوكون وقد أثبت له مما ارتجله في أوقات أنسه وساعاته ونفث به أثناء زفراته ولوعاته فمن ذلك ماقاله في يوم ركب فيه النهر على عادات انكشافه وارتضاعه لثغور اللذات وارتشافه

عبرنا سماء النهر والجوّ مشرق * وليس لنا الا الحباب نجوم
وقد ألبسته الايك برد ظلالها * وللشمس في تلك البرود رقوم

وله فيه

مررنا بشاطي النهر بين حدائق * بها حدق الازهار تستوقف الحدق

وقد نسجت كف النسيم مفاضة * عليه وما غير الحباب لها حلق

وله

هبت الريح بالعشي فحاكت * زرد الغدير ناهيك جنه
وانجلي البدر بعد هذا فحاكت * كفه للقتال منه أسنه

وقوله

لله بهجة منزه ضربت به * فوق الغدير رواقها الانسام
فمع الاصيل النهر درع سابغ * ومع الضحى يلتاح منه حسام

وله

لا كالعشية في رواء جمالها * وبلوغ نفسي منتهى آمالها
ما شئت شمس الارض مشرقة السنا * والشمس قد شدت مطي رحالها
في حيث تنساب المياه أراقما * وتعير الافياء برد ظلالها

وله

لله حسن حديقة بسطت لنا * منها النفوس سوالف ومعاطف
تختال في حلل الربيع وحليه * ومن الربيع قلائد ومطارف انتهى

(وقال الفتح) في ترجمة ابن عمار أخبرني ذو الوزارتين الاجل أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤتمن في يوم جادت فيه السماء بهطلها وأتبعت وبلها بطلها وارتقب رعدها برقها وانسكب دراكا ودقها والازهار قد تجلت من أكامها وتحلت بدر غمامها والاشجار قد جلي صداها وتوشحت بنداها وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد تديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد اذ بفتى من فتيان المؤتمن أخرس لا يفصح ومستعجم لا يبين ولا يوضح متثنٍ تثني الليث متشمر كالبطل الفارس عند العبث وقد أفاض على نفسه درعا تضيق بها الاسنة ذرعا وهو يريد استشارة المؤتمن في التوجه الى موضع بعثه اليه ووجهه وكل من صده عنه نهره ونجهه حتى وصل الى مكان انفراده ووقف بازاء آساده فلما وقعت عين ابن عمار عليه أشار بيده اليه وقربه واستدناه وضمه اليه كأنه تبناه وأراد أن يخلع عنه ذلك الغدير وأن يكون هو الساقي والمدير فأمره المؤتمن بخلعه وطاعة أمره وسمعه فنضاه عن جسمه وقام يسقي على حكمه ورسمه فلما دبت فيه الحميا وشبت غرامه بهجة ذلك المحيا واستنزلته سورة العقار من مرقب الوقار قال

وهويته يسقي المدام كأنه * قمر يدور بكوكب في مجلس
متأرج الحركات تندى ريحه * كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسعى بكأس في أنامل سوسن * ويدير أخرى من محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده * ومصرف الفرس القصير المحبس
اياك بادرة الوغى من فارس * خشن القناع على عذار أملس
جهم وان حسر اللثام فانما * كشف الظلام عن النهار المشمس

يطغى و يلعب فى دلال عذاره * كالمهر يرمح فى اللجام المجرس
سلم فقد قصف القنا غصن النقا * وسطا بليث الغاب ظبي المكنس
عنا بكاسك قد كفتنا مقلة * حوراء قائمة بسكر المجلس

وأورد هذه القصيدة صاحب البدائع بقوله حضر أبو المطرف بن عبد العزيز عند المؤتمن ابن هود فى يوم أجرى الجو فيه أشقر برقه ورمى بنبل ودقه وتحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها وتمايلت قامات الاغصان فى الحلل الخضر من أوراقها والرياح قد أشرقت نجومها فى بروج الراح وحاكت شمسها شمس الافق فتلفعت بغيوم الاقداح ومديرها قد ذاب ظرفا فكاد يسيل من اهابه وأخجل خدها حسنا فتظلل بعرق حبابه اذا بفتى من فتيان المؤتمن قد أقبل متدرعا كالبدر اجتاب سحابا والنهر قد اكتسى حبابا وقد جاء يريد استشارة المؤتمن فى الخروج الى موضع قد كان عول فيه عليه وأمره أن يتوجه اليه فخيل مع ابن عمار والسكر قد استحوذ على لبه وبشر اياه فى ضواحى قلبه جد فى أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدلاص وأن يجلى عنه سهكه كما يجلى الخبث عن الخلاص وأن يكون هو الساقى فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله واحتذاء أمثاله فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها ورميت شياطين النفوس من كميت المدام بشهبها ارتجل ابن عمار وهو يتمه الخ الا انه قال اثر قوله ايالك بادرة الوغى من فارس ماصورته يضع السنان على العذار الاملس انتهى * ولابن عمار الرائية المشهورة فى مدح المعتضد والد المعتمد وهى

أدر المدامة فالنسيم قد انبرى * والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره * لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره * وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد خدوده * خجلا و تاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم * صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله * سيف ابن عباد يبدد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه * والجو قد لبس الرداء الاغبرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد * ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الاكباد من قطر الندى * وألذ فى الاجفان من سنة الكرا
يختار اذ يهب الخريدة كاعبا * والطرف أجرد والحسام مجوهرا
قداح زند المجد لا ينفك من * نار الوغى الا الى نار القرى
لا خلق أقرأ من شفار حسامه * ان كنت شبهت المواكب أسطرا
أيقنت انى من ذراه بجنة * لما سقانى من نداه الكوثرا
وعلمت حقا أن ربعى مخصب * لما سألت به الغمام الممطرا
من لا توازنه الجبال اذا احتبى * من لا تسابقه الرياح اذا جرى
ماض وصدر الرمح يكهم والظبا * تنبو وأيدى الخيل تعثر فى الثرى

قاد الكتائب كالكواكب فوقهم * من لامهم مثل السحاب كنهورا
من كل أبيض قد تقلد أبيضا * عضبا وأسمر قد تقلد أسمرا
ملك يروقك خلقه أو خلقه * كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته * فرأيته في بردتيه مصوّرا
وجهلت معنى الجود حتى زرته * فقرأته في راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطرا بثنائه * حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه * حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الغنى من كفه * وجنت به روض السرور منوّرا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن * أسعى بجهد أو أموت فأعذرا
يا أيها الملك الذى حاز العلا * وحباه منه بمثل حمدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة * فى الحرب ان كانت يمينك منبرا
مازلت تغنى من عنا لك راجيا * نيلا وتفنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا * رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد * الا اليهود وان تسمت بربرا
أثمرت رمحك من رؤس ملوكهم * لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كماتهم * لما علمت الحسن يلبس أحمرا
واليكها كالروض زارته الصبا * وحنا عليه الطل حتى نورا
نمقتها وشيا بذكرك مذهبا * وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا
من ذا يناجيني وذكرك مندل * أوردته من نار فكرى مجمرا
فلئن وجدت نسيم مدحى عاطرا * فلقد وجدت نسيم برك أعطرا انتهى

*(وقال فى ترجمة عبد الجليل بن وهبون المرسى) ركب باشبيلية زورقا فى نهرها الذى لا تدانيه الصراة ولا يضاهيه الفرات فى ليلة تنقبت فى ظلمتها ولم يبد وضح فى دهمتها وبين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعهما فى اللجة وزاد فى تلك البهجة فقال

كأنما الشمعتان اذ سمتا * جيد غلام محسن الغيد
وفى حشا النهر من شعاعهما * طريق نار الهوى الى كبدى

وكان معه غلام البكرى معاطيا للراح وجاريا فى ميدان ذلك المراح فلما جاء عبد الجليل بما جاء وحلى للابداع الجوانب والارجاء حسده على ذلك الارتجال وقال بين البطء والاستعجال

اعجب بمنظر ليلة ليلاء * تجنى بها اللذات فوق الماء
فى زورق يزهو بغرة أغيد * يختال مثل البانة الغناء
قرنت يداه الشمعتين بوجهه * كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاج تحت الماء أضوء منهما * كالبرق يخفق فى غمام سماء انتهى

*(وقال الفتح رحمه الله) دعيت يوما الى منية المنصور بن أبى عامر ببلنسية وهى منتهى

الجمال

الجبال وعز دهي الصبا والشمال على وهي بنائها وسكنى الحوادث برهة بفنائها فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه والحسن قد شرح بها عويصه وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه وتوشحت بالازر الذهبية أثوابه يخترقه جدول كالحسام المسلول وينساب فيه انسياب الايم في الطول وضفتاه بالادواح محفوفه والمجلس يروق كالخريدة المزفوفه وفيه يقول علي بن أحمد أحد شعرائها وقد حله مع طائفة من وزرائها

قم فاسقني والرياض لابسة * وشيا من النور حاكه القطر
في مجلس كالسماء لاح به * من وجه من قد هويته بدر
والشمس قد عصفرت غلائلها * والارض تندى ثيابها الخضر
والنهر مثل المجرة حف به * من الندامى كواكب زهر

فحللت ذلك المجلس وفيهم أخدان كأنهم الولدان وهم في عيش لدن كأنهم في جنة عدن فأنخت لديهم ركائبي وعقلتها وتقلدت بهم رغائبي واعتقلتها وأقمنا ننعم بحسنه طول ذلك اليوم ووافى الليل فذدنا عن الجفون طروق النوم وظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود والاغصان تميس كأنها قدود والمجرة تتراءى نهرا والكواكب تخالها في الجو زهرا والثريا كأنها راحة تشير وعطارد لنا بالطرب يشير فلما كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائرا فأفضنا في الحديث الى أن أفضى بنا الى ذكر متنزهنا بالامس وما لقينا فيه من الانس فقال لي ما بجبة موضع قد بان قطينه وذهب وسلب الزمان بهجته وانتهب وباد فريق الاريمه وعفاه الحدثان فما كاد يلوح وسمه عهدي به عندما فرغ من تشييده وتوهي في تنسيقه وتنضيده وقد استدعاني اليه المنصور في وقت حلت فيه الشمس برج شرفها واكتست فيه الارض بزخرفها فحللت به والدوح تميس معاطفه والنور يخجله قاطفه والمدام تطلع به وتغرب وقد حل به قحطان ويعرب وبين يدي المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ولا يحل غير الفؤاد من مربع وهم يديرون رحيقا خلتها في كاسها درا وعقيقا فأقمنا والشهب تغازلنا وكأن الافلاك منازلنا ووهب المنصور في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفا من صلات متصلات وأقطع ضياعا ثم توجع لذلك العهد وأفصح عما بين ضلوعه من الوجد وقال

سقيا لمنزلة اللوى وكثيبها * اذ لا أرى زمنا كأزماني بها انتهى

(وما أحسن ما كتب به الفتح الى بعض الملوك) يصف نزهة ببعض منتزهات الاندلس المونقه ويذكر استضاءته فيها بشموس المسرة المشرقه وهو أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ومحيي الملة الذي حسن بلقياه العيش وتزين بمحياه الجيش وراق باسمه الملك وجرت بسعده الفلك وأنار به الليل الدامس ولاح له الاثر الطامس وجرى الدهر لسطوته خائفا وغدا السعد بعقوته طائفا والزمان ببرود علياه ملتحف ولثغور نداه مرتشف ولا زال للمجد يملكه والسعد يحمله فلكه أما وقد وافقتني أيامه أيده الله سبحانه وفاقا ورأيت للبيان عنده نفاقا فلا بد أن أرسل كتائبه أفواجا وأفيض من بحره أمواجا

وأصف ماشاهدته من اقتداره وعاينته من حسن ايراده واصداره بمقال افصح من شكوى المحزون وأملح من رياض الحزون وقد كنت أيدكم الله تعالى كلفا بالدول وبهائها لهجا بالبلوغ الى انتهائها لا اجد دولة أرتضيها وحظوة علياء أقتضيها فكل ملك فاوضته سرا وجهرا وكل ملك قلبته بطنا وظهرا والنفس تصد عنه صدود الجبان عن الحرب والملائكة الكرام عن الشرب الى أن حصلت لديه ووصلت بين يديه فقلت الآن أمكن من راح البغية الانتشاء وتمثلت الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ومازلت أسايره حيث سار وآخذ اليمين تارة وتارة اليسار وكل ناحية تسفر لي عن خد وروض أزهر وعذار نبت أخضر وتبسم عن ثغر حباب في نهر كالحباب وترفل من الربيع في ملابس سندسيات وتهدي الينا نوافح مسكيات وتزهى ببهجتها بأحسن منظر وتتيه بجلباب أبرع من برد الشباب الانضر فجلنا فيها يمينا وشمالا واستخبرنا عن أسرارها صبا وشمالا ثم مال بنا أيده الله تعالى عن هذه المسارح السنية والمنازل البهية الى احدى ضياعه الحالية وبقاعه العالية فحللناها والايام قد عرى من جلبابه واليوم قد اكتهل بعد شبابه فنزلنا في قصور يقصر عنها جعفري جعفر وقصور بني الاصفر تهدي من ابائها بردا محبرا وتبدي من شذاها مسكا وعنبرا وقد لاحت من جوانبها نجوم أكواس لو رآها أبو نواس لجعلها شعاره ووقف على نعتها أشعاره ولم يتخذ سواها نجعه ولا نبه خماره بعد هجعه فتعاطيناها والسعد لنا خادم وماغير السرور علينا قادم وخدود سقاتها قد اكتست من سناها وقدودهم تتهيل علينا بجناها ونحن بين سكر وصحو واثبات ومحو واصاخة الى بم وزير والتفاتة الى ملك ووزير الى أن ولى النهار رخيا نا وأقبل الليل المميت فأحيانا فوصلنا بلهو وقصف وعيش يتجاوز كل وصف فكان يوما مقيم أوكان ليلنا من الظلام عقيم ولما سل الفجر حسامه وأبدى لعبوس الليل ابتسامه وجاء يختال اختيالا ويمحو من بقايا الليل نبالا قمنا نتنادب للمسير وكلنا في يد النشوة أسير فسرنا والملك الاجل يقدمنا والايام تخدمنا فلازالت الايام بموزاهه وعن سواه لاهيه ماعمر وكرا عقاب وكان للشهور غرور وأعقاب انتهى * (وقال الفتح في ترجمة الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد بن عباد) بعد كلام ماصورته وأخبرني المعتمد بالله ان أباه المعتمد وجهه يعني الراضي الى شلب واليا وكانت ملعب شبابه ومألف أحبابه التي عمر نجودها غلاما وتذكر عهودها أحلاما وفيها يقول يخاطب ابن عمار وقد توجه اليها

الا حي أوطاني بشلب أبا بكر * وسلهن هل عهد الوصال كما أدري

وسلم على قصر الشراجيب من فتى * له أبدا شوق الى ذلك القصر

وقصر الشراجيب هذا متناه في البهاء والاشراق مباه لزوراء العراق ركضت فيه جياد راحاته وأومضت بروق أمانيه في ساحاته وجرى الدهر مطيعا بين بكره وروحاته أيام لم تحل عنه تمائمه ولا خلت من أزاهير الشباب كمائمه وكان يعتقدها مشتهى آماله ومنتهى أعماله الى بهجة جنباتها وطيب نفحاتها وهباتها والتفاف خمائلها وتقلده

بنهرها مكان حمائلها وفيها يقول ابن اللبانة

أما علم المعتـــد بالله أننى * بحضرته فى جنة شقها نهر
وما هو نهر أعشب النبت حوله * ولكنه سيف حمائله خضر

فلما صدر عنها وقد حسنت آثاره فى تدبيرها وانسدلت رعايته على صغيرها وكبيرها نزل المعتمد عليه مشرّفا لاوبته ومعرّفا بسموّ قدره لديه ورتبته وأقام يومه عنده مستريحا وجرى فى ميدان الانس بطلا مشيحا وكان واجدا على الراضى بخلات الحيا أفقه وحجبت غيظه عليه وحنقه وصوّرته له عين حنوّه وذكرته بعده بخفى الى دنوّه وبين ما استدعى وأوفى مالت بالمعتمد نشوته وأغفى وألقاه صريعا فى مبتداه طريحا فى منتهى مداه فأقام تجاهه يرتقب انتباهه وفى أثناء ذلك صنع شعرا أتقنه وجوّده فلما استيقظ أنشده

الان تعود حياة الامل * ويدنو شفاء فؤاد معل
ويورق للعز غصن ذوى * ويطلع للسعد نجم أفل
فقد وعدتنى سحاب الرضا * بوابلها حين جادت بطل
دعوت فطار بقلبى السرور * اليك وان كان منك الوجل
كما يستطير لحب الوغى * اليها وفيها الظبا والاسل
أبا ملك اكا أمره نافذ * فمن شا أعز ومن شا أذل
فلا غرو ان كان منك اغتفار * وان كان منا جنى عازلل
فذلك وهو الذى لم نجد * عاد بحلم على من جهل انتهى

(وقال فى ترجمة المتوكل على الله بن الافطس ما صورته) وأخبرنى الوزير أبو محمد بن عبدون أن الارض توالى عليها الجدب بحضرته حتى جفت مذاهبها واغبرّت جوانبها وغرد المكاء فى غير روضه وخاض الياس بالناس أعظم خوضه وأبدت الخمائل عبوسها وشكت الارض للسماء بوسها فأقلع المتوكل عن الشرب واللهو ونزع ملابس الخيلاء والزهو وأظهر الخشوع وأكثر السجود والركوع الى أن غيم الجوّ وانسجم النوّ وصاب الغمام وترنمت الحمام وسفرت الازهار وزهت النجود والاغوار واتفق أن وصل أبو يوسف المغنى والارض قد لبست زخارفها ورقم الغمام مطارفها وتتوجت الغيطان والربا وأرجت نفحات الصبا والمتوكل ما فض لتوبته ختاما ولا قوّض عن قلبه منها خياما فكتب اليه

ألمّ أبو يوسف والمطر * فياليت شعرى ما ينتظر
ولست بآب وأنت الشهيد * حضور نديك فيمن حضر
ولا مطلعى وسط تلك السما * بين النجوم وبين القمر
وركضى فيها جياد المدا * م محثوثة بسياط الوتر

فبعث اليه مركوبا وكتب معه

بعثت اليك جناحا فطر * على خفية من عيون البشر

على قلل من تاج البروق * وفى ظلل من نسيج الشجر
غنى بمن نأى من دنا * ومن غاب كان فدا من حضر

فوصل القبة المطلة على البطحاء المزرية بمنازل الروحاء فأقام منها حيث قال عدى بن زيد يصف مصنعا

فى قباب حول دسكرة * حولها الزيتون قد ينعا

ومر لهم من السرور يوم ما مر لذى رعين ولا تصور قبل عيونهم لعين وأخبرنى انه سايره الى شنتربن قاصية أرض الاسلام السامية الذرى والاعلام التى لا يروعها صرف ولا يقرعها طرف لانها متوعرة المراقى معفرة للراقى متمكنة الرواسى والقواعد من ضفة نهر استدار بها استدارة القلب بالساعد قد أطلت على خمائلها اطلال العروس من منصتها واقتطعت من الجو أكثر من حصتها فجروا بأنفس قطر سالت به جداوله واختالت فيه خمائله فما يجول الطرف منه الا فى حديقة أو بقعة أنيقة فتلقاهم ابن مقانا قاضى حضرته وأنزلهم عنده وأورى لهم بالمبرة زنده وقدم لهم طعاما واعتقد قبوله منا وانعاما وعند ما طعموا قعد القاضى بباب المجلس رقيبا لا يبرح وعين المتوكل حيا منه لا تجول ولا تسرح فخرج أبو محمد وقد أبرمه بتثقيله وحرمه راحة رواحه ومقيله فلقى ابن خيرون منتظرا له وقد أعد لحلوله منزله فسار الى مجلس قد ابتسمت ثغور نواره وخجلت خدود ورده من زواره وأبدت صدور أباريقه أسرارها وضمت عليه المحاسن أزرارها ولما حضره وقت الانس وحينه وأرجت له رياحينه وجه من يرقب المتوكل حتى يقوم جليسه ويزول موحشه لا أنيسه فأقام رسوله وهو بمكانه لا يريمه قد لازمه كأنه غريمه فما انفصل حتى ظن أن عارض الليل قد نصل فلما علم أبو محمد بانفصاله بعث الى المتوكل قطيع راح وطبق ورد وكتب معهما

اليكها فاجتلها منيرة * وقد خبا حتى الشهاب الثاقب
واقفة بالباب لم يؤذن لها * الا وقد كاد ينام الحاجب
فبعضها من الخاف جامد * وبعضها من الحياء ذائب

فقبلها منه رحمه الله تعالى وعفا عنه وكتب اليه

قد وصلت تلك التى زففتها * بكرا وقد شابت لها ذوائب
فهب حتى نسترد ذاهبا * من أنسنا ان استرد ذاهب

فركب اليه ونقل معه ما كان بالمجلس بين يديه وباتا ليلتهما لا يريعان السمر ولا يشيمان برقا الا الكاس والزهر (ثم قال) بعد كلام وأخبرنى الوزير الفقيه أبو أيوب بن أبى أمية انه مر فى بعض أيامه بروض مفتر المباسم معطر الرياح النواسم قد صقل الربيع حوذانه وأنطق بلبله وورشانه وألف غصونه برود الخضرة وجعل اشراقه للشمس ضرة وأزاهره تتيه على الكواكب وتختال فى خلع الغمام السواكب فارتاح الى الكون به بقية نهاره والتنعم بنفسجه وبهاره فلما حصل من أنسه فى وسط المدى عمد الى ورقة كرنب قد بللها الندى وكتب فيها بطرف غصن يستدعى الوزير أبا طالب بن

غانم أحد ندمائه ونجوم سمائه

أقبل أبا طالب الينا * وقع وقوع الندى علينا
فنحن عقد بغير وسطى * مالم تكن حاضرا لدينا

(وقال فى ترجمة المعتصم بن صمادح ما صورته) وأخبرنى الوزير أبو خالد بشتغير انه حضر مجلسه بالصمادحية فى يوم غيم وفيه أعيان الوزراء ونبهاء الشعراء فقعد على موضع يتداخل الماء فيه ويلتوى فى نواحيه والمعتصم منشرح النفس مجتمع الانس فقال

انظر الى حسن هذا الماء فى صببه * كأنه أرقم قد جد فى هربه

فاستبدعوه وتيموه به وأولعوه فأسكب عليهم شآبيب نداه وأعرب بما ظهر من بشره وأبداه ثم قال بعد كلام وخرج الى برجة ودلاية وهما منظران لم يجل فى مثلهما ناظر ولم تدع حسنهما الخدود النواضر غصون تثنيها الرياح ومياه لها انسياح وحدائق تهدى الارج والعرف ومنازه تبهج النفس وتمتع الطرف فأقام فيها أياما يتدرج فى مسارحها ويتصرف فى منازهها وكانت نزهة أربت على نزهة هشام بدير الرصافه وأنافت عليها أى انافه (وقال فى ترجمة بن رزين ما ملخصه) أخبرنى الوزير أبو عامر انه اصطبح يوما والجو سماكى العوارف لازوردى المطارف والروض أنيقة لباته رقيقة هباته والنور مبتل والنسيم معتل ومعه قومه وقدراتهم يومه وصلاته تصافح معتفيهم ومبراته تشافه موافيهم والراح تشعشع وماء الامانى ينشع فكتب الى ابن عمار وهو ضيفه

ضمان على الايام أن أبلغ المنى * اذا كنت فى ودى مسرا ومعلنا
فلو تسأل الايام من هو مفرد * بود ابن عمار لقلت لها أنا
فان حالت الايام بينى وبينه * فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول واعتذر بعذر محتمل المعانى والفصول فقال أحد الحاضرين انى لاعجب من قعود ابن عمار عن هذا المضمار مع ميله الى السماع وكلفه بمثل هذا الاجتماع فقال ذو الرياستين ان الجواب تعذر فلذا اعتذر لانه يعانى قوله ويعاله ويرويه ولا يرتجله ويقوله فى المدة الممتدة فرأى أن الوصول بلا جواب اخلال لادبه واخلال لمنازله فى الشعور وتبه فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو

هصرت لى الآمال طيبة الجنى * وسوغتنى الاحوال مقبلة الدنى
وألبستنى النعمى أغض من الندى * وأجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها * فبت سمير السناء والسنى
أعلل نفسى بالمكارم والعلا * وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما * تعاورت الاسماء غيرك والكنى
لاوسعتنى قولا وطولا كلاهما * يطوق أعناقا ويخرس ألسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى * تناثر فيها الطبع وردا وسوسنا

قوله بشتغير فى نسخة ابن بشتغير اه

تروق بجيد الملك عقداً مرصعاً * وتزهو على عطفيه برداً مزيناً
فدم هكذا يا فارس الدست والوغى * لتطعن طوراً بالكلام وبالقنا

*(وأخبرني الوزير ابن سعدون) أنه اصطبح يوماً بحضرته والرذاذ يرش وللربيع على وجه الارض فرش وقد صقل الغمام الازهار حتى أذهب غشها وسقاها فأروى عطشها فكتب اليه

فديناك لا يسطيعك النظم والنثر * فأنت مليك الارض واتصل الامر
هريناك الغمر فانهل صيباً * كما سكبت وطفاء أو سكب البحر
وجاء الربيع الطلق يبدي غضارة * فخيلك منه الشمس والروض والنهر

الى أن قال ثم وجه فيه الى روضة قد أرجت نفحاتها وتدبجت ساحاتها وتفتحت كمامها وأفصحت حمامها وجردت جداولها كالبواتر ورمقت أزهارها كالعيون الفواتر وأقاموا يعملون أكواسهم ويشتملون ايناسهم فقال ذو الرياستين

وروض كساه الطل وشياً مجدداً * فأضحى مقيماً للنفوس ومقعدا
اذا صافحته الريح خلت غصونه * رواقص في خضر من القضب ميدا
اذا ما انسكاب الماء عاينت خلته * وقد كسرته راحة الريح مبردا
وان سكنت عنه حسبت صفاءه * حساماً صقيلاً خافي المتن جردا
وغنت به ورق الحمائم بيننا * غناء ينسيك الغريض ومعبدا
فلا تجفون الدهر مادام مسعدا * ومد الى ما قد حباك به يدا
وخذها مداماً من غزال كأنه * اذا ما سقى بدر تحمل فرقدا

الى أن قال وأخبرني الوزير ابن سنون انه كان معه في منية العيون في يوم مطرز الاديم ومجلس معزز النديم والانس يغازلهم من كل ثنيه ويواصلهم بكل أمنيه فسكر أحد الحاضرين سكراً مثل له ميدان الحرب وسهل عليه مستوعر الطعن والضرب فقلب مجلس الانس حرباً وقتالا وطلب الطعن وحده والنزالا فقال ذو الرياستين

نفس الذليل تعز بالجريال * فيقاتل الاقران دون قتال
كم من جبان ذي افتخار باطل * بالراح تحسبه من الابطال

*(وقال في ترجمة ابن طاهر ما صورته) وجئته يوماً وقد وقفت بباب الحنش فقال لي من أين فأعلمته ووصفت له ما عاينته من حسنه وتأملته فقال لي كنت أخرج اليه في أكثر الليالي مع الوزير الاجل أبي بكر يعني ابن عبد العزيز الى روضته التي ودت الشمس أن يكون منها طلوعها وتمنى المسك أن تضم عليه ضلوعها والزمان غلام والعيش أحلام والدنيا تحية وسلام والناس قد انتشروا في جوانبه وقعدوا على مذانبه وفي ساقيته الكبرى دولاب يئن كناقة اثر حوار أو كثكلى من حر الاوار وكل مغرم يجعل فيه ارتياحه بكرته ورواحه ويغازل عليه حبيبه ويصرف اليه تشبيبه فخرجت عليه ليلة والمتني الجزيري واقف وأمامه ظبي آنس تهيم به المكانس وفي أذنيه قرطان كأنهما كوكبان وهو يتأود تأود غصن البان والمتني يقول

معشر الناس بباب الحنش * بدرتم طالع فى غبش
علق القرط على مسمعه * من عليه آفة العين خشى

فلما رآنى أمسك وسبح كأنه تنسك *(وقال فى ترجمة ابن عمار ما صورته) وتنزه بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد وجروا من اتقانه الى غاية وأمد وأبدع بناؤه ونمقت ساحته وفناؤه واتخذوه ميدان مراحهم ومضمارا لانشراحهم وكوا به قصرهم بالمشرق وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق فحله أبو بكر بن عمار على أثر بؤسه وابتسم له دهره بعد عبوسه والدنيا قد أعطته عفوها وسقته صفوها وبات فيه مع لمة من أتباعه ومتفيئ رباعه وكلهم يحييه بكاس ويفديه بنفسه من كل باس فطابت له ليلته فى مشيده وأطربه الانس ببسطه ونشيده فقال

كل قصر بعد الدمشق يذم * فيه طاب الجنى وفاح المشم
منظر رائق وماء نمير * وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى * عنبر أشهب ومسك أحم

انتهى

وعبر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله تنزه ابن عمار بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده خلفاء بنى أمية وزخرفوه ودفعوا صرف الدهر عنه ورصفوه وأجروه على ارادتهم وصرفوه وذهبوا اسقفه وفضضوها ورخموا أرضه وروضوها فبات به والسعد يلحظه بطرفه والروض يحييه بعرفه فلما استنفد كافور الصباح مسك الغسق ورصع أبنوس الظلام نضار الشفق قال مرتجلا كل قصر بعد الدمشق يذم الخ انتهى *(وقال فى ترجمة ذى الوزارتين أبى عيسى بن لبون) أخبرنى الوزير أبو عامر بن الطويل انه كان بقصر مربيطر بالمجلس الشرقى منها والبطحاء قد لبست زخرفها ودبج الغمام مطرفها وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها وتبث طيب تنفسها والجلنار قد لبس أردية الدماء وراع أفئدة الندماء فقال

قم يانديم أدر على القرقفا * أوما ترى زهر الرياض مفوفا
فتخال محبوبا مدلا وردها * وتظن نرجسها محبا مدنفا
والجلنار دماء قتلى معرك * والياسمين حباب ماء قد طفا

الى أن قال وشرب مع الوزراء الكتاب ببطحاء لورقة فى عشية تجود بدماتها ويصوب عليها دمع سمائها والبطحاء قد خلع عليها سندسها ودر هاز جسها والشمس تنفض على الربا زعفرانها والانوار تغمض أجفانها فكتب الى ابن اليسع

لو كنت تشهد يا هذا عشيتنا * والمزن تسكب أحيانا وتنحدر
والارض مصفرة بالشمس كاسية * أبصرت تبرا عليه الدر ينتثر

*(وقال فى ترجمة ذى الوزارتين أبى بكر بن رحيم ما صورته) ووصل هو وابن وضاح صهر المرتضى وابن جال الخلافة صاحب صقلية الى احدى جنات مرسية فحلوا منها فى قبة فوق جدول مطرد وتحت أدواح طير هاغرد فأقاموا يتعاطون رحيقهم ويعمرون فى المؤانسة طريقهم اذا بالجنان قد وقف عليهم وقال كان بوضعكم بالامس

صاحب الموضع ومعه شعور منشوره وخدود غير مستوره قد رفعت عنها البراقع وما منها نظرة الا ومعها سهم واقع فاستدعى فحما وكتب فى احدى زوايا القبة

قادنا ودنا اليك فجئنا * بنفوس تفديك من كل بوس
فنزلنا منازلا لبدور * وحللنا مطالعا لشموس

*(وقال فى ترجمة الوزير الكاتب أبى محمد بن عبدون ماصورته) حللت بابرة فأنزلنى واليها بقصرها ومكننى من جنى الامانى وهصرها فأقمت ليلى أجر على المجرة ذيلى وتتطارد فى ميدان السرور خيلى فلما كان من الغد باكرنى الوزير أبو محمد مسلما ومن تشكى عنه متألما ثم عطف على القائد عاتبا عليه فى كونى لديه ثم انصرف وقد أخذنى من يديه فحللت عنده فى رحب وهمت على من البر أمطار سحب فى مجلس كان الدرارى فيه مصفوفه أو كان الشمس اليه مزفوفه فلما حان انصرافى وكثر تطلعى الى مآبى واستشرافى ركب معى الى حديقة نضره مجاورة للحضره فأنخنا عليها أيدى عيسنا ونلنا منها ماشئنا من تأنيسنا فلما امتطيت عزمى وسددت الى غرض الرحلة سهمى أنشدنى

سلام يناجى منه زهر الربا عرف * فلا سمع الاود لو أنه أنف
حنينى الى تلك السجايا فانها * لآثار أعيان المساعى التى أقفو

ثم سرد القصيدة الى أن قال وله رحمه الله تعالى

سقاها الحيا من مغان فساح * فكم لى بها من معان فصاح
وحلى أكاليل تلك الربا * ووشى معاطيف تلك البطاح
فلم أنس لم أنس عهدى بها * وجرى فيها ذيول المراح
ونومى على حبرات الرياض * يجاذب بردى مر الرياح
ولم اعط امر النهى طاعة * ولم أصغ سمعى الى قول لاح
وليل كرجعة طرف المريب * لم أدر له شفقا من صباح

(وقال فى ترجمة الوزير أبى محمد بن مالك بعد كلام له فيه وانشاده بيتيه البديعين اللذين هما

لا تلمنى بأن طربت لشجو * يبعث الانس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حقا علينا * انما الشأن أن تشق القلوب

ماصورته وخرجت باشبيلية مشيعا لاحد زعماء المرابطين فألفيته معه مسايرا له فى جملة من شيعه فلما انصرفنا مال بنا الى معرس أمير المسلمين أدام الله تعالى تأييده الذى بنزله عند حلوله باشبيلية وهو موضع مستبدع كأن الحسن فيه مودع ماشئت من نهر ينساب انسياب الاراقم وروض كما وشت البرد يد راقم وزهر يحسد المسك رياه ويتمنى الصبح أن يسم به محياه فقطف غلام وسيم من غلمانه نورة ومد يده الى وهى فى كفه فعزم على أن أقول بيتا فى وصفه فقلت

وبدر بدا والطرف مطلع حسنه * وفى كفه من رائق النور كوكب

فقال أبو محمد

يروح لتعذيب النفوس ويغتدى * ويطلع فى أفق الجمال ويغرب

ويحسد

ويحسد منه الغصن اى مهفهف * يجيء على مثل الكثيب ويذهب

*(وقال فى ترجمة الوزير أبى القاسم بن السقاط بعد كلام كثير ماصورته) وحملنا الوزير القاضى أبو الحسن بن أضحى الى احدى ضياعه بخارج غرناطة ومعنا الوزير أبو محمد بن مالك وجاعة من أعيان تلك الممالك فحللنا بضيعة لم ينحت المحل أثلها ولم ترمق العيون مثلها وجلنا بها فى أكناف جنات ألفاف فاشئت من دوحة لفاء وغصن يميس كمعطفى هيفاء وماء ينساب فى جداوله ونهر ينضح بالمسك راحة متناوله ولما قضينا من تلك الحدائق أربا واقتضضنا منها أترابا عربا ملنا الى موضع المقيل ونزلنا عنا زه تزرى عنازه جذيمة مع مالك وعقيل وعند وصولنا بدا الى من أحد الاصحاب تقصير فى المبرّه عرض لى منه تكدير لتلك العين الثرّه فأظهرت التثاقل أكثر ذلك اليوم ثم عدلت عنهم الى الاضطجاع والنوم فما استيقظت الا والسماء قد نسخ صحوها وغيم جوها والغمام منهمل والثرى من سقياه ثمل فبسطنى بتخفيه وأبهجنى ببرّ لم يزل يتممه ويوفيه وأنشدنى

يوم تجهم فيه الافق وانتثرت * مدامع الغيث فى خد الثرى هملا
رأى وجومك فارتدت طلاقته * مضاهيا لك فى الاخلاق ممتثلا

*(وقال فى ترجمة الوزير القاضى ابى الحسن بن أضحى مانصه) وكان لصاحب البلد الذى كان يتولى القضاء به ابن من أحسن الناس صورة وكانت محاسن الافعال والاقوال عليه مقصورة مع ماشئت من لسن وصوت حسن وعفاف واختلاط بالبهاء والثقاف فحملنا الى احدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا قريه على ضفة نهر أحسن من سادهر تشقها جداول كالصلال ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال وصعنا جملة من أعيانها فأحضر لنا من أنواع الطعام وأرانا من فرط الاكرام والانعام مالا يطاق ولا يحد ويقصر عن بعضه العد وفى أثناء مقامنا بدا الى من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام أعتقده وملام أحقده فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابه ولم أر منه ماعهدته من الانابه فكتبت اليه مداعبا فراجعنى بهذه القطعة

أتتنى أبا نصر نتيجة خاطر * سريع كرجع الطرف فى الخطرات
فأعربت عن وجد كمين طويته * بأهيف طاو فاتر اللحظات
غزال أحمّ المقلتين عرفته * بخيف منى للحسن أو عرفات
رماك فأصمى والقلوب رمية * لكل كحيل الطرف ذى فتكات
وظن بأن القلب منك محصب * فلباك من عينيه بالجمرات
تقرّب بالنساك فى كل منسك * وضحى غداة النحر بالمهجات
وكانت له جيان مثوى فأصبحت * ضلوعك مثواه بكل فلاة
يعز علينا أن تهيم فتنطوى * كئيبا على الاشجان والزفرات
فلو قبلت للناس فى الحب فدية * فديناك بالاموال والبشرات

*(وقال فى ترجمة أديب الاندلس وشاعرها أبى اسحق بن خفاجة بعد كلام ماصورته) وقال يندب معاهد الشباب ويتفجع لوفاة الاخوان والاحباب بعقب سيل أعاد

الديار آثارا وقضى عليها وهيا واتنثارا

ألا عرض الاخوان فى ساحة البلى * ومارفعوا غير القبور قبابا
فدمع كما سح الغمام ولوعة * كما اضرمت ريح الشمال شهابا
اذا استوقفتنى فى الديار عشية * تلذذت فيها جيأة وذهابا
أكر بطرفى فى معاهد فتية * ثكلتهم بيض الوجوه شبابا
فطال وقوفى بين وجد وفرقة * أنادى رسوما لا تحير جوابا
وأمحو جميل الصبر طورا بعبرة * أخط بها فى صفحتى كتابا
وقد درست أجسامهم وديارهم * فلم أر الا أعظما ويبابا
وحسبى شجوا ان أرى الدار بلقعا * خلاء وأشلاء الصديق ترابا

ولقد أحلني بهذه الديار المندوبة وهى كعهدها فى جودة مبناها وعودة سناها فى ليلة اكتحلنا ظلامها اثمدا ومحونا بها من نفوسنا كمدا ولم يزل ذلك الانس يبسطه والسرور ينشطه حتى نشر لى ماطواه وبث مكتوم لوعته وجواه وأعلى بلياليه فيها مع أترابه وماقضى بها من أطرابه انتهى ماوقع عليه اختيارى من كلام أبى نصر الفتح بن عبيد الله رحمه الله تعالى فى وصف بعض منتزهات الاندلس البديعة ورياضها المونقة المريعة وما أحسن رسالة له مختصرة كتبها مهنئا بعض ملوك الاندلس بما منحه الله تعالى من التمكين الذى أيده به ونصره وقد جود أوصافه واستطرد منها الى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عمرا الزهراء والرصافه ونصها أدام الله تعالى أيام الامير للارض يملكها ويستدير بسعده فلكها وقد استبشر الملك أيدك الله وحق له الاستبشار فقد أومأ اليه السعد وأشار بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من ألويتك فلقد حبى منك بملك أمضى من السهم المسدد طويل نجاد السيف رحب المقلد يتقدم حيث يتأخر الذابل ويتكرم اذا بخل الوابل ويحمى الحى كربيعة بن مكدم ويسقى الظبا نجيعا كلون العندم فهنيئا للاندلس فقد استردت عهد خلفائها واستجدت رسوم تلك الامامة بعد عفائها فكأن لم تمت أعاصرها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا ونكحا عقائل الروم ومابذلا غير المشرفية مهرا والله سبحانه أسأله اظهار أيامك وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أجل من عصرهم ونصرك أغرب من نصرهم بمنه وكرمه ويمنه *(وقال رحمه الله تعالى فى ترجمة الفقيه القاضى الحافظ أبى محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير بعد كلام كثير ماصورته ومررنا فى احدى نزهتنا بمكان مقفر وعن المحاسن مسفر وفيه بكير نرجس كأنه عيون مراض يسيل وسطه ماء رضراض بحيث لا يحس الا الهام ولا أنس الا مايتعرض للاوهام فقال

نرجس باكرت فيه روضة * لذقطع الدهر فيها وعذب
حثت الريح بها خمر حيا * رقص النبت لها ثم شرب
فغدا يسفر عن وجنته * نوره الغض ويهتز طرب
خلت لمع الشمس فى مشرفه * لهبا يخمد منه فى لهب

قوله عبد الحق فى نسخة عبد
الحق اه

وباصر

وبياض الطل في صفرته * نقط الفضة في خط الذهب   انتهى

وسيأتي ان شاء الله تعالى كثير من وصف بلاد الاندلس ومنتزهاتها وما اشتملت عليه من المحاسن في كلام غير واحد ممن يجري ذكره في هذا الكتاب وخصوصا أديب زمانه غير مدافع من اعترف له أهل الشرق بالسبق وأهل المغرب بالابداع المغرب النور أبو الحسن علي بن سعيد العنسي فانه لما اتصل بمصر ودخلها اشتاق الى تلك المواطن الاندلسية الرائقة ووصفها بالقصائد والمقطوعات الفائقة وقد أسلفنا أيضا فيما مر من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بمحاسن الاندلس فليراجع في محله من هذا الكتاب قلت وماذا عسى أن نذكر من محاسن قرطبة الزاهرة والزهرا ونصف من محاسن الاندلس التي تبصر بكل موضع منها طلا واضافيا ونهرا وزهرا ويرحم الله تعالى اديبها المشهور الذي اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور أبا اسحق بن خفاجة اذ قال

يا أهل أندلس لله دركم * ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم * ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا * فليس تدخل بعد الجنة النار

ويروى مكان قوله ولو تخيرت هذا كنت أختار ما مثاله وهذه كنت لو خيرت أختار ومكان لا تختشوا لا تحسبوا وكذا رأيت بخط الحافظ التنسي والاول رأيته بخط العلامة الوانشريسي رحمهما الله تعالى * وحكى أن الخليل لما قدم من الاندلس رسولا الى سلطان المغرب أبي عنان فارس ابن السلطان أبي الحسن المريني أنشد بحضرة السلطان المذكور أبيات ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الاندلس فقال السلطان أبو عنان كذب هذا الشاعر يشير الى كونه جعلها جنة الخلد وأنه لو خير لاختارها على ما في الآخرة وهذا خروج من ربقة الدين ولا أقل من الكذب والاغراق وان جرت عادة الشعراء بذلك الاطلاق فقال الخليل يا مولانا بل صدق الشاعر لانها موطن جهاد ومقارعة للعدو وجلاد والنبي صلى الله عليه وسلم الرؤف الودود الرحيم العطوف يقول الجنة تحت ظلال السيوف فاستحسن منه هذا الكلام ورفع عن قائل الابيات الملام وأجزل صلته ورفع منزلته ولعمري ان هذا الجواب لجدير بالصواب وهكذا ينبغي أن تكون رسل الملوك في الافتنان روح الله تعالى أرواح الجميع في الجنان * وأبو اسحق بن خفاجة كان أوحد الناس في وصف الانهار والازهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين وقد سبق بعض كلامه ويأتي أيضا منه بعض في أثناء الكتاب ومن ذلك قوله

وكامة حدر الصباح قناعها * عن صفحة تندى من الازهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه * أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الارض فيه يد الصبا * درر الندى ودراهم النوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت * حلي الحباب سوالف الانهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك * جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لمم الربا * والطل ينضح أوجه الاشجار

متقسم الالحاظ بين محاسن * من ردف رابية وخصر قرار
وأراكة سجع الهديل بفرعها * والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له أعطافها ولربما * خلعت عليه ملاءة الانوار

وقوله

سقيا ليوم قد انخت بسرحة * ريا تلاعبها الرياح فتلعب
سكرى يغنيها الحمام فتنثني * طربا ويسقيها الغمام فتشرب
يلهو فترفع للشبيبة راية * فيه ويطلع للبهارة كوكب
والروض وجه أزهر والظل فر * ع أسود والماء ثغر أشنب
في حيث أطربنا الحمام عشية * فشدا يغنينا الحمام المطرب
واهتز عطف الغصن من طرب بنا * وافتر عن ثغر الهلال المغرب
فكأنه والحسن مقترن به * طوق على برد الغمامة مذهب
في فتية تسرى فينصدع الدجى * عنها وتنزل بالجديب فيخصب
كرموا فلا غبث السماحة مخلف * يوما ولا برق اللطافة خلب
من كل أزهر للنعيم بوجهه * ماء يرقرقه الشباب فيسكبه

وقال يمدح الامير أبا يحيى بن ابراهيم

سمح الخيال على النوى بمزار * والصبح يمسح عن جبين نهار
فرفعت من ناري لضيف طارق * يعشو اليها من خيال طاري
وكب الدجى أحسن به من مركب * وطوى السرى أحسن به من ساري
وأناخ حيث دموع عيني منهل * يروي وحيث حشاي موقد نار
وسقى فأروى غلة من ناهل * أورى بجانحتيه زند أوار
يلوي الضلوع من الولوع لخطرة * من شيم برق أو شميم عرار
والليل قد نضح الندى سرباله * فانهل دمع الطل فوق صدار
مترقب رسل الرياح عشية * بمساقط الانواء والانوار
ومجر ذيل غمامة لبست به * وشي الحباب معاطف الانهار
خفقت ظلال الايك فيه ذوائبا * وارتج ردفا مائل التيار
ولوى القضيب هناك جيدا أتلعا * قد قبلته مباسم النوار
باكرته والغيم قطعة عنبر * مشبوبة والبرق لفحة نار
والريح تطلع فيه أرداف الربا * لعبا وتلثم أوجه الازهار
ومنابر الاشجار قد قامت بها * خطباء مفصحة من الاطيار
في فتية جنبوا العجاجة ليلة * ولربما سفروا عن الاقمار
ثاروا القتام بهم دخانا وارتمى * زند الحفيظة منهم بشرار
شاهدت من هيأتهم وهباتهم * اشراف أطواد وفيض بحار
من كل منتقب بوردة خجلة * كرما ومشتمل بثوب وقار

في عمة خلعت عليه للمة * وذؤابة قرنت بها العذار
ضافي رداء المجد طماح العلا * طامي عباب الجود رحب الدار
جرار أذيال المعالي والقنا * حامي الحقيقة والحمى والجار
طرد القنيص بكل قيد طريدة * زجل الجناح مورد الاظفار
ملتفة أعطافه بحبيرة * مكحولة أجفانه بنضار
يرمي به الامل القصي فينثني * مخضوب دره الظفر والمنقار
و بكل ناي الشوط أشدق اخزر * طاوي الحشى حالي القلاد ضاري
يفتر عن مثل النصال وانما * يمشي على مثل القنا الخطار
مستقربا أثر القميص على الصفا * والليل مشتمل بشملة قار
من كل مسود تلهب طرفه * ترميك خمته بشعلة نار
ومورس السربال يخلع نده * عن نجم رجم في سماء غبار
يستن في سطر الطريق وقدعفا * قدما فتقرأ أحرف الآثار
عطف الضمور سراته فكانه * والنقع يحجبه هلال سرار
ورب رواع هنالك أنبط * خلق المسامع أطلس الاطمار
يجري على حذر فيجمع بسطه * بهوى فينعطف انعطاف سوار
عمتد حبل الشأو يعسل راتعا * فيكاد يفلت ايدي الاقدار
متردد يرمى به جوف الردى * ككرة تهادتها أكف قفار
ورب طيار خفيف قد جرى * بشلا بحار خلفه طيار
من كل قاصرة الخطا مختالة * مشي الفتاة تجر فضل ازار
مخضوبة المنقار تحسب أنها * كرعت على ظما بكاس عقار
ولو استجارت منهما بحمى أبي * يحيى لاتمها أعز جوار
خدم القضاء مراده فكانما * ملكت يداه أعنة الاقدار
وعني الزمان لامره فكانما * أصغى الزمان به الى أمار
وجلا الامارة في رفيق نضارة * جلت الدجى في حلة الانوار
في حيث وشح لبة بقلادة * منها وحلى معصما بسوار
جذلان علامحه وبشاشه * أيدي العفاة وأعين الزوار
أرج الندى بذكره فكانه * متنفس عن روضة معطار
بطل حوى الفلك المحيط بسرجه * واستل صارمه يد المقدار
بيمينه يوم الوغى وشماله * ماشاء من نار ومن اعصار
والشمس خمر والجياد عرائس * والجو كاس والسيوف عواري
والخيل تعثر في شباشوك القنا * قصدا وتسبح في الدم الموار
والبيض تجني في الطلى فكانما * تلوي عرامنها على أزرار
والنقع يكسر من سني شمس الضحى * فكانه صدأ على دينار

صحب الحسام النصر صحبة غبطة * فى كف صوّال به سوّار
لو أنه أوحى اليه بنظرة * يوما الشار ولم ينم عن ثار
وقضى وقد ملكته هزة عزة * تحت العجاج وضحكة استبشار

وقال رحمه الله تعالى

وأراكة ضربت سماء فوقنا * تندى وأفلاك الكؤس تدار
حفت بدوحتها مجرة جدول * نثرت عليه نجومها الازهار
وكأنها وكأن جدول مائها * حسناء شد بخصرها زنار
زف الزجاج بها عروس مدامة * تجلى ونوار الغصون نثار
فى روضة جنح الدجى ظل بها * وتجسمت نورا بها الانوار
غناء ينشر وشيه البزاز لى * فيها ويفتق مسكه العطار
قام الغناء بها وقد نضح الندى * وجه الثرى واستيقظ النوّار
والماء فى حلى الحباء مقلد * زرت عليه جيوبها الاشجار

وقال ملتزما ما لا يلزم

خذها اليك وانها لنظيرة * طرأت اليك قليلة النظراء
جاءت وحسبك بهجة من نفحة * عبق العروس وخجلة العذراء
من كل وارسة القميص كأنما * نشأت تعل بريقة الصفراء
بخجمت يروق بها نجوما حسنها * بالايكة الخضراء من خضراء
وأتتك تسفر عن وجوه طلقة * وتنوب من لطف عن الشعراء
يندى بها وجه الندى ولربما * بسطت هنالك أوجه السرّاء
فاستضحكت وجه الدجى مقطوعة * جلت جمال الغرّة الغرّاء

وقال أيضا

وصدر نادنظمنا * له القوا فى عقدا
فى منزل قد حجبنا * بظله العز بردا
تذكو به الشهب جرا * ويعبق الليل ندّا
وقد تأرّج نور * غض يخالط وردا
كما تنفس ثغر * عذب يقبل خدّا

وقال من قصيدة يصف منتزها

يارب وضاح الجبين كأنما * رسم العذار بصفحتيه كتاب
تغرى بطلعته العيون مهابة * وتبيت تعشق عقله الالباب
خلعت عليه من الصباح غلالة * تندى ومن شفق السماء نقاب
فكرعت من ماء الصبا فى منهل * قد شف عنه من القميص سراب
فى حيث للريح الرخاء تنفس * أرج وللماء الفرات عباب
ولرب غض الجسم متجوضه * سبحا كما شق السماء شهاب

ولقد أنخت بشاطئيه يزفني * طرباً شباب رائق وشراب
وبكيت دجلته يضاحكني بها * من حبيب شائق وحباب
تجلى من الدنيا عروس بيننا * حسناء ترشف والمدام رضاب
ثم ارتحلت وللنهار ذؤابة * شيباء تخضب والنهار خضاب
تلوى معاطفي الصبابة والصبا * والليل دون الكاشحين حجاب

وقال

مر بنا وهو بدر تم * يسحب من ذيله سحابا
بقامة تثني قضيبا * وغرة تلتظي شهابا
يقرأ والليل مدلهم * لنور اجلائه كتابا
ورب ليل سهرت فيه * أزجر من جنحه نكابا
حتى اذا الليل مال سكرا * وشق سرباله وجابا
وحام من سدفه غراب * طالت به سنه فشابا
ازددت من لوعتي خبالا * خفت من غلتي شرابا
وما خطا قادما فواقي * حتى انثنى نا كصافا آبا
وبين جفني بحر شوق * يعب في وجنتي عبابا
قد شب في وجهه شعاع * وشب عن قلبي التهابا
وروضة طلقة حياء * غناء مخضرة جنابا
ينجاب عن نورها كمام * يحط عن وجهه نقابا
بات بهامبسم الاقاحي * يرشف من طلها رضابا
ومن خفوق البروق فيها * ألوية حمرت خضابا
كأنها أنمل وراد * تحصر قطرا لحيا حسابا

وله

رحلت عنكم ولي فؤاد * تنفض اضلاعه حنينا
أجود فيكم بعلق دمع * كنت به قبلكم ضنينا
يثور في وجنتي جيشا * وكان في جفنه كمينا
كأنني بعدكم شمال * قد فارقت منكم يمينا

وقال

فيا لشجا قلب من الصبر فارغ * ويا لقذى طرف من الدمع ملآن
ونفس الى جو الكنيسة صبة * وقلب الى أفق الجزيرة حنان
تعوضت من واها بآه ومن هوى * بهون ومن اخوان صدق بخوان
وما كل بيضاء بروق بشحمة * وما كل مرعى ترتعيه بسعدان
فيا ليت شعرى هل لدهرى عطفة * فتجمع أوطارى علي وأوطانى
ميادين أوطارى ولذة لذتى * ومنشأ تهيامي وملعب غزلاني

كأن لم يصلني فيه ظبي يقوم لي * لماه وصدغاه براحي وريحاني
فسقيا لوادييم وان كنت انما * أبيت لذكراه بغلة ظمآن
فكم يوم لهو قد أدرنا بأفقه * نجوم كؤس بين أقمار ندمان
وللقضب والاطيار ملهى بجرعة * فما شئت من رقص على رجع ألحان
وبالحضرة الغراء غر علقته * فأحييت حبا فيه قضبان نعمان
رقيق الحواشي في محاسن وجهه * ومنطقه مسلي قلوب وآذان
اغار بخديه على الورد كلما * بدا ولعطفيه على الغصن البان
وهبني أجني ورد خديه ناظري * فمن أين لي منه بتفاح لبنان
يعللني منه بوعد وشفة * خيال له يغري بمطل وليان
حبيب عليه جنة من صوارم * علاها حباب من أسنة مران
تراءى لنا في مثل صورة يوسف * تراءى لنا في مثل ملك سليمان
طوى برده منها صحيفة فتنة * قرأنا الهامن وجهه سطر عنوان
محبته ديني ومثواه كعبتي * ورؤيته حجي وذكراه قرآني

وقال

وليل تعاطينا المدام وبيننا * حديث كما هب النسيم على الورد
نعاوده والكاس يعبق نفحه * وأطيب منها ما نعيد وما نبدي
ونقلي اقاح الثغر أو سوسن الطلي * ونرجسة الاجفان أو وردة الخد
الى أن سرت في جسمه الكاس والكرى * ومالا بعطفيه فمال على عضدي
فأقبلت استهدي لما بين أضلعي * من الحر ما بين الضلوع من البرد
وعاينته قد سل من وشي برده * فعاينت منه السيف سل من الغمد
لبان مجس واستقامة قامة * وهزة أعطاف ورونق افرند
أغازل منه الغصن في مغرس النقا * وألثم وجه الشمس في مطلع السعد
فان لم يكنها أو تكنه فانه * أخوها كما قد الشراك من الجلد
تسافر كفاي راحتي بجسمه * فطورا الى خصر وطورا الى نهد
فتهبط من كشحيه كفي تهامة * وتصعد من نهديه أخرى الى نجد

وقال أيضا

ورداء ليل بات فيه معانقي * طيف ألم بظبية الوعساء
فجمعت بين رضابه وشرابه * وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة * شفقا هنالك لوجنة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة * خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم انثني والصبح يسحب فرعه * ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيها الخوانة أجرع * قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس في أثوابه ريحانة * كرعت على ظما بجدول ماء
تفاحة الانفاس الا انها * حذر الندى خفاقة الافياء

فلويت معطفها اعتنا قاحسبنا * فيه بقطر الدمع من أنواء انتهى

(وكان المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى) كثيرا ما ينتاب وادى الطلح مع زملته وأولى أنسه ومسرته وهو واد بشرق اشبيلية ملتف الاشجار كثير ترنم الاطيار وفيه يقول نور الدين بن سعيد

سائل بوادى الطلح ريح الصبا * هل سحرت لى من زمان الصبا
كانت رسولا فيه ما بيننا * لن نامن الرسل ولن نكتبا
يا قاتل الله أناسا اذا * ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا
هلا رعوا أنا وثقنا بهم * وما اتخذنا عنهم مذهبا
يا قاتل الله الذى لم يتب * من غدرهم من بعد ما جربا
و اليم لا يعرف ما طعمه * الا الذى وافى لان يشربا
دعنى من ذكر الوشاة الالى * لما يزل فكرى بهم ملهبا
واذكر بوادى الطلح عهدا لنا * لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الاغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين ألحانها * و ليس الا معجبا مطربا
وخانق من لا أسميه من * شح أخاف الدهر أن يسلبا
قد أترع الكاس وحيابها * وقلت أهلا بالمنى مرحبا
أهلا وسهلا بالذى شئته * يا بدر تم مهديا كوكبا
لكننى آليت أسقى بها * أو تودعها ثغرك الاشنبا
فمج لى فى الكاس من ثغره * ما حبب الشرب وما طيبا
وقال ها الثمى نقلا ولا * تشم الاعطر فى الاطيبا
واقطف بخدى الورد والآس والنسرين لا تحفل بزهر الربا
أسعفته غصنا غدا مثمرا * ومن جناه ميسه قربا
قد كنت ذا نهى وذا امرة * حتى تبدى فخلت الحبا
ولم أصن عرضى فى حبه * ولم أطع فيه الذى أنبا
حتى اذا ما قال لى حاسد * ترجوه والكوكب أن يغربا
أرسلت من شعرى سحرا له * ييسر المرغب والمطلبا
وقال عرفه بأنى سأحتال فما اجتنب المكتبا
فزاد فى شوقى له وعده * ولم أزل معتقدا مرقبا
أمد طرفى ثم أثنيه من * خوف أخى التنغيص أن يرقبا
أصدق الوعد وطورا أرى * تكذيبه والحر لن يكذبا
انى ومن سحره بعدما * أيأس بطء كاد أن يغضبا
قبلت فى الترب ولم أستطع * من حصر اللقيا سوى مرحبا
هنأت ربعى اذ غدا هالة * وقلت يا من لم يضع أشعبا

يا لله مل معتنقا لاغبا * فمال كالغصن ثنته الصبا
فقال ما ترغب قلت اتئد * أدركت اذ كلمتني المرغبا
فقال لا مرغب عن ذكرها * ترغبه قلت اذن مرحبا
وكان ما كان فوالله ما * ذكرته دهري أو أغلبا

وستأتي هذه القصيدة بكمالها في جملة من نظم ابن سعيد المذكور * وقال يتشوق الى اشبيلية وهي حمص الاندلس

أترى الخليج وغنت الورقاء * هل برحا اذ هاجت البرحاء
أنا منكما أولى بحلية عاشق * أفني وما غنت بي الصعداء
أخشى الوشاة فما أفوه بلفظة * والكتم عند العاشقين عناء
لولا تشوق أرض حمص ما جرى * دمعي ولا شمتت بي الاعداء
لم أستطع كتماله فكأنني * ما كان لي كتم ولا اخفاء
والبدر مهما رام كتما من سرى * فيه ينم على سراه ضياء
بلد متى يخطر له ذكرها * قلبي وخان تصبر وعزاء
من بعده ما الصبح يشرق نوره * عندي ولا تتبدل الظلماء
كم لي به من ذي وفاء لم يخن * عهدي ويقوى بالوداد وفاء
فتراه اذ ما مر ذكرى سائلا * عن حالتي ان قلت الانباء
يمسي ويصبح في تذكر مدة * يرضى بها الاصباح والامساء
مع كل مبذول الوصال ممنع * من غيرنا تسمو به الخيلاء
كالظبي كالشمس المنيرة كالنقا * كالغصن يثني معطفيه رخاء
يسعى براح كالشهاب براحة * كالبدر والوجه المنير ذكاء
ما لان تحت الوصل حتى طال منـ * ـه الهجر واتصلت به البلواء
خير المحبة ما أتت عن قلى * تدري ببؤس الفاقة النعماء
مازلت أرقى بالقريض جنونه * حتى استكان وكان منه اباء
فظفرت منه بمدة لو أنها * دامت لدامت لي بها السراء
صفو تكدر بالتحرك ليته * ما زال لكن لا يرد قضاء
ان الفراق هو المنية انما * أهل النوى ماتوا وهم أحياء
لولا تذكر لذة طابت لنا * بذرى الجزيرة حيث طاب هواء
وجرى النسيم على الخليج معطرا * وتبددت في الدوحة الانداء
ما كابدت نفسي أليم تفكر * ألوى به عن جفني الاغفاء
يا نهر حمص لا عدتك مسرة * ماء يسيل لديك أم صهباء
كل النفوس تهش فيك كأنما * جمعت عليك شتاتها الاهواء
ودي اليك مع الزمان مجدد * ما ان يحول تذكر وعناء
ولو انني لم أحي ذكرا للذي * أوليته ما كان في حياء
ما كنت أطمع في الحياة لو انني * أيقنت أن لا يسترد لقاء

غيرى اذا ما بان حان وانما * أبقى حياتى حين بان رجاء

وسيأتى ان شاء الله تعالى لهذا النمط وغيره مزيد أثناء الكتاب بحسب ما اقتضته المناسبة والله تعالى المرجو فى حسن المتاب وهو سبحانه لا اله الا هو الموفق للصواب

(الباب الخامس)

فى التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ومدح جماعة من أولئك الاعلام ذوى العقول الراجحة والاحلام لشامة وجنة الارض دمشق الشام وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوى السودد والاحتشام ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حلها سنة ألف وسبعة وثلاثين للهجرة وشاهد برق فضلها المبين وشام

*(اعلم جعلنى الله تعالى واياك) ممن له للمذهب الحق اتصال أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الاحاطة الا علام الغيوب الشديد المحال ولو أطلقنا عنان الاقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الاعلام لطال الكتاب وكثر الكلام ولكنا نذكر منهم لمعا على وجه التوسط من غير اطناب داع الى الملال واختصار مؤذ للملام فنقول مستمدين من واهب العقول * (منهم عالم الاندلس عبد الملك ابن حبيب السلمى) وقد عرف به القاضى عياض فى المدارك وغير واحد ورأيت فى بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفا ومن أشهرها كتاب الواضحة فى مذهب مالك كتاب كبير مفيد ولابن حبيب مذهب فى كتب المالكية مسطور وهو مشهور عند علماء المشرق وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما ومن نظمه يخاطب سلطان الاندلس

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا * واذكره لا زلت فى التاريخ مذكورا

قال النبى صلاة الله تشمله * قولا وجدنا عليه الحق والنورا

فيمن يوسع فى انفاق موسمه * أن لا يزال بذاك العام ميسورا

وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن اذ طال عهدى به والله تعالى أعلم * وقال الفتح فى المطمح الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمى أى شرف لاهل الاندلس وأى مفخر وأى بحر بالعلوم يزخر خلدت منه الاندلس فقيها عالما أعاد مجاهل أهلها معالما وأقام فيها للعلوم أسواقا نافقه ونشر منها ألوية خافقه وجلا عن الالباب صدأ الكسل وشحذ بها شحذ الصوارم والاسل وتصرف فى فنون العلوم وعرف كل معلوم وسمع بالاندلس وتفقه حتى صار أعلم من بها وأفقه ولقى أنجاب مالك وسلك فى مناظرتهم أوعر المسالك حتى أجمع عليه الاتفاق ووقع على تفضيله الاصفاق ويقال انه لقى مالكا آخر عمره وروى عنه عن سعيد بن المسيب ان سليمان بن داود صلى الله عليهما وسلم كان يركب الى بيت المقدس فيتغدى به ثم يعود فيتعشى باصطخر وله فى الفقه كتاب الواضحة ومن أحاديثه غرائب قد تحلت بها للزمان نحور وترائب * (وقال محمد بن لبابة) فقيه الاندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب وراويها يحيى بن يحيى وكان عبد

الملك قد جمع الى علم الفقه والحديث علم اللغة والاعراب وتصرّف فى فنون الآداب وكان له شعر يتكلم به متحيرا وسرى ينبوعه بذلك متفجرا وتوفى بالاندلس فى رمضان سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعدما جال فى الارض وقطع طولها والعرض وجال فى أكنافها وانتهى الى أطرافها ومن شعره قوله

قد طاح أمرى والذى أبتغى * هين على الرحمن فى قدرته
ألف من الحمر وأقلل بها * لعالم أربى على بغيته
زرياب قد أعطيها جملة * وحرفتى أشرف من حرفته

وكتب الى الزجاجى رسالة وصلها بهذه الابيات

كيف يطيق الشعر من أصبحت * حالته اليوم كحال الغرق
والشعر لايسلس الاعلى * فراغ قلب واتساع الخلق
فاقنع بهذا القول من شاعر * يرضى من الحظ بأدنى العنق
فضلك قد بان عليه كما * بان لاهل الارض ضوء الشفق
أما ذمام الود منى لكم * فهو من المحتوم فيما سبق

ولم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من معتله ويفرق مستقيمه من مختله وكان غرضه الاجازه وأكثر رواياته غير مستجازه قال ابن وضاح قال ابراهيم بن المنذر أتى صاحبكم الاندلسى يعنى عبد الملك هذا بغرارة مملوءة فقال لى هذا علمك قلت له نعم ماقرأ على منه حرفا ولا قرأته عليه وحكى انه قال فى دخوله المشرق وحضر مجلس بعض الاكابر فازدراه من رآه

لاتنظرن الى جسمى وقلته * وانظر لصدرى ومايحوى من السنن
فرب ذى منظر من غير معرفة * ورب من تزدريه العين ذو فطن
ورب لؤلؤة فى عين مزبلة * لم يلق بال لها الا الى زمن

انتهى مافى المطمح الصغير * قلت أما ماذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مسلم وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين نعم لاهل الاندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين حتى ان فى شفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النقاد مخرجها مع اعترافهم بجلالة حفاظ الاندلس الذين نقلوها كبقى بن مخلد وابن حبيب وغيرهما على ماهو معلوم * وأما ماذكره عنه بالاجازة بما فى الغرارة فذلك على مذهب من يرى الاجازه وهو مذهب مستفيض واعتراض من اعترض عليه انما هو بناء على القول بمنع الاجازه فاعلم ذلك والله سبحانه الموفق *(ومن الراحلين)* من الاندلس الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثى راوى الموطا عن مالك رضى الله تعالى عنه ويقال ان أصله من برابر مصمودة وحكى انه لما ارتحل الى مالك ولازمه فبينما هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه اذ قال قائل حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيى فقال له مالك مالك لم تخرج وليس الفيل فى بلادك فقال انما جئت من الاندلس لانظر اليك وأتعلم من هديك وعلمك ولم أجئ لانظر الى الفيل فاعجب به مالك وقال هذا عاقل الاندلس

ولذلك قيل ان يحيى هذا عاقل الاندلس وعيسى بن دينار فقيهها وعبد الملك بن حبيب عالمها ويقال ان يحيى راويها ومحدثها وتوفى يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ فى رجب وقبره يستسقى به بقرطبة وقيل ان وفاته فى السنة التى قبلها والله تعالى أعلم وروايته الموطأ مشهورة حتى ان أهل المشرق الآن يسندون الموطأ من روايته كثيرا مع تعدد رواة الموطا والله أعلم * وكان يحيى بن يحيى روى الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشطون وسمع من يحيى بن مضر القيسى الاندلسى ثم ارتحل الى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب فى كتاب الاعتكاف شك فى سماعها فأثبت روايته فيها عن زياد وذلك مما يدل على ورعه وسمع بمصر من الليث بن سعد وبمكة من سفيان بن عيينة وتفقه بالمدنيين والمصريين كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم العتقى وسمع منهما وهما من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته له وانتهت اليه الرياسة بالاندلس وبه اشتهر مذهب مالك فى تلك الديار وتفقه به جماعة لا يحصون عددا وروى عنه خلق كثير وأشهر رواة الموطا وأحسنهم رواية يحيى المذكور وكان مع أمانته ودينه معظما عند الامراء يكنى عندهم عفيفا عن الولايات متنزها جلت رتبته عن القضاء وكان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الامر بالاندلس لزهده فى القضاء وامتناعه قال الحافظ ابن حزم مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبى حنيفة فانه لما ولى القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية فكان لا يولى الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ومذهب مالك عندنا بالاندلس فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة وكان لا يلى قاض فى أقطار الاندلس الا بمشورته واختياره ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به على ان يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم انتهى * وذكرنا فى غير هذا الموضع قولا آخر فى سبب انتشار مذهب مالك بالاندلس والله سبحانه أعلم بحقيقة الامر وقال ابن أبى الفياض جمع الامير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء فى قصره وكان وقع على جارية يحبها فى رمضان ثم ندم أشد ندم فسألهم عن التوبة والكفارة فقال يحيى تكفر بصوم شهرين متتابعين فلما بادر يحيى بهذا الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا فقال بعضهم له لم لم تفت بمذهب مالك بالتخيير فقال لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ولكن حملته على أصعب الامور لئلا يعود وقال بعض المالكية ان يحيى ورى بهذا ورأى انه لم يملك شيئا اذ هو مستغرق الذمة فلا عتق له ولا اطعام فلم يبق الا الصيام انتهى ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل الى مصر رأى ابن القاسم يدون سماعه من مالك فنشط للرجوع الى مالك ليسمع منه المسائل التى رأى ابن القاسم يدونها فرحل رحلة ثانية فالفى مالكا عليلا فأقام عنده الى أن مات وحضر جنازته فعاد الى ابن القاسم وسمع منه سماعه من مالك هكذا ذكره ابن الفرضى فى تاريخه وهو مما يرد الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكا عن زكاة التين

قوله بشطون فى نسخة بسبطون اه

فقال لا زكاة فيها فقال انها تدخر عندنا وندران وصل الى الاندلس أن يرسل لمالك سفينة مملوءة تمرا فلما وصل أرسلها فاذا مالك قد مات انتهى * قال ابن القرضي ولما انصرف يحيى الى الاندلس كان امام وقته وواحد بلاده وكان ممن اتهم بالهيج في وقعة الربض المشهورة ففر الى طليطلة ثم استأمن فكتب له الامير الحكم أمانا وانصرف الى قرطبة وقيل لم يعط أحد من أهل الاندلس منذ دخلها الاسلام ما أعطي يحيى من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر * وقال ابن بشكوال ان يحيى بن يحيى كان مجاب الدعوة وانه أخذ في سمته وهيئته ونفسه ومقعده هيآت مالك ويحكى عنه أنه قال أخذت بركاب الليث بن سعد فأراد غلامه أن يمنعني فقال دعه ثم قال لي الليث خدمك العلم فلم تزل بي الايام حتى رأيت مالكا انتهى

* (ومنهم) القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى قال في المطمح من بني يحيى بن يحيى الليثي وهذه ثنية علم وعقل وصحة ضبط ونقل كان علم الاندلس وعالمها المدرس ولي القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها الى المشرق وجمع فيها من الروايات والسماع كل مفترق وجال في آفاق ذلك الافق لا يستقر في بلد ولا يستوطن في جلد ثم كر الى الاندلس فسمت رتبته وتحلت بالامالي لبته وتصرف في ولايات أحمد فيها منابه واتصلت بسببها بالخليفة أسبابه وولاه القضاء بقرطبة فتولاه بسياسة محمودة ورياسة في الدين مبرقة القوى مجهودة والتزم فيها الصرامة في تنفيذ الحقوق والجزامة في اقامة الحدود والكشف عن البيان في السر والصدع بالحق في الجهر لم يستهله مخادع ولم يكده مخاتل ولم يهب ذا حرمة ولا داهن ذا مرتبة ولا أغضى لاحد من أرباب السلطان وأهله حتى تحاموا حدة جانبه فلم يجسر أحد منهم عليه وكان له نصيب وافر من الادب وحظ من البلاغة اذا نظم واذا كتب ومن ملح شعره ما قاله عند أوبته من غربته

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة * اذا كان من بعد الفراق تلاق
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي * ولم تمر كف الشوق ماء ماقي
ولم أزر الاعراب في جنب أرضهم * بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى * وكأس سقاها في الازاهر ساق

وله أيضا

ماذا أكابد من ورق مغردة * على قضيب بذات الجذع مياس
رددن شجوا شجي قلب الخلي فهل * في عبرة ذرفت في الحب من باس
ذكرنه الزمن الماضي بقرطبة * بين الاحبة في أمن وايناس
هم الصبابة لولا همة شرفت * فصيرت قلبه كالجندل القاسي

وله أخبار تدل على رقة العراق والتغذي بماء تلك الآفاق * فمنها انه خرج الى حضور جنازة بمقابر قريش ورجل من بني جابر كان يواخيه له منزل فعزم عليه في الميل اليه وعلى أخيه فنزل عليه فأحضر لهما طعاما وأمر جارية له بالغناء فغنت

طابت بطيب لثاتك الاقداح * وزهت بحمرة خدك التفاح
واذا الربيع تنسمت أرواحه * طابت بطيب نسيمك الارواح

واذا الحنادس ألبست ظلماءها * فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضى فى ظهريده وخرج من عنده قال يونس بن عبد الله فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والابيات مكتوبة على ظهر كفه وكان رحمه الله تعالى فى غاية اللطف حكى بعض اصحابه قال ركبنا معه فى موكب حافل من وجوه الناس اذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الازقة سكران يتمايل فلما رأى القاضى هابه وأراد الانصراف فخانته رجلاه فاستند الى الحائط وأطرق فلما قرب القاضى رفع رأسه وأنشأ يقول

ألا أيها القاضى الذى عم عدله * فأضحى به بين الانام فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة * فلم أر فيه للشراب حدودا
فان شئت جلدا فدونك منكبا * صبورا على ريب الزمان جليدا
وان شئت أن تعفو تكن لك منة * تروح بها فى العالمين حميدا
وان أنت تختار الحديد فان لى * لسانا على هجو الزمان حديدا

فلما سمع شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الانكار عليه ومضى لشأنه انتهى ملخصا من المطمح * ورأيت بخطى فى بعض مسوداتى ما صورته محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثى قاضى الجماعة بقرطبة سمع عم أبيه عبد الله بن يحيى ومحمد بن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ورحل من قرطبة سنة ٣١٣ ودخل مصر وحج وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلى وابن الاعرابى ومعانى الشعر شاعرا مطبوعا وشاوره القاضى أحمد بن بقى واستقضاه الناصر عبد الرحمن بن محمد على البيرة وبجانة ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبى طالب سنة ٣٢٤ وجمعت له مع القضاء الصلاة وكان كثيرا ما يخرج الى الثغور ويتصرف فى اصلاح ما وهى منها فاعتل فى آخر خرجاته ومات فى بعض الحصون المجاورة لطليطلة سنة ٣٢٧ ومولده سنة ٢٨٤ انتهى وأظن انى نقلته من كتاب ابن الابار الحافظ والله أعلم * (ومنهم) عتيق بن أحمد بن عبد الباقى الاندلسى الدمشقى وفاة يكنى أبا بكر نزيل دمشق كان مشهورا بالصلاح وانتفع به جماعة من الفقراء وولد على ما قيل سنة ٥١٦ وتوفى سنة ٦١٤ بدمشق ودفن بمقابر الصوفية فيكون عمره على هذا مائة سنة رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله * (ومنهم) أبو ابراهيم اسمعيل بن محمد بن يوسف الانصارى الاندلسى الابذى الملقب فى البلاد المشرقية ببرهان الدين وأبذة بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وفتحها وبعدها ذال معجمة بلد بالاندلس سمع المذكور بمكة وغيرها من البلاد وبدمشق من الحافظ ابن طبرزد وأم بالصخرة وكان فاضلا صالحا شاعرا توفى سنة ٦٥٦ وأخبر عن بعض الاولياء المجاورين بيت المقدس انه سمع هاتفا يقول لما خرب القدس

ان يكن بالشام قل تصبرى * ثم خربت واستمز هالوكى
فلقد أثبت الغداة خرابى * سمر العارفى حياة الملوكى

هكذا رأيته بخط الصفدى فى حياة ويحتمل أن يكون فى جباه جمع جبهة والله أعلم * (ومنهم) القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة وقد قدمنا جملة من

قوله سنة ٣٢٧ فى نسخة ٣٧٣ وقوله سنة ٣٨٤ فى نسخة ٢٧٤ اه

أخباره فى الباب الثالث والرابع من هذا القسم وكان لايخاف فى الله لومة لائم ومن مشهور ماجرى له فى ذلك قصته فى أيتام أخى نجدة وحدث بها جماعة من أهل العلم والرواية وهى ان الخليفة الناصر احتاج الى شراء دار من قرطبة لحظية من نسائه تكرم عليه فوقع استحسانه على دار كانت لاولاد زكريا أخى نجدة وكانت بقرب النشارين فى الربض الشرقى منفصلة عن دوره ويتصل بها حمام له غلة واسعة وكان أولاد زكريا أخى نجدة أيتاما فى حجر القاضى فأرسل الخليفة من قومها له بعدد ماطابت نفسه وأرسل ناسا أمرهم بمداخلة وصى الايتام فى بيعها عليهم فذكر أنه لايجوز الا بأمر القاضى اذ لم يجز بيع الاصل الا عن رأيه ومشورته فأرسل الخليفة الى القاضى منذر فى بيع هذه الدار فقال لرسوله البيع على الايتام لايصح الا لوجوه منها الحاجة ومنها الوهى الشديد ومنها الغبطة فأما الحاجة فلا حاجة بهذه الايتام الى البيع وأما الوهى فليس فيها وأما الغبطة فهذا مكانها فان أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع والا فلا فنقل جوابه الى الخليفة فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعا أن يتوخى رغبته فيها وخاف القاضى أن تنبعث منه عزيمة تلحق الايتام ثورتها فأمر وصى الايتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ففعل ذلك وباع الانقاض فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان فاتصل الخبر به فعز عليه خرابها وأمر بتوقيف الوصى على ما أحدثه فيها فأحال الوصى على القاضى انه أمره بذلك فأرسل عند ذلك للقاضى منذر وقال له أنت أمرت بنقض دار أخى نجدة فقال له نعم فقال وما دعاك الى ذلك قال أخذت فيها بقول الله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا مقوموك لم يقوموها الا بكذا وبذلك تعلق وهمك فقد نض فى أنقاضها أكثر من ذلك وبقيت القاعة والحمام فضل ونظر الله تعالى للايتام فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك وقال نحن أولى من انقاد الى الحق فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا قالوا وكان على متانته وجزالته حسن الخلق كثير الدعابة فربما ساء ظن من لايعرفه حتى اذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثارله ثورة الاسد الضارى فمن ذلك ما حدث به سعيد ابنه قال قعدنا ليلة من ليالى شهر رمضان المعظم مع أبينا للافطار بداره البرانية فاذا سائل يقول أطعمونى من عشائكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة هذه الليلة ويكثر من ذلك فقال القاضى ان استجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا احد وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهنى انه ركب يوما لحيازة أرض محبسة فى ركب من وجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو ابراهيم اللؤلؤى ونظراؤه قال فسرنا نقفوه وهو أمامنا وأمامه أمناؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار وكانت القضاة حينئذ لاتراكب ولاتماشى فعرض له فى بعض الطريق كلاب مع مستوحة والكلاب تلعق هنها وتدور حوالها فوقف وصرف وجهه الينا وقال ترون يا أصحابنا ما أبر الكلاب بالهن الذى تلعقه وتكرمه ونحن لانفعل ذلك ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا وبقينا متعجبين من هزله وحضر عند الحكم المستنصر بالله يوما فى خلدة له فى بستان الزهراء على بركة ماء

طائفة وسط روضة نافحة في يوم شديد الوهج وذلك اثر منصرفه من صلاة الجمعة فشكا الى الخليفة من وهج الحر الجهد وبث منه ما تجاوز الحد فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن جسمه ففعل ولم يلطف ذلك ما به فقال له الصواب أن تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك وليس مع الخليفة الا الحاجب جعفر الخادم الصقلي أمين الخليفة الحكم لا رابع لهم فكانه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقارا وأقصر عنه اقصارا فأمر الخليفة حاجبه جعفرا بسبقه الى النزول في الصهريج ليسهل عليه الامر فيه فبادر جعفر لذلك وألقى نفسه في الصهريج وكان يحسن السباحة فجعل يجول يمينا وشمالا فلم يسع القاضي الا انفاذ أمر الخليفة فقام وألقى بنفسه خلف جعفر ولاذ بالقعود في درج الصهريج وتدرج فيه بعض تدريج ولم ينبسط في السباحة وجعفر يمر مصعدا ومصوبا فقدسه الحكم على القاضي وحمله على مساجلته في العوم وهو يعجزه في اخلاده الى القعود ويعابثه بالقاء الماء عليه والاشارة بالجذب اليه وهو لا ينبعث معه ولا يفارق موضعه الى ان كلمه الحكم وقال له مالك لا تساعد الحاجب في فعله وتتقبل صنعه فمن أجلك نزل وبسببك تبذل فقال له يا سيدي يا أمير المؤمنين الحاجب سلمه الله تعالى لا هوجل معه واغا هذا الهوجل الذي معي يعقلني ويمنعني من أن أجول معه مجاله يعني ان الحاجب خصي لا هوجل معه والهوجل الذكر فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر وخجل جعفر من قوله وسبه سب الاشراف وخرجا من الماء وأمر لهما الخليفة بخلع ووصلهما بصلات سنية تشاكل كل واحد منهما * وحكي ان الخليفة الحكم قال له يوما لقد بلغني أنك لا تجتهد للايتام وأنك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم قال نعم وان أمكنهم نيك أمهاتهم لم يعفوا عنهن قال وكيف تقدم مثل هؤلاء قال لست أجد غيرهم ولكن أحلفي على اللؤلؤي وأبي ابراهيم ومثل هؤلاء فان أبوا أجبرتهم بالسوط والسجن ثم لا تسمع الا خيرا وقال القاضي منذر أتيت وأبو جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر يملي في اخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول

خليلي هل بالشام عين حزينة * تبكي على نجد لعلي أعينها

قد أسلمها الباكون الا حمامة * مطوقة باتت وبات قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة * يكاد يدنيها من الارض لينها

فقلت له يا أبا جعفر ماذا أعزك الله تعالى باتا يصنعان فقال لي وكيف تقول أنت يا أندلسي فقلت له بانت وبان قرينها فسكت ومازال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين وكنت ذهبت الى الانتساخ من نسخته فلما قطع بي قيل لي أين أنت من أبي العباس بن ولاد فقصدته فلقيت رجلا كامل العلم حسن المروءة فسألته الكتاب فأخرجه الي ثم ندم أبو جعفر لما بلغه اباحة أبي العباس الكتاب الي وعاد الى ما كنت أعرفه منه * قال وكان أبو جعفر لئيم النفس شديد التقتير على نفسه وربما وهبت له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم وكان يأبى شراء حوائجه بنفسه ويتحامل فيها على أهل معرفته انتهى وأبو جعفر هذا يقال ان تواليفه تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب واعراب القرآن

معانى القرآن وشرح أبيات الكتاب وغير ذلك * (رجع) * وقال منذر بن سعيد كتبت الى أبى على البغدادى أستعير منه كتابا من الغريب وقلت

بحق ريم مهفهف * وصدغه المتعطف
ابعث الى بجزء * من الغريب المصنف

فقضى حاجتى وأجاب بقوله

وحق در تألف * بفيك أى تألف
لابعثن بما قد * حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسى * اليك ما كنت أسرف

فرحم الله تعالى تلك الارواح الطاهرة * (وذكر) ابن اصبغ الهمدانى عن منذر أنه خطب يوما وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال حتى متى والى متى أعظ ولا أتعظ وأزجر ولا أنزجر أدل الطريق الى المستدلين وأبقى مقيما مع الحائرين كلا ان هذا لهو البلاء المبين ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء الآية اللهم فرغنى لما خلقتنى له ولا تشغلنى بما تكفلت لى به ولا تحرمنى وأنا أسألك ولا تعذبنى وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين * وسمع منذر بالاندلس من عبيد الله بن يحيى بن يحيى ونظرائه ثم رحل حاجا سنة ثمان وثلثمائة فاجتمع بعدة أعلام وظهرت فضائله بالمشرق وممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابورى سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء المسمى بالاشراف * وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبى العباس بن ولاد * وروى عن أبى جعفر بن النحاس * وكان منذر متفننا فى ضروب العلوم وغلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الاصبهانى المعروف بالظاهرى فكان منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه ويحتج لمقالته ويأخذ به فى نفسه وذويه فاذا جلس للحكومة قضى بمذهب الامام مالك وأصحابه وهو الذى عليه العمل بالاندلس وحمل السلطان أهل مملكته عليه وكان خطيبا بليغا عالما بالجدل حاذقا فيه شديد العارضة حاضر الجواب عتيده ثابت الحجة ذا شارة عجيبة ومنظر جميل وخلق حميد وتواضع لاهل الطلب وانحطاط اليهم واقبال عليهم وكان مع وقاره التام فيه دعابة مستملحة وله نوادر مستحسنة وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ولبث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر الى وفاته ثم للخليفة الحكم المستنصر الى أن توفى رحمه الله تعالى عقب ذى القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبر عنه فى المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاما كاملة لم يحفظ عليه فيها جور فى قضية ولا قسم بغير سوية ولا ميل لهوى ولا اصغاء الى عناية رحمه الله تعالى ورضى عنه ودفن بمقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة أعادها الله تعالى جوفى مسجد السيدة الكبرى بقرب داره * وله رحمه الله تعالى تواليف مفيدة منها كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك فى الفقه والكلام فى الرد على أهل المذاهب تغمده الله تعالى برضوانه وكتب بعض الادباء الى القاضى منذر بقوله

مسئلة جئتك مستفتيا * عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا * وأوجه العشاق فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله

احمر وجه الظبي اذ لحظه * سيف على العشاق فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى * والشمس تبقى للمغيب اصفرار

*(وممن رحل الى المشرق من الاندلس فشهد له بالسبق كل أهل المغرب والشرق) الامام العلامة أبو القاسم الشاطبي صاحب حرز الاماني والعقيلة وغيرهما * وهو أبو القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي المقرى الفقيه الحافظ الضرير أحد العلماء المشهورين والفضلاء المشكورين خطب ببلده شاطبة مع صغر سنه ودخل الديار المصرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وحضر عند الحافظ السلفي وابن برى وغيرهما وولد بشاطبة آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وتوفى بالقاهرة يوم الاحد الثامن والعشرين وقيل الثامن عشر من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة بعد العصر ودفن من الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطم * وحكى أن الامير عز الدين موسك الذى كان والد ابن الحاجب حاجباله بعث الى الشيخ الشاطبي يدعوه الى الحضور عنده فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب اليه

قل للامير مقالة * من ناصح فطن نبيه
ان الفقيه اذا أتى * أبوابكم لا خير فيه

ومن نظمه رحمه الله تعالى

خالقت أبناء الزمان فلم أجد * من لم أرم منه ارتياد ى مخلصى
ردّ الشباب وقد مضى لسبيله * أهيا وأمكن من صديق مخلص

وكان رحمه الله تعالى قرأ بشاطبة القرا آت وأتقنها على النفرى ثم انتقل الى بلنسية فقرأ بها التيسير من حفظه على ابن هذيل وسمع الحديث منه ومن ابن النعمة وابن سعادة وابن عبد الرحيم وغيرهم وارتحل الى المشرق فاستوطن القاهرة واشتهر اسمه وبعد صيته وقصده الطلبة من النواحى وكان اماما علامة ذكيا كثير الفنون منقطع القرين رأسا فى القرا آت حافظا للحديث بصيرا بالعربية واسع العلم وقد سارت الركبان بقصيدتيه حرز الامانى وعقيلة اتراب القصائد اللتين فى القرا آت والرسم وحفظهما خلق كثير لا يحصون وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذاق القراء ولقد أوجز وسهل الصعب * وممن روى عنه أبو الحسن بن خيرة ووصفه من قوة الحفظ بأمر عجيب معجب وممن قرأ عليه بالروايات الامام الشهير محمد بن عمر القرطبي وتصدر الشاطبي رحمه الله تعالى للاقراء بالمدرسة الفاضلية وكان موصوفا بالزهد والعبادة والانقطاع * وقبره بالقرافة يزار وترجى استجابة الدعاء عنده وقد زرته مرارا ودعوت الله بما أرجو قبوله وترك أولادا منهم أبو عبد الله محمد عاش نحو ثمانين سنة * وقال السبكى فى حق الامام الشاطبي انه كان قوى الحافظة واسع المحفوظ كثير الفنون فقيها مقرئا محدثا نحويا زاهدا عابدا ناسكا

وقد ذكاه قال السخاوي أقطع أنه كان مكاشفا وأنه سأل الله كتمان حاله ما كان أحد يعلم أي شيء هو انتهى وترجمته واسعة رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين * وقال ابن خلكان انه أبدع في حرز الاماني وهي عمدة قراء هذا الزمان في تعلمهم فقل من يشتغل بالقرا آت الا ويقدم حفظها ومعرفتها وهي مشتملة على رموز عجيبة واشارات لطيفة وما أظنه سبق الى اسلوبها وقد روي عنه أنه كان يقول لا يقرأ أحد قصيدتي هذه الا وينفعه الله عز وجل لاني نظمتها لله تعالى مخلصا وكان عالما بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيرا وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبرزا فيه وكان اذا قرئ عليه صحيحا البخاري ومسلم والموطا يصحح النسخ من حفظه ويملي النكت على المواضع المحتاج اليها وكان أوحد في علم النحو واللغة عارفا بتعبير الرؤيا حسن المقاصد مخلصا فيما يقول ويفعل وكان يجتنب فضول الكلام ولا ينطق في سائر أوقاته الا بما تدعو اليه الحاجة ولا يجلس للقراءة الا على طهارة في هيئة حسنة وتخشع واستكانة وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوه واذا سئل عن حاله قال العافية لا يزيد على ذلك وكان كثيرا ما ينشد هذا اللغز في النعش وهو لابي زكريا يحيي بن سلامة الخطيب

أتعرف شيأ في السماء نظيره * اذا سار صاح الناس حيث يسير
فتلقاه مركوبا وتلقاه راكبا * وكل أمير يعتليه أسير
يحض على التقوى ويكره قربه * وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستزر عن رغبة في زيارة * ولكن على رغم المزور يزور

وكان يقول عند دخوله الى مصر انه يحفظ وقر بعير من العلوم وكان نزيل القاضي الفاضل ورتبه بمدرسته بالقاهرة وقيل ان كنيته أبو محمد حسبما وجد في بعض اجازاته رحمه الله تعالى * (ومن الراحلين الى المشرق من الاندلس) الامام القاضي أبو بكر بن العربي قال ابن سعيد هو الامام العالم القاضي الشهير فخر المغرب أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري قاضي قضاة كورة اشبيلية ذكره الحجاري في المسهب طبق الآفاق بفوائده وملأ الشأم والعراق بأوابده وهو امام في الاصول والفروع وغير ذلك ومن شعره وقد ركب مع أحد أمراء الملثمين وكان ذلك الامير صغيرا فهز عليه رمحا كان في يده مداعباله فقال

يهز على الرمح ظبي مهفهف * لعوب بالباب البرية عابث
ولو كان رمحا واحدا لاتقيته * ولكنه رمح وثان وثالث

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة في لباس خشن

لبس الصوف لكي أنكره * وأتانا شاحبا قد عبسا
قلت ايه قد عرفناك وذا * جل سوء لا يعيب الفرسا
كل شيء أنت فيه حسن * لا يبالي حسن ما لبسا

وزعم بعض أن الابيات ليست له وانما تمثل بها فالله تعالى أعلم * وممن عرف بابن العربي وذكره ابن الامام في سمط الجمان والشقندي في الطرف وكان قد صحب المهدي محمد بن

توفيت بالمشرق فأوصى عليه عبد المؤمن وكان مكرما عنده وحكى انه كتب كتابا فأشار عليه بعض من حضر أن يذر عليه نشارة فقال قف ثم فكر ساعة وقال اكتب

لاتشنه بماتذر عليه * فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذر عليه * جدرى بوجنة حسناء

ولقى أبا بكر الطرطوشى ومابرح معظما الى أن ولى خطة القضاء ووافق ذلك أن احتاج سور اشبيلية الى بنيان جهة منه ولم يكن بها مال متوفر ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك فى عيد أضحى فأحضروها كارهين ثم اجتمعت العامة العمياء وثارت عليه ونهبوا داره وخرج الى قرطبة وكان فى أحد أيام الجمع قاعدا ينتظر الصلاة فاذا بغلام رومى وضى قد جاء يخترق الصفوف بشمعة فى يده وكتاب معتق فقال

وشمعة تحملها شمعة * يكاد يخفى نورها نارها
لولا نهى نفس نهت غيها * لقبلته وأتت عارها

ولما سمعها أبو عمران الزاهد قال انه لم يكن يفعل ولكنه هزته أريحية الادب ولو كنت أنا قلت

لولا الحياء وخوف الله يمنعنى * وأن يقال صبا موسى على كبره
اذا لمتعت لحظى فى نواظره * حتى أوفى جفونى الحق من نظره

*(رجع) الى أخبار ابن العربى فنقول انه سمع بالاندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزنى وأبا عبد الله السرقسطى وبجاية أبا عبد الله الكلاعى وبالمهدية أبا الحسن بن الحداد الخولانى وسمع بالاسكندرية من الانماطى وبمصر من أبى الحسن الخلعى وغيره وبدمشق غير واحد كابى الفتح نصر المقدسى وبمكة أبا عبد الله الحسين الطبرى وابن طلحة وابن بندار وقرأ الادب على التبريزى وعمل رحمه الله تعالى على مدينة اشبيلية سورا بالحجارة والآجر بالنورة من ماله وكان كما فى الصلة حريصا على آدابها وسيرها ثاقب الذهن فى تمييز الصواب فيها ويجمع الى ذلك كله آداب الاخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود وذكره ابن بشكوال فى الصلة وقال فيه الامام الحافظ ختام علماء الاندلس رحل الى المشرق مع أبيه مستهل ربيع الاول سنة خمس وثمانين وأربعمائة ودخل الشام والعراق وبغداد وسمع بها من كبار العلماء ثم حج فى سنة تسع وثمانين وعاد الى بغداد ثم صدر منها وقال ابن عساكر خرج من دمشق راجعا الى مقره سنة ٤٩١ ولما غرب صنف عارضة الاحوذى ولقى بمصر والاسكندرية جلة من العلماء ثم عاد الى الاندلس سنة ثلاث وتسعين وقدم اشبيلية بعلم كثير وكان موصوفا بالفضل والكمال وولى القضاء باشبيلية ثم صرف عنه ومولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة وتوفى بعقبة بمقبرة من مدينة فاس ودفن بفاس فى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخصا وما وفى ابن سعيد حافظ الاسلام أبا بكر بن العربى حقه فلنعززه بما حضرنا من التعريف به فنقول انه لقى ببغداد الشاشى والامام أبا بكر والامام أبا حامد الطوسى الغزالى ونقل عنه انه قال كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم الا الباجى أو كلاما

هذا معناه وكان من أهل التفنن فى العلوم متقدما فى المعارف كلها متكلما على أنواعها حريصا على نشرها وقام بأمر القضاء أحمد قيام مع الصرامة فى الحق والقوة والشدة على الظالمين والرفق بالمساكين وقد روى عنه انه أمر بثقب أشداق زامر ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه وقرأ عليه الحافظ ابن بشكوال باشبيلية وقال ابن الابار ان الامام الزاهد العابد أبا عبد الله بن مجاهد الاشبيلى لازم القاضى ابن العربى نحوا من ثلاثة أشهر ثم تخلف عنه فقيل له فى ذلك فقال كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب الى السلطان انتهى وذكره ابن الزبير فى صلته وقال انه رحل مع أبيه أبى محمد عند انقراض الدولة العبادية وسنه نحو سبعة عشر عاما الى أن قال وقيد الحديث وضبط ما روى واتسع فى الرواية وأتقن مسائل الخلاف والاصول والكلام على أئمة هذا الشأن ومات أبوه رحمه الله تعالى بالاسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين فانصرف حينئذ الى اشبيلية فسكنها وسمع ودرس الفقه والاصول وجلس للوعظ والتفسير وصنف فى غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة وولى القضاء مدة أولها فى رجب من سنة ثمان فنفع الله تعالى به لصرامته ونفوذ أحكامه والتزم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى أوذى فى ذلك بذهاب كتبه وماله فأحسن الصبر على ذلك كله ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه وكان فصيحا حافظا أديبا شاعرا كثير الملح مليح المجلس ثم قال قال القاضى عياض بعد أن وصفه بما ذكرته ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناس الكلام وطعنوا فى حديثه وتوفى منصرفه من مراكش من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده الى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة اشبيلية فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سرحوا فأدركته منيته وروى عنه خلق كثير منهم القاضى عياض وأبو جعفر بن الباذش وجماعة انتهى ملخصا * ووقع فى عبارة ابن الزبير تبعا لجماعة أنه دفن خارج باب الجيسة بفاس والصواب خارج باب المحروق كما أشبعت الكلام على ذلك فى أزهار الرياض وقد زرته مرارا وقبره هنالك مقصود للزيارة خارج القصبة وقد صرح بذلك بعض المتقدمين الذين حضروا وفاته وقال انه دفن بتربة القائد مظفر خارج القصبة وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج رحمه الله تعالى ومن بديع نظمه

أتتنى تؤنبنى بالبكاء * فأهلا بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرة * أتبكى بعين ترانى بها
فقلت اذا استحسنت غيركم * أمرت جفونى بتعذيبها

وقال رحمه الله تعالى دخل على الاديب ابن صارة وبين يدى نار علاها رماد فقلت له قل فى هذه فقال

شابت نواصى النار بعد سوادها * وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لى أجز فقلت

شابت كما شبنا وزال شبابنا * فكأنما كنا على ميعاد

وقد اختلف حذاق الادباء فى قوله ولكنه رحم وثان وثالث ما هو الثانى والثالث فقيل

القد

القدّ واللحظ وقيل غير ذلك ولما ذكر رحمه الله تعالى في كتابه قانون التأويل ركوبه البحر في رحلته من افريقية قال وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ويغرقنا في هوله فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر وانتهينا بعد خطب طويل الى بيوت بني كعب بن سليم ونحن من السغب على عطب ومن العرى في أقبح زى قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها ودسمت الادهان وبرها وجلدتها فاحتزمناها أزرا واشتملناها لفافا تمجنا الابصار وتخذلنا الانصار فعطف أميرهم علينا فأوينا اليه فآوانا وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا وأكرم مثوانا وكسانا بأمر حقير ضعيف وفن من العلم ظريف وشرحه انا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاه فعل السامد اللاه فدنوت منه في تلك الاطمار وسمح لي بياذقته اذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للاغمار ووقفت بازائهم أنظر الى تصرفهم من ورائهم اذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خلس البطالة مع غلبة الصبوة والجهالة فقلت للبياذقة الامير أعلم من صاحبه فلمحوني شزرا وعظمت في أعينهم بعد أن كنت نزرا وتقدم الى الامير من نقل اليه الكلام فاستدناني فدنوت منه وسألني هل لي بما هم فيه بصر فقلت لي فيه بعض نظر سيبدو لك ويظهر حرك تلك القطعة ففعل كما أشرت وعارضه صاحبه فأمرته أن يحرك أخرى ومازالت الحركات بينهم كذلك تترى حتى هزمهم الامير وانقطع التدبير فقالوا ما أنت بصغير وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الامير منشدا

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه * وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

فقال لعن الله أبا الطيب أو يشك الرب فقلت له في الحال ليس كما ظن صاحبك أيها الامير انما أراد بالرب ههنا الصاحب يقول ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوصال وبلوغ الغرض من الآمال على ريب فهو في وقته كله على رجاء لما يؤمله وتقاة لما يقطع به كما قال

اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا * فأين حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف الى ذلك من الاغراض في طرفي ابرام وانتقاض ما حرك منهم الى جهتي دواعي الانتهاض وأقبلوا يتعجبون مني ويسألونني كم سني ويستكشفونني عني فبقرت لهم حديثي وذكرت لهم نجيثي وأعلمت الامير بأن أبي معي فاستدعاه وأقمنا الثلاثة الى مثواه فخلع علينا خلعه وأسبل علينا أدمعه وجاء كل خوان بأفنان والوان ثم قال بعد المبالغة في وصف ما نالهم من اكرامه فانظر الى هذا العلم الذي هو الى الجهل أقرب مع تلك الصبابة اليسيرة من الادب كيف أنقذا من العطب وهذا الذكر يرشدكم ان عقلتم الى المطلب وسرنا حتى انتهينا الى ديار مصر انتهى مختصرا والزول العجب ونجيث الخبر ما ظهر من قبيحه يقال بدا نجيث القوم اذا ظهر سرهم الذي كانوا يخفونه قالهما الجوهري * وذكر رحمه الله تعالى في رحلته عجائب * منها انه حكى في دخوله بدمشق بيوت بعض الاكابر انه رأى فيه النهر جاريا الى موضع جلوسهم ثم يعود من ناحية أخرى فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل الينا فأخذها الخدم ووضعوها بين ايدينا فلما فرغنا ألقى الخدم الاواني وما معها في النهر الراجع فذهب بها

الماء الى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية فعلمت السر وان هذا العجيب انتهى بمعناه وقال فى قانون التأويل ورد علينا دانشمند يعنى الغزالى فنزل برباط أبى سعد بازاء المدرسة النظامية معرضا عن الدنيا مقبلا على الله تعالى فمشينا اليه وعرضنا امنيتنا عليه وقلت له أنت ضالتنا التى كنا ننشد وامامنا الذى به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة وتحققنا ان الذى نقل الينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم ولو رآه على بن العباس لما قال

اذا ما مدحت أمرأ غائبا * فلا تغل فى مدحه واقصد

فانك ان تغل تغل الظنو * ن فيه الى الامد الابعد

فيصغر من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد انتهى

وكنت نقلت من المطمح فى حقه ما صورته علم الاعلام الطاهر الاثواب الباهر الابواب الذى أنسى ذكاء اياس وترك التقليد للقياس وانتج الفرع من الاصل وغدا فى الاسلام أمضى من النصل سقى الله تعالى به الاندلس بعدما أجدبت من المعارف ومد عليها منه ظله الوارف وكساها رونق نبله وسقاها ريق وبله وكان أبوه أبو محمد باشبيلية بدرا فى فلكها وصدرا فى مجلس ملكها واصطفاه معتمد بنى عباد اصطفاء المأمون لابن أبى دواد وولاه الولايات الشريفة وبوأه المراتب المنيفة فلما أقفرت حمص من ملكهم وخلت وألقتهم منها وتخلت رحل به الى المشرق وحل فيه محل الخائف الفرق فجال فى أكنافه وأجال قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه فلم يسترد ذاهبا ولم يجد كمعتمده باذلا له وواهبا فعاد الى الرواية والسماع وما استفاد من آمال تلك الاطماع وأبو بكر اذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوح وفى روض الشباب زهر ما صوح فألزمه مجالس العلم رائحا وغاديا ولازمه سائقا اليها وحاديا حتى استقرت به مجالسه واطردت له مقاييسه فجد فى طلبه واستجد به أبوه متمزق أربه ثم أدركه حمامه ووارته هناك رجامه وبقى أبو بكر متفردا وللطلب متجردا حتى أصبح فى العلم وحيدا ولم يجد عنه رياسته محيدا فكر الى الاندلس فحلها والنفوس اليه متطلعة ولانبائه متسمعة فناهيك من حظوة لقى ومن عزة سقى ومن رفعة سما اليها ورقى وحسبك من مفاخر قلدها ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلدها وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافا وترده الافهام نطافا فمن ذلك قوله يتشوق الى بغداد ويخاطب فيها أهل الوداد

أمنك سرى والليل يخدع بالفجر * خيال حبيب قد حوى قصب الفخر

جلا ظلم الظلماء مشرق نوره * ولم يخبط الظلماء بالانجم الزهر

ولم يرض بالارض البسيطة مسحبا * فسار على الجوزا الى فلك يجرى

وحث مطايا قد مطاها بعزه * فأوطأها قسرا على قنة النسر

فسارت ثقالا بالجلالة فوقها * وسارت عجالا تتقى ألم الزجر

وجرت على ذيل المجرة ذيلها * فمن ثم يبدو ما هنالك لمن يسرى

ومرت على الجوزاء توضع فوقها * فآثار ما مرت به كلف البدر

وساقت أريج الخلد من جنة العلا * فدع عنك رملا بالا نيعم يستذرى
فما حذرت قيسا ولا خيل عامر * ولا أضمرت خوفا لقاء بني ضمر
سقى الله مصرا والعراق وأهلها * وبغداد والشامين منهمل القطر انتهى

ومن تآليف الحافظ أبي بكر بن العربي المذكور كتاب القبس في شرح موطا مالك بن أنس وكتاب ترتيب المسالك في شرح موطا مالك وكتاب أنوار الفجر وكتاب أحكام القرآن وكتاب عارضة الاحوذي في شرح الترمذي والاحوذي بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح الواو وكسر الذال المعجمة وآخره ياء مشددة وكتاب مراقي الزلف وكتاب الخلافيات وكتاب نواهي الدواهي وكتاب سراج المريدين وكتاب المشكلين مشكل الكتاب والسنة وكتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن وكتاب قانون التأويل وكتاب النيرين في الصحيحين وكتاب سراج المهتدين وكتاب الأمد الاقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا وكتاب في الكلام على مشكل حديث السبحات والحجاب وكتاب العقد الاكبر للقلب الاصغر وتبيين الصحيح في تعيين الذبيح وتفصيل التفضيل بين التحميد والتهليل ورسالة الكافي في أن لا دليل على النافي وكتاب السباعيات وكتاب المسلسلات وكتاب التوسط في معرفة صحة الاعتقاد والرد على من خالف السنة من ذوي البدع والالحاد وكتاب شرح غريب الرسالة وكتاب الانصاف في مسائل الخلاف عشرون مجلدا وكتاب حديث الافك وكتاب شرح حديث جابر في الشفاعة وكتاب شرح حديث أم زرع وكتاب ستر العورة وكتاب المحصول في علم الاصول وكتاب أعيان الاعيان وكتاب ملجأة المتفقهين الى معرفة غوامض النحويين وكتاب ترتيب الرحلة وفيه من الفوائد ما لا يوصف * ومن فوائد القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى قوله قال علماء الحديث ما من رجل يطلب الحديث الا كان على وجهه نضرة لقول النبي صلى الله عليه وسلم نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها الحديث قال وهذا دعاء منه عليه السلام لحملة علمه ولا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته انتهى والى هذه النضرة أشار أبو العباس العزفي بقوله

أهل الحديث عصابة الحق * فازوا بدعوة سيد الخلق
فوجوههم زهر منضرة * لألاؤها كتألق البرق
ياليتني معهم فيدركني * ما أدركوه بها من السبق انتهى

(ولا بأس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى) * فمنها قوله في تصريف المحصنات يقال أحصن الرجل فهو محصن بفتح العين في اسم الفاعل وأسهب في الكلام فهو مسهب اذا طال البحث فيه وألفج فهو ملفج اذا كان عديما لا رابع لها والله تعالى أعلم انتهى * ومنها قوله سمعت الشيخ فخر الاسلام أبا بكر الشاشي وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر يقول يقال في اللغة العربية لا تقرب كذا بفتح الراء أي لا تتلبس بالفعل واذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع وهذا الذي قاله صحيح مسموع انتهى * ومنها شاهدت المائدة بطورزيتا مرارا وأكلت عليها ليلا ونهارا وذكرت الله سبحانه فيها سرا وجهارا وكان ارتفاعها أسفل من القامة بنحو

الشبر وكان لها درجان قبلي وجنوبي وكانت صخرة صلداء لا تؤثر فيها المعاول وكان الناس يقولون مسخت صخرة اذ مسخ أربابها قردة وخنازير والذي عندي انها كانت صخرة في الاصل قطعت من الارض محلا للمائدة النازلة من السماء وكل ما حولها حجارة مثلها وكان ما حولها محفوفا بقصور وقد نحتت في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها مقطوعة فيها وحناياها في جوانبها وبيوت خدمتها قد صورت من الحجر كما تصور من الطين والخشب فاذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثمن درهم لم يفتحه أهل الارض للصوقه بالارض واذا هبت الريح وحثت تحته التراب لم يفتح الا بعد صب الماء تحته والاكثار منه حتى يسيل بالتراب وينفرج منفرج الباب وقد بار بها قوم بهذه العلة وقد كنت أخلو فيها كثيرا للدرس ولكني كنت في كل حين أكنس حول الباب مخافة مما جرى لغيري فيها وقد شرحت امرها في كتاب ترتيب الرحلة بأكثر من هذا انتهى * ومنها قوله رحمه الله تعالى تذاكرت بالمسجد الاقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع ان من ورائكم أياما للعامل فيها أجر خمسين منكم فقالوا بل منهم فقال بل منكم لانكم تجدون على الخير أعوانا وهم لا يجدون عليه أعوانا وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الامة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الاسلام وعضدوا الدين وأقاموا المنار وافتتحوا الامصار وحموا البيضة ومهدوا الملة وقد قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح وخلاصته أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الاجر من أخلص اخلاصهم وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام وهو أيضا انتهاؤه وقد كان قليلا في ابتداء الاسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق وفي آخر الزمان أيضا يعود كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم لتركبن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه وقال صلى الله عليه وسلم بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فلا بد والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الاسلام الى واحد كما بدا من واحد ويضعف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى اذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء اليه كان له من الاجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معانا عليه بكثرة الدعاة الى الله تعالى وذلك قوله لانكم تجدون على الخير أعوانا وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعا باتا لضعف اليقين وقلة الدين كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض الله الله يروى برفع الهاء ونصبها فالرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف

ولاناه عن منكر يقول أخاف الله وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتنى كنت مكانه انتهى وأنشد رحمه الله تعالى لبعض الصوفية

امتحن الله بذا خلقه * فالنار والجنة فى قبضته

فهجره أعظم من ناره * ووصله أطيب من جنته

(ومن فوائد ابن العربى) رحمه الله تعالى انه قال كنت بمجلس الوزير العادل أبى منصور ابن جهير على رتبة بيناها فى كتاب الرحلة للترغيب فى الملة فقرأ القارئ تحيتهم يوم يلقونه سلام وكنت فى الصف الثانى من الحلقة بظهر أبى الوفاء بن عقيل امام الحنبلية بمدينة السلام وكان معتزلى الاصول فلما سمعت الآية قلت لصاحب لى كان يجلس على يسارى هذه الآية دليل على رؤية الله فى الآخرة فان العرب لا تقول لقيت فلانا الا اذا رأته فصرف وجهه أبو الوفاء مسرعا الينا وقال ينتصر لمذهب الاعتزال فى أن الله تعالى لا يرى فى الآخرة فقد قال الله تعالى فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى فى الآخرة وقد شرحنا وجه الآية فى المشكلين وتقدير الآية فأعقبهم هو نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه فيحتمل ضمير يلقونه ان يعود الى ضمير الفاعل فى اعقبهم المقدر بقولنا هو ويحتمل ١٢ أن يعود الى النفاق مجازا على تقدير الجزاء انتهى * ومنها مانقله عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فان قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم وقد أنبأنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ انبأنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه كنا فى جنازة فقال المنذر بها انصرفوا رحمكم الله تعالى فقال لا يقل أحدكم انصرفوا فان الله تعالى قال فى قوم ذمهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فان الله تعالى قال فى قوم مدحهم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء انتهى * ومنها وقد ذكر الخلاف فى شاهد يوسف ما صورته فاذا قلنا انه القميص فكان يصح من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقدم مقاله فان لسان الحال أبلغ من لسان المقال فى بعض الامور وقد تضيف العرب الكلام الى الجمادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات ومن أحلاه قول بعضهم قال الحائط للوتد لم تشقنى قال سل من يدقنى ما يتركنى ورائى هذا الذى ورائى لكن قوله تعالى بعد ذلك من أهلها فى صفة الشاهد يبطل أن يكون القميص وأما من قال انه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فانه يحتمل لكن قوله من أهلها يعطى اختصاصها من جهة القرابة انتهى * ومنها قوله انه كان بمدينة السلام امام من الصوفية وأى امام يعرف بابن عطاء فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب اليه من مكروه فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال ياشيخ ياسيدنا فاذن يوسف هم وما تم فقال نعم لان العناية من ثم فانظروا الى حلاوة العالم والمتعلم وفطنة العامى فى سؤاله والعالم فى اختصاره واستيفائه ولذا قال علماؤنا الصوفية ان فائدة قوله تعالى ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما أن الله تعالى أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة انتهى * ومنها قوله كنت بمكة مقيما فى ذى الحجة

سنة تسع وثمانين وأربعمائة وكنت أشرب من ماء زمزم كثيرا وكلما شربته نويت به العلم والايمان ففتح الله تعالى لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم ونسيت ان أشربه للعمل ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله تعالى لي فيهما ولم يقدر فكان صغوي للعلم أكثر منه للعمل وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته * ومنها قوله سمعت امام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول انما تبع الولد الام في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية لانه انفصل عن الاب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة مبثوثة عليه وانما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلذلك تبعها كما لو أكل رجل تمرا في أرض رجل وسقطت منه نواة في الارض من يد الآكل فصارت نخلة فانها ملك صاحب الارض دون الآكل باجماع من الامة لانها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها وهذه من البدائع انتهى * ومنها قوله ومن نوادر أبي الفضل الجوهري ما أخبرنا عنه محمد بن عبد الملك الواعظ وغيره انه كان يقول اذا أمسكت علاقة الميزان بالابهام والسبابة وارتفعت سائر الاصابع كان شكلها مقروأ بقولك الله فكأنها اشارة منه سبحانه في تيسير الوزن الى أن الله سبحانه مطلع عليك فاعدل في وزنك انتهى * ومنها قوله كان ابن الكازروني يأوي الى المسجد الاقصى ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ولقد كان يقرأ في مهد عيسى عليه السلام فيسمع من الطور فلا يقدر أحد أن يصنع شيأ دون قراءته الا الاصغاء اليه انتهى * ومنها قوله في تفسير قوله تعالى في أيام نحسات قيل انها كانت آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء والناس يكرهون السفر يوم الاربعاء لاجل هذه الرواية حتى اني لقيت يوما مع خالي الحسن بن أبي حفص رجلا من الكتاب فودعنا بنية السفر فلما فارقنا قال لي خالي انك لا تراه أبدا لانه سافر في يوم اربعاء لا يتكرر وكذا كان مات في سفره وهذا ما لا أراه لان يوم الاربعاء يوم عجيب بما جاء في الحديث من الخلق فيه والترتيب فان الحديث ثابت بأن الله تعالى خلق يوم السبت التربة ويوم الاحد الجبال ويوم الاثنين الشجر ويوم الثلاثاء المكروه ويوم الاربعاء النور وروى النون وفي غريب الحديث أنه خلق يوم الاربعاء التقن وهو كل شيء تتقن به الاشياء يعني المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص فاليوم الذي خلق فيه المكروه لا تعافه الناس واليوم الذي خلق فيه النور أو التقن يعافونه ان هذا لهو الجهل المبين وفي المغازي ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا على الاحزاب من يوم الاثنين الى يوم الاربعاء بين الظهر والعصر فاستجيب له وهي ساعة فاضلة فالآثار الصحاح تدل على فضل هذا اليوم فكيف يدعى فيه التحذير والنحس بأحاديث لا أصل لها وقد صور قوم أياما من الاشهر الشمسية ادعوا فيها الكراهية لا يحل لمسلم أن ينظر اليها ولا يشغل بالا بها حسبهم الله انتهى * ومنها وكان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الامام دانشمند من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية فربك أعلم به ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله وبودي اليوم لو كاشفته عن حاله انتهى * ومن شعر ابن العربي مما نسبه له الشيخ أبو حيان قوله

ليت شعري هل دروا * أي قلب ملكوا

وفؤادى لو درى * أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا * أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى * فى الهوى وارتبكوا

(ومن فوائده) أخبرنى المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ اليه سحرنا قال هكذا قالوا والله تعالى أعلم بما نقلوه * وقال رحمه الله تعالى حذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية والحساب فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الاحرف نحوا من عشرة بما يتبعها من اظهار وادغام ونحوه وتعرّفت فى الغريب والشعر واللغة ثم رحل بى أبى الى المشرق ثم ذكر تمام رحلته رحمه الله تعالى

(ومنهم أبو بكر محمد بن أبى عامر بن حجاج الغافقى الاشبيلى) ومن نظمه بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

لم يبق لى سؤل ولا مطلب * مذ صرت جار الحبيب الحبيب
لا أشتهى شيأ سوى قربه * وهاأنا منه قريب قريب
من غاب عن حضرة محبوبه * فلست عن طيبة ممن يغيب
لا تسأل المغبوط عن حاله * جار كريم ومحل خصيب
العيش والموت هنا طيب * بطيبة لى كل شئ يطيب

وممن روى عنه هذه الابيات الاشرف بن الفاضل * (ومنهم الشيخ الاديب الفاضل البارع جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الخطيب أبى الحسن محمد بن أبى عبد الله بن عيسى بن محمد بن على بن ذى النون الانصارى المالقى من أشياخ ابى حيان لقيه ببلبيس من ديار مصر قال وأنشدنى لشيخه أبى عبد الله الاستجى من قصيدة

ما للنسيم سرى يهب عليلا * أتراه يشكو لوعة وغليلا
جرّ الذيول على ديار أحبتى * فأتى يجرّ من السقام ذيولا

وأنشد رحمه الله تعالى لرضوان المخزومى

ان كنت يوسف حسنا * وكنت عبد العزيز
فان يوسف من قبـ * ـل كان عبد العزيز

وأخذ ابن ذى النون المذكور عن أبى عبد الله بن صالح وقرأ السبعة على أبى جعفر الفحام وأبى زيد القمارشى وعلى أبى جعفر السهيلى وولد ابن ذى النون سنة ٦١٨ بمالقة ومن تواليفه نفح المسك الاذفر فى مدح المنصور بن المظفر وأزهار الجملة فى الآثار الجلية واستطلاع البشير ومحض اليقين وروض المتقين *(ومنهم زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون يكنى أبا عبد الله كان فقيه الاندلس على مذهب مالك وهو أول من أدخل مذهبه الاندلس وكانوا قبله يتفقهون على مذهب الاوزاعى وأراده الامير هشام على القضاء بقرطبة وعزم عليه فهرب فقال هشام ليت الناس كلهم كزياد حتى أكفى الرغبة فى الدنيا وأرسل الى زياد فأمّنه حتى رجع الى داره ويحكى انه لما أراده للقضاء كلمه الوزراء فى ذلك عن الامير وعزموا عزمه عليه فقال لهم أمّا ان أكرهتمونى على القضاء

قوله المعروف بشبطون تقدّم انه فى نسخة بسطون وفى أخرى بشطون فليحرّر اه

فزوجتي فلانة طالق ثلاثا لئن أتاني مدع في شئ مما في أيديكم لاخرجنه منه ثم أجعلكم مدعين فيها فلما سمعوا منه ذلك علموا صدقه فعملوا عند الامير في معافاته سمع من مالك الموطأ ويعرف سماعه بسماع زياد وسمع من معاوية بن صالح وكانت ابنة معاوية تحته وروى يحيى بن يحيى الليثي عن زياد هذا الموطأ قبل أن يرحل الى مالك ثم رحل فأدرك مالكا فرواه عنه الا أبوابا في كتاب الاعتكاف شك في سماعها من مالك فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالك وتوفي سنة أربع ومائتين وقيل سنة ١٩٣ وقيل في التي بعدها وقيل سنة ١٩٩ والاول أولى بالقبول والله تعالى أعلم * (ورحل في ذلك العصر جماعة من أمثال شبطون كفرغوس ابن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل الى الحج أيام هشام ابن عبد الرحمن والد الحكم فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالاندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالاندلس وكان رائد الجماعة في ذلك شبطون وهو أول من أدخل موطأ مالك الى الاندلس مكملا متقنا فأخذه عنه يحيى بن يحيى كامر وهو اذ ذاك صدر في طلاب الفقه فأشار عليه زياد بالرحيل الى مالك مادام حيا فرحل سريعا وأخذ يحيى عن زياد هذا الكتب العشرة المنسوبة الى يحيى ولقى أيضا عبد الله بن وهب صاحب مالك وسمع منه موطأه ولقى أيضا عبد الله بن نافع المدني صاحب مالك وسمع منه ومن الليث بن سعد فقيه مصر ومن سفيان بن عيينة بمكة وقدم يحيى الاندلس أيام الحكم فانتشر به وبزياد وبعيسى بن دينار علم مالك بالاندلس رضي الله تعالى عن الجميع وقد قدمنا الحديث الذي رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك فليراجع في الباب الثالث * (ومنهم سوار بن طارق مولى عبد الرحمن بن معاوية قرطبي حج ودخل البصرة ولقى الاصمعي ونظراءه وانصرف الى الاندلس وأدب الحكم ومن ولده محمد بن عبد الله ابن سوار حج أيضا ولقى أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما وادخل الاندلس علما كثيرا رحم الله تعالى الجميع * (ومنهم بقي بن مخلد الشهير الذكر صاحب التاليف التي لم يؤلف مثلها في الاسلام ولقى مائتين وأربعة وثمانين شيخا وكانت له خاصة من الامام أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى وستأتي جملة مما يتعلق ببقي بن مخلد في رسالة ابن حزم في الباب السابع وبقي على وزن علي رحمه الله تعالى ورضي عنه وقد عرف بقي بن مخلد غير واحد من العلماء كصاحب النبراس وغيره * (ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف أبو محمد البياني وبيانة من أعمال قرطبة وأصل سلفه من موالي الوليد بن عبد الملك وسمع المذكور بقرطبة من بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح ومطرف بن قيس وأصبغ بن خليل وابن مسرة وغير واحد ورحل الى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن ومحمد بن زكريا بن عبد الاعلى سنة أربع وسبعين ومائتين فسمع بمكة من محمد بن اسمعيل الصائغ وعلي بن عبد العزيز ودخل العراق فلقى من أهل الكوفة ابراهيم بن أبي العنبس قاضيها وابراهيم بن عبد الله القصار وسمع ببغداد من القاضي اسمعيل وأحمد بن زهير بن حرب وغيرهما كعبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل والحرث بن أبي أسامة وكتب عن ابن أبي خيثمة تاريخه وسمع من ابن قتيبة كثيرا من كتبه وسمع من المبرد وثعلب وابن الجهم في آخرين وسمع بمصر

من محمد بن عبد الله العمرى ومطلب بن شعيب وغيرهما وسمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتى الشاعر وانصرف الى الاندلس بعلم كثير فمال الناس اليه فى تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد الاعلى وكان بصيرا بالحديث والرجال نبيلا فى النحو والغريب والشعر وكان يشاور فى الاحكام وصنف على كتاب السنن لابى داود كتابا فى الحديث وسببه انه لما قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد بن أيمن فوجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما بيسير فلما فاتهما عمل كل واحد منهما مصنفا فى السنن على أبواب كتاب أبى داود وخرجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما وهما مصنفان جليلان ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه وسماه المجتنى بالنون وابتدأ اختصاره فى المحرم سنة أربع وعشرين وثلثمائة وجعله باسم الحكم المستنصر وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثا فى سبعة أجزاء ومولده يوم الاثنين عاشر ذى الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين رحمه الله تعالى * وحكى القرطبى فى تفسيره عند قوله تعالى قالوا لا علم لنا الا ما علمتنا أن قاسم بن أصبغ قال لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان فأخذت عن بكر بن حماد حديث مسدد فقرأت عليه يوما فيه حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه قدم عليه قوم من مضر مجتابى النمار فقال انما هو مجتابى الثمار فقلت انما هو مجتابى النمار هكذا قرأته على كل من لقيته بالاندلس والعراق فقال لى بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا ثم قال لى قم بنا الى ذلك الشيخ كان فى المسجد فان له بمثل هذا علما فقمنا اليه وسألناه عن ذلك فقال انما هو مجتابى النمار كما قلت وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم والنمار جمع نمرة فقال بكر ابن حماد وأخذ بأنفه رغم أنفى للحق وانصرف انتهى وهذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين رحمهما الله تعالى ورضى عنهما ونفعنا بهما * (ومنهم قاسم بن ثابت أبو محمد العوفى السرقسطى) رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شعيب النساى وأحمد بن عمرو البزار وبمكة من عبد الله بن على بن الجارود ومحمد بن على الجوهرى واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه فأدخلا الى الاندلس علما كثيرا ويقال انهما أول من أدخل كتاب العين الى الاندلس وألف قاسم فى شرح الحديث كتابا سماه الدلائل بلغ فيه الغاية فى الاتقان ومات قبل اكماله فأكمله ابن ثابت بعده وقد روى عن أبى على البغدادى انه كان يقول كتبت كتاب الدلائل وما أعلم انه وضع بالاندلس مثله وكان قاسم عالما بالحديث واللغة متقدما فى معرفة الحديث والنحو والشعر وكان مع ذلك ورعا ناسكا واريد على القضاء بسرقسطة فأبى ذلك فأراد أبوه اكراهه عليه فسأله أن يتركه ينظر فى أمره ثلاثة أيام ويستخير الله تعالى فمات فى هذه الثلاثة الايام فيرون انه دعا لنفسه بالموت وكان مجاب الدعوة توفى سنة ٣٠٢ بسرقسطة رحمه الله تعالى * (ومنهم علم الدين أبو محمد المرسى اللورقى) وهو قاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر العلامة المقرى الاصولى النحوى ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبى جعفر الحصار وأبى عبد الله المرادى وأبى عبد الله بن نوح الغافقى وقدم مصر فقرأها على أبى الجود غياث بن فارس

وبدمشق على التاج بن زيد الكندى" وسمع ببغداد من أبي محمد بن الاخضر وأخذ العربية عن أبي البقاء ولقى الجزولى" بالمغرب وسأله عن مسئلة مشكلة فى مقدمته فأجابه وبرع فى العربية وفى علم الكلام والفلسفة وكان يقرئ ذلك ويحققه وأقرأ بدمشق ودرّس وشرح المفصل فى النحو فى أربع مجلدات فأجاد وأفاد وشرح الجزولية والشاطبية وكان مليح الشكل حسن البزة موطأ الاكناف قرأ عليه جماعة وتوفى سابع رجب سنة ٦٦١ وكان معمرا مشتغلا بأنواع العلوم وسماه بعضهم أبا القاسم والاول أصح *(ومنهم قاسم ابن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار أبو محمد من أهل قرطبة وجده مولى الوليد بن عبد الملك رحل فسمع بمصر من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم والمزنى" والبرقى" والحرث بن مسكين ويونس بن عبد الاعلى وابراهيم بن المنذر وغيرهم ولزم ابن عبد الحكم للتفقه وتحقق به وبالمزنى" وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ويميل الى مذهب الشافعى" ولما قال له ابنه محمد بن القاسم يا أبت أوصنى قال أوصيك بكتاب الله فلا تنس حظك منه واقرأ منه كل يوم جزأ واجعل ذلك عليك واجبا وان أردت أن تأخذ من هذا الامر بحظ يعنى الفقه فعليك برأى الشافعى" فانى رأيته أقل خطأ قال أبو الوليد بن الفرضى" ولم يكن بالاندلس مثله فى حسن النظر والبصر بالحجة وقال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة ما رأينا أفقه من قاسم بن محمد فيمن دخل الاندلس من أهل الرحلة وقال أسلم بن عبد العزيز سمعت عن ابن عبد الحكم انه قال لم يقدم علينا من الاندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد ولقد عاتبته فى حين انصرافه الى الاندلس وقلت له أقم عندنا فانك تقتعد ههنا رياسة ويحتاج الناس اليك فقال لابد من الوطن وقال سعيد بن عثمان قال لى أحمد بن صالح الكوفى" قدم علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد فرأيت رجلا فقيها وألف رحمه الله تعالى كتابا نبيلا فى الرد على ابن مزين وعبد الله بن خالد والعتبى" يدل على علمه وله كتاب فى خبر الواحد وكان يلى وثائق الامير محمد طول أيامه روى عنه ابن لبابة وابن أيمن والاعناقى" وابنه محمد بن قاسم فى آخرين توفى سنة ست أو سبع أو ثمان وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو بكر الغسانى" وهو محمد بن ابراهيم بن أحمد بن أسود من أهل المرية قدم الى مصر ولقى بها أبا بكر الطرطوشى" ثم عاد الى بلده وشوور واستقضى بمرسية مدة طويلة ثم صرف وسكن مراكش * قال ابن بشكوال توفى بمراكش فى رجب سنة ٥٣٦ وقال أبو جعفر بن الزبير انّ له كتاب تفسير القرآن وبيته بيت علم ودين * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون من أهل وادى الحجارة قال ابن الفرضى" سمع من ابن وضاح والخشنى" ونظرائهما بالاندلس ورحل الى المشرق فتردد هنالك نحوا من خمس عشرة سنة وسمع بصنعاء ومكة وبغداد ولقى جماعة من أصحاب الامام أحمد بن حنبل منهم عبد الله بن أحمد وسمع بمصر من الخفاف النيسابورى" وابراهيم بن موسى وغيرهما وبالمصيصة والقيروان وكان اماما فى الحديث عالما حافظا للعلل بصيرا بالطرق ولم يكن بالاندلس قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط متقن حسن التوجه للحديث صدوق ولم يذهب مذهب مالك وممن روى عنه ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة وأحمد بن سعيد

ابن

ابن حزم وقال خالد بن سعيد لو كان الصدق لسانا لكان ابن حيون وكان يزن بالتشيع لشئ كان يظهر منه فى حق معاوية رضى الله تعالى عنه وكان شاعرا وتوفى بقرطبة سنة ٣٠٥ سامحه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن غالب المالقى* قال ابن نقطة سمع بالاسكندرية من أبى الحسن بن المقدسى* وكان فاضلا رأيت بخطه اجازة بمصر لبعض المصريين فى رجب سنة ٦٠٤ وسمع بمصر شيأ من الخلعيات قال ابن فرتون الفاسى* فى ذيل تاريخ الاندلس روى بمالقة ورحل الى المشرق وحج ولقى أبا الحسن على* بن الفضل المقدسى* وأخذ عنه كتاب تحقيق الجواب عمن أجيز له مافاته من الكتاب من تآليفه ورجع الى الاندلس ثم نهض الى مرّاكش فتوفى فى أقصى بلاد السوس فى حدود سنة ٦٤٥ رحمه الله تعالى *(ومنهم اليقورى* وهو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم مصنف كتاب اكمال الاكمال للقاضى عياض على صحيح مسلم وكتب على كتاب الشهاب القرافى* فى الاصول وسمع الحديث وقدم الى مصر ومعه مصحف قرآن حل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة ثم عاد بعد حجه ومات بمرّاكش سنة ٧٠٧ وقد زرت قبره مرارا قال الحافظ المقريزى* واليقورى* نسبة الى يقورة بياء آخر الحروف مفتوحة وقاف مشددة وراء مهملة بلد بالاندلس انتهى *(ومنهم أبو عبد الله الانصارى* وهو محمد بن ابراهيم بن موسى بن عبد السلام ويعرف بابن شق الليل من أهل طليطلة* سمع بمصر أبا الفرج الصوفى* وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد بن النحاس وأبا القاسم بن ميسرة وأبا الحسن بن بشر وغيرهم وسمع بطليطلة* من جماعة وحدث عن جماعة من المحدثين كثيرة * قال ابن بشكوال وكان فقيها عالما واماما متكلما حافظا للفقه والحديث قائما بهما متقنا لهما الا أن المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعلله كان أغلب عليه وكان مليح الخط جيد الضبط من أهل الرواية والدراية والمشاركة فى العلوم وكان أديبا شاعرا مجيد الغوياديا فاضلا كثير التصانيف والكلام على علم الحديث حلو الكلام فى تأليفه وله عناية بأصول الديانات واظهار الكرامات توفى بطلبيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الامام الشهير الكبير الولى* العارف بالله سيدى أبو عبد الله القرشى* الهاشمى* الاندلسى* شيخ السالكين وامام العارفين وقدوة المحققين قدم مصر بعد ما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهاد وكان يقول صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة الشيخ أبو الربيع والشيخ أبو الحسن بن طريف والشيخ أبو زيد القرطبى* والشيخ أبو العباس الجوزى* وسلك على يده جماعة منهم الشيخ أبو العباس القسطلانى* فانه أخذ عنه كلامه وجمعه فى جزء وخرج سيدى أبو عبد الله القرشى* من مصر الى بيت المقدس فأقام به الى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذى الحجة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة ودفن هنالك وقبره ظاهر يقصد للزيارة زرته أول قدماتى على بيت المقدس سنه ١٠٣٨ ومن كلامه من لم يدخل فى الامور بلطف الادب لم يدرك مطلوبه منها وقوله العاقل يأخذ ما صفا ويدع التكلف فانه تعالى يقول وان يردك بخير فلا رادّ لفضله وقال من لم يراع حقوق الاخوان بترك حقوقه

حرم بركة الصحبة وقال سمعت الشيخ أبا اسحق ابراهيم بن طريف يقول لما حضرت الشيخ أبا الحسن بن غالب الوفاة قال لاصحابه اجتمعوا وهللوا سبعين ألف مرة واجعلوا ثوابها لي فانه بلغني انها فداء كل مؤمن من النار قال فعملناها واجتمعنا عليها وجعلنا ثوابها له ثم حكى عن شيخه أبي زيد القرطبي ما حكاه السنوسي عنه في أواخر شرح صغراه وقد أنكر غير واحد من الحفاظ كابن حجر وغيره كونه ماذكر حديثا ولعل هؤلاء أخذوه من جهة الكشف ونحوه والله تعالى أعلم وقال رحمه الله تعالى دخلت على الشيخ أبي محمد عبد الله المغاوري فقال لي أعلمك شيأ تستعين به اذا احتجت لشئ فقل يا واحد يا أحد يا واحد يا جواد انفعنا منك بنفحة خير انك على كل شئ قدير قال فأنا أنفق منها منذ سمعتها وقال رحمه الله تعالى ما من حال ذكر في رسالة القشيري الا وقد شاهدته نفسي وتزوج رحمه الله تعالى بنساء حدثن عنه بكرامات ومنهن أم القطب القسطلاني وحكت انها خرجت عنه يوما لحاجتها ثم عادت فسمعت عنده في طبقته حس رجل فتوقفت وتفقدت الباب فوجدته مغلقا فلما انقطع الكلام دخلت اليه فاذا هو وحده كما تركته وسألته عن ذلك فقال هو الخضر دخل علي وفي يده حبة فقال هذه حبتك جئتك بها من أرض نجد وفيها شفاء مرضك فقلت لا أريد اذهب أنت وحبتك لا حاجة لي بها ودخل عليه بعض نسائه يوما فوجدته بصيرا نقي الجسم من الجذام فلما نظرته قال لها أتريدين أبقى لك هكذا فقالت له يا سيدي كن كيف شئت انما مقصودي خدمتك وبركتك وقيل له وقد تكاثرت منه رؤيته الاشياء واخباره بها مع كونه ضريرا عن ذلك فقال كلي أعين بأي عضو أردت أن أنظر به نظرت وقال هممت أن أدعو برفع الغلاء فقيل لي لا تدع فانسمع لاحد منكم في هذا الامر دعاء فسافرت الى الشام فلما وصلت الى بلد الخليل عليه السلام تلقاني رسول الله الخليل حين ورودي عليه فقلت يا رسول الله اجعل ضيافتي عندك أهل مصر فدعا لهم ففرج عنهم ومناقبه رحمه الله تعالى وكراماته لا يفي بها هذا المختصر وانما قصدنا بذكره البركة وكفارة ماوقع في هذا الكتاب من الاحماض والله المرجو في العفو * ومن فوائده ما نقله عن شيخه أبي الربيع المالقي أنه قال ألا أعلمك كنزا تنفق منه ولا ينفد قلت بلى قال قل يا ألله يا أحد يا واحد يا موجود يا جواد يا باسط يا كريم يا وهاب يا ذا الطول يا غني يا مغني يا فتاح يا رزاق يا عليم يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام يا حنان يا منان انفحني منك بنفحة خير تغنيني بها عمن سواك ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح انا فتحنا لك فتحا مبينا نصر من الله وفتح قريب اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود ياذا العرش المجيد يا فعالا لما يريد اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك واحفظني بما حفظت به الذكر الحكيم وانصرني بما نصرت به الرسل انك على كل شئ قدير فمن داوم على قراءته بعد كل صلاة خصوصا صلاة الجمعة حفظه الله تعالى من كل مخوف ونصره على أعدائه وأغناه ورزقه من حيث لا يحتسب ويسر عليه معيشته وقضى عنه دينه ولو كان عليه أمثال الجبال دينا بكرمه واحسانه انتهى نقله عنه العلامة ابن داود البلوري الاندلسي ومن خطه نقلت رحم الله تعالى

الجميع ونقله اليافعي كما ذكر رحمه الله تعالى الا أنه لم يقل فيه باودود واتفقا فيما عدا ذلك والله سبحانه أعلم * وقال ابن خلكان في حقه محمد بن أحمد بن ابراهيم القرشي الهاشمي العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء كانت له كرامات ظاهرة ورأيت أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة ولقيت جماعة ممن صحبه وكل منهم يثني عليه من بركته وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية وأنها صحت كلها وكان من السادات الاكابر والطراز الاول وهو مغربي صحب بالمغرب اعلام الزهاد وانتفع بهم فلما وصل الى مصر انتفع به من صحبه أو شاهده ثم سافر الى الشام قاصدا زيارة بيت المقدس وأقام بها الى ان مات وصلي عليه بالمسجد الاقصى وهو ابن خمس وخمسين سنة وقبره ظاهر للزيارة والتبرك * والجزيرة الخضراء في بلاد الاندلس مدينة تقابل سبتة من بر العدوة ومن جملة وصاياه لاصحابه سيروا الى الله تعالى عرجا ومكاسير فان انتظار الصحة بطالة انتهى ببعض اختصار *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين بن أبي الحسين القرطبي سمع من قاسم بن أصبغ وغيره وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبي الموال والباوردي وابن السكن في آخرين وسمع بالرملة وبيت المقدس وكان ضابطا بصيرا بالنحو واللغة فصيحا بليغا طويل اللسان ولي الشرطة ببلاد المغرب توفي سنة ٣٧٣ *(ومنهم أبو بكر الجياني محمد بن علي بن خلف التجيبي الاشبيلي الحافظ الكاتب روى عن ابن الجد وغيره ومر بمصر حاجا فلقي بمكة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن المكناسي ولقي بالاسكندرية السلفي وابن عوف وغيرهما وكان مدرسا للفقه فقيها جليلا متقدما فيه عارفا فاضلا سنيا توفي بعد امتحان من منصور ابن عبد المؤمن سنة ٥٩٦ وذلك انه وشي به للمنصور أيام عزم على ترك التقليد والعمل بالحديث *(ومنهم أبو بكر الاندلسي الجياني محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن ياسر الانصاري سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وماوراء النهر ولقي أئمتها وتفقه ببخاري حتى تمهر في المذهب والخلاف والجدل ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصل منه كثيرا ثم سكن بلخ مدة وعاد الى بغداد ودخلها سنة ٥٥٩ وتوجه الى مكة فحج ورجع الى الشام واستوطن حلب الى ان توفي بها ووقف كتبه وكان متدينا صدوقا حافظا عالما بالحديث وفيه فضل ولد بجيان سنة ٤٩٢ ومات بحلب سنة ٥٦٣ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي التجيبي الدهان الغرناطي كان حسن السمت بارع الخط والخلق والخلق رحل الى الحج وجال في البلاد في حدود سنة ست وستمائة فأخذ بمكة والشام ومصر والاسكندرية عن جماعة كثيرة وكان عدلا فاضلا على خير ودين وكان محترفا بالتجارة بغرناطة ثم خرج منها آخر عمره فمات بقوص بعد ما حج سنة ٦٥٠ وصدوره من مكة سنة ٦٥٣ فمات قبل منتصف السنة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عمر محمد بن علي بن محمد بن أبي الربيع القرشي العثماني الاندلسي الاشبيلي النحوي ولد سنة ٦١٧ باشبيلية وقدم مصر فسمع الكثير بها وبدمشق وغيرها وكان اماما عالما نحويا فاضلا كتب عنه أبو محمد الدمياطي والقطب عبد الكريم وناهيك بهما علما *(ومنهم أبو بكر بن عبد الله محمد بن علي

ابن محمد بن على بن هذيل البلنسى رحل وسمع من السلفى وحج قال أبو الربيع ابن سالم هو شيخ صدوق متيقظ سمع أباه وأبا الوليد بن الدباغ وأبا الحسن بن طارق بن موسى ابن يعيش وجماعة وأخذ بمكة سنة ٥٣٩ عن أبى على الحسن المقرى وقفل الى الاندلس سنة ٥٤٦ فأخذ عنه بها وسمع منه جماعة قال ابن الابار كان غاية فى الصلاح وأعمال البر والورع توفى ببعض قرى بلنسية سنة ٥٤٨ ومولده سنة سبع أو تسع عشرة وخمسمائة وله حظ من علم التعبير واللغة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله ويقال أبو سلمة محمد بن على البياسى الغرناطى الانصارى ناصر الدين روى عن الحافظ أبى جعفر بن الزبير وغيره وقدم الى القاهرة واستوطنها بعد الحج حتى مات بها سنة ٧٠٣ وكان عارفا بعلم الحديث وكتب منه كثيرا ومال الى مذهب الظاهرية وانتفع به جماعة من طلبة الحديث وكان ثقة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن على بن يحيى ابن على الشامى الاندلسى الغرناطى قدم مصر حاجا وأقام بمكة والمدينة وكان اماما فاضلا عالما متفننا فى علوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقراآت ونظم ونثر ومع معرفته بمذهب مالك ينقل كثيرا من مذهب الشافعى وسمع الموطأ بتونس من أبى محمد بن هرون القرطبى ومولده بغرناطة سنة ٦٧١ وتوفى سنة ٧١٥ ومن شعره رضى الله تعالى عنه

اذا كنت جار النبى وصحبه * ومكة بيت الله منى على قرب
فاضر نى ان فاتنى رغد عيشة * وحسبى الذى أوتيته نعمة حسبى

وقوله

نزيل الكرام عزيز الجوار * وانى نزيل عليكم وجار
حللت ذرا الله وأنت الكريم * ومن حل مثوى كريم يجار

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمار الكلاعى الميورقى قدم مصر وروى عن ابن الوليد بها وكان عالما وله قصيدة طويلة فيها حكم ومواعظ يوصى ابنه بها منها قوله

وطاعة من اليه الامر فالزم * وان جاروا وكانوا مسلمينا
فان كفروا ككفر بنى عبيد * فلا تسكن ديار الكافرينا

واسم ابنه حسن وسمع من المذكور الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى فى رحلته سنة ٤٨٥ ووصفه بالعلم وعمار بالراء *(ومنهم) أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار القرطبى الحافظ روى عن عيسى الليثى وابن عون الله وأبى جعفر التميمى وأبى محمد الباجى وقدم مصر وحج وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام وافتى بها وافتخر بذلك على أصحابه وقال لقد شوورت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم دار مالك بن أنس ومكان شوراه ولقى جماعة من العلماء وأخذ عنهم وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم عارفا بمذاهب الائمة وأقوال العلماء ذاكرا للروايات يحفظ المدونة والنوادر لابن أبى زيد ويوردها من صدره دون كتاب قال ابن حيان مؤرخ الاندلس توفى الفقيه المشاور الحافظ المستبحر الرواية الطويل الهجرة فى طلب العلم الناسك المتقشف بمدينة بلنسية فى ربيع الاول سنة ٤١٧ لعشر خلون من الشهر وكان الحفل فى جنازته

عظيما وعاين الناس فيها آية من ظهور أشباه الخطاطيف بها تجللت الجمع رافة فوق النعش لم تفارق نعشه الى أن ووري فتفرقت ومكث مدة ببلنسية مطاعا عظيم القدر عند السلطان والعامة وذكر طاهر بن عبد الرحمن حديث الطير وكذا ذكر الحسن بن محمد القيسي خبر الطير قال وكان سنه نحو الثمانين سنة وكان مجاب الدعوة وظهرت في دعوته الاجابة وقال أبو عمرو الداني ان وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الاول سنة تسع عشرة ودفن يوم الاحد بمدينة بلنسية وبلغ نحو ست وسبعين سنة وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العاملين بالكتاب والسنة بالاندلس رحمه الله تعالى

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عروس القرطبي سمع على ابن مفرج وغيره من شيوخ قرطبة وقدم مصر فاخذ بها عن ابن المهندس وغيره وحج ودخل العراق وسمع من أبي بكر الابهري والدارقطني وجماعة وعاد الى الاندلس وشهر بالعلم والمال وولي الاحباس بقرطبة حدث عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره ومات في جمادى الآخرة سنة أربعمائة رحمه الله تعالى

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المغافري المعروف بالاعشى القرطبي رحل سنة ١٧٩ فسمع سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن وهب وجماعة وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب الى مذهب أهل العراق وتوفي سنة ٢٢١ ذكره ابن يونس وغيره *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي الالبيري الزاهد قال الحميدي في حقه هو من أهل الحديث والحفظ والفهم والبحث عن الرجال وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخي عبد الله بن وهب وغيرهما وروى بالاندلس عن جماعة منهم بقي بن مخلد وابن وضاح وسمع بمكة وغيرها من مائة شيخ قال ابن الفرضي كان شيخا نبيلا ضابطا لكتبه ثقة في روايته صدوقا في حديثه وكانت الرحلة اليه بالبيرة وبها مات في شوال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة رحمه الله تعالى

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار القرطبي من موالي بني أمية سمع من أبيه ومن بقي بن مخلد وغيره ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائي ومن أحمد بن حماد زغبة وسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والاسكندرية والقيروان من مائة وستين رجلا قال أبو محمد الباجي لم أدرك بقرطبة أكثر حديثا منه وكان عالما بالفقه متقدما في علم الوثائق رأسا فيها وكان مشاورا سمع من الناس كثيرا وكان ثقة صدوقا وغزا سنة ٣٢٧ ومات ثالث الحجة منها ومولده سنة ٢٦٣ وقيل توفي سنة ٣٢٨ قاله ابن يونس والحميدي *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم القرشي الفهري عرف بابن رمان الغرناطي قرأ على أبي جعفر بن الزبير بها وقدم الى القاهرة سنة ٧٢٢ ومات بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧٢٩ ومن شعره قوله

قد يتم خبروني كيف صحت * فريضة مالك من غير مين
لزيد زوجة ولها ابن أم * فمات عنهما لا غير ذين
فحاز البعل ما ترك تسه ارثا * وولي غيره صفر اليدين

ولا رق فديت على أخيها * وليس بكافر يرمي بشين
وليس مجللا او نابقبل * مخافة أن ينال شقاوتين

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي الشاطبي حدث بالقاهرة وتوفي قريبا من سنة ٦٤٠ وهو أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ ومن كلامه اشتغالك بوقت لم يأت تضييع للوقت الذي أنت فيه ولعمري لقد صدق *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي بن محمد بن ابراهيم بن الحسين بن سراقة محيي الدين ويكنى أيضا أبا القاسم وأبا بكر الانصاري الشاطبي المالكي ولد بشاطبة سنة ٥٩٢ وسمع من أبي القاسم ابن بقي ورحل في طلب الحديث فسمع ببغداد من الشيخ أبي حفص عمر السهروردي وأبي طالب الغبيطي وأبي جعفر الدينوري وجماعة وسمع بحلب من ابن شداد وغيره وولي مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصري سنة ٦٤٢ وبقي بها الى أن توفي بالقاهرة في شعبان سنة ٦٦٣ ودفن بسفح المقطم وكان الجمع كبيرا وهو أحد الائمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل وأحد مشايخ الصوفية له في ذلك اشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيدة بمعاني الشعر وكان صالح الفكرة في حل التراجم مع ما جبل عليه من كرم الاخلاق واطراح التكليف ورقة الطبع ولين الجانب ومن شعره قوله

نصبت ومثلي للمكارم ينصب * ورمت شروق الشمس وهي تغرب
وحاولت احياء النفوس بأسرها * وقد غرغرت يا بعد ما أنا أطلب
وأتعب ان لم تمنح الخلق راحة * وغيري ان لم تتعب الخلق يتعب
مرادي شيء والمقادير غيره * ومن عاند الاقدار لاشك يغلب

وقوله

الى كم أمني النفس مالا تناله * فيذهب عمري والاماني لاتقضى
وقد مر لي خمس وعشرون حجة * ولم أرض فيها عيشتي فتى أرضى
وأعلم أني والثلاثون مدتي * حر بغاني اللهو أوسعها رفضا
فماذا عسى في هذه الخمس أرتجي * ووجدي الى أوب من العشر قد أفضى
فيارب عجل لي حياة لذيذة * والافبادر بي الى العمل الأرضى

وقال رحمه الله تعالى

وصاحب كالزلال يمحو * صفاؤه الشك باليقين
لم يحص الا الجميل مني * كأنه كاتب اليمين

وهذا عكس قول المنازي

وصاحب خلته خليلا * وما جرى غدره ببالي
لم يحص الا القبيح مني * كأنه كاتب الشمال

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشي بكسر الفاء وتشديد الراء المهملة بعدها شين معجمة نسبة الى فريش احدى مدائن قرطبة ولد بغرناطة سنة ٥٥٧ وقرأ بالروايات على

أبي القاسم بن غالب وسمع عليه وعلى أبي القاسم بن بشكوال وغيره وسمع بمكة وحدث بمصر وعاد الى الاندلس فمات بقرطبة سنة ٦٣٣ وكان مشهورا بالصلاح معروفا باجابة الدعاء ورعا ثقة زاهدا فاضلا رحمه الله تعالى * (ومنهم ابو عبد الله محمد بن محمد بن خيرون وقيل محمد بن عمر بن خيرون أندلسي سكن القيروان رحل الى المشرق وأخذ القرا آت بمصر عن محمد بن سعيد الانماطي وغيره كعبد الله بن رجاء وأبي الحسن بن اسمعيل بن يعقوب الازرق المدني ودخل العراق وسمع به من أصحاب علي بن المدني ويحيي بن معين وعاد الى القيروان وسمع بها وبقرطبة وقدم بقراءة نافع على اهل افريقية وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة ولم يكن يقرأ بحرف نافع الا الخواص حتى قدم بها فاجتمع اليه الناس ورحل اليه أهل القيروان من الآفاق وكان يأخذ أخذا شديدا على مذهب المشيخة من أصحاب ورش وتوفي بشعبان سنة ٣٠٦ وكان رجلا صالحا فاضلا كريم الاخلاق اماما في القرا آت مشهورا بذلك ثقة مأمونا واحد أهل زمانه وأثبتهم في علم القرآن رحمه الله تعالى *(ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بندار القيسي الاندلسي المالقي ولد بمالقة سنة ٥٦٢ وسمع الكثير وقدم القاهرة حاجا فسمع بها وبدمشق وكتب بخطه كثيرا وكان سريع الكتابة سريع القراءة كثير الفوائد دينا خيرا فاضلا له مشاركة جيدة في عدة علوم توفي شابا بالقاهرة سنة ٦٦٢ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو بكر محمد الزهري المعروف بابن محرز البلنسي ولد بها سنة ٥٢٩ وقدم مصر فسمع ابن الفضل وغيره وروى عنه جماعة وكان أحد رجال الكمال علما وادراكا وفصاحة وحفظا للفقه وتفننا في العلوم ومشاركة في الادب حافظا للغة والغريب وله شعر رائق ودين متين وأخذ الناس عنه ببلده وبمرسية واشبيلية ومالقة وغرناطة في اجتيازه عليها وبغيرها من البلاد وعلا صيته وعرف بالدين والعلم والفضل وكان أبو الخطاب يثني على علمه ودينه توفي ببجاية سنة ٦٥٥ عن سن عالية رحمه الله تعالى *(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق)* القاضي أبو الوليد الباجي صاحب التصانيف المشهورة وقال ابن ماكولا في حقه انه فقيه متكلم أديب شاعر سمع بالعراق ودرّس وصنف الى أن مات وكان جليلا رفيع القدر والخطر وقال غير واحد انه ولد سنة ٤٠٣ وارتحل سنة ٤٢٦ وجاور ثلاثة أعوام ملازما لابي ذر الحافظ يخدمه ورحل الى بغداد ودمشق ولقي في رحلته غير واحد وتفقه بالقاضي أبي الطيب الطبري وغيره وقال أبو علي بن سكرة ما رأيت مثل أبي الوليد الباجي وما رأيت أحدا على هيئته وسمته وتوقير مجلسه ولما كنت ببغداد قدم ولده أبو القاسم فسرت معه الى شيخنا قاضي القضاة الشاشي فقلت له ادام الله تعالى عزك هذا ابن شيخ الاندلس فقال لعله ابن الباجي فقلت نعم فأقبل عليه قال القاضي عياض وكثرت القالة في القاضي أبي الوليد لمداخلته الرؤساء وولي قضاء أماكن تصغر عن قدره وكان يبعث الى تلك النواحي خلفاءه وربما أتاها المرة ونحوها وكان في أول أمره مقلا حتى احتاج الى القصد بشعره واستأجر نفسه مدة مقامه ببغداد فيما سمعته مستفيضا لحراسة درب وقد جمع ابنه شعره قال ولما قدم الاندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة الا أنه

كان خارجا عن المذهب ولم يكن بالاندلس من يشتغل بعلمه فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها واتبعه أهلها فلما قدم أبو الوليد كلموه فى ذلك فدخل اليه وناظره وشهر باطله وله معه مجالس كثيرة ولما تكلم أبو الوليد فى حديث الكتابة يوم الحديبية الذى فى البخارى قال بظاهر لفظه فأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ وكفره باجازة الكتب على الرسول الامى صلى الله عليه وسلم وأنه تكذيب للقرآن فتكلم فى ذلك من لم يفهم الكلام حتى أثاروا عليه الفتنة وقبحوا عليه عند العامة ما أتى به وتكلم به خطباؤهم فى الجمع وقال شاعرهم

برئت ممن شرى دنيا بآخرة * وقال ان رسول الله قد كتبا

فصنف أبو الوليد رحمه الله تعالى رسالة بين فيها أن ذلك غير قادح فى المعجزة فرجع بها جماعة اذ ليس من عرف أن يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه أميا لانه لا يسمى كاتبا وجماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة العلامة وهم أميون والحكم للغالب لا للصور النادرة وقد قال عليه الصلاة والسلام انا أمة أميون أى أكثرهم كذلك لندور الكتابة فى الصحابة وقال تعالى هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم انتهى وبعضه بالمعنى وذكر ابن بسام ان أبا الوليد الباجى نشأ وهمته فى العلم وانه بدأ بالادب فبرز فى ميادينه وجعل الشعر بضاعته فنال به من كل الرغائب ثم رحل فما حل بلدا الا وجده ملآن بذكره نشوان من قهوتى نظمه ونثره فمال الى علم الديانة فمشى بعقياس وبنى على أساس حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه ويرتاحون للاخذ عنه ثم كر واستقضى فى طريقه بجاب فأقام بها نحوا من عام قال وبلغنى عن ابن حزم انه كان يقول لو لم يكن لاصحاب المذهب المالكى بعد عبد الوهاب الا مثل أبى الوليد الباجى لكفاهم وصنف أبو الوليد كتبا كثيرة منها كتاب التسديد الى معرفة التوحيد وكتاب سنن المنهاج وترتيب الحجاج وكتاب أحكام الفصول فى احكام الاصول وكتاب التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخارى فى الصحيح وكتاب شرح الموطا وهو نسختان نسخة سماها الاستيفاء ثم انتقى منها فوائد سماها المنتقى فى سبع مجلدات وهو أحسن كتاب ألف فى مذهب مالك لانه شرح فيه أحاديث الموطا وفرع عليها تفريعا حسنا وأفرد منه شيأ سماه الايماء وقال بعضهم انه صنف كتاب المعانى فى شرح الموطا فجاء عشرين مجلدا عديم النظير وكان أيضا صنف كتابا كبيرا جامعا بلغ فيه الغاية سماه الاستيفاء وله كتاب الايماء فى الفقه خمس مجلدات انتهى ومن تصانيفه مختصر المختصر فى مسائل المدونة وله كتاب اختلاف الموطآت وكتاب الاشارة فى أصول الفقه وكتاب الحدود وكتاب سنن الصالحين وكتاب التفسير لم يتمه وكتاب شرح المنهاج وكتاب التبيين لسائل المهتدين فى اختصار فرق الفقهاء وكتاب السراج فى الخلاف ولم يتم وغير ذلك وحج الباجى رحمه الله تعالى أربع حجج جاور فيها ثلاثة أعوام ملازما لابى ذر بن أحمد الهروى وكان يسافر معه للسروات لان أبا ذر تزوج من العرب وسكن بها وأبو ذر المذكور هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عفير الانصارى المالكى ويعرف بابن السماك سمع بهراة وسرخس وبلخ ومرو

والبصرة

والبصرة وبغداد ودمشق ومصر وجاور بمكة وألف معجم الشيوخ وعمل الصحيح وصنف التصانيف قال الخطيب قدم أبو ذر بغداد وأنا غائب فحدث بها ثم حج وجاور ثم تزوج في العرب وسكن السروات وكان يحج كل عام ويحدث ثم يرجع وكان ثقة ضابطا دينا وقال الحسن بن بقي المالقي حدثني شيخ قال قيل لابي ذر من أين تمذهبت بمذهب مالك ورأي الاشعري مع أنك هروي فقال قدمت بغداد وكنت ماشيا مع الدارقطني فلقينا أبا بكر ابن الطيب فالتزمه الدارقطني وقبل وجهه وعينيه فلما افترقنا قلت من هذا قال هذا امام المسلمين والذاب عن الدين القاضي أبو بكر بن الطيب فمن ذلك الوقت تكررت اليه وتمذهبت بمذهبه انتهى قلت هذا صريح في أن القاضي أبا بكر الباقلاني مالكي وهو الذي جزم به غير واحد ولذا ذكره عياض في المدارك في جملة المالكية وكذلك شيخ السنة الامام أبو الحسن الاشعري مالكي المذهب فيما ذكره غير واحد من الائمة وذكر بعض الشافعية انهما شافعيان والله تعالى أعلم * وقال عبد الغافر في تاريخ نيسابور كان أبو ذر زاهدا ورعا عالما سخيا لا يدخر شيأ وصار كبير مشيخة الحرم مشارا اليه في التصوف خرج على الصحيح تخريجا حسنا وكان حافظا كثير الشيوخ توفي سنة ٤٣٥ وقال أبو علي بن سكرة توفي عقب شوال سنة ٤٣٤ وقال الخطيب في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثين رحمه الله تعالى وأكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب اما من رواية الباجي عن أبي ذر عبد بن أحمد الهروي المذكور واما من رواية أبي علي الصدفي الشهير المعروف بابن سكرة بسنده واعلم أن هراة المنسوب اليها الحافظ أبو ذر ليست بهراة التي وراء النهر نظيرة بلخ وانما هي هراة بني شيبانة بالحجاز وبها كان سكنى أبي ذر والله تعالى أعلم * (رجع الى القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى) ثم انه أعني الباجي قدم بغداد وأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث فلقي بها عدة من العلماء كأبي الطيب الطبري والامام الشهير أبي اسحق الشيرازي والصيمري وابن عمروس المالكي وأقام بالموصل سنة مع أبي جعفر السمناني يأخذ عنه علم الكلام فبرع في الحديث وعلله ورجاله وفي الفقه وغوامضه وخلافه وفي الكلام ومضايقه وتدبج مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي بحيث روى كل واحد منهما عن الآخر رضي الله تعالى عنهما ونفع بهما ورجع الى الاندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جم حصله مع الفقر والتعفف ومما يفتخر به انه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر بن عبد البر والخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادي وناهيك بهما وهما أسن منه وأكبر وأبو عبد الله الحميدي وعلي بن عبد الله الصقلي وأحمد بن علي ابن غزلون وأبو بكر الطرطوشي وأبو علي بن الحسين السبتي وأبو بحر سفيان بن العاصي وممن روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد وكان لما رجع الى الاندلس فشا علمه وتهيأت الدنيا له وعظم جاهه وأجزلت له الصلات فمات عن مال وافر وترسل للملوك وولي القضاء بعدة مواضع رحمه الله تعالى * وأما ما تقدم عن القاضي أبي الوليد الباجي من اجراء حديث الكتابة على ظاهره فهو قول بعض والصواب خلافه قال القاضي أبو الفضل عياض حدثنا محمد بن علي المعروف بابن الصقل الشاطبي من لفظه قال حدثني أبو الحسن

ابن مفوز قال كان أبو محمد بن أحمد بن الحاج الهوّاري من أهل جزيرة شقر ممن لازم الباجي وتفقه عنده وكان يميل الى مذهب الباجي في جواز مباشرة النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده في حديث المقاضاة في الحديبية على ما جاء في ظاهر بعض رواياته ويعجب به وكنت أنكر ذلك عليه فلما كان بعد برهة أتاني زائرا على عادته وأعلمني أنّ رجلا من اخوانه كان يرى في النوم أنه بالمدينة وأنه يدخل المسجد فيرى قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أمامه فتحدث له قشعريرة وهيبة عظيمة ثم يراه ينشق ويميد ولا يستقر فيعتريه منه فزع عظيم وسألني عن عبارة رؤياه فقلت أخشى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير صفته أو ينتحله ما ليس له بأصل أو لعله يفترى عليه فسألني بالله من أين قلت هذا قلت له من قول الله عز وجل تكاد السموات يتفطرن منه الى قوله تعالى ولدا فقال لي لله درّك يا سيدي وأقبل يقبل رأسي وبين عينيّ ويبكي مرّة ويضحك أخرى ثم قال لي أنا صاحب الرؤيا واسمع تمامها يشهد لك بصحة تأويلك قال انه لما رأيتني في ذلك الفزع العظيم كنت أقول والله ما هذا الا أني أقول وأعتقد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب فكنت أبكي وأقول أنا تائب يا رسول الله وأكرر ذلك مرارا فأرى القبر قد عاد الى هيأته أوّلا وسكن فاستيقظت ثم قال لي وأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كتب قط حرفا وعليه ألقى الله تعالى فقلت الحمد لله الذي أراك البرهان فاشكره له كثيرا انتهى وقال ابن الابار حدّثني بهذه الحكاية أبو الربيع بن سالم بقراءتي عليه عن الكاتب أبي بكر عبد الرحمن ابن مغاور وقراءة عليه عن القاضي أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن جحدر عن أبي الحسن طاهر بن مفوز قال كان أبو محمد الى آخرها وهي أتمّ من هذه انتهى *(رجع الى الباجي ذكر أبو العرب عبد الوهاب البقشانيّ بسنده الى القاضي أبي الوليد الباجي انه كان يقول وقد ذكرت له صحبة السلطان لولا السلطان لنقلتني الذرّ من الظل الى الشمس أو ما هذا معناه انتهى *(ومن فوائد الباجي انه حكى أن الطلبة كانوا يتناوبون مجلس أبي عليّ البغداديّ واتفق أنه كان يوما مطر ووحل فلم يحضر من الطلبة سوى واحد فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال واتيانه في تلك الحال أنشده

دببت للمجد والساعون قد بلغوا * حدّ النفوس وألقوا دونه الازرا

وكابدوا المجد حتى ملّ أكثرهم * وعانق المجد من وافى ومن صبرا

لاتحسب المجد تمرا أنت آكله * لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا انتهى

وروى عن القاضي أبي الوليد الباجيّ رحمه الله تعالى الخطيب البغداديّ قوله رحمه الله تعالى

اذا كنت أعلم علم اليقين * بأن جميع حياتي كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها * وأجعلها في صلاح وطاعه

وقد ذكرناهما فيما يأتي قريبا من كلام الفتح لكونّا نقلنا كلامه بلفظه رحمه الله تعالى ورضي عنه وقال في القلائد في حق الباجي رحمه الله تعالى ما صورته بدر العلوم اللائح وقطرها الغادي الرائح وثبيرها الذي لا يزحم ومنيرها الذي ينجلي به ليلها الاسحم كان

امام الاندلس الذى تقتبس أنواره وتنتجع نجوده وأغواره رحل الى المشرق فعكف على الطلب ساهرا وقطف من العلم أزاهرا وتفنن فى اقتنائه وثنى اليه عنان اعتنائه حتى غدا ممتلئ الوطاب وعاد بلغ طلبه الى الارطاب فكر الى الاندلس بحرا لا تخاض لجته وفجرا لا يطمس منهجه فتهادته الدول وتلقته الخيل والخول وانتقل من محجر الى ناظر وتبدل من يانع بناضر ثم استدعاه المقتدر بالله فصار اليه مرتاحا وبدا بافقه ملتاحا وهنالك ظهرت تواليفه وأوضاعه وبدا وخده فى سبيل الهدى وايضاعه وكان المقتدر يباهى بانحياشه الى سلطانه وايثاره لحضرته باستيطانه ويحتفل فيما يرتبه له ويجريه وينزله فى مكانه متى كان يوافيه وكان له نظم يوقف على ذاته ولا يصرفه فى رفث القول وبذاته (فمن ذلك قوله فى معنى الزهد

اذا كنت أعلم علم اليقين * بأن جميع حياتى كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها * وأجعلها فى صلاح وطاعه

وله يرثى ابنيه وماتا مقتربين وغربا كوكبين وكانا ناظرى الدهر وساحرى النظم والنثر

رعى الله قبرين استكانا ببلدة * هما اسكناها فى السواد من القلب

لئن غيبا عن ناظرى وتبوآ * فؤادى لقد زاد التباعد فى القرب

يقر بعينى أن أزور ثراهما * وألصق مكنون الترائب بالترب

وأبكى وأبكى ساكنيها العلى * سأنجد من صحب وأسعد من سحب

فما ساعدت ورق الحمام أخا أسى * ولا روحت ريح الصبا عن اخى كرب

ولا استعذبت عيناى بعدهما كرى * ولا ظمئت نفسى الى البارد العذب

أحن ويثنى اليأس نفسى عن الاسى * كما اضطر محمول على المركب الصعب

وله يرثى ابنه محمدا

أمحمد ان كنت بعدك صابرا * صبر السليم لما به لا يسلم

ورزئت قبلك بالنبى محمد * ولرزؤه أدهى لدى وأعظم

فلقد علمت بأننى بك لاحق * من بعد ظنى أننى متقدم

لله ذكر لا يزال بخاطرى * متصرف فى صبره متحكم

فاذا نظرت فشخصه متخيل * واذا أصخت فصوته متوهم

وبكل أرض لى من اجلك لوعة * وبكل قبر وقفة وتلوم

فاذا دعوت سواك حاد عن اسمه * ودعاه باسمك معول بك مغرم

حكم الردى ومناهج قد سنها * لاولى النهى والحزن قبل متمم انتهى

ولعمرى انه لم يوف القاضى أبا الوليد الباجى حقه الواجب المفترض ووددت أنه مد النفس فى ترجمته بعبارة يعترف ببراعتها من سلم له ومن اعترض فان ترجمة المذكور مما سطره أفسح مجالا وأفصح روية وارتجالا وبالجملة فهو أحد الاعلام بالاندلس وهو سليمان ابن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى وذكره ابن بسام فى الذخيرة وابن خلكان وغير

واحد وأصله من بطليوس وانتقل جده الى باجة قرب اشبيلية وليس هو من باجة القيروان ومولده سنة ٤٠٣ ورحل سنة ٤٢٦ فقدم مصر وسمع بها واجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب وكان لما رجع الى الاندلس يضرب ورق الذهب ويعقد الوثائق الى أن فشا علمه وتهيأت له الدنيا وشهرته تغني عن وصفه ومن نظمه قوله

ماطال عهدى بالديار وانما * أنسى معاهدها أسى وتبلد

لو كنت أنبأت الديار صبابتى * رق الصفا بفنائها والجلمد

وله فى المعتضد عباد والد المعتمد

عباد استعبد البرايا * بأنعم تبلغ النعائم

مديحه ضمن كل قلب * حتى تغنت به الحمائم

ومن أشهر نظمه قوله اذا كنت أعلم البيتين وقد سبقا * ومن ذكره أيضا الحجارى فى المسهب وابن بشكوال فى الصلة وأنه حج أربع حجج رحمه الله تعالى وتوفى فى المرية لاحدى عشرة بقيت من رجب وقيل ليلة الخميس تاسع رجب وقيل تاسع عشر صفر سنة أربع وسبعين وأربعمائة ومن تواليفه المنتقى فى شرح الموطا ذهب فيه مذهب الاجتهاد وايراد الحجج وهو مما يدل على تبحره فى العلوم والفنون ولما قدم من المشرق الى الاندلس بعد ثلاثة عشر عاما وجد ملوك الطوائف أحزابا مفترقة فمشى بينهم فى الصلح وهم يجاولنه فى الظاهر و يستثقلونه فى الباطن و يستبردون نزعته ولم يفد شيأ فالله تعالى يجازيه عن نيته ولما ناظر ابن حزم قال له الباجى أنا أعظم منك همة فى طلب العلم لانك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق فقال ابن حزم هذا الكلام عليك لا لك لانك انما طلبت العلم وأنت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وماذكرته فلم أرج به الاعلو القدر العلى فى الدنيا والآخرة فأفحمه قال عياض قال لى أصحابه كان يخرج الينا للاقراء وفى يده أثر المطرقة الى أن فشا علمه ونوهت الدنيا به وعظم جاهه وأجزلت صلاته حتى مات عن مال وافر وكان يستعمله الاعيان فى ترسلهم ويقبل جوائزهم وولى القضاء بمواضع من الاندلس *(وابن حزم المذكور) هو أبو محمد بن حزم الظاهرى قال ابن حيان وغيره كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل وله كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة لم يخل فيها من غلط وكان شافعى المذهب يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريا فوضع الكتب فى هذا المذهب وثبت عليه الى أن مات وكان له تعلق بالادب وشنع عليه الفقهاء وطعنوا فيه وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه وتوفى بالبادية عشية يوم الاحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة قال صاعد فى تاريخه كان ابن حزم أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والاخبار أخبرنى ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مجلد نقله عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبى قال الذهبى وهو العلامة أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ابن غالب بن صالح الاموى مولاهم الفارسى الاصل الاندلسى القرطبى الظاهرى

صاحب

صاحب المصنفات وأول سماعه سنة ٣٩٩ وكان اليه المنتهى فى الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسودد والرياسة والثروة وكثرة الكتب قال الغزالى رحمه الله تعالى وجدت فى أسماء الله تعالى كتابا لابى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه انتهى باختصار وعلى الجملة فهو نسيج وحده لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد والوقوع فى السلف الذى أثار عليه الانتقاد سامحه الله تعالى * وذكر الذهبى أن عمره اثنان وسبعون سنة وهو لا ينافى قول غيره انه كان عمره احدى وسبعين سنة وعشرة أشهر لانه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقى من ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الامام من صلاة الصبح آخر ليلة الاربعاء آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة بطالع العقرب وتوفى ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦ وكان كثير المواظبة على التأليف ومن جملة تآليفه كتاب الفصل بين أهل الاهواء والنحل وكتاب الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد وكتاب شرح حديث الموطا والكلام على مسائله وكتاب الجامع فى صحيح الحديث باختصار الاسانيد والاقتصار على أصحها وكتاب التلخيص والتخليص فى المسائل النظرية وفروعها التى لا نص عليها فى الكتاب والحديث وكتاب منتقى الاجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف وكتاب الامامة والخلافة فى سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها وكتاب اخلاق النفس وكتاب الايصال الى فهم كتاب الخصال وكتاب كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس انتهى * وقال ابن سعيد فى حق ابن حزم ما ملخصه الوزير العالم الحافظ ابو محمد على ابن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسى وشهرته تغنى عن وصفه وتوفى منفيا بقرية من بلده لبلة ووصله من ابن عمه أبى المغيرة رسالة فيها ما أوجب أن جاوبه بهذه الرسالة وهى سمعت وأطعت لقوله تعالى وأعرض عن الجاهلين وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام صل من قطعك واعف عمن ظلمك ورضيت بقول الحكماء كفاك انتصارا ممن تعرض لاذاك اعراضك عنه وأقول

تتبع سواى امرأ يبتغى * سبابك ان هواك السباب
فانى أبيت طلاب السفاه * ونزهت عرضى عما يعاب
وقل ما بدالك من بعد ذا * واكثر فان سكوتى خطاب

وأقول

كفانى بذكر الناس لى ومآثرى * ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر
عدوى وأشياعى كثير كذا الذى * غدا وهو نفاع المساعى وضائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى * لمحتمل ما جاءنى منك صابر

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته قرأت هذه الرقعة العاقة فحين استوعبتها أنشدتنى

بخ بخ زيد وسعل * لما رأى وقع الاسل

فأردت قطعها وترك المراجعة عنها فقالت لى نفسى قد عرفت مكانها بالله لا قطعتها الابد
وأثبت على ظهرها ما يكون سببا الى صونها فقلت

نعقت ولم تدر كيف الجواب * وأخطأت حتى أتاك الصواب
وأجريت وحدك فى حلبة * نأت عنك فيها الجياد العراب
وبت من الجهل مستصحبا * لغير قرى فأتتك الذئاب
فكيف تبينت عقبى الظلوم * اذا ما انقضت بالخسيس العقاب
لعمرى مالى طباع تذم * ولا شيمة يوم مجد تعاب
أنيل المنى والظبا سخط * وأعطى الرضا والعوالى غضاب

وأقول

وغاصب حق أوبقته المقادر * يذكرنى حاميم والرمح شاجر
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه * ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تعلم يا أخا الظلم أننى * برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذل لى الاملاك حتى نفوسها * وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا * تلينهم وهى الصعاب النوافر
فان أنو فى أرض فانى سائر * وان أنأ عن قوم فانى حاضر
وحسبك أن الارض عندك خاتم * وانك فى سطح السلامة عاثر
ولا لوم عندى فى استراحتك التى * تنفست عنها والخطوب فواقر
فانى للحلف الذى مر حافظ * وللنزعة الاولى بحاميم ذاكر
هنيئا لكل ما لديه فاننا * عطية من تبلى لديه السرائر

ومن شعر أبى محمد بن حزم يخاطب قاضى الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشر

انا الشمس فى جو العلوم منيرة * ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع * لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولى نحو آفاق العراق صبابة * ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلى بينهم * فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر * وأطلب ما عنه تجىء به الكتب
هنالك تدرى أن للبعد قصة * وأن كساد العلم آفته القرب
فيا عجبا من غاب عنهم تشوقوا * له ودنو المرء من دارهم ذنب
وان مكانا ضاق عنى لضيق * على انه فسح مهامهه سهب
وان رجالا ضيعونى لضيع * وان زمانا لم أنل خصبه جدب

ومنها فى مدحه لنفسه

ولكن لى فى يوسف خير اسوة * وليس على من بالنبى ائتسى ذنب
يقول مقال الصدق والحق اننى * حفيظ عليم ما على صادق عتب

وقوله

لايشمتن حاسدى ان نكبة عرضت * فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر يلقى تحت متربة * طورا وطورا يرى تاجا على ملك

وقوله لما أحرق المعتضد بن عباد كتبه باشبيلية

دعونى من احراق رق وكاغد * وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى * تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى * وينزل ان أنزل ويدفن فى قبرى

وقوله

لئن أصبحت مرتحلا بشخصى * فقلبى عندكم أبدا مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى * لذا سأل المعاينة الكليم

وقوله

وذى عذل فيمن سبانى حسنه * يطيل ملامى فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره * ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت فى اللوم فاتئد * فعندى رد لو أشاء طويل
ألم تر أنى ظاهرى وانى * على ما أرى حتى يقوم دليل

وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن مزيد القرطبى قال ابنه أبو الفضل رافع اجتمع عندى بخط أبى من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة انتهى وأبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور ابن أبى عامر وتوفى كما قال ابن حيان بذى القعدة سنة اثنتين وأربعمائة وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية * وحكى ان الحافظ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامر بن شهيد فى يوم غزير المطر والوحل شديد الريح فلقيه أبو عامر وأعظم قصده على تلك الحال وقال له ياسيدى مثلك يقصدنى فى مثل هذا اليوم فأنشده أبو محمد بن حزم بديها

فلو كانت الدنيا دوينك لجة * وفى الجو صعق دائم وحريق
لسهل ودى فيك نحوك مسلكا * ولم يتعذر لى اليك طريق

قال الحافظ ابن حزم أنشدنى الوزير أبى فى بعض وصاياه لى

اذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن * على حالة الارضيت بدونها

وهذا كاف فى فضل الفرع والاصل رحم الله الجميع * قال ابن حزم فى طوق الحمامة انه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الحطابين من مدينة اشبيلية فلقيهما شاب حسن الوجه فقال أبو محمد هذه صورة حسنة فقال له أبو عمر لم نر الا الوجه فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك فقال ابن حزم ارتجالا وذى عذل فيمن سبانى حسنه الابيات المتقدمة ولابن حزم أيضا قوله

لا تلمنى لان سبقة لحظ * فات ادراكها ذوى الالباب
يسبق الكلب وثبة الليث فى العد * و ويعلوا النخال فوق اللباب

ولابى بكر بن مفوز جزء يرد فيه على أبى محمد بن حزم وفيه قال معترضا

يا من تعانى أمورا لن يعانيها * خل التعانى وأعط القوس باريها
تروى الاحاديث عن كل مسامحة * وانما لمعانيها معانيها

وقيل انه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم *(رجع الى القاضى أبى الوليد الباجى)
ومن نظمه قوله من مرثية

أحن ويثنى الناس نفسى على الاسى * كما اضطر محمول على المركب الصعب

ومن جيد نظمه قوله

أسروا على الليل البهيم سراهم * فنمت عليهم فى الشمال شمائل
متى نزلوا ثاوين بالخيف من منى * بدت للهوى بالمأزمين مخايل
فلله ما ضمت منى وشعابها * وما ضمنت تلك الربا والمنازل
ولما التقينا للجمار وأبرزت * أكف لتقبيل الحصى وأنامل
أشارت الينا بالغرام محاجر * وباحت به منا جسوم نواحل

وقال الباجى أبو الوليد رحمه الله تعالى

مضى زمن المكارم والكرام * سقاه الله من صوب الغمام
وكان البر فعلا دون قول * فصار البر نطقا بالكلام

وذيله بعضهم بقوله

وزال النطق حتى لست تلقى * فتى يسخو برد للسلام
وزاد الامر حتى ليس الا * سخى بالاذى أو بالملام

*(ومنهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى) صاحب سراج الملوك ويعرف بابن أبى رندقة بالراء المهملة المفتوحة وسكون النون وكنى بسراج الملوك لبلاعلى فضله ذكره ابن بشكوال فى الصلة وتوفى بالاسكندرية فى شعبان وقيل جمادى الاولى سنة عشرين وخمسمائة وزرت قبره بالاسكندرية وممن أخذ عنه الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى وغيره ومن نظم الطرطوشى قوله من رسالة

أقلب طرفى فى السماء ترددا * لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة * لعلى بمن قد شم عرفك أظفر
وأستقبل الارواح عند هبوبها * لعل نسيم الريح عنك يخبر
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب * عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة * عسى لمحة من نور وجهك تسفر

ومن نظمه أيضا قوله

يقولون ثكلى ومن لم يذق * فراق الاحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفراق * كؤسا أمر من الحنظل

ومما ينسب اليه وكان كثيرا ما ينشده

اذا كنت فى حاجة مرسلا * وأنت بانجازها مغرم

فارسل باكمه جلابة * به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى * رسول يقال له الدرهم

وكان كثيرا ما ينشد

ان لله عبادا فطنا * طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا * انها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا * صالح الاعمال فيها سفنا

وقال رحمه الله تعالى كنت ليلة نائما بالبيت المقدس اذ سمعت فى الليل صوتا حزينا ينشد

أخوف ونوم ان ذا لعجيب * ثكلتك من قلب فانت كذوب
أما وجلال الله لو كنت صادقا * لما كان للاغماض فيك نصيب

قال فأيقظ النوام وأبكى العيون وكان رحمه الله تعالى زاهدا عابدا متورعا متقللا من الدنيا قوالا للحق وكان يقول اذا عرض لك أمر دنيا وأخرى فبادر بأمر الاخرى يحصل لك أمر الدنيا والاخرى وله طريقة فى الخلاف ودخل مرة على الافضل بن أمير الجيوش فوعظه وقال له ان الامر الذى أصبحت فيه من الملك انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك بمثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله عزوجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل واعلم ان الله عزوجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحوش والبهائم وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ورفع عنه حساب ذلك أجمع فقال عز من قائل هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فما عدّ ذلك نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن يكون استدراجا من الله عزوجل فقال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ففتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وكان الى جانب الافضل رجل نصرانى فأنشده

يا ذا الذى طاعته قربة * وحقه مفترض واجب
ان الذى شرفت من أجله * يزعم هذا أنه كاذب

وأشار الى النصرانى فأقامه الافضل من مكانه والطرطوشى بضم الطاءين نسبة الى طرطوشة من بلاد الاندلس وقد تفتح الطاء الاولى وعبر عنه ابن الحاجب فى مختصره الفقهى فى باب العتق بالاستاذ وكان رحمه الله تعالى صحب القاضى أبا الوليد الباجى رحمه الله تعالى بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه وقرأ الفرائض عليه والحساب بوطنه وقرأ الادب على أبى محمد بن حزم بمدينة اشبيلية ثم رحل الى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة ودخل بغداد والبصرة فتفقه هنالك عند أبى بكر الشاشى وأبى محمد الجرجانى وسمع بالبصرة من أبى على التسترى وسكن الشام مدة ودرس بها وكان راضيا باليسير وقال الصفدى فى ترجمة الطرطوشى ان الافضل بن أمير الجيوش أنزله فى مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد وكان يكرهه فلما طال مقامه به ضجر وقال لخادمه الى متى نصبر اجمع لى المباح فجمعه وأكله ثلاثة أيام فلما كان عند صلاة المغرب

قال لخادمه ومبته الساعة فلما كان من الغد ركب الافضل فقتل وولى بعده المأمون بن البطائحى فأكرم الشيخ اكراما كثيرا وله ألف الشيخ سراج الملوك انتهى ومقامه أعنى الطرطوشى مشهور وهذه الحكاية تكفى فى ولايته ومن تآليفه مختصر تفسير الثعالبى والكتاب الكبير فى مسائل الخلاف وكتاب فى تحريم جبن الروم وكتاب بدع الامور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة الشيخ ابن أبى زيد وولد سنة احدى وخمسين وأربعمائة تقريبا ولما توفى صلى عليه ولده محمد ودفن رحمه الله تعالى قبل الباب الاخضر باسكندرية وزرت قبره مرارا رحمه الله تعالى ورضى عنه ونفعنا به وكان القاضى عياض ممن استجازه فأجازه ولم يلقه وشهرته رضى الله تعالى عنه تغنى عن الاطناب فيه * وحكى انه كتب على سراج الملوك الذى أهداه لولى الامر بمصر

الناس يهدون على قدرهم * لكننى أهدى على قدرى
يهدون مايفنى وأهدى الذى * يبقى على الايام والدهر

وحكى انه سمع رضى الله تعالى عنه منشدا ينشد للوأواء

قرأتى من غير وعد * فى ليلة طرقت بسعد
بات الصباح الى الصبا * ح معانقى خدا بخد
عيارفى ونانظرى * ماشئت من خمر وشهد

فقال أو يظن هذا الدمشقى أن أحدا لايحسن ينظم الكذب غيره لوشئنا لكذبنا مثل هذا ثم أنشد لنفسه يعارضه

قر أتى من غير وعد * حفت شمائله بسعد
قبلته ورشفت ما * فى فيه من خمر وشهد
فخرجت من السلسبيل بزنجبيل مستعد
ولثمت فاه من الغروب الى الصباح المستجد
وسكرت من رشفى العقيق على أقاح تحت رند
فنزعت عن فمه فمى * ووضعت خدا فوق خد
وشممت عرف نسيمه الساري على مسك وند
وصحوت من ريا القرنفل بين ريحان وورد
وألذ من وصلى به * شكواه وجدا مثل وجدى

ومن نظم الطرطوشى قوله أيضا

كأن لسانى والمشكلات * سنا الصبح يحرا ليلا بهيما
وغيرى ان رام مارمته * خصى يحاول فرجا عقيما

وقوله أيضا

اعمل لمعادك يارجل * فالناس لدنياهم عملوا
وادخر لمسيرك زادتقى * فالقوم بلا زاد رحلوا

*(ومنهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشى وفد الى المشرق وذكره العماد فى الخريدة وله

فى الامد

فى الامد العجلى بمصر وكان يخضب بسواد الرمان قوله

اخلط العفص فيه يا أحوج النا * س الى العفص حين يعكس عفص

*(ومنهم القاضى الشهيد أبو على الصيرفى وهو حسين بن محمد بن فيرة بن حيون ويعرف بابن سكرة وهو من أهل سرقسطة سكن مرسية وروى بسرقسطة عن الباجى وأبى محمد عبد الله ابن محمد بن اسمعيل وغيرهما وسمع ببلنسية من أبى العباس العذرى وسمع بالمرية من أبى عبد الله محمد بن سعدون القروى وأبى عبد الله بن المرابط وغيرهما ورحل الى المشرق أول المحرم من سنة احدى وثمانين وأربعمائة فحج من عامه ولقى بمكة أبا عبد الله الحسين بن على الطبرى وأبا بكر الطرطوشى وغيرهما ثم سار الى البصرة فلقى بها أبا يعلى المالكى وأبا العباس الجرجانى وأبا القاسم بن شعبة وغيرهم وخرج الى بغداد فسمع بواسط من أبى المعالى محمد بن عبد السلام الاصبهانى وغيره ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة فأطال الاقامة بها خمس سنين كاملة وسمع بها من أبى الفضل بن خيرون مسند بغداد ومن أبى الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفى وطراد الزينبى والحميدى وغيرهم وتفقه عند أبى بكر الشاشى وغيره ثم رحل منها سنة سبع وثمانين فسمع بدمشق من أبى الفتح نصر المقدسى وأبى الفرج الاسفرايني وغيرهما وسمع بمصر من القاضى أبى الحسن الخلعى وأبى العباس أحمد بن ابراهيم الرازى وأجازه الحبال مسند مصر فى وقته ومكثرها وسمع بالاسكندرية من أبى القاسم الوراق وشعيب بن سعيد وغيرهما ووصل الى الاندلس فى صفر من سنة سبعين وأربعمائة وقصد مرسية فاستوطنها وقعد يحدث الناس بجامعها ورحل الناس من البلدان اليه وكثر سماعهم عليه وكان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته وكان حسن الخط جيد الضبط وكتب بخطه علما كثيرا وقيده وكان حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخارى فى سفر وصحيح مسلم فى سفر وكان قائما على الكتابين مع مصنف أبى عيسى الترمذى وكان فاضلا دينا متواضعا حليما وقورا عالما عاملا واستقضى بمرسية ثم استعفى فأعفى وأقبل على نشر العلم وبثه وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه لدخوله الشام قال وبعد أن استقرت به النوى واستمرت افادته بما قيد وروى رفعته ملوك أوانه وشفعته فى مطالب اخوانه فأوسعته رعيا وأحسنت فيه رأيا ومن أنبائهم من جعل يقصده لسماع يسنده وعلى وقاره الذى كان به يعرف نادرة مع بعضهم ما يستطرف وهو أن فتى يسمى يوسف لازم مجلسه معطرا رائحته ومنظفا ملبسه ثم غاب لمرض قطعه أو شغل منعه ولما فرغ أو أبل عاود ذلك النادى المبارك والمحل وقبل افضائه اليه دل طيبه عليه فقال الشيخ على سلامته من المجون وخلاصه من الفتون انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون وهى من طرف نوادره رحمة الله عليه ولما قلد قضاء مرسية وعزم عليه صاحب الامر فيه فر الى المرية فأقام بها سنة خمس وبعض سنة ست وخمسمائة وفى سنة ست قبل قضاءها على كره الى أن استخفى آخر سنة سبع فى قصة يطول ايرادها واطول مقامه بالمرية أخذ الناس عنه بها فلما كانت وقعة كتندة

قوله الصيرفى فى نسخة الصدفى وقوله العذرى فى نسخة العدوى اه

كان ممن حضرها فقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى وقال القاضي عياض ولقد حدثني الفقيه أبو اسحق ابراهيم بن جعفر أنه قال له خذ الصحيح واذكر أي متن شئت منه أذكر لك سنده أو أي سند شئت أذكر لك متنه انتهى وذكر غير واحد أنه حدث ببغداد بحديث واحد والله أعلم وهو من أبناء الستين *(ومنهم ابن أبي روح الجزيري* ومن شعره لما تغرب بالمشرق

أحن الى الخضراء في كل موطن * حنين مشوق للعناق وللضم
وما ذاك الا أن جسمي رضيعها * ولا بد من شوق الرضيع الى الام

(ومنهم العالم أبو حفص عمر بن حسن الهوزني الحسيب العالم المحدث وسبب رحلته للمشرق انه لما تولى المعتضد بن عباد خاف منه فاستأذنه في الحج سنة ٤٤٤ ورحل الى مصر ثم مكة وسمع صحيح البخاري* وعنه أخذ أهل الاندلس ورجع وسكن اشبيلية وخدم المعتضد فقتله سنة ستين وأربعمائة ومن شعره يحرضه على الجهاد

أعباد حل الرزء والقوم هجع * على حالة من مثلها يتوقع
فلق كتابي من فراغك ساعة * وان طال فالموصوف للطول موضع
اذا لم أبث الداء رب شكاية * أضعت وأهل للملام المضيع

وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها ولا أرجأ الدليل من ناط الامور بأربابها ولرب أمل بين أثناء المحاذير مدمج ومحبوب في طي المكاره مدرج فانتهز فرصتها فقد بان لك من غيرك العجز وطبق مضاربها فقد أمكنك الحز ولا غرو أن يستمطر الغمام في الجدب ويستصحب الحسام في الحرب وله

صرح الشر لكم لا يستقل * ان نهلتم جاءكم من بعد عل
بدء صعق الارض من رش وطل * ورياح ثم غيم قد أبل
خفضوا فالداء رزء أو أجل * واعمدوا اسيافا عليكم قد يسل

وابنه أبو القاسم هو الذي كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل المعتضد والده كما مر *(ومنهم أبو عمرو عثمان بن الحسين أخو الحافظ أبي الخطاب بن دحية الآتي* كان أسن من أخيه ابن أبي الخطاب وكان حافظا للغة العرب قيما بها وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين ورتب مكانه أخاه أبا عمرو المذكور ولم يزل بها الى أن توفي سنة ٦٣٤ بالقاهرة ودفن بسفح المقطم كأخيه وكان موت أبي عمرو بعد أبي الخطاب بسنة رحمهما الله تعالى *(ومنهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم* من أهل وادي الحجارة ويعرف بابن كنهادة وارتحل الى المشرق لما نبت به حضرة قرطبة عند تقلب دولها وتحول ملوكها وخولها فجال في العراق وقاسى ألم الفراق واجتاز بحلب وأقام بها مقام غريب لم يصف له حلب وقال

أين أقصى الغرب من أرض حلب * أمل في الغرب موصول التعب
حن من شوق الى أوطانه * من جفاه صبره لما اغترب
جال في الارض لحاجات حائرا * بين شوق وعناء ونصب

كل من يلقاه لا يعرفه * مستغنيا بين عجم وعرب
لهف نفسي أين هاتيك العلا * واضياعاه ويا غبن الحسب
والذي قد كان ذخراوبه * أرتجي المال وادراك الرتب
صار لي أبخس ما أعددته * بين قوم مادروا ما الادب
ياأحباي اسمعوا بعض الذي * يتلقاه الطريد المغترب
ولكن زجر الكم عن غربة * يرجع الرأس لديها كالذنب
واحملوا طعنا وضربا دائما * فهو عندي بين قومي كالضرب
والتي قاسيت ما قاسيته * فبما أبصر لحظي من عجب
ولقد أخبركم ان ألتقي * بكم حتى تقولوا قد كذب

واجتاز بدمشق فقال من ابيات رحمه الله تعالى

دمشق جنة الدنيا حقيقا * ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد * وصحبتهم تؤول الى حروب

ثم انه ودع الشرق بلا سلام وحل بحضرة دانية لدى ملكها مجاهد العامري في بحبوحة عز لا يخشى فيه الملام واستقبل الاندلس بخاطر جديد ونال بها بعد من بلوغ الآمال ماليس له عليه مزيد وقال

وكم قد لقيت الجهد قبل مجاهد * وكم أبصرت عيني وكم سمعت أذني
ولاقيت من دهري وصرف خطوبه * كما جرت النكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم * ولكن سلوني عن دخولي الى عدن

(وله من كتاب) وحامل كتابي سلمه الله تعالى وأعانه ممن أخنى عليه الزمان وأدار عليه وما صحا الى الآن كؤس الهوان وقد قصد على بعد جنابك الرحيب الخصيب قصد الحسن محل الخصيب ويمم جناب ابن طاهر حبيب واني لارجو أن يرجع منك رجوع نصيب عن سليمان ويستعين في شكرك بكل لسان وأنت عليم بأن الثناء هو الخلف وقد قال الاول

أرى الناس أحدوثة * فكوني حديثا حسن

وأنا القائل

فلا تزهدن في الخير قدمات حاتم * وأخباره حتى القيامة تذكر

٢ ومع هذا فهو عليه بقدر ما يحتمل من التكليف هذا الاوان عارف وجوه الاعذار غير ذي عجل في العتب قبل البيان وعند سيدي من التصدي للابقاء ما يحقق فيه جميل الرجاء دامت أرجاؤه مؤملة ولابرحت نعمه سابغة مكملة * (ومنهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقي) وقال بعضهم انه من الجزيرة الخضراء له رحلة الى الديار المصرية صنع فيها مقامة يقول فيها

وفي جنبات الروض نهر ودوحة * يروقك منها سندس ونضار
تقول وضوء البدر فيه مغربا * ذراع فتاة دار فيه سوار

ومن شعره

ما كل انسان أخ منصف * ولا الليالى أبدا تسعف
فلا تضع ان أمكنت فرصة * واصحب من الاخوان من ينصف
واننف من الدهر ولو ريشة * فانما حظك ما تنتف

وقوله يرثى السيد أبا عمران ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ملك المغرب والاندلس

بجيد المعالى أى عقد تبددا * وصدر العوالى أى رمح تقصدا
ولما دهت خيل الشقى فجاءة * وسال العدا بحرا من الموت مزبدا
شهدت بوجه كالغزالة مشرقا * وان كان وجه الشمس بالنقع مربدا
عزائم صدق ليس تصرف هكذا * الى الموت يسعى أو على الموت يعتدى

وكان السيد أبو عمران المرثى قتله الميورقى صاحب فتنة افريقية فى الهزيمة المشهورة على تلوت وجمع ابن عبد ربه المذكور شعر السيد أبى الربيع بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على وكان ابن عبد ربه المذكور كاتبا للسيد أبى الربيع سليمان المذكور ولما أنشد لبعض الشعراء

حاكت يمين الرياح محكمة * فى نهر واضح الاسارير
فكلما ضعفت به حلقا * قام لها القطر بالمسامير

أنشد لنفسه

بين الرياض وبين الجو معترك * بيض من البرق أو سمر من السمر
ان أوترت قوسها كف السماء رمت * نبلا من الماء فى زغف من الغدر
لاجل ذلك اذ هبت طلائعها * تدرع النهر واهتزت قنا الشجر

واجتمع ابن عبد ربه المذكور فى رحلته بالسعيد بن سناء الملك وأخذ عنه شيأ من شعره ورواه بالمغرب *(ومنهم الشاعر الاديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان المالقى) ومن نظمه فى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة رحمه الله تعالى

وفى صهوات المقربات وفى القنا * حصول حمى لا فى هضاب المعاقل

ومنها

ولا ملك يأتى كيوسف آخرا * كما لم يجئ مثل له فى الاوائل

*(ومنهم الحافظ أبو الخطاب بن دحية وهو مجد الدين عمر بن الحسين بن على بن محمد ابن فرح بن خلف الظاهرى) المذهب الاندلسى كان من كبار المحدثين ومن الحفاظ الثقات الاثبات المحصلين استوطن بجاية فى مدة أبى عبد الله بن تومرت وروى بها وأسمع وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة حتى صار حوشى اللغة عنده مستعملا غالبا ولا يحفظ الانسان من اللغة حوشيها الا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها وكان قصده والله تعالى أعلم أن يتفرد بنوع يشتهر به دون غيره كما فعل كثير من الادباء حيث تركوا طريق المعرب وانفردوا بالطريق الآخر ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس وكذا الشيخ أبو الخطاب بن دحية له رسائل ومخاطبات كلها مغلقات

مقفلات وكان رحمه الله تعالى اذا كتب اسمه فيما يجيزه أوغيرذلك يكتب ابن دحية ودحية معا المتشبه به جبريل وجبرائيل ويذكرما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة فى جبريل ويقول عند فاطر السموات والارض وهذا فرع انفرد به عن عداه من أهل العلم قال صاحب عنوان الدراية رأيت له تصنيفا فى رجال الحديث لابأس به وارتحل الى المشرق فى دولة بنى أيوب فرفعوا شأنه وقربوا مكانه وجمعوا له علماء الحديث وحضروا له مجلسا أقروا له بالتقدم وعرفوا انه من أولى الضبط والاتقان والتفهم وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها فأعاد المتون المحولة وعرف عن تغييرها ثم ذكر الاحاديث على ماهى عليه من متونها الاصلية ومثل هذه الحكاية اتفق لابى عمرو بن عات فى كتاب مسلم بمراكش بيت الطلبة منها ومن شعر أبى الخطاب ما كتب به الى الكامل بن العادل بن أيوب

مالى اسائل برق بارق عنكم * من بعد ما بعدت ديارى منكم
فحلكم قلبى وأنتم بالحشا * لا بالعقيق ولا برامة أنتم
وأنا المقيم على الوفاء بعهدكم * ياما لكين وفيتم أوخنتم

وهى طويلة ومنها

رفعت له الاملاك منه سجية * ملك السماك الرمح وهو محرّم

ومنها

لذوى النهى والفهم سرّ حكومة * قد حار فيها كاهن ومنجم
فاقصد مرادك حيث سرت مظفرا * والله يكلا والكواكب توم
وليهنك الشهر السعيد تصومه * وتفوز فيه بالثواب وتغنم
فلانت فى الدنيا كليلة قدره * قدرا فقدرك فى الملوك معظم

فأجابه السلطان مكافئه بنثر ونظم فى النظام

وهيجن شوقى للاجارع باللوى * وأين اللوى منى وأين الاجارع
مرابع لوأن المرابع أنجم * لكان نجوم الارض تلك المرابع
رعى الله أيامابها ولوأنها * الى وقد ولى الشباب رواجع
ليالى لاليلى اذا رمت وصلها * يلوح لها من صبح شيبى مواقع فى جملة أبيات

(ومن النثر) الحمد لله ولى الحمد وقف ولده على الابيات التى حسن شعرها وصفا درها وليس من البديع أن يقذف البحر درا أو ينظم الخليل شعرا وقد أخذت الورقة لاتنزه فى معانيها واستفيد مما أودعه فيها فالله تعالى لايخلينا من فوائد فكرته وصالح أدعيته والسلام فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الابيات بقوله من قصيدة

شجتنى شواج فى الغصون سواجع * ففاضت هوام للجفون هوامع

وأكثر فيها من التغزل الى أن قال

ولا حاكم أرضاه بينى وبينها * سوى حاكم دهرى له اليوم طائع
يدافع عن الضيم قائم سيفه * اذا عز من للضيم عنى يدافع
هو الكامل الاوصاف والملك الذى * تشير اليه بالكمال الاصابع

وبيض أياديه الكريمة في الورى * قلائد في الاعناق وهي الصنائع
ويوماه يوماه اللذان هماهما * اذا جمعت غلب الملوك المجامع

ومنها

غما روضة غنابها مرت الصبا * ونشر شذاها الطيب النشر ذائع
له من شكي الزهر برد مفوّف * أنيق له من أرض صنعاء صانع
فراقك منها أخضر الثوب ناضر * وشاقك منها أصفر اللون فاقع
وأحمر قان للخدود مورّد * وأبيض كالثغر المفلج ناصع
بأحسن من توشيع مدحي الذي له * بدائع من وشي البديع وشائع
وماضائع من نشر شكري الذي به * تأرّجت الارجاء عندك ضائع
ولو لم يقيدني نداك لكان لي * مجال فسيح في البسيطة واسع
فأنت الذي لي والاعادي كثيرة * فويق مكان النجم في الافق دافع

ومنها

بقيت لعبد جدّه دحية الذي * يشابه جبريل له ويضارع
وجدّته الزهراء بنت محمد * عليه السلام الدائم المتتابع
ولا عدمت منك الممالك مالكا * يقرّب للآمال ماهو شاسع
ومنك عيون للمهمات يقظ * وعنك عيون الحادثات هواجع

وقال المقريزي في ترجمة الملك الكامل انه كان مشغوفا بسماع الحديث النبوي وتقدّم عنده أبو الخطاب بن دحية وبنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة انتهى وقال أبو الخطاب بن دحية أنشدني أبو القاسم السهيلي لنفسه وذكر انه ماسأل الله تعالى بها شيأ الا أعطاه

يامن يرى مافي الضمير ويسمع * أنت المعدّ لكل مايتوقع
يامن يرجى للشدائد كلها * يامن اليه المشتكى والمفزع
يامن خزائن رزقه في قول كن * امنن فان الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري اليك وسيلة * فبالافتقار اليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة * فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه * ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن يقنط عاصيا * الفضل أجزل والمواهب أوسع

ومن نظم السهيلي رضي الله تعالى عنه

أسائل عن جيرانه من لقيته * وأعرض عن ذكراه والحال تنطق
ومالي الى جيرانه من صبابة * ولكن نفسي عن صبوح ترقق

وله

لما أجاب بلا طمعت بوصله * اذ حرف لا حرفان معتنقان
وكذا نعم بنعيم وصل آذنت * فنعم ولا في اللفظ متفقان

ولد أبو الخطاب بن دحية في ذي القعدة سنة سبع أو ثمان وأربعين وخمسمائة وتوفي انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة ودفن بسفح المقطم وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار وقدره أجل مما ذكروه وقد روى رحمه الله تعالى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم وكل ذلك في طلب الحديث وسمع بالاندلس من ابن بشكوال وابن زرقون في جمع كثير وببغداد من أبي الفرج بن الجوزي وبأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني معجم الطبراني ومن غيره وبنيسابور من أبي سعيد بن الصفار ومنصور بن الفراوي والمؤيد الطوسي وحصل الكتب والاصول وحدث وأفاد وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها وصنف كتبا كثيرة مفيدة جدا منها كتاب التنوير في مولد السراج المنير صنفه عند قدومه الى اربل سنة أربع وستمائة وهو متوجه الى خراسان لما رأى ملك اربل مظفر الدين كوكبري معتنيا بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الاول كل عام مهتما به غاية الاهتمام وكمله وقرأه عليه بنفسه وختمه بقصيدة طويلة فأجازه بألف دينار وصنف أيضا العلم المشهور في فضائل الايام والشهور والآيات البينات في ذكر ما في اعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات وكتاب شرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وكتاب النبراس في أخبار خلفاء بني العباس وكتاب الاعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفين وولي قضاء بلد أصوله دانية مرتين ثم صرف عن ذلك لسيرة نسبت اليه فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٥ ثم حج وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور وعاد الى مصر فاستأدبه العادل لولده الكامل وأسكنه القاهرة فنال بذلك دنيا عريضة ثم زادت حظوته عند الكامل وأقبل عليه اقبالا عظيما وكان يعظمه ويحترمه ويعتقد فيه الخير ويتبرك به حتى كان يسوي له المداس حين يقوم وهو بلنسي كما قاله ابن خلكان وغيره وبلنسية مشهورة بشرق الاندلس ثلث سنة بالتصحيف *(ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ الحافظ الاندلسي رحل الى المشرق وكان حافظا فهما عارفا بالرجال حدث حديث مالك وشعبة وأشياء في الزهد وسمع بمصر أبا الحسن بن الورد البغدادي ومسلم بن الفضل والحسن بن رشيق وجماعة وسمع بدمشق علي بن أبي العقب وأبا الميمون بن راشد وبمكة من بكير الحداد وأبي الحسن الخزاعي والآجري وبقرطبة من أحمد بن يحيي بن الشاهد ومحمد بن معاوية وتوفي سنة ٣٩٣ *(ومنهم خلف بن سعيد بن عبد الله بن زرارة أبو القاسم بن المرابط الكلبي من ذرية الابرش الكلبي ويعرف بالمبرقع المحتسب القرطبي رحل الى المشرق مرتين أولاهما سنة ٣٣٣ وهو ابن ثلاث وعشرين سنة وسمع أبا سعيد بن الاعرابي وابن الورد وأبا بكر الآجري وروى عنه أبو اسحق بن شنظير وأبو جعفر الزاهري وقال ابن شنظير انه توفي في نحو الاربعمائة رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم سابق فضلاء زمانه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الاشبيلي يقال ان عمره ستون سنة منها عشرون في بلده اشبيلية وعشرون في افريقية عند ملوكها الصنهاجيين وعشرون

فى مصر محبوسا فى خزانة الكتب وكان وجهه صاحب المهدية الى ملك مصر فسجن بها طول تلك المدة فى خزانة الكتب فخرج فى فنون العلم اماما وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين وله فى ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته وكان يكنى بالاديب الحكيم وهو الذى لحن الاغانى الافريقية قال ابن سعيد واليه تنسب الى الآن وذكره العماد فى الخريدة وله كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الثعالبى وتوفى سنة ٥٢٣ وقيل سنة ٥٢٨ بالمهدية وقيل مستهل السنة بعدها ودفن بها وله فيمن اسمه واصل

ياهاجرا اسموه عمدا واصلا * وبضدها تتبين الاشياء
ألغيتنى حتى كأنك واصل * وكأننى من طول هجرى الراء

وقوله وهو من بدائعه

لاغروان سبقت لهاك مدائحى * وتدفقت جدوالثمل اناتها
يكسى القضيب ولم يحن اثماره * وتطوق الورقاء قبل غنائها

وقال فى الافضل

تردى بكل فتى اذا شهد الوغى * نثر الرماح على الدروب كعوبا
قد لوحته يد الهواجر فاغتدى * مثل القناة قضافة وشحوبا
تخذوا القنا أشطانهم واستنبطوا * فى كل قلب بالطعان قليبا

ومنها

تعطى الذى اعطتكه سمر القنا * أبدا فتغدو سالبا مسلوبا

ومنها

وأنا الغريب مكانه وبيانه * فاجعل صنيعك فى الغريب غريبا

وله

ومهفهف شربت محاسن وجهه * ماججه فى الكاس من ابريقه
فقعالها من مقلتيه ولونها * من وجنتيه وطعمها من ريقه

أخذه من ابن حيوس وقصر عنه فى قوله

ومهفهف يغنى بلحظ جفونه * عن كاسه الملأى وعن ابريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها * فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

ولابى الصلت فيمن اسمه محسن

ايها الظالم المسى * ء مدى دهره بنا
مالهم أخطؤا الصوا * ب فسموك محسنا

وله فى لابس قرمزية حمراء

أقبل يسعى أبو الفوارس فى * مرأى عجيب ومنظر أنق
أقبل فى قرمزية عجب * قد صبغت لون خده الشرق
كأنما جسمه وغرته * من دونها اذ بدون فى نسق
عمود فجر من فوقه قمر * دارت به قطعة من الشفق

وله

وله فى ثقيل وقد أجاد

لى جليس عجبت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله
أنا أرعاه مكرها و بقلبى * منه ما يقلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآ * ه ولكن أصونه وأجله

أخذه من قول أبى الحسن جعفر بن الحاج الميورقى وهما فى عصر واحد

لى صاحب عميت على شؤنه * حركاته مجهولة وسكونه
يرتاب بالامر الجلى توهما * فاذا تيقن نازعته ظنونه
انى لاهواه على شرقى به * كالشيب تكرهه وأنت تصونه

وأوصى أن يكتب على قبره أبو الصلت المذكور مما نظمه قبل موته

سكنتك يا دار الفناء مصدقا * بأنى الى دار البقاء أصير
وأعظم ما فى الامر انى صائر * الى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها * وزادى قليل والذنوب كثير
فان أك مجزيا بذنبى فاننى * بشر عقاب المذنبين جدير
وان يك عفو ثم عنى ورحمة * فثم نعيم دائم وسرور

وله

اذا كان أصلى من تراب فكلها * بلادى وكل العالمين أقاربى
ولا بد لى أن أسأل العيس حاجة * تشق على شم الذرى والغوارب

وقال

دب العذار بخده ثم انثنى * عن لثم مبسمه البرود الاشنب
لا غرو ان خشى الردى فى لثمه * فالريق سم قاتل للعقرب

وقد ذكروا أن من خواص ريق الانسان أنه يقتل العقرب وهو مجرب

وقال

لا تدعنى ولتدع من شئته * اليك من عجم ومن عرب
فنحن أكالون للسحت فى * ذراك سماعون للكذب

وقال

لا تسألنى عن صنيع جفونها * يوم الوداع وسل بذلك من نجا
لو كنت أملك خدها للثمته * حتى أعيد به الشقيق بنفسجا
أو كنت أهجع لاحتضنت خيالها * ومنعت ضوء الصبح أن يتبلجا
وبثثت فى الظلماء كحل جفونها * وعقدت هاتيك الذوائب بالدجا

وقال مهنئا بمولود

يلوح فى المهد على وجهه * تجهم البأس وبشرى الندى
والشمس والبدر اذا استجمعا * لم يلبثا أن يلدا فرقدا
فابق له حتى ترى نجله * وان عرا خطب فنحن الفدا

قال ابن سعيد وهذا البيت الاخير من أثقل الشعر يتطير من سماعه وتركه أولى وقال رحمه الله تعالى فى الرصد

قذا غدير وذا روض وذا جبل * فالضب والنون والملاح والحادى

(ومنهم الفقيه أبو محمد عبدالله بن يحيى بن محمد بن بهلول السرقسطى ذكره العماد الاصبهانى فى الخريدة وذكره السمعانى فى الذيل وأنه دخل بغداد فى حدود سنة ست عشرة وخمسمائة ومن شعره

أيا شمس انى ان أتتك مدائحى * وهن لئالى نظمت وقلائد
فلست بمن يبغى على الشعر رشوة * أبى ذاك لى جد كريم ووالد
وانى من قوم قديما وحديثا * تباع عليهم بالالوف القصائد

(ومنهم الفقيه المقرى ابو عامر التيارى من رجال الذخيرة رحل الى المشرق وقرأ على أبى جعفر الدياجى* كتابه فى العروض وسائر كتبه ولقى شيخ القيروان فى العربية ابن القزاز وأديبها الحصرى* وأخبر عن نفسه أنه كان بين يديه تلميذ له وسيم قرّبه أبو جعفر التجانى بسحاءة كتب له فيها وخلاها بين يديه وهو قد غلب النوم عليه

يا نائما متعمدا * ابصار طيف حبيبه
هو جوهر فاثقبه ان الطيب فى مثقوبه
أو اركبه فى ظهره * ان لم تقل بركوبه

فلما قرأها علم أنها للتجانى فكتب تحتها

يا طالبا أضحى حبيب دون ما مطلوبه
لولم يكن فى ذا الاثم لم أكن أحظو به
انى أغار عليه من * أثوابه ورقيبه

وأنشد يوما فى حلقته لابن الرومى فى خباز

لم أنس لم أنس خبازا مررت به * يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة * وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة * فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

فقال بعض تلامذته أما انه لا يقدر على الزيادة على هذا فقال

فكاد يضرط اعجابا برؤيتها * ومن رأى مثل ما أبصرت منه خرى

فضحك من حضر وقال البيت لائق بالقطعة لولا ما فيه من ذكر الرجيع فقال

ان كان يبقى هذا اليس يعجبكم * فحللوه محوه أوقالعوه طرى

(ومنهم الاديب الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الاشبيلى مطبوع فى الشعر والتوشيح قال ابن سعيد اجتمعت به فى القاهرة مرارا بمجلس الامير جمال الدين أبى الفتح موسى بن يغمور بن جلدك وفى غيره وتوفى فى مارستان القاهرة ومن شعره

أما الغراب فانه سبب النوى * لاريب فيه وللنوى أسباب
يدعو الغراب وبعد ذا يجيبه * جمل وتعوى بعد ذا الذئاب

لا تكذبن

لا تكذبن فهذه أسبابه * لكن منها بدأة وجواب

*(ومنهم الامام المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى الاندلسى المعروف بابن مسدى وهو من الائمة المشهورين بالمشرق والمغرب قال رحمه الله تعالى أنشدنى رئيس الاندلس وأديبها أبو الحسن سهل بن مالك الازدى الغرناطى لنفسه سنة ٦٣٧ فى شوال بداره بغرناطة

منغص العيش لا يأوى الى دعة * من كان ذا بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته * سكنى مكان ولم يسكن الى أحد

*(ومنهم الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الازدى الحميدى نسبة لجده حميد الاندلسى ولد أبوه بقرطبة وولد هو بالجزيرة بليدة بالاندلس قبل العشرين وأربعمائة وكان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥ فأول ما سمع من الفقيه أبى القاسم أصبغ قال وكنت أفهم من يقرأ عليه وكان قد لقى ابن أبى زيد وقرأ عليه وتفقه وروى عنه رسالته ومختصر المدونة ورحل سنة ٤٤٨ وقدم مصر وسمع بها من الضراب والقراعى وغير واحد وكان سمع بالاندلس من ابن عبد البر وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنفاته وأكثر من الاخذ عنه وشهر بصحبته وصار على مذهبه الا انه لم يكن يتظاهر به وسمع بدمشق وغيرها وروى عن الخطيب البغدادى وكتب عنه أكثر مصنفاته وسمع بمكة من الزنجانى وأقام بواسط مدة بعد خروجه من بغداد ثم عاد الى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيرا من الحديث والادب وسائر الفنون وصنف مصنفات كثيرة وعلق فوائد وخرج تخاريج للخطيب ولغيره وروى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنفاته وابن ماكولا وكان اماما من أئمة المسلمين فى حفظه ومعرفته واتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته حتى قال بعض الاكابر ممن لقى الائمة لم ترعيناى مثل أبى عبد الله الحميدى فى فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه فى أهله وكان ورعا ثقة اماما فى علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته محققا فى علم الاصول على مذهب أصحاب الحديث متبحرا فى علم الادب والعربية ومن تصانيفه كتاب جذوة المقتبس فى أخبار علماء الاندلس وكتاب تاريخ الاسلام وكتاب من ادعى الامان من أهل الايمان وكتاب الذهب المسبوك فى وعظ الملوك وكتاب تسهيل السبيل الى علم الترسيل وكتاب مخاطبات الاصدقاء فى المكاتبات واللقاء وكتاب ما جاء من النصوص والاخبار فى حفظ الجار وكتاب ذم النميمة وكتاب الامانى الصادقة وغير ذلك من المصنفات والاشعار الحسان فى المواعظ والامثال وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل فى الحر ويجلس فى اجانة ماء يتبرد به ومن مشهور مصنفاته كتاب الجمع بين الصحيحين وذكره الحجارى فى المسهب وقال عنه انه أظهر العلم فى طرق ميورقة بعد ما كانت عطلا من هذا الشان وترك لها فخرا تسارى به خواص البلدان وهو من علماء أئمة الحديث ولازم أبا محمد بن حزم فى الاندلس واستفاد منه ورحل الى بغداد وبها ألف كتاب الجذوة ومن شعره قوله رضى الله تعالى عنه

ألفت النوى حتى أنست بوحشها * وصرت بها لا فى الصبابة مولعا

فلم أحص كم رافقته من مرافق * ولم أحص كم خيمت في الارض موضعا
ومن بعد جوب الارض شرقا ومغربا * فلا بدلي من أن أوافي مصرعا

وقال رحمه الله تعالى

لقاء الناس ليس يفيد شيئا * سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس الا * لاخذ العلم أو اصلاح حال

وذكره ابن بشكوال في الصلة وتوفي ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى قال ابن ماكولا أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم وكان أوصى مظفر بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشر الحافي فخالف وصيته ودفنه في مقبرة باب البرز فلما كان مدة رآه مظفر في النوم كأنه يعاتبه على مخالفته فنقل في صفر سنة ٤٩١ الى مقبرة باب حرب ودفن عند قبر بشر وكان كفنه جديدا وبدنه طريا تفوح منه رائحة الطيب ووقف كتبه على أهل العلم رحمه الله تعالى ومن مناقبه انه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ تعديت بعين الى موضع لم ينظره احد منذ عقلت انتهى ومن شعر الحميدي أيضا قوله

طريق الزهد أفضل ما طريق * وتقوى الله تالية الحقوق
فثق بالله يكفك واستعنه * يعنك ودع بنيات الطريق

وقوله

كلام الله عز وجل قولي * وما صحت به الآثار ديني
وما اتفق الجميع عليه بدأ * وعودا فهو عن حق مبين
فدع ما صد عن هذا وهذا * تكن منها على عين اليقين

*(ومنهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشي وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى ابن عبد المؤمن القيسي من أهل شريش روى عن أبي الحسن بن لبال وأبي بكر بن أزهر وأبي عبد الله بن زرقون وأبي الحسين بن جبير وغيرهم وأقرأ العربية وله تواليف أفاد بها حشد فيها منها شرح الايضاح للفارسي والجمل للزجاج وله في العروض تواليف وجمع مشاهير قصائد العرب واختصر نوادر أبي علي القالي قال ابن الابار لقيته بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهي الى اشبيلية في سنة ست عشرة وستمائة وهو اذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات فسمعت عليه بعضه وأجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه وأخذ عنه أصحابنا ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية انتهى ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق الى الشام

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر * فان قلبي بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم * ما لذ للعين لا نوم ولا سهر
اذا تذكرت أوقاتا تأت ومضت * بقربكم كادت الاحشاء تنفطر
كأنني لم أكن بالنيرين ضحى * والغيم يبكي ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والاغصان راقصة * والدوح يطرب بالتصفيق والنهر

والسفح

والسفح أين عشياتي التي سلفت * لى منه فهى لعمرى عندى العمر
فقال يا سفح سفح الدمع منهملا * وقل ذاك له ان أعوز المطر

وله رحمه الله تعالى شروح لمقامات الحريرى كبير ووسط وصغير وفى الكبير من الآداب مالا كفاء له وكان رحمه الله تعالى معجبا بالشام وقال ابن الابار عند ماذكره انه شرح مقامات الحريرى فى ثلاث نسخ كبراها الادبية ووسطاها اللغوية وصغراها المختصرة انتهى وتوفى بشريش بلده سنة تسع عشرة وستمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو بكر يحيى بن سعدون ابن تمام بن محمد الازدى القرطبى الملقب بضياء الدين أحد الائمة المتأخرين فى القراآت وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك قال القاضى الشمس بن خلكان انه رحل من الاندلس فى عنفوان شبابه وقدم مصر فسمع بالاسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم الرازى وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدنى المصرى وأبا طاهر أحمد بن محمد الاصبهانى المعروف بالسلفى وغيرهم ودخل بغداد سنة ٥١٧ وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبى محمد عبد الله بن على المقرى المعروف بابن بنت الشيخ أبى منصور الخياط وسمع عليه كتبا كثيرة منها كتاب سيبويه وقرأ الحديث على أبى بكر محمد بن عبد الباقى البزار المعروف بقاضى المارستان وأبى القاسم بن الحصين وأبى العز وغيرهم وكان دينا ورعا عليه وقار وسكينة وكان ثقة صدوقا ثبتا نبيلا قليل الكلام كثير الخير مفيدا أقام بدمشق مدة واستوطن الموصل ورحل منها الى أصبهان ثم عاد الى الموصل وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر وذكره الحافظ ابن السمعانى فى كتاب الذيل وقال انه اجتمع به بدمشق وسمع عنه مشيخة أبى عبد الله الرازى وانتخب عليه أجزاء وسأله عن مولده فقال ولدت سنة ٤٨٦ فى مدينة قرطبة ورأيت فى بعض الكتب أن مولده سنة ٤٨٧ والاول أصح وكان شيخنا القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضى حلب رحمه الله تعالى يفتخر بروايته وقراءته عليه وقال كانقرأ عليه بالموصل ونأخذ عنه وكانرى رجلا يأتى اليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ثم يمد يده الى الشيخ بشئ ملفوف فيأخذه الشيخ من يده ولا نعلم ماهو ويتركه ذلك الرجل ويذهب ثم تقفينا ذلك فقلنا انها دجاجة مسموطة كانت ترسم للشيخ فى كل يوم يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها واذا دخل الشيخ الى منزله تولى طبخها بيده وذكر فى كتاب دلائل الاحكام انه لازم القراءة عليه احدى عشرة سنة آخرها سنة ٥٦٧ وكان الشيخ أبو بكر القرطبى المذكور كثيرا ما ينشد مسندا الى أبى الخير الكاتب الواسطى

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق فى غشاوته الجنين

وتوفى القرطبى المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧ رحمه الله تعالى انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار *(ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الاجل أبى الحسن بن عبد ربه وهو من حفدة صاحب كتاب العقد المشهور حدث الشيخ الاجل أبو عبد الله محمد بن على الحصبى القرمونى رفيقه قال اصطحبت معه فى المركب من المغرب

الى الاسكندرية فلما قربنا منها هاج علينا البحر وأشفينا على الغرق فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الاسكندرية فسررنا برؤيته وطمعنا في السلامة فقال لي لا بد أن أعمل في المنار شيأ فقلت له أعلى مثل هذه الحال التي نحن فيها فقال نعم فقلت فاصنع فأطرق ثم عمل بديها

لله در منار اسكندرية كم * يسمو اليه على بعد من الحدق
من شامخ الانف في عرنينه شمم * كأنه باهت في دارة الافق
يكسر الموج منه جانبي رجل * مشمر الذيل لا يخشى من الغرق
لا يبرح الدهر من وردعلى سفن * مابين مصطبح منها ومغتبق
للمنشآت الجوارى عند رؤيته * كوقع النوم من أجفان ذى أرق

وتقدمت ترجمة الكاتب أبي عبد الله بن عبد ربه وأظنه هذا فليتنبه له بل أعتقد أنه هو لا غيره والله تعالى أعلم *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبي قال في القدح المعلي بيتهم مشهور بقرطبة لم يزل يتوارث في العلم والجاه وعلو المرتبة ونشأ أبو عبد الله هذا حافظا للآداب اماما في علم الحساب مع انه كان أعمى مقعدا مشوه الخلقة ولكنه اذا انطق علم كل منصف حقه ومن عجائبه انه سافر على تلك الحالة حتى غدت بغداد له هالة اجتمعت به بحضرة تونس فرأيت بحرا زاخرا وروضا ناضرا الا أنه حاطب ليل وساحب ذيل لا يبالي ما أورده ولا يلتفت الى ما أنشده جامعا بين السمين والغث حافظا للمتين والرث وكان يقرئ الادب بمراكش وفاس وتونس وغيرها ومن مشهور حكاياته انه لما قال أبو زيد الفازازي في أبي علي المستنصر قصيدته التي مطلعها الحزم والعزم منسوبان للعرب عارضه بقصيدة ثم قال فيه وفي ابن أخيه يحيى بن الناصر الذى نازعه في ذلك الاوان

وان ينازعك في المنصور ذونسب * فضل نوح ثوى في قسمة العطب
وان يقل أنا عم فالجواب له * عم النبي بلاشك أبو لهب

وشاعت القصيدة فبلغت أبا العلاء فحرض على قتله وسلمه الله تعالى منه ومات سنة ٦٣٩ ومن شعره قوله

لا تحسب الناس سواء متى * تشابهوا فالناس أطوار
وانظر الى الاحجار في بعضها * ماء وبعض ضمنها نار

وقوله

يا طالعا في جفوني * وغائبا في ضلوعي
بالغت في الخط لما * وما رحمت خضوعي
اذا نويت انقطاعا * فاحسب حساب الرجوع

انتهى باختصار يسير *(ومنهم أبو الوليد بن الجنان محمد بن الشرف أبي عمرو بن الكاتب أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء بن الجنان الكناني الشاطبي قال ابن سعيد توارثوا بشاطبة مراتب تحسدها النجوم الثاقبة وأبو الوليد أشعرهم وقد تجدد به في أقطار المشرق مفخرهم وهو معروف هنالك بفخر الدين ومتصدر في أئمة النحويين ومرتب

فى شعراء الملك الناصر صاحب الشام ومقطعاته الغرامية قلائد أهل الغرام صحبته بمصر ودمشق وحلب وجريت معه طلق الجموح فى ميادين الادب وأنشدنى بدمشق

أنا من سكر هواهم ثمل * لا أبالى هجروا أم وصلوا
فبشعرى وحديثى فيهم * زمزم الحادى وسار المثل
انّ عشاق الحمى تعرفنى * والحمى يعرفنى والطلل
رحلوا عن ربع عينى فلذا * أدمعى عن مقلتى ترتحل
مالها قد فارقت أوطانها * وهى ليست لحماهم تصل
لا تظنوا أننى أسلوكما * مذهبى عن حبكم ينتقل

وقوله رحمه الله تعالى

بالله يا بانة الوادى اذا خطرت * تلك المعاطف حيث الشيح والغار
فعانقيها عن الصب الكئيب فما * على معانقة الاغصان انكار
وعرّفيها بأنى فيك مكتئب * فبعض هذى لها بالحب أخبار
وأنتم جيرة الجرعاء من اضم * لى فى حماكم أحاديث وأسمار
وأنتمو أنتمو فى كل آونة * وانما حبكم فى الكون أطوار
ويا نسيما سرى تحدو ركائبه * لى بالغوير لبانات وأوطار

وله

يا رعى الله أنسنا بين روض * حيث ماء السرور فيه يجول
تحسب الزهر عنده يتثنى * وتخال الغصون فيه تميل

وله

هات المدام فقد ناح الحمام على * فقد الظلام وجيش الصبح فى غلب
وأعين الزهر من طول البكا رمدت * فكحلتها عين الشمس بالذهب
والكأس حلتها حمراء مذهبة * لكن أزرتها من لؤلؤ الحبب
كم قلت للافق لما أن بدا صلفا * بشمسه عند ما لاحت من الحجب
ان تهت بالشمس يا أفق السماء فلى * شمسان وجه نديمى وابنة العنب
قم اسقنيها وثغر الصبح مبتسم * والليل تبكيه عين البدر بالشهب
والسحب قد لبست سود الثياب وقد * قامت لترثيه الاطيار فى القضب

وله

عليك من ذلك الحمى يا رسول * بشرى علامات الرضا والقبول
جئت وفى عطفيك منهم شذى * يسكر من خمر هواه العذول

ومنها

أحبابنا ودّعتم ناظرى * وأنتم بين ضلوعى نزول
حللتم قلبى وهو الذى * يقول فى دين الهوى بالحلول
انا الذى حدّث عنى الهوى * بأننى عن حبكم لا أحول

فليزد العاذل فى عذله * وليقل الواشي لكم مايقول

انتهى كلام النور بن سعيد * وقال غيره ولد المذكور بشاطبة منتصف شوال سنة ٥٩٥ ومات بدمشق ودفن بسفح قاسيون وكان عالما فاضلا دمث الاخلاق كريم الشمائل كثير الاحتمال واسع الصدر صحب الشيخ كمال الدين بن العديم وولده قاضى القضاة مجد الدين فاجتذبوه اليهم وصار حنفى المذهب ودرس بالمدرسة الاقبالية الحنفية بدمشق وله مشاركة فى علوم كثيرة وله يد فى النظم ومن شعره

لله قوم يعشقون ذوى اللحى * لايسألون عن السواد المقبل

وبمهجتى قوم وانى منهم * جبلوا على حب الطراز الاول

وله أيضا

قم اسقنيها وليل الهم منهزم * والصبح أعلامه محمرة العذب

والسحب قد نثرت فى الارض لؤلؤها * تضمه الشمس فى ثوب من الذهب انتهى

وقد تقدم عن ابن سعيد له مايقارب هذا وله رحمه الله تعالى فى كاتب

ولى كاتب أضمرت فى القلب حبه * مخافة حسادى عليه وعذالى

له صنعة فى خط لام عذاره * ولكن سها اذ نقط اللام بالخال

(ومنهم أبو محمد القرطبى قال ابن سعيد لقيته بالقاهرة وكأنه لاخبر عنده من الآخرة وقد طال عمره فى أكل الاعراض وفساد الاغراض وما بقى فى أذى من شعره قوله

رحم الله من لقيت قديما * فلقد كان بى رؤفا رحيما

أعقبنى لقاء حر وقداعوزنى كما عدمت الكريما

وتوفى بالقاهرة سنة ٦٤٣ انتهى *(ومنهم على بن أحمد القادسى* الكنانى* قال ابن سعيد لقيته ببيت المقدس على زى الفقراء وحصلت منه هذه الابيات وندمت بعد ذلك على مافات وهى

ذاك العذار المطل * دمى عليه يطل

كأنما الخد ماء * وقد جرى فيه ظل

عقود صبرى عليه * منحل قلبى تحل

جرت دموعى عليه * فقلت آس وطل انتهى

(ومنهم أبو عبد الله بن العطار القرطبى قال ابن سعيد هو حلو المنازع ظريف المقاطع والمطالع مطبوع النوادر موصوف بالاديب الشاعر مازجته بالاسكندرية وبهذه الحضرة العلية ومازال يدين بالانفراد والتجول فى البلاد حتى قضى مناه وألقى بهذه المدينة عصاه لايخطر الهم له ببال ولايبيت الاعلى وعد من وصال وله حين سمع ما ارتجلته فى السكين بالاسكندرية حين داعبنى باختلاسها القاضى زين القضاة بن الريغى* وقال مالى اليه سبيل حتى يحضر مصرى* نبيل

أيا سارقا ملكا مصونا ولم يجب * على يده قطع وفيه نصاب

ستندبه الاقلام عند عثارها * ويبكيه ان يعد الصواب كتاب

وقال

فقال

أحاجيك ماشئ اذا ماسرقته * وفيه نصاب ليس يلزمك القطع
على ان فيه القطع والحد ثابت * ولا حد فيه هكذا حكم الشرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه القدح المعلى فيما أظن وبه نى والله سبحانه أعلم بقوله وبهذه الحضرة العلية حضرة تونس المحروسة فانها كانت محط رحال الافاضل من الاواخر والاوائل حتى ان قاضى القضاة ابن خلدون أقام بها مدة ومنها ارتحل الى مصر وكذلك الخطيب الجليل سيدى أبو عبد الله بن مرزوق رحمه الله تعالى ومنها خاطب الوزير لسان الدين بن الخطيب وسلطانه فى الشفاعة له عند سلطان المغرب فكتب لسان الدين عن سلطانه فى ذلك مانصه المقام الذى نؤكد اليه بر سلفه الوداد ونغرى بتخليد فخره وأمره القلم والمداد ونصل به الاستظهار على عدو الله تعالى والاستعداد ونخطب له من الله بجز أعطافه للخير والتوفيق والسداد والاعانة منه والامداد مقام محل أخينا الذى اشتهر فضله ودينه ووضح سعده متألقة براهينه وحياه الصنع الجميل وباه مشرقا جبينه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله يرعى الذمم ويسلك من الفضائل المنهج الاهم ويغلى البضائع النافقة عند الله تعالى ويعلى الهمم معظم قدره وملتزم بره الحريص على توفير أجره وتخليد فخره فلان أما بعد حمد الله تعالى ناصر الامرة المطاعة المحافظة على السنة والجماعة وحافظها من الاضاعة الى قيام الساعة الذى جعل المودة فيه أنفع الوسائل النفاعة والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة على العموم والاشاعة متمم مكارم الاخلاق من الفضل والبذل والحياء والشجاعة والرضا عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة وزرعوا الخير فى العاجلة ففازوا فى الآجلة بفائدة تلك الزراعة والدعاء لمقامكم الاعلى بصنع يروى فيه عن الاشعط الباتر خبر النصر المتواتر لسان البراعة وتأييد لا ترضى فيه القنا بمقام تلك القناعة فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لثنائكم العاطر بتخليد المفاخر منشور الاذاعة فى أيدى النواسم الضواعة من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عن خير هامى السحاب وبشر مفتح الابواب وعز الاسلام ببركة الاعتداد بملككم المنصور الاعلام مقتبل الشباب وعن ضافى الجلباب والحمد لله على تظافر الايدى فى ذاته وتوفر الاسباب وجانبكم الرفيع الامل المنتاب اذا حدت الحداة ذوات الاقتاب ومطمح الوسائل المطرزة المسائل بتصحيح الود اللباب والى هذا وصل الله تعالى سعيكم بسوابغ نعمه وآلائه دائمة الانسكاب وجعل ما عجل لكم من نعمه وآلائه كفيلة بالزلفى وحسن المتاب وألهمكم تقييد شواردها بالشكر قولا وعملا فالشكر مستدعى لمزيد كما ورد فى الكتاب فان من المنقول الذى اشتهر وراق فضله وبهر قوله اشفعوا تؤجروا وما فى معناه من المعتبر فى الخبر وتنفيس كربة عن مسلم وسماع شكوى من متظلم ولولا أن مقامكم السنى أغنى لجلبنا الكثير من هذا المعنى ولما تحقق ما أنتم عليه من سلوك سبيل الخير واقامة رسوم الدين والاهتداء بمن هديه

بالنور المبين خف علينا أن نقصدكم بالشفاعات مع الساعات وتجر لكم مع الله بأنفس البضاعات فما أثمر من ذلك شكرنا الله تعالى عليه حقيقة وشكرنا كم عليه شريعة وما تأخر أوسعنا كم فيه عذرا يتخذ ذريعة وعلمنا أن الله تعالى لم يأذن في تعجيله وسألناه في تيسيره وتسهيله سواء لدينا في ذلك ماعاد باعانة عامة وامداد وساهم في قصد جهاد ومالم يعد علينا خصوصا وعلى المسلمين عموما باعانة ولا ارفاد انما علينا أن نجلب الخير الباقي والاجر الراقي الى بابكم وندل عليه كريم جنابكم بمقتضى وداد صحبه باد وجميل ظن في دينكم المتين واعتقاد سلم مجمله ومفصله من انتقاد وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الاوحد العلامة سلالة الصالحين وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين وبالهامن مزية دنيا ودين أبا عبد الله بن مرزوق جبر الله تعالى على يدكم البرة حاله وسنى من مقامكم السنى آماله جرى عليه من المحن وتباريح الاحن مايعلم كل ذى مروءة وعقل واجتهاد ونقل أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان محسوب والى معقباته منسوب ولو كانت ذنوبه رضوى وثبيرا لاستدعت الى تعمدها عفوا كبيرا ورعيا لذلك الامام الصالح الذى كبر خلفه وأحرم وتشهد وسلم وأمن عقب دعائه ونصب كفه لمواهب الله تعالى وآلائه وأنصت لخطبته ووعظه وأوجب المزية لسعة حفظه وعذوبة لفظه فأحبط ذلك من أحبط الاعمال الصالحة وعطل المتاجر الرابحة وأسف الملك المذكور بدم ولده واحراق خزائنه وعدده وتغيير رسومه وحدوده واحاطه واحاط الله معبوده الى أن طهر سيفكم الملك من عاره وأخذ منه بثاره وتقرب الى الله والى السلف الكريم بمحو آثاره والحمد لله على ماخصه من ايثاره وتدارك الاسلام باقالة عثاره وانه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرر من حاله مايفت الفؤاد ويوجب الامتعاض له والاجتهاد يطلب منا الاعانة بين يديكم والانجاد ويشكو العيلة والاولاد والغربة التى أحلته الاقطار النازحة والبلاد والحوادث التى سلبته الطارف والتلاد وان نذكركم بوسيلته وضعف حيلته فبادرنا لذلك عملا بالواجب وسلوكا من بره ورعى حقه على السنن اللاحب وان كنا نطوقه فى أمرنا عند الحادثة علينا تقصيرا ولا نشكر الا الله وليا ونصيرا لحقه علينا أوجب فهو الذى لايجحد ولايحجب ولا يلتبس منه المذهب وكيف لايشفع فيمن جعله السلف الى الله تعالى شفيعا وأحله محلا منيعا رفيعا الى وليه الذى جبر ملكه سريعا وصير جنابه بعد المحول مريعا وجدد رسومه تأصيلا لها وتفريعا ومثلكم من اغتنم بره فى نصر مظلوم وسبر مكلوم واعداء كرم على لوم وهى مناذكرى تنفع وحرص على أجر من يشفع واسعاف لمن سأل مايعلى من قدركم ويرفع وتادية لحق سلفكم الذى توفرت حقوقه وابلاغ نصيحة دينية الى مجدكم الذى لايمنعه عن المجد مانع ولايعوقه ومطلبه فى جنب ملككم الكبير حقير وهو به الى مايفتح الله تعالى به على يد صدقتكم فقير ومنهلكم الاروى وباعكم فى الخير أطول وساعدكم أقوى وماتفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى والله عز وجل يسلك بكم المسالك التى تخلد بالجميل ذكركم ونعظم عند الله أجركم فما عند الله خير

للابرار

للابرار والدنيادار الغرور والآخرة دار القرار وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى * والسلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني وكان ابن مرزوق غالبا على دولة السلطان أبي سالم أخي أبي فارس المذكور فقتله الوزير عمر بن عبد الله الفودودي وتغلب على الملك ونصب أخا لابي سالم معتوها وسجن ابن مرزوق ورام قتله فخلصه الله تعالى منه ثم ان السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلب وقتله واستقل بالملك فخوطب في شأن ابن مرزوق بما ذكر * (رجع الى ما كنا فيه من ذكر الراحلين من أعلام الاندلسيين الى البلاد المشرقية المحروسة بالله سبحانه وتعالى فنقول * (ومنهم أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الازدي القرطبي المعروف بابن الفرضي الحافظ المشهور وكان فقيها عالما عارفا بفنون علم الحديث ورجاله بارعا في الادب وغيره وله من التصانيف تاريخ علماء الاندلس وقفت عليه بالمغرب وهو بديع في بابه وهو الذي ذيل عليه ابن بشكوال بكتاب الصلة وله كتاب حسن في المؤتلف والمختلف وفي مشتبه النسبة وكتاب في أخبار شعراء الاندلس وغير ذلك ورحل من الاندلس الى المشرق سنة ٣٨٢ فحج وسمع من العلماء وأخذ عنهم وكتب من أماليهم وروى عن شيوخ عدة من أهل المشرق ومن شعره

أسير الخطايا عند بابك واقف * على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبها * ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذي يرجى سواك ويتقي * ومالك في فصل القضاء مخالف
فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي * اذا نشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما * يصد ذووا القربى ويجفوا المؤالف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي * أرجي لاسرافي فاني لتالف

وكان رحمه الله تعالى حسن الشعر والبلاغة ومن شعره أيضا رحمه الله تعالى

ان الذي أصبحت طوع يمينه * ان لم يكن قمرا فليس بدونه
ذلي له في الحب من سلطانه * وسقام جسمي من سقام جفونه

وله شعر كثير ومولده في ذي القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١ وتولى القضاء بمدينة بلنسية في دولة محمد المهدي المرواني وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣ وبقي في داره ثلاثة أيام ودفن متغيرا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة رحمه الله تعالى وروى عنه انه قال تعلقت بأستار الكعبة وسألت الله تعالى الشهادة ثم انحرفت وفكرت في هول القتل فندمت وهممت أن أرجع فأستقيل الله سبحانه وتعالى فاستحييت وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله الاجاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما اللون لون دم والريح ريح المسك كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك قال ثم قضى على اثر ذلك وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وقد ساق في المطمح حكايته فقال كان حافظا عالما كلفا بالرواية رحل في طابها وتبحر في المعارف بسببها مع حظ من الادب

كثير واختصاص بنظيم ونثير ج وبرع في الزهادة والورع فتعلق بأستار الكعبة يسأل الله الشهادة ثم فكر في القتل ومرارته والسيف وحرارته فأراد أن يرجع ويستقيل الله تعالى فاستحيى وآثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا فأصيب في تلك الفتن مكلوما وقتل مظلوما ثم ذكر مثل مامر ومما قال في طريقه يتشوق الى افريقية

مضت لي شهور منذ غبتم ثلاثة * وماخلتني أبقى اذا غبتم شهرا
ومالي حياة بعدكم أستلذها * ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرا
ولم يسلني طول التنائي عليكم * بلى زادني وجدا وجدد لي ذكرا
يمثلكم لي طول شوقي اليكم * ويدنيكم حتى أناجيكم سرا
سأستعتب الدهر المفرق بيننا * وهل نافعي ان صرت أستعتب الدهرا
أعلل نفسي بالمنى في لقائكم * وأستسهل البر الذي جبت والبحرا
ويؤنسني طي المراحل عنكم * أروح على أرض وأغدو على أخرى
وتالله مافارقتكم عن قلى لكم * ولكنها الاقدار تجري كما تجرى
رعتكم من الرحمن عين بصيرة * ولا كشفت أيدي النوى عنكم سترا

وقد عرف به ابن حيان في المقتبس وذكر قصة شهادته رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله البكري الشريشي المالكي ولد بشريش سنة ٦٠١ ورحل الى العراق فسمع به المشايخ كالقطيعي وابن زروبة وابن الكثير وغيرهم واشتغل وساد أهل زمانه واشتهر بين أقرانه ثم عاد الى مصر فدرس بالفاضلية ثم انتقل الى القدس الشريف فأقام به شيخ الحرم ثم جاء الى دمشق المحروسة بالله وتولى مشيخة الحديث بتربة أم الصالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية وعرض عليه القضاء فلم يقبل وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصري ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى وذلك سنة خمس وثمانين وستمائة رحمه الله تعالى وليس هو بشارح المقامات بل هو غيره وقد اشتركا في البلد فبسبب ذلك ربما يقع في الاذهان الوهم في أمرهما وشارح المقامات أحمد وهذا محمد وقد ترجمنا صاحب شرح المقامات فيما تقدم من هذا الباب فليراجع والله سبحانه وتعالى أعلم *(ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلس القيسي الاندلسي البلنسي كان من أهل العلم باللغة والعربية مشارا اليه فيهما رحل من الاندلس وسكن بمصر واستوطنها وقرأ الادب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب الفصوص وعلى أبي يعقوب يوسف بن خرقان بمصر ودخل بغداد واستفاد وأفاد وله شعر حسن فمن ذلك قوله

مريض الجفون بلا علة * ولكن قلبي به ممرض
أعان السهاد على مقلتي * بفيض الدموع فما تغمض
وما زار شوقا ولكن أتى * يعرض لي أنه معرض

وله أشعار كثيرة وتوفي يوم الاربعاء لست بقين من جمادى الاولى سنة ٤٢٧ وقيل سنة ٤٢٩ بمصر وكان استوطنها وصلى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن ابراهيم الحوفي صاحب

التفسير

التفسير في مصلى الصدفى ودفن عند أبي اسحق رحمه الله تعالى ومغلس بضم الميم وفتح الغين وتشديد اللام المكسورة وبعدها سين مهملة وكانت بينه وبين أبي الطاهر اسمعيل بن خلف صاحب كتاب العنوان معارضات في قصائد ومن شعر ابن المغلس أيضا قوله في حمام

ومنزل أقوام اذا ما اغتدوا به * تشابه فيه وغده ورئيسه
يخالط فيه المرء غير خليطه * ويفضي عدو المرء وهو جليسه
يفرج كربي ان تزايد كربه * ويؤنس قلبي ان يعد أنيسه
اذا ما أعرت الجو طرفا تكاثرت * على مائه أقماره وشموسه

*(ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الاديب المعروف بالمغربي) وهو من أهل المرية وانتقل الى المشرق وكان كامل الفضيلة وجمع بين الادب والحكمة وله ديوان شعر جيد والخلاعة والمجون غالبة عليه وذكر العماد في الخريدة أنه كان طبيب المارستان في معسكر السلطان السلجوقي حيث حل وخيم وكان السديد يحيي بن سعيد المعروف بابن المرخم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي فاصدا وطبيبا في هذا المارستان وأثنى العماد على أبي الحكم المذكور وذكر فضله وما كان عليه وان له كتابا سماه نهج الوضاعة لاولي الخلاعة ثم ان أبا الحكم انتقل الى الشام وسكن دمشق وله فيها أخبار وماجريات ظريفة تدل على خفة روحه قال ابن خلكان رأيت في ديوانه أن أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسي كان عند الامراء بني منقذ بقلعة شيزر وكانوا مقبلين عليه وكان بدمشق شاعر يقال له ابو الوحش وكانت فيه دعابة وبينه وبين أبي الحكم المذكور مداعبات فسأل منه كتابا الى ابن منير بالوصية عليه فكتب أبو الحكم

أبا الحسين اسمع مقال فتى * عوجل فيما يقول فارتجلا
هذا أبو الوحش جاء ممتدحا * للقوم فاهنأ به اذا وصلا
واتل عليهم بحسن شرحك ما * أنقله من حديثه جملا
وخبر القوم انه رجل * ما أبصر الناس مثله رجلا
تنوب عن وصفه شمائله * لا يبتغي عاقل به بدلا

ومنها

وهو على خفة به ابدا * معترف أنه من الثقلا
يمت بالثلب والرقاعة والسخف وأما بغير ذاك فلا
ان أنت فاتحته لتخبر ما * يصدر عنه فتحت منه خلا
فنبه ان حل خطة الخسف والهون ورحب به اذا رحلا
وأسقه السم ان ظفرت به * وامزج له من لسانك العسلا

وله أشياء مستملحة منها مقصورة هزلية ضاهى بها مقصورة ابن دريد من جملتها

وكل ملوم فلابد له * من فرقة لو ألزقوه بغرا

وله مرثية في عماد الدين بن يحيى بن آق سنقر الاتابكي شاب فيها الجد بالهزل والغالب على شعره الانطباع وتوفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة سنة ٥٤٩ وقيل في السنة التي

قبلها بدمشق رحمه الله تعالى * والقاضي ابن المرخم المذكور هو الذي يقول فيه أبو القاسم هبة الله بن الفضل الشاعر المعروف بابن القطان

يا ابن المرخم صرت فينا قاضيا * خرف الزمان تراه أم جن الفلك
ان كنت تحكم بالنجوم فربما * أما بشرع محمد من أين لك

وكان أبو الحكم المذكور فاضلا في العلوم الحكمية متقنا للصناعة الطبية حسن النادرة كثير المداعبة محبا للهو والخلاعة والشراب وكان يعرف صنعة الموسيقى ويلعب بالعود ويجلس في دكان بجيرون للطب وسكناه بالبادين وأتى في ديوانه نهج الوضاعة بكل غريب يدل على انه أريب سامحه الله تعالى وغفر له *(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق)* من هو الاحق بالتقديم والسبق الشهير عند أهل الغرب والشرق الحافظ المقرى الامام الرباني أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الاموي مولاهم القرطبي صاحب التصانيف التي منها المقنع والتيسير وعرف بالداني لسكناه دانية وولد سنة ٣٧١ وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل الى المشرق سنة ٣٩٧ فمكث بالقيروان أربعة أشهر ودخل مصر في شوال فمكث بها سنة وحج ورجع الى الاندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩ وقرأ بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسي وغيره بقرطبة وعلى أبي الحسن بن غلبون وخلف بن خاقان المصري وأبي الفتح فارس بن احمد وسمع من أبي مسلم الكاتب وهو أكبر شيخ له ومن عبد الرحمن بن عثمان القشيري وحاتم بن عبد الله البزار وغير واحد من أهل مصر وسواها وسمع من الامام أبي الحسن القابسي وخلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والاندلس وتلا عليه خلق منهم مفرج الاقبالي وأبو داود بن نجاح صاحب التنزيل في الرسم وهو من أشهر تلامذته وحدث عنه خلق كثير منهم خلف ابن ابراهيم الطليطلي قال أبو محمد عبد الله الحجري ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الداني ولا بعد عصره أحد يدانيه ولا يضاهيه في حفظه وتحقيقه وكان يقول ما رأيت شيأ قط الا كتبته ولا كتبته الا حفظته ولا حفظته فنسيته قال ابن بشكوال كان أبو عمرو أحد الائمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه واعرابه وجمع في ذلك كله تواليف حسانا وله معرفة بالحديث وطرقه واعرابه وأسماء رجاله وكان حسن الخط والضبط من أهل الحفظ والذكاء واليقين وكان دينا فاضلا ورعا سنيا وقال بعضهم وأظنه المغامي كان أبو عمرو مجاب الدعوة مالكي المذهب وقال بعض أهل مكة ان أبا عمرو الداني مقرئ متقدم واليه المنتهى في علم القراآت واتقان القرآن والقراء خاضعون لتصانيفه واثقون بنقله في القراآت والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك له مائة وعشرون مصنفا وروى عنه بالاجازة رجلان أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة وكانت وفاته رحمه الله تعالى بدانية في نصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة *(ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد بن أبي حبيب الاندلسي)* من بيت علم ووزارة صرف عمره في طلب العلم في الفقه والحديث والادب وولي القضاء بالاندلس مرة ثم دخل الاسكندرية ومصر وجاور بمكة

المشرق ثم قدم العراق وأقام ببغداد مدة ثم وافى خراسان فأقام بنيسابور وبلخ وكانت ولادته ببلاد الاندلس وتوفي بهراة في شعبان سنة ٥٤٨ رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم أبو العباس أحمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الاندلسي المقرى رحل وأخذ القرا آت عن أبي الفضل جعفر الهمداني وسمع من أبي القاسم بن عيسى وسكن الفيوم واختصر التيسير وصنف شرحا للشاطبية وتوفي سنة ٦٤٠ رحمه الله تعالى *(ومنهم العلامة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المرسي اللورقي المقرى النحوي ولد سنة ٥٧٥ وقرأ القرا آت وأحكم العربية وبرع فيها واجتمع بالجزولي وسأله عن مسئلة في مقدمته وقرأ علم الكلام والاصولين والفلسفة وكان خبيرا بهذه العلوم مقصودا باقرائها وولي مشيخة قراءة العادلية ودرس بالعزيزية نيابة وصنف شرحا للشاطبية وشرحا للمفصل في عدة مجلدات وشرح الجزولية وغير ذلك وكان مليح الشكل حسن البزة رحمه الله تعالى وتوفي سنة ٦٦١ رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم أبو عبد الله بن أبي الربيع القيسي الاندلسي الغرناطي قدم مصر سنة ٥١٥ اوبعدها فسمع على السلفي وبقراءته على جماعة من شيوخ مصر وكان لديه فقه وأدب ثم سافر الى باب الابواب وكان حيا سنة ٥٥٦ ومن نظمه يمدح كتاب الشهاب

ان الشهاب له فضل على الكتب * بما حوى من كلام المصطفى العربي

كم ضم من حكمة غرا وموعظة * ومن وعيد ومن وعد ومن أدب

أما القضاعي فالرحمن يرحمه * كما حباه من التأليف بالعجب

*(ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى القرشي العبدري من أهل ميورقة من بلاد الاندلس سكن بغداد وسمع بها من أبي الفضل بن خيرون وطراد الزينبي وأبي عبد الله الحميدي وجماعة ولم يزل يسمع الى حين وفاته وكتب بخطه كثيرا من الكتب والاجزاء وجمع وخرج وكان صحيح العقل معتمد الضبط مرجوعا اليه في الاتقان وكفاه فخرا وشرفا أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السلفي وأبو الفضل محمد بن ناصر وكان فهامة علامة ذا معرفة بالحديث متعففا مع فقره وكان يذهب الى أن المناولة والعرض كالسماع وقال السلفي فيه انه من أعيان علماء الاسلام بمدينة السلام متصرف في فنون من العلم أدبا ونحوا ومعرفة بأنساب العرب والمحدثين وكان داودي المذهب قرشي النسب وقد كتب عني وكتبت عنه وسمعنا معا كثيرا على شيوخ بغداد ومولده بقرطبة من مدن الاندلس وقبل اجتماعي به كنت أسمع اسمعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان يثني عليه فلما اجتمعنا وجدته فوق ما وصفه انتهى وقال ابن عساكر كان أحفظ شيخ لقيته وربما حكى عنه بعضهم كابن عساكر أمورا منكرة فالله أعلم وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٢٤ ببغداد رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعدون الباجي سمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وابن رشيق وبمكة من الآجري وكان صالحا فاضلا زاهدا ورعا حدث ومات ببطليوس فجاءة سنة ٣٩٢ ومولده سنة ٣٢٢ *(ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون التميمي الجزيري المتعبد كانت آدابه كثيرة وحج غير مرة ورابط ببلاد المغرب وكان حسن الصوت

بالقرآن سمع بمصر من جماعة وبمكة وصحب الفقراء وطاف بالشام وغزا غزوات وتعرض للجهاد وحرّض عليه وساح بجبل المقطم وذكر أنه صلى بمصر الضحى اثنتي عشرة ركعة ثم نام فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان مالكا والليث اختلفا في الضحى فمالك يقول ثنتا عشرة ركعة والليث يقول ثمانية فضرب عليه الصلاة والسلام بين وركي ابن سعدون وقال رأي مالك هو الصواب ثلاث مرات قال وكان في وركي وجع فمن تلك الليلة زال عني وكان له براهين من نور يضيء عليه اذا صلى ونحوه وأنشد

سجن اللسان هو السلامة للفتى * من كل نازلة لها استئصال

ان اللسان اذا حللت عقاله * ألقاك في شنعاء ليس تقال

توفي سنة ٤٤٣ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعد الاعرج الطليطلي الخطيب ويقال فيه ابن سعيد سمع بمصر ابن الورد وابن السكن وحدّث مولده سنة ٣٠٩ وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٨٤ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن اسحق بن يوسف الاموي القرطبي وأصله من لبلة ولكن سكن قرطبة وقدم مصر وحج وسمع في طريقه من الشيخ أبي محمد بن أبي زيد صاحب الرسالة وأخذ عن القابسي وعن جماعة من علماء مصر والحجاز ومولده سنة ٣٥٢ ورحلته سنة ٤١٨ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حسان ابن الحكم بن هشام القرطبي سمع من أبيه ويحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب ورحل فسمع من أشهب بن عبد العزيز وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم وعاد الى الاندلس وبها توفي سنة ٢٦٠ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي نزيل اسكندرية ويعرف بابن أبي الربيع أحد أولياء الله تعالى شيخ الصالحين صاحب الكرامات المشهورة جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع الى الله تعالى والتخلي عن الناس والتمسك بطريقة السلف قرأ القرآن ببلده بالقراآت السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره وقرأ بدمشق على الواسطي وسمع عليه الحديث ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قبره ومنبره سنة ٦١٧ وسمع بدمشق على أبي القاسم بن مصري وأبي المعالي بن خضر وأبي الوفاء بن عبد الحق وغيرهم وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الاسكندرية بتربة أبي العباس الراسي وتلمذ للشاطبي تلميذ الراسي وصنف كتبا حسنة منها كتاب المسلك القريب في ترتيب الغريب وكتاب اللمعة الجامعة في العلوم النافعة في تفسير القرآن العزيز وكتاب شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراآت والنازل وكتاب المباحث السنية في شرح الحصرية وكتاب الحرقة في الباس الخرقة وكتاب المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد وكتاب النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية وكتاب زهر العريش في تحريم الحشيش وكتاب الزهر المضي في مناقب الشاطبي وكتاب الاربعين المضية في الاحاديث النبوية ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ووفاته بالاسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢ ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته رحمهما الله تعالى ونفع بهما *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن شريح الرعيني الاشبيلي قدم مصر وسمع بها من ابن نفيس

والى

وأبي علي الحسن البغدادي وأبي جعفر النحوي وأبي القاسم بن الطيب البغدادي الكاتب وبمكة من أبي ذر الهروي قال ابن بشكوال كان من جلة المقربين وخيارهم ثقة في روايته وكانت رحلته الى المشرق سنة ٤٢٣ ومولده سنة ٣٩٢ وتوفي سنة ٤٧٦ وعمره أربع وثمانون سنة الا خمسة وخمسين يوما وروى باشبيلية عن جماعة رحمه الله تعالى

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح الانصاري المالقي) قال السلفي هو شاب من أهل الادب له خاطر سمح كان يحضر عندي بالاسكندرية كثير السماع للحديث وذكر أنه قرأ الادب على أبي الحسين بن الطراوة النحوي بالاندلس وعلى نظرائه وأنشدني لنفسه

كم ذا تقلقلني النوى وتسوقني * والى متى أشجى بها وأسام

ألفت ركائبي الفلا فكأنما * للبين عهد بيننا وذمام

ياويح قلبي من فراق أحبة * أبدا تصدعه به الايام

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافري الاندلسي المالكي) رحل الى المشرق فسمع بالشام من خيثمة بن سليمان وبمكة أبا سعيد بن الاعرابي وببغداد محمد بن اسمعيل بن محمد الصفار وسمع بالمغرب بكر بن حماد التاهرتي ومحمد بن وضاح وقاسم بن اصبغ وغيرهم وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزني روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال اجتمعنا به بهمذان مات ببخارى سنة ٣٨٣ وقيل سنة ثمان وقيل سنة تسع وسبعين وقال فيه أبو سعيد الاندلسي انه كان من أفاضل الناس ومن ثقاتهم وقال غنجار انه كان فقيها حافظا جمع تاريخا لاهل الاندلس وقال السمعاني فيه كان فقيها حافظا رحل في طلب العلم الى المشرق والمغرب رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر علي بن عيسى الخزرجي الداني النحوي أخو أبي العباس بن عيسى) سمع بدانية من أبي داود المقري وغيره وقدم دمشق سنة ٥٥٤ حين خرج حاجا وأقرأ بدمشق النحو مدة ثم خرج الى بغداد وأقام بها الى أن مات سنة ٦١٩ ومولده سنة ٥١٣ وقدم مصر سنة ٥٧٢ وله من المصنفات كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الادب في علم مجازات العرب ومن كلامه ليست هيبة الشيخ لشيبه ولا لسنه ولا لشخصه ولكن لكمال عقله والعقل هو المهاب ولو رأيت شخصا جمع جميع الخصال وعدم العقل لما هبته وقال من جهل شيأ عابه ومن قصر عن شيء هابه *(ومنهم القاضي الشهير محمد بن بشير وهو محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري) وقيل في آبائه غير ذلك كما يأتي ولما أشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير الى خطة القضاء بقرطبة وجه اليه بياجة فأقبل ولا يعلم مادعي اليه ونزل على صديق له من العباد فتحدث في شأن استدعائه وقدم أنه يعرف فن الكتابة فقال له العابد ما أراه بعث فيك الا للقضاء فان القاضي بقرطبة مات وهي الآن دون قاض فقال ابن بشير فأنا أستشيرك في ذلك ان وقع فقال أسألك عن أشياء ثلاثة وأعزم عليك أن تصدقني فيها ثم أشير بعد ذلك عليك فقال ماهي فقال كيف حبك للاكل الطيب واللباس اللين وركوب الفاره فقال والله لا أبالي مارددت به جوعي وسترت به عورتي وحملت به رحلي فقال هذه واحدة فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان والتبطن للكواعب

الغيد وماشا كل ذلك من الشهوات فقال هذه حال والله ما استشرفت قط اليها ولا خطرت ببالى ولا اكترثت لفقدها فقال وهذه ثانية فكيف حبك لمدح الناس لك وثنائهم عليك وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل فقال والله ما أبالى فى الحق من مدحنى أو ذمنى وما أسر للولاية ولا أستوحش للعزل فقال وهذه الثالثة اقبل الولاية فلا بأس عليك فقدم قرطبة فولاه الامير الحكم القضاء والصلاة قال ابن وضاح أخبرنى من كان يرى محمد بن بشير القاضى داخلا على باب المسجد الجامع يوم الجمعة وعليه رداء معصفر وفى رجله نعل صرارة وله جمة مفرقة ثم يقوم فيخطب و يصلى وهو فى هذا الزى وبه كان يجلس للقضاء بين الناس فان رام أحد من دينه شيأ وجده أبعد من الثريا وأتاه رجل لا يعرفه فلما رأى ما هو فيه من زى الحداثة من الجمة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء فى يديه توقف وقال دلونى على القاضى فقيل له ها هو وأشير اليه فقال انى رجل غريب وأراكم تستهزؤن بى أنا أسألكم عن القاضى وأنتم تدلونى على زامر فصحوا له أنه القاضى فتقدم اليه واعتذر فأدناه وتحدث معه فوجد عنده من العدل والانصاف فوق ما ظنه فكان يحدث بقصته معه وعوتب فى ارسال لمته ولبسه الخز والمعصفر فقال حدثنى مالك ابن أنس أن محمد بن المنكدر وكان سيد القراء كانت له لمة وأن هشام بن عروة فقيه هذا البلد يعنى المدينة كان يلبس المعصفر وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخز ولقد سئل يحيى ابن يحيى عن لباس العمائم فقال هى لباس الناس فى المشرق وعليه كان أمرهم فى القديم فقيل له لو لبستها لاتبعك الناس فى لباسها فقال قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه وكان ابن بشير أهلا أن يقتدى به فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير وكان أول ما نظر فيه محمد بن بشير حين ولى القضاء التسجيل على الخليفة الحكم فى ارخلى القنطرة اذ قيم عليه فيها وثبت عنده حق المدعى وأعذر الى الحكم فلم يكن عنده مدفع فسجل فيها وأشهد على نفسه فما مضت مدة حتى ابتاعها الحكم ابتياعا صحيحا فسر بذلك وقال رحم الله محمد بن بشير فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره منا كان فى أيدينا شئ مشتبه فصححه لنا وصار حلالا طيب الملك فى أعقابنا وحكم على ابن فطيس الوزير ولم يعرفه بالشهود فرفع الوزير ذلك الى الحكم وتظلم من ابن بشير فأومأ الحكم اليه ان الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرفه بهم ولا اعذرت اليه فيهم وان أهل العلم يقولون ان ذلك له فكتب اليه ابن بشير ليس ابن فطيس ممن يعرف بمن شهد عليه لانه ان لم يجد سبيلا الى تجريحهم لم يتحرج عن طلب أذاهم فى أنفسهم وأموالهم فيدعون الشهادة هم ومن اتسى بهم وتضيع أموال الناس وأكثر موسى بن سماعة أحد خواص الامير الحكم فى ابن بشير الشكاية وأنه يجور عليه فقال له الحكم أنا أمتحن قولك الساعة فاخرج اليه فورا واستأذن عليه فان أذن لك عزلته وصدقت قولك فيه وان لم يأذن لك دون خصمك ازددت بصيرة فيه فليس هو عندى بجائر على حال وانما مقصده الحق فى كل ما يتصرف فيه فخرج يؤم دار ابن بشير وقد أمر الحكم من يثق به من الفتيان الصقالبة أن يقفوا أثره و يعلموا ما يكون منه فلم يكن الاريثما بلغ ثم انصرف فحكى للحكم أنه لما خرج

قوله ارخلى فى بعض النسخ ارحى ولعله محرف عن أرض وليحرر اه

الا ذن الى موسى وعلم القاضي بمكانه عاد اليه فقال له ان كانت لك حاجة فاقصد فيها اذا جلس القاضي مجلس القضاء فتبسم الحكم وقال قد أعلمته أن ابن بشير صاحب حق لا هوادة فيه عنده لاحد * وولي القضاء مرتين فلما عزل المرة الاولى انصرف الى بلده وكان بعض اخوانه يعاتبه في صلابته ويقول له أخشى عليك العزل فيقول له ليته قد راني الشقراء يعني بغلته تقطع الطريق بي حادة نحو باجة فامضى الاسير حتى عتب عليه الامير في قصة اشتد فيها على بعض خاصته فكانت سببا لعزله وانصرف كما تمنى فلم يمكث الاسير حتى أتى فيه رقاص من قبل الامير الحكم والرقاص عند المغاربة هو الساعي عند المشارقة فعاد الى قرطبة وجبره على القعود للقضاء الامير الحكم فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته وبصدقة ما يملك في سبيل الله تعالى ان حكم بين اثنين فلم يعذره وأخرجه من ماله وعوضه من طيب ما عنده ووهب له جارية من جواريه فعاد الى القضاء ثانية * ومما يحكى عنه في العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل وكل عند ابن بشير وكيلا يخاصم عنه لشيء اضطر اليه وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا ولم يكن فيها من الاحياء الا الامير الحكم وشاهد آخر مبرز فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد وضربت على وكيله الآجال في شاهد ثان وجد به الخصام فدخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم وأراه شهادته في الوثيقة وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه وعرفه مكان حاجته الى ادائها عند قاضيه خوفا من بطلان حقه وكان الحكم يعظم سعيد الخير عمه ويلتزم مبرته فقال له يا عم انا لسنا من أهل الشهادات وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا نجهله ونخشى أن نوقفنا مع القاضي موقف مخزاة كنا نفديه بملكنا فصر في خصامك حيث صيرك الحق اليه وعلينا خلف ما انتقصك فأبى عليه وقال سبحان الله وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك وأنت وليته وهو حسنة من حسناتك وقد لزمتك في الديانة أن تشهد لي بما علمته ولا تكتمني ما أخذ الله عليك فقال بلى ان ذلك لمن حقك كما تقول ولكنك تدخل علينا به داخلة فان أعفيتنا منه فهو أحب الينا وان اضطررتنا لم يمكنا عقوقك فعزم عليه عزم من لم يشك أن قد ظفر بحاجته وضايقته الآجال فألح عليه فأرسل الحكم عند ذلك الى فقيهين من فقهاء زمانه وخط شهادته بيده في قرطاس وختم عليها بخاتمه ودفعها الى الفقيهين وقال لهما هذه شهادتي بخطي تحت ختمي فأدياها الى القاضي فأتياه بها الى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود فأدياها اليه فقال لهما قد سمعت منكما فقوما راشدين في حفظ الله تعالى وجاء وكيل سعيد الخير وتقدم اليه مدلا واثقا وقال له أيها القاضي قد شهد عندك الامير أصلحه الله تعالى فما تقول فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه ثم قال للوكيل هذه شهادة لا تعمل عندي فجئني بشاهد عدل فدهش الوكيل ومضى الى سعيد الخير فأعلمه فركب من فوره الى الحكم وقال ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا يجترئ هذا القاضي على رد شهادتك والله سبحانه قد استخلفك على عباده وجعل الامر في دمائهم وأموالهم اليك هذا ما يجب أن تحمله عليه وجعل يغريه بالقاضي ويحرضه على الايقاع به فقال له الحكم وهل شككت أنا في هذا يا عم القاضي رجل صالح والله لا تأخذه في الله لومة لائم فعل ما يجب عليه ويلزمه وسد دونه بابا

كان يصعب عليه الدخول منه فأحسن الله تعالى جزاءه فغضب سعيد الخير وقال هذا حسبي منك فقال له نعم قد قضيت الذى كان لك علىّ ولست والله أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه يا عاجز أما تعلم أنه لابد من الاعذار فى الشهادات فمن كان يجترئ على الدفع فى شهادة الامير لو قبلتها ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه * وتوفى القاضي محمد بن بشير سنة ١٩٨ قبل الشافعي بست سنين كما يأتى قريبا ومحاسنه رحمه الله تعالى كثيرة وقد استوفى ترجمته بقدر الامكان القاضي عياض فى المدارك فليراجعها من أرادها فان عهدى بها فى المغرب * وقال بعض من عرّف به ما نصه القاضي محمد بن بشير بن محمد المعافرىّ أصله من جند باجة من عرب مصر ولاه الحكم بن هشام قضاء القضاة الذى يعبرون عنه بالمغرب بقضاء الجماعة بقرطبة بعد المصعب بن عمران ثم صرفه وولى مكانه الفرج بن كنانة وعن ابن حارث قال أحمد بن خالد طاب محمد بن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظ وافر ثم كتب لاحد أولاد عبد الملك بن مروان لظلمة نالته على وجه الاعتصام به وتصرّف معه تصرّفا لطيفا ثم انقبض عنه وخرج حاجا قال ابن حارث وكتب محمد بن بشير فى حداثته للقاضي مصعب بن عمران ثم خرج حاجا فلقى مالك بن أنس وجالسه وسمع منه وطلب العلم أيضا بمصر ثم انصرف فلزم ضيعته فى باجة وقال ابن حيان انه استقدم من باجة للقضاء برأى العباس بن عبد الملك وقال ابن شعبان فى الرواة عن مالك من أهل الاندلس محمد بن بشير بن سرافيل ويقال شراحيل ولى القضاء وكان رجلا صالحا وبعدله تضرب الامثال واستوطن قرطبة وتوفى بها سنة ثمان وتسعين ومائة انتهى وبعضه عن غيره ومن شعره قوله

انما أزرى بقدرى اننى * لست من بابة أهل البلد
ليس منهم غير ذى مقلية * لذوى الالباب أو ذى حسد
يتحامون لقائى مثل ما * يتحامون لقاء الاسد
مطلعى أثقل فى أعينهم * وعلى أنفسهم من أحد
لو رأونى وسط بحر لم يكن * أحد يأخذ منهم بيدى

*(ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقىّ من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا وحج وحضر افتتاح اقريطش واستوطنها قاله الرازى * (ومنهم محمد بن يحيى بن يحيى الليثى خرج حاجا ولقى سحنون بن سعيد بافريقية ولقى بمصر رجالا من أصحاب مالك فسمع منهم وعرف بالفقه والزهد وجاور بمكة وتوفى هنالك *(ومنهم محمد بن مروان بن خطاب المعروف بابن أبى جمرة رحل حاجا هو وابناه خطاب وعميرة فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وسمعوا ثلاثتهم من سحنون بن سعيد المدوّنة بالقيروان وأدركوا أصبغ بن الفرج وأخذوا عنه * (ومنهم محمد بن أبى قلاعة البوّاب من أهل قرطبة كانت له رحلة الى المشرق ولقى فيها جماعة من أهل العلم وأخذ عن أبى اسحق الزجاجىّ وعن أبى بكر بن الانبارى وعن أبى الحسن علىّ بن سليمان الاخفش وأبى عبد الله نفطويه وغيرهم وسمع من الاخفش

الكامل للمبرد وقال الحكم المستنصر لم يصح كتاب الكامل عندنا من رواية الا من قبل ابن ابى قلاعة وكان ابن جابر الاشبيلى قد رواه قبل بمصر بمدة وما علمت أحدا رواه غيرهما وكان ابن الاحمر القرشى يذكر انه رواه وكان صدوقا ولكن كتابه ضاع ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين *(ومنهم محمد بن حزم بن بكر التنوخى من أهل طليطلة وسكن قرطبة يعرف بابن المديني سمع من أحمد بن خالد وغيره وصحب محمد بن مرة الجبلى قديما واختص بمرافقته فى طريق الحج ولازمه بعد انصرافه وكان من أهل الورع والانقباض وحكى عن ابن مسرة أنه كان فى سكناه المدينة يتتبع آثار النبى صلى الله عليه وسلم قال ودله بعض أهل المدينة على دار مارية أم ابراهيم سرية النبى صلى الله عليه وسلم فقصد اليها فاذا هى دويرة لطيفة بين البساتين بشرقى المدينة عرضها وطولها واحد قد شق فى وسطها بحائط وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى الى ذلك الفرش على خارج لطيف وفى أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبى صلى الله عليه وسلم فى الصيف قال فرأيت أبا عبد الله بعد ما صلى فى البيتين والسقيفة وفى كل ناحية من نواحى تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره فكشفته بعد انصرافى وهو ساكن فى الجبل عن ذلك فقال هذا البيت الذى ترانى فيه بنيته على تلك الحكاية فى العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان انتهى *(ومنهم محمد بن يحيى ابن مالك بن يحيى بن عائذ والد أبى زكريا الراوية من أهل طرطوشة يكنى أبا بكر تأدب بقرطبة وسمع بها من قاسم بن أصبغ ومحمد بن معاوية القرشى وأحمد بن سعيد ومنذر بن سعيد وأبى على القالى وغيرهم وكان حافظا للنحو واللغة والشعر يقوت من جاراه على حداثة سنه شاعرا مجيدا مترسلا بليغا ورحل مع أبيه الى المشرق سنة تسع وأربعين وثلثمائة فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكنانى وغيرهم وسمع أيضا بالبصرة وبغداد كثيرا وخرج الى أرض فارس فسمع هنالك وجمع كتبا عظيمة وأقام بها الى أن توفى بأصبهان مغتبطا مع الستين وثلثمائة ومولده بطرطوشة صدر ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ذكره ابن حيان رحمه الله تعالى *(ومنهم محمد بن عبدون الجبلى العدوى من أهل قرطبة أدب بالحساب والهندسة ورحل فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة فدخل مصر والبصرة وعنى بعلم الطب فمهر فيه ودبر مارستان الفسطاط ثم رجع الى الاندلس فى سنة ستين وثلثمائة فاتصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله وله فى التكسير تأليف حسن رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الازدى الفرّاء القرطبى صحب أبا بكر بن يحيى بن مجاهد واختص به واطف محله منه وقرأ عليه القرآن ورحل صحبته لاداء فريضة الحج وكان رجلا صالحا كثير التلاوة للقرآن والخشوع اذا قرأ بكى ورتل وبين فى مهل ويقول أبو بكر علمنى هذه القراءة وحكى أنه سرد الصوم اثنتى عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد مفطرا لكل ليلة وقت الافطار ثم تمادى على ذلك بعد موته مفطرا عقب العشاء الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب اليها تزيدا من الخير واجتهادا فى العمل *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح المعافرى الاندلسى رحل الى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان وأبا سعيد بن الاعرابى واسمعيل بن محمد الصفار وبكر بن حماد التاهرتى وغيرهم

روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال اجتمعنا بهمذان سنة احدى وأربعين يعنى وثلثمائة فتوجه منها الى أصبهان وكان قد سمع فى بلاده وبمصر من أصحاب يونس وبالحجاز وبالشام وبالجزيرة من أصحاب علىّ بن حرب وببغداد وورد نيسابور فى ذى الحجة سنة احدى وأربعين فسمع الكثير ثم خرج الى مرو ومنها الى بخارى فتوفى بها فى رجب من سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة وروى عنه أيضا أبو القاسم بن حبيب النيسابورىّ وغيرهما ذكره ابن عساكر وأسند اليه قوله

ودّعت قلبى ساعة التوديع * وأطعت قلبى وهو غير مطيعى
ان لم أشيعهم فقد شيعتهم * بمشيعين تنفسى ودموعى

وذكره ابن الفرضىّ وقال انه استوطن بخارى وجعل وفاته بها سنة ثمان وسبعين والاوّل قول الحاكم وهو أصح *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن احمد الانصارىّ السرقسطىّ روى عنه الباجىّ وابن عبد البرّ ورحل حاجا فقدم دمشق وحدّث بها عن شيوخه الاندلسيين وعن أبى حفص عمر بن أبى القاسم بن ابى زيد القفصىّ وذكره ابن عساكر وقال سمع عنه أبو محمد الاكفانىّ وحكى عنه تدليسا ضعفه به وتوفى سنة ٤٧٧ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن بقاء الانصارىّ من بلاد الثغر الشرقىّ أخذ القرآآت بالسبع وأخذ عنه جماعة من أهلها وكان شيخا فاضلا حافظا للحكايات قليل التكلف فى اللباس ذكره ابن عساكر وقال رأيته وسمعته ينشد قصيدة يوم خروج الناس للمصلى للاستسقاء على المنبر أولها

أستغفر الله من ذنبى وان كبرا * وأستقلّ له شكرا وان كثرا

وكان يسكن فى دار الحجارة ويقرئ بالمسجد الجامع ولد فى الثانى والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة وتوفى يوم الاربعاء عند صلاة العصر ودفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثانى من ذى الحجة سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ودفن فى مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال وشهدت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه وذكره السلفىّ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علىّ بن عيسى الانصارىّ الخزرجىّ من أهل دانية سمع كتاب التقصى لابن عبد البرّ ولقى أبا الحسن الحصرىّ ثم خرج حاجا فقدم دمشق سنة أربع وخمسمائة وأقام بها مدة يقرئ العربية وكان شديد الوسوسة فى الوضوء ذكره ابن عساكر وقال أنشدنى أخى أبو الحسن هبة الله بن الحسن الفقيه قال أنشدنا ابن طاهر الاندلسىّ بدمشق قال أنشدنى الحصرىّ لنفسه

يموت من فى الانام طرّا * من طيب كان ومن خبيث
فمستريح ومستراح * منه كما جاء فى الحديث

قال وأنشدنى الحصرىّ لنفسه

لو كان تحت الارض أوفوق الذرى * حرّ أتيح له العدوّ ليوذى
فاحذر عدوّك وهو أهون هين * انّ البعوضة أردت النمروذا

*(ومنهم محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد الله البزاز من أهل سرقسطة لقى بدانية الحصرىّ وسمع منه بعض منظومه ورحل حاجا فأدّى الفريضة ودخل العراق فسمع من جماعة

واجازوا

وأجازوا له منهم ابن خيرون والحميدي وأبو زكريا التبريزي وابن المبارك عبد الجبار وثابت ابن بندار وهبة الله بن الاكفاني وغيرهم ونزل الاسكندرية وحدث بها وأخذ الناس عنه وتوفي هنالك وأنشد للحصري

الناس كالارض ومنها هم * من خشن اللمس ومن لين
وتشتكي الارجل منها الوجى * واثمد يجعل في الاعين

وروى عنه ابن الحضرمي وابن جارة وغيرهما *(ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين الشهير بالميورقي لان أصله منها وسكن غرناطة وروى عن أبي علي الصدفي ورحل حاجا فسمع بمكة من أبي الفتح عبد الله بن محمد البياضي وأبي نصر عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي في شوال وذي القعدة من سنة ٥١٧ وبالاسكندرية من أبي عبد الله الرازي وأبي الحسن ابن مشرف وأبي بكر الطرطوشي وغيرهم وعاد الى الاندلس بعد مدة طويلة فحدث في غير ما بلد لتجوله وكان فقيها ظاهريا عارفا بالحديث وأسماء الرجال متقنا لما رواه يغلب عليه الزهد والصلاح روى عنه أبو عبد الله النميري الحافظ ويقول فيه الازدي تدليسا لان الانصار من الازد وأبو بكر بن رزق وأبو عبد الله بن عبد الرحيم وابن عبد المنعم ٢ وسواهم وصار أخيرا الى بجاية هاربا من صاحب المغرب حينئذ بعد أن حمل اليه هو وأبو العباس بن العريف وأبو الحكم بن برجان وحدث هنالك وسمع منه في سنة ٥٣٧ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل العبدي الاشبيلي ويعرف بابن عظيمة أخذ القراآت عن أبي عبد الله السرقسطي وروى عن أبي عبد الله الخولاني وأبي عبد الله بن فرج وأبي علي الغساني وأبي داود المقري وأبي جعفر بن عبد الحق وأبي الوليد بن طريف ورحل حاجا فروى بمكة عن رزين بن معاوية ثم بالاسكندرية عن ابن الحضرمي أبي عبد الله محمد بن منصور وأبي الحسن بن مشرف الانماطي وبالمهدية عن المازري وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الاحدب للقاء أبي معشر الطبري فبلغهما نعيه بمصر فلما قفلا من حجهما قعد منصور يقول قرأت على أبي معشر واقتصر أبو الحسن في تصدره للاقراء على التحديث عمن لقي فعرف مكانه من الصدق والعدالة وولي الصلاة ببلده وتقدم في صناعته واشتهر بها وتلاه أهل بيته فيها فأخذ عنهم الناس وله ارجوزة في القراآت السبع وأخرى في مخارج الحروف وشرح قصيدة الشقراطسي وله أيضا كتاب الفريدة الحمصية في شرح القصيدة الحصرية واليه والى بنيه بعده كانت الرياسة في هذا الشان ومن جلة الرواة عنه أبو بكر محمد بن خير قرأ عليه الشهاب القضاعي وأجازه جميع رواياته وتواليفه في رجب سنة ٥٣٦ وتوفي في حدود الاربعين وخمسمائة وروى عنه أبو الضحاك الفزاري *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم بن عيسى بن هشام بن جراح الخزرجي من أهل جيان ويعرف بالبغدادي لطول سكناه اياها روى عن أبي علي الغساني وأبي محمد بن عتاب ورحل حاجا فلقي أبا الحسن الطبري المعروف بالكيا وأبا طالب الزينبي وأبا بكر الشاشي وغيرهم وكان فقيها مشاورا حدث عنه أبو عبد الله النميري وأبو محمد بن عبيد الله وأبو عبد الله بن حميد وأبو القاسم

عبد الرحيم بن الملجوم وغير واحد وتوفي بفاس سنة ٥٤٧ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر الانصاري الجياني ونزل حلب يكنى أبا بكر رحل الى المشرق وأدى الفريضة وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة وسكن قنطرة سنان منها وكان يعلم القرآن ويتردد الى أبي عبد الله نصر الله بن محمد يسمع الحديث منه ثم رحل صحبة أبي القاسم بن عساكر صاحب تاريخ الشام الى بغداد سنة عشرين وكان زميله فسمع بها معه من هبة الله بن الحصين وغيره ثم خرج الى خراسان فسمع بها من حمزة الحسيني وأبي عبد الله القراوي وأبي القاسم الشحامي وغيرهم وسمع ببلخ جماعة منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني وأبو النجم مصباح بن محمد المكي وغيرهما وبلغ الموصل فأقام بها مدة يسمع منه ويؤخذ عنه ثم انتهى الى حلب فاستوطنها وسلمت اليه خزانة الكتب النورية وأجريت عليه جراية وكان فيه عسر في الرواية والاعارة معا ووقف كتبه على أصحاب الحديث وله عوال مخرجة من حديثه ساوى بعض شيوخه البخاري ومسلما وأبا داود والترمذي والنسائي روى عنه أبو حفص المياتشي وأبو المنصور مظفر بن سوار اللخمي وأبو محمد عبد الله بن علي بن سويدة وابن أبي السنان وغيرهم ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال سمعت منه ومات في جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة على ما بلغني وقال ابن نقطة حدث عن جماعة منهم أبو القاسم سهل بن ابراهيم النيسابوري وأبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الهمداني حدثنا عنه أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الحلبي وأخوه أبو العباس أحمد وحكى عن الحسن بن هبة الله ابن صصرى أنه توفي بحلب في جمادى الاولى سنة ثلاث وستين كما تقدم وقد بلغ السبعين قاله ابن الابار *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة مرسي سكن شاطبة ودار سلفه بلنسية سمع أبا علي الصدفي واختص به وأكثر عنه واليه صارت دواوينه وأصوله العتاق وأمهات كتبه الصحاح لصهر كان بينهما وسمع أيضا أبا محمد بن أبي جعفر ولازم حضور مجلسه للتفقه به وحمل ما كان يرويه ورحل الى غرب الاندلس فسمع محمد بن عتاب وأبا بحر الاسدي وأبا الوليد بن رشد وأبا عبد الله بن الحاج وأبا بكر بن العربي وغيرهم وكتب اليه أبو عبد الله الخولاني وأبو الوليد بن ظريف وأبو الحسن بن عفيف وأبو القاسم بن صواب وأبو محمد بن السيد وغيرهم ثم رحل الى المشرق سنة عشرين وخمسمائة فلقي بالاسكندرية أبا الحجاج بن نادر الميورقي وصحبه وسمع منه وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام وأدى فريضة الحج في سنة احدى وعشرين ولقي بمكة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدري امام المالكية بها وأبا محمد بن صدقة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروية فسمع منها وأخذ عنها وروى عن أبي حسن علي بن سند بن عياش الغساني ما حمل على أبي حامد الغزالي من تصانيفه ثم انصرف الى ديار مصر وصحب ابن نادر الى حين وفاته بالاسكندرية ولقي أبا طاهر بن عوف وأبا عبد الله بن مسلم القرشي وأبا طاهر السلفي وأبا زكريا الزناتي وغيرهم فأخذ عنهم وكان قد كتب اليه منها أبو بكر الطرطوشي وأبو الحسن بن مشرف الانماطي ولقي في صدره بالمهدية أبا عبد الله المازري فسمع منه بعض كتاب المعلم وأجازله باقيه وعاد الى مرسية في سنة ست وعشرين وقد حصل في رحلته علوما جمة ورواية فسيحة وكان

عارفا بالسنن والآثار مشاركا في علم القرآن وتفسيره حافظا للفروع بصيرا باللغة والغريب ذا حظ من علم الكلام مائلا الى التصوف مؤثرا له أديبا بليغا خطيبا فصيحا ينشئ الخطب مع الهدى والسمت والوقار والحلم جميل الشارة محافظا على التلاوة بالخشوع راتباعلى الصوم وولي خطة الشورى بمرسية مضافة الى الخطبة بجامعها وأخذ في اسماع الحديث وتدريس الفقه ثم ولي القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمة ونقل الى قضاء شاطبة فاتخذها وطنا وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية ويقيم الخطب أيام الجمع في جوامع هذه الامصار الثلاثة متعاقبا عليها وقد حدث بالمرية وهنالك أبو الحسن بن موهب وأبو محمد الرشاطي وغيرهما وسمع منه أبو الحسن بن هذيل جامع الترمذي وألف كتابه شجرة الوهم المترقية الى ذروة الفهم ولم يسبق الى مثله وليس له غيره وجمع فهرسة حافلة ووصفه غير واحد بالتفنن في العلوم والمعارف والرسوخ في الفقه وأصوله والمشاركة في علم الحديث والادب وقال ابن عباد في حقه انه كان صليبا في الاحكام مقتفيا للعدل حسن الخلق والخلق جميل المعاملة لين الجانب فكه المجالسة ثبتا حسن الخط من أهل الاتقان والضبط وحكى انه كانت عنده أصول حسان بخط عمه مع الصحيحين بخط السلفي في سفر بن قال ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحتها واتقانها وجودتها ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر مارزقه وذكره أبو سفيان أيضا وأبو عمرو بن عات ورفعوا جميعا بذكره وتوفي بشاطبة مصروفا عن قضائها آخر الحجة سنة خمس ودفن أول يوم من سنة ست وستين وخمسمائة ودفن بالروضة المنسوبة الى أبي عمر بن عبد البر ومولده في رمضان سنة ٤٩٦ *(ومنهم محمد بن ابراهيم بن وضاح اللخمي من أهل غرناطة ونزل جزيرة شقر يكنى أبا القاسم وأخذ القراءة عن أبي الحسن بن هذيل وسمع منه كثيرا ورحل حاجا فأدى الفريضة وأخذ القراآت بمكة عن أبي علي بن العرجاء في سنة ست وأربعين وخمسمائة وسنة سبع بعدها وحج ثلاث حجات ودخل بغداد وأقام في رحلته نحوا من تسعة أعوام وقفل الى الاندلس فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرا ولا قبل هدية وولي الصلاة والخطبة بجامعها وكان رجلا صالحا زاهدا مشاورا يشار اليه باجابة الدعوة معروفا بالورع والانقباض وتوفي في صفر سنة ٥٨٧ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي نزيل تلمسان من أهل القنت على مرسية وسكن أبوه أوريولة رحل الى المشرق فأدى الفريضة وأطال الاقامة هنالك واستوسع في الرواية وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السلفي صحبه واختص به وأكثر عنه وحكى عنه انه لما ودعه في قفوله الى المغرب سأله عما كتب عنه فأخبره انه كتب كثيرا من الاسفار ومئين من الاجزاء فسر بذلك وقال له تكون محدث المغرب ان شاء الله تعالى قد حصلت خيرا كثيرا قال ودعا لي بطول العمر حتى يؤخذ عني ما أخذت عنه وقد جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفا مفيدا أكثر فيه من الآثار والحكايات والاخبار وقفل من رحلته وله أربعون حديثا في المواعظ وأخرى في الفقر وفضله وثالثة

في الحب في الله تعالى ورابعة في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومسلسلاته في جزء وكتاب فضائل الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان وكتاب فضل عشر ذي الحجة وكتاب مناقب السبطين وكتاب الفوائد الكبرى مجلد والفوائد الصغرى جزء وكتاب الترغيب في الجهاد خمسون بابا في مجلد وكتاب المواعظ والرقائق أربعون مجلسا وكتاب مشيخة السلفي وغير ذلك ومولده بالقنت الصغرى في نحو الاربعين وخمسمائة وتوفي سنة عشر وستمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الاكبر ذو المحاسن التي تبهر سيدي محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم الصوفي الفقيه المشهور الظاهري ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف باشبيلية وبالسبع بكتاب الكافي وحدثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني عن أبيه وقرأ أيضا السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشراط القرطبي وحدثه به عن ابن المؤلف وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للداني عن أبيه عن المؤلف وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الاشبيلي الازدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم وكان انتقاله من مرسية لاشبيلية سنة ٥٦٨ فأقام بها الى سنة ٥٩٨ ثم ارتحل الى المشرق وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفي وابن عساكر وأبو الفرج بن الجوزي ودخل مصر وأقام بالحجاز مدة ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم ومات بدمشق سنة ٦٣٨ ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ودفن بسفح قاسيون وأنشدني لنفسه مؤرخا وفاته الشيخ محمد بن سعد الكلشني سنة ١٠٣٧ حفظه الله تعالى

انما الحاتمي في الكون فرد * وهو غوث وسيد وامام
كم علوم أتى بها من غيوب * من بحار التوحيد يا مستهام
ان سألتم متى توفي حميدا * قلت أرخت مات قطب همام

وقال ابن الابار هو من أهل المرية وقال ابن النجار أقام باشبيلية الى سنة ٥٩٨ ثم دخل بلاد المشرق وقال ابن الابار انه أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب وكتب لبعض الولاة ثم رحل الى المشرق حاجا ولم يعد بعدها الى الاندلس وقال المنذري ذكر أنه سمع بقرطبة من أبي القاسم بن بشكوال وجماعة سواه وطاف البلاد وسكن بلاد الروم مدة وجمع مجاميع في الطريقة وقال ابن الابار انه لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين وأخذوا عنه وقال غيره انه قدم بغداد سنة ٦٠٨ وكان يومأ اليه بالفضل والمعرفة والغالب عليه طرق أهل الحقيقة وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف ووصفه غير واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشان بالشام والحجاز وله أصحاب وأتباع ومن تآليفه مجموع ضمنه منامات رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم وما سمع منه ومنامات قد حدث بها عمن رآه صلى الله عليه وسلم قال ابن النجار وكان قد صحب الصوفية وأرباب القلوب وسلك طريق الفقر وحج وجاور وكتب في علم القوم وفي أخبار مشايخ المغرب وزهادهم وله أشعار حسنة وكلام مليح

اجتمعت به فى دمشق فى رحلتى اليها وكتبت عنه شيأ من شعره ونعم الشيخ هو ذكر لى انه دخل بغداد سنة ٦٠١ فأقام بها اثنى عشر يوما ثم دخلها ثانيا حاجا مع الركب سنة ٦٠٨ وأنشدنى لنفسه

أيا حائرا ما بين علم وشهوة * ليتصلا ما بين ضدين من وصل

ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن * يرى الفضل للمسك الفتيق على الزبل

وسألته عن مولده فقال ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمرسية من بلاد الاندلس انتهى وقال ابن مسدى انه كان جميل الجملة والتفصيل محصلا لفنون العلم أخص تحصيل وله فى الادب الشأو الذى لا يلحق والتقدم الذى لا يسبق سمع ببلاده من ابن زرقون والحافظ ابن الجد وأبى الوليد الحضرمى وبسبتة من أبى محمد بن عبد الله وقدم عليه اشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجى فسمع منه وأبو جعفر بن مصلى وذكر أنه لقى عبد الحق الاشبيلى وفى ذلك عندى نظر انتهى قلت لا نظر فى ذلك فان سيدى الشيخ محيى الدين ذكر فى اجازته للملك المظفر غازى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ما معناه أو نصه ومن شيوخنا الاندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الاشبيلى رحمه الله تعالى حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث وعين لى من أسمائها تلقين المهتدى والاحكام الكبرى والوسطى والصغرى وكتاب التهجد وكتاب العاقبة ونظمه ونثره وحدثنى بكتب الامام أبى محمد على بن أحمد بن حزم عن أبى الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه انتهى وقال ان الحافظ السلفى أجازله انتهى قال بعض الحفاظ وأحسبها الاجازة العامة وكان ظاهرى المذهب فى العبادات باطنى النظر فى الاعتقادات وكان دفنه يوم الجمعة بجبل قاسيون واتفق انه لما أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملك فقال هذا تذل له الاسود أوكلاما هذا معناه فسئل عن ذلك فقال خدمت بمكة بعض الصلحاء فقال لى يوما الله يذل لك أعز خلقه وأمر له ملك الروم مرة بدار تساوى مائة ألف درهم فلما نزلها وأقام بها مر به فى بعض الايام سائل فقال له شئ لله فقال مالى غير هذه الدار خذها لك فتسلمها السائل وصارت له وقال الذهبى فى حقه ان له توسعا فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا فى التصوف وتواليف جمة فى العرفان لولا شطحه فى كلامه وشعره ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته فيرجى له الخير انتهى وقال القطب اليونينى فى ذيل مرآة الزمان عن سيدى الشيخ محيى الدين رضى الله تعالى عنه ونفعنا به انه كان يقول انى أعرف اسم الله الاعظم وأعرف الكيمياء انتهى وقال ابن شودكين عنه انه كان يقول ينبغى للعبد أن يستعمل همته فى الحضور فى مناماته بحيث يكون حاكما على خياله يصرفه بعقله نوما كما كان يحكم عليه يقظة فاذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خلقا له وجد ثمرة ذلك فى البرزخ وانتفع به جدا فليهتم العبد بتحصيل هذا القدر فانه عظيم الفائدة باذن الله تعالى وقال ان الشيطان ليقنع من الانسان بأن ينقله من طاعة الى طاعة ليفسخ عزمه بذلك وقال ينبغى للسالك انه متى حضر له أنه يعقد على أمر ويعاهد الله تعالى عليه أن يترك ذلك الامر الى أن يجئ وقته فان يسر الله تعالى فعله فعله وان لم ييسر الله فعله يكون

مخلصا من نكث العهد ولا يكون متصفا بنقض الميثاق ومن نظم الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى

بين التذلل والتدلل نقطة * فيها يتيه العالم النحرير
هي نقطة الاكوان ان جاوزتها * كنت الحكيم وعلمك الاكسير

وقوله أيضا رحمه الله

يا درة بيضاء لاهوتية * قد ركبت صدفا من الناسوت
جهل البسيطة قدرها لشقائهم * وتنافسوا في الدر والياقوت

وحكى العماد بن النحاس الاطروش أنه كان في سفح جبل قاسيون على مستشرف وعنده الشيخ محيي الدين والغيث والسحاب عليهم ودمشق ليس عليها شيء قال فقلت للشيخ أما ترى هذه الحال فقال كنت بمراكش وعندي ابن خروف الشاعر يعني أبا الحسن علي بن محمد القرطبي القيداني وقد اتفق الحال مثل هذه فقلت له مثل هذه المقالة فأنشدني

يطوف السحاب بمراكش * طواف الحجيج ببيت الحرم
يروم نزولا فلا يستطيع * لسفك الدماء وهتك الحرم

انتهى

وحكى المقريزي في ترجمة سيدي عمر بن الفارض أفاض الله علينا من أنواره أن الشيخ محيي الدين بن العربي بعث الى سيدي عمر يستأذنه في شرح التائية فقال كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها انتهى وقال بعض من عرف به انه لما صنف الفتوحات المكية كان يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة فما ادخر منها شيأ وقيل ان صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهما فكان يتصدق بالجميع واشتغل الناس بمصنفاته ولها ببلاد اليمن والروم صيت عظيم وهو من عجائب الزمان وكان يقول أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب ومن نظمه رضي الله تعالى عنه

حقيقتي همت بها * وما رآها بصري
ولو رآها لغدا * قتيل ذاك الحور
فعندما أبصرتها * صرت بحكم النظر
فبت مسحورا بها * أهيم حتى السحر
يا حذري من حذري * لو كان يغني حذري
والله ما هيمني * جمال ذاك الخفر
في حسنها من ظبية * ترعى بذات الخمر
اذا رنت أو عطفت * تسبي عقول البشر
كأنما أنفاسها * أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى * في النور أو كالقمر
ان أسفرت أبرزها * نور صباح مسفر
أو سدلت غيبها * سواد ذاك الشعر

ماقرا

ياقمرا تحت دجى * خذى فؤادى وذرى
عينى لكى أبصركى * اذ كان حظى نظرى

وقال الحوبى قال الشيخ سيدى محيي الدين بن عربى رضى الله تعالى عنه رأيت بعض الفقهاء فى النوم فى رؤيا طويلة فسألنى كيف حالك مع أهلك فقلت

اذا رأت أهل بيتى الكيس ممتلئا * تبسمت ودنت منى تمازحنى
وان رأته خليا من دراهمه * تجهمت وانثنت عنى تقابحنى

فقال لى صدقت كلنا ذلك الرجل * وذكر الامام العالم بالله تعالى لسان الحقيقة وشيخ الطريقة صفى الدين حسين ابن الامام العلامة جمال الدين أبى الحسن على ابن الامام مفتى الانام كمال الدين أبى منصور ظافر الازدى الانصارى رضى الله تعالى عنه فى رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات مشايخ عصره بعد كلام ما صورته ورأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن عربى وكان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وفر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف وكان بينه وبين سيدى الاستاذ الحرازا خاء ورفقة فى السياحات رضى الله تعالى عنهما فى الآصال والبكرات ومن نظم سيدى الشيخ محيي الدين رضى الله تعالى عنه قوله

يامن يرانى ولا أراه * كم ذا أراه ولا يرانى

قال رحمه الله تعالى قال لى بعض اخوانى لما سمع هذا البيت كيف تقول انه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك فقلت له مرتجلا

يامن يرانى مجرما * ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما * ولا يرانى لائذا

قلت من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤول وأنه لا يقصد ظاهره وانما له محامل تليق به وكفى الشاهد هذه الجزئية الواحدة فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد وللناس فى هذا المعنى كلام كثير والتسليم أسلم والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم ومن النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدى محيي الدين رضى الله تعالى عنه فى ضابط ليلة القدر

وانا جميعا ان نصم يوم جمعة * ففى تاسع العشرين خذ ليلة القدر
وان كان يوم السبت أول صومنا * فحادى وعشرين اعتمده بلا عسر
وان كان صوم الشهر فى أحد فخذ * ففى سابع العشرين ماشئت فاستقر
وان هل بالاثنين فاعلم بأنه * يوافيك نيل المجد فى تاسع العشر
ويوم الثلاثا ان بدا الشهر فاعتمد * على خامس العشرين فاعمل بها تدرى
وفى الاربعا ان هل يامن يرومها * فدونك فاطلب وصلها سابع العشر
ويوم خميس ان بدا الشهر فاجتهد * ففى ثالث العشرين تظفر بالنصر
وضابطها بالقول ليلة جمعة * توافيك بعد النصف فى ليلة الوتر انتهى

قلت لست على يقين من نسبة هذا النظم الى الشيخ رحمه الله تعالى فان نفسه أعلى من هذا النظم ولكنى ذكرته لما فيه من الفائدة ولان بعض الناس نسبه اليه فالله تعالى أعلم بحقيقة ذلك ومما نسبه اليه رحمه الله تعالى غير واحد قوله

قلبى قطبى وقالبى أجفانى * سرّى خضرى وعينه عرفانى
روحى هرون وكليمى موسى * نفسى فرعون والهوى هامانى

وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يكتبان لمن به القولنج فى كفه ويلحسهما فانه يبرأ باذن الله تعالى قال وهو من المجربات وقد تأول بعض العلماء قول الشيخ رحمه الله تعالى بايمان فرعون ان مراده بفرعون النفس بدليل ما سبق وحكى فى ذلك حكاية عن بعض الاولياء ممن كان ينتصر للشيخ رحمه الله تعالى * وولد للشيخ محيى الدين رحمه الله تعالى ابنه محمد المدعو سعد الدين بملطية فى رمضان سنة ٦١٨ وسمع الحديث ودرّس وقال الشعر الجيد وله ديوان شعر مشهور وتوفى بدمشق سنة ٦٥٦ سنة دخل هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم ودفن المذكور عند والده بسفح قاسيون وكان قدم القاهرة وسكن حلبا ومن شعره

لما تبدّى عارضاه فى غلط * قيل ظلام بضياء اختلط
وقيل سطر الحسن فى خدّيه خط * وقيل نمل فوق عاج انبسط
وقيل مسك فوق ورد قد نقط * وقال قوم انها اللام فقط

قلت تذكرت بهذا ما قاله الكاتب أبو عبد الله بن جزى الاندلسى كاتب سلطان الغرب أبى عنان حين تنازع الكتاب أرباب الاقلام والرؤساء أصحاب السيوف فى تشبيه العذار وقالت كل فرقة لا نشبهه الا بما هو مناسب لصنعتنا فلما فرغوا قال ابن جزى

أتى أولو الكتب والسيف الاولى عزموا * من بعد سلمى على حربى واسلامى
بكل معنى بديع فى العذار على * ما يقتضى منهم أفكار أحلام
فقال ذو الكتب لا أرضى المحارب فى * تشبيهه لا وأنقاسى وأقلامى
وقال ذو الحرب لا أرضى الكتائب فى * تشبيهه ومظلاتى واعلامى
فقلت أجمع بين المذهبين معا * باللام فاستحسنوا التشبيه باللام

وهذه الغاية التى لا تدرك مع البديهة ولزوم ما لا يلزم *(رجع) ومن نظم سعد الدين قوله

سهرى من المحبوب أصبح مرسلا * وأراه متصلا بفيض مدامع
قال الحبيب بان ريق نافع * فاسمع رواية مالك عن نافع

ومن نظمه أيضا قوله

وقالوا قصير شعر من قد هويته * فقلت دعونى لا أرى منه مخلصا
محياه شمس قد علت غصن قده * فلا عجب للظل أن يتقلصا

وقوله

ورب قاض لنا مليح * يعرب عن منطق لذيذ
اذا رمانا بسهم لحظ * قلنا له دائم النفوذ

وقوله

لك والله منظر * قل فيه المشارك
ان يوما نراك فيه * لبوم مبارك

ومن نظمه أيضا ما كتب به الى أخيه عماد الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الاكبر محيي الدين ابن عربي أفاض الله تعالى علينا من فتوحاته

ما للنوى رقة ترثى لمكتئب * حرّان فى قلبه والدمع فى حلب
قد أصبحت حلب ذات العماد بكم * وجلق ارم هذا من العجب

وتوفى الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧ ودفن بسفح قاسيون عند والده بتربة القاضي ابن الزكى رحم الله تعالى الجميع ومن نظم سعد الدين المذكور فى وسيم رآه بالزيادة فى دمشق

يا خليلىّ فى الزيادة ظبى * سلبت مقلتاه جفنى رقاده
كيف أرجو السلوّ عنه وطرفى * ناظر حسن وجهه فى الزياده

وله

علقت صوفيا كبدر الدجى * لكنه فى وصلى الزاهد
يشهد وجدى بغرامى له * فديت صوفيا له شاهد

وله

صبوت الى حريرى مليح * تكرر نحو منزله مسيرى
أقول له ألا ترثى لصب * عديم للمساعد والنصير
أقام ببابكم خمسين شهرا * فقال كذا مقامات الحريرى

وله

وغزال من اليهود أتانى * زائرا من كنيسه أوكناسه
بت أجنى الشقيق من وجنتيه * وأشمّ العبير من أنفاسه
واعتنقنا اذلم نخف من رقيب * وأمنا الوشاة من حرّاسه
من رآنى يظننى لنحولى * واصفرارى علامة فوق راسه

وله

لى حبيب بالنحو أصبح مغرى * فهو منى بما أعانيه أدرى
قلت ماذا تقول حين تنادى * يا حبيبى المضاف نحوك جهرا
قال لى يا غلام أو يا غلامى * قلت لبيك ثم لبيك عشرا

وله أيضا

سائلتنى عن لفظة لغوية * فأجبت مبتدئا بغير تفكر
خاطبتنى متبسما فرأيتها * من نظم ثغرك فى صحاح الجوهرى

وله

وعلمت أن من الحديد فؤاده * لما انتضى من مقلتيه مهندا

آنست من وجدى بجانب خده * نارا ولكن ما وجدت بها هدى

وقال الشيخ محيي الدين أفاض الله تعالى علينا من أنواره وكسانا بعض حلل أسراره انه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت في بأمور عظيمة فقلت هذه قد جعلها الله تعالى سببا لخير وصل الي فلا كافئنها وعقدت في نفسي ان اجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها وعنها ففعلت ذلك فلما كان الموسم استدل علي رجل غريب فسأله الجماعة عن قصده فقال رأيت بالينبع في الليلة التي بت فيها كأن آلافا من الابل أوقارها المسك والعنبر والجوهر فعجبت من كثرته ثم سألت لمن هو فقيل هو لمحمد بن عربي يهديه الى فلانة وسمى تلك المرأة ثم قال وهذا بعض ما تستحق قال سيدى ابن عربي فلما سمعت الرؤيا واسم المرأة ولم يكن أحد من خلق الله تعالى عالما بذلك علمت أنه تعريف من جانب الحق وفهمت من قوله ان هذا بعض ما تستحق انها مكذوب عليها فقصدت المرأة وقلت اصدقيني وذكرت لها ما كان من ذلك فقالت كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم فقلت في نفسي اللهم اني أشهدك اني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما قال فعلمت ان الذى وصل مني اليها بعض ما تستحقه فانها سبقت بالجميل والفضل للمتقدم ومن نظم الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى

يا غاية السؤل والمأمول يا سندى * شوقي اليك شديد لا الى أحد
ذبت اشتياقا ووجدا في محبتكم * فآه من طول شوقي آه من كمدى
يدى وضعت على قلبي مخافة أن * ينشق صدرى لما خانني جلدى
ما زال يرفعها طورا ويخفضها * حتى وضعت يدى الاخرى تشد يدى

وحكى سبط ابن الجوزى عن الشيخ محيي الدين انه كان يقول انه يحفظ الاسم الاعظم ويقول انه يعرف السيميا بطريق التنزل لا بطريق التكسب انتهى والله تعالى أعلم والتسليم أسلم ومن نظم الشيخ محيي الدين قوله

ما فاز بالتوبة الا الذى * قد تاب قدما والورى نوم
نحن يتب أدرك مطلوبه * من توبة الناس ولا يعلم

وله رحمه الله تعالى من المحاسن ما لا يستوفى وأنشدنى لنفسه بدمشق صاحبنا الصوفي الشيخ محمد بن سعد الكلشني حفظه الله تعالى قوله

أمولاى محيي الدين أنت الذى بدت * علومك في الآفاق كالغيث مذ همى
كشفت معاني كل علم مكتم * وأوضحت بالتحقيق ما كان مبهما

وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة وآيته الباهرة ولا يلتفت الى كلام من تكلم فيه ولله در السيوطي الحافظ فانه ألف تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي ومقام هذا الشيخ معلوم والتعريف به يستدعي طولا وهو أظهر من نار على علم وكان بالمغرب يعرف بابن العربي بالالف واللام واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام فرقا بينه وبين القاضي أبي بكر ابن العربي وقال ابن خاتمة في كتابه مزية المرية ما نصه محمد بن علي بن محمد الطائي الصوفي

من أهل اشبيلية وأصله من مرسية يكنى أبا بكر ويعرف بابن العربي وبالحاتمي أيضا أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب وكتب لبعض الولاة بالاندلس ثم رحل الى المشرق حاجا فأدى الفريضة ولم يعد بعدها الى الاندلس وسمع الحديث من أبي القاسم الخرستاني ومن غيره وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن بن أبي نصر في شوال سنة ٦٠٦ وكان يحدث بالاجازة العامة عن أبي طاهر السلفي ويقول بها وبرع في علم التصوف وله في ذلك توآليف كثيرة منها الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل والجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة وكتاب كشف المعنى في تفسير الاسماء الحسنى وكتاب المعارف الالهية وكتاب الاسرا الى المقام الاسرى وكتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة اسرار العلوم وكتاب عنقاء مغرب في صفة ختم الاولياء وشمس المغرب وكتاب في فضائل مشيخة عبد العزيز ابن أبي بكر القرشي المهدوي والرسالة الملقبة بمشاهد الاسرار القدسية ومطالع الانوار الالهية في كتب اخر عديدة وقدم على المرية من مرسية مستهل شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة وبها ألف كتابه الموسوم بمواقع النجوم انتهى ولا خفاء أن مقام الشيخ أعظم بعد انتقاله من المغرب وقد ذكر رحمه الله تعالى في بعض كتبه ان مولده بمرسية وفي الكتاب المسمى بالاغتباط بمعالجة ابن الخياط تأليف شيخ الاسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزابادي الصديقي صاحب القاموس قدس الله تعالى روحه الذي ألفه بسبب سؤال سئل فيه عن الشيخ محيي الدين ابن عربي الطائي قدس الله تعالى سره العزيز في كتبه المنسوبة اليه ماصورته ماتقول السادة العلماء شد الله تعالى بهم أزر الدين ولم بهم شعث المسلمين في الشيخ محيي الدين ابن عربي في كتبه المنسوبة اليه كالفتوحات والفصوص هل تحل قراءتها واقراؤها ومطالعتها وهل هي الكتب المسموعة المقروءة أم لا أفتونا مأجورين جوابا شافيا لتحوزوا جميل الثواب من الله الكريم الوهاب والحمد لله وحده * (فأجابه بما صورته الحمد لله اللهم أنطقنا بما فيه رضاك الذي اعتقده في حال المسؤل عنه وأدين الله تعالى به انه كان شيخ الطريقة حالا وعلما وامام الحقيقة حقيقة ورسما ومحيي رسوم المعارف فعلا واسما

اذا تغلغل فكر المرء في طرف * من بحره غرقت فيه خواطره

وهو عباب لا تكدره الدلاء وسحاب لا تتقاصر عنه الانواء كانت دعواته تخترق السبع الطباق وتفترق بركاته فتملأ الآفاق واني أصفه وهو يقينا فوق ما وصفته وناطق بما كتبته وغالب ظني اني ما أنصفته

وما علي اذا ما قلت معتقدي * دع الجهول يظن العدل عدوانا
والله والله والله العظيم ومن * أقامه حجة للدين برهانا
بأن ما قلت بعض من مناقبه * ما زدت الا لعلي زدت نقصانا

وأما كتبه ومصنفاته فالبحار الزواخر التي جواهرها وكثرتها لا يعرف لها أول ولا آخر ماوضع الواضعون مثلها وانما خص الله سبحانه بمعرفة قدرها أهلها ومن خواص كتبه أن من واظب على مطالعتها والنظر فيها وتأمل ما في مبانيها انشرح صدره لحل

المشكلات وفك المعضلات وهذا الشان لا يكون الا لانفاس من خصه الله تعالى بالعلوم اللدنية الربانية ووقفت على اجازة كتبها للملك المعظم فقال فى آخرها وأجزته أيضا أن يروى عنى مصنفاتى ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف منها التفسير الكبير الذى بلغ فيه الى سورة الكهف عند قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وتوفى ولم يكمل وهذا التفسير كتاب عظيم كل سفر بحر لا ساحل له ولا غرو فانه صاحب الولاية العظمى والصديقية الكبرى فيما نعتقد وندين الله تعالى به وثم طائفة فى الغى طائفة يعظمون عليه النكير وربما بلغ بهم الجهل الى حد التكفير وما ذاك الا لقصور أفهامهم عن ادراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها ولم تصل أيديهم لقصرها الى اقتطاف مجانيها

على تحت القوافى من معادنها * وما على اذا لم تفهم البقر

هذا الذى نعلم ونعتقد وندين الله تعالى به فى حقه والله سبحانه وتعالى أعلم وصورة استشهاده كتبه محمد الصديقى الملتجئ الى حرم الله تعالى عفا الله عنه انتهى وأما احتجاجه بقول شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية فغير صحيح بل كذب وزور فقد روينا عن شيخ الاسلام صلاح الدين العلائى عن جماعة من المشايخ كلهم عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام انه قال كنا فى مجلس الدرس بين يدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام فجاء فى باب الردة ذكر لفظة الزنديق فقال بعضهم هل هى عربية أو عجمية فقال بعض الفضلاء انما هى فارسية معرّبة أصلها زن دين أى على دين المرأة وهو الذى يضمر الكفر ويظهر الايمان فقال بعضهم مثل من فقال آخر الى جانب الشيخ مثل ابن عربى بدمشق فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه قال الخادم وكنت صائما ذلك اليوم فاتفق أن الشيخ دعانى للافطار معه فحضرت ووجدت منه اقبالا ولطفا فقلت له ياسيدى هل تعرف القطب الغوث الفرد فى زماننا فقال مالك ولهذا كل فعرفت أنه يعرفه فتركت الاكل وقلت له لوجه الله تعالى عرفنى به من هو فتبسم رحمه الله تعالى وقال لى الشيخ محيى الدين بن عربى فأطرقت ساكتا متحيرا فقال مالك فقلت ياسيدى قد حرت قال لم قلت أليس اليوم قال ذلك الرجل الى جانبك ما قال فى ابن عربى وأنت ساكت فقال اسكت ذلك مجلس الفقهاء هذا الذى روى لنا بالسند الصحيح عن شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام وأما قول غيره من أضراب الشيخ عز الدين فكثير كان الشيخ كمال الدين الزملكانى من أجل مشايخ الشام أيضا يقول ما أجهل هؤلاء ينكرون على الشيخ محيى الدين بن عربى لاجل كلمات وألفاظ وقعت فى كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها فليأتونى لاحل لهم مشكله وأبين لهم مقاصده بحيث يظهر لهم الحق ويزول عنهم الوهم وهذا القطب سعد الدين الحموى سئل عن الشيخ محيى الدين بن عربى لما رجع من الشام الى بلاده كيف وجدت ابن عربى فقال وجدته بحرا زخارا لا ساحل له وهذا الشيخ صلاح الدين الصفدى له كتاب جليل وضعه فى تاريخ علماء العالم فى مجلدات كثيرة وهى موجودة فى خزانة السلطان تنظر فى باب الميم ترجمة محمد بن عربى لتعرف مذاهب أهل

العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية وقوله فى شئ من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره انه صنفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية وأمره باخراجه الى الناس قال الشيخ محيي الدين الذهبي حافظ الشام ماأظن المحيي يتعمد الكذب أصلا وهو من أعظم المنكرين وأشدهم على طائفة الصوفية ثم ان الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى كان مسكنه ومظهره بدمشق وأخرج هذه العلوم اليهم ولم ينكر عليه أحد شيأ من ذلك وكان قاضي القضاة الشافعية فى عصره شمس الدين أحمد الخوبي يخدمه خدمة العبيد وقاضي القضاة المالكية زوجه بابنته وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ * وأما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات وقول المنكرين فى حق مثله غثاء وهباء لايعبأ به والحمد لله تعالى انتهى مانقلته من كلام العارف بالله تعالى سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه * وقد حكى الشيخ رضى الله تعالى عنه عن نفسه فى كتبه مايبهر الالباب وكفى بذلك دليلا على مامنحه الله الذى يفتح لمن شاء الباب وقد اعتنى بتربته بصالحية دمشق سلاطين بنى عثمان نصرهم الله تعالى على توالى الازمان وبنى عليه السلطان المرحوم سليم خان المدرسة العظيمة ورتب له الاوقاف وقد زرت قبره وتبركت به مرارا ورأيت لوائح الانوار عليه ظاهرة ولا يجد منصف محيدا الى انكار مايشاهد عند قبره من الاحوال الباهرة وكانت زيارتى له بشعبان ورمضان وأول شوال سنة ١٠٣٧ * وقال فى عنوان الدراية ان الشيخ محيي الدين كان يعرف بالاندلس بابن سراقة وهو فصيح اللسان بارع فهم الجنان قوى على الايراد كلما طلب الزيادة يزاد رحل الى العدوة ودخل بجاية فى رمضان سنة ٥٩٧ وبها لقى أبا عبد الله العربى وجماعة من الافاضل ولما دخل بجاية فى التاريخ المذكور قال رأيت ليلة انى نكحت نجوم السماء كلها فمابقى منها نجم الا نكحته بلذة عظيمة روحانية ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ثم عرضت رؤياى هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها وقلت للذى عرضتها عليه لاتذكرنى فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال هذا هو البحر الذى لايدرك قعره صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الاسرار وخواص الكواكب مالا يكون فيه أحد من أهل زمانه ثم سكت ساعة وقال ان كان صاحب هذه الرؤيا فى هذه المدينة فهو ذلك الشاب الاندلسى الذى وصل اليها ثم قال صاحب العنوان ماملخصه ان الشيخ محيي الدين رحل الى المشرق واستقرت به الدار وألف تواليفه وفيها مافيها ان قيض الله تعالى من يسامح ويتأول سهل المرام وان كان ممن ينظر بالظاهر فالامر صعب وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا فى اراقة دمه فخلصه الله تعالى على يد الشيخ أبى الحسن البجائى فانه سعى فى خلاصه وتأول كلامه ولما وصل اليه بعد خلاصه قال له الشيخ رحمه الله تعالى كيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت فقال له ياسيدى تلك شطحات فى محل سكر ولا عتب على سكران * وتوفى الشيخ محيي الدين فى نحو الاربعين وستمائة وكان يحدث بالاجازة العامة عن السلفى رحمه الله تعالى انتهى * ومن موشحات الشيخ محيي الدين رضى الله تعالى عنه

مطلع

سرائر الاعيان * لاحت على الاكوان * للناظرين
والعاشق الغيران * من ذاك فى حران * يبدى الانين

دور

يقول والوجد * أضناه والبعد * قد حيره
لما دنا البعد * لم أدر من بعد * من غيره
وهيم العبد * والواحد الفرد * قد خيره
فى البوح والكتمان * والسر والاعلان * فى العالمين
أما هو الديان * ياعابد الاوثان * أنت الضنين

دور

كل الهوى صعب * على الذى يشكو * ذل الحجاب
يامن له قلب * لو أنه يذكو * عند الشباب
قد قرب الرب * لكنه افك * فانو المتاب
وناد يارحمن * يارب يامنان * انى حزين
أضنانى الهجران * ولا حبيب دان * ولا معين

دور

فنيت بالله * عما تراه العين * من كونه
فى موقف الجاه * وصحت أين الاين * فى بينه
فقال ياساهى * عاينت قط عين * بعينه
أماترى عيلان * وقيس أومن كان * فى الغابرين
قالوا الهوى سلطان * ان حل بالانسان * أفناه دين

دور

كم مرة قالا * أنا الذى أهوى * من هو أنا
فلا أرى حالا * ولا أرى شكوى * الا الفنا
لست كمن مالا * عن الذى يهوى * بعد الجنا
ودان بالسلوان * هذا هو البهتان * للعار فين
يسلوهم ما كان * عن حضرة الرحمن * والا فكين

دور

دخلت فى بستان * الانس والقرب * ككنسه
فقام لى الريحان * يختال بالعجب * فى سندسه
أنا هو الانسان * مطيب الصب * فى مجلسه
ياجنان ياجنان * اجن من البستان * الياسمين
وحال الريحان * بحرمة الرحمن * للعاشقين

وقال

وقال الامام الصفي بن ظافر الازدي في رسالته رأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي وكان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وفر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا وله علماء اتباع أرباب مواجيد وتصانيف وكان بينه وبين سيدي الاستاذ الحرّار اخاء ورفقة في السياحات رضي الله تعالى عنهما انتهى * وذكر الامام سيدي عبد الله بن سعد اليافعي اليمني في الارشاد أنه اجتمع مع الشهاب السهروردي فأطرق كل واحد منهما ساعة ثم افترقا من غير كلام فقيل للشيخ ابن عربي ما تقول في السهروردي فقال مملوء سنة من قرنه الى قدمه وقيل للسهروردي ما تقول في الشيخ محيي الدين فقال بحر الحقائق ثم قال اليافعي ما ملخصه ان بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه فلما حضرته الوفاة نهى عن مطالعته وقال انكم لا تفهمون معاني كلامه ثم قال اليافعي وسمعت أن العز بن عبد السلام كان يطعن عليه ويقول هو زنديق فقال له بعض أصحابه أريد أن تريني القطب أو قال وليا فاشار الى ابن عربي فقال له فأنت تطعن فيه فقال أصون ظاهر الشرع أو كما قال وأخبرني بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر والشام ثم قال وقد مدحه وعظمه طائفة كالنجم الاصبهاني والتاج بن عطاء الله وغيرهما وتوقف فيه طائفة وطعن فيه آخرون وليس الطاعن بأعلم من الخضر عليه السلام اذ هو أحد شيوخه وله معه اجتماع كثير ثم قال وما ينسب الى المشايخ له محامل الاول أنه لم تصح نسبته اليهم الثاني بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق فان لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه وانما يعلمه العارفون الثالث أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة والسكران سكرا مباحا غير مؤاخذ ولا مكلف انتهى ملخصا وممن ذكر الشيخ محيي الدين الامام شمس الدين محمد بن مسدي في معجمه البديع المحتوي على ثلاث مجلدات وترجمه ترجمة عظيمة مطولة اذكر منها أنه قال انه كان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات خاض بحار تلك العبارات وتحقق بمحيا تلك الاشارات وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والاقدام ومواقف النهايات في مزالق الاقدام ولهذا ما ارتبت في أمره والله تعالى أعلم بسره انتهى * ونقلت من خط ابن علوان التونسي رحمه الله تعالى قال الشيخ محيي الدين

بالمال ينقاد كل صعب * من عالم الارض والسماء
يحسبه عالم حجابا * لم يعرفوا لذة العطاء
لولا الذي في النفوس منه * لم يجب الله في الدعاء
لا تحسب المال ما تراه * من عسجد مشرق الضياء
بل هو ما كنت يا بني * به غنيا عن السواء
فكن برب العلا غنيا * وعامل الخلق بالوفاء

وقال

نبه على السر ولا تفشه * فالبوح بالسر له مقت
على الذي يبديه فاصبرله * واكتمه حتى يصل الوقت

وقال

قد تاب علمائنا علينا * فالتاف الوجود قدر
أذنابنا صيرت رؤسا * مالى على ما أراه صبر
هذا هو الدهر يا خليلى * نحن بقاسيه فهو قهر

وتظم الشيخ محيى الدين هو البحر الذى لا ساحل له ولنختم ما أوردنا منه بقوله

يا حبذا المسجد من مسجد * وحبذا الروضة من مشهد
وحبذا طيبة من بلدة * فيها ضريح المصطفى أحمد
صلى عليه الله من سيد * لولاه لم نفلح ولم نهتد
قد قرن الله به ذكره * فى كل يوم فاعتبر ترشد
عشر خفيات وعشر اذا * أعلن بالتأذين فى المسجد
فهذه عشرون مقرونة * بأفضل الذكر الى الموعد

* (ومنهم الصوفى الشهير أبو الحسن الششترى وهو على بن عبد الله النميرى) عروس الفقهاء وامام المتجردين وبركة لابسى الخرقة وهو من قرية ششتر من عمل وادى آش وزقاق الششترى معلوم بها وكان مجود اللقرآن قائما عليه عارفا بمعانيه من أهل العلم والعمل جال فى الآفاق ولقى المشايخ وحج حجات وآثر التجرد والعبادة * وذكره القاضى أبو العباس الغبرينى فى عنوان الدراية فقال الفقيه الصوفى من الطلبة المحصلين والفقراء المنقطعين له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية وتقدم فى النظم والنثر على طريقة التحقيق وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية فى الانطباع أخذ عن القاضى محيى الدين محمد بن ابراهيم بن الحسن بن سراقة الانصارى الشاطبى وغيره من أصحاب السهروردى صاحب عوارف المعارف واجتمع بالنجم بن ابراهيم الدمشقى سنة ٦٥٠ وخدم أبا محمد بن سبعين وتلمذ له وكان ابن سبعين دونه فى السن لكن اشتهر باتباعه وعول على ما لديه حتى صار يعبر عن نفسه فى منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين وقال له لما لقيه يريد المشايخ ان كنت تريد الجنة فسر الى أبى مدين وان كنت تريد رب الجنة فهلم الى ولما مات أبو محمد انفرد بعده بالرياسة والامامة على الفقراء المتجردين فكان يتبعه فى أسفاره ما ينيف على أربعمائة فقير فيقسمهم الترتيب فى وظائف خدمته صنف كتبا منها كتاب العروة الوثقى فى بيان السنن واحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده الى وفاته وله كتاب المقاليد الوجودية فى اسرار الصوفية والرسالة القدسية فى توحيد العامة والخاصة والمراتب الايمانية والاسلامية والاحسانية والرسالة العلمية وغير ذلك وله ديوان شعر مشهور ومن نظمه قوله رحمه الله تعالى

لقد تهت عجبا بالتجرد والفقر * فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر

وجاءت لقلبي نفحة قدسية * فغبت بها عن عالم الخلق والامر
طويت بساط الكون والطي نشره * وما القصد الا الترك للطي والنشر
وغمضت عين القلب غير مطلق * فألفيتني ذاك الملقب بالغير
وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة * ونزهت من أعني عن الوصل والهجر
وما الوصف الا دونه غير أنني * أريد به التشبيب عن بعض ما أدري
وذلك مثل الصوت أيقظ نائما * فأبصر أمرا جل عن ضابط الحصر
فقلت له الاسماء تبغي بيانه * فكانت له الالفاظ سترا على ستر

وقال

من لا منى لو أنه قد أبصرا * ماذقته أضحى به متحيرا
وغدا يقول لصحبه ان أنتمو * أنكرتمو مابي أتيتم منكرا
شذت أمور القوم عن عاداتهم * فلاجل ذاك يقال سحر مفترى

وقال وهي من أشهر ما قال

أرى طالبا منا الزيادة لا الحسنى * بفكر رمى سهما فعدى به عدنا
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا * نغيب به عنا لدى الصعق ان عنا

وهي طويلة مشهورة بالشرق والغرب وقد شرحها شيخ شيوخنا العارف بالله تعالى سيدى أحمد زروق نفعنا الله تعالى ببركاته وأشار ابن الخطيب في الاحاطة الى أنها لا تخلو عن شذوذ من جهة اللسان وضعف في العربية قال ومع ذلك فهي غريبة المنزع أشار فيها الى مراتب الاعيان الاعلام من أهل هذه الطريقة وكأنها مبنية على كلام شيخه الذى خاطبه به عند لقائه حسبما قدمنا اذ الحسنى الجنة والزيادة مقام النظر وقوله فيها

وأظهر منها الغافقي لما جنى * وكشف عن أطواره الغيم والدجنا

هو شيخه أبو محمد بن سبعين لانه مرسى الاصل غافقيه ولما وصل الششترى من الشام الى ساحل دمياط وهو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومي فقال ما اسم هذه القرية فقيل الطينة فقال حنت الطينة الى الطينة وأوصى أن يدفن بمقبرة دمياط اذ الطينة بمفازة وأقرب المدن اليها دمياط فحمله الفقراء على أعناقهم الى دمياط وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٦٨ فدفن بدمياط رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم سيدى أبو الحسن على بن أحمد الحرالي الاندلسي وحرالة قرية من أعمال مرسية غير أنه ولد بمراكش وأخذ بالاندلس عن أبي الحسن بن خروف وغير واحد ورحل الى المشرق فأخذ عن أبي عبد الله القرطبي امام الحرم وغيره ولقى جلة من المشايخ شرقا وغربا وهو امام ورع صالح زاهد كان بقية السلف وقدوة الخلف وقد زهد في الدنيا وتخلى عنها وأقام في تفسير الفاتحة نحوا من ستة أشهر يلقى في التعليل قوانين تتنزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الاحكام حتى من الله تعالى ببركات ومواهب لا تحصى وعلى أحكام تلك القوانين وضع كتابه مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل وهو ممن جمع العلم والعمل وصنف في كثير من الفنون كالاصول والمنطق والطبيعيات والالهيات وكان يقرأ النجاة لابن سينا

فينقضه عروة عروة وكان من أعلم الناس بمذهب مالك ولما ظن فقهاء عصره انه لا يحسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات قرأ التهذيب وأبدى فيه الغرائب و بين مخالفته للمدونة في بعض المواضع ووقع بينه وبين الشيخ عز الدين بن عبد السلام شئ وطلب عز الدين أن يقف على تفسيره فلما وقف عليه قال أين قول مجاهد أين قول فلان وفلان وكثر القول في هذا المعنى ثم قال يخرج من بلادنا الى وطنه يعني الشام فلما بلغ كلامه الشيخ قال هو يخرج وأقيم أنا فكان كذلك وله عدة مؤلفات في الفنون وقال رحمه الله تعالى أقمت ملازما لمجاهدة النفس سبعة أعوام حتى استوى عندى من يعطيني دينارا ومن يزدريني وأصبح رحمه الله تعالى ذات يوم ولا شئ لاهله يقيم به أودهم وكانت أم ولده جارية تسمى كريمة وكانت سيئة الخلق فاشتدت عليه في الطلب وقالت له ان الاصاغر لا شئ لهم فقال لها الآن يأتي من قبل الوكيل ما نتقوت به فبينما هم كذلك واذا بالجمال يضرب الباب ومعه قمح فقال لها يا كريمة ما أعجلك هذا الوكيل بعث بالقمح فقالت ومن يصنعه فأمر فتصدق به ثم قال لها يأتيك ما هو أحسن فانتظرت يسيرا وبدا لها فتكلمت بما لا يليق فبينما هم كذلك واذا بجمال سميذ فقال لها هذا السميذ أيسر وأسهل من القمح فلم يقنعها ذلك فأمر أيضا بصدقته فلما تصدق به زادت في المقال واذا برجل على رأسه طعام فقال لها يا كريمة قد كفيت المؤنة هذا الوكيل قد لطف بحالك * ومن كراماته أن بعض طلبته اجتمعوا في نزهة وأخذوا حليا من زينة النساء فتزيا به بعض أصحابهم فلما انقضى ذلك واجتمعوا بمجلس الشيخ صار الذى كان في يده الحلى يتحدث ويشير بيده فقال الشيخ يد يجعل فيها الحلى لا يشار بها في الميعاد ومنها انه أصاب الناس جدب ببجاية فأرسل الى داره من يسوق ماء الى الفقراء فامتنعت كريمة ونهرت رسله فسمع كلامها فقال للرسول قل لها يا كريمة والله لا شربت من ماء المطر الساعة فرمق السماء بطرفه ودعا الله سبحانه وتعالى ورفع يديه به وشرع المؤذن في الاذان ولم يختم المؤذن أذانه حتى كان المطر كأفواه القرب وتوفي رحمه الله تعالى بحماة من بلاد الشام سنة سبع وثلاثين وستمائة انتهى ملخصا من عنوان الدراية للغبريني * ووقع للذهبي في حقه كلام على عادته في الحط على هذه الطائفة ثم قال ورأيت شيخنا المجد التونسي يتغالى في تفسيره ورأيت غير واحد معظما له وموقرا وقوما تكلموا في عقيدته وكان نازلا عند قاضي حماة البارزي وقال لنا شرف الدين البارزي تزوج بحماة وكانت زوجته تشتمه وتؤذيه وهو يتبسم وان رجلا راهن جماعة على أن يحرجه فقالوا لا تقدر فأتى وهو يعظ وصاح وقال له أنت أبوك كان يهوديا وأسلم فنزل من الكرسي فاعتقد الرجل انه غضب وأنه تم له ما رامه حتى وصل اليه فخلع مرطه عليه وأعطاه اياهما وقال له بشرك الله بالخير لانك شهدت لابي انه كان مسلما انتهى وظاهر كلام الغبريني ان تفسير الشيخ الحرالي كامل وقال بعضهم انه لم يكمل وهو تفسير حسن وعليه نسج البقاعي مناسباته وذكر أن الذى وقف عليه منه من أول القرآن الى قوله في سورة آل عمران كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا وكلام الذهبي في الشيخ يرده كلام الغبريني اذ هو أعرف به والله تعالى أعلم * وحكى الغبريني انه أنشد بين يديه الزجل المشهور

جنان

جنان ياجنان * اجن من البستان * الياسمين
واترك الريحان * بحرمة الرحمن * للعاشقين

فسأل بعض عن معناه فقال بعض الحاضرين أراد به العذار وقال آخر انما أشار الى دوام العهد لان الازهار كلها ينقضي زمانها الا الريحان فانه دائم فاستحسن الشيخ هذا ووافق عليه *(ومنهم ولي الله العارف به الشيخ الشهير الكرامات الكبير المقامات سيدي أبو العباس المرسي نفعنا الله تعالى به وهو من أكابر الاولياء صحب سيدي الشيخ الفرد القطب الغوث الجامع سيدي أبا الحسن الشاذلي أعاد الله تعالى علينا من بركاته وخلفه بعده وكان قدم من الاندلس من مرسية وقبره بالاسكندرية مشهور باجابة الدعوات وقد زرته مرارا كثيرة ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله وقد عرف به الشيخ العارف بالله ابن عطاء الله في كتابه لطائف المنن في مناقب الشيخ سيدي أبي العباس وشيخه سيدي أبي الحسن رضي الله تعالى عنهما وقال الصفدي في الوافي أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس الانصاري المرسي وارث شيخه الشاذلي تصوفا الاشعري معتقدا توفي بالاسكندرية سنة ٦٨٦ ولاهل مصر ولاهل الثغر فيه عقيدة كبيرة وقد زرته لما كنت بالاسكندرية سنة ٧٣٨ قال ابن عزام سبط الشاذلي ولولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة كان من الشهود بالثغر انتهى وكان سيدي أبو العباس يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله تعالى حتى انه ربما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به وربما دخل عليه عاص فأكرمه لان ذلك الطائع أتى وهو متكثر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصي دخل بكسر معصيته وذل مخالفته وكان شديد الكراهة للوسواس في الصلاة والطهارة ويثقل عليه شهود من كان على صفته وذكر عنده يوما شخص بانه صاحب علم وصلاح الا انه كثير الوسوسة فقال وأين العلم العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الابيض والسواد في الاسود وله كلام بديع في تفسير القرآن العزيز فمن ذلك انه قال قال الله سبحانه وتعالى الحمد لله رب العالمين علم الله عجز خلقه عن حمده فحمد نفسه بنفسه في أزله فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده فقال الحمد لله رب العالمين أي الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغي أن يكون لغيره فعلى هذا تكون الالف واللام للعهد وقال في قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين اياك نعبد شريعة واياك نستعين حقيقة اياك نعبد اسلام واياك نستعين احسان اياك نعبد عبادة واياك نستعين عبودية اياك نعبد فرق واياك نستعين جمع وله في هذا المعنى وغيره كلام نفيس يدل على عظيم ما منحه الله سبحانه من العلوم اللدنية وقال رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره وبسطه الشيخ رضي الله تعالى عنه فقال عموم المؤمنين يقولون اهدنا الصراط المستقيم معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل فانهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين والصالحون يقولون اهدنا الصراط

المستقيم معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل لانهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء والشهداء يقولون اهدنا الصراط المستقيم أى بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل فانهم حصلت لهم درجة الشهادة وفاتهم درجة الصديقية والصديق كذلك يقول اهدنا الصراط المستقيم اذ حصلت له درجة الصديقية وفاته درجة القطبانية والقطب كذلك يقول اهدنا الصراط المستقيم فانه حصلت له رتبة القطبانية وفاته علم اذا شاء الله تعالى أن يطلعه عليه أطلعه وقال رضى الله تعالى عنه الفتوة الايمان قال الله سبحانه وتعالى انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وقال رضى الله تعالى عنه فى قوله سبحانه وتعالى حاكيا عن الشيطان ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لان فوقهم التوحيد وتحتهم الاسلام وقال رضى الله تعالى عنه التقوى فى كتاب الله عز وجل على أقسام تقوى النار قال الله سبحانه وتعالى واتقوا النار وتقوى اليوم قال الله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وتقوى الربوبية قال الله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم وتقوى الالوهية وتقوى الله وتقوى الانية واتقون يا أولى الالباب وقال رضى الله تعالى عنه فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى لا أفتخر بالسيادة وانما الفخر لى بالعبودية لله وكان كثيرا ما ينشد

يا عمرو ناد عبد زهراء * يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى الا بيا عبدها * فانه أشرف أسمائى

وقال رضى الله تعالى عنه فى قول سمنون المحب

وليس لى فى سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرنى

الاولى أن يقول فكيفما شئت فاعف عنى اذ طلب العفو أولى من طلب الاختبار وقال رضى الله تعالى عنه الزاهد جاء من الدنيا الى الآخرة والعارف جاء من الآخرة الى الدنيا وقال رضى الله تعالى عنه العارف لا دنيا له لان دنياه لآخرته وآخرته لربه وقال الزاهد غريب من الدنيا لان الآخرة وطنه والعارف غريب فى الآخرة قال بعض العارفين معنى الغربة فى كلام الشيخ رضى الله تعالى عنه أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريبا فى الدنيا اذ ليست وطنا لقلبه عاين الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها وفيما شهد من عقوبتها ونكالها فتغرب فى هذه الدار وأما العارف فانه غريب فى الآخرة اذ كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريبا فى الآخرة لان سره مع الله تعالى بلا أين فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم اليها يأوون وفيها يسكنون فان تنزلوا الى سماء الحقوق أو أرض الحصوص فبالاذن والتمكين والرسوخ فى اليقين فلم ينزلوا الى الحصوص الشهوة ولم يصعدوا الى الحقوق بسوء الادب والغفلة بل كانوا فى ذلك كله بآداب الله تعالى وآداب رسله وأنبيائه متأدبين وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين رضى الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين * وكلام سيدى الشيخ أبى العباس رضى الله تعالى عنه

بحر لا ساحل له وكراماته كذلك وليراجع كتاب تلميذه ابن عطاء الله فان فيه من ذلك مايشفي ويكفي وما بقي اكثر * ومن كراماته رضي الله تعالى عنه انه عزم عليه انسان وقدم اليه طعاما يختبره به فأعرض عنه ولم يأكله ثم التفت الى صاحب الطعام وقال له ان الحافظ المحاسبي رضي الله تعالى عنه كان في اصبعه عرق اذا امتد يده الى طعام فيه شبهة تحرك عليه وأنا في يدي سبعون عرقا تحرك علي اذا كان مثل ذلك فاستغفر صاحب الطعام واعتذر الى الشيخ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به * (ومنهم أبو اسحق الساحلي المعروف بالطويجن بضم الطاء المهملة وفتح الواو وسكون التحتية وكسر الجيم وقيل بفتحها العالم المشهور والصالح المشكور والشاعر المذكور من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة وكان مع أمانته من أهل العلم فقيها متقنا متفننا وله الباع المديد في الفرائض وأبو اسحق هذا كان في صغره موثقا بسماط شهود غرناطة وارتحل عن الاندلس الى المشرق فحج ثم سار الى بلاد السودان فاستوطنها ونال جاها مكينا من سلطانها وبها توفي رحمه الله تعالى انتهى ملخصا من كلام الامير ابن الاحمر في كتابه نثير الجمان فيمن نظمني واياه الزمان * وقال أبو المكارم منديل بن آجروم حدثني من يوثق بقوله ان أبا اسحق الطويجن كانت وفاته يوم الاثنين ٢٧ جمادى الاخيرة سنة ٧٤٧ بتبكتو موضع بالصحراء من عمالة مالي رحمه الله تعالى ثم ضبط الطويجن بكسر الجيم قال وبذلك ضبطه بخط يده رحمه الله تعالى قال ومن نسبه للساحلي فانه نسبه لجده للام انتهى *(ومنهم الشيخ الاديب الفاضل المعمر ضياء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عفيف الخزرجي الساعدي من أهل غرناطة ويشهر بالخزرجي مولده ببيغة ورحل عن الاندلس قديما واستقر أخيرا بالاسكندرية وبها لقيه الحافظ ابن رشيد غير مرة وقد أطال في رحلته في ترجمته الى أن قال وذكره صاحبنا أبو حيان وهو أحد من أخذ عنه ولقيه فقال تلا القرآن بالاندلس على أبي الوليد هشام ابن واقف المقرى وسمع بها من أبي زيد الفازازي العشر ينيات وسمع بمكة من شهاب الدين السهروردي صاحب عوارف المعارف وتلا بالاسكندرية على أبي القاسم بن عيسى ولا يعرف له نظم في أحد من العالم الا في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شعره يعارض الحريري

أهن لاهل البدع * والهجر والتصنع * ودن بترك الطمع
ولذ بأهل الورع

ودع عن كل بذى * لم يكترث بالنبذ * والهج ببر جهبذ
وعالم متضع

واندب زمانا قد سلف * ولم تجد منه خلف * وابعث بأنواع الاسف
رسائل التضرع

وهي طويلة فلتراجع في ملء العيبة لابن رشيد رحمه الله تعالى * (ومنهم الفقيه الجليل العارف النبيل الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر الشهير

بابن سبعين العكى المرسى الاندلسى ويلقب من الالقاب المشرقية بقطب الدين قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك درس العربية والآداب بالاندلس ثم انتقل الى سبتة وانتحل التصوف وعكف برهة على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها فمالت اليه العامة ثم رحل الى المشرق وحج حججا وشاع ذكره وعظم صيته وكثر أشياعه وصنف أوضاعا كثيرة تلقوها منه ونقلوها عنه ويرمى بأمور الله تعالى أعلم بها وبحقيقتها وكان حسن الاخلاق صبورا على الاذى آية فى الايثار انتهى وقال غير واحد ان اغراض الناس فيه متباينة بعيدة عن الاعتدال فنهم المرهق المكفر ومنهم المقلد المعظم الموقر وحصل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد والنفرة والانتقاد مالم يقع لغيره والله تعالى أعلم بحقيقة أمره ولما ذكر الشريف الغرناطى عنه أنه كان يكتب عن نفسه ابن ه يعنى الدارة التى هى كالصفر وهى فى بعض طرق المغاربة فى حسابهم سبعون وشهر لذلك بابن دارة ضمن فيه البيت المشهور محا السيف ماقال ابن دارة أجمعا * حسبما ذكره الشريف فى شرح مقصورة حازم وقد طال عهدى به فلبراجعه من ظفر به وقال صاحب درة الاسلاك فى سنة ٦٦٩ ماصورته وفيها توفى الشيخ قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسى صوفى متفلسف متزهد متقشف يتكلم على طريق أصحابه ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه شاع أمره واشتهر ذكره وله تصانيف وأتباع وأقوال يميل اليها بعض القلوب ويملها بعض الاسماع وكانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة تغمده الله تعالى برحمته انتهى وقال بعض الاعلام فى حق ابن سبعين انه كان رحمه الله تعالى عزيز النفس قليل التصنع يتولى خدمة الكثير من الفقراء والسفارة أصحاب العبادات والدفافيس بنفسه ويحفون به فى السكك ولما توفرت دواعى النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل ووجهت لالفاظه المعاريض وقلبت موضوعاته وتعاورته الوحشة وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوب يطول ذكرها ووقع فى رسالة لبعض تلامذة ابن سبعين المذكور وأظن اسمه يحيى بن محمد بن أحمد بن سليمان وسماها بالوراثة المحمدية والفصول الذاتية ماصورته فان قيل ما الدليل على أن هذا الرجل الذى هو ابن سبعين هو الوارث المشار اليه قلنا عدم النظير واحتياج الوقت اليه وظهور الكلمة المشار اليها عليه ونصيحته لاهل الملة ورحمته المطلقة للعالم المطلق ومحبته لاعدائه وقصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه وعفوه عنهم مع قدرته عليهم وجذبهم الى الخير مع كونهم يطلبون هلاكه وهذه كلها من علامات الوراثة والتبعية المحضة التى لايمكن أحدا أن يتصف بها الا بجعد أزلى وتخصيص الهى وها أنا أصف لك بعض ماخصه الله سبحانه وتعالى به من الامور التى هى خارقة للعادة ونلغى عن الامور الخفية التى لانعلمها ونقصد الامور الظاهرة التى نعلمها والتى لايمكن أحدا أن يستريب فيها الا من أصمه الله تعالى وأعماه ولايجحدها الا حسود قد أتعب الله تعالى قلبه وأنساه رشده ونعوذ بالله ممن عاند من الله تعالى ساعده وأيده وهو معه بنصره وعونه فما أتعب معانده وما أسعد مواده وما أكبت مراده فنبدأ بذكر ما وعدنا فنقول الاول فى شرفه واستحقاقه لما ذكرنا كونه خلقه الله تعالى من أشرف البيوت التى فى بلاد

المغرب وهو بنو سبعين قرشيا هاشميا علويا وأبواه وجدوده يشار اليهم ويعوّل في الرياسة والحسب والتعين عليهم والثانى كونه من بلاد المغرب والنبى عليه السلام قال لايزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين الى قيام الساعة وماظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه فهو المشار اليه بالحديث ثم نقول أهل المغرب آهل الحق وأحق الناس بالحق وأحق المغرب بالحق علماؤه لكونهم القائمين بالقسط وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم الذى يدور الكل عليه ويعوّل فى مسائلهم ونوازلهم السهلة والعويصة عليه فهو حق المغرب والمغرب حق الله تعالى والمسئلة حق العالم فهو المشار اليه بالوراثة ثم نقول أهل المغرب ظاهرون على الحق أى على الدين والحق سر الدين والمحقق سر الحق فالمحقق سر الدين فهو المشار اليه بالوراثة ثم نقول أهل الله خير العالم وأهل الحق هم خير أهل الله والمحقق خير أهل الحق فالمحقق خير العالم فهو المشار اليه ثم نقول انظر فى بدايته وحفظ الله سبحانه له فى صغره وضبطه له من اللهو واللعب واخراجه من اللذة الطبيعية التى هى فى جبلة البشرية وتركه للرياسة العرضية المعوّل عليها عند العالم مع كونه وجدها فى آبائه وهى الآن فى اخوته وخروجه عن الاهل والوطن الذى قرنه الحق مع قتل الانسان نفسه وانقطاعه الى الحق انقطاعا صحيحا تعلم تخصيصه وخرقه للعادة ثم انظر فى تأييده وفتحه من الصغر وتأليف كتاب بدء العارف وهو ابن خمس عشرة سنة وفى جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوى على جميع الصنائع العلمية والعملية وجميع الامور السنية والسنية تجده خارقا للعادة وفى نشأته فى بلاد الاندلس ولم يعلم له كثرة نظر وظهوره فيها بالعلوم التى لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة وفى تواليفه واشتمالها على العلوم كلها ثم انفرادها وغرابتها وخصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أفهام الخلق تعلم أنه مؤيد بروح القدس وفى شجاعته وقوة توكله فى عزمه ونصره اصنائعه وظهور حجته على خصمائه واقامة حقه وبرهانه وفصاحة كلامه وبيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوة الهية وعناية ربانية وفى امتحان أهل المغرب له واجتماعهم عليه فى كل بلد معتبر للمناظرة ويظهر الله تعالى حجته ويقمع خصمه ويكبت عدوّه ويعجز معارضه ويفحم معترضه وفى غيرة الحق عليه وهلاك من تعرض بالاذى اليه يعلم العاقل المخصوص أنه عبد الله مخصوص وفى خلقه وقهره لقواه النزوعية والغضبية واسلام قرينه وجلالة قوته الحافظة التى لاتنسى شيأ والمفكرة التى تتصوّر الذوات المجرّدة والمعلومة سرعين اللطيف وكذلك الذاكرة وسرعة ظهوره وانتشار آيته واستجلاب شأنه فى الجهات كلها وبالجملة جميع ماذكرت فيه هو خارق للعادة البشرية ومعجز لمعارضه من كل الجهات ولولا خوف التطويل لكنت أفصل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعى وتقيم الادلة القطعية على تعجيزها ولكن أعطيت الانموذج وعرفت ان النبيه يعين فكره ويجد ذلك كله كماقلته وبالجملة جميع جزئياته اذا تؤملت توجد خارقة للعادة وتشهد لها ماهية الوجود بالتخصيص فصح انه هو المشار اليه والمعوّل فى جملة الامور عليه وانما أعطيت الامر المشهور وتركت مايعلم منه من خرق العوائد فى ظهور الطعام والشراب والسمن والتمر وأخذ الدراهم من الكون واخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة وظهرت

قوله لايزال الخ لفظ الحديث كما فى القاموس فى مادة غ ر ب لايزال أهل الغرب ظاهرين على الحق اه وحمل الغرب فيه على شجرة حجازية ضخمة شاكة فعلى هذا يكون المراد بهم أهل الحجاز وكلمة على الحق ليست موجودة هنا وربما أشعر بثبوتها كلامه فيما بعد فليراجع ويحرّر اه مصححه

كما أخبر فصح انه هو المذكور انتهى ما تعلق به الغرض مما في الرسالة في شأن الشيخ ابن سبعين وقد ذكر غير واحد من المؤرخين ومنهم لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة كما سيأتي قريبا أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم اليها فعظم عليه بذلك الحمل وقبحت الاحدوثة عنه انتهى لكن قال شهاب الدين بن أبي حجلة التلمساني الاديب الشهير وهو صاحب كتاب السكردان وديوان الصبابة ومنطق الطير والاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض ما معناه أخبرني الشيخ الصالح أبو الحسن بن برغوش التلمساني شيخ المجاورين بمكة وكانت له معرفة تامة بهذا الرجل أنه صده عن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان اذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة على ساكنها الصلاة والسلام يهراق منه دم كدم الحيض والله تعالى أعلم بحقيقة أمره انتهى وقال غيره ثم زار النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا على طريق المشاة حدث بذلك أصهاره بمكة انتهى وقال لسان الدين أما شهرته ومحله من الادراك والآراء والاوضاع والاسماء والوقوف على الاقوال والتعمق في الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلمين فما يقضي منه بالعجب وقال الشيخ أبو البركات بن الحاج البلفيقي رحمه الله تعالى حدثني بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الامير أبا عبد الله بن هود سالم طاغية النصارى فنكث به ولم يف بشرطه فاضطره ذلك الى مخاطبة القس الاعظم برومية فوكل أبا طالب بن سبعين أخا أبي محمد عبد الحق بن سبعين في التكلم عنه والاستظهار بين يديه قال فلما بلغ ذلك الشخص رومية وهو بلد لا يصل اليه المسلمون ونظر الى ما بيده وسئل عن نفسه فأخبر بما ينبغي كلم ذلك القس من دنا منه بكلام مجم ترجم لابي طالب بما معناه اعلموا ان أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه انتهى وقال غير واحد انه ظهر منه واشتهرت عنه أشياء كثيرة الله تعالى أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه منها فمنها قوله فيما زعموا وقد جرى ذكر الشيخ ولي الله سيدي أبي مدين نفعنا الله تعالى ببركاته شعيب عبد عمل ونحن عبيد حضرة وممن حكى هذا لسان الدين في الاحاطة وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان المستنصر بالله تعالى أبي عبد الله محمد ابن السلطان زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص ملك افريقية وما اليها ان أهل مكة بايعوه وخطبوا له بعرفة وأرسلوا اليه ببيعتهم وهي من انشاء ابن سبعين وسردها ابن خلدون بجملتها وهي طويلة وفيها من البلاغة والتلاعب باطراف الكلام ما لا مطمع وراءه غير أنه يشير فيها الى أن المستنصر هو المهدي المبشر به في الاحاديث الذي يحثو المال ولا يعده وحمل حديث مسلم وغيره عليه وذلك ما لا يخفى ما فيه فليراجع كلام ابن خلدون في محله ولابن سبعين من رسالة سلام عليك ورحمة الله سلام عليك ثم سلام مناجاتك سلام الله ورحمة الله الممتدة على عوالمك كلها السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته وصلى الله عليك كصلاة ابراهيم من حيث شريعتك وكصلاة أعز ملائكتك من حيث حقيقتك وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا قياس الكمال ومقدمة العلم ونتيجة الحد وبرهان المحمود ومن اذا نظر الذهن اليه قر أنعم العبد السلام عليك يا من هو الشرط في كمال

الاولياء وأسرار مشروطات الاذكياء الاتقياء السلام عليك يامن جاوز فى السموات مقام الرسل والانبياء وزادك رفعة واستعلا على ذوات الملا الاعلى * وذكر قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى * وقال بعضهم عند ايراده جملة من رسائله التى منها هذه انها تشتمل على مايشهد له بتعظيم النبوة وايثار الورع انتهى * وقال بعض العلماء الاكابر عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به مانصه ببعض اختصار هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم وتعدد المعارف وكثرة التصانيف ولد سنة ٦١٤ ودرس العربية والادب بالاندلس ونظر فى العلوم العقلية وأخذ عن أبى اسحق بن دهاق وبرع فى طريقه وجال فى البلاد وقدم القاهرة ثم حج واستوطن مكة وطار صيته وعظم أمره وكثر أتباعه حتى أنه ترجم له أمير مكة فبلغ من التعظيم الغاية وله كتاب الدرج وكتاب السفر وكتاب الاجوبة اليمنية وكتاب الكد وكتاب الاحاطة ورسائل كثيرة فى الاذكار وترتيب السلوك والوصايا والمواعظ والغنائم ومن شعره

كم ذا تموه بالشعبين والعلم * والامر أوضح من نار على علم
وكم تعبر عن سلع وكاظمة * وعن زرود وجيران بذى سلم
ظللت تسأل عن نجد وأنت بها * وعن تهامة هذا فعل متهم
فى الحى حى سوى ليلى فتسأله * عنها سؤالك وهم جر للعدم

ونشأ رحمه الله تعالى ترفا مبجلا فى ظل جاه ونعمة لم تفارق معها نفسه البأو وكان وسيما جميلا ملوكى البزة عزيز النفس قليل التصنع وكان آية من الآيات فى الايثار والجود بما فى يده رحمه الله تعالى * وقال فى الاحاطة للناس فى أمره اختلاف بين الولاية وضدها ولما وجه الى كلامه سهام الناقدين قصر أكثرهم عن مداه فى الادراك والخوض فى تلك البحار والاطلاع وساءت منهم فى المماتجة له السيرة فانصرفوا عنه مكلومين يندرون عنه فى الآفاق من سوء القالة مالا شئ فوقه وجرت بينه وبين أعلام المشرق خطوب وعاقه الخوف من أمير المدينة عن الدخول اليها الى أن توفى فعظم بذلك الحمل عليه وقبحت الاحدوثة عنه ولما وردت على سبتة المسائل الصقلية وكانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبكيتا للمسلمين انتدب للجواب المقنع عنها على فتاء من سنه وبديهة من فكرته رحمه الله تعالى انتهى * وقال بعض من عرف به انه من أهل مرسية وله علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وفصاحة وبلاغة * وقال فى عنوان الدراية رحل الى العدوة وسكن بجاية مدة ولقى من أصحابنا ناسا وأخذوا عنه وانتفعوا به فى فنون خاصة له مشاركة فى معقول العلوم ومنقولها وله فصاحة لسان وطلاقة قلم وفهم جنان وهو أحد العلماء الفضلاء وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامة الناس وله موضوعات كثيرة هى موجودة بأيدى أصحابه وله فيها ألغاز واشارات بحروف أبجد وله تسميات مخصوصة فى كتبه هى نوع من الرموز وله تسميات ظاهرة هى كالاسامى المعهودة وله شعر فى التحقيق وفى مراقى أهل الطريق وكتابته مستحسنة فى طريق الادباء وله من الفضل والمزية ملازمته لبيت الله الحرام والتزامه الاعتمار على الدوام وحجه مع الحجاج فى كل عام

وهذه مزية لا يعرف قدرها ولا يرام ولقد مشى به للمغاربة في الحرم الشريف حظ لم يكن لهم في غير مدته وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله ويهتدون بأفعاله * توفي رحمه الله تعالى يوم الخميس تاسع شوال سنة ٦٦٩ انتهى ببعض اختصار * وذكر رحمه الله تعالى في ترجمة تلميذه الشيخ أبي الحسن الششتري السابق الذكر أن أكثر الطلبة يرجحونه على شيخه أبي محمد بن سبعين واذا ذكر له هذا يقول انما ذلك لعدم اطلاعهم على حال الشيخ وقصور باعهم * ومن تآليف ابن سبعين الفتح المشترك ومما حكاه صاحب عنوان الدراية في ترجمة الششتري مما لم نذكره في ترجمته الماضية ورأينا ذكره هنا تبركا أن الششتري كان في بعض أسفاره في البرية وكان رجل من أصحابه قد أسر فسمعه الفقراء يقول البنا يا أحمد فقيل له من أحمد الذي ناديته يا سيدي في هذه البرية فقال لهم من تسر ون به غدا ان شاء الله تعالى فلما كان من الغد ورد الشيخ وأصحابه بلد قابس فعند دخولهم اذا بالرجل المأسور فقال الشيخ للفقراء هنيئا لنا باقتحام العقبة صافحوا أخاكم المنادى به ومن مناقبه نفع الله تعالى به أنه لما نزل ببلدة قابس برباط البحر المعروف بالصهريج جاء الشيخ الصالح أبو اسحق الزرناقي نفع الله تعالى به بجميع أصحابه برسم الزيارة فوافق وصوله وصول الشيخ الصالح الفاضل الولي أبي عبد الله الصنهاجي نفع الله تعالى به مع جملة أصحابه للزيارة فوجدوا الشيخ أبا الحسن قد خرج الى موضع بخارج المدينة برسم الخلوة فجلسوا لانتظاره فلم يكن الا قليل اذ أقبل الشيخ على هيئة معتبر متفكر فلما دخل الرباط سلم على الواصلين برسم الزيارة وحيا المسجد وأقبل على الفقراء وأثر العبرة على وجنته فقال ائتوني بدواة فلما أحضر بين يديه تأوه تأوها شديدا كاد أن يحرق بنفسه جليسه وجعل يكتب على اللوح هذه الابيات

لا تلتفت بالله يا ناظري * لأهيف كالغصن الناضر
يا قلب واصرف عنك وهم البقا * وخل عن سرب حمى حاجر
ما السرب والبان وما العلع * ما الخيف ما ظبي بني عامر
جمال من سميته دائر * ما حاجة العاقل بالدائر
وانما مطلبه في الذي * هام الورى في حسنه الباهر
أفاد للشمس سنى كالذي * أعاره للقمر الزاهر
أصبحت فيه مغرما حائرا * لله در المغرم الحائر

وكان يوما ببلد مالقة وكثيرا ما يجود عليه القرآن العزيز فقرأ طالب قوله تعالى انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني فقال مجلا رضي الله تعالى عنه وفهم من الآية ما لم يفهم وعلم منها ما لم يعلم

انظر للفظ أنا يا مغرما فيه * من حيث نظرتنا العلي تدريه
خل ادعاءك لا تفخر بعارية * لا يستعير فقير من مواليه
جسوم أحرفه للسر حاملة * ان شئت تعرفه جزب معانيه

ودخل عليه شخص ببجاية من أهلها يعرف بابي الحسن بن علال من أهل الامانة والديانة

فوجده يذاكر بعض أهل العلم فاستحسن منه ايراده للعلم واستعماله لمحاضرة الفهم فاعتقد شماخته وتقديمه ثم نوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين دينارا شكرا لله تعالى و يأتيهم بمأكول فلما يسر جميع ما اهتم به أراد أن يقسمه فيعطيه شطره ويدع الشطر الثاني الى حين انصراف الشيخ ليكون للفقراء زادا فلما كان فى الليل رأى فى منامه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلى رضى الله تعالى عنهما قال الرجل فنهضت اليه بسرور رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وقلت يارسول الله ادع الله تعالى لى فالتفت لابى بكر رضى الله تعالى عنه وقال يا أبابكر أعطه فاذا به رضى الله تعالى عنه قسم رغيفا كان بيده وأعطانى نصفه ثم أفاق الرجل من منامه وأخذه وجده من هذه الرؤية المباركة فأيقظ أهله واستعمل نفسه فى العبادة فلما كان من الغد سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدراهم المحتسب بها فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ ياعلى اقرب فلما قرب قال له ياعلى لو أتيت بالكل لاخذت منه الرغيف بكماله انتهى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الشهير بابن غصن الاشبيلى من ولد شداد بن أوس الانصارى الجزيرى نسبة الى الجزيرة الخضراء الامام المقرى الزاهد عرض على الاستاذ ابن أبى الربيع الموطأ من حفظه وأخذ عنه النحو وكان من أولياء الله تعالى الصالحين وعباده الناصحين آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر قوالا بالحق لا تأخذه فى الله لومة لائم عارفا بفنون الحديث وأحكامه فقيها عارفا متقنا لمذاهب الائمة الاربعة والصحابة والتابعين لا يقبل من أحد شيأ مخلصا لله تعالى يتكلم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية وأقرأ القرآن بمكة مدة بالقراآت وبالمدينة وبيت المقدس وممن قرأ عليه خليل امام المالكية بالحرم والشهاب الطبرى امام الحنفية بالحرم وله مصنفات فى القراآت منها مختصر الكافى وكتاب فى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ومولده سنة ٦٣٤ تخمينا وتوفى ببيت المقدس آخر سنة ٧٢٣ رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الفقيه الاستاذ النحوى التاريخى اللغوى أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى يكنى أبا العباس وأبا جعفر قرأ بالاندلس على مشايخ من أفضلهم الاستاذ أبو على عمر الشلوبين ثم ارتحل الى العدوة وسكن بجاية وأقرأ بها مدة وارتحل الى المشرق فحج ثم رجع الى حضرة تونس واتخذها وطنا واشتغل بها بالاقراء الى أن مات كان يتبسط لاقراء سائر كتب العربية وله علم جليل باللغة وله تواليف كثيرة منها على الجمل وشرح الفصيح لثعلب ولم يشذ فيه شئ من فصيح كلام العرب قال الغبرينى رحمه الله تعالى ورأيت له تأليفا فى الاذكار وله عقيدة فى علم الكلام ورأيت له مجموعا سماه الاعلام بحدود قواعد الكلام تكلم فيه على الكلم الثلاث الاسم والفعل والحرف وله تواليف أخر وكان من أساتيذ افريقية فى وقته وممن أخذ عنه واستفيد منه انتهى * وذكر الشيخ أبو الطيب بن علوان التونسى عن والده أحمد التونسى الشهير بالمصرى أن المذكور تأليفا سماه التجنيس وله شرح أبيات الجمل سماه وشى الحلل رفعه للملك المستنصر الحفصى بتونس فدفعه المستنصر للاستاذ أبى الحسن حازم وأمره أن يعقب عليه ما فيه من خلل وجده فحكى أبو عبد الله

القطان المسفر وكان يخدم حازما قال كنت يوما بدار أبي الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب فسمعت نقر الباب فخرجت فاذا بالفقيه أبي جعفر فرجعت وأخبرت أبا الحسن فقام مبادرا حتى أدخله وبالغ في بره وا كرامه فرأى الكتاب بين يديه فقال له يا أبا الحسن قال الشاعر وعين الرضا عن كل عيب كليلة فقال له يافقيه أبا جعفر أنت سيدي وأخي ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه الا القول الحق والعلم لا يحتمل المداهنة فقال له فأخبرني بما عثرت عليه قال له نعم فأظهر له مواضع فسلمها أبو جعفر وبشرها وأصلحها بخطه وأصل هذا اللبلي من لبلة بالاندلس اجتمع في رحلته للمشرق بالقاضي ابن دقيق العيد وكان نحويا فلما دخل عليه اللبلي قال له القاضي خير مقدم ثم سأله بعد حين بم انتصب خير مقدم فقال له اللبلي على المصدر وهو من المصادر التي لا تظهر أفعالها وقد ذكره سيبويه ثم سرد عليه الباب من أوله الى آخره فانه كان يحفظ أكثره فأكرمه القاضي وعظمه ثم قال ابن علوان وذكر والدي أيضا رحمه الله تعالى ومن خطه المبارك نقلت ان الاستاذ أبا جعفر اللبلي المذكور رحمه الله تعالى قرأ عليه يوما قول امرئ القيس

حتى الحول بجانب العزل * اذ لا يلائم شكلها شكلي

فقال لطلبته ما العامل في هذا الظرف يعني اذ فتنازعوا القول فقال حسبكم قرئ هذا البيت على استاذنا أبي علي الشلوبين فسألنا هذا السؤال وكان أبو الحسن بن عصفور قد برع واستقل وجلس للتدريس وكان الشلوبين يغض منه فقال لنا اذا خرجتم فاسألوا ذلك الجاهل يعني ابن عصفور فلما خرجنا سرنا اليه بجمعنا ودخلنا المسجد فرأيناه قد دارت به حلقة كبيرة ولم يتكلم بغرائب النحو فلم نجسر على سؤاله لهيبته وانصرفنا ثم جئنا بعد على عادتنا لابي علي فنسي حتى قرئ عليه قول النابغة * فعد عما ترى اذ لا ارتجاع له * فتذكر وقال ما فعلتم في سؤال ابن عصفور فصدقناه الحديث فأقسم أن لا يخبرنا ما العامل فيه ثم قال اللبلي لطلبته وأنا أقول لكم مثل ذلك فانظروا لانفسكم قالوا فنظرنا فاذا المسئلة مسئلة تحصر ونظر كلما حكمنا بحكم صدتنا عنه قوانين نحوية حتى مضت مدة طويلة فوفد علينا بتونس المحروسة أحد طلبة ابن أبي الربيع وكان ابن أبي الربيع هذا ساكنا بسبتة وهو أحد طلبة الشلوبين أيضا ومن كبار هذه الطبقة التي نشأت بعده قالوا فتذاكرنا مع هذا الطالب في مسائل نحوية فجرت هذه المسئلة في قوله تعالى اذ تسويكم برب العالمين فقال هذا الطالب ان هذا الظرف وقع موقع لام العلة فعلمنا أن هذا هو الذي أراد الاستاذ أبو علي ثم ناقشنا الطالب وقلنا له اذا جعلته ظرفا فلا بد من العامل واذا جعلته واقعا موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيين والذي يجوز عكسه على مذهب الجميع وانما الاولى أن يقال اذ حرف معناه التعليل تشترك فيه الاسماء كما اشتركت في عن والله أعلم بغيبه انتهى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي قال الحافظ المقريزي وفرح بسكون الراء وقال الحافظ عبد الكريم في حقه انه كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة فيما بين توجه وعبادة

وتصنيف

وتصنيف جمع في تفسير القرآن كتابا خمسة عشر مجلدا وشرح أسماء الله الحسنى في مجلدين وله كتاب التذكرة في أمور الآخرة في مجلدين وشرح التقصي وله تآليف غير ذلك مفيدة وكان مطارح التكليف يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب المفهم في شرح مسلم بعض هذا الشرح وحدث عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن حفص اليحصبي وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري وغيرهما وتوفي بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ ودفن بها رحمه الله تعالى * وفي تاريخ الكتبي في حقه ما نصه كان شيخا فاضلا وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه منها تفسير القرآن مليح الى الغاية اثنا عشر مجلدا انتهى * وكتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته قد أجحف المصنف في ترجمته جدا وكان متفننا متبحرا في العلم انتهى * وكتب بعض باثر هذا الكلام ما نصه قال الذهبي رحل وكتب وسمع وكان يقظا فهما حسن الحفظ مليح النظم حسن المذاكرة ثقة حافظا انتهى * وكتب آخر اثر ذلك الكلام ما صورته مشاحة شيخنا للمصنف في هذه العبارة مالها فائدة فان الذهبي قال في تاريخ الاسلام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الامام القرطبي امام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله ثم ذكر موته وقال بعده وقد سارت بتفسيره العظيم الشان الركبان وله الاسنى في شرح الاسماء الحسنى والتذكرة وأشياء تدل على امامته وذكائه وكثرة اطلاعه انتهى * وكتب آخر باثر هذا الكلام ما نصه غفر الله لك اذا كان الذهبي ترجمه بما ذكرت وهو والله فوق ذلك فكيف تقول ان مشاحة شيخك لا فائدة فيها وتسيء الادب معه وتقول ان كلامه لا فائدة فيه فالله يستر عليك انتهى *(ومنهم أبو القاسم بن حاضر الجزيري الخزرجي محمد بن أحمد من جزيرة شقر قدم مصر وسكن قوص بعد ما كان من عدول بلنسية وكان فصيحا عالما بصناعة التوريق وله نظم لم يحضرني الآن شيء منه ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو القاسم التجيبي محمد بن أحمد التجيبي من أهل بلش قرأ على ابن مفرج وابن أبي الاحوص ورحل فاستوطن القاهرة وكان شيخا فاضلا خيرا له أدب وشعر منه قوله من أبيات

أحوى الجفون له رقيب أحول * الشيء في ادراكه شيآن
ياليته ترك الذي أنا مبصر * وهو الخبير في الغزال الثاني

ولد ببلش سنة ٦٢٣ وتوفي بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥ وممن روى عنه نحوي الزمان اثير الدين أبو حيان وغيره رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو بكر الخزرجي محمد بن أحمد بن حسن وقيل محمد بن عيسى المالقي المالكي قال الشريف أبو القاسم انه كان أحد الزهاد الورعين وعباد الله المتقين مشتغلا بنفسه متخليا عما في أيدي الناس يأكل من كسب يده ولا يقبل لاحد شيأ مع وجد وعلم وعمل وفضل وأدب ولم يكن في زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له وقال الحافظ عبد الكريم انه دخل اشبيلية واشتغل

بالعربية على الشلوبين وقرأ القراآت السبع ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك وكان والده نجارا وكان لا يأكل الا من كسب يده يخيط الثياب فازدحم الناس عليه تبركا به فترك ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل عنه وكان شديد الزهد كثير العبادة لا يسلم يده الى أحد ليقبلها وجاءه شخص قد زيد عليه في اجرة مسكنه ليشفع الى صاحب الدار أن لا يقبل الزائد فمضى الى صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر فعلم بذلك الساكن بعد مدة فقال له ياسيدي ماسألت الا الشفاعة وأنت تزن عني فقال له رجل له دار يأخذ اجرتها يجيء اليه الخزرجي يقطع عليه حقه والله ما يدفع هذا الا أنا فلم يزل يدفع الزائد الى أن انتقل الساكن الى غيرها ومات ليلة الاثنين الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥١ عن خمس وأربعين سنة ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى ونفعنا به *(ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرح الهاشمي مولاهم لاءت ولاءه لبني العباس من أهل قرطبة ولد في شهر رمضان سنة ٣٢٢ بقرطبة وسمع بها من وهب بن مسرة وخالد بن سعيد وغيره ورحل فحج وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق وأبا علي بن السكن ونظراءهم في سنة ٣٤٩ وعاد الى بلده وبها مات في شهر رمضان سنة ست وأربعمائة قال ابن بشكوال كان رجلا صالحا فاضلا من أهل الاجتهاد في العبادة مائلا الى التقشف والزهادة قديم الطلب حسن المذهب متبعا للسنن *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد بن ابراهيم الزهري الاندلسي الاشبيلي ولد بمالقة وطاف الاندلس وطلب العلم وحصل طرفا صالحا من علم الادب ودخل مصر قبل التسعين وخمسمائة فسمع الحديث بها ودخل الشام وبلاد الجزيرة وقدم بغداد سنة ٥٠٩ وعمره ثلاثون سنة وأقام بها مدة وسمع من شيوخها كابي الفرج بن كليب ونحوه وقرأ ونسخ بخطه وسافر الى اصبهان وبلاد الجبل وكان فاضلا حسن المعرفة بالادب يقول الشعر وينشئ المقامات وصنف كتاب البيان والتبيين في أنساب المحدثين ستة أجزاء وكتاب البيان فيما أبهم من الاسماء في القرآن مجلد وكتاب أقسام البلاغة وأحكام الصناعة في مجلدين وكتاب شرح الايضاح لابي علي الفارسي في خمسة عشر مجلدا وكتاب شرح المقامات مجلد وكتاب شرح اليميني في مجلد قال المنذري توفي شهيدا قتله التتار في رجب وقال ابن النجار في سابع عشر رجب سنة ٦١٧ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الاعلى بن القاسم القرطبي المقري المعروف بالورشي نسبة الى قراءة ورش لاشتهاره بها وهو أحد القراء المعروفين قال الحاكم هو من الصالحين المذكورين بالتقدم في علم القراآت سمع بمصر والشام والحجاز والعراقين والجبال واصبهان وورد نيسابور ودخل خراسان فسمع على ابن المرزبان باصبهان وبالاهواز عبد الواحد بن خلف الجنديسابوري وبفارس أحمد بن عبد الرحمن ابن الجارود الرقي وقال ابن النجار قدم بغداد وحدث بها توفي بسجستان في ربيع الاول سنة ٣٩٣ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الباجي اللخمي قال ابن بشكوال مولده في صفر سنة ٣٥٦ وسمع عن جده ورحل الى المشرق وقال ابن غلبون في مشيخته انه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل قائما بها واقفا عليها قاعدا

للشروط محسنا لها عارفا وبيتهم بيت علم ونشأ فيه هو وأبوه وجده وكان جميعهم في الفضل والتقدم على درجاتهم في السن وعلى منازلهم في السبق وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة وشاركه في السماع والرواية عن جده وسمع بمصر من أبي الحسن أحمد بن عبد الله ابن حميد بن زريق المخزومي* وقال ابن بشكوال كان من أجل الفقهاء عندنا دراية ورواية بصيرا بالعقود ومتقدما على أهل الوثائق عارفا بعللها وألف فيها كتابا حسنا وكتابا في السجلات الى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخرين مع ما كان عليه من الطريقة المثلى وتوفية العلم حقه من الوفاء والتصون توفي في المحرم سنة ٤٢٣ لعشرين بقين منه *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي الاندلسي القرطبي الفقيه المالكي المشهور صاحب العتبية سمع بالاندلس من يحيي بن يحيي وسعيد ابن حسان وغيرهما ورحل الى المشرق فسمع من سحنون وأصبغ بن الفرج وغيرهما وكان حافظا للمسائل جامعا لها عالما بالنوازل وهو الذي جمع المستخرجة من الاسمعة المسموعة غالبا من مالك بن أنس وتعرف بالعتبية وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة وكان يؤتى بالمسئلة الغريبة فاذا سمعها قال أدخلوها في المستخرجة ولذا روى عن ابن وضاح انه كان يقول المستخرجة فيها خطأ كثير كذا قال ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من علماء المالكية كابن رشد وغيره* قال ابن يونس توفي بالاندلس سنة ٢٥٥ والعتبي نسبة الى عتبة بن أبي سفيان بن حرب وقيل الى جد للمذكور يسمى عتبة وقيل الى ولاء عتبة بن يعيش *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن زكريا المغافري المقرى الفرضي الاديب ولد بالاندلس سنة ٥٩١ ونشأ ببلنسية وأقام بالاسكندرية وقرأ القرآن على أصحاب ابن هذيل ونظم قصيدة في القرا آت على وزن الشاطبية لكن أكثر أبياتا وصرح فيها بأسماء القراء ولم يرمز كما فعل الشاطبي وكانت له يد في الفرائض والعروض مع معرفة القرا آت والادب ومن شعره

اذا ما اشترت بنت أباها فعتقه * بنفس الشرا شرعا عليها تأصلا
وميراثه ان مات من غير عاصب * ومن غير ذي فرض لها قد تأثلا
لها النصف بالميراث والنصف بالولا * فان وهب ابنا أو شراه تفضلا
فأعتق شرعا ذلك الابن مالها * سوى الثلث والثلثان للاخ أصلا
وميراثها فيه اذا مات قبلها * كميراثها في الاب من قبل يجتلي
ومولى أبيها مالها الدهر فيه من * ولاء ولا ارث مع الابن فاعقلي

وهذه المسئلة ذكر الغزالي في الوسيط انه قضى فيها أربعمائة قاض وغلطوا وصورتها ابنة اشترت أباها فعتق عليها ثم اشترى الاب ابنا فعتق عليه ثم اشترى عبدا فأعتقه ثم مات الاب فورثه الابن والبنت للذكر مثل حظ الانثيين ثم مات العبد المعتق فلمن يكون ولاؤه وفرضها المالكية على غير هذا الوجه وهي مشهورة *(ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل أبو عبد الله الاموي الاندلسي الطليطلي المعروف بالنقاش نزل مصر وقعد للاقراء بجامع عمرو بن العاصي وأخذ عنه جماعة وتوفي بمصر سنة ٥٢٩ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد

القيسي القبري القرطبي المؤدب رحل من الاندلس سنة ٣٤٢ فسمع بمصر من أبي محمد ابن الورد وأبي قتيبة سالم بن الفضل البغدادي وغيره وكان صالحا خيرا مؤدبا سمع من الناس وتوفي سنة ٣٦٢ والقبري بفتح القاف وسكون الباء الموحدة ثم راء مهملة نسبة الى قبرة بلد بالاندلس بقرب قرطبة بنحو ثلاثين ميلا * (ومنهم جمال الدين أبو بكر الوايلي محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سحمان الشريشي المالكي ولد بشريش سنة ٦٠١ ورحل فسمع بالاسكندرية من ابن عماد الحراني وبدمشق من مكرم ابن أبي الصقر وبحلب من أبي البقاء يعيش بن علي النحوي وسمع باربل وبغداد وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدة يفيد الناس فتخرج به جماعة وولي مشيخة المدرسة بالقدس ومشيخة الرباط الناصري بالجبل وأقام بدمشق يفتي ويدرس وكان من العلماء الزهاد كثير العبادة والورع والزهد أحد الائمة المبرزين المتبحرين في العربية والفقه على مذهب الامام مالك والتفسير والاصول وصنف كتابا في الاشتقاق وشرح ألفية ابن معطي وأخذ عنه الناس وطلب للقضاء بدمشق فامتنع منه زهدا وورعا وبقي المنصب لاجله شاغرا الى أن مات برجب سنة ٦٨٥ ودفن بقاسيون وسحمان بسين مهملة مضمومة ثم جيم ساكنة بعدها ميم مفتوحة ونون * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن يحيى بن مفرج القرطبي المعروف والده بالقنتوري وكان جد أبيه مفرج صاحب الركاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل وكان أبوه أحمد بن يحيى رجلا صالحا وولد هو سنة ٣٢٨ وكان سكناه بقرطبة بقرب عين قنت أوربة وسمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ كثيرا ومن ابن دليم والخشني ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكة من ابن الاعرابي ولزمه حتى مات وسمع بها من جماعة غيره وسمع بجدة وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ودخل صنعاء وزبيد وعدن وسمع بها من جماعة وسمع بمصر من البرقي صاحب أحمد البزار وسمع من السيرافي وجماعة كثيرة وسمع بغزة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا والرملة وصور وقيسارية والقلزم والفرما والاسكندرية فبلغت عدة شيوخه الى مائتين وثلاثين شيخا وروى عنه أبو عمرو الطلمنكي وجماعة وكتب تاريخ مصر عن مؤلفه أبي سعيد بن يونس وروى عنه ابن يونس وهو من أقرانه وعاد الى الاندلس من رحلته سنة ٣٤٥ واتصل بالحكم المستنصر وصارت له عنده مكانة وألف له عدة كتب واستقضاه على استجة ثم على المرية ومات برجب سنة ٣٤٨ قال الحميدي هو محدث حافظ جليل صنف كتبا في فقه الحديث وفي فقه التابعين فنها فقه الحسن البصري في سبع مجلدات وفقه الزهري في أجزاء كثيرة وسمع مسند ابن الفرضي وحديث قاسم ابن أصبغ قال ابن الفرضي وكان عالما بالحديث بصيرا برجاله صحيح النقل حافظا جيد الكتابة على كثرة ما جمع وقال ابن عفيف في حقه انه كان من أعنى الناس بالعلم وأحفظهم للحديث وأبصرهم بالرجال ما رأيت مثله في هذا الفن من أوثق المحدثين بالاندلس وأصحهم كتبا وأشدهم تعبا لروايته وأجودهم ضبطا لكتبه وأكثرهم تصحيحا لها لم يدع فيها شبهة رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله القيسي الوضاحي محمد بن أحمد بن موسى رحل الى المشرق

قوله سنة ٣٢٨ في نسخة سنة ٣٢٥ اه

وسمع من السلفي وغيره جملة صالحة ثم عاد الى الاندلس بعد الحج وسكن المرية مدة وبها مات سنة ٥٣٩ وقيل في التي بعدها وكان من أظرف الناس وأحسنهم أدبا فقيها فاضلا ثقة ذا فوائد جمة عفيفا معتنيا بالعلم * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري البلنسي ولد سنة ٥١٩ وسمع من أبيه وجماعة ورحل حاجا فسمع من السلفي وابن عوف والحضرمي والتنوخي والعثماني وغيرهم ورجع بعد الحج الى الاندلس فحدث وكان غاية في الصلاح والورع وأعمال البر وله حظ من علم العبارة ومشاركة في اللغة وكتب بخطه على ضعفه كثيرا رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نوح الاشبيلي ومولده سنة احدى وثلاثين وستمائة باشبيلية وجال في بلاد المغرب والمشرق وقرأ على الشيوخ الفضلاء وحصل كثيرا في علم القراآت والادب وله نظم ونثر وكان كثير التلاوة للقرآن جيد الاداء له وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩ رحمه الله تعالى * (ومنهم محمد بن أسباط المخزومي القرطبي روى عن يحيى بن يحيى وقدم مصر فسمع من الحرث بن مسكين وكان حافظا للفقه عالما توفي سنة ٢٧٩ *(ومنهم أبو بكر محمد بن اسحق الشهير بابن السليم قاضي الجماعة بقرطبة مولده سنة ٣٠٦ روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته ورحل سنة ٣٣٢ فسمع بمكة من ابن الاعرابي وبمصر من الزبير وابن النحاس وغيرهما وعاد الى الاندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم وحدث فسمع منه الناس وكان حافظا للفقه بصيرا بالاختلاف حسن الخط والبلاغة متواضعا وتوفي بجمادى الاولى سنة ٣٦٧ وسليم بفتح السين مكبرا * (ومنهم موسى بن بهيج المغربي الاندلسي الواعظ الفقيه العالم من أهل المرية نزل مصر يكنى أبا عمران كان من أهل العلم والادب وله في الزهد وغيره أشعار جمات عنه وحدث المرشاني عنه بخمسة في الحج وأعماله كلها واقيه بمصر وقرأها عليه ولابن بهيج هذا قوله

انما دنياك ساعه * فاجعل الساعة طاعه
واحذر التقصير فيها * واجتهد ما قدر ساعه
واذا أحببت عزا * فالتمس عز القناعه

* (ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة مولى سعيد بن نصر من أهل مرسية سمع صهره أبا علي بن سكرة الصدفي وكانت ابنته عند أبي علي ولازمه وأكثر عنه وروى عن أبي محمد ابن مفوز الشاطبي وأبي الحسن بن شفيع قرأ عليهما الموطأ ورحل وحج وسمع السنن من الطرطوشي وعني بالرواية وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه وسمعهما على صهره أبي علي وكانا أصلين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما حكى الفقيه أبو محمد عاشر بن محمد أنه سمعهما على أبي علي بنحو ستين مرة وكتب أيضا الغريبين للهروي وغير ذلك وكان أحد الافاضل الصلحاء والاجواد السمحاء يؤم بالناس في صلاة الفريضة ويتولى القيام بمؤن صهره أبي علي وبما يحتاج اليه من دقيق الاشياء وجليلها واليه أوصى عند توجهه الى غزوة كتندة التي فقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة وكانت له مشاركة في علم اللغة والادب وقد حدث عنه ابن أخيه القاضي أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة بكتاب أدب

قوله سنة ٣٣٢ في نسخة سنة ٣٣٠ اهـ

الكتاب لابن قتيبة وبالفصيح لثعلب *(ومنهم أبو محمد عبد الله بن طاهر الازدى) من أهل وادى آش له رحلة الى المشرق أدى فيها الفريضة وسمع بدمشق من أبى طاهر الخشوعى مقامات الحريرى وابن عساكر وغيرهما ثم قفل الى بلده انتهى ملخصا من ابن الابار
٢ *وحكى الصفدى أن ابن المستكفى اجتمع بالمتنبى بمصر وروى عنه شيأ من شعره ومما روى عنه انه قال انشدنى المتنبى لنفسه

لاعبت بالخاتم انسانة * كمثل بدر فى الدجى الفاحم
وكلما حاولت أخذى له * من البنان المترف الناعم
ألقته فى فيها فقلت انظروا * قد خبئ الخاتم فى الخاتم

*(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق) أبو عبد الله بن مالك صاحب التسهيل والالفية وهو جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الامام العلامة الاوحد الطائى الجيانى المالكى حين كان بالمغرب الشافعى حين انتقل الى المشرق النحوى نزيل دمشق ولد سنة ستمائة أو فى التى بعدها وسمع بدمشق من مكرم وأبى صادق الحسن بن صباح وأبى الحسن ابن السخاوى وغيرهم وأخذ العربية عن غير واحد فممن أخذ عنه بجيان أبو المظفر وقيل أبو الحسن ثابت بن خيار عرف بابن الطيلسان وأبى رزين بن ثابت بن محمد بن يوسف ابن خيار الكلاعى من أهل لبلة وأخذ القراآت عن أبى العباس أحمد بن نوار وقرأ كتاب سيبويه على أبى عبد الله بن مالك المرشانى وجالس يعيش وتلميذه ابن عمرون وغيره بحلب وتصدر بها لاقراء العربية وصرف همته الى اتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية وأربى على المتقدمين وكان اماما فى القراآت وعالما بها وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة فى قدر الشاطبية وأما اللغة فكان اليه المنتهى فيها قال الصفدى أخبرنى أبو الثناء محمود قال ذكر ابن مالك يوما ما انفرد به صاحب المحكم عن الازهرى فى اللغة قال الصفدى وهذا أمر معجز لانه يحتاج الى معرفة جميع ما فى الكتابين وأخبرنى عنه أنه كان اذا صلى فى العادلية لانه كان امام المدرسة يشيعه قاضى القضاة ابن خلكان الى بيته تعظيما له وقد روى عنه الالفية شهاب الدين محمود المذكور ورواها الصفدى خليل عن شهاب الدين محمود قراءة ورواها اجازة عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر وعن شهاب الدين بن غانم بالاجازة عنهما عنه وأما النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحرا لا يشق لجه وأما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها على النحو واللغة فكان أمرا عجيبا وكان الائمة الاعلام يتحيرون فى أمره وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية لانه كان أكثر ما يستشهد بالقرآن فان لم يكن فيه شاهد عدل الى الحديث وان لم يكن فيه شئ عدل الى أشعار العرب هذا مع ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة وكثرة النوافل وحسن السمت وكمال العقل وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية وتخرج به جماعة وكان نظم الشعر عليه سهلا رجزه وطويله وبسيطه وصنف كتاب تسهيل الفوائد قال الصفدى ومدحه سعد الدين محمد بن عربى بابيات مليحة الى الغاية وهى

ان الامام جمال الدين جلله * رب العلا ولنشر العلم أهله
أملى كتابا له يسمى الفوائد لم * يزل مفيدا لذي لب تأمله
وكل مسئلة في النحو يجمعها * ان الفوائد جمع لانظير له

قال وفي هذه الابيات مع حسن التورية فيها مالا يخلو من ايراد ذكرته في كتابي فص الخاتم انتهى قلت أجاب المجيسي عن ذلك بأن الابيات ليست في التسهيل وانما هي في كتاب له يسمى الفوائد وهو الذي لخصه في التسهيل فقوله في اسم التسهيل تسهيل الفوائد معناه تسهيل هذا الكتاب وذكر أيضا أنه مثل التسهيل في القدر على ماذكره من وقف عليه وقال واليه يشير سعد الدين محمد بن عربي بقوله ان الامام الى آخره وسعد الدين بن الشيخ محيي الدين صاحب الفصوص وغيرها ثم قال المجيسي وذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتابا آخر سماه بالمقاصد وضمنها تسهيله فسماه لذلك تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد فعلى هذا لا يصح قول الصفدي ان المدح المذكور في التسهيل الا بارتكاب ضرب من التأويل انتهى كلام المجيسي قلت وذكر غيره أن قوله في الالفية مقاصد النحو بها محوية اشارة لكتاب المقاصد وتعقب بقوله محوية فانه لو كان كما ذكر لقال محوي واجاب بعضهم بأنه من باب الاستخدام وفيه تعسف (رجع) ومن تصانيف ابن مالك الموصل في نظم المفصل وقد حل هذا النظم فسماه سبك المنظوم وفك المختوم ومن قال ان اسمه فك المنظوم وسبك المختوم فقد خالف النقل والعقل ومن كتب ابن مالك كتاب الكافية الشافية ثلاثة آلاف بيت وشرحها والخلاصة وهي مختصر الشافية واكمال الاعلام بمثلث الكلام وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم ولامية الافعال وشرحها وفعل وأفعل والمقدمة الاسدية وضعها باسم ولده الاسد وعدة اللافظ وعمدة الحافظ والنظم الاوجز فيما يهمز والاعتضاد في الظاء والضاد مجلد واعراب مشكل البخاري وتحفة المودود في المقصور والممدود وغير ذلك كشرح التسهيل وروى عنه ولده بدر الدين محمد ومحب الدين بن جعوان وشمس الدين بن أبي الفتح وابن العطار وزين الدين أبو بكر المزي والشيخ أبو الحسين اليونيني وأبو عبدالله الصيرفي وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وشهاب الدين محمود وشهاب الدين بن غانم وناصر الدين بن شافع وخلق كثير سواهم ومن نظمه في الحلبة

خيل السباق المجلي يقتفيه مصلي والمسلي وتال قبل مرتاح
وعاطف وحظي والمؤمل والـ لطيم والفسكل السكيت ياصاح

وله من هذه الضوابط شيء كثير وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب انه أخذ نحوه من صاحب المفصل وصاحب المفصل نحوه صغيران وناهيك بمن يقول هذا في حق الزمخشري وكان الشيخ ركن الدين بن القويع يقول ان ابن مالك ماخلى للنحو حرمة وحكي عنه أنه كان يوما في الحمام وقد اعتزل في مكان يستعمل فيه الموسى فهجم عليه فتى فقال ماتصنع فقال أكنس لك الموضع للقعود قال بعضهم وهذا مما يستبعد على دين ابن مالك والعهدة على ناقله قال الصفدي ولا يستبعد ذلك من لطف النحاة وطباع

أهل الاندلس وتوفى ابن مالك بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة وقال بعضهم من أحسن شعر بن مالك

اذا رمدت عينى تداويت منكم * بنظرة حسن أو بسمع كلام
فان لم أجد ماء تيممت باسمكم * وصليت فرضى والديار امامى
وأخلصت تكبيرى عن الغير معرضا * وقابلت أعلام السوى بسلام
ولم أر الا نور ذاتك لائحا * فهل تدع الشمس امتداد ظلام

وقدم رحمه الله تعالى القاهرة ثم رحل الى دمشق وبها مات كما علم * وقال الشرف الحصنى يرثيه

ياشتات الاسماء والافعال * بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط * منه فى الانفصال والاتصال
مصدرا كان للعلوم باذن الله من غير شبهة ومحال
عدم النحو والتعطف والتو * كيد مستبدلا من الابدال
ألم اعتراه أسكن منه * حركات كانت بغير اعتلال
يالها سكتة لهمز قضاء * أورثت طول مدة الانفصال
رفعوه فى نعشه فانتصبنا * نصب تمييز كيف سير الجبال
خفضوه عند الصلاة بدل * فأميلت أسراره للدلال
صرفوه يا عظم ما فعلوه * وهو عدل معرف بالجمال
أدغموه فى الترب من غير مثل * سالما من تغير الانتقال
وقفوا عند قبره ساعة الدفـ * ـن وقوفا ضرورة الامتثال
ومددنا الاكف نطلب قصرا * مسكا للتنزيل من ذى الجلال
آخر الآى من سبا الحظ منه * حظه جاء أول الانفال
يالبيان الاعراب ياجامع الاعـ * ـراب يامفهما لكل مقال
يافريد الزمان فى النظم والنثـ * ـر وفى نقل مسندات العوالى
كم علوم بثثتها فى أناس * علموا ما بثثت عند الزوال

انتهت ملخصة قال الصفدى ومارأيت مرثية فى نحوى أحسن منها على طولها انتهى ودفن ابن مالك بسفح قاسيون بتربة القاضى عز الدين بن الصائغ وقال العجيسى بتربة ابن جعوان ورثاه الشيخ بهاء الدين بن النحاس بقوله

قل لابن مالك ان جرت بك أدمعى * حمرا يحاكيها النجيع القانى
فلقد جرحت القلب حين نعيت لى * وتدفقت بدمائه أجفانى
لكن يهون ما أجن من الاسى * علمى بنقلته الى رضوان
فسقى ضريحا ضمه صوب الحيا * يهمى به بالروح والريحان

وابن النحاس المذكور أحد تلامذة ابن مالك وهو القائل يخاطب رضى الدين الشاطبى الاندلسى وقد كلفه أن يشترى له قطرا

أيها الاوحد الرضي الذي طا * ل علاء وطاب في الناس نشرا
أنت بحر لاغرو ان نحن وافيـ * ـنا الراجين من نداك القطرا

وابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس وهو بهاء الدين أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم بن محمد بن نصر الحلبي الاصل المعروف بابن النحاس وهو شيخ أبي حيان ولم يأخذ أبو حيان عن ابن مالك وان عاصره بنحو ثلاثين سنة * وقال بعض من عرّف بابن مالك انه تصدر بحلب مدة وأم بالسلطانية ثم تحول الى دمشق وتكاثر عليه الطلبة وحاز قصب السبق وصار يضرب به المثل في دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب مع الحفظ والذكاء والورع والديانة وحسن السمت والصيانة والتحري لما ينقله والتحرير فيه وكان ذا عقل راجح حسن الاخلاق مهذبا ذا رزانة وحياء ووقار وانتصاب للافادة وصبر على المطالعة الكثيرة تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجي وغيره وسارت بتصانيفه الركبان وخضع لها العلماء الاعيان وكان حريصا على العلم حتى انه حفظ يوم موته ثمانية شواهد * وقال بعض الحفاظ حين عرّف بابن مالك يقال ان عبد الله في نسبه مذكور مرتين متواليتين وبعض يقول مرة واحدة وهو الموجود بخطه أول شرحه لعمدته وهو الذي اعتمده الصفدي وابن خطيب داريا محمد بن أحمد بن سليمان الانصاري وعلى كل حال فهو مشهور بجدّه في المشرق والمغرب * وحكى بعضهم أن ولادته سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وعليه عوّل شيخ شيوخنا ابن غازي في قوله

قد خبع ابن مالك في خبعا * وهو ابن عه كذا وعى من قد وعى

وقيل كما تقدم ان مولده سنة ستمائة أو بعدها بجيان الحرير مدينة من مدن الاندلس جبرها الله كسرها وهي مفتوحة الجيم وياؤها مشددة تحتانية وتصدر ابن مالك بحماة مدة وانتقد بعضهم على ابن خلكان اسقاطه من تاريخه مع كونه كان يعظمه الى الغاية وقدم رحمه الله تعالى لصاحب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه انه أعلم الناس بالعربية والحديث ويكفيه شرفا أن من تلامذته الشيخ النووي والعلم الفارقي والشمس البعلي والزين المزي وغيرهم ممن لا يحصى * وكان رحمه الله تعالى كثير المطالعة سريع المراجعة لا يكتب شيأ من محفوظه حتى يراجعه في محله وهذه حالة المشايخ الثقات والعلماء الاثبات ولا يرى الا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرئ وكذا كان الشيخ أبو حيان ولكن كان جده في التصنيف والاقراء * وحكى أنه توجه يوما مع أصحابه للفرجة بدمشق فلما بلغوا الموضع الذي أرادوه غفلوا عنه سويعة فطلبوه فلم يجدوه ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبا على أوراق وأغرب من هذا في اعتنائه بالعلم ما مرّ أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حدّها بعضهم بثمانية وفي عبارة بعض أو نحوها لقنه ابنه اياها وهذا مما يصدق ما قيل بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى فجزاه الله خيرا عن هذه الهمة العلية * وذكر أبو حيان في الجوازم من تذييله وتكميله أنه لم يصحب من له البراعة في علم اللسان ولذا تضعف استنباطاته وتعقباته على أهل هذا الشان وينفر من المنازعة والمباحثة والمراجعة قال وهذا شأن من يقرأ بنفسه ويأخذ العلم من الصحف بفهمه ولقد طال فحصي وتنقيري عمن قرأ عليه واستند

فى العلم اليه فلم أجد من يذكرلى شيأ من ذلك ولقد جرى يوما مع صاحبنا تلميذه علم الدين سليمان بن أبى حرب الفارقى الحنفى فقال ذكرلنا أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلده جيان وأنه جلس فى حلقة الاستاذ أبى على الشلوبين نحوا من ثلاثة عشر يوما وثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة فى هذا الشان واغا جلالته وشهرته فى اقراء القرآن هذا حاصل ماذكره أبو حيان * قال بعض المحققين وهو العلامة يحيى العجيسى وليس ذلك منه بانصاف ولا يحمل على مثله الاهوى النفس وسرعة الانحراف فنفيه المسند عنه والمتبع شهادة نفى فلا تنفع ولا تسمع ويكفى ماسطر فى حقه قوله فى أثناء نظم فى هذا العلم كثيرا وتروجع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول السن من هذا العلم غرائب وحوت مصنفاته منها نوادر وعجائب وان منها كثيرا استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة اذ هى مرتبة الاكابر النقاد وأرباب النظر والاجتهاد وقوله فى موضع آخر من تذييله لا يكون تحت السماء أنحى ممن عرف مافى تسهيله وقرنه فى بحره بصنف سيبويه فما ينبغى له أن يغمصه ولا أن يحط عليه ولا أن يقع فيما وقع فيه فانه مما يجرئ على أمثاله الغبى والنبيه والحليم والسفيه وما هذا جزاء السلف من الخلف والدرر من الصدف والجيد من الحشف أو ما نظر الى شيخه أبى عبد الله ابن النحاس فانه لا يذكره الا بأحسن ذكر كما هو دأب خيار الناس ومن كلامه فى نقله عنه وهو الثقة فيما ينقل والفاضل حين يقول والى تلميذه أبى البقاء الحافظ المصرى حيث يقول فيه أعنى فى أبى حيان

هو الاوحد الفرد الذى تم علمه * وسار مسير الشمس فى الشرق والغربه

ومن غاية الاحسان مبدأ فضله * فلا غرو أن يسمو على العجم والعربه

ومن غاية الاحسان فى هذا الشان التصانيف التى سارت بها الركبان فى جميع الاوطان واعترف بحسنها الحاضر والبادى والدانى والقاصى والصديق والعدو فتلقاها بالقبول والاذعان فسامح الله تعالى اباحيان فان كلامه يحقق قول القائل كما تدين تدان ورحم الله تعالى ابن مالك فلقد أحيا من العلم رسوما دارسة وبين معالم طامسة وجمع من ذلك ما تفرق وحقق مالم يكن منه تبين ولا تحقق ورحم شيخه ثابت بن الخيار وهو ابو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعى بضم الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب فى الاحاطة وأصله من لبلة ويعد فى أهل جيان وتوفى بغرناطة سنة ٦٢٨ وكان أبو حيان يغض من هذا الكتاب ويقول ما فيه من الضوابط والقواعد حائد عن تبع الصواب والسداد وكثيرا ما يشير الى ذلك فى شرحه المسمى بنهج السالك ومن غضه منه بالنظم فى ملا من الناس من جملتهم شيخه بهاء الدين بن النحاس والاقسرانى يجاريه مقتفياله ومتأسيا فى تسويد القرطاس

الفية ابن مالك * مطموسة المسالك

وكم بها مشتغل * أوقع فى المهالك

ولا تغتر أنت بهذا الغرور فانه ما كل سحاب أبرق ممطر ولا كل عود أورق مثمر

وقال له

وقيل معارضة للقوم وتنبيها لهم عما فيه من النوم

ألفية ابن مالك * مشرقة المسالك
وكم بها مشتغل * علا على الارائك

وما أحسن قول ابن الوردي في هذا المعنى

يا عائبا ألفية ابن مالك * وغائبا عن حفظها وفهمها
أما تراها قد حوت فضائلا * كثيرة فلا تجر في ظلمها
وازجر لمن جادل من يحفظها * برابع وخامس من اسمها

يعني صه فانه عند الاستقلال بمعنى اسكت انتهى ملخصا وقال أيضا عند ذكر مصنفات ابن مالك وهي كما قيل غزيرة المسائل ولكنها على الناظر بعيدة الوسائل وهي مع ذلك كثيرة الافادة موسومة بالاجادة وليست هي لمن هو في هذا الفن في درجة ابتدائه بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه انتهى * واعلم ان الالفية مختصرة الكافية كما تقدم وكثير من أبياتها فيها بلفظها ومتبوعه فيها ابن معطي ونظمه أجمع وأوعب ونظم ابن معطي أسلس وأعذب وذكر الصفدي عن الذهبي أن ابن مالك صنف الالفية لولده تقي الدين محمد المدعو بالاسد واعترضه العلامة المجيسي بأن الذي صنفه له عن تحقيق المقدمة الاسدية قال وأما هذه يعني الالفية فذكر لي من أثق بقوله أنه صنفها برسم القاضي شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين بن ابراهيم بن عفيف الدين هبة الله بن مسلم بن هبة الله بن حسان الجهني الحموي الشافعي الشهير بابن البارزي ويقال ان هذه النسبة الى باب أبرز أحد أبواب بغداد ولكن خفف لكثرة دوره على الالسنة انتهى مختصرا وقال بعض من عرف بابن مالك هو مقيم أود وقاطع لدد ومن بن سماه موقت الاصائل ديباجتها وشعشعت البكر زجاجتها وجاءت أيامه صافية من الكدر ولياليه ومابها شائبة من الكبر قد خلقها العشي بردعه وخلفها الصباح بربعه فكان كل متعين حول مسجده وكل عين فاخرة بعسجده هذا وزمر الطلاب وطلبة الاجلاب لاتزال تزجي اليه القلاص وتكثر من سربه الاقتناص كان أوحد وقته في علم النحو واللغة مع كثرة الديانة والصلاح انتهى وقال بعض المغاربة

لقد مزقت قلبي سهام جفونها * كما مزق اللخمي مذهب مالك
وصال على الاوصال بالقد قدها * فأضحت كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت اذ ذاك الهوى لمرادها * كتقليد أعلام النحاة ابن مالك
وملكتها رقي لرقة لفظها * وان كنت لا أرضاه ملكا لمالك
وناديتها يا منيتي بذل مهجتي * ومالي قليل في بديع جمالك

ويعني بقوله بتقطيع مالك مالك بن المرحل السبتي رحمه الله تعالى ولما سئل ابن مالك عن قول النبي صلى الله عليه وسلم الحور بعد الكور هل هو بالراء أو بالنون أنكر النون فقيل له ان في الغريبين للهروي رواية بالنون فرجع عن قوله الاول وقال انما هو بالنون انتهى وقد ذكر في المشارق النون والراء فقال الحور بعد الكور بالراء رواه العذري وابن الحذاء

والباقين بالنون معناه النقصان بعد الزيادة وقيل من الشذوذ بعد الجماعة وقيل من الفساد بعد الصلاح وقيل من القلة بعد الكثرة كار عمامته اذا لفها على رأسه واجتمعت وحارها اذا نقضها فافترقت ويقال حار اذا رجع عن أمر كان عليه ووهم بعضهم رواية النون وقيل معناها رجع الى الفساد بعد النقص أى بعد أن كان على خير مما رجع اليه وقال عياض فى موضع آخر بعد الكور كذا للعذرى والكون للفارسى والسجزى وابن ماهان وقول عاصم فى تفسيره حار بعد ما كار وهى روايته ويقال ان عاصما وهم فيه انتهى والسائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خلكان لان ابن الاثير سأل ابن خلكان عنها فسأل هو ابن مالك رحم الله تعالى الجميع وقد عرف الحافظ الذهبى بابن مالك فى تاريخ الاسلام وذكر فيه ترجمة لولده بدر الدين محمد وأنه كان حاد الذهن ذكيا اماما فى النحو وعلم المعانى والمنطق جيد المشاركة فى الفقه والتدريس وأنه تصدر بعد والده للتدريس ومات شابا قبل الكهولة سنة ٦٨٦ ومن أجل تصانيفه شرحه على ألفية والده وهو كتاب فى غاية الاغلاق ويقال انه نظير الرضى فى شرح الكافية وللناس عليه حواش كثيرة رحمهم الله تعالى أجمعين * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القيسى التدمرى ويعرف بالشهيد كان عظيم القدر جدا بالاندلس بعيد الاثر فى الخير والصلاح والعلم والنسك والانقطاع الى الله تعالى وكان من وجوه أهل كورة تدمير ذوى البيوت الرفيعة وبرع بخصاله المحمودة فكان فى نفسه فقيها عالما زاهدا خيرا ناسكا متبتلا نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدعة وطلب العلم فى حداثة سنه ورحل الى قرطبة فروى الحديث وتفقه وناظر وأخذ بحظ وافر من علم المسئلة والجواب وكان أكثر علمه وعمله الورع والتشدد فيه والتحفظ بدينه ومكسبه ورسخ فى علم السنة ثم ارتحل الى المشرق فمر بمصر حاجا فأقام بالحرمين ثمانية أعوام يتعيش فيهما من عمل يده بالنسخ ثم سار الى العراق فلقى أبا بكر الابهرى وأخذ عنه وأكثر من لقاء الصالحين وأحسن العلم ولبس الصوف وقنع وتورع جدا وأعرض عن الشهوات وكان اذا سئم من النسخ الذى جعل قوته منه آجر نفسه فى الخدمة رياضة لها فأصبح عابدا متقشفا منيبا مخبتا عالما عاملا منقطع القرين قد جرت منه دعوات مجابة وحفظت له كرامات ظاهرة ثم عاد الى بلده تدمير سنة ست أو سبع وسبعين وثلثمائة وبها أبوه أبو الحسام طاهر حيا فنزل خارج مدينة مرسية تورعا عن سكناها وعن الصلاة فى جامعها فاتخذ له بيتا سقفه من حطب السدر يأوى اليه واعتمر جنينة بيده يقتات منها وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبى عامر ثم تحول من قريته بعد عامين الى الثغر وواصل الرباط ونزل مدينة طلبيرة وكان يدخل منها فى السرايا الى بلد العدو فيغزو ويتقوت من سهمانه ويعول على فرس له ارتبطه لذلك وكان له بأس وشدة وشجاعة وثقافة يحدث عنه فيها بحكايات عجيبة الى أن استشهد مقبلا غير مدبر سنة ٣٧٩ أوفى التى قبلها عن اثنين وأربعين سنة وأبوه حى رحم الله تعالى الجميع * (ومنهم أبو عبد الله القيجاطى محمد بن عبد الجليل بن عبد الله بن جهور مولده سنة ٥٩٠ بقيجاطة وكتب عنه الحافظ المنذرى ومن شعره قوله

اذا كنت تهوى من نأت عنك داره * فحسبك ما تلقى من الشوق والبعد

فياويح صب قد تضرم ناره * وواحر قلب ذاب من شدة الوجد

*(ومنهم أبو عبد الله ويقال أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي ولد سنة ٤٧٣ ودخل الاسكندرية سنة ٥٠٨ وسمع بها من أبي عبد الله الرازي وبمصر من أبي صادق مرشد بن يحيى المديني وأبي الحسن الفراء الموصلي وأبي عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوي وغيرهم وحدث بدمشق وسمع أيضا بها وببغداد وقدمها سنة ٥٥٦ ودخل خراسان وأقام بها مدة ثم رجع الى الشام وأقام بحلب سنين وسكن دمشق وكان يذكر أنه رأى عجائب في بلاد شتى ونسبه بعض الناس بسبب ذلك الى ما لا يليق وصنف في ذلك كتابا سماه تحفة الالباب وكان حافظا عالما أديبا وتكلم فيه الحافظ ابن عساكر ورماه بالكذب وقال ابن النجار ما علمته الا أمينا ومن شعره قوله

تكتب العلم وتلقى في سفط * ثم لا تحفظ لا تفلح قط

انما يفلح من يحفظه * بعد فهم وتوقى من غلط

وقوله العلم في القلب ليس العلم في الكتب * فلا تكن مغرما باللهو واللعب

فاحفظه وافهمه واعمل كي تفوز به * فالعلم لا يجتنى الا مع التعب

توفي بدمشق في صفر سنة ٥٦٥ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام القرطبي من ذرية أبي ثعلبة الخشني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحل قبل الاربعين ومائتين فحج وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبي موسى الزمن ونصير بن علي الجهضمي ولقي أبا حاتم السجستاني والعباس بن أبي الفرج الرياشي وسمع ببغداد من أبي عبيد القاسم بن سلام وبمكة من محمد بن يحيى العدني وبمصر من سلمة بن شبيب صاحب عبد الرزاق والبرقي وغيرهما وأدخل الاندلس علما كثيرا من الحديث واللغة والشعر وكان فصيحا جزل المنطق صارما أنوفا منقبضا عن السلطان أراده على القضاء فأبى وقال ابايه اشفاق لا ابايه عصيان فأعفاه وكان ثقة مأمونا توفي في رمضان سنة ٢٨٦ عن ثمان وستين سنة رحمه الله تعالى

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج القرطبي سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه وأخذ عن محمد الخشني وقاسم بن أصبغ وابراهيم بن قاسم بن هلال ورحل سنة ٢٧٤ فسمع بمصر المطلب بن شعيب والمقدام بن داود الرعيني وأدرك بالعراق اسمعيل القاضي وعبد الله بن أحمد بن حنبل قال الحميدي حدث بالمغرب وبالمشرق وصنف السنن وممن روى عنه خالد بن سعد وقال لنا أبو محمد بن حزم مصنف ابن أيمن مصنف رفيع احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٣٠ بقرطبة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي الرصافي القرطبي الحدادي سمع بقرطبة من عبد الله بن يونس وقاسم بن أصبغ وحج سنة ٣٣٩ سنة ردّ القرامطة الحجر الاسود الى مكانه وسمع بمكة من ابن الاعرابي وبمصر من ابن الورد وأبي علي بن السكن وعبد الكريم النسائي وغيرهم وسمع باطرابلس والقيروان من جماعة وكان رجلا صالحا عدلا حدث وكتب عنه الناس وعلت سنه وتوفي بشوال سنة ٣٩٤ وولد فيما أظن سنة ٣٠٢ وكانت وفاته بقرطبة وقد اضطرب في أشياء

قرئت عليه وممن أخذ عنه الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الخزرجي السعدي القرطبي روى عن أبي الحسن علي ابن هشام وروى عنه أبو القاسم بن بشكوال وقدم مصر وحدث بها وممن سمع منه بها ابن وردان وأبو الرضى القيسراني في آخرين واستوطن مصر وتوفي سنة ٥٨٨ *(ومنهم أبو بكر بن السراج النحوي بتشديد الراء وهو محمد بن سعيد الملك بن محمد بن السراج الشنتمري أحد أئمة العربية المبرزين فيها ويكفيه فخرا أنه استاذ أبي محمد عبد الله بن بري المصري اللغوي النحوي وحدث عن أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد النفطي وقرأ العربية بالاندلس على ابن أبي العافية وابن الاخضر وقدم مصر سنة ٥١٥ وأقام بها وأقرأ الناس العربية ثم انتقل الى اليمن وروى عنه أبو حفص عمر بن اسمعيل وأبو الحسن علي والد الرشيد العطار وله تواليف منها كتاب تنبيه الالباب في فضل الاعراب وكتاب في العروض وكتاب مختصر العمدة لابن رشيق وتنبيه اغلاطه قال السلفي كان من أهل الفضل الوافر والصلاح الظاهر وكانت له حلقة في جامع مصر لاقراء النحو وكثيرا ما كان يحضر عندي رحمه الله تعالى مدة مقامي بالفسطاط توفي بمصر سنة ٥٤٩ وقيل سنة خمس وأربعين وقيل خمسين وخمسمائة برمضان والاول أثبت *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن سعيد العنسي ويكنى أيضا أبا القاسم الغرناطي سمع من الحافظ بمصر والاسكندرية ودمشق وبغداد ومنهم الحراني أبو عبد الله وأبو محمد عبد الصمد بن داود بدمشق وكتب الحديث وعني بالرواية أتم عناية وفقد باصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين وستمائة *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الدقاع بالدال وقيل بالراء قرطبي سمع عبد الملك بن حبيب ورحل فسمع بمصر من الحرث بن مسكين وغيره وكان زاهدا فاضلا وتوفي سنة ٢٨١ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ابن عابد المعافري القرطبي ولد بقرطبة سنة ٣٥٨ ودخل مصر فسمع من أبي بكر بن المهندس وأبي بكر البصري وروى عن أبي عبد الله بن مفرج وأبي محمد الاصيلي وجماعة ولقي الشيخ أبا محمد بن ابي زيد في رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته في الفقه وغيرها وحج من عامه ثم عاد من مصر الى المغرب سنة ٣٨٢ وكان معتنيا بالاخبار والآثار ثقة فيما رواه وعني به خيرا فاضلا دينا متواضعا متصاونا مقبلا على ما يعنيه صاحب حظ من الفقه وبصيرا بالمسائل ودعي الى الشورى بقرطبة فأبى ومات سنة ٤٣٩ وعابد جده بالباء الموحدة رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان ابن عثمان بن هابر الانصاري البلنسي أخذ القراآت عن جماعة من أهل بلده وخرج حاجا سنة ٥٥٦ فجاور بمكة وسمع بها وبالاسكندرية من السلفي وعاد الى بلده سنة ٥٧١ وحدث وكان من أهل الصلاح والفضل والورع كثير البر ومفاداة الاسرى ويحترف بالتجارة ومولده بعد سنة ٥٣٠ ومات سنة ٥٩٨ بمرسية رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة القرطبي المالكي الحافظ ولد سنة ٤٧٩ وأخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد بن رشد والحديث عن ابن عتاب وروى

الموطأ عن أبي بحر سفيان بن العاص بن سفيان وأخذ الادب عن أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الاموي وعن مالك بن عبد الله العتبي وخرج من قرطبة في الفتنة بعد مادرّس بها وانتفع الناس به في فروع الفقه وأصوله وأقام بالاسكندرية خوفا من بني عبد المؤمن بن علي ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت الى الاسكندرية ثم سافر الى مصر بعد ماروى عنه السلفي وأقام بها مدة ثم قال والله مامصر والاسكندرية بمتباعدين ثم سافر الى الصعيد وحدث في قوص بالموطأ ثم قال والله مايصلون الى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد فمضى الى مكة وأقام بها ثم قال وتصل الى هذه البلاد ولا تحج ما أنا الا هارب منه اليه ثم دخل اليمن فلما رآها قال هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه الى الهند فأدركته وفاته بها سنة ٥٥١ وقيل بل مات بزبيد من مدن اليمن وكان من جلة العلماء الحفاظ متفننا في المعارف كلها جامعا لها كثير الرواية واسع المعرفة حافل الادب من كبار فقهاء المالكية يتصرف في علوم شتى حافظا للآداب عارفا بشعراء الاندلس وكان علمه أوفر من منطقه ولم يرزق فصاحة ولا حسن ايراد قال ابن نقطة خيرة بكسر الخاء المعجمة وفتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي قال ابن النجار ولد بمرسية سنة ٥٧٠ وقال غيره في التي قبلها وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧ ودخل مصر وسار الى الحجاز ودخل مع قافلة الحجاج الى بغداد وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والاصلين بالنظامية ثم سافر الى خراسان وسمع بنيسابور وهراة ومرو وعاد الى بلاد بغداد وحدث بكتاب السنن الكبرى للبيهقي عن منصور بن عبد المنعم الفراوي وبكتاب غريب الحديث للخطابي وقدم الى مصر فحدث بالكثير عن جماعة منهم أم المؤيد زينب وأبو الحسن المؤيد الطوسي وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الزعقة والعريش من منازل الرمل في ربيع الاول سنة ٦٥٥ ودفن بتل الزعقة وكان من الائمة الفضلاء في جميع فنون العلم من علوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والاصلين والنحو واللغة وله فهم ثاقب وتدقيق في المعاني مع النظم والنثر المليح وكان زاهدا متورعا حسن الطريقة متدينا كثير العبادة فقيها مجردا متعففا نزه النفس قليل المخالطة لا وقاته طيب الاخلاق متوددا كريم النفس قال ابن النجار ما رأيت في فنه مثله وكان شافعي المذهب وله كتاب تفسير القرآن سماه ري الظمآن كبير جدا وكتاب الضوابط الكلية في النحو وتعليق على الموطأ وكان مكثرا شيوخا وسماعا وحدث بالكثير بمصر والشام والعراق والحجاز وكانت له كتب في البلاد التي يتنقل اليها بحيث لا يستصحب كتبا في سفره اكتفاء بماله من الكتب في البلد الذي يسافر اليه وكان كريما قال أبو حيان أخبرني الشرف الجزائري بتونس انه كان على رحله وكان ضعيفا فقال له خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط فرفعت ذلك فوجدت تحته أكثر من أربعين دينارا ذهبا فأخذتها قال الجمال اليعمري أنشدني لنفسه بالقاهرة

قالوا فلان قد أزال بهاءه * ذاك العذار وكان بدر تمام
فأجبتهم بل زاد نور بهائه * ولذا تضاعف فيه فرط غرامي

استقصرت ألحاظه فتكاتها * فأتى العذار يمدها بسهام

ومن شعره قوله

من كان يرغب في النجاة فماله * غير اتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره * سبل الغواية والضلالة والردى
فاتبع كتاب الله والسنن التي * صحت فذاك اذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بكم وكيف فانه * باب يجر ذوي البصيرة للعمى
الدين ما قال النبي وصحبه * والتابعون ومن مناهجهم قفا

*(ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله البنتي الاندلسي الانصاري قدم مصر وأقام بالقرافة مدة وكان شيخا صالحا زاهدا فاضلا وتوجه الى الشام فهلك قال الرشيد العطار كان من فضلاء الاندلسيين ونبهائهم ساح في الارض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة وكان يتكلم بألسنة شتى ومن شعره قوله

اذا قل منك السعي فالعزم ناشد * وكل مكان في مرامك واحد
توجه بصدق واتق المين واقتصد * تجئك رهينات النجاح المقاصد

والبنتي بضم الباء وسكون النون نسبة الى بنت حصن بالاندلس ويقال بونت بزيادة واو *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخولاني الباجي ثم الاشبيلي المعروف بابن القوق سمع بقرطبة من جماعة ورحل الى المشرق سنة ٢٦٦ فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره وبمصر من محمد بن عبد الحكم ومن أخيه سعد وكان فقيها في الرأي حافظا له عاقدا للشروط قال ابن الفرضي كان رجلا صالحا ورعا ثقة وكان خالد بن سعيد قد رحل اليه وسمع منه وكان يقول اذا حدث عنه كان من معادن الصدق توفي سنة ٣٠٨ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللوشي الطبيب اشتغل بالطب وبرع فيه وأقام بمصر مدة وبها مات في عشر الستين وستمائة *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبدون العذري القرطبي رحل سنة ٣٣٧ فدخل مصر والبصرة وعني بعلم الطب ودبر مارستان مصر ثم رجع الى الاندلس سنة ٣٦٠ واتصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد وله في التكسير كتاب حسن قال صاعد مهر في الطب ونبل فيه وأحكم كثيرا من أصوله وعانى صنعة المنطق معاناة صحيحة وكان شيخه فيه أبو سليمان محمد بن محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني البغدادي وكان قبل أن يتطبب مؤدبا بالحساب والهندسة وأخبرني أبو عثمان سعيد الطليطلي أنه لم يلق في قرطبة من يلحق محمد بن عبدون في صناعة الطب ولا يجاريه في ضبطها وحسن دربته فيها واحكامه لغوامضها رحمه الله تعالى *(ومن الراحلين الى المشرق من أهل الاندلس)* أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الايادي الاندلسي صاحب البيت الشهير بالاندلس رحل المذكور الى المشرق وتطبب به زمانا وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم القيروان ثم استوطن مدينة دانية وطار ذكره فيها الى أقطار الاندلس والمغرب واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى فاق أهل زمانه ومات في مدينة دانية رحمه الله تعالى ووالده محمد بن مروان كان عالما بالرأي حافظا للادب فقيها حاذقا بالفتوى متقدما فيها متقنا

قوله ٢٦٦ وقوله بعد ٣٠٨ في نسخة ٢٦٣ و ٤٠٨ اه

للعلوم فاضلا جامعا للدراية والرواية وتوفى بطلبيرة سنة ٤٢٢ وهو ابن ست وثمانين سنة حدث عنه جماعة من علماء الاندلس ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل وجه الله تعالى وأما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دحية فيه انه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه وتوفى ممتحنا من نغلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة انتهى وكانت بينه وبين الفتح صاحب القلائد عداوة ولذلك كتب فى شأنه الى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ما صورته أطال الله تعالى بقاء الامير الاجل سامعا للنداء دافعا للتطاول والاعتداء لم ينظم الله تعالى بلبتك الملك عقدا وجعل لك حلا للامور وعقدا وأوطأك عقبا وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا الا أن تكون للبرية حائطا والعدل فيهم باسطا حتى لا يكون فيهم من يضام ولا ينال أحدهم اهتضام ولتقصر يد كل معتد فى الظلام وهذا ابن زهر الذى أجرته رسنا وأوضحت له الى الاستطالة سننا لم يتعد من الاضرار الاحيث انتهيته ولا تمادى على غيه الا حين لم تنهه أو نهيته ولما علم أنك لا تنكر عليه نكرا ولا تغير له متى ما مكر فى عباد الله مكرا جرى فى ميدان الاذية ملء عنانه وسرى الى ما شاء بعدوانه ولم يراقب الذى خلقه وأمد فى الخطوة عندك طلقه وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى لانه مكنك لئلا تمكن الجور والتسكن بك الفلاة والغور فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق وأخفق به كل فريق وقد علمت أن خالقك الباطش الغيور يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وما تخفى عليه نجوالك ومثوالك وستقف بين يدى عدل حاكم يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم قد علم كل قضية قضاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فيم تحتج معى لديه اذا وقفت أنا وأنت بين يديه أترى ابن زهر ينجيك فى ذلك المقام أو يحميك من الانتقام وقد أوضحت لك المحجة لتقوم عليك الحجة والله سبحانه النصير وهو بكل خلق بصير لا رب غيره والسلام انتهى * وقد تذكرت هنا بذكر الفتح ما كتبه وقد مات بعض اخوانه غريقا

أتانى ورحلى بالعراق عشية * ورحل المطايا قد قطعن بنا نجدا
نعى أطار القلب عن مستقره * وكنت على قصد فأغلطنى القصدا

نعوا والله باسق الاخلاق لا يخلف ورموا قلبى بسهم أصاب صميمه فما أخلف لقد سام الردى منه حسنا وجمالا ووسامة وطوى بطيه نجده وتهامة فعطل منه الندى والندى وأثكل فيه الهدى والهدى كم فل السيوف طول قراعه ودل عليه الضيوف موقد ناره ويفاعه وكم تشوق اليه السرير والمنبر وتصرف فيه الثناء والخبر وكم راع البدر ليلة ابداره وروع العدو فى قعر داره وأى فتى غداه البحر ضريحا وأعدى عليه الحين ماء وريحا فبدل من ظلل علي ومفاخر بقعر بحر طامى اللجج زاخر وبدل من صهوات الخيل بلهوات اللجج والليل غريق حكى مقلتى فى دمعها وأساء نفسى فى سمعها وبى حزن لا أستسقى له الغمام فاله قبر تجوده ولا أرى تروى به تماثمه ونجوده وقد آليت أن لا أودع الريح تحية ولا يزورنى هبوبها أريحية فهى التى أثارت من الموج حنقا ومشت عليه

خبباً وعنقا حتى أعادته كالكثبان وأودعته قضيب بان فيا أسفا الزلال غاض فى أجاج ولسلسال فاض عليه بحر عجاج وما كان الاجوهر اداب الى عنصره وصدف ابان عن عين مبصره لقد آن للحسام أن يغمد فلا يشام وللحمام أن تبكيه بكل اراكة وبشام وللعذارى أن لا يحجبهن الخفر والاحتشام يحن فتى ماذرت الشمس الاضر أونفع ويبكين من لم يدع فقده فى العيش من منتفع فكم نعمنا بدنوه ونسمنا نسيم الانس فى رواحه وغدوه وأقمنا بروضة موشية ووقفنا بالمسرات عشية وأدرناها ذهبا سائلة وتطرناها وهى شائلة لم نرم السهر ولم نشم برقا الا الكاس والزهر ولو غير الحمام زحف اليه جيشه أو غير البحر رجف به ارتجاجه وطيشه لفداه من أسرته كل أروع ان عاجله المكروه تبطه أو جاءه الشر تأبطه ولكنها المنايا لا تردها الصوارم والاسل ولا تفوتها ذئاب الفضاء العسل قد فرقت بين مالك وعقيل وأشرقت بعدهما جذيمة بالحسام الصقيل انتهى وقد عرفنا بالفتح فى غير هذا الموضع فليراجع *(رجع الى بيت بنى زهر رحمهم الله تعالى وأما أبو بكر محمد بن أبى مروان عبد الملك بن أبى العلاء زهر المذكور فهو عين ذلك البيت وان كانوا كلهم أعيانا علماء رؤساء حكماء وزراء وقد نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامرهم قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية فى المطرب من أشعار أهل المغرب كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زهر بمكان من اللغة مكين ومورد من الطب عذب معين وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع الاشراف على جميع أقوال أهل الطب والمنزلة العلياء عند أصحاب المغرب مع سمو النسب وكثرة الاموال والنشب صحبته زمانا طويلا واستفدت منه أدبا جليلا وأنشد من شعره المشهور قوله

وموسدين على الاكف خدودهم * قد غالهم نوم الصباح وغالنى
مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم * حتى سكرت ونالهم ما نالنى
والخمر تعلم كيف تأخذ ثارها * انى أملت اناءها فأمالنى

ثم قال ابن دحية وسألته عن مولده فقال ولدت سنة سبع وخمسمائة قال وبلغتنى وفاته آخر سنة ٥٩٥ رحمه الله تعالى انتهى وزعم ابن خلكان ان ابن زهر الم فى الابيات المذكورة بقول الرئيس أبى غالب عبيد الله بن هبة الله

عاقرتهم مشمولة لو سالمت * شرابها ما سميت بعقار
ذكرت حقائدها القديمة اذ غدت * صرعى تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا وتمكنت * منهم وصاحت فيهم بالثار

ومن المنسوب الى أبى بكر بن زهر قوله فى كتاب جالينوس المسمى بحيلة البرء وهو من أجل كتبهم وأكبرها

حيلة البرء صنعة لعليل * يترجى الحياة أولعليله
فاذا جاءت المنية قالت * حيلة البرء ليس فى البرء حيله

ومن شعره رحمه الله تعالى يتشوق ولدا له صغيرا باشبيلية وهو بمراكش

ولى واحد مثل فرخ القطاة * صغير تخلف قلبى لديه

وأفردت عنه فيا وحشتا * لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوّقني وتشوّقته * فيبكي عليّ وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا * فمنه اليّ ومنّي اليه

وأخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الاندلسي الاصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسني صاحب المغرب رضي الله تعالى عنه ان ابن زهر لما قال هذه الابيات وسمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والاندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين الى اشبيلية وأمرهم أن يحتاطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا امثالها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة وفرشها بمثل فرشه وجعل فيها مثل آلاته ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيته وحارته فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام فقيل له ادخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فاذا ولده الذي تشوّق اليه يلعب في البيت فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه هكذا هكذا والافلا لا ومن نظم ابن زهر المذكور وحيث شاخ وغلب عليه الشيب

اني نظرت الى المرآة قد جليت * فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شويخا لست أعرفه * وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالامس كان هنا * متى ترحل عن هذا المكان متى
فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة * ان الذي أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادي يا أخيّ وقد * صارت سليمى تنادي اليوم يا أبتا

والبيت الاخير ينظر الى قول الاخطل

واذا دعونك عمهنّ فانه * نسب يزيدك عندهنّ خبالا
واذا دعونك يا أخيّ فانه * أدنى وأقرب خلة ووصالا

وقال ابن دحية في حقه أيضا والذي انفرد به شيخنا وانقاد لطباعه وصارت النبهاء فيه من خوله وأتباعه الموشحات وهي زبدة الشعر ونسبته وخلاصة جوهره وصفوته وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق انتهى ومن مشهور موشحات ابن زهر قوله ما للموله من سكره لا يفيق وهذا مطلع موشح يستعمله أهل المغرب الى الآن ويرون أنه من أحسن الموشحات ومن موشحاته قوله

سلم الامر للقضا * فهو للنفس أنفع
واغتنم حين أقبلا * وجهه بدرتم لا * لا تقل بالهموم لا
كل ما فات وانقضى * ليس بالحزن يرجع
واصطبح بابنة الكروم * من يدي شادن رخيم * حين يفتر عن نظيم
فيه برق قد أومضا * ورحيق مشعشع
أنا أفديه من رشا * أهيف القد والحشا * سقي الحسن فانتشى

صدّونى وأعرضا * ففؤادى يقطع
من لصب غدا مشوق * ظلّ فى دمعه غريق * حين أمّوحمى العقيق
واستقلوا بذى الفضا * أسفى يوم ودعوا
ماترى حين أطلعنا * وسرى الركب موهنا * واكتسى الليل بالسنا
نورهم ذا الذى أضا * أم مع الركب يوشع
ورأيت مع هذا موشحا آخر لا أدرى هل هو لابن زهر أم لا وهو
فتق المسك بكافور الصباح * ووشت بالروض أعراف الرياح
فاسقنيها قبل نور الفلق * وغناء الورق بين الورق * كاحمرار الشمس عند الشفق
نسج المزج عليها حين لاح * فلك اللهو وشمس الاصطباح
وغزال سامنى بالملق * وبراجسمى وأذكى حرقى * أهيف مذ سلّ سيف الحدق
قصرت عنه أنابيب الرماح * وثنى الذعر مشاهير الصفاح
صار بالذل فؤادى كلفا * وجفون ساحرات وطفا * كلما قلت جوى الحب انطفا
أمرض القلب بأجفان صحاح * وسبى العقل بجد ومزاح
يوسفىّ الحسن عذب المبتسم * قمرىّ الوجه ليلىّ اللمم * عنترىّ البأس علوىّ الهمم
غصنىّ القد مهضوم الوشاح * مادرىّ الوصل صابىّ السماح
قد بالقد فؤادى هيفا * وسبا عقلى لما انعطفا * ليته بالوصل أحيا دنفا
مستطار العقل مقصوص الجناح * ماعليه فى هواه من جناح
ياعلىّ أنت نور المقل * جد بوصل منك لى ياأملى * كم أغنيك اذا ما حت لى
طرقت والليل ممدود الجناح * مرحبا بالشمس من غير صباح
*(ومنهم أبو الحجاج الساحلى) يوسف بن ابراهيم بن محمد بن قاسم بن على الفهرى الغرناطى قال فى الاحاطة صدر من صدور حملة القرآن على وتيرة الفضلاء والصالحين حج ولقى الاشياخ بعد أن قرأ على الاستاذ أبى جعفر بن الزبير وطبقته ومن نظمه يخاطب الوزير ابن الحكيم وقد أصابته حمى تركت على شفته بثورا
حاشاك أن تمرض حاشاكا * قد اشتكى قلبى لشكواكا
ان كنت محموما ضعيف القوى * فاننى أحمد حماكا
مارضيت حماك اذ باشرت * جسمك حتى قبلت فاكا
قال أبو الحجاج رحمه الله تعالى وكتب الى شيخنا محمد بن محمد بن رشيق فى الاستدعاء الذى أجازنى فيه ولمن ذكر معى
أجزت لهم أبقاهم الله كل ما * رويت عن الاشياخ فى سالف الدهر
وماسمعت أذناى من كل عالم * وماجاد من نظم وماراق من نثر
على شرط أصحاب الحديث وضبطهم * برىء عن التصحيف عار عن النكر
كتبت لهم خطى واسمى محمد * أبو القاسم المكنىّ مافيه من نكر
وجدى رشيق شاع فى الغرب ذكره * وفى الشرق أيضا فادر ان كنت لا تدرى

ولى مولد من بعد عشرين حجة * ثمان على الست المئين ابتداعمرى
وبالله توفيقى عليه توكلى * له الحمد فى الحالين فى العسر واليسر

ومولد أبى الحجاج المذكور سنة ٦٦٢ وتوفى سنة ٧٠٢ رحمه الله تعالى انتهى باختصار *(وممن ارتحل من الاندلس الى المشرق)* شاعر الاندلس يحيى بن حكم البكرى الجيانى الملقب بالغزال لجماله وهو فى المائة الثالثة من بنى بكر بن وائل قال ابن حيان فى المقتبس كان الغزال حكيم الاندلس وشاعرها وعرّافها عمر أربعا وتسعين سنة ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالاندلس أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ومن شعره

أدركت بالمصر ملوكا أربعه * وخامسا هذا الذى نحن معه

وله على أسلوب ابن أبى حكيمة راشد بن اسحق الكاتب

خرجت اليك وثوبها مقلوب * ولقلبها طربا اليك وجيب
وكأنها فى الدار حين تعرضت * ظبى تعلل بالفلاة رعوب
وتبسمت فأتتك حين تبسمت * بجمان درّ لم يشنه ثقوب
ودعتك داعية الصبا فتطرّبت * نفس الى داعى الضلال طروب
حسبتك فى حال الغرام كعهدها * فى الدار اذ غصن الشباب رطيب
وعرفت مافى نفسها فضممتها * فتساقطت بهنانة رعبوب
وقبضت ذاك الشئ قبضة شاهن * فنزا الى لعضه حلبوب
بيدى الشمال ولا شمال لطاقة * ليست لاخرى والاديب أريب
فأصاب كفى منه حين لمسته * بلل كماء الورد حين يسيب
وتعالت نفسى للذة رشحه * حتى خشيت على الفؤاد يذوب
فتقاعس الملعون عنه وربما * ناديته خيرا فليس يجيب
وأبى فخفق فى الاباء كانه * جان يقاد الى الردى مكروب
وتغضنت جنباته فكأنه * كير تقادم عهده مثقوب
حتى اذا ما الصبح لاح عموده * قبسا وحان من الظلام ذهوب
سالتها حملا أمالك حاجة * عندى فقالت ساخر وحروب
قالت حرامك اذ أردت وداعها * قرن وفيه عوارض وشعوب

وذكرها ابن دحية بجملة لما سردناه قال عتبة التاجر وجهنى الامير الحكم وابنه عبد الرحمن الى المشرق وعبد الله بن طاهر أمير مصر من قبل المأمون فلقيته بالعراق فسألنى عن هذه القصيدة هل أحفظها للغزال قلت نعم فاستنشدنيها فأنشدته اياها فسرّ بها وكتبها قال عتبة ونلت بها حظا عنده والبهنانة المرأة الطيبة النفس والارج كما فى الصحاح وقيل اللينة فى منطقها وعملها وقيل الضحاكة المتهللة والرعوب السبطة البيضاء والسبطة الطويلة وقال سامحه الله تعالى

سالت فى النوم أبى آدما * فقلت والقلب به وامق

انيسك بالله أبو حازم * صلى عليك الملك الخالق
فقال لى ان كان منى ومن * نسلى خفوا أمكم طالق

وقال رضى الله تعالى عنه

أرى أهل اليسار اذا توفوا * بنوا تلك المقابر بالصخور
أبوا الامباهاة وفخرا * على الفقراء حتى فى القبور
فان يكن التفاضل فى ذراها * فان العدل فيها فى القعور
رضيت بمن تانق فى بناء * فبالغ فيه تصريف الدهور
الما يبصروا ما خربته الدهور من المدائن والقصور
لعمر أبيهم لو أبصروهم * لما عرف الغنى من الفقير
ولا عرفوا العبيد من الموالى * ولا عرفوا الاناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف * من البدن المباشر للحرير
اذا أكل الثرى هذا وهذا * فما فضل الكبير على الحقير

وقال رضى الله تعالى عنه

لا ومن أعمل المطايا اليه * كل من يرتجى اليه نصيبا
ما أرى ههنا من الناس الا * ثعلبا يطلب الدجاج وذيبا
أو شبيها بالقط ألقى بعينيه الى فأرة يريد الوثوبا

وقال رضى الله تعالى عنه

قالت أحبك قلت كاذبة * غرّى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله * الشيخ ليس يحبه أحد
سيان قولك ذا وقولك ان الريح نعقدها فتنعقد
أو أن تقولى النار باردة * أو أن تقولى الماء يتقد

وحكى أبو الخطاب بن دحية فى كتاب المطرب ان الغزال أرسل الى بلاد المجوس وقد قارب الخمسين وقد وخطه الشيب ولكنه كان مجتمع الاشد فسألته زوجة الملك يوما عن سنه فقال مداعبا لها عشرون سنة فقالت وما هذا الشيب فقال وما تنكرين من هذا ألم ترى قط مهرا ينتج وهو أشهب فأعجبت بقوله فقال فى ذلك واسم الملكة نود

كلفت يا قلبى هوى متعبا * غالبت منه الضيغم الاغلبا
انى تعلقت مجوسية * تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله فى حيث لا * يلفى اليه ذاهب مذهبا
يا نود يا ورد الشباب الذى * تطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبى الشخص الذى لا أرى * أحلى على قلبى ولا أعذبا
ان قلت يوما ان عينى رأت * مشبهه لم أعد أن أكذبا
قالت أرى فوديه قد نورا * دعابة توجب ان أدعبا
قلت لها ما باله انه * قد ينتج المهر كذا أشهبا

فاستضحكت

فاستضحكت عجبا بقولي لها * وانما قلت لكي تعجبا

قال ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت وأمرته بالخضاب فغدا عليها وقد اختضب وقال

بكرت تحسن لي سواد خضابي * فكأن ذاك أعادني لشبابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف * الا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا * فيصير ما سترت به لذهاب
لا تنكري وضح المشيب فانما * هو زهرة الافهام والالباب
فلدي ما تهوين من زهو الصبا * وطلاوة الاخلاق والآداب انتهى

*(وحكى ابن حيان في المقتبس ان الامير عبد الرحمن بن الحكم المرواني وجه شاعره الغزال الى ملك الروم فأعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه أن ينادمه فامتنع من ذلك واعتذر بتحريم الخمر وكان يوما جالسا عنده واذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه فأنكر ذلك عليه وأمر الترجمان بسؤاله فقال له عرفه أني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه فاني لم أر قط مثلها وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته الى الحور العين فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده وسرت الملكة بقوله وأمرت الترجمان ان يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين الى الختان وتجشم المكروه فيه وتغيير خلق الله مع خلوه من الفائدة فقال للترجمان عرفها أن فيه أكبر فائدة وذلك أن الغصن اذا زبر قوي واشتد وغلظ وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقا ضعيفا فضحكت وفطنت لتعريضه انتهى ومن شعر الغزال قوله

يا راجيا ود الغواني ضلة * وفؤاده كلف بهن موكل
ان النساء لكالسروج حقيقة * فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فاذا نزلت فان غيرك نازل * ذاك المكان وفاعل ما تفعل
أو منزل المجتاز أصبح غاديا * عنه وينزل بعده من ينزل
أو كالثمار مباحة أغصانها * تدنو لاول من يمر فيأكل
أعط الشبيبة لا أبالك حقها * منها فان نعيمها متحول
واذا سلبت ثيابها لم تنتفع * عند النساء بكل ما تستبدل

وقال

قال لي يحيى وصرنا * بين موج كالجبال
وتولتنا رياح * من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتت * عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو * ت الينا عن حيال
فرأينا الموت رأى الـ * ـعين حالا بعد حال
لم يكن للقوم فينا * يا رفيقي رأس مال

ومنها

وسلمى ذات زهد * فى زهيد فى وصال
كلما قلت صليني * حاسبتني بالخيال
والكرى قد منعته * مقلتى أخرى الليالى
وهى أدرى فلماذا * دافعتني بمحال
أترى أنا اقتضينا * بعد شيأ من نوال

وله

من ظن أن الدهر ليس يصيبه * بالحادثات فانه مغرور
فالق الزمان مهونا لخطوبه * وانجرّ حيث يجرّك المقدور
واذا تقلبت الامور ولم تدم * فسواء المحزون والمسرور

وعاش الغزال أربعا وتسعين سنة وتوفى فى حدود الخمسين والمائتين سامحه الله تعالى وكان الغزال أقزع فى هجاء على بن نافع المعروف بابن زرياب فذكر ذلك لعبد الرحمن فأمر بنفيه فدخل العراق وذلك بعد موت ابى نواس بمدة يسيرة فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر أحد بشعره فجلس يوما مع جماعة منهم فازروا بأهل الاندلس واستهجنوا أشعارهم فتركهم حتى وقعوا فى ذكر أبى نواس فقال لهم من يحفظ منكم قوله

ولما رأيت الشرب أكدت سماؤهم * تابطت زقى واحتسبت عنائى
فلما أتيت الحان ناديت ربه * فثاب خفيف الروح نحو ندائى
قليل هجوع العين الا تعلة * على وجل منى ومن نظرائى
فقلت أذقنيها فلما أذاقها * طرحت عليه ريطتى وردائى
وقلت أعرنى بذلة أستتر بها * بذلت له فيها طلاق نسائى
فوالله ما برّت يمينى ولا وفت * له غير أنى ضامن بوفائى
فأبت الى صحبى ولم أك آيبا * فكل يفدينى وحق فدائى

فأعجبوا بالشعر وذهبوا فى مدحهم له فلما أفرطوا قال لهم خفضوا عليكم فانه لى فأنكروا ذلك فأنشدهم قصيدته التى أوّلها

تداركت فى شرب النبيذ خطائى * وفارقت فيه شيمتى وحيائى

فلما أتم القصيدة بالانشاد خجلوا وافترقوا عنه * (وحكى ان يحيى الغزال أراد أن يعارض سورة قل هو الله أحد فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالة لم يعرفها فأناب الى الله فعاد الى حاله * وحكى ان عباس بن ناصح الثقفى قاضى الجزيرة الخضراء كان يفد على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها ومرّت عليهم قصيدته التى أولها

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم * اذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم

حتى انتهى القارئ الى قوله

تجاف عن الدنيا فما لمعجز * ولا عاجز الا الذى خط بالقلم

فقال له الغزال وكان فى الخلقة وهو اذ ذاك حدث نظام متأدب ذكى القريحة أيها

الشيخ وما الذى يصنع مفعول مع فاعل فقال له كيف تقول فقال كنت أقول فليس لعاجز ولا حازم فقال له عباس واقه يا بنى لقد طلبها غيرك فما وجدها وأنشد يوما قوله من قصيدة

بقرت بطون الشعر فاستفرغ الحشى * بكفى حتى آب خاويه من بقرى

فقال له بكر بن عيسى الشاعر أما والله يا أبا العلى لئن كنت بقرت الحشى لقد وضحت يديك بقرته وملأتهما بدمه وخبثت نفسك بنتنه وخشمت أنفك بعرفه فاستحيى عباس وأفحم عن جوابه *(ومنهم الشهير بالمغارب والمشارق المحلى بجواهره صدور المهارق أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى متمم كتاب المغرب فى اخبار المغرب قال فيه وأنا اعتذر فى ايراد ترجمتى هنا بما اعتذر به ابن الامام فى كتاب سمط الجمان وبما اعتذر به الحجارى فى كتاب المسهب وابن القطاع فى الدرة الخطيرة وغيرهم من العلماء فمن نظمه عند ما ورد الديار المصرية

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى * ما بينها وجها لمن أدريه
عودى على بدءى ضلالا بينهم * حتى كأنى من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت ألحاظه * فى عالم ليسوا له بشبيه
ان عادلى وطنى اعترفت بحقه * ان التغرب ضاع عمرى فيه

وله من قصيدة يمدح ملك افريقية أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى جعفر

الافق طلق والنسيم رخاء * والروض وشت برده الانداء
والنهر قد مالت عليه غصونه * فكأنما هو مقلة وطفاء
وبدا اشار الجلنار بصفحه * فكأنما هو حية رقطاء
والشمس قد رقمت طرازا فوقه * فكأنما هى حلة زرقاء
فأدر كؤسك كى يتم لك المنى * واسمع الى ما قالت الورقاء
تدعو لحى على الصبوح فلا تنم * فعلى المنام لدى الصباح عفاء

وله

كم جفانى ورمت أدعو عليه * فتوقفت ثم ناديت قائل
لا شفى الله لحظه من سقام * وأرانى عذاره وهو سائل

وله من قصيدة كتب بها الى ملك سبتة الموفق ابى العباس أحمد بن أبى الفضل النيشتى شافعا لشخص رغب فى خدمته

بالعدل قت وبالسماح فدن وجد * لا فارقتك كفاية وعطاء
ما كل من طلب السعادة نالها * وطلاب ما يأبى القضاء شقاء

ومنها

وقد استطار بأسطرى نحو الندى * من أنهضته لحولك العلياء
طلب النباهة فى ذراك فماله * الا لديك تأمل ورجاء
وهو الذى بعد التجارب أحمدت * أحواله وجرى عليه ثناء

لا يقرب الدنس المريب كواصل * هجرته خوفاً أن يشان الراء
قد مارس الحرب الزبون زمانه * وجرت عليه شدة ورخاء
وعلا لتقضي أن يسود بأفقها * لا غرو أن يعلى الشهاب بهاء

وقوله من قصيدة

ألف التغرب والتوحش مثل ما * ألف التوحش والنفور ظباء
جبابه ألفوا التجهم والجفا * فهم لكل أخي هدى أعداء
مهما يرم طلب اليه تقربا * بعدت بذاك البدر عنه سماء
لكنني مازلت أخدع حاجبا * ومراقبا حتى ألان حباء
والارض لم تطهر بحجب نبتها * حتى حبتها الديمة الوطفاء

قيل وهذا معنى لم يسمع من غيره وقوله في خسوف البدر

شان الخسوف البدر بعد جماله * فكأنه ماء عليه غثاء
أو مثل مرآة تخود قد قضت * نظرا بها فعلا الجلاء غشاء

وله من قصيدة عتاب يقول فيها

ولقد كسبت بكم علا لكنها * صارت بأقوال الوشاة هباء
فغدوت ما بين الصحابة أجربا * كل يحاذر مني الاعداء
ولقد أرى ان النجوم تقل لي * حبا وأصغر أن أحل سماء
فليهجروا هجر الفطيم لدره * ويساعدوا الزمن الخؤن جفاء
فلقد شكوت لهم احالة ودهم * اذ لم أكن أرضى بهم خدماء
ايه فذكرهم أقل واغما * أومى اليك فتفهم الايماء
لولم يكن قيد لما فتكت ظبي * أنت الذي صيرتهم أعداء
ولواني أرجو ارتجاعك لم أطل * شكوى ولم أستبعد الاغضاء
لكن رأيتك لا تميل بحبة * نحوي ولا تتكلف الاصغاء
ان لم يكن عطف فنوا بالنوى * ان الكريم اذا أهين تناءى

وقوله

ولكم سرينا في متون ضوامر * تثني أعنتها من الخيلاء
من أدهم كالليل جل بالضحى * فتشق غرته عن ابن ذكاء
أو أشهب يحكي غدائر أشيب * خلعت عليه الشهب فضل رداء
أو أشقر قد غمته بشعلة * كالمزج ثار بصفحة الصهباء
أو أصفر قد زينته غرة * حتى بدا كالشمعة الصفراء
طارت ولكن لا يهاض جناحها * هبت ولكن لم تكن برخاء

وقوله من أبيات في افتضاض بكر

وخريدة ما ان رأيت مثالها * حييت من الالحاظ بالايماء
فسألتها سمع الشكاة فأفهمت * ان الرقيب جهينة الانباء
وتبعتها وسألت منها قبلة * في خلوة من أعين الرقباء

فثنت

فثنت على قوامها بتعانق * أحيى فؤادا مات بالبرحاء
ووجدتها لما ملكت عنانها * عذراء مثل الدرة العذراء
جاءت الى كوردة محمرة * فتركتها كعرارة صفراء
وسلبتها ما احترمنها صفوه * فجرى مذابا مخجل الرجاء

وقوله من أبيات

أحبابنا عودوا علينا عودة * ما منكم بعد التفرق مرغب
كم ذا أداريكم بنفسي جاهدا * وكأنما أرضيكم كي تغضبوا
وأزيد بعدا ما اقتربت اليكم * كالسهم أبعد ما يرى اذ يقرب
وأجوب نحوكم المنازل جاهدا * ومع اجتهادى فاتنى ما أطلب
كالبدر أقطع منزلا فى منزل * فاذا انتهيت الى ذراكم أغرب

وقوله من أبيات

سألتك يا من يستلان فيصعب * ومن يترضى بالحياة فيغضب
أما خد ذلك البدر المنير فلم غدت * تحل به ضد القضية عقرب

وقوله وقد دعا به أحد الفقهاء وسرق سكينه من حرز

أيا سارقا ملكا مصونا ولم يجب * على يده قطع وفيه نصاب
ستندبه الاقلام عند عثارها * ويبكيه ان يعدا الصواب كتاب

وقوله فى تفاحة عنبر أهديت للملك الصالح نجم الدين أيوب

أنا لون الشباب والخال أهديـ * ـت لمن قد كسا الزمان شبابا
ملك العالمين نجم بن أيوب لا زال فى المعالى شهابا
جئت ملأى من الثناء عليه * من شكور احسانه والثوابا
لست ممن له خطاب ولكن * قد كفانى أريج عرفى خطابا

وقوله من قصيدة

فالحمد لله على ساعة * قد قربتنى من علا الصاحب
وليعذر المولى على اننى * قد كنت من علياه فى جانب
لكن أتى نافله أولا * ثم أتى من بعد بالواجب

وقوله من أبيات

فان كنت فى أرض التغرب غاربا * فسوف ترانى طالعا فوق غارب
فصمصام عمرو حين فارق كفه * رموه ولا ذنب لحز المضارب
وما عزة الضرغام الا عرينه * ومن مكة سادت لؤى بن غالب

وقوله فى فرس أصفر أغر أكحل الحلية

وأجرد تبرى أثرت به الثرى * وللفجر فى خصر الظلام وشاح
له لون ذى عشق وحسن معشق * لذلك فيه ذلة ومراح
عجبت له وهو الاصيل بعرفه * ظلام وبين الناظرين صباح

يقيد طير اللحظ والوحش عندما * يطير به نحو النجاح جناح

وقوله من أبيات

اذا ما غراب البين صاح فقل له * ترفق رمالك الله يا طير بالبعد
لانت على العشاق أقبح منظرا * وأكره فى الابصار من ظلمة اللحد
تصيح بنوح ثم تعثر ماشيا * وتبرز فى ثوب من الحزن مسود
متى صحت صح البين وانقطع الرجا * كأنك من وشى الفراق على وعد

وقوله فى غلام جميل الصورة أهدى تفاحة

ناب ما أهديت عن * عرف وعن ريق وخد
حبذا تفاحة قد * أشبهت أوصاف مهدى
بت منها فى سرور * فكأن قد بت عندى

وقوله من قصيدة

هذا الذى يهب الدنيا بأجمعها * وبعد ذلك يلقى وهو يعتذر
ان هزه المدح فالاموال فى بدر * والغصن ما هز الا بدد الثمر
فقلت لما بدا الى حسن منظره * لكنه زاد اشراقا هو القمر
متع لحاظك فى وجه بلا ضرر * ان كان شمسا ترا اها تحتها مطر

وقوله من أبيات

لى جيرة ضنوا علىّ وجاروا * فنبت بى الاوطان والاوطار
ومن العجائب اننى مع جورهم * ما قرلى بعد الفراق قرار

وقوله

أنا شاعر أهوى التخلى دونما * زوج لكيما تخلص الافكار
لو كنت ذا زوج لكنت منغصا * فى كل حين رزقها أمتار
دعنى أرح طول التغرب خاطرى * حتى أعود ويستقر قرار
كم قائل قد ضاع شرخ شبابه * ما ضيعته بطالة وعقار
اذ لم أزل فى العلم أجهد دائما * حتى تأتت هذه الابكار
مهما أرم من دون زوج لم أكن * كلا وزرقى دائما مدرار
واذا خرجت لفرجة هنيتها * لا ضيعة ضاعت ولا تذكار

وقوله من قصيدة

ما كنت أحسب أن أضيع وأنت فى الـ * ـدنيا وأن أمسى غريبا معسرا
أنا مثل سهم سوف يرجع بعدما * أقصاه راميه الجيد ليخبرا

وقوله سامحه الله تعالى

وافى علىّ لنا بسيف * والبين قد حان والوداع
فقال شبه فقلت شمس * قد مد من نورها شعاع

وقوله من قصيدة فى ملك اشبيلية الباجى وقد هزم ابن هود

لله فرسان غدت راياتهم * مثل الطيور على عدا تحلق
السمر تنقط ما تسطر بيضهم * والنقع يترب والدماء تخلق

وقال ارتجالا بحضرة زكي الدين بن أبي الاصبغ وجمال الدين بن أبي الحسين الجزار المصري الشاعر ونجم الدين بن اسرائيل الدمشقي بظاهر القاهرة وقد مشى أحدهم على بساط نرجس

يا واطئ النرجس ما تستحي * أن تطأ الاعين بالارجل

فتماقتوا بهذا البيت وراموا اجازته فقال ابن أبي الاصبغ مجيزا

فقلت دعني لم أزل محرجا * على لحاظ الرشأ الاكحل

وكان أمثل ما حضرهم ثم أبوا أن يجيزه غيره فقال

قابل جفونا بجفون ولا * تبتذل الارفع بالاسفل

وقوله في الجزيرة الصالحية بمصر وهي الشهيرة الآن بالروضة

تأمل لحسن الصالحية اذ بدت * مناظرها مثل النجوم تلالا
وللقلعة الغراء كالبدر طالعا * تفجر صدر الماء عنه هلالا
ووافى اليها النيل من بعد غاية * كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق بحسنها * فمد يمينا نحوها وشمالا
جرى قادما بالسعد فاختط حولها * من السعد أعلاما بذلك دالا

وقوله من أبيات في ملك أفريقية وقد جهز ولده الامير أبا يحيى بعسكر

وقد أرسلته نحو الاعادي * كما جردت من غمد حساما

وقوله في قوس

أنا مثل الهلال في ظلم النقع سهامي تنقض مثل النجوم
تقصر القضب والقنا عن مجالي * عند رجمي بها الكل رجيم
قد كستها الطيور لما رأتها * كالفلاة لها برزق عميم

وقوله من أبيات

وأشقر مثل البرق لونا وسرعة * قصدت عليه عارض الجود فانهمى

(ولنذكر ترجمته من الاحاطة ملخصة)* فنقول قال لسان الدين علي بن موسى بن عبد الملك ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر ابن كنانة بن قيس بن الحصين العنسي المدلجي من أهل قلعة يحصب غرناطي قلعي سكن تونس أبو الحسن بن سعيد وهذا الرجل وسطى عقد بيته وعلم أهله ودرة قومه المصنف الاديب الرحالة الطرفة الاخباري العجيب الشان في التجول في الاقطار ومداخلة الاعيان المتمتع بالخزائن العلمية وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية أخذ من أعلام اشبيلية كابي علي الشلوبين وأبي الحسن الدباج وابن عصفور وغيرهم وتواليفه كثيرة منها المرقصات والمطربات والمقتطف من أزاهر الطرف والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد تاريخ بيته وبلده والموضوعات الغريبات المتعددة الاسفار وهما المغرب في حلى المغرب والمشرق

فى حلى المشرق وغير ذلك مما لم يتصل الينا فلقد حدثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم أنه تخلف كتابا يسمى المرزمة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الادبية والاخبارية الا الله تعالى وتعاطى نظم الشعر فى حد من الشبيبة يجب فيه من مثله فيذكر أنه خرج مع أبيه الى اشبيلية وفى صحبته سهل بن مالك فجعل سهل بن مالك يباحثه عن نظمه الى أن أنشده فى صفة نهر والنسيم يردده والغصون تميل عليه

كأنما النهر صفحة كتبت * أسطرها والنسيم ينشئها

لما أبانت عن حسن منظرها * مالت عليها الغصون تقرؤها

فطرب وأثنى عليه ثم ناب عن أبيه فى أعمال الجزيرة ومازج الادباء ودوّن كثيرا من نظمه ودخل القاهرة فصنع له أدباؤها صنيعا فى ظاهرها وانتهت بهم الفرجة الى صنونرجس وكان فيهم أبو الحسن الجزار فجعل يدوس النرجس برجله فقال أبو الحسن

يا واطئ النرجس ما تستحى * أن تطأ الاعين بالارجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا اجازته فقال ابن أبى الاصبغ

فقال دعنى لم أزل محنقا * على لحاظ الرشا الاكحل

وكان أمثل ما حضرهم ثم أبوا أن يجيزه غيره فقال

قابل جفونا بجفون ولا * تبتذل الارفع بالاسفل

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق الى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال فى ذلك

من فضل النرجس فهو الذى * يرضى بحكم الورد اذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعدا * وقام فى خدمته النرجس

ووافق ذلك مماليك الترك وقوفا فى الخدمة على عادة المشارقة فطرب الحاضرون ولقى بمصر أيدمر التركى والبهاء زهيرا وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم ورحل صحبة كمال الدين بن القيم الى حلب فدخل على الناصر صاحب حلب فأنشده قصيدة أولها

جد لى بما ألقى الخيال من الكرى * لابد للضيف الملم من القرى

فقال كمال الدين هذا رجل عارف ورّى بمقصوده من أول كلمة وهى قصيدة طويلة فاستجلبه السلطان وسأله عن بلاده ومقصوده برحلته وأخبره أنه جمع كتابا فى الحلى البلادية والعلى العبادية المختصة بالمشرق وأخبره أنه سماه المشرق فى حلى المشرق وجمع مثله فسماه المغرب فى حلى المغرب فقال نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك الى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا نخدم على عادتهم وقال أمر مولاى بذلك انعام وتأنيس ثم قال له السلطان مداعبا ان شعراءنا ملقبون بأسماء الطيور وقد اخترت لك لقبا يليق بحسن صوتك وايرادك للشعر فان كنت ترضى به والا لم نعلم به أحدا غيرنا وهو البلبل فقال قد رضى المملوك يا خوند فتبسم السلطان وقال له أيضا يداعبه اختروا حدة من ثلاث اما الضيافة التى ذكرتها أول شعرك واما جائزة القصيدة واما حق الاسم فقال يا خوند المملوك مما لا يختنق بعشر لقم لانه مغربى أكول فكيف بثلاث فطرب السلطان وقال هذا مغربى

ظريف ثم أتبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالارزاق مالا يوصف ولقي بحضرته عون الدين العجمي وهو بحر لا ينزفه الدلاء والشهاب التلعفري والتاج بن شقير وابن نجيم الموصلي والشرف بن سليمان الاربلي وطائفة من بني الصاحب ثم تحول الى دمشق ودخل الموصل وبغداد ودخل مجلس السلطان المعظم بدمشق وحضر مجلس خلوته وكان ارتحاله الى بغداد في عقب سنة ثمانية وأربعين وستمائة في رحلته الاولى اليها ثم رحل الى البصرة ودخل ارجان وحج ثم عاد الى المغرب وقد صنف في رحلته مجموعا سماه بالنفحة المسكية في الرحلة المكية وكان نزوله بساحل مدينة أقليبية من افريقية في احدى جمادى سنة اثنتين وخمسين وستمائة واتصل بخدمة الامير أبي عبد الله المستنصر فنال الدرجة الرفيعة من حظوته حدثني شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ان المستنصر جفاه في آخر عمره وقد أسن لجراءة خدمة مالية أسندها اليه وقد كان يلازمه قبل جفوة أعقبها انتشال وعناية فكتب اليه بنظم من جملته لا ترعني بالجفا ثانية فرق له وعاد الى حسن النظر فيه الى أن توفي تحت بر وعناية مولده بغرناطة ليلة الفطر سنة عشر وستمائة ووفاته بتونس في حدود خمسة وثمانين وستمائة انتهى باختصار * وذكرت حكاية اجازته في النرجس وان تقدمت لاتصال الكلام قلت قد كنت وقفت على بعض ديوان شعره المتعدد الاسفار ونقلت منه قوله من قصيدة يهني ابن عمه الرئيس أبا عبد الله بن الحسين بقدومه من حركة هوارة

أما واجب أن لا يحول وجيب * وقد بعدت دار وبان حبيب
وليس ألبف غير ذكر وحسرة * ودمع على من لا يرق صبيب
وخفق فؤاد ان هفا البرق خافقا * وشوق كما شاء الهوى ونحيب
ويعذلني من ليس يعرف ما الهوى * وعذل مشوق في البكاء عجيب
الا تعس اللوام في الحب قد عموا * وصموا ودائي ليس منه طبيب
يرومون أن يثني الملام صبابتي * ولست الى داعي الملام أجيب
وفائي اذا ما غبت عنكم مجدد * وغيري ذو غدر أوان يغيب
ولو لم يكن مني الوفاء سجية * لكنت لغير ابن الحسين أنيب
سمو آل هذا العصر حاتم جوده * مهلبه ان مارسته حروب
فتى سير الامداح شرقا ومغربا * أبو دلف من دونه وخصيب
اذا رقم القرطاس قلت ابن مقلة * وان نظم الاشعار قلت حبيب
وان نثر الاسجاع قلت سمية * وان سرد التاريخ قلت غريب
وما أحرز الصولي آدابه التي * اذا ماتلاها لم يجبه أديب

ومنها

وأما اذا ما الحرب أخمد نارها * ففيه تلظى مارج ولهيب
فكم قارع الابطال في كل وجهة * غشاها وكم لفت عليه حروب
وكان له بالغرب من موقف له * حديث اذا يتلى تطير قلوب

بجزاكش سل عنه تعلم عناءه * وقد ساءهم يوم هناك عصيب
اذا ماثنى الرمح الطويل كأنه * مدير لغصن الخيزران لعوب
وان جرّه أبصرت ثعبانا مجرّرا * ذؤابته منه الكماة تذوب
يهيم به ما ان يزال معانقا * لهرا كعمات ما تحوز كعوب
محمد لا تبد الذى أنت قادر * عليه وخف عيناً علاك تصيب
نفوذ سهام العين أودى بمصعب * وطاح به بعد الشبوب شبيب
ألا فهنيأ ان رجعت لتونس * فأطلعت شمسا والشفار غروب
كواكبها تبدو اذا ما تركتها * وقد جلعت مهما حضرت تغيب
اذا سدت فى أرض فغيرك تابع * علاك ومهما ساد فهو مريب

ومنها

كفانى انى استظل بظلكم * ومن هاب ذاك المجد فهو مهيب
فأصلك أصلى والفروع تباينت * بعيد على من رامه وقريب
وحسبى فخرا أن أقول محمد * نسيب على جل منه نصيب
تركت جميع الاقربين لقصده * على حين حانت فتنة وخطوب
ورأيت به جنات عدن فلم أبل * اذا وصلتنا للخلود شعوب
فقبلت كفا لا أعاب بلثمها * وأيدى الايادى لثمهن وجوب
وكيف وليس الرأس كالرجل فرقت * شيا تالعمرى بيننا وضروب
ولو كان قدرى مثل قدرك فى العلا * لحق بأن يعلو الشباب مشيب
ولولا الذى أسمعت من مكر حاسد * أتاك بقول وهو فيه كذوب
لما كنت محتاجا القول آنفا * تحليت من ذنب وجئت أتوب
اذا كنت ذا طوع وشكر وغبطة * فمن أين لى يا ابن الكرام ذنوب
لقد كنت معتادا بشرفها الذى * تقلدته حتى يزال قطوب
أأن رفع السلطان سعيى بقربكم * أأخلاء عن وردكم وأخيب
فأحسب ذنبى ذنب صخر بدارها * الى البرّ عند الخابرين معيب
وحاشاك من جور على وانما * أخاطب من أصغوله فيشوب
صحابهم الداء الدفين فليتقى * ولم أدن منهم للذئاب صحوب
كلامهم شهد ولكن فعلهم * كسم له بين الضلوع دبيب
سأرحل عنهم والتجارب لم تدع * بقلبى لهم شيأ عليه أثيب
اذا اغترب الانسان عمن يسوءه * فما هو فى الابعاد عنه غريب
فدارك برأى منك ما فد خرقته * لحسن منى مشهد ومغيب
ولا تستمع قول الوشاة فانما * عدوهم بين الانام نجيب
فياليت أنى لم أكن متأدبا * ولم يك لى أصل هناك رسوب
وكنت كبعض الجاهلين محببا * فما أنا للهم الملم حبيب

وما ان ضربت الدهر زيدا بعمره * ولم يك لى بين الكرام ضريب
أأشكولذ أم أشكو اليك فاعدت * عداتى حتى حان منك نوب
سأشكر ما أولى وأصبر للذى * توالى على ان العزاء سليب
فدم فى سرور ما بقيت فاننى * وحقك مذ دب الوشاة كئيب

قال وكان سبب التغير بينى و بين ابن عمى الرئيس المذكور أن ملك افريقية استوزر لاشغال الموحدين اباالعلى ادريس بن على بن أبى العلى بن جامع فاشتمل على وأولانى من البر ماقيدنى وأمال قلبى اليه مع تأكيد ما بينه و بين ابن عمى من الصحبة فلم يزل ينهض بى و يرفع أمداحى للملك و يوصل اليه رسائلى منبها على ذلك مرشحا الى أن قبض الملك على كاتب عسكره وكان يقرأ بين يديه كتب المظالم فاحتيج الى من يخلفه فى ذلك فنبه الوزير على وارتهن فى مع انى كنت من كتاب الملك فقلدنى قراءة المظالم المذكورة وسفر الى الوزير عنده فى دار الكاتب المؤخر فأنم بها فوجد الوشاة مكانا متسع القول فقالوا وزوروا من الاقاويل المختلقة ما مال بها حيث مالوا وظهر منه مخايل التغير فجعلت اداريه وأستعطفه فلم ينفع فيه قليل ولا كثير الى أن سعى فى تأخير والدى عن الكتب للامير الاسعد أبى يحيى بن ملك افريقية ثم سعى فى تأخيرى فأخرت عن الكتابة وعن قراءة المظالم فانفردت بالكتابة للوزير المذكور وفوض الى جميع أموره وأولانى من التأنيس ماأنسانى تلك الوحشة ومن العز ما أنقذنى من تلك الذلة

فردّ على العيش بعد ذهابه * وآنسنى بعد انفرادى من الاهل
وقالوا اذا ما الوبل فاتك فاقتنع * بما قد تسنى عندك الآن من طل
ووالله ما نعماه طل وانما * تأدّ به غيث يجود على المحل
رآنى ظمأ فى الهجيرة ضاحيا * فرق وآوانى الى الماء والظل

ولم أزل عنده فى أسر حال ما لها تكدير الا ما يلغنى من أن ابن عمى لايزال يسعى فى حقى بما أخشى مغبته وخفت أن يطول ذلك فيسمع منه ولا ينفع دفاع الوزير المذكور عنى فرغبت له فى أن يرفع للملك أنى راغب فى السراح الى المشرق برسم الحج

ومن بله الغيث فى بطن واد * وبات فلا يأمن السيولا

فلم يسعفنى فى ذلك ولامنى على تخوفى وقلة ثقتى بحمايته فرفعت له هذه القصيدة

هل الهجر الا أن يطول التجنب * و يبعد من قد كان منه التقرب
وتقطع رسل بيننا ورسائل * ويمنع لقيانا نوى وتحجب
و لو أننى أدرى لنفسى زلة * جعلت لكم عذرا ولم أك أعتب
ولكنكم لما ملكتم هجرتم * وذنبتم فى الحب من ليس يذنب
الى الله أشكو غدركم وملالكم * وقلبا له ذاك التعذب يعذب
فلو أنه يجزى بكم بفعالكم * لكان له عنكم مراد ومطلب
ولكن أبى أن لايحن لغيركم * وأن لايرى عنكم مدى الدهر مذهب
فهلا رعيتم أنه فى ذراكم * غريب وليس الموت الا التغرب

لزمتك لما أن رأيتك كاملا * جمالا و أجمالا وذا الذي يحبب
وانى لاخشى أن يطول اشتكاؤه * لمن ان أتى مكرافليس يقرب
فلم أسع الا لارتياح وراحة * وغيرى وقد آواه غيرك يتعب
فأنت الذى آويتنى ورحمتنى * وذو الرحم الدنيا لنارى يحطب
فمن يوم لا يريد مصيبة * عليك وبالتدبير منك يحيب
وهبه ثبوتا لايحيل اماترى * بحجز حبال فى الحجارة يرسب
وهبه لهسدا فكم أنت حاضر * أحاذر خرقا منه أنت سببوا
ومان أرى الا القرار مخلصا * وماراغب فى الضيم من عنه يرغب
فأنهى الى الامر العلى شكيتى * وأن خطوب الدهر نحوى تخطب
ولا تطمعونى فى الذى لست نائلا * فلا انا عرقوب ولا أنا أشعب
ألا فلتمنوا بالسراح فانه * لراحة من يشقى لديكم و ينصب
سلوا الكاس عنى اذ تدار وفاتنى * لا تركها هماو دمعى أشرب
ولا أسمع الالحان حين تهزنى * ولو كان نوحا كنت أصغى وأطرب
فديتكم كم ذا أهون بأرضكم * أهذا جزاء للذى يتغرب
أبخل على أن ماسواك يصيح لى * فهل لى مما كدر العيش مهرب
تقلص عنى كل ظل ولم أجد * كما كنت ألقى من أود وأصحب
أذو طمع فى العيش يبقى وحوله * مدى الدهر أفعى لاتزال وعقرب
أجرنى أنجز بالفراق وفاته * وحقك من نعمالك عندى يحسب
فلا زلت ياخير الكرام مهنأ * فعيشى منه الموت أشهى وأطيب
وصانك من قد صنت فى حقه دمى * وغيرك من ثوب المروءة يسلب

ولم يزل الوزير لا أزال الله عنه رضاه يحمى جانبى الى ان اصابتنى فيه العين فأصابه الحين

وطيب نفسى انه مات عندما * تناهى ولم يشمت به كل حاسد
ويحكم فيه كل من كان حاكما * عليه ويعطى الثار كل معاند

وقلت أرثيه

بكت لك حتى الهاطلات السواكب * وشقت جيوبا فيك حتى السحائب
فكيف بمن دافعت عنه ومن به * أحاطت وقد بوعدت عنه المصائب
الا فانظروا دمعى فأكثره دم * ولا تذهبوا عنى فانى ذاهب
وقولوا لمن قد ظل يندب بعده * وفاؤك لو قامت عليك النوادب
لعمرك مافى الارض واف بذمة * أيصمت ادريس ومثلى يخاطب
دعوتك يامن لا أقوم بشكره * فهل أنت لى بعد الدعاء مجاوب
أياسيدا قد حال بينى وبينه * تراب حوت ذكراك منه الترائب
لمن اشتكى ان جار بعدك ظالم * علىّ وان نابت جنابى النوائب

لمن أرتجي عند الامير بمنطق * تحف به حولى المنى والمواهب

وهي طويلة ومنها قبيل الختم

وقد كنت أختار الترحل قبل أن * يصيبك سهم للمنية صائب
ولكن قضاء الله من ذا يرده * فصبرا فقد يرضى الزمان المغاضب

ومنها وهو آخرها

وانى لادرى أن فى الصبر راحة * اذا لم تكن فيه على مثالب
وان لم يؤب من كنت أرجوا انتصاره * عليك فلطف الله نحوى آيب

قال رحمه الله تعالى ولما قدمت مصر والقاهرة أركتنى فيهما وحشة وأثارت تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الاندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضا خصيبا وصحبت بها الزمان غلاما وابست الشباب بردا قشيبا فقلت

هذه مصر فأين المغرب * مذ نأى عنى فعينى تسكب
فارقته النفس جهلا انما * يعرف الشئ اذا ما يذهب
أين حمص أين أيامى بها * بعدها لم ألق شيأ يعجب
كم بها لي بها من لذة * حيث للنهر خرير مطرب
وحمام الايك تشدو حولنا * والمثانى فى ذراها تصخب
أى عيش قد قطعناه بها * ذكره من كل نعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لذة * بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعير التى تذكارها * بالنوى عن مهجتى لا تسلب
ولكم فى شنتبوس من منى * قد قضيناه ولا من يعتب
حيث هاتيك الشراجيب التى * كم بها من حسن بدر معصب
وغناء كل ذى نقرله * سامع غصبا ولاص يغصب
بلدة طابت ورب غافر * ليتنى مازلت فيها أذنب
أين حسن النيل من نهريها * كل نغمات لديه تطرب
كم به من زورق قد حله * قمر ساق وعود يضرب
لذة الناظر والسمع على * شم زهر وكؤس تشرب
كم ركبناها فلم تجمع بنا * ولكم من جامح اذ يركب
طوعنا حيث اتجهنا لم تجد * تعبا منها اذا ما تتعب
قد أثارت عنبرا يشبهه * نثر سلك فوق بسط ينهب
كلما رشنا لها أجنحة * من قلاع ظلت منها تعجب
كطيور لم تجد ريالها * فبدا للعين منها مشرب
بل على الخضراء لا تنفك من * زفرة فى كل حين تلهب
حث للبحر زئير حولها * تبصر الاغصان منه ترهب
كم قطعنا الليل فيها مشرقا * بحبيب ومدام يسكب

وكذا أن البحر ثوب أزرق * فيه للبدر طراز مذهب
والى اللوز حنيني دائما * وعلى شنيل فيه دمعي صيب
حيث سل النهر عضبا وانثنت * فوقه القضب وغنى الربرب
ونشفت أعين العشاق من * حور عين بالمواضي تحجب
ملعب للهو مذ فارقته * ما ثناني نحو لهو ملعب
والى مالقة يهفو هوى * قلب صب بالنوى لا يقلب
أين ابراج بها قد طالما * حثث كاسي في ذراها كوكب
حفت الاشجار عشقا حولنا * تارة تنأى وطورا تقرب
جاءت الريح بها ثم انثنت * أتراها حذرت من ترقب
وعلى مرسية أبكي دما * منزل فيه نعيم معشب
مع شمس طلعت في ناظري * ثم صارت في فؤادي تغرب
هذه حالي وأما حالتي * في ذرى مصر ففكر متعب
سمعت اذني بها الا انها * لم تصدق وبعينها من يكذب
وكذا الشيء اذا غاب انتهوا * فيه وصفا كي يعبل الغيب
ها أنا فيها فريد مهمل * وكلامي ولساني معرب
وأرى الالحاظ تنبو عندما * أكتب الطرس أفيه عقرب
واذا أحسب في الديوان لم * يدر كتابهم ما أحسب
وأنادي مغربي يا ليتني * لم أكن للغرب يوما أنسب
نسب يشركك فيه خامل * ونبيه أين منه المهرب
أتراني ليس لي جد له * شهرة أوليس يدري لي أب
سوف أثني راجعا لا غرني * بعد ما جربت برق خلب

وقال بغرمونة متشوقا الى غرناطة

أغشى اذا غنى الحمام المطرب * بكاس بها وسواس فكري يذهب
وصل ميلة حتى أعانق ايكة * وألثم ثغرا فيه للصب مشرب
ولم أر جانا ودرا خلافه * يطيف به ورد من الشهد أعذب
فديتك من غصن تحمله نقى * تطلع أعلاه صباح وغيهب
وجنته جنات عدن وفي لظى * فؤادي ومالي من ذنوب تعذب
ويعذلني العذال فيه وانني * لاعصي عليه من يلوم ويعتب
لقد جهلوا اسلي عن حياتي أنني * اذا اغتقوا أقو والهم وتألبوا
يقولون لي قد صار ذكرك مخلقا * وأصبح كل في هواه يؤنب
وعرضك مبذول وعقلك تالف * وجسمك مسلوب ومالك ينهب
فقلت لهم عرضي وعقلي والعلا * ونفري لا أرضي بها حين يغضب
جفون أبت أن لا تلين لعازم * بسحر بآيات الرقى ليس يذهب

فقالوا

فقالوا ألا قد خان عهدك قلت لم * يخن من اذا قربته يتقرب
وكم دونه من صارم ومثقف * فيا من رأى بدرا بهذين يحجب
على أنه يستسهل الصعب عندما * يزور فلا يجدى حمى مترقب
وكم حيلة تترى على اثر حالة * وذو الود من يحتال أو يتسبب
على أنه لو خان عهدى لم أزل * له راعيا والرعى للصب أوجب
فأين زمان لم يخف فى ساعة * به وهو منى فى التنعم أرغب
ولا فيه من بخل ولا بى قناعة * كلانا بلذات التواصل معجب
ويا رب يوم لا أقوم بشكره * على أننى مازلت أثنى وأطنب
على نهر شنيل وللقضب حولنا * منابر مازالت بها الطير تخطب
وقد قرعت منه سبائك فضة * خلال رياض بالاصيل تذهب
شربنا عليها قهوة ذهبية * غدت تشرب الالباب أيان تشرب
كأن بأيدينا وسطدر تفتحت * أزاهره أيان فى الكاس تسكب
اذا ما شربناها لنيل مسرة * تبسم عن درّ لها فتقطب
أتت دونها الاحقاب حتى تخالها * سرابا بآفاق الزجاجة يلعب
نعمنا بها واليوم قد رق برده * الى أن رأينا الشمس عنا تغرب
فقالوا ألا هاتوا السراج فكل من * درى قدر ما فى الكاس أقبل يعجب
وقال ألا تدرون ما فى كؤسكم * فلا كاس الا وهو فى الليل كوكب
كواكب أمست بين شرب ولم تخل * بأن النجوم الزهر تدنو وتغرب
ظللنا عليها عاكفين وليلنا * نهارا الى أن صاح بالايك مطرب
فلم نثن عن دين الصبوح عناننا * الى أن غدا من ليس يعرف يندب
صرعنا فأمسى يحسب السكر قد قضى * علينا وذا السكر أشهى وأعجب
وكم ليلة فى اثر يوم وعذلى * وعذل من يصغى لقولى خيب
فيا ليت ما ولى معاد نعيمه * وأى نعيم عند من يتغرب

قال وقلت باشبيلية ذاكرا الوادى الطلح وهو بشرق اشبيلية ملتف الاشجار كثير مترنم الاطيار وكان المعتمد بن عباد كثيرا ما ينتابه مع رميكته وأولى أنسه ومسرته

سائل بوادى الطلح ريح الصبا * هل حضرت لى فى زمان الصبا
كانت رسولا فيه ما بيننا * لن نأمن الرسل ولن تكتبا
يا قاتل الله أناسا اذا * ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا
هلا رعوا أنا وثقنا بهم * وما اتخذنا عنهم مذهبا
يا قاتل الله الذى لم يتب * من غدرهم من بعد ما جربا
والهمّ لا يعرف ما طعمه * الا الذى وافى لان يشربا
فدعنى من ذكر الوشاة الالى * لما نزل فكرى بهم ملهبا
واذكر بوادى الطلح عهدا لنا * لله ما أحلى وما أطيبا

بجانب العطف وقد مالت الاغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين ألحانها * وليس الا معجبا مطربا
وخانني من لا أسميه من * شح أخاف الدهر أن يصحبا
قد أترع الكاس وحيابها * وقلت أهلا بالمنى مرحبا
أهلا وسهلا بالذي شئته * يابدر تم مهديا كوكبا
لكنني آليت أسقى بها * أو تؤذ عنها ثغرك الاشنبا
فجح لي في الكاس من ثغره * ما حبب الشرب وما طيبا
فقال ها لثمى نقلا ولا * تشم الا عرقى الا طيبا
فاقطف بخدى الورد والآس والـ * ـنسرين لا تحفل بزهر الربا
أشقفته غصنا غدا مثمرا * ومن جناه ميسه قربا
قد كنت ذا نهي وذا امرة * حتى تبدى فخلات الحبا
ولم أصن عرضي في حبه * ولم أطع فيه الذي أنبا
حتى اذا ما قال لي حاسدي * ترجوه والكوكب ان يغربا
أرسلت من شعري سحرا له * ييسر المرغب والمطلبا
وقال عز فيه بأبي سأحـ * ـتال فما أجتنب المكتبا
فزاد في شوقي له وعده * ولم أزل معتقدا مرقبا
أمد طرفي ثم أثنيه من * خوف أخي التنغيص أن يرقبا
أصدق الوعد وطورا أرى * تكذيبه والحزن يكذبا
اتى ومن سحره بعد ما يئـ * ـأس بطأ كاد أن يغضبا
قبلت في الترب ولم أستطع * من حصر اللقا سوى مرحبا
هنأت ربعي اذ غدا هالة * وقلت يامن لم يضع أشعبا
بالله صل معتنقا لاثما * فمال كالغصن ثنته الصبا
وقال مارغب قلت اتئد * أدركت اذ كلمتني المرغبا
فقال لا مرغب عن ذكرما * ترغبه قلت اذا مرحبا
فكان ما كان فو الله ما * ذكرته دهري أو أغلبا

قال وقلت باقتراح الملك الصالح نور الدين صاحب حمص أن أكتب بالذهب على تفاح عنبر قدمها لابن عمه الملك الصالح ملك الديار المصرية

انا لون الشباب والخال أهديـ * ـت لمن قد كسا الزمان شبابا
ملك العالمين نجم بني أيـ * ـوب لازال في المعالي مهابا
جئت ملأى من الثناء عليه * من شكور احسانه والثوابا
لست ممن له خطاب ولكن * قد كفاني أريج عرفي خطابا

قال ولما أنشد أبو عبد الله بن الابار كاتب ملك افريقية لنفسه

لله دولاب يدور كأنه * فلك ولكن ما ارتقاه كوكب

هامت به الاحداق لما نادمت * منها الحديقة ساقيا لا يشرب
نصبته فوق النهر أيد قدرت * ترويحه الارواح ساعة ينصب
فكأنه وهو الطليق مقيد * وكأنه وهو الحبيس مسيب
للماء فيه تصعد وتحدر * كالمزن يستسقي البحار ويسكب

حلف أبو عبد الله بن أبي الحسين ابن عمي أن يصنع في ذلك شيأ فقال

ومحنية الاضلاع تحنو على الثرى * وتسقي نبات الترب در الترائب
تعد من الافلاك ان سماءها * نجوم لرجم المحل ذات ذوائب
وأعجبها رقص الغصون ذوابلا * فدارت بأمثال السيوف القواضب
وتحسبها والروض ساق وقينة * تغابرها ما بين شاد وشارب
وما خلتها تشكو بتحنانها الصدا * ومن فوق متنيها اطراد المذانب
تخذ من مجاريها ودهمة لونها * بياض العطايا في سواد المطالب

ثم كلفت في أن أقول في ذلك وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لي ما أقول

وذات حنين لا تزال مطيفة * تئن وتبكي بالدموع السواكب
كأن أليفا بان عنها فأصبحت * بربعه كالصب بعد الحبائب
اذا ابتسمت فيها الرياض شماتة * ترعوا بأمثال القسي القواضب
فكم رقصت أغصانها فرمت لها * نثارا كما بدرت حلي الكواعب
لقد حفظت منها الثغور وأرضت الـ * قدود ولم تحفل بتثريب عائب
شربت على تحنانها ذهبية * ذخيرة كسرى في العصور الذواهب
فهاجت لي الكاس ادكاره غاضب * فهاجيته اوجد ابذاك المغاضب
فلا تدع التبريز في كثرة الهوى * فلولاي كانت فيه احدى العجائب

قال وقلت بغرناطة

باكر اللهو ومن شاء عتب * لا يلذ العيش الا بالطرب
ما تراني من رأى الزهر زها * والصبا تمرح في الروض خبب
وشذاه صانه حتى اغتدى * بين أيدي الريح غصنا ينتهب
يا نسيما عطر الارجاء هل * بعثوا منك ما يشفي الكرب
هم أعلوه وهم يشفونه * لا شفاه الله من ذاك الوصب
خلع الروض عليه زهره * حين وافى من ذرا كم فعل صب
فأبى الاشذاه فانثنى * حاملا من عرفه ما قد غصب
لست ذا نكر لان يشبهكم * من بعشتم غير ذا منه العجب
غالب الاغصان في بدأته * ثم لما زاد أعطته الغلب
فبكى الطل عليها رحمة * أو بكى من وعظ طير قد خطب
كل هذا قد دعاني للتي * ملكت رقي على مر الحقب
قهوة أبسم من عجب لها * عندما تبسم عجبا عن حبب

سا كت الجر فلما شعشعت * قلت ما الخمر بالماء التهب
وبدت من كاسها فى فضة * ملئت اذ خددت ذوب الذهب
اسقنيها من يدى مشبهها * بالذى يحويه طرف وشنب
لا جعلت الدهر نقلى غيرما * لذلى من ريق ثغر كالضرب
لا جعلت الدهر ريحانى سوى * ما يخديه من الورد انتخب
لم أزل أقطع دهرى هكذا * وكذا أقطع منه المرتقب
حبذا عيش قطعناه لدى * معطف الخابور ما فيه نصب
مع من لم يدر يوما ما الجفا * من أراح الصب فيه من تعب
كل ما يصدر منه حسن * لم يذقنى فى الهوى مر الغضب
أى عيش مع الدهر به * كل نعمى ذهبت لما ذهب

قال ودخلت بتونس مع أبى العباس الغسانى حماما فنظرنا الى غلمان فى نهاية الحسن ونعومة الابدان فقلت مخاطباله

دخلت حماما وقصدى به * تنعيم جسم فغدا لى عذابه
قلت لظى فاعترضت حوره * وقلت عدن فنهانى التهاب
وأنت فى الفضل امام فكن * فى الحكم ممن حاز فصل الخطاب

فقال

لا تأمن الحمام فى فعله * فليس ما يأتيه عندى صوابه
فما أرى أخدع منه ولا * أكذب الا أن يكون السرابه
يبدى لك الغيد كحور الدمى * ويلبس الشيخ برود الشبابه
ظن به النار فلا جنة * للحسن الا ما حوته الثيابه

(ومن فوائده) أعنى ابن سعيد رحمه الله تعالى فى كتابه الحلى بالاشعار نقلا عن القرطبى قضية بناء الهودج بروضة مصر وهو من منتزهات الخلفاء الفاطميين العظيمة العجيبة البناء البديعة وذلك أنه يقال ان البانى له الخليفة الآمر بأحكام الله للبدوية التى غلب عليه حبها بجوار البستان المختار وكان يتردد اليه كثيرا وقتل وهو متوجه اليه وما زال منتزها للخلفاء من بعده * وقد أكثر الناس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الآمر حتى صارت روايا تهم فى هذا الشان كحديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك والاختصار منه أن يقال ان الآمر قد كان بلى بعشق الجوارى العربيات وصارت له عيون فى البوادى فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرفهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا بزى بداة الاعراب وكان يجول فى الاحياء الى أن انتهى الى حيها وبات هنالك وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره ورجع الى مقر ملكه وأرسل الى أهلها يخطبها وتزوجها فلما وصلت اليه صعب عليها مفارقة ما اعتادت وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج وكان غريب الشكل على شط النيل وبقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت

معه يعرف بابن مياح فكتبت اليه من قصر الآمر

يا ابن مياح اليك المشتكى ❊ مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حيي طليقا آمرا ❊ نائلا ماشئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر موصد ❊ لا أرى الاخبيثا ممسكا
كم تثنينا كاغصان النقا ❊ حيث لا تخشى علينا دركا

فأجابها فقال

بنت عمي والتي غذيتها ❊ بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها ❊ لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى ❊ هالك وهو الذي قد هلكا

قال وللناس في طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول وكان من عرب طيء في عصر الآمر طراد بن مهلهل فقال وقد بلغته هذه الابيات

ألا ابلغوا الآمر المصطفى ❊ مقال طراد ونعم المقال
قطعت الاليفين عن ألفة ❊ بها سمر الحي حول الرحال
كذا كان آباؤك الاكرمون ❊ سألت فقل لي جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الابيات جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله فطلب في أحياء العرب فلم يوجد فقيل ما أخسر صفقة طراد باع عدة أبيات بثلاثة أبيات وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد له مروءة عظيمة ويحتذي أفعال البرامكة وللشعراء فيه أمداح كثيرة ومدحه ظافر الحداد وأمية أبو الصلت وغيرهما وكان له بستان يتفرج فيه به جرن كبير من رخام وهو قطعة واحدة يتحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره وكان يرى في نفسه برؤيته زيادة على أهل النعم والمباهاة في عصره فوشي به للبدوية محبوبة الآمر فسألت الآمر في حمل الجرن اليها فأرسل الى ابن حديد في احضار الجرن فلم يجد بدا من حمله من البستان فلما صار الى الآمر أمر بحمله في الهودج فقلق ابن حديد وصارت في قلبه حرارة من أخذ الجرن فأخذ يخدم البدوية وجميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد في الكثرة حتى قالت البدوية هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا فلما قيل له عنها هذا القول قال ما لي حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها في عز غير ردّ السقية التي قلعت من داري التي بنيتها في أيامهم من نعمتهم تردّ الى مكانها فتعجبت من ذلك وردّتها عليه فقيل له قد حصلت في حدّ أن خيرتك البدوية في جميع المطالب فنزلت همتك الى قطعة حجر فقال أنا أعرف بنفسي ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب في أخذ ذلك الحجر من مكانه وقد بلغها الله تعالى أملها وكان هذا المكين متولي قضاء الاسكندرية ونظرها في أيام الآمر وبلغ من علو همته وعظيم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحي لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية سنة سبع عشرة وخمسمائة وأضاف اليها الاعمال البحرية ووصل الى الثغر وصف له الطبيب دهن

الشمع بحضرة القاضي المذكور فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضي الى داره لاحضار دهن الشمع فما كان من أكثر من مسافة الطريق الا وقد أحضر حقا مختوما ففك عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مذاف بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر بيت دهن بمسك وبيت دهن بكافور وبيت دهن بعنبر طيب ولم يكن فيه شئ مصنوع لوقته فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته فعندما شاهد القاضي ذلك بالغ في شكر انعامه وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه وكان من جواب المؤتمن وقد قبلته منك لا لحاجة اليه ولا نظر في قيمته بل لاظهار هذه الهمة واذاعتها وذكر أن قيمة هذا المذاف وما عليه خمسمائة دينار فانظر رحمك الله تعالى الى من يكون دهن الشمع عنده في اناء قيمته خمسمائة دينار ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج اليه فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات وهذا انما هو حال قاضي الاسكندرية ومن قاضي الاسكندرية بالنسبة الى أعيان الدولة بالحضرة وما نسبة أعيان الدولة وان عظمت أحوالهم الى أمر الخلافة وأبهتها الا يسير حقير وما زال الخليفة الآمر يتردد الى الهودج المذكور الى أن ركب يوم الثلاثاء رابع القعدة سنة ٥٢٤ يريد الهودج وقد كمن له عدة من النزارية على رأس الجسر من ناحية الروضة فوثبوا عليه وأثخنوه بالجراحة وحمل في العشاري الى اللؤلؤة فمات بها وقيل قبل أن يصل اليها وقد خرب هذا الهودج وجهل مكانه من الروضة ولله عاقبة الامور نقل ذلك كله الحافظ المقريزي رحمه الله تعالى قال النور بن سعيد ومن خطه نقلت لما نزلنا بتلعفر حين خرجنا من سنجار الى الموصل سألت أحد شيوخنا عن والد شهاب الدين التلعفري فقال انا أدركته وكان كثير التجول وأنشدني لنفسه في عيد أدركه في غير بلده

يبتهج الناس اذا عيدوا * وعند سرائهم أكمد
لانني ابصر أحبابهم * ومقلتي محبوبها تفقد

قال وخرج ابنه الشهاب أجول منه شخصا وشعرا وصدق فيما قاله وأنشد ابن سعيد للشهاب التلعفري

لك ثغر كلؤلؤ في عقيق * ورضاب كالشهد أو كالرحيق
وجفون لم يعتشق سيفها الا لمغرى بقدك الممشوق
بهرت عجبا بكل فن من الحسن جليل وكل معنى دقيق
وتفردت بالجمال الذى خلا لك مستوحشا بغير رفيق
بالحاظ التى لها لم تزل تر * شق قلبي وبالقوام الرشيق
لا تغر بالغصن اذ تثنى * فيه أعطاف كل غصن وريق
وانثن مجروورد خديك واستر * والا ينشق قلب الشقيق

قال ابن سعيد وحظى الشهاب التلعفري بمنادمة الملوك وكونهم يقدمونه ويقبلون على شعره وعهدي به لا ينشد أحد قبله في مجالس الملك الناصر على كثرة الشعراء وكثرة من يعتنى بهم ولما

جمعت للملك الناصر كتاب ملوك الشعر جعلت ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة فانه كان كثيرا ما ينشده ويتوه به والتشفى من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له مكان بكتاب الغرة الطالعة فى فضلاء المائة السابعة وهو الآن عند الملك المنصور صاحب حماه قدعات سنه وما فارقه غرامه ودنه انتهى ولما أجرى ابن سعيد فى بعض مصنفاته ذكر الملك العادل بن ايوب قال مانصه وكان من أعظم السلاطين دهاء وحزما وكان يضرب به المثل فى افساد القلوب على أعدائه واصلاح احواله ويحكى انه بشره شخص بأن أميرا من امراء الافضل بن صلاح الدين فسد عليه فأعطاه مالا جزيلا وأرسل مستخفيا الى المذكور يزيده بصيرة فى الانحراف عن الافضل ويعده بما يفسد الصالح فكيف الفاسد قال وكان يمنع حتى يوصف بالبخل ويجود فى مواضع الجود حتى يوصف بالسماح وكان صلاح الدين وهو السلطان يأخذ برأيه وقدم له أحد المصنفين كتابا مصورا فى مكايد الحروب ومنازلة المدن وهو حينئذ على عكا محاصرا للفرنج فقال له ماتحتاج الى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر وكان كثير المداراة والحزم ومن حكاياته فى ذلك ان أحد الاشياخ من خواصه قال له يوما وهو على سماطه يأكل ياخوند ماوفيت معى ولارعيت سابق خدمتى وكله بدالة السن وقدم الصحبة قبل الملك فقال لمماليكه أنظروا وسطه فحلوا الكمران وقال خذوا الصرة التى فيه فوجد واصرة فقال افتحوها ففتحوها فاذا فيها درور فقال العادل كل من هذا الدرور فتوقف وعلم أنه مطلع على انه سم فقال كيف نسبتنى الى قلة الوفاء وأنا منذ سنين اعلم أنك تريد أن تسقينى بهذا السم وقد جعل لك الملك الفلانى على ذلك عشرة آلاف دينار فلا أنا أمكنتك من نفسى ولا أشعرتك لئلا يكون فى ذلك مالا خفاء به وتركتك على حالك وأنا مع هذا لا أغير عليك نعمة ثم قال ردوا سمه الى كرانه لا أبقى الله تعالى عليه ان قدر وأبقى على فجعل يقبل الارض ويقول هكذا والله كان وأنا تائب لله تعالى ثم ان الشيخ جدد توبة واستأنف أدبا آخر وخدمة أخرى وكانت هذه الفعلة من احدى عجائب العادل قال وكان كثير المصانعات حتى انه يصوغ الحلى الذى يصلح لنساء الفرنج ويوجهه فى الخفية اليهن حتى يسكن أزواجهن عن الحركة وله فى ذلك مع ملوك الاسلام مايطول ذكره ولما خرج ابن أخيه العز اسمعيل بن ظفر كين باليمن وخطب لنفسه بالخلافة وكتب له أن يبايعه ويخطب له فى بلاده كان فى الجماعة من أشار الى النظر فى توجيه عسكر له فى البر والبحر وانفاق الاموال قبل أن يتفاقم أمره فضحك وقال من يكون عقله هذا العقل لا يحوج خصيمه الى كبير مؤنة أنا أعرف كيف أفسد عليه حاله فى بلاده فضلا عن أن يتطرق فساده لبلادى ثم انه وجه فى السر لاصحاب دولته بالوعد والوعيد وقال لهم أنتم تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لى فكيف يسوغ له وقد أدخل نفسه فى أمر لا يخرج منه الا بهلاكه فاحذروا ان تهلكوا معه واتعظوا بالاية ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالهذا عقل يدبر به نفسه فكيف يفضل عن تدبير خاصته الحكم ولتعلمن نبأه بعد حين فعندما وعت أسماعهم هذا وتدبروه بعقولهم قبضوا عليه وقتلوه وعادت البلاد للعادل وقال للمشيرين عليه فى أول الامر بتجهيز العسكر قد كفينا المؤنة بأيسر شئ من المال

ولو حاولناه بما أشرتم به لم تقم خزائن ملكنا بالبلوغ الى غايته وكان على ما بلغه من عظمة السلطان واتساع الممالك يحكى ما جرى له من زمان خلوه من ذلك ويحب الاستماع بنوادر أنذال العالم واشتهر فى خدمته مساخر أشهرهم خضير صاحب البستان المشهور عند الربوة بغوطة دمشق ومن نوادره الحاضرة منه أنه سمعه يوما وهو يقول فى وضوئه اللهم حاسبنى حسابا يسيرا ولا تحاسبنى حسابا عسيرا فقال له يا خوند على أى شئ يحاسبك حسابا عسيرا اذا قال لك أين أموال الخلق التى أخذتها فقل لم تراها بأماتها فى الكرك وكان قد صنع بهذا المعقل الحسرات سميت بذلك لان من رآها يتحسر اذ انظرها ولا يستطيع على شئ منها بحيلة وهى خراب مفروغة من ذهب وفضة تركت برأى من الناظرين ليشتهر ذلك فى الآفاق وقال العادل مرة وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم ممن ذكر فى كتاب المستجاد فى حكايات الاجواد انما هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والاكابر للسخاء وتبذير الاموال فقال خضير يا خوند ولاى شئ ما يكذبون عليك قال ابن سعيد من وقف على حكايات أبى العيناء مع عبيد الله ابن سليمان يجد مثل هذه الحكاية قال ابن سعيد ووجدت الشهاب القوصى قد ذكر السلطان العادل فى كتاب المعاجم وابتدأ الكتاب المذكور بمحاسنه والثناء عليه وخرج عنه الحديث النبوى عن الحافظ السلفى وتمثل فيه عند وفاته

ألا م على بكائى خير ملك * وقل له بكائى بالنجيع
به كان الشباب جميع عمرى * ودهرى كله زمن الربيع
ففرق بيننا زمن خؤون * له شغف بتفريق الجميع

قال ابن سعيد ودفن العادل بمدرسة العادلية بدمشق وكان أنشأها للشافعية وهى فى نهاية الحسن وبها خزانة كتب فيها تاريخ ابن عساكر وذيل هذا التاريخ واختصره أبو شامة سمعت عليه منه هنالك ما تيسر أيام اقامتى بدمشق وأولاد العادل ملوك البلاد فى صدر هذه المائة السابعة منهم الكامل والمعظم والاشرف وهؤلاء الثلاثة شهروا بالفضل وحب الفضلاء وقول الشعراء انتهى وقال ابن سعيد فى ترجمة الرئيس صفى الدين أحمد بن سعيد المرغانى وهو من بيت وزارة ورياسة بدمشق ان من شعره قوله

كيف طابت نفوسكم بفراق * وفراق الاحباب مر المذاق
لو علمتم بلوعتى وصبابا * تى ووجدى وزفرتى واحتراقى
لرثيتم للمستهام المعنى * ووفيتم بالعهد والميثاق

قال ابن سعيد وقفت على ذكر هذا الرئيس فى كتاب تاج المعاجم ووجدت صاحبه الشهاب القوصى قد قال أخبرنى بدمشق أنه قد كان عزم على السفر منها الى مصر لامر ضاق به صدره فهتف به هاتف فى النوم وأنشده

يا أحمد اقنع بالذى أعطيته * ان كنت لا ترضى لنفسك ذلها
ودع التكاثر فى الغنى لمعاشر * أضحوا على جمع الدراهم ولها
واعلم بأن الله جل جلاله * لم يخلق الدنيا لاجلك كلها

فانثنى

فأثنى عزمه عن الحركة ثم بلغ ما أمله دون سفر وقال ابن سعيد في ترجمة المنتجب أحمد بن عبد الكريم الدمشقي المعروف بدفترخوان وهو الذي يقرأ الدفاتر بين أيدي الملوك والاكابر انه كان يقرأ الدفاتر بين يدي العادل بن أيوب وكان يكتب له بالاشعار في المواسم والفصول فينال من خيره وكتب له مرة وقد أظل الشتاء في دمشق فقال

مولاي جاء الشتاء * والكيس منه خلاء
لازال يجري بما تر * ضى علاك القضاء
وكل كاف اليه * يحتاج فيه الثواء

فقال له العادل هذا الضمير الذي في البيت الاول على ماذا يعود قال بحسب مكارم السلطان ان شئت على الدراهم وان شئت على الدنانير فضحك وقال هات كيسك فأخرج له كيسا يسع قدر مائة دينار فملأه له وقال أظنه كان معدا عندك فقال مثل السلطان من يكون جوده مظنونا وكتب اليه مرة وقد أملق

أنظر الي بعين جودك مرة * فلعل محروم المطالب يرزق
طير الرجاء على علاك محلق * وأظنه سيعود وهو مخلق

فأعطاه جملة دنانير وقال له اشتر بهذه ما تخلق به طير رجائك انتهى وأنشد ابن سعيد رحمه الله تعالى لبعض المغاربة وهو أبو الحسن علي بن مروان الرباطي الكاتب

أنس أخي الفضل كتاب أنيق * أوصاحب يعنى بود وثيق
فان تعسره دون رهن به * تخسره أو تخسر وداد الصديق
وربما تخسر هذا وذا * فاسمع رعاك الله نصح الشفيق

قال وأجابه المخاطب بهذه الابيات وهو ابن الربيب بنثر نصه مثلك يفيد تجربة قد نفق عليها عمر وضل عن فوائدها غر وقد أنفذت رهنا لا يسمح باخراجه الا مثلك فتفضل بتوجيه الجزء الاول فأنا اعلم أنه عندك مثل ولدك قال فوجهه ومعه بطاقة صغيرة فيها يا أخي ان عرضت بولدي فكذلك كنت مع والدي وقد توارثنا العقوق كابرا عن كابر فكن شاكرا فاني صابر ثم قال ابن سعيد وتفاقم أمر ولده فقيده بقيد حديد وقال فيه

لي ولد بالسه * لم يك عندي يخلق
يجهد في كل الذي * يرغم وهو يعشق
وان أكن قيدته * دمعي عليه مطلق

وذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيرا ما يستعير الكتب فاذا طلبت منه فكأنها ما كانت فذكر لبعض أصحابه وهو ابن الربيب المؤرخ أن عنده نسخة جليلة من تاريخ غريب الذي لخص فيه تاريخ الطبري واستدرك عليه ما هو من شرطه وذيل ما حدث بعده فأرسل اليه في استعارتها فكتب اليه يا أخي سدد الله آراءك وجعل عقلك أمامك لا وراءك ما يلزمني من كونك مضيعا أن أكون كذلك والنسخة التي رمت اعارتها هي مؤنسي اذا أوحشني الناس وكاتم سري اذا خانوني فما أعيرها الا بشيء أعلم أنك تتأذى بفقده اذا فقد جزء من النسخة وأنا الذي أقول أنس أخي الفضل كتاب أنيق الى آخره

وأنشد للكاتب أبي الحسن المذكور

انّ ذاك العذار قام بعذرى * وشفا فيه للعواذل سرّى
ما رأينا من قبل ذلك مسكا * صاغ منه الاله هالة بدر
أيّ آس من حول جنة ورد * ليس منه آس مدى الدهر يبرى

ولما اشتدّ مرضه بين تلمسان وفاس قال هذه الابيات وأوصى أن تكتب على قبره

الا رحم الله حيا دعا * لميت قضى بالفلا نحبه
تمرّ السوافى على قبره * فتهدى لاحبابه تربه
وليس له عمل يرتجى * ولكنه يرتجى ربه

انتهى

*(رجع) الى نظم ابن سعيد المترجم به فنقول وقال لما سار المعظم من حصن كيفا وآل أمره الى الملك ثم القتل والهلاك

ليت المعظم لم يسر من حصنه * يوما ولا وافى الى أملاكه
انّ العناصر اذ رأته مكملا * حسدته فاجتمعت على اهلاكه

*ومما نقلته من ديوانه الذى رتبه على حروف المعجم قوله رحمه الله تعالى وقلت بالقاهرة على لسان من كافئ ذلك

شرف الدين بن لى ما السبب * فى انقلاب الدهر لى عند الغضب
فلتدم غضبان أظفر بالمنى * ليس لى فى غير هذا من أرب
انما ظهرك عندى قبلة * ووضوئى الدهر من ذاك الشنب

وأستغفر الله من قول الكذب قال وقلت باشبيلية

قد جاء نصر الله والفتح * والصبح لما رضيت صبح
فهنئونى بارتجاع المنى * لولا الرضا ما برح البرح
يا أورقا يا غصنا يا نقا * يا ظبية بالليل يا صبح
يصحو جميع الناس من سكرهم * ولست من سكركم أصحو
بلغت فيه غاية لم يبن * غايتها التفسير والشرح
وينصح العذال من لى بأن * يعدلنى عن غيك النصح

وقلت باشبيلية

وضح الصبح فأين القدح * يعرف اللذات من يصطبح
ما ترى الليل كطرف أدهم * وضياء الفجر فيه وضح
والثرى دبجه درّ الندى * وعلى الاغصان منه وشح
ومدير الراح لم يعد المنى * كل ما يأتى به مقترح
فى بطاح المرج قد نادمنى * رشأ من سكره ينبطح
جعل المسواك سترا للمنى * فكأن قبل فاه قزح
كلما شئت الذى قد شاءه * نحّى كاسه اقتح
ما أبالى ان رآنى كاشح * أم رآنى من لديه نصح

هكذا العيش ودع عيش الذى * خاف من نقد اذا يفتضح

وقلت بشريش

طاب الشراب لمعشر * سلبوا المروءة فاستراحوا
لايعرفون تسترا * السكر عندهم مباح
متهتكون لدى المنى * وفسادهم فيها اصلاح
ساقيهم مبتذل * هل يمنع الماء القراح
غصن يميل به الصبا * ردته طوع الراح راح
طوع الامانى كلما * يأتى به فهو اقتراح
ما ان يبالى ان بدا * الا يلوح لنا الصباح
مازلت أرشف ثغره * وعليه من عضدى وشاح
والقلب يهفو طائرا * ولعا ولايخشى افتضاح
ولواننا نخشاه كا * ن لنا من الظلما جناح
لكننا فى عصبة * مافى تهتكهم جناح
لايشكرون سوى ثقيـ * ـل لايميل به مزاح
أفنى الذى قد جمعو * ه الكاس والحدق الملاح

وقلت بمراكش

قم هاتها لاح الصباح * ما العيش الا الاصطباح
مع فتية ماد أبهم * الا المروءة والسماح
جربتهم فوجدتهم * ما للمنى عنهم براح
يثنيهم نحو الصبى * نقر المثانى والمراح
مانادموا شخصا فكا * ن لهم بخدمته استراح
بل يعرفون مكانه * فله اذا شاء اقتراح
هم يتعبون وضيفهم * مادام عندهم يراح
ماان يملون النزيـ * ـل وبالرضا منه السراح
يدعونه بأجل ما * يدعى به الحر الصراح
حتى اذا ما بان كد * ر عيشهم منه انتزاح
فعلى مثالهم يبا * ح لى المدامع والنواح
كرها فقدتهم فما * لى بعد بعدهم ارتياح
لله شوقى ان هفت * من نحو أرضهم الرياح
فهنالك قلبى طائر * لهم ومن شوقى جناح

قال وقلت بمدينة ابن السليم فى وصف كلب صيد أسود فى عنقه بياض

وأدهم دون حلى ظل حالى * كأن ليلا يقلده صباح
يطير وماله ريش ولكن * متى يهفو فأربعه جناح

تحكى الطير مهما نازعته * وتحسده اذا مرّ الرياح
له الالحاظ مهما جاء سلك * ومهما سار فهى له وشاح

وقلت فى نيل مصر

يا نيل مصر أين حمص ونهرها * حيث المناظر أنجم تلتاح
فى كل شط للنواظر مسرح * تدعو اليه منازح وبطاح
واذا سبحت قلت أسبح خائفا * ما فيه تياح ولا تمساح

قال وقلت وقد حضرت مع اخوان لى بموضع يعرف بالسلطانية على نهر اشبيلية وقد مالت الشمس للغروب

رق الاصيل فواصل الاقداحا * واشرب الى وقت الصباح صباحا
وانظر لشمس الافق طائرة وقد * ألقت على صفح الخليج جناحا
فاظفر بصفو الافق قبل غروبها * واستنطق المثنى واحث الراحا
متع جفونك فى الحديقة قبل أن * يكسو الظلام جمالها أمساحا

وقلت بمرسية

أقلقه وجده فباحا * وزاد تبريحه فناحا
ورام يثنى الدموع لما * جرت فزادت له جماحا
يا من جفا فارقين عليه * مستعبدا لا يرى السراحا
يكابد الموت كل حين * لو أنه مات لاستراحا
ينزو اذا ما الرياح هبت * كأنه يعشق الرياحا
يسألها عن ربوع حمص * لما غدا عرفها وفاحا
كم قد بكى للحمام كيما * يعيره نحوها جناحا

قال وخرجت مرة مع أبى اسحق ابراهيم بن سهل الاسرائيلى الى مرج الفضة بنهر اشبيلية فتشاركنا فى هذا الشعر

غيرى يميل الى كلام اللاحى * ويمد راحته لغير الراح
لا سيما والغصن يزهر زهره * ويميل عطف الشارب المرتاح
وقد استطار القلب ساجع ايكة * من كل ما أشكوه ليس بصاح
قد بان عنه جناحه عجبا له * من جانح للعجز حلف جناح
بين الرياض وقد غدا فى مأتم * وتخاله قد ظل فى افراح
الغصن يرح تحته والنهر فى * قصف ترجيه يد الارواح
وكأنما الانسام فوق جنانه * أعلام خز فوق سمر رماح
لا غرو ان قامت عليه أسطر * لما رأته مدرعا لكفاح
فاذا تتابع موجه لدفاعه * مالت عليه فظل حلف صياح

قال وقلت بمالقة متشوقا الى الجزيرة الخضراء

يا نسيما من نحو تلك النواحى * كيف بالله نور تلك البطاح

أسقتها الغمام ريا فلاحت * في رداء ومئزر ووشاح
أم جفته فصيرته هشيما * تركته تذروه هوج الرياح
يا زماني بالحاجبية اني * لست من سكر ما سقيت بصاحي
آه مما لقيت بعدك من هم وشوق وغربة وانتزاح
أين قوم ألفتهم قبلك لما * قرب الدهر آذنوا بالرواح
تركوني أسير وجد وشوق * مالقلبي من الجوى من سراح
أسلموني للويل حتى تولوا * وأصاخوا لظالم القول اللواحي
أعرضوا ثم عرضوني لشوق * ترك القلب مثخنا بجراح
أسهر الليل لست أغفا لصبح * أترى النوم ذاهبا بالصباح
قد بدا يظهر النجوم حليا * وهو من لبسة الصبا في براح
مسبلا ستره منعم بال * وجفوني من سهده في كفاح
أيها الليل لا تؤمل خلودا * عن قريب يمحوظلامك ماحي
ويلوح الصباح مشرق نور * فيه للمستهام بدء نجاح
ان يوم الفراق بدد شملي * طائرا ليته بغير جناح
حالك اللون شبه لونك فاعرف * عن عياني يا شبه طير التزاح
واذا ما بدا الصباح فما يشـ * ـبه الا لون الخدود الملاح

وقلت بالجزيرة الخضراء

قد رفعت راية الصباح * تدعو الندامى للاصطباح
فبادروا للصبوح اني * قد بعت في غيه صلاحي
ولا تملوا عن رشف ثغر * وسمع شدو وشرب راح
وأنت يا من يروم نصحي * قد يئس القوم من فلاحي
لست أصغي الى نصيح * ما نهضت بالكؤس راحي

قال وقلت أمدح ملك افريقية وأهنيه بقتل ثائر من زناتة يدعي أنه من نسل يعقوب المنصور

برح بي من ليس عنه براح * ومن رأى قتلي حلالا مباح
من صرح الدمع بحبي له * ومالقلبي عن هواه سراح
ظبي عدمت الصبح مذ صدني * وكيف لا يعدم وهو الصباح
مورد الخد شهي اللما * منعم الردف جذيب الوشاح
تظنه من قلبه جلمدا * ومنه للماء بجفني انسياح
لردفه أضعف من صبه * ولم أزل من لحظه في كفاح
نشوان من ريقته عربدت * أجفانه بالمرهفات الصفاح
فها أنا قد خافت مثل ما * أنا أسير مثخن بالجراح
يا قاتلي صدا أما تستحي * أن تلزم الجدل بأرض السماح

من ذا الذى يخل فى تونس * والملح فيها صار عذبا قراح
وأصبحت ارجاؤها جنة * مبيضة الابراج خضراء البطاح
لولا ندى يحيى وتد بيره * ما برحت تعتبر منها النواح
لكن يداه سحب كلما * حلت بأرض حل فيها النجاح
هذا وقد آمن من حلها * وحقها من غربة وانتزاح
كم شتتوا من قبل تأميره * وحكمت فيهم عوالى الرماح
يا سائرا يرجو بلوغ المنا * با كرذرى يحيى وقل لارواح
وحيه بالمدح فهو الذى * يهتز كالهندى حين امتداح
بالشرق والغرب غدا ذكره * يحث من حمد وشكر جناح
ساعده السعد وأضحت له الامال تجرى بغير اقتراح
ويسر الله له ملكه * من غير أن يشهر فيه السلاح
وكل من كان على غيره * ذا منعة أمسى به مستباح
وكم جموح عند ما قام بالامر رأى القهر فخلى الجماح
كف بكف للندى والردى * بها معان وهى خرس فصاح
حتى لقد أحسن من سعده * تجرى على ما يرتضيه الرياح
قولوا ليعقوب فاذا جئ * وابن أبى حمزة ماذا استباح
قد أصبحا من فوق جذعين لا * يؤنسهم غير هبوب الرياح
واسأل عن الداعى الدعى الذى * حاول أمرا كان عنه الصراح
أكان من صبره والدا * بزعمه أمّل فيه فلاح
شكرا لسعد لم يدع فرقة * قد صير الملك كضرب القداح
راموا بلا جاه ولا محتد * ما حزت بالحق فكان افتضاح
زناتة يهنيكم فعلكم * عاجلكم ثاركم باجتياح
كفى ماقدمتم آخرا * والخير لن يبرح للشرماح
عهدى به فى موكب الملك ما * بينكم نشوان من غير راح
يحسب أن الارض ملك له * وروحه ملك لسمر الرماح
غدا بعز الملك لكنه * أهون مملوك على الارض راح
جاؤا به يمرح فى عزه * وهم أزالوا عنه ذاك المراح
توقعوا فى القرب منه الردى * من صحبة الاجرب يخشى الصحاح
فأسرعوا نحو الذى يغون ما * عودتهم من عطفة والتماح
فغادروه جانبا غدره * لطائر البين عليه نياح
فالحمد لله على كل ما * سنى لك السعد برغم اللواح
مثلك لا ينقد ما شاءه * فلست تأتى الدهر الاصلاح
لازلت فى عز وفى مكنة * وفى سرور دائم وانفساح

قال وقلت ببنيونش موضع الفرجة بسبتة

اشرب على بنيونش * بين الدوالى والبطاح
مع فتية مثل النجو * م لهم اذا مرّوا جماح
ساقيهم متبذل * لايمنع الماء القراح
كلي يدّعيه * مافى الذى يأتى جناح
هبوا عليه كلما * هبت على الروض الرياح
طوع الامانى كلما * يأتى به فهو اقتراح
عانقته حتى تركـ * ـت بخصره أثر الوشاح

وقلت باشبيلية

أوجه صبح أم الصباح * ولحظها أم ظبي الصفاح
وثغرها أم نظيم درّ * وريقها أم سلاف راح
وقدها أم قوام غصن * وعرفها أم شذا البطاح
يا حبذا زورة تأتت * منها على غفلة اللواح
فلم أصدق بها سرورا * وظلت نشوان دون راح
أما منعت السلام دهرا * ولا رسول سوى الرياح
قالت ألا فانس ماتقضى * فمن يدع مامضى استراح
ياحبذا ها وقد تأتت * من دون وعد ولا اقتراح
زارت ومن نورها دليل * والليل قد أسبل الجناح
أخفت سراها فباح نشر * لها بعرف فشا وفاح
وافت فأمسى فى مداما * وساعداى لها وشاح
كأنما بت بين روض * والغصن والورد والاقاح
فبينما الشمل فى انتظام * اذ سمعت داعى الفلاح
فغادرتنى فقلت عذرا * قالت أما تحذر افتضاح
ولت وماخلت من صباح * يبدو على اثره صباح

قال وقلت بتونس

لا مرحبا بالتين لما بدا * يسحب من ليل عليه الوشاح
ممزق الجلباب يحكى ضحى * هامة زنجى عليها جراح
وان تصحفه فلا حبذا * ماقد أتى تصحيفه بانتزاح

وقلت بالجزيرة الخضراء وقد كلفت ذلك

غرامى بأقوال العدى كيف ينسخ * وعهدى وقد أحكمته كيف يفسخ
كلامكم لايدخل السمع نصحه * ولكن اذا حرضتم ليس يرسخ
وبى بدر تم قد ذلت لحسنه * فمن ذا الذى فيما أتيت يوبخ
اذا خاصمونى فى هواه خصمتهم * ويغرون تنقيصى بذاك فأشمخ

أرى أن لي فضلا على كل عاشق * فقصتنا في الدهر مما يؤرخ
فما بشر مثلي له في جماله * ووجدي به في العشق ليس له أخ

وقلت بالاسكندرية وقد تعذر علي الحج عند وصولي اليها سنة تسع وثلاثين وستمائة

قرب المزار ولا زمان يسعد * كم ذا أقرب ما أراه يبعد
وارحمة لمتيم ذي غربة * ومع التغرب فاته ما يقصد
قد سار من أقصى المغارب قاصدا * من لذ فيه مسيره اذ يجهد
فلكم بحار مع قفار جبتها * تلقى بها الصمصام ذعرا يرعد
كابدتها عربا وروما ليتني * اذ جزت صعب صراطها لا اطرد
يا سائرين ليثرب بلغتمو * قد عاقني عنها الزمان الانكد
أعلمتمو ان طرت دون محلها * سبقا وها انا اذ تداني مقعد
يا عاذلي فيما أكابد قل في * ما أبتغيه صبابة وتسهد
لم تلق ما لقيته فعذلتني * لا يعذر المشتاق الا مكمد
لو كنت تعلم ما أروم دنوه * ما كنت في هذا الغرام تفند
لا طاب عيشي أو أحل بطيبة * أفق به خير الانام محمد
صلى عليه من براه خيرة * من خلقه فهو الجميع المفرد
يا ليتني بلغت لثم ترابه * فيزاد سعدا من بنعمى يسعد
فهناك لو أعطى مناي محلة * من دونها حل السهى والفرقد
عيني شكت رمدا وأنت شفاؤها * من دائها ذاك الثرى لا الاثمد
يا خير خلق الله مهما غبت عن * عليا مشاهدها فقلبي يشهد
ما باختيار القلب يترك جسمه * غير الزمان له بذلك تشهد
يا جنة الخلد التي قد جئتها * من دون بابك للجحيم توقد
صرم التواصل ذبل وصوارم * ما للجليد على تقحمها يد
فلئن حرمت بلوغ ما أملته * فلدي ذكرى لا تزال تردد
فلتنعشوا مني الذماء بذكره * ما دمت عن تلك المعالم أبعد
لولاه ما بقيت حياتي ساعة * هو لي اذا دامت اشتياقا مولد
ذكر يليه من الثناء سحائب * أبدا على مر الزمان يجدد
من ذا الذي نرجوه لليوم الذي * يقصي الظماء به ويحمي المورد
يا لهف من وافي هنالك ما له * من حبه ذخر به يتزود
٢١ ما أرتجي عملا ولكن أرتجي * ثقتي به ولحسب من يتزود
ما صح ايمان خلا من حبه * أبلا رياش يستعد مهند
عن ذكره لا حلت عنه لحظة * ومديحه في كل حفل أسرد
يا مادحا يبغي ثوابا زائلا * فثواب مدحي في الجنان أخلد
لولا رسول الله لم ندر الهدى * وبه غدا نرجو النجاة ونسعد

يارحمة

يارحمة للعالمين بعثت والدنيا بجنح الكفر ليل أربد
أطلعت صبحا ساطعا فهديت للايمان الامين يجحد ويجحد
لم تخش في مولاك لومة لائم * حتى أقر به الكفور الملحد
ونصرت دين الله غير محاذر * ودعوت في الاخرى الالى قد أصعدوا
ولقيت من حرب الاعادي شدة * لو كابدوها ساعة لتبددوا
ابان لا أحد عليهم عاضد * الا الاله ولم يخن من يعضد
فحماك بالغار الذى هو من أدل المعجزات وخاب من يترصد
ووقاك من سم الذراع بلطفه * كما يغاظ بك العدا والحسد
والجذع حن اليك والماء انهمى * مابين خمسك والصحابة شهد
والذئب أنطق للذى أضحى به * يهدى الى سبل النجاح ويرشد
وبليلة الاسرا حباك وسمى الصديق من أضحى بقولك يسعد
وحباك بالخلق العظيم ومعجز الكلم الذى يهدى به اذ يورد
وبعثت بالقرآن غير معارض * فيه وأمسى من تحداه يعقد
فتوالت الاحقاب وهو مبرأ * من أن يكون له مثال يوجد
ولكم بليغ جال فى فصل خطابه * والسرج فى ضوء الغزالة تهمد
وزويت لك الارض التى لازال يو * م الحشر ربك فى ذراها يعبد
ونصرت بالرعب الذى لما يزل * يترى كأن ماعين شخصك تفقد
فتى تعرض طاعن أو حاد عن * حرم الهداية فالحسام مجرد
يامن تخير من ذؤابة هاشم * نعم الفخار لها ونعم المحتد
لسنا لشحين بدايا آدم أقبلت * رعيا الاخراه الملائك تسجد
لم أستطع حصر الما أعطيته * فذكرت بعضا واعتذارى منشد
ماذا أقول اذا وصفت محمدا * نفد الكلام ووصفه لاينفد
فعليك ياخير الخلائق كلها * منى التحية والسلام السرمد

قال وقلت باشبيلية

هل تمنع النهود * ماأبدت الخدود
نعم وكم طعين * بطعنها شهيد
يا ربة المحيا * حفت به السعود
لم تسكر الحميا * بل ريقك البرود
لله يا عذولى * ماتكتم البرود
مازلت فيه أفنى * والوجد مستزيد
يا هل ترى زمانا * مضى لنا يعود
لدى الغروس سقت * جنابها العهود
حيث الغصون مالت * كأنها قدود

وزهرها نظيم * كأنه عقود
حمامها تغنى * أعطافها تميد
وبالنسيم شقت * انهرها برود
فروعه سيوف * وسوره بنود
هناك كم دعتنى * الى الورود رود
فنلت كل سؤل * يفنى به الحسود
قضيت فيه عيشا * مابعده مزيد
أضحى به وأمسى * مرفها أميد
كأننى يزيد * كأننى الوليد
يجرى الزمان طوعى * بكل ماأريد
الخمر ملكتنى * فالخلق لى عبيد
يحق لى اذا ما * أبصرتها تجود
فهاأنا اذا ما * فقدتها فقيد
يامن يلوم بغيا * العذل لايفيد
اذا عدمت كاسى * فليس لى وجود

قال وقلت باشبيلية

أو مانظرت الى الحمامة تنشد * والغصن من طرب بها يتأود
وشاره تلقاه جائزة لها * لمايزل بيد النسيم يسدد
ألقى عليها الطل بردا سابغا * فنشاؤه طول الزمان يردد
أترى الحمامة من محب مخلص * أولى بشكر حين تغمره يد
فلانثنين عليك ما أنى بأعشى لى الغصن جنان الهذيل مغرد
كم نعمة لى فى جنابك كم أكا * بد جهدها ايان برك يجهد

وقال

أرى العين منى تحسد الاذن كلما * جرت مدحة للعلم والفضل والمجد
أحقق أنباء ولم ار صورة * كتحقيق الاخبار عن جنة الخلد
فرّ على عينى بلقياك اننى * أخذت لها أمنا بذلك من السهد

قال وقلت أمدح ابن عمى وأشكره على ماأذكره

آه مماتكن فيك الجوانح * ودموعى على نوالك سوافح
واشتفاء من العدو وبين * كدر العيش أى عيش لنازح
ياأتم الانام حسنا أماتحسن حتى يتم اطراء مادح
يازمان الوصال عودا فانى * طوحت بى لماغدرت الطوائح
أين عيش العروس اذ يطع البكر حبيبى مابين تلك الاباطح
والامانى تترى ولا أحد ينصح اذ لا يصغى الى قول ناصح

وزمان السرور سمح مطيع * ورسول الحبيب غاد ورائح
ولكم ليلة أتاني بلا طيب ولكن يزرى بأذكى الروائح
هو طيب فليس يحتاج طيبا * قد كفاه عرف من المسك فائح
مثل عليا محمد لم تكن كسبا ومالا يكون في الطبع فاضح
يا كريما أتى من الجود مالا * كان يدرى فوحدته المدائح
وعلا كل ذى علاء وأضحى * نحو مالا يرومه الناس طامح
قد أتاني احسانك الغمر في اثر سواه فكنت أكمل مادح
فاض بحر النوال منك ولا ساحل يبدو ولم أزل فيه سابح
حلل مثل ما كسوتك في المد * ح تميت العدا ومال وسائح
أوردا لورد منطق كل شكر * حين أضحى طوع البنان مسامح
لون خد الحبيب حين كسوه * حلة الحسن بالعيون اللوائح
شفق سال بين عينيه صبح * حسنه قيد اللحاظ السوارح
لم أجد فيه من جناح ولكن * تنائى عليك مازال جانح
لك يا ابن الحسين ذكر جميل * صير الكل نحو بابك جانح
قد هدى نحوك الثناء كما يهدى * الى الروض باسمات النوافح
فاعذر الناس ان أتوك أفوا * جا فكل بقصد فضلك رابح
ماهدتهم اليك الا الامانى * لم تحلهم الا عليك القرائح
قل لذى المفخر الحديث تأخر * ليس مهر في شأوه مثل قارح
أى أصل وأى فرع أقاما * شرفا طال للنجوم يناطح
قد حوت مذحج من الفخر لما * كنت منها ما ليس يحويه شارح
أفق مجد قد زانه منك بدر * في ظلام الخطوب مازال لائح
بدر تم حفت به هالة من * بيت مجد علاؤها الدهر واضح
يا سماكا علي كالقسم الاعلى بدا * بين أنجم الملك رامح
رفع الله للكتابة قدرا * بعدما كابدت توالى الفضائح
يا أعز الانام نفسا وأعلا * هم محلا لا زال أمرك راجح
أين أعداؤك الذين رعى سيفك فيهم فأشبهوا قوم صالح
أفسد الدهر حالهم ليرى طا * لك رغما بين ناويك طامح
دمت في عزة وسعد مدى الدهر * ولا زال طائر منك سانح

وابن عمه المذكور قال في حقه في المغرب ما ملخصه انه الرئيس الاعلى ذو الفضائل الجمة أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبى الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد قال واجتماع نسبنا مع هذا الرئيس في سعيد بن خلف وهو الآن قد اشتمل عليه ملك افريقية اشتمال المقلة على انسانها * وقدمه في مهماته تقديم الصعدة لسنانها * وأقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس واعتزل فيها بعسكر الاندلس الذين صيرهم الملك

المنصو الى نظره وهو كما قال الفتح صاحب القلائد فقد جاء آخرهم فخذ دمفاخرهم ومن نظمه وقد نزل على من قدم له مشروبا أسود اللون غليظا وخروبا وزبيبا أسود وزبيبا كثير الغصون جاءت به عجوز فى طبق

ويوم نزلنا بعبد العزيز * فلا قدس الله عبد العزيز
سقانا شرابا كلون الهناء * ونقلنا بقرون العنوز
وجاءت عجوز فأهدت لنا * زبيبا كخيلان خد العجوز انتهى

ونزل السلطان أبو يحيى فى بعض حركاته لموضع فيه نهر وعلى شطه نور فقال الرئيس أبو عبد الله بن الحسين يصفه أو أمر بذلك

ونهر يرف الزهر فى جنباته * ويثنى النسيم قضبه ويقنطر
يسيل كما عن الصباح بأفقه * والا كما شيم الحسام المجوهر
عليه ليحيى قبة هل سمعتم * بقرصة شمس حل فيها غضنفر
فان قلت هذى قبة لعفاتها * فقل ذلك الوادى الذى سال كوثر

وقال أبو عمرو أحمد بن مالك بن سعيد المرالخمى النشابى فى ذلك

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت * جداول ماء دونها تتفجر
كما سحبت تبغى الحياة أراقم * على روضة فيها الاقاح المنور
والا كما شقت سبائك فضة * بساطا على حافاته الدر ينثر

وقال أبو على بن يونس

انظر الى منظر يسبيك منظره * ويزدهيك باذن الله مخبره
ومعجب معجب لاشئ يشبهه * خرير ماء غمير تم منهره
كانما فرشت بالدر صفحته * فالماء ينظمه طورا وينثره
كأن خلجانه قدت على قدر * بما تقسم يجرى مفجره
أحل سيدنا المأمون قبته * بحوزه فغدا يزدان جعفره

*(رجع الى ما كنا فيه من اخبار الرئيس بن الحسين فنقول رأيت بالمغرب آخر كتابه روح الشعر من نسخة ملوكية كتبت له أبياتا أعلق بحفظى منها الآن ما نصه

تم روح الشعر نسخا فأتى * معصبا باليمن والفخر البعيد
لابى عبد الاله المرتقى * فى ذرى المجد الرئيس ابن سعيد

ولم أحفظ تمام الابيات * وقال أبو الحسين على بن سعيد كتبت اليه من أبيات بحضرة تونس وقد نقل اليه بعض الحساد ما أوجب تغيره

ومن بعد هذا قد أتيت بزلة * أما حسن أن لا تضيق به صدرا
وعلك حسبى بالامور فانى * عهدتك تدرى سر أمرى والجهرا
وقد أصلح الله الامور بسعيكم * وبيتكم صلحا على البشر والبشرى
ولم يبق لى الارضاك فانه * كنيت ولو حرفا أطيب به العمرا
فبقيت كهفا للجميع وموئلا * ولازلت مادام الزمان لنا سترا

فيكتب

فكتب الى هذه الابيات وكان متمرضا وبعث الى بما يذكر

أ كف الصبا حفت جنى زهر الربى * سؤالك عن مضنى يسامى بك الزهرا
بعثت بمثل الزهر فى مثل صفحة * لذلك ما قلدتها الشذر والدرا
معان لها أعنو وأعنى بها فكم * وقفت عليها العين والسمع والفكرا
فلو عرضت للبحر لم يلفظ الدرا * ولو عارضت هاروت لم ينفث السحرا
أبا حسن هنيت ما قد منحته * ضروبا من الآداب تحلى بها الدهرا
ودونك بحرا من ودادى تلاطمت * به زاخرات المد لا يعرف الجزرا
فان خطرت فى جانب منك هفوة * فلا تحسبن انى أضيق بها صدرا
بزل جواد عند ما يلبغ المدى * ويعثر بالرمث القسيم اذا أسرى
فدع ذا وخذها شاتبات قرونها * عروبا لعوبا جائزا حكمها بكرا
ولو غادرت أوصافها مترنما * لشنفت من أشعارها اذن الشعرا
ألا فاجتبنها عن صديق مصمم * فان قصارى العمر أن يبكى العمرا
ومن كان ذا حجر ونبل ورقة * فلا يخلون الا على الخمرة الحمرا
قرنت بها صفراء لم تعرف الهوى * ولا ألفت وصلا ولا عرفت هجرا
ولا ضمخت نضح العبير وان غدت * تؤخره لونا وتفضحه نشرا
فان خلتها بنت الظليم أطلها * فقد فرش الاذخر من تحتها تبرا
لها نسب بين الثريا والثرى * وسل برباها المزن والغصن النضرا
فشر بادهاقا وا نتشاقا ولا ترم * عن البيت فترا أوتقيم به شهرا

وله فى الخشكلان

هو الاهلة لكن * تدعونه خشكلانا
فان تفاءلت صحف * تجد حبيبك لانا

انتهى باختصار

وحظى المذكور جدّا عند السلطان ملك افريقية أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص ولما مات السلطان المذكور وحدثت فتنة بموته واختلاف ثم استقرت الدولة لابنه الشهير الكبير القدر أبى عبد الله المستنصر ممدوح حازم بالمقصورة وقاتل ابن الابار القضاعى سخط على الرئيس ابن الحسين المذكور وقبض على دياره وأمواله وصيره كالمحبوس فكتب اليه رقعة يطلب الاجتماع به فى مصلحة للدولة فاحضره وسأله فأخبره بأن أباه صنع دارا عظيمة تحت الارض وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة لسلطانه ولم يترك على وجه الارض من له علم بهذا الموضع الذى أودعه نفائس أمواله غيرى وأوصانى انه اذا انتقل الى جوار ربه اذ توقع أن تقع فتنة بين أقاربه انه اذا انقضت سنة واستقر الامر لاحد من ولدى أومن تيقن انه يصلح لامور المسلمين فأطلعه على هذه الذخائر بما فنيت الاموال بالفتنة فلا يجد القائم بالامر ما يصلح به الدولة اذا تفرغ للتدبير والسياسة ففرح السلطان وبادر الى تلك الدار فرأى ما ملأ عينه وسر قلبه وخرج الرئيس ابن الحسين والخيل تجنب امامه وبدر الاموال بين يديه وأعاده الى أحسن

أحواله وجعله وزير الديه كما كان أبوه مفوضا أموره اليه وقال السلطان ان من أوجب شكر الله على أن افتتح المال بأن أؤدى منه للرعية الذين نهبت دورهم واحترقت فى الفتنة التى كانت بنى وبين أقاربى ما خسروه وأمر بالنداء فيهم وأحضرهم وكل من حلف على شئ قبضه وانصرف وكان السلطان المستنصر المذكور فى بعض متصيداته فكتب لابى عبد الله الرئيس المذكور يأمره باحضار الاجناد لاخذ أرزاقهم بقوله

ليحضر كل ليث ذى منال * زكا فرعا الاسداء النوال
غدا يوم الخميس فما شغلنا * بأسد الوحش عن أسد الرجال

وحكى ان السلطان المذكور عرض مرة أجناده وقيل بل سلم عليه الموحدون يوم عيد بتونس وفيهم شاب وسيم اسم جده النعمان فسأله السلطان عن اسمه وأعجبه حسنه فخجل واحمر وجهه وازداد حسنا فقال السلطان هذا المصراع كلمته فكلمت صفحة خده وسأل من الحاضرين الاجازة فلم يأتوا بشئ فقال السلطان مجيزا شطره فتفتحت فيها شقائق جده وهذا من البديع مع ما فيه من التورية والتجنيس ومما نسبه له أبو حيان بسنده اليه

مالى عليك سوى الدموع معين * ان كنت تغدر فى الهوى وتخون
من منجدى غير الدموع وانها * لمغيثة مهما استغاث حزين
الله يعلم أن ما حملتنى * صعب ولكن فى رضاك يهون

وكان للسلطان المذكور سعد يضرب به المثل حتى انه كتب له السلطان صاحب مكة البيعة من انشاء ابن سبعين المتصوف كما ذكر ذلك ابن خلدون فى تاريخه الكبير وسرد نصها وهى من الغرائب ومن سعده ان الفرنسيس الذى كان أسر بمصر وجعل فى دار ابن لقمان والطواشى صبيح يحرسه لما سرح نيامن أمم النصرانية لبلاد المسلمين بعالم يجتمع قط مثله حتى قيل انهم كانوا ألف ألف فكتب اليه أهل مصر من نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التى منها

قل للفرنسيس اذا جئته * مقالة من ذى لسان فصيح

الى ان قال

دار ابن لقمان على حالها * ومصر مصر والطواشى صبيح

والقصيدة مشهورة فلذلك لم أسردها فصرف الفرنسيس جيوشه الى تونس فكتب اليه بعض أدباء دولة المستنصر

افرنسيس تونس أخت مصر * فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر * وطواشيك منكر ونكير

فقضى الله سبحانه وتعالى انه مات فى حركته لتونس وغنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قط ويقال انه دس اليه سيفا مسموما من سله أثر فيه سمه وقلده رسولا اليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره وقال للرسول ان الفرنسيس رجل كثير الطمع ولولا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره وانه سيرى السيف ويكثر النظر اليه

فاذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقبله وقل له هذا هدية مني اليك لان من آداب نا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعاود النظر اليه بالقصد فلا بد أن يكون له ويحرم علينا أن نمسكه لان ما أحبه المولى على العبيد حرام وتكرار النظر اليه دليل على حبه له ففرح النصراني بذلك وأسرع الرسول العود الى سلطانه فسل النصراني السيف فتمكن فيه السم بالنظر فمات في الحين وفرج الله تعالى عن المسلمين *(رجع) الى أخبار أبي الحسن علي بن سعيد قال ابن العديم في تاريخ حلب أنشد في شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي بالقاهرة في أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي يشير الى كتاب أبي الحسن الذي جمعه في محاسن المغرب وسماه المغرب

سعد الغرب وازدهى الشرق عجبا * وابتهاجا بمغرب ابن سعيد
طلعت شمسه من الغرب تجلى * فأقامت قيامة التقييد
لم يدع للمؤرخين مقالا * لا ولا للرواة بيت نشيد
ان تلاه على الحمام تغنت * ما على ذا في حسنه من مزيد

وأنشد أبو العباس التيفاشي لنفسه فيه

يا طيب الاصل والفرع الزكي كما * يبدو جنى ثمر من أطيب الشجر
ومن خلائقه مثل النسيم اذا * يغدو على الزهر حول النهر في السحر
ومن محياه والله الشهيد اذا * يبدو الى بصري أبهى من القمر
أثقلت ظهري ببر لا أقوم به * لو كنت أتلوه قرآ نا مسع السور
أهديت للغرب مجموعا بعالمه * في قاب قوسين بين السمع والبصر
كأنني الآن قد شاهدت أجمعه * بكل من فيه من بدو ومن حضر
نعم ولاقيت أهل الفضل كلهم * في مدتي هذه والاعصر الاخر
ان كنت لم أرهم في الصدر من عمري * فقد رددت على الصدر من عمري
وكنت لي واحدا فيهم بجمعهم * ما يعجز الله جمع الخلق في بشر
جزيت أفضل ما يجزى به بشر * مفيد عمر جديد الفضل مبتكر انتهى

ومن نظم أبي الحسن بن سعيد قوله

وعشية بلغت بنا أيدي النوى * منها محاسن جامعات للنخب
حدائق ما بينهن جداول * وبلابل فوق الغصون لها طرب
والنخل أمثال العرائس لبسها * خز وحليتها قلائد من ذهب

ومن نظمه رحمه الله تعالى في حلب قوله

حادي العيس كم تنيخ المطايا * سق فروحي من بعدهم في سياق
حلب انها مقر غرامي * ومرامي وقبلة الاشواق
لا خلا جوسق وبطياس والسعـ * ـدى منكل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه يسقي المنى بكاس دهاق
وتغني طيوره لارتياح * وتثني غصونه للعناق

وعلو الشهباء حيث استدارت * أنجم الافق حولها كالنطاق

وقوله أيضا في حماة

حمى الله من شطى حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل * وتزهى مبان تخجل الواصف الوصفا
يلومون أن أعصى التصون والنهى * بها وأطيع الكاس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعير شدوها * وأغلبها رقصا وأشبهها عرفا
تئن وتذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرآها وتسالها العطفا

وقوله في وداع ابن عمه وكتب بهما اليه

وداع كما ودعت فصل ربيع * يفض ضلوعي أو يفيض دموعي
لئن قيل في بعض يفارق بعضه * فاني قد فارقت منك جميعي

قال فارسل الى احسانا واعتذر ولسان الحال ينشد عنه

أحبك في البتول وفي أبيها * ولكني أحبك من بعيد

وقوله وقد أفلت المركب الذي كان فيه من العدو

انظر الى مركبنا منقذا * من العدى من بعد احراز
أفلت منهم فغدا طائرا * كطائر أفلت من باز

وقال رحمه الله تعالى لما خرج من حدود افريقية

رفيق جاوزنا حدود مواطن * صحبنا بها الايام طلقا محياها
وما ان تركناها لجهل بقدرها * ولكن ثنت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها * الى أن يمن الله يوما بلقياها

وكان وصوله الاسكندرية في السابع والعشرين من ربيع الاول سنة تسع وثلاثين وستمائة * وقال رحمه الله تعالى أخذت مع والدي يوما في اختلاف مذاهب الناس وأنهم لا يسلمون لاحد في اختياره فقال متى أردت أن يسلم لك أحد في هذا التأليف أعني المغرب ولا يعترض أتعبت نفسك باطلا وطلبت غاية لا تدركها وأنا أضرب لك مثلا يحكى ان رجلا من عقلاء الناس كان له ولد فقال له يوما يا أبي ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل ولو سعيت في مجانبتها سلمت من نقدهم فقال يا بني انك غر لم تجرب الامور وان رضا الناس غاية لا تدرك وأنا أوقفك على حقيقة ذلك وكان عنده حمار فقال له اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشيا فبينما هو كذلك اذ قال رجل انظر ما أقل هذا الغلام بأدب يركب ويمشي أبوه وانظر ما أشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا فقال له انزل أركب أنا وامش أنت خلفي فقال شخص آخر انظر هذا الشخص ما أقل شفقته ركب وترك ابنه يمشي فقال له اركب معي فقال شخص أشقاهما الله تعالى انظر كيف ركبا على الحمار وكان في واحد منهما كفاية فقال له انزل بنا وقدماه وليس عليه راكب فقال شخص لا خفف الله تعالى عنهما انظر كيف تركا الحمار فارغا وجعلا يمشيان خلفه فقال يا بني سمعت كلامهم وعلمت أن

أحد الا يسلم من اعتراض الناس على أى حالة كان اعتراضهم انتهى وقال فى أثناء خطبة المغرب مانصه والحمد لله الذى جعل الادب أفضل ما اكتسب وأفضل ما انتخب اذهو ذخر لا يخاف كساده وكنز لا يخشى انتقاصه وان كثر من تاده ولله در القائل

رأيت جميع الكسب يفقده الفتى * ويبقى له أخلاقه والتأدب
اذا حل فى أرض أقام لنفسه * بآدابه قدرا به يتكسب
وأومأ كل نحوه ولعله * الى غير أهل لنباهة ينسب

وقال فى أثناء الكلام لبعض المغاربة

فأثبت فى كل المواطن همة * الى طلب العلم الذى كان مطرح
وصيرت من قد كان بالنظم جاهلا * يحاوله كيما يجود للك المدح

وقال أيضا فى الخطبة وبعد فهذا كتاب راحة قد تعبت فى جمعه الاسماع والابصار والافكار وكل عنى سهل اذا أنجح القصد وقد بدئ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة ومنتهاه الى غرة سنة احدى وأربعين وستمائة قال وأول من كان السبب فى ابتداء هذا الكتاب جد والدى عبد الملك بن سعيد وهو اذ ذاك صاحب قلعة بنى سعيد تحت طاعة على ابن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر الى أن استبد بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وقصده فى سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الاندلس أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن الحجارى وصنف له كتاب المسهب فى غرائب المغرب فى نحو ستة أسفار وابتدأ فيه من فتح الاندلس الى التاريخ الذى ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ثم ثار فى خاطر عبد الملك أن يضيف اليه ما أغفله الحجارى وولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد وأضافا له ما استمداداه ولم يزل يزيد الى أن استبد به محمد فاعتنى به أشد اعتناء ثم استبد به والدى وكان أعلمهم بهذا الشان وبلغ من اجتهاده فى هذا الكتاب أنى أذكره يوما وقد نوه بها ابن هود وهو ملك الاندلس وولاه الجزيرة الخضراء فأعلمه شخص ان عند أحد المنسوبين الى بيت نباهة كراريس من شعر شعرائها وأخبار رؤسائها الذين تحتوى عليهم دولة بنى عبد المؤمن فأرسل اليه راغبا فى استعارتها فأبى وقال على يمين أن لا تخرج عن منزلى وقال ان كانت له حاجة يأتى على رأسه وكان جاهلا فلما سمع والدى ضحك فقال لى سر معى اليه فقلت له ومن يكون هذا حتى تمشى له على هذه الصورة فقال انى لا أمشى له ولكن أمشى للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين فى موضع أنفت أن أمشى اليهم قلت لا قال فان الاثر ينوب عن العين فشينا الى منزل الرجل فوالله ما أنصفنا فى اللقاء فلما قضينا منها الغرض صرفها اليه والدى وشكره وقال هذه فائدة لم أجدها عند غيرك فجزاك الله تعالى خيرا ثم انفصل وقال ألم تعلم يا بنى انى سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية وان هذا والله أول السعادة وعنوان نجاحها والقلعة التى كان بها بنو سعيد تعرف بهم فيقال لها قلعة بنى سعيد وكانت تعرف قبل بقلعة اسطلير وهو عين لها وقال الملاحى فى تاريخه انها تعرف بقلعة يحصب قبل من اليمن نزل بها عند فتح الاندلس

وبها كما مر صنف الحجارى كتاب المسهب لصاحبها عبد الملك بن سعيد وفى بنى سعيد يقول الحجارى

قوم لهم فى فخرهم * شرف الحديث مع القديم
ورثوا الندى والبأس والعلياء كريما عن كريم
من كل وضاح به * يجلى دجى الليل البهيم

وكان أول من دخل الاندلس من ولد عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه عبد الله بن سعيد ابن عمار وقد ذكره ابن حيان فى مقتبسه وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى صاحب الاندلس آخر دولة بنى أمية بالمشرق كتب الله أن يدافع عبد الرحمن بن معاوية المروانى الداخل للاندلس وكان اذذاك أميرا على اليمانية من جند دمشق وانما ركن اليه فى محاربة عبد الرحمن لما بين بنى عمار وبنى أمية من الثار بسبب قتل عمار بصفين على يد عسكر معاوية رضى الله تعالى عنه وكان عمار من شيعة على رضى الله تعالى عنهما وقال الحجارى أنشدنى بكر بن محمد بن سعيد صاحب أعمال غرناطة فى مدة الملثمين لنفسه فيما يليق بجنسه

ان لم أكن للعلاء أهلا * بما تراه فمن يكون
وكل ما أبتغيه دونى * ولى على همتى ديون
ومن يرم ما يقل عنه * فذاك من فعله جنون
فرع بأفق السماء سام * وأصله راسخ مكين

ومن نظمه قوله أيضا

الله يعلم أنى * أحب كسب المعالى
وانما أتوانى * عنها لسوء المآل
تحتاج للكد والبذ * ل واصطفاف الرجال
دع كل من شاء يسمو * لها بكل احتيال
فما لهم بانعكاس * فيها وما لى حالى

ولما ذكر ابن سعيد فى المغرب ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبى العباس أحمد الغسانى كاتب ملك افريقية قال بماذا أصفه ولو أن النجوم تصير لى نثرا لما كنت أنصفه وكفاك أنى اختبرت الفضلاء من البحر المحيط الى حضرة القاهرة فما رأيت أحسن ولا أفضل عشرة منه ولما فارقته لم أشعر الا برسالته قد وافتنى بالاسكندرية من تونس وفيها قصيدة فريدة منها

ايه أبا الحسن استمع شدوى فقد * يصفى الحمام اذا الحمام ترنما

ثم سرد بعضا من القصيدة وستأتى قريبا ان شاء الله تعالى بزيادة على ماذكر منها فى المغرب *(رجع) وجد بخطه رحمه الله تعالى آخر الجزء من كتاب المغرب ما نصه أجزت الشيخ القاضى الاجل أبا الفضل أحمد بن الشيخ القاضى أبى يعقوب التيفاشى أن يروى عنى مصنفى هذا وهو المغرب فى محاسن المغرب ويرويه من شاء ثقة بفهمه واستنامة الى علمه

وكذلك

وكذلك أجزت لفتاه النبيه جمال الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن خطلخ الفارسي الارموي أن يرويه عني ويرويه من شاء وكتبه مصنفه علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد في تاريخ الفراغ من نسخ هذا السفر انتهى وقال في وسيم من أبناء العجم صحبه في الطريق من حلب الى بغداد فمات وكان ظريفا أديبا

لهفي على غصن ذوى * أفقدته لما استوى
ريان من ماء الصبا * ومن المدامع ما ارتوى
لا تعذلوني ان نطقت الدهر فيه عن الهوى
كم ضل صاحبه بسحر الحظ منه وكم غوى
أنا لا أفيق الدهر فيه من الصبابة والجوى
ان الهوى حيا وميتا لا يزال به سوى
كم قد نويت به النعيم فقدّر الله النوى
دار السلام حويت من * كل المحاسن قد حوى
مجموع حسن قد ثوى * في جنة وبها ثوى

وولد أبو الحسن علي بن موسى بن محمد يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان عام عشرة وستمائة وهو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار ابن ياسر رضي الله تعالى عنه وقال في المغرب لما عرّف بوالده الكاتب الشهير أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ما ملخصه لولا أنه والدي لاطنبت في ذكره ووفيته من الوصف حق قدره لكن كفاه وصفا ما أثبت له في هذه الترجمة وما مرّ له ويمر في أثناء هذا الكتاب وكون كل من اشتغل بهذا التأليف نهرا وهو بحر واشتهاره في حفظه التاريخ والاعتناء بالآداب في بلاده بحيث لا يحتاج الى تنبيه ولا اطناب وله من النظم والنثر ما تضيع الاقلام من كثرته ويستمد القطر من درته ومما شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعا وستين سنة ولم أره يوما تخلى عن مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده حتى ان أيام الاعياد لا يخليها من ذلك ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب فقلت له يا سيدي أفي هذا اليوم لا تستريح فنظر الي كالمغضب وقال أظنك لا تفلح أبدا أترى الراحة في غير هذا والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها ولوددت ان الله تعالى يضاعف عمري حتى أتم كتاب المغرب على غرضي قال فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشان ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف الى ما تراه وكان أولع الناس بالتجول في البلدان ومشاهدة الفضلاء واستفادة ما يرى وما يسمع وفي نزوعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول

يا مفنيا عمره في الكاس والوتر * وراعيا في الدجى للانجم الزهر
يبكي حبيبا جفاه أو يشادم من * يهفو لديه كغصن باسم الزهر
منعما بين لذات يحققها * ولا يخلد من خبر ولا سير

وعاذلا لى فى ما طلت أكتبه * يبدى التعجب من صبرى ومن فكرى
يقول مالك قد أفنيت عمرك فى * حبر وطرس عن الاغصان والحبر
وظلت تسهر طول الليل فى تعب * ولا تنى أمد الايام فى ضجر
أتقصر فانى أدرى بالذى طمحت * لا فقه همتى واسأل عن الاثر
واسمع القول الذى تنبى محاسنه * من بعد ما صار مثل الترب كالسور
جمال ذى الارض كانوا فى الحياة وهم * بعد الممات جمال الكتب والسير انتهى

وولد أبو عمران موسى بن محمد فى الخامس من رجب عام ثلاثة وسبعين وخمسمائة وتوفى بثغر الاسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوال عام أربعين وستمائة وولد أبوه محمد بن عبد الملك صاحب أعمال غرناطة وأعمال اشبيلية عام أربعة عشر وخمسمائة وتوفى بشعبان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بغرناطة وكان محمد بن عبد الملك وزيرا جليلا بعيد الصيت عالى الذكر رفيع الهمة كثير الاموال وذكره ابن صاحب الصلات فى كتابه تاريخ الموحدين ونبه على مكانته منهم فى الحظوة والاخذ فى أمور الناس وأثنى عليه وذكره السهيلى فى شرح السيرة الشريفة حيث ذكر الكتاب الموجه من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل وأن محمد بن عبد الملك عاينه عند أدفونش مكرما مفتخرا به والقصة مشهورة ومدحه الرصافى بقصيدة أولها

ذهنا يفيض وخاطرا متوقدا * ماذا عسى يثنى على علم الندى

ولما أنشده قصيدته فيه التى أولها

لجلالك الترفيع والتعظيم * ولوجهك التقديس والتكريم

حلف لا يسمعها وقال على اجازتك ولكن طباعى لا تحمل مثل هذا فقال له الرصافى ومن مثلك يستحق هذا فى الوقت غيرك فقال له دعنى من خداعك أنا وما أعلمه من قلبى وأنشده فى الطالع السعيد

فلا تظهرن ما كان فى الصدر كامنا * ولا تركبن بالغيظ فى مركب وعر
ولا تبحثن فى عذر من جاء تائبا * فليس كريما من يباحث فى العذر

وولى للموحدين أعمالا كثيرة بمراكش وسلا واشبيلية وغرناطة واتصلت ولايته على أعمال غرناطة وكان من شيوخها وأعيانها وكتب عليه عقدان فى داره من الحلى وأصنافه مالا يمكن الا فى دار الملك وأنه اذا ركب فى صلاة الصبح شوش عليه نباح الكلاب فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمه صاحب أعمال افريقية أبى الحسين سنة ٥٩٣ ثم رضى عنهما وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كلما أخذ منه فصرفه عليه ولم ينقص منه شيأ وغرم له ما فات منه وهذا مما يدل على قوة سعد محمد بن عبد الملك المذكور ونباهة قدره وحسبه من الفخر مدح أديب الاندلس وشاعرها أبى عبد الله الرصافى له وهو ممن يمدح الخلفاء فى ذلك العصر رحمه الله تعالى وولد أبوه عبد الملك بن سعيد عام ستة وتسعين وأربعمائة وتوفى بحضرة مراكش عام اثنين وستين وخمسمائة قال الحجارى لما مات يحيى ابن غانية الملثم ملك الاندلس بحضرة غرناطة وكان وزيره ومدبر دولته عبد الملك بن سعيد

بادر الى غرناطة عندما سمع بوثبة الى قلعته وثار بها وطلبه خليفة يحيى بن غانية طلحة بن العنبر فوجده قد فاته وقد قدمنا أن عبد الملك هذا هو السبب فى تأليف كتاب المغرب فى أخبار المغرب ثم تممه ابنه محمد بن عبد الملك ثم تمم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ثم أوفى على الكل فى اتمامه أبو الحسن على بن موسى الذى قصدناه بالترجمة فى هذا الكتاب وقد ذكرنا من أحواله جملة كافية ومن فوائد ابن سعيد أبى الحسن ما حكاه عن صاحب كتاب الكمائم وهو فأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن وهو الذى عليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب اليه ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ونسب المدينة اليه فقيل فسطاط عمرو وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر فاتخذوها سرير السلطنة وتضاعفت عمارتها فأقبل الناس من كل جانب اليها وقصروا أمانيهم عليها الى أن رسخت بها دولة بنى طولون فبنوا الى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن الى جانب القاهرة وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها وتحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد وبها منتزهات وهى فى الاقليم الثالث ولا ينزل فيها مطر الا فى النادر وترابها ينتن الارجل وهو قبيح اللون تستكدر منه ارجاؤها ويسوء بسببه هواؤها ولها أسواق ضخمة الا أنها ضيقة ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط فى الاعتناء بها بعد الافراط وبينهما نحو ميلين وأنشدت فيها للشريف العقيلى

أحن الى الفسطاط شوقا وانتى * لادعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها * وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها * ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب اخبار والفسطاط هو قصبة مصر والجبل المقطم شرقيها وهو متصل بجبل الزمرد وقال عن كتاب ابن حوقل الفسطاط مدينة عظيمة ينقسم النيل لديها وهى كبيرة ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيب واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام فيها ضيق ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات على ممر الايام خضرة وفى الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها كالكوفة والبصرة الا انها أقل من ذلك وهى سبخة الارض غير نقية التربة وتكون الدار بها سبع طبقات وخمسا وستا وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس ومعظم بنيانهم بالطوب وأسفل دورهم غير مسكون وبها مسجدان للجمعة بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الفسطاط والآخر على الموقف بناه ابن طولون وكان خارج الفسطاط ابنية بناها أحمد بن طولون ميلا فى ميل يسكنها جنده وتعرف بالقطائع كما بنى بنو الاغلب خارج القيروان رقادة وقد خربتا فى وقتنا هذا وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة قال ابن سعيد ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط فسار معى اليها أحد أصحاب القرية فرأيت عند

باب زويلة من الحجر المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها فى بلد فركبت منها حمارا وأشار الى أن أركب حمارا آخر فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته فى بلاد المغرب فأخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت وعند ما استويت راكبا أشار المكارى الى الحمار فطار بى وأثار من الغبار الاسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى وعاينت ما كرهته ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكارى وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت

لقيت بمصر أشد البوار * ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الريا * ح لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى * الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثرى * وألحد فيها ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته وقلت له احسانك أن تتركنى أمشى على رجلى ومشيت الى أن بلغتها وقدرت فى الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى الى خراب معمور بمبانى مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الاسود والازبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال الى أن صرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا تفى به الا مشاهدته ومقاساته الى أن انتهيت الى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الاسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع اشبيلية وجامع مراكش ثم دخلت اليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة اقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق والباعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك والناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا وفضلات ما كلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة الا أنه مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جامع اشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والانس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى ساحته عند بنائه واستحسنت ما أبصرته من حلق المتصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن وسألت عن مواد أرزاقهم فأخبرت انها من فروض

الزكاة وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب الا بالجاه والتعب ثم انفصلنا من هنالك الى ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض الا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التى تصل من جميع أقطار النيل ولئن قلت انى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فانى أقول حقا والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعة قد توسطت الماء ومالت الى جهة القسطاط وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من القسطاط الى الجزيرة وهو غير طويل ومن الجانب الآخر الى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة اليه وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب لان هذين الجسرين قد احتزما لحصولهما فى حيز قلعة السلطان ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين القسطاط والجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل فقلت

نزلنا من القسطاط أحسن منزل * بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة * كسرب قطا أضحى يرف على ورد
وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمى * ويطرب أحيانا ويلعب بالنرد
حلا ماؤه كالريق ممن أحبه * فمدت عليه حلة من حلى الخد
وقد كان مثل النهر من قبل مده * فأصبح لما زاده المد كالورد

وقلت هذا لانى لم أذق فى المياه أحلى من مائه وأنه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض فاذا كان عباب النيل صار أحمر وأنشدنى علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح القسطاط

حبذا القسطاط من والدة * جنبت اولادها دار الجفا
يرد النيل اليها كدرا * فاذا مازج أهليها صفا
لطفوا فالمزن لا تألفهم * خجلا لما رآهم ألطفا

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل القسطاط حتى انهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين والحاصل ان أهل القسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والالفة ما يطول ذكره وأما ما يرد على القسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد وبالقسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى لان القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالقسطاط وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الاشياء الرفيعة السلطانية والخراب فى القسطاط كثير والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الاجناد فيها وقد نفق روح الاعتناء والنموّ فى مدينة القسطاط الآن لمجاورتها الجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة وبنى على

سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر انتهى قال المقريزي يعني ابن سعيد ما بقي على شقة مصر من جهة النيل انتهى وقال ابن سعيد المذكور في المغرب من حلى المغرب ما ملخصه الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة وبها مقياس النيل وكانت منتزها لأهل مصر فاختارها الملك الصالح ابن الملك الكامل سرير السلطنة وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالي السمك لم ترعيني أحسن منه وفي هذه الجزيرة كان الهودج الذي بناه الخليفة الآمر لزوجته البدوية التي هام في حبها والمختار بستان الاخشيد وقصره وله ذكر في شعر تميم بن المعز وغيره ولشعراء مصر في هذه الجزيرة أشعار منها قول أبي الفتح بن قادوس الدمياطي

أرى سرج الجزيرة من بعيد * كأحداق تغازل في المغازل
كأن مجرة الجوزاء حطت * وأثبتت المنازل في المنازل

قال وكنت أبيت بعض الليالي بالفسطاط فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل مع سور هذه الجزيرة الدري اللون ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت اليه همة بانيها وهو من أعظم السلاطين في البناء وأبصرت بهذه الجزيرة ايوانا للجلوس لم ترعيني مثاله ولا يقدر ما انفق عليه وفيه من صحائف الذهب والرخام الابنوسي والكافوري والمجزع ما يذهل الافكار ويستوقف الابصار ويفصل عما أحاط به السور أرض طويلة في بعضها حاظر حصر فيه أصناف الوحوش التي يتفرج عليها السلطان وبعدها مروج تنقطع فيها مياه النيل فتنظر فيها أحسن منظر قال وقد تفرجت كثيرا في طرق هذه الجزيرة مما يلي أثر الفسطاط فقطعت به عشيات مذهبات لم تزل لأحزان الغربة مذهبات واذا زاد النيل فصل برها عن بر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ويبقى موضع الجسر تكون فيه المراكب انتهى وأورد الصفدي في تذكرته لابن سعيد المذكور في هذه الجزيرة

انظر الى سور الجزيرة في الدجى * والبدر يلثم منه ثغرا أشنبا
تتضاحك الانوار في جنباته * فتريك فوق النيل أمرا معجبا
بيناتراه مفضضا في جانب * أبصرت منه في سواه مذهبا
لله مرأى ما رآه ناظري * الا خلعت له المقام تطربا

وقال في المغرب نقلا عن بعضهم ما صورته وأما مدينة القاهرة فهي الحالية الباهرة التي تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها واتخذوها قطبا لخلافتهم ومركزا لارجائها فنسي الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط وسميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها قال ابن سعيد هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لانها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية الى البحر المحيط

وسارت مسير الشمس في كل بلدة * وهبت هبوب الريح في البر والبحر

لاسيما وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة المنصورية الى جانب القيروان وعاين المهدية

مدينة

مدينة جده عبيد الله المهدى لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة وهى ناطقة الى الآن بألسن الآثار ولله در القائل

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

ولم يزل من بعده الخلفاء المصريون فى الزيادة فى تلك القصور وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بنى قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن وكان يجلس فيها خلفاؤهم ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبانى عظيمة جليلة الآثار وأبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ذكر لى أنهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى لان هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه الى أمد ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما يضيق به الصدور وتسخن منه العيون ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الامراء وهو فى موكب جليل وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان فى موضع طباخين والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك فى جملتهم وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين ومن عيوب القاهرة انها فى أرض النيل الاعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها واذا احتاج الانسان الى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور الى موضع يعرف بالمقس وجوها لا يبرح كدرا مما تثيره الارض من التراب الاسود وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقى من الحض على العود فيها

يقولون سافر الى القاهره * ومالى بها راحة ظاهره
زحام وضيق وكرب وما * تثير بها أرجل سائره

وعند ما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا وجوا مغبرا فتنقبض نفسه ويفر انسه وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة لاسيما أرض القرط والكتان وقلت

سقى الله أرضا كلما زرت روضها * كساها وحلاها بمنظره القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها * وفى كل قطر من جوانبها قرط

وفيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى

مازالت الامحال تأخذه * حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت فى نوار الكتان على جانبى الخليج

انظر الى النهر والكتان يرمقه * من جانبيه باجفان لها حدق
رأته سيفا عليه للصبا شطب * فقابلته بأحداق بها أرق
وأصبحت فى يد الارواح تنسجها * حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فلم تزرها ووجه الارض مصطبح * أوعند صفوته ان كنت تغتبق

وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لانها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب وفى ذلك قيل

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت * بها المناظر كالاهداب للبصر
كأنما هى والابصار ترمقها * كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها وقد قابلتها الشمس بالغدوة فقلت

انظر الى بركة الفيل التى نحرت * لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك مجنونا ببهجتها * يهيم وجدا وحبا فى بدائعها

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط والمراكب التى تصل بالخيرات تحط هنالك ويباع مايصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لانه بعد عن المدينة والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لانها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم ديارا لسكنى الامراء فيها لانها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز وسائر الاشياء التى تتزين بها الرجال والنساء الأن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط وانتقل اليها كثير من الامراء وضخمت أسواقها وبنى فيها السلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة ينقل اليها من القاهرة سوق الاجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك الى أن قال وهى الآن عظيمة آهلة يجبى اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال مالا يحيط بجملته وتفسيره الا خالق الكل جل وعلا وهى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيما ولا عذابا ولا يطالب برفيق له اذا مات فيقال له تركته عندك مالا فربما سجن فى شأنه أوضرب وعصر والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماع والفرج فى ظواهرها ودواخلها وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو صحبة مردان وما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب وسائر الفقراء لا يتعرضون اليهم بالقبض للاسطول الا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف وهم فى القدوم عليها بين حالين ان كان المغربى غنيا طولب بالزكاة وضيق عليه وان كان مجردا فقيرا حمل الى السجن حتى يحين وقت الاسطول وفى القاهرة أزاهر كثيرة غير منقطعة الاتصال وهذا الشأن فى الديار المصرية يفضل كثيرا من البلاد وفى اجتماع النرجس والورد فيها أقول

من فضل النرجس وهو الذى * يرضى بحكم الورد اذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا * وقام فى خدمته النرجس

وأكثر ما فيهما من الثمرات والفواكه الرمان والموز أما التفاح والاجاص فقليل غال وكذلك الخوخ وفيها الورد والنرجس والنسرين والنيلوفر والبنفسج والياسمين والليمون الاخضر والاصفر وأما العنب والتين فقليل غال ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه الا القليل ومع هذا فشرابه عندهم فى غاية الغلاء وعامتها يشربون المزر الابيض المتخذ من الحنطة حتى ان الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه ولا ينكر فيها اظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذوات الاوتار ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك فى بعض الاحيان وهو ضيق عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب وللسرج فى جانبيه بالليل منظر وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر فى الليل وفى ذلك أقول

لا تركبن فى خليج مصر * الا اذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه * من عالم كلهم طغام
صفان للحرب قد أطلا * سلاح ما بينهم كلام
ياسيدى لا تسر اليه * الا اذا هوّم النيام
والليل ستر على التصابى * عليه من فضله لثام
والسرج قد بددت عليه * منها دنانير لا ترام
وهو قد امتد والمبانى * عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا * هناك أثمارها الاثام

قال المقريزى وفيه تحامل كثير انتهى ومن نظر بعين الانصاف علم أن التحامل فى نسبة التحامل اليه والله تعالى الموفق *(قال ابن سعيد ومعاملة الفسطاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية وفى المعاملة بها شدة وخسارة فى البيع والشراء ومخاصمة بين الفريقين وكان بها قديما الفلوس فقطعها الملك الكامل فبقيت الآن مقطوعة منها وهى فى الاقليم الثالث وهواؤها ردىء لا سيما اذا هب المريسى من جهة القبلة وأيضا فرمد العين فيها كثير والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء وجوامك المدارس قليلة كدرة وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى فى كتابة الطب والخراج والنصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم واليهود بعمائم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة ومأكل أهل القاهرة البطارخ ولا تصنع حلاوة القمح الابها وبغيرها من الديار المصرية وفيها جوار طباخات أصل تعلمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ولهن فى الطبخ صنائع عجيبة ورياسة متقدمة ومطابخ السكر

والمواضع التى يصنع بها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة انتهى المقصود من هذا الموضع من كلام أبى الحسن النور بن سعيد رحمه الله تعالى وقال رحمه الله

لم ذا تقيم بمصر * معتمدا بذويها
وكيف ترجو نداهم * والسحب تحل فيها

وقال رحمه الله تعالى

لابن الزبير مكارم أضحت بها * طير المدائح فى البلاد تغرد
ان قدوه و بالقوافى عصره * فالكرم يقصر والجواد يقيد

ولنذكر بعض أخبار والده فانه ممن رحل الى المشرق وتوفى باسكندرية وقد ذكر ابنه أبو الحسن فى المغرب وغيره من أخباره العجائب ولا بأس بأن نلم بشئ من ذلك سوى ما تقدم فنقول من أخباره انه لما اجتاز بمالقة ومشرفها الاذ الأ أبو على بن بقى وجه اليه من نقل أسبابه الى داره وأقبل عليه منشدا

أكذا يجوز القطر لا ينثنى على * أرض توالى جدبها من بعده
الله يعلم أنها ما أنبتت * زهرا ولا ثمرا بعدة فقده
عرج عليها ساعة يا من له * حسب يفوق العالمين بمجده
وانثر عليها من أزاهرك التى * تشفى المتيم من لواعج وجده
والله ماذاكرت فكرك ساعة * الا وأقبس خاطرى من زنده

قال موسى فارتجلت للحين

أنت الذى تعرف كيف العلا * وتبتدى فى سبل المجد
بدأت بالفضل المنير الذى * أكمل بدر الشكر والحمد
والله ما أبصرتكم ساعة * الا بدا لى طالع السعد

وانصرفت معه الى منزله قال

فلم أزل فى كرامه * ليست كظل غمامه

ولما كان أبو عمران موسى بن سعيد بالجزيرة الخضراء مقدما على اعمالها من قبل ابن هود وصله كتاب من الفقيه القاضى أبى عبد الله محمد بن عسكر قاضى مالقة مع أحد الادباء منه

أفاتح من قلب بعليا اه واثق * وان كانت الابصار لم تنسج الودا
وثقت بمالى من ذمام تشيعى * بآل سعيد وابتغيت به السعدا
وبالحب يدنو كل من أقصت النوى * برغم حجاب للنوى بيننا مدا

ياسيدى الذى حلى ما أمال اسماعى من الثناء عليه ان اهجم على مفاتحته شافعا فى موصلها اليه واثقا بالفرع لعلم الاصل مؤملا للافضال بتحقق الفضل ان لم تقض باجتماع بيننا الايام فلا تجرى بالمشافهة بيننا الا ألسن الاقلام ويوحى بعضنا الى بعض بسور الوداد والحمد لله الذى أطلعك فى ذلك الافق بدرا وأدناك من هذه الدار فصرنا أقرب من يردعنك لا نعدم لك ذكرا فكل يثنى بالذى علمت سعد ويصف من خلالك

ما يقضى ذلك المجد ولما كان احسانك يبشر به الصادر والوارد ويحرص عليه الغائب والشاهد مد أملى بحولك وصل هذه الفاتحة وليس له وسيلة ولا بضاعة الا الادب وهى عند بيتك الكريم رابحة وهو من شتت خطوب هذا الزمان شمله وأبانت نوائبه صبره وفضله وما طمح ببصره الا الى أفقك ولا وجه رجاءه الا نحو طرقك والرجاء من فضلك أن يعود وقد أثنت حقائبه وأعنقت من الجدر كائبه دمت غرة فى الزمن البهيم مخصوصا بأفضل التحية والتسليم انتهى * وابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحر فى العلوم وله كتاب فى أنساب بنى سعيد أصحاب هذه الترجمة ومن شعره

أهوى الديار وأهوى الذى * يعذلنى فيك وأهوى الرقيب
والجار والدار ومن حلها * وكل من مر بها من قريب
وكل مبد شبها منكم * وكل من يلفظ باسم الحبيب

*(رجع) قال ابنه على لما أردت النهوض من ثغر الاسكندرية الى القاهرة أول وصولى الى الاسكندرية رأى أن يكتب لى وصية أجعلها اماما فى الغربة فبقى فيها أياما الى أن كتبها عنه وهى هذه وكفى بها دليلا على ما اختبر وعلم

أودعك الرحمن فى غربتك * مرتقبا رحماه فى اوبتك
وما اختيارى كان طوع النوى * لكننى أجرى على بغيتك
فلا تطل حبل النوى انى * والله أشتاق الى طلعتك
من كان مفتونا بأبنائه * فاننى أمعنت فى فتنتك
فاختصر التوديع أخذا لما * لى ناظر يقوى على فرقتك
واجعل وصاتى نصب عين ولا * تبرح مدى الايام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنكت * فى ساعة زفت الى فطنتك
فللتجاريب أمور اذا * طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة * فانها عون الى يقظتك
وكل ما كابدته فى النوى * اياك أن يكسر من همتك
فليس يدرى أصل ذى غربة * وانما تعرف من شيمتك
وكل ما يفضى لعذر فلا * تجعله فى الغربة من ارتك
ولا تجالس من فشا جهله * واقصد لمن يرغب فى صنعتك
ولا تجادل أبدا حاسدا * فانه أدعى الى هيبتك
وامش الهوينا مظهرا عفة * وابغ رضا الاعين عن هيئتك
أفش التحيات الى اهلها * ونبه الناس على رتبتك
وانطق بحيث العى مستقبح * واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولا تزل مجتمعا طالبا * من دهرك الفرصة فى وثبتك
وكلما أبصرتها أمكنت * ثب واثقا بالله فى مكنتك
ولج على رزقك من بابه * واقصد له ما عشت فى بكرتك

وأبق من الود لذى حاسد * ضدّ ونافسه على خطتك
ووفر الجهد فمن قصده * قصدك لا تعتبه فى بغضتك
ووف كلا حقه ولتكن * تكسر عند الفخر من حدتك
ولا تكن تحقر ذا رتبة * فانه أنفع فى غربتك
وحيثما خيمت فاقصد الى * صحبة من ترجوه فى نصرتك
وللرزايا وثبة مالها * الا الذى تدخر من عدتك
ولا تقل أسلم لى وحدتى * فقد تقاسى الذل فى وحدتك
والتزم الاحوال وزنا ولا * ترجع الى ما قام فى شهوتك
ولتجعل العقل محكا وخذ * كلا بما يظهر فى نقدتك
واعتبر الناس بالفاظهم * واصحب أخا يرغب فى صحبتك
بعد اختبار منك يقضى بما * يحسن فى الاخذ من خلطتك
كم من صديق مظهر نصحه * وفكره وقف على عثرتك
اياك أن تقربه انه * عون مع الدهر على كربتك
واقنع اذا ما لم تجد مطمعا * واطمع اذا أنعشت من عسرتك
وانم غوّ النبت قد زاره * غبّ الندى واسم الى قدرتك
وان نبا دهر فوطن له * جأشك وانظره الى مدتك
فكل ذى أمر له دولة * فوقتا ما وافاك فى دولتك
ولا تضيع زمنا ممكنا * تذكاره يذكى لظى حسرتك
والشر مهما اسطعت لا تأته * فانه حوز على مهجتك

يا بنى الذى لا ناصح له مثلى ولا منصوح لى مثله قد قدمت لك فى هذا النظام ما ان اخطرته بخاطرك فى كل أوان رجوت لك حسن العاقبة ان شاء الله تعالى وان أخف منه للحفظ وأعلق بالفكر وأحق بالتقدم قول الاول

يزين الغريب اذا ما اغترب * ثلاث فمنهن حسن الادب
وثانية حسن أخلاقه * وثالثة اجتناب الريب

واذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها فى الغربة رأيتها جامعة نافعة لا يلحقك ان شاء الله تعالى مع استعمالها ندم ولا يفارقك بر ولا كرم ولله در القائل

يعد رفيع القوم من كان عاقلا * وان لم يكن فى قومه بحسيب
اذا حل أرضا عاش فيها بعقله * وما عاقل فى بلدة بغريب

وما قصر القائل حيث قال

واصبر على خلق من تعاشره * وداره فاللبيب من دارا
واتخذ الناس كلهم سكنا * ومثل الارض كلها دارا

واصغ يا بنى الى البيت الذى هو يتيمة الدهر وسلم الكرم والصبر

ولو ان أوطان الديار نبت بكم * لسكنتم الاخلاق والآدابا

اذ حسن الخلق أكرم نزيل والادب أرحب منزل ولتكن كما قال بعضهم في أديب متغرب وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد واليه قصد غير مستريب بدهره ولا منكر شيأ من أمره واذا دعاك قلبك الى صحبة من أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلف له سلما وهب في روض أخلاقه هبوب النسيم وحل بطرفه حلول الوسن وانزل بقلبه نزول المسرة حتى يتمكن لك وداده ويخلص فيك اعتقاده وطهر من الوقوع فيه لسانك وأغلق سمعك ولا ترخص في جانبه لحسود لك منه يريد ابعادك عنه لمنفعته أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته ولا تتمهد بدوام رقدته فقد نبهه الزمان ويغير منه القلب واللسان ولذا قيل اذا أحببت فأحبب هونا ما ففي الممكن أن ينقلب الصديق عدوا والعدو صديقا وانما العاقل من جعل عقله معيارا وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله وجعل نصب ناظره قول أبي الطيب

ولما صار ود الناس خبا * جزيت على ابتسام بابتسام

وفي أمثال العامة من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل فاحتذ بأمثلة من جرب واستمع الى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الاقوال فانها خلاصة عمرهم وزبدة تجاربهم ولا تتكل على عقلك فان النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غاليا بتجاربهم يربحك ويقع عليك رخيصا وان رأيت من له مروءة وعقل وتجربة فاستفد منه ولا تضيع قوله ولا فعله فان فيما تلقاه تلقيحا لعقلك وحثا لك واهتداء واياك أن تعمل بهذا البيت في كل موضع والحر يخدع بالكلام الطيب فقد قال أحدهم ما قيل أضر من هذا البيت على أهل التجمل وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه حتى تتدبره فان كان موافقا لعقلك مصلحا لحالك فراع ذلك عندك والا فانبذه نبذ النواة فليس لكل أحد تبسم ولا لكل شخص تكلم ولا الجود مما يعم به ولا حسن الظن وطيب النفس مما يعامل به كل أحد ولله در القائل

ومالي لا أوفي البرية قسطها * على قدر ما يعطي وعقلي ميزان

واياك أن تعطي من نفسك الا بقدر فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء ولا الكفء بمعاملة الاعلى ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ويثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة واسمع قول الاول وبع آجلا منك بالعاجل وأقلل من زيارة الناس ما استطعت ولا تجفهم بالجملة ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء ولا تقل أيضا أقعد في كسر بيتي ولا أرى أحدا وأستريح من الناس فان ذلك كسل داع الى الذل والمهانة واذا علم عدوك أو صديقك منك ذلك عاملاك بحسبه فازدراك الصديق وجسر عليك العدو واياك أن يغرك صاحب واحد عن أن تدخر غيره للزمان وتطيعه في عداوة سواه ففي الممكن أن يتغير عليك فتطلب اعانة عليه او استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها او كان هو في أوسع حالك وأعلى رأي بما دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره فلو اتفق لك أن تعم بمن كل صناعة وكل رياسة من يكون لك عدة لكان ذلك أولى وأصوب وسلني فاني خبير طالما والله ما صحبت الشخص أكثر عمري لا أعتد على سواه ولا أعتد الا اياه مغتبطا برأيه موثوقا في حياتي

خطابه الى أن لايحصل لى منه غير العض على البنان وقول لوكان ولوكان ولا يحملنك أيضا هذا القول أن تظنه فى كل أحد وتعجل المكافأة ولكن حسن التأنى بمقدار ما واصبر بمقدار ما والفطن لا تخفى عليه مخايل الاحوال وفى الوجوه دلالات وعلامات واصغ الى القائل

ليس ذا وجه من يضيف ولا يقـ * ـرى ولا يدفع الاذى عن حريم

فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فول وجهك عنه قبلة ترضاها واحرص جهدك على أن لا تصحب أو تخدم الارب حشمة ونعمة ومن نشأ فى رفاهية ومروءة فانك تنام معه فى مهاد العافية وان الجياد على أعراقها تجرى وأهل الاحساب والمروآت يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وصمة وقد قيل فى مجلس عبد الملك بن مروان أشرب مصعب الخمر فقال عبد الملك وهو عدوله محارب له على الملك لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ماشربه والفضل ماشهدت به الاعداء يابنى وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وتغير وقد قيل اصحب من شئت فانك مفارقه فتى فارقت أحدا فعلى حسنى فى القول والفعل فانك لا تدرى هل أنت راجع اليه فلذلك قال الاول ولما مضى سلم بكيت على سلم واياك والبيت السائر

وكنت اذا حللت بدار قوم * رحلت بخزية وتركت عارا

واحرص على ما جمع قول القائل ثلاثة تبقى لك الود فى صدر أخيك أن تبدأه بالسلام وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب الاسماء اليه واحذر كل ما بينه لك القائل كل ماتغرسه تجنيه الا ابن آدم فانك اذا غرسته يقلعك وقول الآخر ابن آدم تمسكن حتى يتمكن وقول الآخر ابن آدم ذئب مع الضعف أسد مع القوة واياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره ويحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته فجاوبه ان الصحبة رق ولا أضع رقى فى يدك حتى أعرف كيف ملكتك واستمل من عين من تعاشره وتفقد فى فلتات الألسن وصفحات الاوجه ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك أن لا تبينه فان الكلام سلاح السلم وبالانين يعرف ألم الجرح واجعل لكل امرئ أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك وآكد ما أوصيك به أن تطرح الافكار وتسلم للاقدار واقبل من الدهر ما أتاك من قر عينا بعيشه نفعه اذ الافكار تجلب الهموم وتضاعف الغموم وملازمة القطوب عنوان المصائب والخطوب يستريب به الصاحب ويشمت العدو المجانب ولا تضر بالوساوس الا نفسك لانك تنصر بها الدهر عليك ولله در القائل

اذا ما كنت للاحزان عونا * عليك مع الزمان فمن تلوم

مع أنه لا يرد عليك الغائب الحزن ولا يرعوى بطول عتبك الزمن ولقد شاهدت بغرناطة شخصا قد ألفته الهموم وعشقته الغموم من صغره الى كبره لا تراه أبدا خليا من فكرة حتى لقب بصدر الهم ومن أعجب ما رأيته منه انه يتنكد فى الشدة ولا يتعلل بأن يكون بعدها فرج ويتنكد فى الرخاء خوفا من أن لا يدوم وينشد توقع زوالا اذا قيل تم وينشد وعند التناهى يقصر المتطاول وله من الحكايات فى هذا الشأن عجائب

ومثل

ومثل هذا عمر [illegible]سود يجز ضياعا ومتى رفعك الزمان الى قوم يذمون من العلم ماتحسنه حسدا لك وقصدا لتصغير قدرك عندك وتزهيدا لك فيه فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك وتركن الى العلم الذى مدحوه فتكون مثل الغراب الذى أعجبه مشى الحجلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه ثم أراد أن يرجع الى مشيه فنسيه فبقى مخبل المشى كما قيل

حسد القطا وأراد يمشى مشيها * فأصابه ضرب من العقال
فأضل مشيته وأخطأ مشيها * فلذاك سموه أبا مرقال

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ويقول مابقى فى الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يرتاح فيه فان الذين تراهم على هذه الصفة أكثر مايكونون ممن صحبه الحرمان واستحقت طلعته للهوان وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم وعجزوا عن طلب الامور من وجوهها فاستراحوا الى الوقوع فى الناس واقامة الاعذار لانفسهم بقطع أسبابهم وتعذر أمورهم ولا تزل هذين البيتين من فكرك

لن اذا مالنت عزا * فأخو العز يلين
فاذا نابك دهر * فكما كنت تكون

وقول الآخر

* وارتفع ان قيل أقتر وانخفض ان قيل اثرى
كالغصن يسفل ما اكتسى * ثمرا ويعلو ماتعرى

ولا قول الآخر

الدر يبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

واعتقد فى الناس ماقاله القائل

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وقريب منه قول القائل

بقدر الصعود يكون الهبوط * فاياك والرتب العاليه
وكن فى مكان اذا ماسقطت * تقوم ورجلاك فى عافيه

وتحفظ بما تضمنه قول الآخر

ومن دعا الناس الى ذمه * ذموه بالحق وبالباطل

ولله در القائل

ما كل مافوق البسيطة كافيا * فاذا قنعت فكل شئ كافى

والامثال يضرب بها الذى اللبيب الحكيم وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم والفطن يقنع بالقليل ويستدل باليسير والله سبحانه خليفتى عليك لا رب سواه * تمت الوصية *

ويكفيك عنوانا على طبقته فى النثر قوله فى رسالة كتب بها الى ملك المغرب أبى محمد عبد الواحد ابن أبى يعقوب بن عبد المؤمن مهنئا له بالخلافة حين بويع بها بمراكش وكان اذ ذاك باشبيلية وكان قبل ذلك كاتبا له ومختصا به الحضرة العليه السامية السنيه الطاهرة القدسيه حضرة الامامه وجنة دار الاقامه مد الله على الاسلام ظلالها وأعلى

في سماء السعادة تمامها وكمالها وهنأ المؤمنين باستقبال امارتها وأدام لهم بركة خلافتها عبد أياديها وقديم ناديها المتوسل بقديم انادمه المتوصل بعميم النعمة وكريم المرحمه المتشرف بلسان المسرة حين أطلع الزمان هذه الغره

أتته الخلافة منقادة * اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها

موسى بن محمد بن سعيد بن محمد لازال هذا الامر العلى محمودا سعيدا ولا برح يتزيد ترقيا وصعودا

يا نعمة الله تزيدي * ان كان فيك مزيد

سلام الله الكريم يخص حضرة الاجلال والتعظيم والتقديس والتفخيم ورحمته وبركاته وبعد حمد الله الذي بلغ الاسلام بهذه الخلافة آماله وحلي بهذه الولاية السعيدة أحواله والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي أدحض الله تعالى به الكفر وضلاله وعلى آله وصحبه الطاهرين الذين سمعوا أقواله وامتثلوا أفعاله والرضا عن الامام المهدي المعلوم الذي أفاء الله به على الدين الحنيفي ظلاله وأذهب عنه طواغيته وضلاله والدعاء للمقام العالي الكريم بالسعد المتوالي والنصر الجسيم وكتب العبد وقد ملأت هذه البشرى المسرة أفقه ووسعت عليه هذه المرتبة العلية طرقه

فهذه رتبة مازلت أرقبها * فاليوم أبسط آمالي وأحتكم

ولا أقنع مني ان اقتصرت على السماء دارا والهلال للبشير سوارا والنجوم عقدا والصباح بندا حتى أسر كل أحد بشكله وأقابل كل شخص بمثله

ومن خدم الاقوام يرجون نوالهم * فاني لم أخدمك الا لاخدما

ومابعد الخلافة رتبه ودون تيسير تحط كل هضبه فالحمد لله رب العالمين وهنيأ لعباده المؤمنين حيث نظر لهم بنظر رحمه فأسبل عليهم ستر هذه النعمه

ولقد علمت بأن ذلك معصم * ما كان يتركه بغير سوار

والله أعلم حيث يجعل رسالاته والى من يشير بآياته فلله صباح ذلك اليوم السعيد وليلته لقد سفر عن وجه من البشرى أضاءت الآفاق شرقا وغربا بأغرته ولقد اجتمعت آراء السداد حتى أتت الاسلام بالمراد فأخذ القوس باريها وحل بالدار بانيها هنيأ زادك الرحمن لطفا وخيرا ولا برحت المسرات تسير الملك سيرا وهل يصلح النور الا للمقل وهل يليق بالحسن الا الحلل فالآن مهد الله الدين وأفاض العدل على العدوتين وقدم للنظر من لا يعزب عن حفظه مكان ولا يختص بحفظه انسان دون انسان خليفة له النفس العمريه والآراء العمريه والفراسة الاياسيه ولا ينبئك مثل خبير فلقد شاهد العبد ما لا يحصره تفسير ولعمري لقد صار الصباح في اشراق النهار ولم يخف عنا ما زاد الدنيا من البهجات والمسار وشملت الناس هذه البشائر وعمت كل باد وحاضر وأصاخوا لنا ليها اصاخة المجدبين لمرتادهم وأطعموا الهامه الين ومكبرين اهطاع الناس لاعيادهم وأما العبد فقد أخذ بحظه حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ولحظه

(ومن)

قوله المسرة هكذا في النسخ ولعله وابه السارة لان الفعل ثلاثي تأمل اه مصححه

(ومن فرح النفس مايقتل) وهذه نعمة يقصر عنها النثر والنظم ويحسد عليها الهلال والنجم بل يسلمان لما استحقته من المراتب ويخفضان اليها خضوع المفترض الواجب أقر الله بها عيون المسلمين وأفاض حبها على الناس أجمعين وحفظها بعينه التى لاتنام ووقف على خدمتها الليالى والايام * ولما قدم من الاندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله

بشرى ويسرى قد أنار المظلم * نجما وقد وضح الصباح المعلم
ورنت عيون الامن وهى قريرة * وبدت ثغور السعد وهى تبسم
فارحل الى تونس واعتقد أعلام من * قوى الضعيف به وأثرى المعدم
حيث المعالى والمعانى والندى * والفضل والقوم الذين هم هم
أجروا الى الغايات مل عنانهم * سبقا وبذهم الجواد المتمم
ساد الامام الملك يحيى سادة * أعطى الورى انهم القادة وسلموا
ان الامارة منذ غدا يقتادها * يقظى وأجفان الحوادث نوم
لله منك منا ولك ذو فطنة * برعت فأجحم عندها من يقدم
يقظان لا وان ولا متقاعس * كالدهر يبقى مايشاء ويهدم
ان صال فالليث الهصور المقدم * أوسال فالغيث المغيث المثجم
أعلى منار الحق حين أماله * قوم تبرأت المنابر منهم
أعلى الاله مكانه وزمانه * والنصر يقدم والسعادة تخدم

*(وقال يخاطب ملك المغرب مأمون بنى عبد المؤمن حين اخذ البيعة لنفسه باشبيلية وكان المذكور بمراكش ولبنى سعيد بهذا الملك اختصاص قديم

الحزم والعزم موجودان والنظر * واليمن والسعد مضمونان والظفر
والنور فاض على ارجاء أندلس * والزور ليس له عين ولا أثر
حث الركاب الى هذا الجناب فقد * ضلوا فما تنفع الآيات والنذر
واعزم كما عزم المأمون اذ نشرت * أرض العراق فزال الوهن والضرر

*(ولما قدم العادل القائم بمرسية المتولى على مملكة البرين الى اشبيلية كان فى جملة من خرج للقائه ورفع له قصيدة منها

لقائه البر والشكر مجمع * الى يومه كنا نخب ونوضع
لقد يسر الرحمن صعب مرامه * فأبصرت أضعاف الذى كنت أسمع

وله

يامنعما قد جاءنى بره * من غير أن أجرى له ذكرا
ان أحسن الخير ماجاءنى * عفوا ولم أعمل به فكرا

وله فى غلام واعظ وهو من حسناته

وشادن ظل للوعظ تاليا بين جمع
متعت طرفى بمرآ * فى خفارة سمعى

وله من أبيات

ومن عجب أن الليالى تغيرت * ولكنها ما غيرت منى العهدا

ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الحافظ أبو بكر بن الجد وأبو بكر بن زهر وغيرهما وحضر حصار طليطلة مع منصور بن عبد المؤمن وكتب للملك البر بن أبى محمد عبد الواحد وكتب أيضا عن مأمون بنى عبد المؤمن وكتب أخيرا عن ملك بجاية والغرب الاوسط الامير أبى يحيى بن ملك افريقية رحم الله تعالى الجميع *(رجع الى أبى الحسن بن سعيد قال رحمه الله تعالى حضرت ليلة أنس مع كاتب ملك افريقية أبى العباس أحمد الغسانى فاحتاجت الشمعة أن تقط فتناول قطها غلام بنانه فقلت

ورخص البنان تصدى لان * يقط السراج بمثل العنم

فقال ولم يهب النار فى لمسه * ولا احتاج فى قطه للجلم

فقلت وماذاك الا لكونه فى * فؤادى على ما حوى من ضرم

فقال تعود حر لهيب به * فليس به من أوار ألم

وأنشد فى المغرب للغسانى المذكور فى خسوف القمر مما قاله ارتجالا

كأن البدر لما أن علاه * خسوف لم يكن يعتاد غيره

مخجل غادة قلبته لما * أراها شبهها حسدا وغيره

وخاطبه المذكور برسالة يقول فى آخرها وعند تأمل هذه الاحرف يسله الله تعالى كنه خبرى واستيعاب ما قصر عنه قلبى فضاقت بجمله أسطرى لتعلم ما أجده وأفقده من تشوقى وتصبرى وانى لا أزال أنشد حيث تذكرى وتفكرى

يا نائيا قد نأى عنى بمصطبرى * وثاويا فى سواد القلب والبصر

اذا تناسيت عهدا من أخى ثقة * فاذكر عهودى فما أخليك من فكرى

واردد على ّ تحياتى بأحسنها * تردد على حياتى آخر العمر

ولنسك العنان عن الجرى فى ميدان أخبار ابن سعيد فانها لا يشق غبارها ومنها قوله رحمه الله تعالى سمعت كثيرا من السماع المشرقى فلم يهزنى مثل قول الشريف الشمسى المكى

مقل بالدمع غرقى * وفؤاد طار خفقا

وتجن وتجن * شق جيب الصبر شقا

يا ثقاتى خبرونى * عن حديث اليوم حقا

أكذا كل محب * فارق الاحباب يشقى

لا وعيش قد تقضى * وغرام قد تبقى

ونعيم فى ذراكم * قد صفا دهرا ورقا

ونسيم من حماكم * حمل الوجد فرقا

برسالات صبابا * ت على المشتاق تلقى

وغصون ناعمات * بمياه الدل تسقى

ووجوه فقن حسنا * فلان الارض عشقا

لو رضيتم بي عبدا * مارضيت الدهر عتقا

وقال ماسمعت ولا وقفت على شئ أبدع من قول الجزار وقد تردد الى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يقدر له الاجتماع به

أسأل الله أن يديم لك العز * و يبقيك ما أردت البقاء
كل يوم أرجو النعيم بلقيا * ك فألقى بالبعد عنك شقاء
علم الدهر أنني أشتكيه * لك اذ نلتقي فعاق اللقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الاحسان وكتب في حقه الى ولاة الصعيد كتبا أغنته مدة عن شكوى الزمان انتهى * وقال أيضا ولم أسمع في وضع الشئ موضعه أحسن من قول المتنبي

وأصبح شعري منهما في مكانه * وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

ولم أسمع في وضع الشئ غير موضعه أحسن من قول أبي الفرج

مرصد حي ضائعا في لومه * كضياع السيف في كف الجبان

ومن تأليف النور بن سعيد كتاب عدة المستجز وعقلة المستوفز وذكر فيه انه ارتحل من تونس الى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦ وأورد في هذا الكتاب غرائب وبدائع وذكر فيه أنه لما دخل الاسكندرية لم يكن عنده آكد من السؤال عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له مع الططر حتى قتلوه بعد الامان ثم ساق فيه دخول هولاكو حلب فقال بعد كلام كثير وارتكب في أهل حلب الططر والمرتدون ونصارى الارمن ما تصم عنه الاسماع وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البدر بن العديم الذي صدر عنه من الطبقة العالية في الشعر مثل قوله

واها لعقرب صدغه * لو لم تكن للماء تحمي
ولعقل خط عذاره * لو بت أعجمه بلثمي

وابن عمه الافتخار بن العديم الذي وقع له مثل قوله

والغصن فيه الماء مطرد * والماء فيه الغصن منعكس

ثم قال لما ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء الططر على بلاده حلب والشام وما يليهما ما نصه قال من دخل على الملك الناصر وقد نزل بعيدا عن دمشق قبلت يده وجعلت أدعو له وأظهر تعزيته على ما جرى من تلك المصائب العظيمة فأضرب عن ذلك وقال لي فيم تتغزل اليوم ثم أنشدني قوله في علوان فقدا له في هذه الكائنة

والله ما أبكي لملك مضى * ولا لمال ظاعن أو مقيم
وانما أبكي وقد حق لي * لفقد من كنت به في نعيم
يطلع بدرا ينثني بانة * يرنو فيما رمته كالنسيم
في خاطري أبصره خاطرا * فألتوي مثل التواء السقيم
يا عاذلي دعني وما حل بي * فما سوى الله تعالى عليم
ان مت من حزن له أسترح * وان أعش عشت بهم عظيم

قال ثم انه سار نحو هولاكو فلما مر بحلب ونظر الى معاهده على غير ما يعهد قال

مررت بجرعاء الحمى فتلفتت * لحاظي الى الدار التي رحلوا عنها
ولو كان عندي ألف عين وقد فني * معالمها عمري لما شبعت منها

وصنع في نعيها أشعارا يغني بها المسمعون ثم رحل الى صحراء بوشن في جهة طريق أرمينة فوجد هولاكو هنالك في تلك المروج المشهورة بالخصب فأنزله وأقام يشرب معه الى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على الططر للملك المظفر قطز صاحب مصر سنة ٦٥٨ فقتلوه وخلعوا اعظم كتفه وجعلوه في أحد الاعلام على عادته في اكتاف الملوك انتهى باختصار *(رجع) ومن الوافدين من الاندلس الى المشرق الاديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد وكان صعب الخلق شديد الانفة جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه الى أقصى المشرق وفي ذلك يقول وكتب به اليهم

من لصب يرعى النجوم صبابه * ضيع السير في الهموم شبابه
زدت بعدا فزدت فيه اقترابا * بودادي كذاك حكم القرابه
منزلي الآن سمرقند وبالقلـ * ـعة ربع وطئت طفلا ترابه
شذ ما أبعد الفراق انتزاحي * هكذا الليث ليس يدري اغترابه
لا ولا أرتجي الاياب لامر * ان يكن يرتجي غريب ايابه

وكتب لهم من بخارى

اذا هبت رياح الغرب طارت * اليها مهجتي نحو التلاقي
وأحسب من تركت به يلاقي * اذا هبت صباها ما ألاقي
فياليت التفرق كان عدلا * فحمل ما يطيق من اشتياق
وليت العمر لم يبرح وصالا * ولم يحتم علينا بالفراق

اذا كان الشوق فوق كل صفه فكيف تعبر عنه الشفه لكن العنوان دليل على بعض ما في الصحيفه والحاجب قد ينوب في بعض الامور مناب الخليفه وما ظنكم بشوق طريح في يد الاشواق طليح يقطع مسافات الآفاق يتقلب تقلب الافياء ويتلون تلون الحرباء حتى كأنه يختبر مساحات الارض ذات الطول والعرض ويجوب أهوية الاقاليم السبع شارحا بما أدخله فيه اللجاج عن السمع فكأنه خليفة الاسكندر لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكري قائمة مقام الجيش والعسكر جزت الى بر العدوة من الغرب الاقصى ثم تشوقت نفسي فطمحت الى مشاهدة الغرب الاوسط فلاقيت فيما بينهما من المسافة ومن المشاق ما لا يحصى ثم تشوقت الى افريقية درب بلاد الشرق فاستشعرت من هنالك ما بينها وبين بلادي من الفرق واختطفت من عيني تلك الطلاوه وانتزعت من قلبي تلك الحلاوه

فلله عين لم تر العين مثلها * ولا تلتقي الا بجنات رضوان

ثم نازعتني النفس التواقة الى الديار المصريه فكابدت في البحر ما لا يفي بوصفه الا المشاهدة الى أن أبصرت منار الاسكندريه فيالك من استئناف عمر جديد بعد اليأس من الحياة

بما لقينا من الهول والتنكيد ثم صعدت الى القاهرة قاعدة الديار المصريه لمعاينة الهرمين ومافيهما من المعالم الازليه وعاينت القاهرة المعزية ومافيها من الهمم العلية الملوكيه غيراني أنكرت مبانيها الواهيه على ماحوت من أولى الهمم العاليه وكونها حاضرة العسكر الجرار وكرسي الملك العظيم المقدار وقلت أصداف فيها جواهر وشول تحدق بأزاهر ثم ركبت النيل وعاينت تماسيحه وجزت بحرجدة وذقت تبار ريحه وقضيت الحج والزياره وملت الى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أماره فهنالك بعت الزيارة بالازورار وآلت تلك التجارة الى ماحكمت به الاقدار اذهي كما قال أحد من عاينها

أما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور

فلله ما تضمن داخلها من الحور والولدان ومازين به خارجها من الانهار والجنان وبالجملة فانها حسن تتقاصر عن ادراكها أعناق الفصاحه وتقصر عن متناولها في ميدان الاوصاف كل راحه ولم أزل أسمع عن حلب أنها دار الكرم والادب فأردت أن يحظى بصرى بما حظى به سمعي ورحلت اليها وأقمت جاريا بالمذاكرة والمطالبة صدعي ثم رحلت الى الموصل فألفيت مدينة عليها رونق الاندلس وفيها الطلاقة وفي مبانيها طلاوة ترتاح لها الانفس ثم دخلت الى مقر الخلافة بغداد فعاينت من العظم والضخامة مالا يفي به الكتب ولو أن البحر مداد ثم تغلغلت الى بلاد العجم بلدا بلدا غير مقتنع بغاية ولا قاصدا امدا الى أن حللت بخارى قبة الاسلام ومجمع الانام فألقيت بها عصا التسيار وعكفت على طلب العلم واصلا في اجتهاده سواد الليل ببياض النهار انتهى * وكتب اليهم أيضا من هذه الرسالة كتبت وقد حصلتني السعاده وحظ الامل والاراده بحضرة بخارى قبة الاسلام * وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته وان كنت قد تحصنت بقبة الاسلام فقد تعجلت لنا ولك الفقد قبل وقت الحمام وأتبعوا ذلك بما دعاه لان خاطبهم بشعر منه

عتبتم على حثي المطي وقلتم * تعجلت فقدا قبل وقت حمام
اذا لم يكن حالي مهما لديكم * سواء عليكم رحلتي ومقامي

وقتل المذكور ببخارى حين دخلها الططر وهو عم علي بن سعيد الشهير وكان لعبد الرحمن المذكور أخ يسمى يحيى قد عاني الجندية فلما بلغه أن أبا القاسم عبد الرحمن قتل ببخارى قال لا اله الا الله كان أبدا يسفه رأيي في الجندية ويقول لو اتبعت طريق النجاة كما صنعت أنا لكان خيرا لك فها هو رب قلم قد قتل شر قتلة بحيث لا ينتصر وسلب سلاحه وأنا مازلت أغازي في عباد الصليب وأخلص فما يقدر أحد أن يحسن لنفسه عاقبة انتهى * قال أبو الحسن علي بن سعيد ثم ان يحيى المذكور بعد خوضه في الحروب صرعه في طريقه غلام كان يخدمه فذبحه على نزر من المال أغلت به فانظر الى تقلب الاحوال كيف يجرى في أنواع الامور لا على تقدير ولا احتياط انتهى * ومن شعر أبي القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطب به نقيب الاشراف ببخارى وقد أهدى اليه فاختا مع زوجه

أيا سيد الاشراف لازلت عاليا * معاليك تنبو والدهر عن كل ناعت
من الفضل اقبال على ما بعثته * الينا لمن شاد دعوه بفاخت
ألا حبذا من فاخت ساد جنسه * وأصبح مقرونا بست الفواخت
اثن فاتنى منه الانيس فكل ما * يحل الى علياك ليس بفائت انتهى

*(ومنهم الشيخ الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن عبد الله بن يوسف بن حمزة القرطبي الانصاري المعروف بابن العائذ نزيل رباط الصاحب الصفي بن شكر قال بعض المشارقة عنه انما سميت الخمر بالعجوز لانها بنت ثمانين يعني عدد حدها وأنشد له

عذلنا فلانا على فعله * ولمناه في شربه للعجوز
فقال دعوني من أجلها * أنال أنا وأخي والعجوز

*(ومنهم الشيخ الفاضل المتقن أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف بن محمد بن يوسف الانصاري الشاطبي الاصل البلنسي المولد في أحد ربيعي سنة احدى وستمائة ولقبه المشارقة برضي الدين وتوفي بالقاهرة في جمادى الاولى سنة ٦٨٤ رحمه الله تعالى ومن نظمه لما حضرا جله وقد أمر خادمه أن يقفل له بيته وأن يغلق عليه الباب ويفتقده بعد زمان ففعل ذلك فلما دخل عليه وجده ميتا وقد كتب في رقعة

حان الرحيل فودّع الدار التي * ما كان ساكنها بها بمخلد
واضرع الى الملك الجواد وقل له * عبد ببابك جاء يبغي جدوى
لم يرض غير الله معبودا ولا * دينا سوى دين النبي محمد

ومن نظمه أيضا رحمه الله تعالى

أقول لنفسي حين قابلها الردى * فرامت فرارا منه يسرى الى يمنى
قرى تحملي بعض الذى تكرهينه * فقد طالما اعتدت الفرار الى الاهنى

أنشده له تلميذه أبو حيان امام عصره في اللغة حدث عن ابن المنير وغيره واشتغل الناس عليه بالقاهرة وله تصانيف مفيدة وسمع من الحافظ أبي الربيع بن سالم وكتب على صحاح الجوهري وغيره حواشي في مجلدات وأثنى عليه تلميذه أبو حيان رحم الله تعالى الجميع ومن فوائده قوله نقلت من خط أبي الوليد بن خيرة الحافظ القرطبي في فهرست أبي بكر ابن مفوز قد أدركته بسني ولم آخذ عنه واجتمعت به أنشدني له أبو القاسم بن الابرش يخاطب بعض أكابر أصحاب محمد بن حزم والاشارة لابن حزم الظاهري

يا من تعنى أمورا لن يعانيها * خل التعاني وأعط القوس باريها
تروي الاحاديث عن كل مسامحة * وانما لمعانيها معانيها

وقد سبق في ترجمة القاضي أبي الوليد الباجي ذكر هذين البيتين عند ما أجرينا ذكر ابن حزم قال وانما قال هذا الشعر في ذكر رواية ادّعيت على قول النبي صلى الله عليه وسلم ان خالدا قد احتبس أدراعه وأعتده في سبيل الله وصحح رواية من روى أعبده جمع عبد وعلل رواية من روى اعتده بالتاء مثناة باثنتين من فوق جمع عتد وهو الفرس قال ابن خيرة الاحاطة ممتنعة وهذه الرواية قد رواها جماعة من الاثبات والعلماء المحدثين فهو

انكار غير معروف والله تعالى أعلم * ومن فوائده ما نقله تلميذه أبو حيان النحوى عنه قال أنشدنا المعرّى ونقلته من خطه

اذا ما شئت معرفة * لما سار الورى فيه
فخذ خمسا لاربعة * ودع للثوب رافيه

وهو لغز فى ورد قال وأنشدنا لبعضهم

لا رعى الله عزمة ضمنت لى * سلوة الصبر والتصبر عنه
ما وفت غير ساعة ثم عادت * مثل قلبى تقول لا بد منه

قال وأنشدنا لغيره

وكان غريب الحسن قبل التحائه * فلما التحى صار الغريب المصنفا

وأنشدنا لغيره

طب على الوحدة نفسا * وارض بالوحشة أنسا
ما عليها من يساوى * حين يستخبر فلسا

وقرأ الرضى ببلده على ابن صاحب الصلاة آخر أصحاب ابن هذيل وسمع منه كتاب التلخيص للوانى وسمع بمصر من ابن المقير وجماعة وروى عنه الحافظ المزنى واليونينى والظاهرى وآخرون وانتهت اليه معرفة اللغة وغريبها وكان يقول أحرف اللغة على قسمين قسم أعرف معناه وشواهده وقسم أعرف كيف أنطق به فقط رحمه الله تعالى * ومن فوائد الرضى الشاطبى المذكور ما ذكره أبو حيان فى البحر قال وهو من غريب ما أنشدنا الامام اللغوى رضى الدين أبو عبد الله محمد بن على بن يوسف الانصارى الشاطبى لزينب بنت اسحق النصرانى الرسعنى

عدى وتيم لا أحاول ذكرهم * بسوء ولكنى محب لهاشم
وما يعترينى فى على ورهطه * اذا ذكروا فى الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم * وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم انى لاحسب حبهم * سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم

ومن نظم الرضى المذكور

منغص العيش لا يأوى الى دعة * من كان فى بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته * سكنى بلاد ولا سكنى الى أحد

وله

لولا بناتى وسيئاتى * لطرت شوقا الى الممات
لاننى فى جوار قوم * بغضى قربهم حياتى

وقرأ عليه أبو حيان كتاب التيسير وأثنى عليه ولما توفى أنشد ارتجالا

نعى لى الرضى فقلت لقد * نعى لى شيخ العلا والادب
فمن للغات ومن للثقات * ومن للنحاة ومن للنسب
لقد كان للعلم بحرا فغار * وان غؤور البحار العجب

فقدس من عالم عامل * آثار لشجوى لما ذهب

وتحاكم الى رضي الدين المذكور الجزار والسراج الوراق أيهما أشعر وأرسل اليه الجزار شيأ فقال هذا شعر جزل من نمط شعر العرب فبلغ ذلك الوراق فارسل اليه شيأ فقال هذا شعر سلس وآخر الامر قال ما أحكم بينكما رحمه الله تعالى * قلت رأيت بخطه كتبا كثيرة بمصر وحواشي مفيدة في اللغة وعلى دواوين العرب رحمه الله تعالى * (ومنهم حميد الزاهد وهو الاديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد بن أبي محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الانصاري القرطبي نزيل مالقة قال الرضي الشاطبي المذكور قريبا أنشدني حميد بالقاهرة لابيه أبي محمد وقد تأخر شيبه مع علو سنه

وهل نافعي ان أخطأ الشيب مفرقي * وقد شاب أترابي وشاب لداتي

اذا كان خط الشيب يوجد عينه * بشرى فمعناه يقوم بذاتي

واللدات من ولد معه في زمان واحد انتهى وفي ذكري أنه قال هذين البيتين لما قال له القاضي عياض شبنا ولم تشب وقال الرضي أيضا أنشدني حميد لابيه فيمن يكتب في الورق بالقص وهو غريب

وكاتب وشي طرسه حبر * لم يشها حبره ولا قلمه

لكن بمقراضه ينمنمها * نمنمة الروض جاده رهمه

يوجد بالقطع أحرفا عدمت * فاعجب لشئ وجوده عدمه

والرهم المطر قال وتوفي حميد الزاهد هذا بمصر قبيل الظهر من يوم الثلاثاء وصلي عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور ودفن بسفح المقطم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبي بكر محمد الخزرجي الذي يدق الرصاص حذاء رجليه في الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين وستمائة ومولده سنة ست وستمائة انتهى * (ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي من أهل بلنسية وأصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى كتب لبعض الامراء بشرقي الاندلس وله تأليف سماه المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل اليها من الاندلس سنة ستين وخمسمائة وبها توفي يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى * (ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد التجيبي يكنى أبا عبد الله من أهل اشبيلية تجول في بلاد الاندلس طالبا للعلم ثم حج ولقي الحافظ السلفي وغيره واستوطن تلمسان وبها توفي في جمادى الاولى سنة عشر وستمائة وله تواليف كثيرة * (ومنهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي من أهل اشبيلية ولي القضاء بها وأصله من باجة افريقية دخل المشرق لاداء الفريضة فحج وتوفي بمصر بعدما دخل الشام في اليوم الثامن والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وستمائة ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة وكانت رحلته من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة وثلاثين وستمائة * (ومنهم وليد بن بكر بن مخلد ابن زياد العمري من أهل سرقسطة يكنى أبا العباس له كتاب سماه الوجازة في صحة القول

بالاجازة

بالاجازة وله رحلة لقي فيها ألف شيخ ومحدث وفقيه توفي بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة يروى عنه أبي ذر الهروي وعبد الغني الحافظ وكفاه فخرا بهذين الامامين العظيمين رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد الرعيني الرندي يكنى أبا محمد استوطن مالقة ورحل الى المشرق وحج ولقي جماعة من العلماء وقفل الى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة وولي الامامة بالمسجد الجامع بمالقة وبها توفي في ربيع الاول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ولقب في المشرق برشيد الدين وولد في ربيع الاول سنة احدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الاندلس يقال لها بالتين كورة بشتغير ذكر ذلك ابن المستوفي في تاريخ اربل *(ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد اليبني من أهل الاندلس استوطن المشرق ومدح الملك الكامل ومن شعره رحمه الله تعالى قوله

لولا تحدبه باية سحره * ما كنت ممتثلا شريعة أمره
رشأ أصدقه وكاذب وعده * يبدى لعاشقه أدلة غدره
ظهرت نبوة حسنه في فترة * من جفنه وضلالة من شعره

*(ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبي رحل حاجا فلقي ببجاية عبد الحق الاشبيلي وبالاسكندرية أبا الطاهر بن عوف ولقي غير واحد في رحلته كالغزنوي وأبي الثناء الحراني وأبي الحسين الحريثي وللحريثي أحاديث ساوى بها البخاري ومسلما ولقي جماعة ممن شارك السلفي في شيوخه *(ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني صاحب الرحلة وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة أندلسي شاطبي بلنسي مولده ليلة السبت عاشر ربيع الاول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية وقيل في مولده غير ذلك وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد الله الاصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش وأخذ عنه القرا آت وعني بالادب فبلغ الغاية فيه وتقدم في صناعة القريض والكتابة ومن شعره قوله وقد دخل الى بغداد فاقتطع غصنا نضيرا من أحد بساتينها فذوى في يده

لا تغترب عن وطن * واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن اذا * ما فارق الاصل ذوى

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الصدر الخجندي

يا من حواه الدين في عصره * صدرا يحل العلم منه فؤاد
ماذا ترى سيدنا المرتضى * في زائر يخطب منه الوداد
لا يبتغي منه سوى أحرف * يعتدها أشرف ذخر يفاد
ترسمها أنمله منهلا ما * تحي زهر الروض كف العهاد
في رقعة كالصبح أهدى لها * يد المعالي مسك ليل المداد
اجازة يورثنيها العلا * جائزة تبقى وتفنى البلاد
يستصحب الشكر خديمالها * والشكر للامجاد أسنى عتاد

فأجابه الصدر الخجندي

لك الله من خاطب حلتى * ومن قابس يجتدى سقط زندى
أجزت له ما أجازوه لى * وما حدثوه وما صح عندى
وكاتب هذى السطور التى * تراهن عبد اللطيف الخجندى

ورافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعى وأصله من أندة من عمل بلنسية ورحل معه فأديا الفريضة وسمعا بدمشق من أبى الطاهر الخشوعى وأجاز لهما أبو محمد بن أبى عصرون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ودخلا بغداد وتجولا مدة ثم قفلا جميعا الى المغرب فسمع كل منهما به بعض ما كان عندهما وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب وله فيه تقييد مفيد مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم ومنهم السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن وجده لامه القاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية وتوفى أبو جعفر هذا بمراكش سنة ثمان او تسع وتسعين وخمسمائة ولم يبلغ الخمسين فى سنه رحمه الله تعالى *(رجع الى ابن جبير)* قال لسان الدين فى حقه انه من علماء الاندلس بالفقه والحديث والمشاركة فى الآداب وله الرحلة المشهورة واشتهرت فى السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب له قصيدتان احداهما أولها

أطلت على أفقك الزاهر * سعود من الفلك الدائر

ومنها

رفعت مغارم مكس الحجاز * بانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلاد * فهان السبيل على العابر
وسحب اياديك فياضة * على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد * وكم لك بالغرب من شاكر

والاخرى منها فى الشكوى من ابن شكر الذى كان أخذ المكس من الناس فى الحجاز

وما نال الحجاز بكم صلاحا * وقد نالته مصر والشآم

ومن شعره

الاخلاء هذا الزمان الخؤن * توالت عليهم حروف العلل
قضيت التعجب من بابهم * فصرت أطالع باب البدل

وقوله

غريب تذكر أوطانه * فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرى صبره بالاسى * ويعقد بالنجم أجفانه

انتهى

وقال رحمه الله تعالى لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفا ومهابة وتعظيما

بدت لى أعلام بيت الهدى * بمكة والنور باد عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى * وأهديت قلبى هديا اليه

وقوله يخاطب من أهدى اليه موزا

يا مهدى الموز تبقى * وصمه لك فاه
وزاره عن قريب * لمن يعاديك تاه

وقال

وقال رحمه الله تعالى

قد ظهرت في عصرنا فرقة * ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدي في الدين الا بما * سنّ ابن سينا وأبو نصر

وقال

يا وحشة الاسلام من فرقة * شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها * وادّعت الحكمة والفلسفه

وقال

ضلت بافعالها الشنيعه * طائفة عن هدى الشريعه
ليست ترى فاعلا حكيما * يفعل شيأ سوى الطبيعه

وكان انفصاله رحمه الله تعالى من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ووصل اسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة الحرام من السنة فكانت اقامته على متن البحر من الاندلس الى الاسكندرية ثلاثين يوما ونزل البرّ الاسكندراني في الحادي والثلاثين رجح رحمه الله تعالى وتجوّل في البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها وكان رحمه الله تعالى كما قال ابن الرقيق من أعلام العلماء العارفين بالله كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتابا وهو على شرابه فمدّ يده اليه بكاس فاظهر الانقباض وقال يا سيدي ما شربتها قط فقال والله لتشربنّ منها سبعا فلما رأى العزيمة شرب سبعا أكؤس فملأ له السيد الكاس من دنانير سبع مرّات وصبّ ذلك في حجره فحمله الى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ثم رغب الى السيد وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج في تلك السنة فأسعفه وباع ملكا له تزوّد به وأنفق تلك الدنانير في سبيل البرّ ومن شعره في جارية تركها بغرناطة

طول اغتراب وبرح شوق * لا صبر والله لي عليه
اليك أشكو الذي الاقي * يا خير من يشتكى اليه
ولي بغرناطة حبيب * قد غلق الرهن في يديه
ودّعته وهو بارتماض * يظهر لي بعض ما لديه
فلو ترى طلّ نرجسيه * ينهل في ورد وجنتيه
أبصرت درّا على عقيق * من دمعه فوق صفحتيه

وله رحلة مشهورة بأيدي الناس ولما وصل بغداد تذكر بلده فقال

سقى الله باب الطاق صوب غمامة * وردّ الى الاوطان كل غريب انتهى

وقال في رحلته في حق دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المونق المشرق هي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها التي قد تحلت بأزاهر الرياحين وتجلت في حلل سندسية وحلت من موضع الحسن بمكان مكين وتزينت في منصتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه منها الى ربوة ذات قرار

وعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل قد سئمت أرضها كثرة الما حتى اشتاقت الى الظما فتكاد تناديك بها الصم الصلاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب قد أحدقت بها البساتين احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر فكل موقع لحظة بجهاتها الاربع نظرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين فيها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها * قال العلامة ابن جابر الوادي آشي بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ما نصه ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد وتوق الانفس للتطلع على صورتها بما أفاد هذا ولم تكن له بها اقامه فيعرب عنها بحقيقة علامه وما وصف ذهبات اصيلها وقد حان من الشمس غروب ولا ازمان فصولها المتنوعات ولا أوقات سرورها المهنا آت ولقد أنصف من قال ألفيتها كما تصف الالسن وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين انتهى *(رجع الى كلام ابن جبير)* فنقول ثم ذكر في وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الاسلام حسنا واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف ثم مد النفس في وصف الجامع وما به من العجائب ثم قال بعد عدة أوراق ما نصه وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر وقد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار دبرت تدبيرا هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصورين من صفر قائمين على طاسي صفر تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها والطاسان منقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاسين يسمع لهما دوي ويغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا تزال كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول ولها بالليل تدبير آخر وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة مدبر ذلك كله خلف منها الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي تسميها الناس المنجانة انتهى المقصود منه قلت كل ما ذكره رحمه الله تعالى في وصف دمشق الشام وأهلها فهو في نفس الامر يسير ومن ذا يروم عد محاسنها

الى اذا رجع البصر فيها انقلب وهو حسير وقد أطنب الناس فيها وما بقى أكثر مما ذكروه وقد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة وأقمت بها الى اوائل شوال من السنة وارتحلت عنها الى مصر وقد تركت القلب فيها رهنا وملك هواها منى فكرا وذهنا فكأنها بلدى التى بها ربيت وقرارى الذى لى به أهل وبيت لان أهلها عاملونى بما ليس لى بشكره يدان وها أنا الى هذا التاريخ لا ارتاح لغيرها من البلدان ولا يشوقنى ذكر أرض بابل ولا بغدان فالله سبحانه وتعالى يعطر منها بالعافية الاردان *وقد عن لى أن اذكر جملة مما قيل فيها من الامداح الرائقه وأسرد ما خاطبنى به أهلها من القصائد الفائقه فأقول قال البدر بن حبيب

يمم دمشق ومل الى غربيها * والمح محاسن حسن جامع يلبغا
من قال من حسد رأيت نظيره * بين الجوامع فى البلاد فقد لغا

وقال فى كتاب شنف السامع بوصف الجامع

لله ما أحلى محاسن جلق * وجهاتها اللاتى تروق وتعذب
بيزيد ربوتها الفرات وجنكها * ياصاح كم كانغوص ونلعب

وقال فيه أيضا

لله ما أجمل وصف جلق * وما حوى جامعها المنفرد
قد أطرب الناس بصوت صيته * وكيف لا يطرب وهو معبد

وقال فى ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة

يا راغبا فى غير جامع جلق * هل يستوى الممنوع والممنوح
أقصر عنالك وفى غلولك لا تزد * ان الزيادة بابها مفتوح

وقال فى منارته المعروفة بالعروس

معبد الشام يجمع الناس طرا * واليه شوقا تميل النفوس
كيف لا يجمع الورى وهو بيت * فيه تجلى على الدوام العروس

ومنه فى ذكر بانيه الوليد

تالله ما كان الوليد عابثا * فى صرفه المال وبذل جهده
لكنه أحرز ملك معبد * لا ينبغى لاحد من بعده

ومن أبيات فى آخره

بجامع جلق رب الزعامه * أقم تلق العناية والكرامه
ويمم نحوه فى كل وقت * وصل به تصل لدار الاقامه
مصلى فيه للرحمن ذكر * ومثوى للقبول به علامه
محل كمل البارى حلاه * وبيت أبدع البارى نظامه
دمشق لم تزل للشام وجها * ومسجدها لوجه الشام شامه
وبين معابد الآفاق طرا * له أمر الامارة والامامه
ادام الله بهجته وأبقى * محاسنه الى يوم القيامه

انتهى

ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور بل على بعضه ومن قصيدة القاضي المهذب ابن الزبير

نالله ياريح الشما * ل اذا اشتملت الرند بردا
وحملت من عرف الخزا * مى ما اغتدى للند ندا
ونسجت ما بين الغصو * ن اذا اعتنقن هوى وودّا
وهززت عند الصبح من * أعطافها قدّا فقدّا
ونثرت فوق الماء من * أجيادها للزهر عقدا
فلات صفحة وجهه * حتى اكتسى آسا وودا
وكأنما ألقيت فيـ * ـه منهما صدغا وخدّا
مرّى على بردى عسا * ه يزيد فى مسراك بردا
نهر كنصل السيف تكـ * ـسر متنه الازهار عمدا
صقلته أنفاس النسيـ * ـم عبرتهن فليس يصدا

ومنها

أحبابنا ماباالكم * فينا من الاعداء أعدى
وحياة حبكم وحر * مة أصلكم ماخنت عهدا

وقال الكمال الشريشى

ياجيرة الشام هل من نحوكم خبر * فان قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم * مالذ للعين لانوم ولاسهر
اذا تذكرت أوقاتا نأت ومضت * بقربكم كادت الاحشاء تنفطر
كأنى لم أكن بالنيربين ضحى * والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والاغصان راقصة * والدوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفح أين عشياتى التى ذهبت * لى فيه فهى لعمرى عندى العمر
سقاك بالسفح سفح الدمع منهمرا * وقل ذاك له ان أعوز المطر

*(وحكى ابن سعيد وغيره) أن غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد أطل عليها جبل الثلج وفى ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة

يادمشق الغرب هاتيـ * ـك لقد زدت عليها
تحتك الانهار تجرى * وهى تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى أن غرناطة فى مكان مشرف وغوطتها تحتها تجرى فيها الانهار ودمشق فى وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة تجرى من تحتها الانهار انتهى * وقال الصفدى فى تذكرته أنشدنى المولى الفاضل البارع شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الخياط بقلعة الجبل من الديار المصرية حرسها الله تعالى لنفسه فى شعبان المكرم سنة ٧٣٣

قصدت مصر من رباجلق * بهمة تجرى بتجريبي
فلم أر الطرة حتى جرت * دموع عينى بالمزيريب

وأنشد لنفسه أيضا

خلفت بالشام حبيبى وقد * يممت مصرا لعنا طارق
والارض قد طالت فلا تبعدى * بالله يا مصر على العاشق

وأنشد لنفسه أيضا

يا أهل مصر أنتم للعلا * كواكب الاحسان والفضل
لولم تكونوا الى سعودا لما * وافيتكم أضرب فى الرمل
انتهى

وذكرته برمته لحسن مغزاه وقال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الظهير الحنفى الاربلى

لعل سنى برق الحمى يتألق * على النأى أوطيفا لاسماء يطرق
فلا نارها تبدو لمرتقب ولا * وعود الامانى الكواذب تصدق
لعل الرياح الهوج تدنى لنازح * من الشام عرفا كاللطيمة تعبق
ديار قضينا العيش فيها منعما * وأيامنا تحنو علينا وتشفق
سحبنا بها برد الشباب وشربنا * لدينا كما شئنا الديذ مروق
مواطن فيها السهم سهمى وظله * تخب مطايا اللهو فيه وتعنق
جلا جانبيه معلم متجعد * من الماء فى اطلاله يتدفق
اذا الشمس سلت متنه فهو مذهب * وان حجبتها دوحه فهو أزرق
وان قرح الاوراق جادت بنورها * فرقم اجادته الاكف منمق
يطل عليه قاسيون كانه * غمام معلى أونعام معلق
تساقر عنه الشمس قبل غروبها * وترجف اجلالا له حين تشرق
وتصفر من قبل الاصيل كانها * محب من البين المشتت مشفق
وفى النيرب الميمون للب سالب * من المنظر الزاهى وللطرف مومق
بدائع من صنع القديم وصائع * تأنق فيها المحدث المتأنق
رياض كوشى للبرود يشقها * جداولها فالنور بالماء يشرق
فمن نرجس يخشى فراق فريقه * ترى الدمع فى أجفانه يترقرق
ومن كل ريحان مقيم وزائر * يصافح رياه الرياض فتعبق
كأن قدود السرو فيه مواشيا * قدود عذارى ميلها مترفق
اذا ما بدت لشقائق صدها * عيون من النور المفتح ترمق
وقصر يكل الطرف عنه كانه * الى النسر نسر فى السماء معلق
وكم جدول جار يطارد جدولا * وكم جوسق عال يوازيه جوسق
وكم بركة فيها انضاحك بركة * وكم قسطل للماء فيه تدفق
وكم منزل يعشى العيون كانما * تألق فيها بارق يتألق

وفى الربوة الفيحاء لا لب جاذب * وللهم سلاة وللعين مرفق
عروس جلاها الدهر فوق منصة * من الدهر والابصار تحدو ترمق
فهام بها الوادى فماضت عيونه * فكل قرار منه بالدمع يشرق
تكلل من دون الجداول شربها * يزيد يصفيه لها ويرقق

وقال أبو تمام فى دمشق

لو لا حدائقها وأنى لا أرى * عرشا هناك ظننتها بلقيسا
وأرى الزمان غدا عليك بوجهه * جذلان باسما وكان عبوسا
قد نورت تلك البطون وقدست * تلك الظهور وقدست تقديسا

وقال البحترى

أما دمشق فقد أبدت محاسنها * وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد * مستحسن وزمان يشبه البلدا
تمشى السحاب على أجبالها فرقا * ويصبح النور فى صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفا خضلا * أو يانعا خضرا أو طائرا غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته * أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وفى دمشق يقول بعضهم

برزت دمشق لزائرى أوطانها * من كل ناحية بوجه أزهر
لو أن انسانا تعمد أن يرى * مغنى خلا من نزهة لم يقدر

وقال القيراطى فى قصيدته التى أولها للصب بعدك حالة لا تعجب

لله ليل كالنهار قطعته * بالوصل لا أخشى به ما يرهب
وركبت منه الى التصابى أدهما * من قبل أن يبدو لصبح أشهب
أيام لا ماء الخدود يشوبه * كدر العذار ولا عذار أشيب
كم فى مجال اللهو لى من جولة * أضحت ترقص بالشباب وتطرب
وأقت للندماء سوق خلاعة * تجبى المجون الى فيه وتجلب
وذكرت فى مغنى دمشق معشرا * أتم الزمان بمثلهم لا تنجب
لا يسأل القصاد عن ناديهم * لكن يدلهم الثناء الطيب
قوم بحسن صفاتهم وفعالهم * قد جاء يعتذر الزمان المذنب
يا من لحران الفؤاد وطرفه * بدمشق أدمعه غدت تتحلب
اشتاق فى وادى دمشق معهدا * كل الجمال الى حماه ينسب
مافيه الا روضة أو جوسق * أو جدول أو بلبل أو ربرب
وكأن ذاك النهر فيه معصم * بيد النسيم منقش ومكتب
واذا تكسر ماؤه أبصرته * فى الحال بين رياضه يتشعب
وشدت على العيدان ورق أطربت * بغنائها من غاب عنه المطرب
فالورق تنشد والنسيم مشبب * والنهر يسقى والحدائق تشرب

وضياءها

وضياءها ضاع النسيم بها فكم * أضحى له من بين روض مطلب
وحلت بقلبى من عسا كر جنة * فيها لارباب الخلاعة ملعب
ولكم رقصت على السماع بجنكها * وغدا بربوتها اللسان يشبب
فمتى ازور معالما أبوابها * بسماحها كتب السماح تبوب

وقال الصفى الحلى عند نزوله بدمشق مسمطا القصيدة السموأل بالحماسة

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه * وطول الفلا رحب لديه وعرضه
ولم يبل سربال الدجى فيه ركضه * اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

اذا المرء لم يحجب عن العين نومها * ويغل من النفس النفيسة سومها
أضيع ولم تأمن معاليه لومها * وان هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس الى حسن الثناء سبيل

رفعنا على هام السماك محلنا * فلا ملك الا تغشاه ظلنا
لقد هاب جيش الا كثرين أقلنا * ولا قل من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلا وكهول

يوازى الجبال الراسيات وقارنا * وتبنى على هام المجرة دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا * وماضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الا كثرين ذليل

ولما حللنا الشام تمت اموره * لنا وحبانا ماملكه ووزيره
وبالنيرب الاعلى الذى عز طوره * لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل

يريك الثريا من خلال شعابه * وتحدق شهب الافق حول هضابه
ويقصر خطو السحب دون ارتكابه * رسا أصله تحت الثرى وسما به
الى النجم فرع لا ينال طويل

وقصر على الشقراء قد فاض نهره * وفاق على فخر الكواكب فخره
وقد شاع ما بين البرية شكره * هو الابلق الفرد الذى سار ذكره
يعز على من رامه ويطول

اذا ما غضبنا فى رضا المجد غضبة * لندرك ثأرا أولنبلغ رتبة
نزيد غداة الكر فى الموت رغبة * وانا القوم لانرى الموت سبة
اذا مارأته عامر وسلول

وكتب الشيخ محب الدين الحموى ترجمة للشيخ اسمعيل النابلسى شيخ الاسلام من مصر

لواء التهانى بالمسرة يخفق * وشمس المعالى فى سما الفضل تشرق
وسعد واقبال ومجد مخيم * وأيام عز بالوفا تتخلق
فيا أيها المولى الذى جل قدره * ويا أيها الحبر اللبيب المدقق

أرى الشام مذ فارقتها زال نورها * وثوب بهاها والنضارة يخلق
اذا غبت عنها غاب عنها جمالها * ونفس بدون الروح لا تتحقق
وان عدت فيها عاد فيها كمالها * وصار عليها من بهائك رونق
فيا ساكني وادي دمشق مزاركم * بعيد وباب الوصل دوني مغلق
وليس على هذا النوى لي طاقة * فهل من قيود البين والبعد اطلق
واني الى أخباركم متشوّف * واني الى لقياكم متشوّق
أودّ اذا هبّ النسيم لنحوكم * بأني في أذياله أتعلق
وأصبو لذكراكم اذا هبت الصبا * لعلى من أخباركم أتنشق
ولي أنة او دت بجسمي ولوعة * ونار جوى من حرّها أتقلق
فحنوا على المضنى الذي ثوب صبره * اذا مسه ذيل الهوى يتمزق
غريب بأقصى مصر أضحت دياره * ولكنّ قلبي بالشآم معلق
وقد نسخ التبريح جسمي فهل الى * غبار ثرى أعتاب وصل يحقق
فياليت شعري هل أفوز بروضة * وفيها عيون النرجس الغض تحدق
وأنظر واديها وأدنو لربوة * وماء معين حولنا يتدفق
ويحلو لي العيش الذي نرتضونه * وهل عائد ذاك النعيم المروق
وأنظر ذا الجامع الفرد مرّة * وفي صحنه تلك الحلاوة تشرق
وأصحابنا فيه نجوم زواهر * ونور محيا وجههم يتألق
فلا برحوا في نعمة وسعادة * وعز وجد شأوه ليس يلحق

وقال ابن عنين

ماذا على طيف الاحبة لو سرى * وعليهم لو ساعدوني بالكرى
جنحوا الى قول الوشاة وأعرضوا * والله يعلم أن ذلك مفترى
يا معرضا عني بغير جناية * الا لما نقل العذول وزورا
هبني أسأت كما تقول وتفترى * وأتيت في حبيك شيأ منكرا
ما بعد بعدك والصدود عقوبة * يا هاجري ما آن لي أن تغفرا
لا تجمعنّ على عتبك والنوى * حسب المحب عقوبة أن يهجرا
عبء الصدود أخف من عبء النوى * لو كان لي في الحب أن أتخيرا
فسقى دمشق وواديها والحمى * متواصل الارهام منفصم العرا
حتى نرى وجه الرياض بعارض * أحوى وفود الدوح أزهر نيرا
تلك المنازل لا ملاعب عالج * ورمال كاظمة ولا وادي القرى
أرض اذا مرّت بها ريح الصبا * حملت على الاغصان مسكا أذفرا
فارقتها لا عن رضا وهجرتها * لا عن قلي ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق في البلاد مشتت * ومن العجائب أن يكون مقترا

وابن عنين المذكور كان هجاء وهو صاحب مقراض الاعراض تجاوز الله تعالى عنه فن ذلك

قوله

أرح من نزح ماء البئر يوما * فقد أفضى الى تعب وعىّ
مر القاضى بوضع يديه فيه * وقد أضحى كراس زيرنىّ

يعنى أقرع وسبب قوله البيتين أن المعظم أمر بنزح ماء بقلعة دمشق فأعياهم ذلك ومن هجوه قوله

شكا شعرى الى وقال تهجو * بمثلى عرض ذا الكلب اللئيم
فقلت له تسل فرب نجم * هوى فى اثر شيطان رجيم

وقال فيمن خرج حاجا فسقط عن الهجين فتخلف

اذا ماذم فعل النوق يوما * فانى شاكر فعل النياق
أراد الله بالحجاج خيرا * فشبط عنهم أهل النفاق

وقال

وراحل سرت فى ركب أودّعه * تبارك الله ما أحلى تلاجينا
جئنا الى بابه لاجين نسأله * فليتنا عاقنا موت ولا جينا
راجين نسأل ميتا لاحراك به * مثل النصارى الى الاصنام لاجينا

وقال

وصلت منك رقعة ساءتنى * صيرت صبرى الجميل قليلا
كنهار المصيف حرا وكربا * وكليل الشتاء بردا وطولا

وأوّل مقراض الاعراض قوله

أضالع تنطوى على كرب * ومقلة مستهلة الغرب
شوقا الى ساكنى دمشق فلا * عدت رباها مواطر السحب
مواطن مادعا بوطنها * الا ولبى نداءها لبى

ثم ذكر من الهجو ماتصم عنه الآذان وهو القائل فى دمشق

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * وظلك يامقرى على ظليل
وهل أرين بعد ماشطت النوى * ولى فى ذرى روض هناك مقيل

ومنها

دمشق بنا شوق اليك مبرح * وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وقد تقدم التمثل بهذه الابيات الثلاثة فى خطبة هذا الكتاب ومن هذه القصيدة

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى * ورأى ظهير الدين فىّ جميل
من القوم أما أحنف فسفيه * لديهم وأما حاتم فبخيل
فتى المجد أما جاره فممنع * عزيز وأما ضده فذليل
وأما عطايا كفه فباحة * حلال وأما ظله فظليل

وظهير الدين الممدوح هو طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين وكان ملك اليمن وأحسن الى ابن عنين احسانا كثيرا وافرا وخرج ابن عنين من اليمن بمال جم وطغتكين بضم الطاء المهملة وبعدها غين معجمة ثم تاء مثناة من فوقها مكسورة ثم كاف مكسورة ايضا ثم ياء تحتية ثم نون وكان يلقب بالملك العزيز ولذلك قال ابن عنين لما رجع من عنده الى مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين فألزم أرباب الديوان ابن عنين بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته

ما كل من يتسمى بالعزيز لها * أهل وما كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالهما * هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقه

ومن هجو ابن عنين قوله في فقيهين يلقب أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس

البغل والجاموس في حاليهما * قد أصبحا مثلا لكل مناظر
قعدا عشية يوم فتناظرا * هذا بقرنيه وذا بالحافر
ما أحكما غير الصياح كانما * لقيا جدال المرتضى بن عساكر
جلفان مالهما شبيه ثالث * الا أخادع مسدلويه الشاعر
لغط طويل تحت معنى قاصر * كالعقل في عبد اللطيف الناظر

(رجع الى دمشق) وقال العز الموصلي

الىك حياض حامات مصر * ولا تنكرى عندى بعين
حياض الشام أحلى منك ماء * وأطهر وهي دون القلتين

وهذان البيتان جواب منه عن قول ابن نباتة

أحواض حمام الشآ * م ألا اسمعي لي كلمتين
لا تذكرى أحواض مصـ * ـر فأنت دون القلتين

وأما قول النواجي سامحه الله تعالى

مصر قالت دمشق لا * تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتي * منه راحت بسهمها

فهو من باب تفضيل الوطن من حبه ومنه قول الوداعي

رق بمصر وبسكانها * شوقي وجدد عهدي الخالي
وارولنا يا سعد عن نيلها * حديث صفوان بن عسال
فهو مرادي لا يزيد ولا * ثور وان رق ورق لي

ومن ذلك النمط قول الشهاب الحجازي

قالوا دمشق قد زهت لزهرها * فامض وشاهد جوزها ولوزها
فقلت لا أبدل بلدتي بها * ولست أرضى زهرها ولوزها

وقول الخفاجي قاضي مصر وان لم يكن في دمشق لكن في السياق في النظم

قد فتن العاشقين حين بدا * بطلعة كالهلال أبرزها
طرز له شارب على شفة * كالورد في الآس حين طرزها

وقول الآخر

قد قال وادى جلق للنيل اذ * كسروه أعين جبهتى لك ترفع
فأجاب بحر النيل لما أن طغى * عندى مقابل كل عين اصبع

وقد تذكرت هنا قول بعضهم

ماذا يفيد المعنى * من الاذى المتتابع
بمصر ذات الايادى * ونيلها ذى الاصابع

وقد شاع الخلاف قديما وحديثا فى المفاضلة بين مصر والشام وقد قال بعضهم

فى حلب وشامنا * ومصر طال اللغط
فقلت قول منصف * خير الامور الوسط

وأما قول بعضهم

تجنب دمشق ولا تأتها * وان راقك الجامع الجامع
فسوق الفسوق بها قائم * وفجر الفجور بها طالع

فلا يلتفت اليه ولا يعول عليه اذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل وهى من نزغات بعض الهجائين الذين يعمدون الى تقبيح الحسن الجميل ومازالت الاشراف تهجى وتمدح ولا يقابل ألف متن عدل بفاسق يقدح

وفى تعب من يحسد الشمس نورها * ويأمل أن يأتى لها بضريب

وأخف من هذا قول بعض الاندلسيين وهو الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم

دمشق جنة الدنيا حقيقا * ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد * وصحبتهم تؤول الى الحروب
ترى أنهارهم ذات ابتسام * وأوجههم تولع بالقطوب
أقمت بدارهم ستين يوما * فلم أظفر بها بفتى أديب

والجواب واحد ولا يضر الحق الثابت انكار الجاحد وأخف من الجميع قول العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه

جلق جنة من تاه وباهى * وربا ها أربى لولا وباها
قال غال بردا كوثرها * قلت غال بردا ها بردا ها
وطنى مصر وفيها وطرى * ولنفسى مشتهاها مشتهاها
ولعينى غيرها ان سكنت * يا خليلى سلاها ما سلاها

وأخف منه قول ابن عبد الظاهر

لا تلوموا دمشق ان جئتموها * فهى قد أوضحت لكم ما لديها
انها فى الوجوه تضحك بالزهـ * ـر لمن جاء فى الربيع اليها
وتراها بالثلج تبصق فى لحـ * ـية من مر فى الشتاء عليها

وقول ابن نباتة وهو بالشام يتشوق الى المقياس والنيل

أرق له بالشام نيل مدامع * يجريه ذكر منازل المقياس

سقيا لمصر منازلا معمورة * بنجوم أفق أو ظباء كناس
وطني سهرت له وشابت لمتي * ونم على عيني هواه وراسي
من لي به والحال ليس بآنس * كدر وعطف الدهر ليس بقاسي
والطرف يستجلي غزالا آنسا * بالنيل لم يعتمد على باناس

*(رجع الى مدح دمشق) وقال الناصر داود بن المعظم عيسى

اذا عاينت عيناي أعلام جلق * وبان من القصر المشيد قبابه
تيقنت أن البين قد بان والنوى * نأى شخصه والعيش عاد شبابه

وقال أيضا رحمه الله تعالى

يا راكبا من أعالي الشام يجذبه * الى العراقين ادلاج واسحار
حدثني عن ربوع طالما قضيت * للنفس فيها لبانات وأوطار
لدى رياض سقاها المزن ديمته * وزانها زهر غض ونوار
شح الندى أن يسقيها بحاجته * فجادها مفعم الشؤبوب مدرار
بكت عليها الغوادي وهي ضاحكة * وراحت الريح فيها وهي معطار
يا حسنها حين زانتها جواسقها * وأينعت في أعالي الدوح أثمار
فهي السماء اخضرارا في جوانبها * كواكب زهر تبدو وأقمار
حدثني وأنا الظامي الى نبا * لا فض فوك فعني الري ممتار
فهو الزلال الذي طابت مشاربه * وفارقته غثا آت وأكدار
كرر علي نازح شط المزار به * حديثك العذب لا شطت بك الدار
وعلل النفس عنهم بالحديث بهم * ان الحديث عن الاحباب أسمار

وهذا الملك الناصر له ترجمة كبيرة وهو ممن أدركته الحرفة الادبيه ومنع حقه بالجملة والعصبيه وأنكرت حقوقه وأظهر عقوقه حتى قضى نحبه ولقي ربه *(رجع) وقال سيف الدين المشد رحمه الله تعالى

بشرى لاهل الهوى عاشوا به سعدا * وان عفوا فهم من جملة الشهدا
شعارهم رقة الشكوى ومذهبهم * أن الضلالة فيهم في الغرام هدى
عيونهم في ظلام الليل ساهرة * عبرى وأنفاسهم تحت الدجى صعدا
تجرعوا كاس خمر الحب مترعة * فظلوا اسكارى وظنوا غيهم رشدا
وعاسل القد معسول مقبله * كالغصن لما انثنى والبدر حين بدا
رقيم عارضه كهف لعاشقه * يأوي اليه فكم في حبه شهدا
نادمته وثغور البرق باسمة * والغيث ينزل منحلا ومنعقدا
كأن جلق حيا الله ساكنها * أهدت الى الغور من أزهارها مددا
فاسترسل الجو منها لا يزيد على * نورا ويعقد محلول الندى بردا

وقال أيضا

فؤادي الى بانات جلق مائل * ودمعي على أنهارها يتحدر

يرنحني لوزان كلاب مزهرا * وتهتز في أغصانه وهو مثمر
وانى الى زهر السفرجل شيق * اذا ما بدا مثل الدراهم ينثر
غياض يفيض الماء في عرصاتها * فتزهو جمالا عند ذا وتزهر
ترى بردى فيها يجول كأنه * وحصباؤه سيف صقيل بجوهر
وبي أحور لاح العذار بخده * يسامح قلبي في هواه ويعذر
يحاورني فيه على الصبر صاحبي * وكيف أطيق الصبر والطرف أحور
اذا اشتقت وادي النيربين لحته * فأنظر مغناها به وهو أنضر
حوى الشرف الاعلى من الحسن خده * على أن ميدان العوارض أخضر

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى

واديه حق الحبيب نزول * حياهما هده الحيا والنيل
واد يفوح المسك من جنباته * ويصح فيه للنسيم عليل
يشتاقه ويود لثم ترابه * شوقا ولكن ما اليه سبيل
متقاقل الاحشاء مسلوب الكرى * طلق الدموع فؤاده متبول
يصبو الى الاثلات من وادي الغضى * ويحن ان خطرت هناك شمول
قالوا تبدل قلب يا أهل الهوى * والناس فيهم عاذر وجهول
هل بعد قطع الاربعين مسافة * للعمر فيها يحسن التبديل
ولقد هفا لي في دمشق مهفهف * يسبي العقول رضابه المعسول
يهتز ان مر النسيم بقده * ويميل بي نحو الصبا فأميل
أبدى لنا بردا تبسم ثغرها * واذا انثنى فقوامه الجدول
لزم التسلسل مدمعي وعذاره * فانظر الى الهيمات كيف تسيل
وسقيمة من سقم الجفون لانها * هي علة وفؤادي المعلول
لا تعجبوا ان راعني بذوائب * فالليل هول والمحب ذليل
ما صح لي أن الذوائب حية * حتى سعت في الارض وهي تجول

وقال ناظر الجيش عون الدين بن العجمي

ياسائقا يقطع البيداء معتسفا * بضامر لم يكن في سيره واني
ان جزت بالشام شم تلك البروق ولا * تعدل بلغت المنى عن دير مران
واقصد أعالي قبلاليه فان بها * ما تشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام اذا * ماست فوا خجل المران والبان
وكل أسمر قد دان الجمال له * وكمل الحسن فيه فرط احسان
ورب صدغ بدا في خد مرسله * في فترة فتنت من سحر أجفان
قلبت ريقته وردي وجنته * وردي ومن صدغه آسي وريحاني
وعج على دير متى ثم حي به الشرمان بطرس فالربان رباني
فهمت منه اشارات فهمت بها * وصنت منشورها في طي كتمان

وادخل بدير حنين واتهز فرص الـ ـلذات ما بين قسيس ومطران
واستجل راحا بها تحيا النفوس اذا * دارت براح شماميس ورهبان
حمراء صفراء بعد المزج لم قذفت * بشهبها من هوى كل شيطان
كم رحت في الليل أسقيها وأشربها * حتى انقضى وندبمى غير ندمان
سالت نوماس عمن كان عاصرها * أجاب رمزا ولم يسمح بتبيان
وقال أخبرني شمعون ينقله * عن ابن مريم عن موسى بن عمران
بأنها سفرت بالطور مشرقة * أنوارها فكنوا عنها بنيران
وهي المدام التي كانت معتقة * من عهد هرمس من قبل ابن كنعان
وهي التي عبدتها فارس فكنى * عنها بشمس الضحى في قومه مانى
شكرت منها فلا صحو وجدت بها * على الندامى وليس الشح من شاني
وسوف أمنحها أهلا وأنشده * ما قيل فيها بترجيع وألحان
حتى تميل لها أعطافه طربا * ويثنى الكون من أوصاف نشوان

وهذه وان لم تكن في دمشق على الخصوص فلا تخرج عما نحن بصدده والاعمال بالنيات وديباجة هذه القصيدة على نسج طائفة من الصوفية ومن حال هذه البرود الشيخ الاكبر رحمه الله تعالى وقيل انه الشيخ شعبان الحموى *(رجع) وقال بعضهم

قوله ومن الخ هكذا في النسخ ولعل أصله وأول من الخ تأمل اه مصححه

شوقي يزيد وقلب الصب ما بردا * وبان يأسى من المعشوق حين غدا
ومدمعي قنوات والعذول حكى * ثورا يلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنية بالجنك جاوبها * شبابة كم بها من عاشق سهدا
فالبدر جبهتها والردف ربوتها * وخلها مات في خلخالها كمدا

ولنذكر نبذة مما خوطبت به من علماء الشام وأدبائه حفظ الله تعالى كمالهم وبلغ آمالهم
*(فمن ذلك قول شيخ الاسلام مفتي الانام سيدي الشيخ عبد الرحمن العمادي الحنفي حفظه الله تعالى وكتبه لي بخطه

شمس هدى أطلعها المغرب * وطار عنقاء بها مغرب
فأشرقت في الشام أنوارها * وانها في الدهر لا تغرب
أعني الامام العالم المقرى * أحمد من يكتب أو يخطب
شهاب علم ثاقب فضله * ينظم عقدا وهو لا يثقب
فرع علوم بالهدى مثمر * وروض فضل بالندى معشب
قد ارتدى ثوب علا وامتطى * غارب مجد نزها المركب
درس غريب كل يوم له * يملى ولكن حفظه أغرب
محاضرات مسكر لفظها * بكاس سمع راحها تشرب
رياض آداب سقاها الحيا * ففاح مسكا نشرها الاطيب
فضائل عمت وطمت فقد * قصر فيها كل من يطنب
قلوبنا قد جذبت نحوه * والحب من عادته يجذب

ان بعدت عن غربه شرقنا * فالفضل فيما نسب أقرب
كم طلبت تشريفه شامنا * بشرى لها فليهنها المطلب
قد سبقت لى معه صحبة * فى حرم يؤمن من يرهب
أخوة فى الله من زمزم * رضاعها طاب لها المشرب
أنهلنى ثم ودادا فلى * بالشام منه علل أعذب
أهديت ذا النظم امتثالا له * وقد هجرت الشعر مذ أحقب
نشط قلبى لطفه فانثنى * والقلب فى أهل الهوى قلب
ضاء دجى العلم به للورى * مالاح فى جنح الدجى كوكب

تحية الفقير الداعى عبد الرحمن العمادى انتهى وأجبته بما نصه

ماثغر راح كاسها مذهب * ماللنهى عن حسنها مذهب
تستدفع الاكدار من صفوها * وتنهل الافراح او تنهب
تسعى بها هيفاء من ثغرها * أوشعرها النور أو الغيهب
قتانة الاعطاف نفاثة * سحرا بألباب الورى يلعب
فى روضة قد كالت بالندى * والزهر راس الغصن اذ يعصب
برودها بالنور قد نمنمت * كالوشى من صنعاء بل أعجب
والماء يجرى تحت جناتها * والنار من نارنجها تلهب
والظل ضاف والنسيم انبرى * والجوذا كى العرف مستعذب
والطير للعشاق بالعود قد * غنت فهاجت شوق من يطرب
أبهى ولا أبهج فى منظر * من نظم من تقديمه الاصوب
مفتى دمشق الشام صدر الورى * من فى العلا تم به المطلب
علامة الدهر ولا مرية * وملجأ الفضل ولا مهرب
لله ما امتاز به من حلى * بغير من الله لا تكسب
أبدى به الرحمن فى عبده * مظاهر المنح التى تحسب
جود بلامن وعلم بلا * دعوى به التحقيق يستجلب
وبيت مجد مسند ركنه * الى عماد الدين اذ ينسب
فبرقه الشامى من شامه * نال مراما والسوى خلب
وما عسى أبديه فى مدحه * أو وصف أبناء له أنجبوا
تسابقوا للمجد حتى حووا * سبقا لما فى مثله يرغب
أعيذهم بالله من شر ما * يخشى من الاغيار أو يرهب
وأسأل الله لهم عزة * بادية الاضواء لا تحجب

ولما حللت دمشق المحروسه وطلبت موضعا للسكنى يكون قريبا من الجامع الاموى الذى يعجز البليغ وصفه وان ملا طروسه أرسل الى أديب الشام فرد الموالى المدرسين ساحب أذيال الفخار المولى أحمد الشاهينى حفظه الله تعالى بمفتاح المدرسة الجقمقية

وكتب لي معه مانصه

كنف المقرى شيخي مقترى * واليه من الزمان مفرى
كنف مثل صدره في اتساع * وعلوم كالدر في ضمن بحر
أى بدر قد أطلع الغرب منه * ملا الشرق نوره أى بدر
أحد سيدى وشيخي وذخرى * وسمى وفوق ذلك فخرى
لو بغير الاقدام يسعى مشوق * جئته زائرا على وجه شكرى

العبد الفقير المستعين المخلص أحمد بن شاهين انتهى فأجبته بقولي

أى نظم في حسنه حار فكرى * وتحلى بدره صدر ذكرى
طائر الصيت لابن شاهين يعزى * من بروض الندى له خير وكر
أحمد المنتمين ذروة مجد * لعوان من المعالى وبكر
حل مفتاح فضله باب وصل * من معانى تعريفه دون نكر
يا بديع الزمان دم في ازدياد * بالعلا وازدياد تجنيس شكر

وكتب الي لما وقف على كتابي فتح المتعال في مدح النعال ما نصه لكاتبه الفقير أحمد بن شاهين الشامي في تقريظ تأليف سيدى ومولاى وقبلتي ومعتقدى شيخ الدنيا والدين وبركة الاسلام والمسلمين حفظ الله تعالى وجوده آمين

أأحمد فخرا يا ابن شاهين ساميا * بأحمد ذاك المقرى المسدد
بمن راح خداما لنعل محمد * وناهيك في العليا بأرفع سودد
فان أنا أخدم نعله فلطالما * غدا خادما نعل النبي المجد
بتأليفه في وصف نعل تكرمت * كتابا حوى اجلال كل موحد
ويكفيك فخرا يا ابن شاهين أن ترى * خديما لخدام لنعل محمد
فقلت له طوبى بخدمة أحمد * فقال كذا طوبى بخدمة أحمد
فلا زال يرقى للمعالى مكرما * وينتقل العيوق في رغم فرقد

فأجبته بقولي

أأحمد وصف بالعوارف يرتدى * وأشرف مولى للمعارف يهتدى
فهومك اذ أنت الخليل توقدت * فانى أجاريها بنحو المبرد
أتانى نظام منك حير فكرتى * على انه أعلى مرامى ومقصدى
فأنت ابن شاهين الذى طار صيته * بجو العلا والفضل بفرقد
فبرك موصول وشانيك منكر * وقدرك مرفوع على رغم حسد
وعنك حديث الفضل أسند عاليا * بشام فهم يروون مسند أحمد
فوجهك عن بشر وعنك عن عطا * وفكرك يروى في الهدى عن مسدد
فلا زلت ترقى أوج سعد ورفعة * ودمت بتوفيق وعز مخلد

ولما خاطبته بقولي

يصيد ابن شاهين بجو بلاغة * سوانح في وكر البدائع تفرخ

وما كان

وما كان ديك الجن مدرك نيلها * اذا صرصر البازى فلا ديك يصرخ
ولو جاد فكر البحترى بمثلها * لكان على الطائى بالانف يشمخ
ولو أن نظام ابن الحسين أتيحها * لفاز بسبق حكمه ليس ينسخ
فلا زال ملحوظا بعين عناية * وكتب التهانى عن علاه تؤرخ

أجابنى بما نصه

أأنفاس عيسى ما بروحى ينفخ * أم الطرس أضحى بالعبير يضمخ
وهذى قواف أم هى الشمس انثنى * أراها على الجوزاء بالانف تشمخ
بلى هى نص من وداد محكم * تزول الرواسى وهى لم تك تنسخ
أتتنى بمدح مخجل فكأنها * لفرط حيائى قد أتتنى توبخ
وهل أنا الا خادم تعل سيدى * وبينى وبين المدح فى الحق برزخ
وما هى الا غرة حرت فخرها * والى بها بادى المحاسن أشدخ
فلا در درى وانحرفت عن العلا * اذا كان ودى عن معاليك يفسخ
وحبك مهما طار شرقا ومغربا * بوكر ابن شاهين الوفى يفرخ
وانى وان ارخت مجد الماجد * فانى باسم المقرى أؤرخ
سمى ومولاى الذى راح مدحه * لرأس الاعادى بالمعاريض يرضخ
ودم يانظير البدر ترقى بأوجه * ولا زلت فى طرفى وقلبى ترسخ

وكنت يوما أروم الصعود لموضع عال فوقعت وانفكت رجلى وألمت فكتب الى

لا ألمت رجلك ياسيدى * وصانها الله من الشين
ماهى الا قدم للعلا * لا احتاج ذاك النصل للقين
زانت دمشق الشام فى حلها * فلا رأت فيها سوى الزين
بانت عن الاهل لتشريفنا * لا جمعت أينا الى بين
عجبت من راسخة فى العلا * والعلم اذ زاغت من العين
انى أعاف المين بين الورى * واست والله أخا مين
للمقرى المجتبى أحمد * دين الهوى والمدح كالدين
وأحمد الله على أننى * رأيته حاز الفريقين
فلا أراه الله فى عمره * ين ايؤذيه الى أين

تعويذ المحب العبد الحقير الداعى أحمد بن شاهين انتهى * وأهديت اليه حفظه الله تعالى سبحة وخاتما وكتبت اليه

يانجل شاهين الذى * أحيا المعالى والمعالم
يامن به ريشت من الـمجد الخوافى والقوادم
يامن دمشق بطيب ما * بيديه عاطرة النواسم
فالنهر منها ذو صفا * والزهر مفتر المباسم
والغصن يثنى عطفه * طربا بتغريد الحمائم

يا أحمد الاوصاف يا * من حاز أنواع المكارم
أنت الذى طوقتنى * مننا لها تعنو الاعاظم
غرّاً أودّى شكرها * والعجز لى وصف ملازم
والعذر باد ان بعثت اليك من جنس الرتائم
بنتيجة الذكر التى * جاءت بتصحيف ملائم
وبخاتم صادالى * فيض الندى من كف حاتم
فامدد على جهد المقل رواق صفح ذا دعائم
واقبل عقيلة فكر من * هو فى بحار العى عائم
لازلت سابق غاية * بين الاعارب والاعاجم

فأجابنى بما صورته

يا سيدا شعرى له * ما ان يقاوى أو يقاوم
كلا ولا قدرى له * يوما يساوى أو يساوم
يا من رأيت عطاردا * منه بدا فى شخص عالم
يا من بنفحة خلقه * وبنظمه السامى الملاحم
أضحى بريح مجيزين من النواسم والمباسم
ما زلت أبصر منهما * حسن النعامى والنعائم
بهما زمانى حاسدا * أضحى وبالتنغيص حاسم
قلبى وقلبى بين ها * م فى الثناء له وهائم
حبى لاحمد سيدى * شيخ الورى فرض ملازم
المقرى المعتلى * شرف المعالى والمعالم
مالى اليه وسيلة * الا هوى فى القلب دائم
قد جاء ماشر فتنى * بخصوصه دون الاعاظم
من خاتم كفى به * ورثت سليمان العزائم
وجعلتنى لاأحسب الشعرى قلى فى فص خاتم
وبسبحة شبهتها * بالشهب فى أسلاك ناظم
فلتحسد الجوزاء ما * أحرزت من تلك المكارم
هى آلة للذكر لكن ليس ذكرى فى الحيازم
فهواك فى قلبى وما * فى القلب جل عن الرتائم
ما ذى رتائم سيدى * بل انها عندى تمائم
لوانها من جنس ما * يطوى غدت فوق العمائم
لكنها قد زينت * كفى وأزرت بالخواتم
يا من يريش اذارمى * نسر السماء بلحظ حازم
ان ابن شاهين حوى * منك الخوافى والقوادم

هذى نوافل ياأما * م الدهر ليست باللوازم
العذر عنها مخجل * عبدا لنعلك جدّ خادم
بل أنت فوق العذر قد * أصبحت للشعرى تنادم
لازال دهرك سيدى * يلقاك منه ثغر باسم
يهدى اليك من المرا * حم والمكارم والغنائم
مالا يساوم مثله * ذوالحظ فى اسنى المواسم

العبد الحقير الداعى لاستاذه مولاى الاجل بالتمكين أحمد بن شاهين حامدا مصليا مسلما انتهى وقال مستجيزا

الشيخ يشرب ماء * ونحن نشرب قهوه

فقلت

لانه ذو قصور * فغط بالعذر سهوه

ولما أزمعت العود الى مصر أوائل شوال سنة ١٠٣٧ خاطبنى بقوله

أبدا اليك تشوقى وحنينى * والى جنابك ما علمت سكونى
ولديك قلبى لايزال رهينة * غلقت وتم لم ذمة المرهون
وعليك قد حبست شوارد مدحتى * لما رأيتك فوق كل قرين
قلبى كقلبك فى المحبة والهوى * اذ كان فى الاشواق دينك دينى
وليته بهواك أرفع رتبة * وغدوت تعزل عنه كل خدين
واطاع أمرك فى الوداد فلواشا * منه وحاشا سلوة يعصينى
ما كنت أحسب قبل طبعك أن أرى * يوما عطاردنا طقا بفنون
حتى رأيتك فاستبنت بأنه * يروى أحاديث العلا بشجون
ويفيد معنى معجز ابهر النهى * ويرى عيونى آية التكوين
يامن غدا يحيى القلوب بلفظه * ويردّ الانفاس عن جبرين
أحييت بالوحى المبين قلوبنا * وحلى لعمر الله جد مبين
هذى دمشق لعمر خلقك روضة * قد جادطبعك دوحها بعيون
قد زارها غيث الندى فبهارها * أضحى يلوح بجملة النسرين
لولم تكن بدرا لما أحرزت ما * قد خص فى الانوار بالتلوين
حققت ماقد قيل حين حللتها * ان المكان مشرف بمكين
هى غادة حليتها فتزينت * ما كان أحوجها الى التزيين
مولاى أحمد ياسليل بنى العلا * يافوق مدحى فيك أو تحسينى
أغنى وجودك وهو عين الدين عن * علامة الدنيا لسان الدين
انظره تستغنى به عن غيره * والى العيان ارغب عن المظنون
تلقى علوم الناس فى أوراقهم * وعلومه فى صدره المشحون
فبعلمه اعبر كل بحر زاخر * وبفهمه اشبر غامض المخزون

وبحلمه ارغب عن تحلم أحنف * وبعزمه اصحب بأس ليث عرين
لما رأيتك فاستقمت لقبلتى * أدعو وأشكر واردات شؤونى
ألفيت قطرك جنتى فأفادنى * فضل اليمين على اليسار يقينى
فسقى الحيا المقرى أخى العلا * بلدا باقصى الغرب جدّ حنون
بلدا تبينت الهلال بأفقه * ورأيت منه قرة لعيونى
لولا هلال الغرب نور شرقنا * بتنا بليل الحدس والتخمين
يا راحلا رحل الفؤاد بعزمه * رفقا بقلب للوفاء ضمين
أستودع الله العظيم وانى * مستودع منه أجل أمين
انى أودع يوم بينك مهجتى * وشبيبتى وتصبرى وسكونى
وأعود من توديع وجهك عودة * خلطت يقينى فى الهوى بظنون
حتى كأنى قد فقدت تمائما * تقضى على بحالة المجنون
وتودّ نفسى انها لو حرمت * أبدا سكونى للهوى وركونى
أوشكت أقتل بين معترك الهوى * نفسى ومعترك النوى يحيينى
ولقد وددت بانى متحمل * تلك الخطا بمحاجرى وجفونى
كيف السبيل الى الحياة ومهجتى * فى قبضة الاشواق كالمسجون
ما أنت الا البدر لاح بأفقنا * شهرا وكان ضياؤه يهدينى
واليكها يا شيخ دهرى غادة * غنيت عن التحسين والتزيين
جاءتك تعرض فى الوداد كمالها * واذا لحظت جمالها يكفينى
هى بنت لحظتك التى تؤوى النهى * لا بنت ليلتى التى تؤوينى
ما الفخر فى دعوى البديهة عندها * الفخر قولك انها ترضينى
حسبى أبا العباس منك اصاخة * تقضى بموت عداى أو تحيينى
يالهف نفسى كيف أبلغ مدحة * أضمرتها فى سرى المكنون
فلسان حبى بالغ أقصى المدى * ولسان مدحى فى القصور يلينى
ما الشعر يستوفى حقوقكم ولو * أهديت من نظمى عقود سنين
حلقت أصطاد النجوم وانها * تزهو بعقد فى علاك ثمين
فرأيت فى العيوق طبعك سيدى * نسرا أسف لعجزه شاهينى
قد خف شعرى من قصور طبيعتى * ولربما قد كان جد رصين
يكفيك أحمد يا بن شاهين بأن * أحرزت خصل السبق دون الدون
واذا عجزت عن الفرائض جاهدا * فادأب عساك تفوز بالمسنون
هو قبلتى فلأغتدى متمسكا * منه بحبل فى النجاة متين
واسلم فديتك زائرا ومشرفا * أفدى مواطئ نعله بجبينى
وكذا الدعى فى هواك مقسم * بين الدعاء الجد والتأمين

وقال حفظه الله تعالى فى ذلك

جنانيك ان الدمع بالود معرب * وانى فى شرق وأنت مغرب
ورحمالنبى انى قتيل صبابة * بمن هو أوفى فى الفؤاد وأنجب
ووعدك لى بالعود انى معلل * به مهجة قد أوشكت تتصوب
وهبتك قلبى ما حييت ولم أقل * ولكن من الاشياء مالدين يوهب
فلو كنت شيخا واحدا هد صدته * فكيف بشيخ لم يكن مثله أب
وانا بحمد الله لما خصصتنا * بزورة ذى ود دعاه التحبب
فرشنا له منا الخدود مواطئا * وعدنا به شوقا نجىء ونذهب
وقلنا دمشق أنت فيها محكم * وأشرافها ودوا وجدوا ورحبوا
وأنت لها روح ومولى ومفخر * وقد زنت شرقا مثل ما ازدان مغرب
ونفخر اعظيما يا ابن شاهين انه * غدا وكرنا نسر السماء فيه يرغب
فنحن ونحن الناس خدام نعله * فلا غرو أن يقلى الغضنفر أكلب
وما نقموا منه سوى انه امرؤ * لياً كل فيما قدروه ويشرب
هو الشيخ شيخ الدهر أحمد من غدت * دمشق ومن فيها بعليائه تخطب
هو المقرى العالم العلم الذى * اليه تناهى الفضل والمجد ينسب
وما هو الا الشمس أزمع رحلة * وأنا لفى ليل اذا هى تغرب
أو الغيث قد وافى فأمرعت النهى * به وانثنى والصدر بالود معشب
أو الطائر العنقاء جاء مشرقا * فأغرب والعنقاء فى الطير مغرب
وانك للخل الوفى وانه * هو الواحد المطلوب ان عز مطلب
وانك بالتحقيق فى كل حالة * لاسنى وأندى ثم أوفى وأغرب
رعى الله وجها انت ترغب نحوه * وأى أخى جد له أنت ترغب
وحيا الحيا أرضا وطئت ترابها * فأصبح مسكا وهى بالمجد تخضب
ولا فارقت يوما علاك كلاءة * من الله أنى كنت والله أغلب
مدى الدهر ما حنت جوانح واله * مشوق فأمسى للحقيقة يطرب

ولما قرأ على أدام الله تعالى عزته وحرس حوزته عقيدتى المسماة باضاءة الدجنه فى عقائد أهل السنه سألنى أن أجيزه فيها وفى غيرها فكتبت اليه بما نصه

أحمد من أطار فى جو العلا * صيت ابن شاهين الذى زان الحلى
وراش منه للمعالى أجنحه * نال بها فضلا غدا مستنجحه
وأسكن البيان من أوكار * أفهامه بقنة الافكار
فاصطاد كل شارد بمخلب * أفهامه ومن يعارض يغلب
والصقر لا يقاس بالبغاث * والحق ممتاز عن الاضغاث
نشكر من بلغه مناه * على نواله الذى سناه
ونتحى نهج صلاة باديا * نخير من جاء الانام هاديا
مبينا دلائل التوحيد * وموضحا طرائق التسديد

محمد خير البرايا المتقى * أجل من خاف الاله واتقى
صلى عليه الله مع أصحابه * وآله الراوين عن صحابه
مااعترف العبد الفقير ذو العدم * للرب باستغنائه وبالقدم
وبعد فالعلوم والعوارف * من أمّها يأوى لظل وارف
وروضة أزهارها تضوعت * لانها أفنانها تنوعت
وليس يحتاط بها نبيل * اذ ذاك أمر ما له سبيل
فليصرف القول الى ماينفعه * دنيا وفى أوج الاجور يرفعه
وانّ فى علم أصول الدين * هدى وخيرا جل عن تبيين
لانه أصل يعمّ النفع * به وكل ماسواه فرع
وكيف يعبد الاله من لا * يعرفه وعن رشاد ضلا
فهو الذى لاتقبل الاعمال * الا به وتنجح الآمال
وانى كنت نظمت فيه * لطالب عقيدة تكفيه
سميتها اضاءة الدجنه * وقد رجوت أن تكون جنه
وبعد أن أقرأتها بمصر * ومكة بعضا من أهل العصر
درستها لما دخلت الشاما * بجامع فى الحسن لايسامى
وكان فى المجلس جمع وافر * من جلة بدورهم سوافر
منهم فريد الدهر ذو المعالى * فخر دمشق الطيب الفعال
أحمد من راح لعلم واغتدى * وشام أنوار الفهوم فاهتدى
العالم الصدر الاجل المولى * من وصفه الممدوح يعيى القولا
وهو ابن شاهين ومادرا كا * من بذ جنس العرب والاتراكا
ورام من مثلى بحسن الظن * اجازة فيما رواه عنى
فحرت فى أمرين قد تناقضا * بالنفى والاثبات اذ تعارضا
ترك الاجابة لوصفى بالخطل * وبالخطا والجيد منى ذو عطل
وكم فرائض بعجز تسقط * فكيف غيرها وهذا أحوط
أوفعلها بحسب الامكان * رعيا لود محكم الاركان
منه وماله من الحقوق * ولا يجازى البر بالعقوق
وبعد مامر من التردداد * أسعفته بمقتضى الوداد
وسرت فى طرق من التساهل * معترفا بالجهل لا التجاهل
مع انه الاهل لان يجيزا * لاأن يجاز اذحوى التبريزا
ومن رأى عيبى بعين للرضا * لم يقف نهج من غدا معترضا
فليروعنى كل ماأسمعته * اياه بالشرط وماجمعته
من الفنون نظمها والنثر * مع القصور راجيا للاجر
كهذه القصيدة السديده * والنعل ذات المدح العديده

كذاك ما ألفت في عمامه * من خص بالاسراء والامامه
والفقه والحديث والصوفي * أسرار وفق وهو بالقصد وفي
وغيرها مما به الوهاب من * على فقير عاجز في غير فن
وما أخذت في بلاد المغرب * عن كل فذ في العلوم مغرب
ولي أسانيد اذا سردتها * طالت وفي كتبي قد أوردتها
وقد أخذت الجامع الصحيحا * وغيره عمن حوى الترجيحا
عن سعيد عن سقين وهو عن * القلقشندي عن الواعي السنن
العسقلاني الشهاب بن حجر * بماله من الروايات اشتهر
وقد أجزته بكل مالي * يصح من ذلك بلا احتمال
على شروط قرروها كافيه * ليست على أفكاره بخافيه
وقال هذا المقري الخطا * والعي عم لفظه والخطا
عام ثلاثين وألف بعدها * سبع أتمت في السنين عدها
وكان ذا في رمضان السامي * بحضرة العدد دمشق الشام
والله نرجو أن يتيح الختما * بالخير كي نعطى القبول حتما
بجاه خير العالمين أحمدا * صلى عليه الله ما طال المدى
وآله وصحبه ومن زكا * فنال من حسن الختام مدركا

وقد كرت بهذه الاجازة نظيرتها التي سألني فيها مولانا عين الاعيان مفتي الانام في مذهب النعمان مولانا الشيخ عبد الرحمن العمادي مفتي الشام حفظه الله تعالى لاولاده الثلاثة وكتب لي أصغرهم سنا استدعاء لذلك

أحمد من شيد بالاسناد * بيت العلوم السامي العماد
وعم من خصص بالروايه * بنورها النافي دجى الغوايه
وزان صدر النبها كل زمن * بجوهر الاجازة الغالي الثمن
نحمده سبحانه أن عرفا * من الحديث ما به قد شرفا
ونسأل المزيد من صلاته * لمن أتيح القصد من صلاته
مطلوبنا المعصوم أعلى سند * لنا برغم جاحد مفند
كهف الضعيف والقوي المرتجي * باب الهدايات وليس مرتجا
من جاءنا بالجامع الصحيح من * كلامه الهادي الى نهج أمن
من فضله ما شك فيه مسلم * من حبه بكل خير معلم
نبينا المرسل ذو الخلق الحسن * والمعجز المفحم أرباب اللسن
محمد المرفوع قدره على * سائر خلق الله جل وعلا
صلى عليه ربنا وسلما * أزكى صلاة نتحيها معلما
مع آله وصحبه ومن روى * آثاره عن صحة وما غوى
وبعد فالعلم عظيم القدر * وليس من يدري كمن لا يدري

ولم تزل همة أهل المجد * منوطة بنيل علم مجدى
ومنه علم السنة الشريفه * لانه ظل لاله وريفه
فمن درى الاخبار والشمائل * لم يلق عن صوب الهدى بمائل
وكم يدع لاجله رفض * أوطانه وثوب ترحال نفض
وكيف لا وهو أجل ما طلب * موفق يروم حسن المنقلب
لانه وسيلة السعاده * والعز فى الابداء والاعاده
وانى لما انتحيت المشرقا * ممن ما بدرا هتداء مشرقا
ألقيت فى مصر عصا التسيار * بعد بلوغى أشرف الديار
وبعد ذا جئت دمشق الشام * مسكن من يزدان باحتشام
فشاهدت عيناى فيها ما ملا * قلبى سرورا اذ بلغت ما ملا
مدينة فياضة الانهار * فضفاضة الاثواب بالازهار
أرجاؤها زاكية العبير * ومدحها يجل عن تعبير
وجلة أهلها بجى دانوا * مع أن مثلى منهم يزدان
ولاحظوا بالاعين الكليله * عبدا غدا تقصيره دليله
وقابلوا عيبى بما اقتضاه * فضل لهم رب الورى ارتضاه
خصوصا المولى الكبير المعتبر * قرة عين من رآه واختبر
مفتى الورى فى مذهب النعمان * بها الوجيه عابد الرحمن
ابن عماد الدين من تعيى القلم * أوصافه اللاتى كنور فى علم
حاوى طراف المجد والتلاد * نال المنى فى النفس والاولاد
وكنت فى مكة قد أبصرت * منه علا عن مدحه قصرت
جلالة ومحتدا وعلما * ورفعة وسوددا وحلما
مع التواضع الذى قد زانه * حسن اعتقاد مثقل ميزانه
فحث من فى الشام من أخيار * لم يسلكوا مناهج الاغيار
أن يأخذوا بعض الفنون عنى * بما اقتضاه منه حسن الظن
مع انى والله لست أهلا * لذاك والتصدير ليس سهلا
وكان من جلتهم أبناؤه * عماد دين قد علا بناؤه
وصنوه الشهاب من توقدا * فهما وابراهيم سباق المدى
وهو الذى قد ابتغى الاجازه * لهم بوعد طالبا انجازه
وكتب القصيدة الطنانه * فى ذا لى مهتصرا أفنانه
وانهم كحلقة قد أفرغت * دامت لهم آلاء فيض سوغت
فلم أجد بدا من الاجابه * مع كون جهلى ساد لا محابه
فقد أجزتهم بما رويته * طرا وما ارتجلت اذ رويته
وكل ما صنفت فى الفنون * مؤمل التحقيق للظنون

وما أخذت عن شيوخ المغرب * وغيرهم من كل حبر مغرب
ولى أسانيد يطول شرحها * شيد على تقوى الاله صرحها
ولو سردت كل مروياتى * هنا لطال القول فى الابيات
وكل طول غالبا مملول * وحد من يعنى به مفلول
فلنقتصر اذن على القليل * تبركا بالمطلب الجليل
وقد أخذت جامع البخارى * عن عمى الحائز للفخار
المقرى سعيد الامام عن * محمد يدعى شريفا حين عن
التونسى الطيب الانفاس * نزيل حضرة الملوك فاس
عن الكمال القادرى المرتضى * عن الحجازى عن الحبر الرضا
نجل أبى المجد عن الحجارى * عن الزبيدى ينقل جارى
عن مسند الاسلام عبد الاول * عن الشهير الداودى المعتلى
عن السرخسى عن الفربرى * عن البخارى الامام الحبر
وفضله أظهر من أن يذكر * وعلمه المعروف غير المنكر
ومسلم بدا الى الكمال * عن علم الدين أخى الجلال
منسوب بلقين عن التنوخى * عن ابن حمزة عن الشيوخى
كابن المقير عن ابن ناصر * عن ابن مندة اللبيب القاصر
عن جوزقى قد روى عن مكى * عن مسلم نافى دياجى الشك
فليخبروا عنى بدا والباقى * من ستة حائزة السباق
كذا موطأ الامام مالك * امامنا منير كل حالك
ومسند الفذ الرضا ابن حنبل * والدارمى ذى الثناء الاجل
والطبرانى وما أرويه * من المعاجيم بما تحويه
وكلها تشمله الاجازه * بشرطها عند الذى أجازه
فلتقبلوها فهى من جهد المقل * اذ لست بالمطلوب منى أستقل
ومن أسانيدى عن القصار * مفتى الانام بهجة الاعصار
عن شيخه خروف الراقى الدرج * عن الشريف الطحطحانى فرج
قال سمعت المصطفى فى النوم * صلى عليه الله كل يوم
يقول من أصبح يعنى آمنا * فى سربه الحديث فاعرف كامنا
والمسك العنان فى هذا الارب * مصليا على الذى زان العرب
وآله وصحبه الاعلام * ومن تلا من أنجم الاسلام
وخط هذا المقرى العاصى * أجير يوم الاخذ بالنواصى
سنة سبع وثلاثين تلت * ألفا لهجرة بياسين علت
عليه أزكى صلوات تستتم * نرجو بها الزلفى وحسن المختتم

ونص الاستدعاء المشار اليه هو

فازت دمشق الشام بالمقرى * الالمعى اللوذعى العبقرى
علامة العصر بلامفتر * وواحد الدهر بلاممترى
فكم سمعت أخبار أوصافه * فقصر الخبر عن منظر
جامع علم بث املاؤه * بالشام مل الجامع الاكبر
يقرى فتقرى السمع أنفاسه * أنفس مايقرى وماقد قرى
مولاى يامن در ألفاظه * صحاحها تزرى على الجوهر
اجازة ترفل من فضلها * فى ثوب عز وردا مفخر
مسبلة الذيل على أكبر * وأوسط الاخوة والاصغر
أطل لنا انشاءها بل أطب * وانظم لنا من درها وانثر
لازلت فى نفح الورى دائبا * تجود جود العارض الممطر

العبد الداعى ابراهيم العمادى انتهى ومن الاجازات التى قلتها بدمشق الشام ما كتبته للاديب الحسيب سيدى يحيى المحاسنى حفظه الله تعالى

أحمد من زين بالمحاسن * دمشق ذات الماء غير الآسن
وأطلع النجوم من أعيان * بأفقها السامى مدى الاحيان
فكل أيامهم مواسم * من الصفا ثغورها بواسم
وذكرهم قد شاع بين الاحيا * اذ قطرهم به الكمال يحيى
وبشرهم حديثه لاينكر * ومسند الجامع عنهم يذكر
وقد حكت جوارح الذى ارتحل * اليهم صحيح ما له اتصل
فسمعه عن جابر والعين عن * قرة تروى واللسان عن حسن
فضل من أتاحهم آلاءه * حتى أبان نورهم لألاءه
نحمده سبحانه أن أسدى * من الاماني ما أنال القصدا
ونهتدى صوب صلاة باهره * الى الرسول ذى السجايا الطاهره
أجل من خاف الاله واتقى * محمد الهادى الرسول المنتقى
صلى عليه الله طول الابد * مع آله وصحبه والمقتدى
وبعد فالعلم أساس الخير * وكيف لا وهو مزيح الضير
وهو الموصل الى منهاج * هدى ورشد ماله من هاجى
ومابغير العلم يبدو العلم * وليس من يدرى كمن لايعلم
خصوصا الحديث عن خير البشر * فان فضله على الكل انتشر
ولم يزل يعنى به كل زمن * من الرواة كل صدر مؤتمن
وانى عند دخول الشام * لقيت من بها من الاعلام
وشاهدت عيناى من انصافهم * ماحقق المحكى عن أوصافهم
وان من جلتهم أوج الذكا * والنير المزرى سناه بذكا
ابن المحاسن الذى قد طابقا * منه المسمى الاسم اذ تسابقا

اللوذعى

اللوذعيّ الالمعيّ يحيي * لا زال رسم المجد منه يحيا
وهو الذى أغراه حسن الظنّ * على انتمائه لاخذ عنى
وكان قارئ الحديث النبوى * لدىّ فى الجامع أعنى الاموى
بمحضر الجمع الغزير الوافر * ممن وجوه فضلهم سوافر
وبعد ذاك استمطر الاجازه * من نوء وعدى واقتضى انجازه
فلم أجد بدا من الاجابه * مع أننى لست بذى النجابه
وان أكن أجبت أمر اعتثل * منه ففى ذلك تصديق المثل
فمن درى شيأ وغابت أشيا * عنه ومن أهدى اصنعاوشيا
فليروعنى كل مايصح لى * بشرطه الذى يزين كالحلى
وقد أخذت جامع البخارى * عن عمى الامام ذى الفخار
سعيد الذى نأى عن دنس * عن شيخه الحبر الشهير التنسى
أعنى أباعبد الاله وهو عن * والده محمد راوى السنن
عن ابن مرزوق محمد الرضا * عن جده الخطيب عن بدر اضا
القارقىّ عن امام يدعى * بابن عساكر الجليل المسعى
بماله من الروايات التى * على علو قدره قد دلت
وليروعنى ما انتمى للنووى * بذا الى السابق ذى النهج السوى
أعنى ابن مرزوق الخطيب الراوى * عن شيخه يحيي الرضى المغراوى
وهو روى عن صاحب التمكين * النووىّ الشيخ محيي الدين
وخط هذا أحمد البادى الوجل * المقرىّ المالكى على خجل
فى عام ألف وثلاثين خلت * من هجرة الهادى وسبعة تلت
ألبسه الله البرود الضافيه * من منه وعفوه والعافيه
بجاه سيد البرايا طرّا * ملجا من الى الكروب اضطرا
عليه أسنى صلوات تسدى * حسن الختام ببلوغ القصد انتهى

وسأل منى بعض ساكنى دمشق المحروسة أن أقرظ له على شرحه لرسالة العارف بالله تعالى سيدى الشيخ ارسلان فكتبت ماصورته

أحمد من خصص بالاسرار * قدما من الصوفية الابرار
أتاحهم عوارف المعارف * والحكم السابغة المطارف
فهم بهم تستمطر الانواء * وتظهر الانوار والاضواء
ومن أجلهم سناء وسنى * من ذاد عن عين المعالى الوسنا
شيخ الشيوخ العارف الكبير * الشيخ أرسلان الشهير
فكم اشارات له أبانا * بها علو ما من حلاها ازدانا
وكم عبارات تلا آياتها * تعيا الفحول عن مدى غاياتها
ومن رأى رسالة التوحيد * له انتحى مناهج التسديد

فهى تنادى من أبى أن يسلكا * يامعرضا شرك خفى كالكا
ومن أضل القصد فى مهامه * هدته للخروج عن أوهامه
وكم بها من باب معنى مغلق * عن يقيد الوجود المطلق
فبابغير الفتح يدرى الباطن * ووارد الفيض له مواطن
وقد رأيت فى دمشق الشام * شرحا لها أنبأ عن الهمام
للكاشفى ذى الوفا بالوعد * شمس العلا محمد بن سعد
لازال فى أوج التجلى صاعدا * وعون ربنا له مساعدا
ومذ أجلت ناظرى فى حسنه * ألفيته مبتدعا فى فنه
ودل ما أبداه من معانى * على شهود بالهدى معانى
لانه أجاد فى تقرير * ما اعتاض بالاتقان والتحرير
وأبرز الابكار من خدور * أفكاره حالية الصدور
فالله يجزيه الجزاء الاوفى * فى يوم تبدى الانبياء الخوفا
وخط هذا المقرى من وجل * مرتجيا من ربه عز وجل
كشف كروب عقد صبر حلت * منه وغفران ذنوب جلت
بجاه طه الهاشمى أحمدا * عليه أزكى صلوات سرمدا
عاطرة النشر بلا اكتتام * تأرجت بالمسك فى الختام

وخاطبنى السرى الحسيب الماجد فخر الصدر سين الاعيان مولانا الشمس محمد ابن الكبير الشهير مولانا يوسف بن كريم الدين الدمشقى حفظه الله تعالى بقوله

شمس المحاسن شرقى أو غربى * سعدت منازلنا بشمس المغرب
شمس لنا منها شموس فضائل * وسنى هدى قد راح غير محجب
المقرى العالم الندب الذى * لسوى اسمه درج الحجا لم يكتب
بدر ولم تبد البدور بمشرق * الابدت من قبل ذاك بمغرب
لسوى اكتساب سناه لم تغرب ذكا * فلو انهم شعرت به لم تغرب
علامة ملأ البلاد بفضله * وأفاده لمشرق ومغرب
عمرى هو البحر المحيط فضائلا * ان قيس بالعذب الذى لم يعذب
مولى له سند قوى فى العلا * فعن الجدود روى العلا وعن الاب
نسب له المجد المؤثل فى الورى * والمجد لم يكسب اذا لم يوهب
هو فى جبين الفضل أضحى غرة * يجلى بها للجهل ظلمة غيهب
آمالنا قطعت ببشر جبينه * أن لا ترى للدهر وجه مقطب
بدر به زهيت دمشق وأهلها * أحبب ببدر حيث حل محبب
طود الفضائل باكرت أرجاءه * ديم الحجا فغدا كروض مخصب
بحر الهدى والعلم الا انه * صفو من الاكدار عذب المشرب

هو قطب دائرة الفضائل فى الورى * فبكا دبخبرنا بكل مغيب
فى الفضل ما حاولت يوما مثله * كلا ولا قست البدور بكوكب
أنى يجارى فى الفضائل من له انـ * ـقاد الزمان بأدهم وبأشهب
سنن لمدح الغير تسقط عندنا * فله العلا تقضى بفرض أوجب
ما روضة حلى ازاهرها الحيا * فافتر فيها كل ثغر أشنب
ومشت بها خود الصبا فتعطرت * أذيالها من كل عرف طيب
للنور فيها جدول أخذت به * شهب المجرة حيرة المتعجب
باتت تناشدنى بهاذ كر الهوى * ورق الاراك بكل صوت مطرب
تشكو الى بمثل ما أشكو لها * شكوى المعذب فى الهوى لمعذب
فعلمت ما قد حل من وجد بها * وجهلن وهو الفرق ما قد حل بى
لم تلق فيها من عليل يشتكى * الا النسيم وذا الهوى ان تطلب
بأغض حسنا من ربا آداب من * حيا رياض حجاه ألطف صيب
طبع أرق من النسيم ومنطق * مستعذب وكذاك كل مهذب
لوجاد صوب حجاه قفرا جدبا * لنعمت منه بكل روض معشب
مولاى عذرا فالزمان يعوقنى * عن مطلبى والآن مدحك مطلبى
عفوا اذا أخرت مدحك سيدى * فعوائق الايام عذر المذنب
وكذاك يفعل بالاديب زمانه * فلذا يطول على الزمان تعتبى
لم ألق يوما من يديه مهربا * الا ثناك وحبذا من مهرب
لولاك ما جال القريض بخاطرى * فالدهر يوجب للقريض تجنبى
لولاك لم ينهض جواد قريحتى * فى كل واد للضلالة متعب
فاسمع ولست بآمر نظما غدا * فى عقد مدحك لؤلؤا لم يثقب
كالراح يلعب بالعقول للطفه * لكن بغير مسامع لم يشرب
من كل قافية غدت من حسنها * مثلا لغيرك فى العلا لم يضرب
خود تقلد من ثناك قلائدا * بكر لغيرك فى الورى لم تخطب
غنيت بمدحك زينة ولربما * يغنى الجمال عن الوشاح المذهب
هى بعض أوصاف لذاتك قد غدت * كالبحر عذبا ماؤه لم ينضب
جاءتك تسأل القبول وحسبها * فخرا قبولك وهو جل المطلب
وتروم منك اجازة فاقت بما * ترويه بالسند القوى عن النبى
حسبى الاجازة منك جائزة ولم * ألق قبل غيرا لفضل بالمتطلب
لابدع والايجاز اطنابا غدا * فى مدحه ان لم أطل أو أسهب
هيهات لا تحصى مآثر فضله * بالمدح ان أطنب وان لم أطنب
خدمة الداعى محمد بن يوسف الكريمى انتهى فأجزته بما نصه
أحمد من أطلع شمس الدين * فى أفق الرواية المبين

وخص فضلا منه بالاسناد * أئمة طه مذهب العناد
فلم يكن عصر من الاعصار * الا وفيه أهل الاستبصار
ينفون عن حوزة دين الله ما * يروم من عليه رشد أبهما
وأنتحى سبل صلاة كامله * على الذى له العطايا الشامله
محمد المرسل بالشرع الحسن * ذو المعجز المفحم أرباب اللسن
مع حزبه من صحبه وعترته * ومن تلا مقتفيا لاثرته
وبعد فالعلم أجل ما اعتقد * موفق من فيض مولاه استمد
خصوصا الحديث عن خير الورى * صلى عليه الله ما زند ورى
ولم يزل ذووا النهى يسعون فى * تحصيله اذ فضله غير خفى
وان مولانا الشهير السامى * الماجد المولى نبيه الشام
سالك نهج السنة القويم * محمد بن يوسف الكريمى
لازال فى عز وفى أمان * مبلغا من قصده الامانى
وجه لى لما حلات الشاما * وبرق حسن الظن منى شاما
قصيدة بليغة مستعذبه * غريبة فى فنها مهذبه
يسأل من مثلى بها الاجازه * بشرطها عند الذى أجازه
مستمسكا بعروة الصواب * ولم أجد بدا من الجواب
فليرو عنى ما سمعت كله * وما جمعت فى الفنون جله
على شروط قررت فى الفن * مرتجيا حصول كل من
وصنوه الا كمل قد أجبته * ذا على الوجه الذى شرحته
وان اكن فيما ابتغى مقصرا * فذو الرضا ليس لعيب مبصرا
ولى أسانيد أبى وقتى عن * تفصيلها لما من الرحلة عن
والعذر باد والكريم يقبل * والصفح نهج يقتفيه الانبل
وخطه ذا المقرى الجانى * امنه الله من الاشجان
فى عام ألف وثلاثين قفا * سبعا لهجرة النبى المصطفى
عليه أزكى صلوات تغتنم * يزكو بها مفتتح ومختتم

وكتب الى الفاضل الخطيب الفهامة الاديب وارث الفضل عن الاعلام ذوى اللسن سيدى الشمس محمد المحاسنى سبط شيخ الاسلام مولانا البورينى حسن حفظه الله تعالى

ياسيدى وملاذى * وعالم الثقلين
ومن غدا بكمال * علا على النيرين
أجزت بالدرس قوما * فاقوا به الفرقدين
فجزنى العبد أيضا * من مثل ذا الدين زين
وان يكن فى ختام * فذا لذا قرة عين

فأجزته بما نصه

أحمد من أطلع من محاسن * دمشق ما أربى على المحاسن
وزانها بالجلة الاعيان * الرافلين في حلى التبيان
الراغبين في الحديث النبوى * السالكين في الهدى النهج السوى
وبعد فالعلم أجل زينه * وسبله في الرشد مستبينه
وان علم السنة الشريفه * ظلاله ضافية وريفه
لذاك كان باعتناء أجدرا * من كل ما عليه من تصدرا
وان ذا الفضل الاديب البارع * سابق ميدان الذكا المسارع
الماجد المسدد السامى الحسب * محمد من للمحاسن انتسب
ابن الشهير الصدر تاج الدين * لازال في عز وفي تمكين
وجده لامه الشيخ الحسن * وذا النور بهم معطى اللسن
سألنى اجازة بكل ما * أرويه عنوانا بحالى معلما
وها أنا أجيبه غير بطل * مستغفرا من خطا ومن خطل
فليروعنى كل ما يصح * على شروط عندها يصح
وهى عن الشروط لن تريبا * وليس يخفى علمه الكريما
وكل ما ألفت أو جمعت * نظما ونثرا مثل ما أسمعت
ولى أسانيد بضيق الوقت * عن سردها وبعضها قد سقت
فى غير هذا فليحقق ذلك * مقتفيا لاوضح المسالك
وقد أخذت جامع البخارى * وسلم عن حائز الفخار
محى سعيد وهو عن يدحى * بالتنسى قد أفادا لجما
عن حافظ الغرب الرضا أبيه * عن ابن مرزوق عن النبيه
الحافظ المبجل العراقى * وقد سما في سلم المراقى
وماله من الروايات علم * من كتبه التى حوت خير الكلم
وخط هذا المقرى عن عجل * مؤملا من ربه عز وجل
غفران ما جنى من الذنوب * والصفح عن معرة العيوب
بجاه خير العالمين أحمدا * صلى عليه الله دأبا سرمدا
وآله وصحبه الاخيار * ومن تلا لآخر الاعصار

ومما سألنى فى الاجازة الفاضل الاديب سيدى محمد بن على ابن مولانا عالم الشام الشهير الذكر شيخ الاسلام سيدى ومولاى الشيخ عمر القارى حفظه الله تعالى وأنا مستوفز للسفر فكتبت له عن عجل ما صورته

أحمد من زين بالآثار * جيد امين الراوى النبيه القارى
وشاد للعلماء فى أوج السند * منازلا لم يلهها طول الامد
وميز الواعين للحديث * بالفضل فى القديم والحديث

وزان منهم سماء الدين * فأشرقت بالحفظ والتبيين
فهم بهاالمهتدى نجوم * وانها للمعتدى رجوم
فكم أزاحوا عن حديث المجتبى * صلى عليه الله ماهبت صبا
تحريف ذى غل مضل غالى * شان لمنهاج الرشاد قالى
وبعد فالاسناد للروايه * وسيلة تزحزح الغوايه
والله قد خصص هذى الامه * به امتنانا وأزاح الغمه
هذا ولولا ذاك قال من شا * ماشاءه فهو يحق منشا
فلم يزل أهل النهى كل زمن * يسعون فى تحصيله عن مؤتمن
وان من جملة من تحرى * لجلة من العلوم غرا
الفاضل المسدد النجيب * الواصل المجيد الاريب
محمد سليل ذى المجد على * ابن الامام العالم الحبر الولى
عمر الشيخ الشهير القارى * طود السكون هضبة الوقار
شيخ الشيوخ فى دمشق الشام * لازال محفوفا بعز سام
فكان من جملة من عنى روى * بعض الصحيح ظافرا بما نوى
وبعد ذاك اقترح الاجازه * منى ووعدها اقتضى انجازه
فانحجمت نفسى عن الاجابه * اذ لست فى ذا الامر ذا نجابه
مع انى مقصر ذوعى * فى مثل هذا المطلب المرعى
وخفت أن آتيها شنعاء * بحملى الوشى الى صنعاء
وبعد ذا أجبت قصد الاجر * مرتجيا بذاك ربح التجر
وقد أجبته وانى أعلم * أنى من خوف الخطا لا أسلم
فليروها بيالغ التقى * جميع مايصح لى وعنى
من ذلك الجامع للبخارى * عن عمى الشهير ذى الفخار
سعيد الآخذ عن سفين * عن قلقشندى مزيح المين
عن حافظ الاسلام أعنى ابن حجر * بماله من الروايات اشتهر
وبعضها فى صدر فتح البارى * مبين لطالب الاخبار
ولى أسانيد يطول شرحها * والروضة الغناء يكفى نفحها
ومن رواياتى عن القصار * مفتى البرايا بهجة الاعصار
حدثنا خروف الزاكى الارج * عن الشريف الطحطائى فرج
سمعت فى المنام طه يملى * حديث من أصبح وفق النقل
أى آمنا فى سربه معافى * فى جسمه مع قوت يوم وافى
وكل ما ألفت فى الفنون * أرجو به التحقيق للظنون
فليروه عنى بشرط معتبر * ورعايصدق الخبر الخبر
ولى تآليف على العشرينا * زادت ثمانيا حوت تفننا

فطيروها ان شا بلا استثناء * والله أرجو نيل قصد نائى
بجاه من شرف بالادناء * صلى عليه الله فى الآناء
أحمد خير المرسلين الهادى * غوث البرايا ملجأ الاشهاد
عليه أسنى صلوات زاكيه * مع صحبه ذوى المزايا الزاكيه
ومن تلا ممن أطاب عمله * فنال من رجائه ما أمله
وشم من عرف قول أرجا * فنال من حسن الختام مارجا

وخاطبنى من أهلها أيضا خادم الشيخ الاكبر بن عربى محيى الدين وهو الشيخ الاكرمى سيدى ابراهيم سلك الله بى وبه سبل المهتدين بقوله

فكرت فى فضل الاما * م المقرى الحبر حينا
فوجدته بكرا لزما * ن وواحد الدنيا يقينا
ماان رأيت ولاسمعـ * ـت بمثله فى العالمينا
وافى دمشقا زائرا * ألوانه أضحى قطينا
وأتى بعجيب الاتفا * ق بفطر شهر الصائمينا
فكان غرته الهلا * ل ونحن كنا ناذرينا
والعلم قال مؤرخا * أدى بها فضلا مبينا

وخاطبنى أيضا منهم الفقيه النبيه سيدى مصطفى بن محب الدين حفظه الله تعالى بقوله

فضائل قطب الغرب فى العلم والفضل * هو المقرى الاصل حائزة الخصل
سوى كل علم كل عن بعضه السوى * فلا غروان أضحى فريدا بلا مثل
وحاز فنونا من ضروب معارف * ومن فضل تحقيق ومن منطق فصل
توخى دمشق الشام فافتر ثغرها * سرورا به وازينت من حلى الفضل
وشرف مصرا قبلها فاكتست به * ملابس فخر زانها أكرم الاصل
لقد أشرقت من أفق غرب شموسه * وناهيك أفقا نوره قدره يعلى
نفاسته فيها تنافست الورى * عاقد غدا من در ألفاظه يعلى
ملىء من التحقيق ان عن مشكل * تكفل بالتبيان والشرح والحل
اذا ما أدار الدر من كاس لفظه * سقانا عقارا افضل علا على نهل
نظام له يحكى قلائد عسجد * وثغر مليح فائق الحسن والدل
وأسجاعه ان حاك وشى نسيجها * حكت حبرا حيكت غارق من غزل
له القلم الاعلى بشرق ومغرب * له الموضع الاسمى على الكل فى الكل
فما سيد احاز المفاخر والعلا * وفاقت حلى الآداب منه على الحلى
اليك من العبد الحقير تحية * لقد نشأت عن خالص الود من خل
موال يوالى الحب والقرب منكم * بظاهر غيب لايحيد عن الوصل
فلازلت محبوا بسابغ نعمة * ونضل نعيم وافر وارف الظل

ودمت لدى الاسفار في نجح أوبة * وجمع لشمل بالمواطن والاهل

وخاطبني أيضا الشيخ سيدي محمد بن سعد الكلشني بقوله

شهر شعبان جاء فاليهنى * بقدوم الاستاذ كنز الفضائل
بهجة الكون روض علم وحلم * وهو مغنى اللبيب ان جاء سائل
بمصابيح فضله قد أضاءت * ساحة الجامع الكبير لآمل
وبمختار لفظه صار يحوى * لحديث مسلسل عن أفاضل
ومن الغرب حين وافى لشرق * فاق بدر التمام وسط المنازل
حل مني في القلب والطرف لما * لاح سعد السعود لى غير آفل
وغدا بالامان والسعد أرخ * أحمد المقري في الشام قائل

وقال أيضا شكر الله تعالى نيته وبلغه امنيته

أتانا لدمشق الشام أكرم وارد * فقرّى به عينا وللحسن شاهدى
وهزى دلالا في أزاهر روضه * معاطف لين كالغصون الامالد
لك البشر يا عيني ظفرت بأمجد * رفيع الذرى من فوق فرق الفراقد
لقد شاع بين الناس واسع فضله * فكم قاصد يسعى لنيل الفوائد
من العلم الفرد المفيد الذي له * أياد سمت بالجود تولى لقاصد
وذاك أبو العباس أحمد من صفت * مناهله دوما الى كل وارد
تراه اذا وافيته متهللا * ويبسم حبا في وجوه الاماجد
امام سما قدرا على النجم رفعة * أرى وصفه في بيت نظم مشاهد
لديه ارتفاع المشترى وسعوده * وسطوة بهرام وظرف عطارد
شهدت بأن الله أولاه منحة * بنقل حديث في جميع المساجد
ومذ حل في وادي دمشق ركابه * وسودده وافى بأعدل شاهد
حوى كل افضال وكل فضيلة * بها يهتدى حقا لنيل المقاصد
وماذا عسى في مدحه انا قائل * ولو جئت فيه مطنبا بالقصائد
اذا رمت أن تلقى نظيرا لمثله * عجزت ورب الناس عن عد واحد
فكم من معان حازها ببيانه * وفكرته قد قيدت للشوارد
ومنطقه حاوى الشفا بجواهر * صحاح بها ازدان عقد القلائد
من الغرب وافى نحو شرق فأشرقت * شموس علوم اسفرت عن محامد
فناديته يا سيدى من بفضله * تواترت الاخبار عن غير واحد ٣١
عسى عطفة منكم على بنظرة * فانت لموصول الجدا خير عائد
وأنت على ريب الزمان مساعدى * وأنت يميني للحسود وساعدى
فلا زلت تولى كل من هو آمل * لبغيته من صادر ثم وارد
وتبقى مدى الايام في المجد رافلا * بثوب الهنا تكفى شرور الحواسد

وهالة عروسا تجتلى فى حليها * اليك أتت فى زى عذراء ناهد
تهنى بعيد الفطر من بعد صومكم * بخير جزيل من لذيذ الموائد
وترجو جميل السترات هى مثلت * بحضرتك العلياء يا خير ماجد
وعش فى أمان الله بالعز دائما * مدى الدهر ما سح الحيا فى الفدافد
وما دارت الافلاك من نحو قطبها * وما بزغت شمس الضحى للمشاهد

وقال أيضا زاده الله تعالى من فضله

ظبى بوسط الفؤاد قائل * أعجز بالوصف كل قائل
ظبى بأجفانه سبانى * وسحرها ينتمى لبابل
يرمى بسهم اللحاظ لما * يرنو فيصمى الفؤاد عاجل
قد فتن العقل مذ تجنى * على حتى غدوت ذاهل
له قوام كخوط بان * أزرى كالقنا السمهرى عادل
بدر بدا كامل المعانى * فى القلب والطرف عاد نازل
قد أسر القلب فى هواه * بقيد حسن وفرع سابل
وما بقى منه لى خلاص * سوى مديحى رضا الافاضل
أعنى به المقرى من قد * سما على البدر فى المنازل
أحمد مولى له أياد * كالغيث يغنى لكل سائل
علامة حاز كل فضل * سبقا ومن بالعلوم عامل
من قد نشا فى العلوم طرا * وحاز علم البيان كامل
طويل باع بسيط فضل * مديد جود لكل آمل
ووافر العقل راح يهدى * سريع فضل لكل فاضل
وجامع العلم فى ابتهاج * بمنطق فى الاصول حافل
وهكذا فى الكلام مهما * أفاده فى الدروس شامل
يروى صحيح الحديث دأبا * بالسند الواصل الدلائل
وكم علوم أفاد من قد * أتاه فى مشكل المسائل
وحل ابهام كل شكل * من فن وفق الى الوسائل
وغاص فى لجة المعانى * واستخرج الدر فى المحافل
وفى فنون البديع أضحى * جناسه قد حوى رسائل
وكم دليل أقام لما * برهانه ابهت المعازل
ان كان وافى لنا أخيرا * فهو الذى فاخر الاوائل
بحر محيط يفيض منه * على رياض بكل ساحل
وافى من الغرب نحو شرق * يجوب من فوق متن بازل
فى مهمه صحصح سهول * وحزنه كم به غوائل
وحث فيه المسير حتى * خلفه من وراء كاهل

وجاء باليمن في أمان * وصحة الجسم والشمائل
وحل في الشام عند قوم * من أكرم الناس في القبائل
ذاك ابن شاهين ذو المعالي * رب الندى للالوف باذل
كانه الشمس جاء يهدى * للبدر نورا وليس آفل
بل كان غيثا لهم وكانوا * ووضا أريضا الشكر وابل
فبجلوه وعظموه * وادخروا عاجلا لآجل
جزاهم الله كل خير * وصانهم من جدال جاهل
وأحمد دام في أمان * المقرى الرضا المعامل
لربه في دجى الليالي * ويرشد الناس في الاصائل
لازال في نعمة وخير * وفي أمان يعود عاجل

وخاطبني الاديب الفاضل الشيخ أبو بكر العمرى شيخ الادباء بدمشق حفظه الله تعالى بقوله

تاهت تلمسان على مدن الدنى * بعالم في العالمين محمد
المقرى أحمد رب الحجا * الكامل البحر الخضم المزبد
مالك هذا العصر شافعيه * أحمده نعمانه المسدد
مذحل مصر اذعنت أعلامها * لفضله وبجلوا ومجدوا
وفي دمشق الشام دام سعدها * كان له بها المقام الاسعد
العلماء أجمعوا بجمعهم * على معاليه التي لا تجحد
أقام شهرا أو يزيد وانثني * وفي الحشا منه المقيم المقعد
سالت على فراقه دموعنا * وفي القلوب زفرة لا تخمد
لو قيل من يحمد في تاريخه * ماقلت الا المقرى أحمد
لا برحت أوقاته مفيدة * ماصاح فوق عوده مغرد

قلت وذكرى لكلام أعيان دمشق حفظهم الله تعالى ومديحهم لي ليس علم الله لاعتقادي في نفسي فضلا بل أتيت به دلالة على فضلهم الباهر حيث عاملوا مثلي من القاصرين بهذه المعاملة وكسوه حلل تلك المجاملة مع كوني لست في الحقيقة له بأهل لما أنا عليه من الخطا والخطل والجهل * ولقد خاطبت من مصر مفتى الشام صدر الاكابر وارث المجد كابرا عن كابر ساحب أذيال الكمال صاحب الخلال المبلغة الآمال مولانا شيخ الاسلام الشيخ عبد الرحمن العمادى الحنفي بكتاب لم يحضرني منه الآن غير بيتين في أوله وهما

ياحادى الاظعان نحو الشآم * بلغ تحياتى لتلك القتام
واهد أعقبيها العمادى الرضا * دام به شمل الهنا في انتظام

فأجابني بمانصه

الى أهالى مصر أهدى السلام * مبتدئا بالمقرى الهمام
من ضاع نشر العلم من عرفه * ولم يضع منه الوفا للذمام

أهدى تحف التحيه الى حضرته العليه وذاته ذات الفضائل السنيه الاحديه التى من صحبها لم يزل موصولا بطرائف الصلات والعوائد الاوحديه الجامعة التى لها منها عليها شواهد

وليس لله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

فيامن جذب قلوب أهل عصره الى مصره وأعجز عن وصف فضله كل بليغ ولو وصل الى النثرة بنثره أوالى الشعرى بشعره ومن زرع حب حبه فى القلوب فاستوى على سوقه وكاد كل قلب يذوب بعد بعده من حر شوقه وظهرت شمس فضله من الجانب الغربى فبهرت بالشروق وأصبح كل صب وهو الى بهجتها مشوق زار الشام ثم ماسلم حتى ودع بعد أن فرغ بروضها أفنان الفنون فأبدع وأسهم لكل من أهلها نصيبا من وداده فكان أوفرهم سهما هذا المحب الذى رفع بصحبته سمك عماده وعلق بمحبته شغاف فؤاده فانه دنا من قلبه فتدلى وفاز من حبه بالسهم المعلى أدام الله تعالى لك البقا وأحسن لنا بك الملتقى ومن علينا منك بنعمة قرب اللقا آمين بمنه ويمنه هذا وقد وصل من ذلك الجناب الوفى كتاب كريم هو اللطف الخفى بل هو من عزيز مصر القميص اليوسفى جاء به البشير ذو الفضل السنى الخل الاعز الاجل التاج المحاسنى مشتملا على عقود الجواهر بل النجوم الزواهر بل الآيات البواهر تكاد تقطر البلاغة من حواشيه ويشهد بالوصول الى طرفها الاعلى لموشيه فليت شعرى بأى لسان أثنى على فصوله الحسان العالية الشان الغالية الاثمان التى هى أنفس من قلائد العقيان وأبدع من مقامات بديع الزمان فطفقت أرتع من معانيها فى أمتع رياض وأقطع بأن فى منشئها اعتياضا لهذا العصر عن عياض

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها * عقود مدح فلا أرضى لها كلمى

ولاسيما فصل التعزية والتسليه المشتمل على عقد التخليه بل عقود التحليه لتلميذكم الولد ابراهيم فانه كان له كرقية السليم بعد أن كاد يهيم بفناء والله درة فى أحسن المحال ووقع الموقع حتى كان الولد نشط ببركته من عقال

واذا الشئ أتى فى وقته * زاد فى العين جمالا لجمال

فجزاكم الله تعالى عنا أحسن الجزاء ثم أحسن لكم جميل العزاء فيمن ذكرتم من كريمتى الاصل والفرع وأبقى منكم ما كثنا فى الارض من به للناس أعم النفع وأما مصيبة من كان ولى وسميى ومنجدى الشهيد السعيد المرحوم الشيخ عبد الرحمن المرشدى فانها وان أصابت منا ومنكم الاخوين فقد عمت الحرمين بل طمت الثقلين ولقد عد مصابه فى الاسلام ثلمه وفقد به فى حرم الله تعالى من كان يدعى للملمه ولم يبق بعده الا من يدعى اذا يحاس الحيس واستحق أن ينشد فى حقه وان لم يقس به قيس

وما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

فالله تعالى يرفع درجاته في عليين ويبقى وجودكم للاسلام والمسلمين وتلامذتكم الاولاد يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الامداد ويهدون أكمل التحيه الى حضرتكم العليه ونبلغكم دعاء صاحب السعاده أدام الله تعالى اسعادكم واسعاده ونحن من محبته الشهيه في رياض فنون أدبيه أبهاها لمعات محاضرة في ذكر شمائلكم الجليله تنور المجالس وأشهاها نسمات محاورة بنشر فضائلكم الجليله تعطر المجالس وسلام جملة الاصحاب من أهل الشام وعامة الخواص والعوام والدعاء على الدوام المخلص الداعي عبد الرحمن العمادي مفتي الحنفيه بدمشق المحميه *(ووردت على مع المكتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام حفظهم الله تعالى فمنها من الصديق الحميم الرافل في حلل المجد الصميم الخطيب الاديب سيدي الشيخ المحاسني يحيى أسمى الله تعالى قدره في الدين والدنيا كتابان نص أولهما باسمه سبحانه

لئن حكمت أيدي النوى أو تعرضت * عوارض بين بيننا وتفرق

فطرفي الى رؤياكم متشوف * وقلبي الى لقياكم متشوق

يقبل الارض الشريفة لازالت مركز الدائرة التهاني وقطبا للفلك تجري المجرة على مجرته على الدقائق والثواني ولا برحت ألسن البلاغة عن تمييز براعة براعة حامي حماها معربه وبلابل الآداب على الاغصان في رياض فضله بعشاق الثناء صادحة وبألحان سجعها مطربه

أرض بها فلك المعالي دائر * والشمس تشرق والبدور تحوم

ولها من الزهر المنضد أنجم * ولها على أفق السماء نجوم

عمر الله تعالى بالمسرات محلها وعم بالخيرات من حلها ويبتدئ بسلام يخبر عن صحيح وده السالم ومزيد غرام يؤكد حبه الذي هو للولاء جازم وينعت شوقا يحرك ماسكن صميم الضمير من صدق حب سلم جمعه من التكسير ويؤكد السلام بتوابع المدح والثناء ويعرب عن محبة مشيدة البناء وينهي أن السبب في تسطيرها والباعث على تحريرها أشواق أضرم نارها في الفؤاد ومحبة لو تجسمت لملأت البلاد

شوقي لذاتك شوق لا أزال أرى * أجدده يا امام العصر أقدمه

ولي فم كادذكر الشوق يحرقه * لو كان من قال نارا أحرقت فمه

هذا وان تفضل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باق على ماتشهد به الذات اللطيفة العليه من صدق المحبة ورق العبوديه ولم يزل يزين أفق المجالس بذكركم ولا يقتطف عند المحاضرة الامن زهركم ولم ينس حلاوة العيش في تلك الاوقات التي مضت في خدمتكم المحروسة بعناية الملك المتعال وليالي الانس التي قيل فيها وكانت بالعراق لنا ليالي

واها لها من ليال هل تعود كما * كانت وأي ليال عاد ماضيها

لم أنسها مذ نأت عني بيهجتها * وأي أنس من الايام ينسيها

فنسال الله تعالى أن يمن بالتلاق ويفصل مانعة الجمع بطي شقة الفراق ان ذلك على الله

يسير

يسير وهو على جمعهم اذا يشاء قدير وبعد فالمعروض على مسامع سيدى الكريم لازالت من كل سوء سليمه انه وصلنا مكتوبكم الكريم مجبة العز المحب القديم فحصل لهذا العبد به جبر عظيم وانس جسيم كما شهد بذلك السميع العليم فعزمت على ترك الاجابه لعدم الاجاده ومتى تبلغ الالفاظ المذمومة ما بلغته الالفاظ المقربه وأين يصل صاحب الزمر كما قيل الى الدقات الجليليه ولكنني خشيت من ترك الاجابة توهم نقض ما أبنيه من رق العبودية وصحة الوداد ومن انقطاع برق شيخى الذى هو لبيت شرفى العمدة والعماد فلزم من ذلك أن كتبت لجنابه الشريف الجواب وان كان خطؤه أكثر من الصواب وأرسلته قبل ذلك بعشرة أيام ومكتوب هذا العبد صحبته مكتوبان أحدهما من محبكم شيخ الاسلام المفتى العمادى والآخر من محبكم أحمد أفندى الشاهينى وهما وبقية أكابر البلدة وأعيانها يبلغونكم السلام التام ولا تؤاخذونا فى هذا المكتوب فانى كتبته عجلا ومن جنابكم خجلا دام خيركم على الدوام الى قيام الساعة وساعة القيام وحرر يوم الاثنين ١١ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ الفقير الداعى يحيى المحاسنى انتهى * (ونص الكتاب الثانى من المذكور أسماه الله) باسمه سبحانه مخلصك الذى محض لك وداده ومحبك الذى أسلم لمحبتك قياده بل عبدك الذى لا يروم الخروج عن رقك وتلميذك الذى لم يزل مغترفا من فيض علومك معترفا بحقك من أسكنك لبه وأخلص لك حبه واتخذك من بين الانام ذخرا نافعا وكهفا مانعا ومولى رفيعا وشهابا ساطعا وتشبث بأسباب علومك وتمسك يهدى اليك سلاما كانما تعطر بمسك ثنائك وتمسك واكتسب من لطف طبعك الرقه واستعار من سنى وجهك حلة مستحقه وتحية لم يكن مناه الآن تكون بالمواجهه والمحاضرة والمشافهه على أن فؤاده لم يبرح لك سكنا وأحشاءه لك موطنا ويبدى دعوات يحقق الفضل انها من القضايا المتجهه وأن أبواب القبول لها غير مرتجه مقبلا أياديك التى وكفت بوابل جودها وكفت المهم بنتائج سعودها وحاكت الوشى المرقوم وسلكت الدر المنظوم فهذا يرفل فى حللها وهذا يتحلى بعقودها

فهى التى تعنو الرياض لرقها * ويغار منها الدر فى تنضيدها
ويحار أرباب البيان لنظمها * فهم بحضرتها كبعض عبيدها

متمسكا من ولائك بوثيق العرى متمسكا من ثنائك الذى لا يزال يكون منه معنبرا متشوقا فاللقاء لك الذى بالمهج يستام وبالنفوس يشترى متشوقا الى ما يرد من أنبائك التى تسر خبرا وتحمد اثرا أعنى بذلك المولى الذى أقام بفناء الفسطاط مخيما وانتجع جاه رائد الفضل ميمما وشدت لفضائله الرحال ووقفت عندها بل دونها فحول الرجال وطلعت شموس علومه فى سماء القاهره فاختفت نجوم فضلائها والاشعة باهره

هو الشمس علما والجميع كواكب * اذا ظهرت لم يبد منهن كوكب

فهو العالم الذى سرى ذكره فى الآفاق مسير الصبا جاذبة ذيلها النسيم الخفاق الذى أطلع

شمس التحقيق من أفق بيانه وأظهر بدر التدقيق من تبيانه فلهذا اعقدت عليه الخناصر بين علماء عصره وانقطعت اليه الاواصر من فضلاء مصره فلا يضاهيه أحد فى زمانه وينسق ما نسقه من درّه ومرجانه فهو المعوّل عليه فى مشكلات العلوم معقولها ومنقولها والمنطوق والمفهوم الذى لم تسمح بمثله الازمان والعصور ولم يأت بنظيره تتابع الاعصار والدهور من عجز لسان القلم عن التصريح باسمه الشريف فى هذا الرقم لازالت المدارس مشرقة بالقائه فيها الدروس ولابرحت البقع عامرة بوجوده بعد الدروس ماسطرت آيات الاشواق فى الصحائف والطروس وأرسلت من تلميذ الى أستاذ بسبب نسبته اليه فضل على المطلوب من شرف النفوس هذا والذى يبدى لحضرتكم وينهى لطالعتكم أن الراقم لهذه الصحيفه المشرفة ببعض أوصافكم اللطيفه المرسلة لساحة فضائلكم المنيفه هو تلميذكم من تشرف بدروسكم وافتخر باجازتكم يبدى لكم تلهفه لنيران أشواقه التى التهبت وتأسفه على الايام السالفة مذهبة فى خدمتكم لاذهبت وتوجعه لهذه الازمان التى استرجعت بالبعد عنه من ذمته ماوهبت وتطلعه الى مايشنف به الاسماع من فضائلك التى سلبت العقول وانتهبت فلم يزل يسأل الرواة عنها ليلتقط منها وقد تحقق أن فرائدها لايلتقى لها نظير ولايدرك كنهها وكيف لا ومنها يتعلم الفاضل اللبيب واليها يفتقر السعيد ويتودد الحبيب وعليها يعتمد ابن العميد ولم تنفك راقية فى درج المزيد وعبد الحميد عبد الحميد وعلم شيخى محيط بصدق محبتى واخلاصها وشدة حرصى على تحصيل فوائد مولانا واقتناصها وانى لا أزال ذاكرا لمحاسنه التى ليست فى غيره مجموعه ومتطفلا على ثمار أفكاره التى هى لامقطوعة ولاممنوعه وخاطره الشريف على الحقيقة يشهد بذلك فلا يحتاج هذا العبد الى بينة لدى مولانا الاستاذ المالك وحقيق على من فارق تلك الاخلاق الغر والشمائل الزهر والعشرة المعشوقه والسجايا الموموقه والفضائل الموفوره والمآثر المشهوره أن يشق جيب الصبر ويجعل النار حشو الصدر

وانى لتعرونى لذكراك هزة * كما انتفض العصفور بلله القطر

ولو ملكت مرادى لما أحضر الا فى ذراه مرادى بل لو دار الفلك على اختيارى لما انضوت الا عنده ليلى ونهارى

ولو نعطى الخيار لما افترقنا * ولكن لا خيار مع الزمان

وتحت ضلوعى لوعة لو كتمتها * نلفت على الاحشاء أن تتضرما

ولو بحت فى كتبى بما فى جوانحى * لانطقتها نارا وأبكيتها دما

وأنا لا أقترح على الدهر الا اللقياه ولا أقطع حاضر الوقت الا بذكراه وما أعد أيامى التى سعدت فيها بلقائه الا مفاتح السرور ومطالع السعود والحبور ولست أعيبها الا بقلة البقاء وسرعة الانقضاء وكذلك عمر السرور قصير والدهر بتفريق الاحبة بصير وربما نضر العود بعد الذبول وطلع النجم بعد الافول وأديل الوصال من الفراق وعاد العيش المر حلو المذاق

وما

وما أنا من أن يجمع الله شملنا * كأحسن ما كنا عليه بآيس

فأما الآن فلا أرجي الوقت الا بقلب شديد الاضطراب وجوانح لا تفيق من التوقد والالتهاب وكيف لا وحالي حال من ودع صفو الحياة يوم وداعه وانقطع عنه الانس ساعة انقطاعه وطوى الشوق جوانحه على غليل وحل اضلاعه على كبد دخيل وأغرى بي فلازمني ولزمته وألف بيني وبين الوجد فألفني وألفته فلا أسلك للعزاء طريقا الا وجدته مسدودا ولا أقصد للصبر بابا الا ألفيته مردودا ولا أعد اليوم بعد فراق سيدي الا شهرا والشهر دون لقائه الا دهرا ولست بناس أيامنا التي هي تاريخ زماني وعنوان الاماني اذ ماء الاجتماع عذب وغصن الازديار رطب وأعين الحواسد راقده وأسواق صروف الدهر كاسده فما كانت الا لمحة الطرف ووثبة الطرف ولمعة البرق الخاطف وزورة الخيال الطائف وما تذكرت تلك الايام في أكناف فضائله ونضرتها ورياض علومه في ظله وخضرتها الا أوجب على عينه أن تدمع وانثنى على كبده خشية أن تصدع ثم لما ورد على عبدكم مكتوبكم الكريم صحبة حضرة العم المحب القديم فكان كالعافية للصب السقيم كما يشهد بذلك السميع العليم فوقف له منتصبا وخفق عنه برؤيته وصبا وذكر أيام الجمع فهام وجدا بها وصبا فاستخفه الاعجاب طربا وشاهد صدوره فقال هكذا تكون الرياض وعاين لطفه فقال هكذا تكون الصبا وقبل كل حرف منه ووضعه على الراس وحصل له بعد ترقبه غاية الجبارة والاستئناس فعند ذلك أنشد قول بعض الناس

ورد الكتاب فكان عند وروده * عيدا ولكن هيج الاشواقا
فوناته قد عانقت صاداته * كعناق مشتاق يخاف فراقا
فكأنما النونات فيه أهلة * وكأنما صاداته أحداقا
فعسى الاله كما قضى بفراقنا * يقضي لنا يوما بأن نتلاقى

فجعلته نصب عيني انسلي به عند استيلاء الشوق على قلبي وأطفئ بتأمله نيران وجدي اذا التهبت في صدري وسررت به سرور من وجد ضالة عمره وأدرك جميع أمانيه من دهره وأنست بتصفحه أنس الرياض بانهلال القطر والساري بطلوع البدر والمسافر بتعريسة الفجر وكيف لا وقد أصبح في وجه الاماني خدا بل في خدها وردا وصار حسنة من حسنات دهري لا يمحو مرور الايام موضعها من صدري وطلعت طوالع السرور وكانت آفله واهتزت غصون الفرح وكانت ذابله لا سيما ما تضمن من البشارة السارة بصحة المولى وسلامته وحلوله في منازل عزه وكرامته وموعده الكريم بعوده الى دمشق الشام كساها ثوب الغمام مرة ثانيه ويتم افتخارها على غيرها فلا تزال مفاخرة مباهيه نسأل الله تعالى أن يحقق ذلك وأن يسلك بسيدي أحسن المسالك انه سبحانه وتعالى سامع الاصوات ومجيب الدعوات فان عودكم يا سيدي والله مرة أخرى هو الحيلة الشهيه والامنية التي ترتجي النفس بلوغها قبل المنيه وما أنا من الله بآيس من أن يتيح سببا يعيد المزار مقتربا والشمل مجتمعا وحبل البين منقطعا ثم ليعرض

على مسامع سيدى الكريمه لا زالت من كل سوء سليمه أنا أوصلنا مكاتيبكم كما أمرتم لاربابها لاسيما مكتوب شيخ الاسلام سيدى عبد الرحمن افندى المفتى بالشام ومكتوب المولى الاعظم والهمام الافخم أحمد افندى الشاهينى أعزه الله تعالى فانه وقع عنده الموقع العظيم وحصل به السرور المقيم كما يدل على ذلك جوابه الكريم المحفوف بالتعظيم والتكريم غير أنه قد ساءنا ما اتصل بمولانا من نفوذ قضاء الله تعالى الذى يعم * فى البنت والام فجعل الله تعالى فى عمر سيدى البركه وكان له فى السكون والحركه وماذا عسى أن يذكر لجنابكم فى أمر التعزية ويقرر ومنكم يستفاد مثله وعنكم يحرر والاستاذ أدرى بصروف الدهر وتفننها وأحوال الزمان وتلونها وأعرف بأن الدنيا دار لها بسكانها مدار وأن الحياة ثوب مستعار ونعيم الدنيا وبؤسها ما لواحد منهم فيها قرار وأن لكل طالع افولا ولكل ناضر ذبولا ووراء كل ضياء ظلاما ولكل عروة من عرى الدنيا انفصاما فهو محل لان يقوى فى العزاء عزائمه ويصغر فى عينه نوائب الدهر وعظائمه ويغنيه عن عظة تجد له مقالا وتحل عن عقله عقالا وهو يتلقى المصائب بفكر ثاقب وفهم صائب وصبر يقصر عنه الطود الاشم وعزم ينطق دونه الحجر الاصم وحلم يرجح اذا طاشت الاحلام وقدم تثبت اذا زلت الاقدام ومثله المقال فى ضرب الامثال الى جنابكم الشريف نوع من تجاوز حد الاجلال وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذه المصيبة خاتمه ولا يريه بعدها الا دولة قائمة ونعمة دائمه وأن يحرسه من غير الليل والنهار ويجعله وارث الاعمار بجاه نبينا محمد المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الاطهار بمنه وكرمه ثم أبلغ سيدى أطال الله عمره وشرح صدره ونشر بالخير ذكره السلام التام المقرون بألف تحية واكرام من أهل البلدة جميعا لاسيما من مفتيها العمادى حرس الله ذاته التى هى منهل للصادى والغادى وأولاده الكرام المستحقين للاعزاز والاكرام ومن كبيرها ومدبرها ومشيرها أحمد افندى الشاهينى أعزه الله تعالى بعزه وجعله تحت كنفه وحرزه ومن خطيبها مولانا الشيخ أحمد البهنسى ونقيب أشرافها مولانا السيد كمال الدين وجميع المحبين الداعين لدلكم الجناب والمتمسكين بتراب تلكم الاعتاب ومن الولد والعم والله يا سيدى انه ناشر لواء الثناء والمحامد وداع لذلك الجناب الكاسب للمفاخر والمحامد وحضرة شيخنا شيخ الاسلام وبركة الشام مولانا وسيدنا الشيخ عمر القارى أبقى الله تعالى وجوده وضاعف علينا احسانه وجوده وأولاده يسلمون عليكم السلام الوافر وينهون لكم الشوق المتكاثر فى ٢ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ المحب الداعى يحيى المحاسنى انتهى * وكتب الى عمه الفاضل الاسمى ماصورته باسمه سبحانه وتعالى

وانى لمشتاق الى وجهك الذى * تهلل أهدى السناء الى البدر
وأخلاقك الغر اللواتى كأنها * تساقط انداء الغمام على الزهر

سيدى الذى عبوديتى اليه مصروفه ودواعى محبتى لديه موفورة وعليه موقوفه علم الله سبحانه انى لا أزجى أوقاتى الا بذكراه ولا أرجى اليمن من ساعاتى الا باستنشاق نسيم رياه وانى الى طلعته أشوق من الصادى الى ماء صداه ومن كثير عزة

الى

الى نوتيما *

يرنحنى اليك الشوق حتى * أميل من اليمين الى الشمال
ويأخذنى لذكراك اهتزاز * كما نشط الاسير من العقال

والى على صدق هذه الدعوى من نباهة لبه شاهد معدل ومن نزاهة قلبه منزل غير ملوم ولا معذل كيف لا ومطالع البيان مشرقها من أفلاك فهومه وجواهر التبيان مقذفها من بحار علومه وهو بحر العلم الذى لا يقتحم بسفن الافكار وجبل الحلم الذى رسخ بالهيبة والوقار

لو اقتسمت أخلاقه الغر لم تجد * معيبا ولا خلقا من الناس عائبا

وماذا عسى أصف به مولانا وقد عجز عن وصفه لسان كل واصف وحار فى بث فضائله أرباب المعارف والعوارف

فلو نظمت الثريا * والشعرى بين قريضا
وكاهل الارض ضربا * وشعب رضوى عروضا
وصغت للدر ضدا * وللهوا انقيضا

ولكننى أقول الثناء منجح أنى سلك والسخى جوده بما ملك وان لم يكن خمر فخل وان لم يصبها وابل فطل هذا وقد أوصلنا مكاتيبكم الشريفة لاربابها فكانت لديهم أكرم قادم وأشرف منادم وقد تداولها الافاضل وشهدوا انها من بنات الافكار التى لم يكشف عنها الغير سيدى حجب الاستتار وقد وجدنا كلا منهم ملتهبا بجمرات الشوق متجاوزا حد الصبابة والتوق ليس لهم شغل الا ذكر أوصافكم الحميده وبث ما أبدته بدروسكم المفيده وما منهم الا ويرجو بل الصدى ونقع الظما برؤية ذلك المحيا والتملى بتلك الطلعة العليا وان سأل سيدى عن أخبار دمشق المحروسه دامت ربوعها المأنوسه فهى ولله الحمد منتظمة الاحوال امنها الله من الشرور والاهوال ولم يتجدد من الاخبار ما نعلم به ذلكم الجناب لازال ملحوظا بعين عناية رب الارباب وأنا أسأل الله تعالى أن يصون جوهر تلك الذات من عوارض الحدثان وأن يحمى تلك الحضرة العلية من طوارق حكم الدوران

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أضيف اليها ألف آمينا

وهذا دعاء للبرية شامل العبد الداعى بجميع البواعث والدواعى تاج الدين المحاسنى عفا الله تعالى عنه انتهى وبالهامش ما صورته وكاتب الاحرف العبد الداعى محمد المحاسنى يقبل يدكم الشريفة ويخصكم بالسلام الوافر ويبث لديكم الشوق المتكاثر غير انه قد نازعته نفسه فى تلك المعاتبه لسيده الذى لم يسعد عبده منه بالمكاتبه على انها مكاتبة تحكم عقد العبوديه ولا تخرج رقبته من طوق الرقيه والمطلوب أن يخصه سيده بدعواته المستطابه التى لا تشك انها مستجابه كما هو عليه فى سائر أوقاته وحسبان ساعاته ودمتم* فى رابع جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ انتهى * وكتب سيدى التاج المذكور لى ضمن رسالة من بعض الاصحاب ما صورته

يا فاضل العصر يا من * للشرق والغرب شرّفه
يا أوحد الناس طرّا * في كل ما يتصرّفه
يهدي اليك محبّ * دموعه تتذرّفه
شوقا وودّا قديما * بذكره يتعرّفه

وانضم لمخاطبات أهل دمشق لي ما كتبه لي أوحد الموالي الكرام السري عين الاعيان صدر أرباب البلاغة والبيان مولانا أحمد الشاهيني السابق الذكر في هذا التأليف مرّات ضاعف الله تعالى لديه أنواع المبرّات والمسرّات آمين ليكون مسكا للختام اذ محاسنه ليس بها خفاء ولا لها اكتتام ونص محل الحاجة منه هو الفياض

يا سيدا أحرز خصل العلا * بالباس والرأي الشديد السديد
ومن على أهل النهى قد علا * بطبعه السامي المجيد المجيد
ومن يزين الدهر منه حلى * قول نظيم كالفريد النضيد
ومن صدا فكري منه جلا * نظم له القلب عميد حميد
ومن له من يوم قالوا بلى * في مهجتي حب جديد مزيد
ومن غدا بين جميع الملا * بالعلم والحلم الوحيد الفريد
أفديك بالنفس مع الاهل لا * بالمال والمال عتيد عديد

أقسم بالله الذي علت كلمته وعمت رحمته وسخرت القلوب والعقول رأفته ومحبته وجعل الارواح جنودا مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف انني أشوق الى تقبيل أقدام شيخي من الظمآن للماء ومن الساري لطلعة ذكاء وليس تقبيل الاقدام عما يدفع عن المشوق الاوام وقد كانت الحال هذه وليس بيني وبينه حاجز الا الجدار اذ كان حفظه الله تعالى جار الدار فكيف الآن بالغرام وهو حفظه الله تعالى بمصر وأنا بالشام وليس غيبة مولانا الاستاذ عنا الا غيبة العافية عن الجسم المضنى بل غيبة الروح عن الجسد البالي المطروح ولا العيشة بعد فراقه وهجر أحبابه ورفاقه الا كما قال بديع الزمان عيشة الحوت في البر والثلج في الحر وليس الشوق اليه بشوق وانما هو العظم الكسير والنزع العسير والسم يسري ويسير وليس الصبر عنه بصبر وانما هو الصاب والمصاب والكبد في يد القصاب والنفس رهينة الاوصاب والحين الحائن وأين يصاب ولا أعرف كيف أصف شرف الوقت الذي ورد فيه كتاب شيخي بخطه من يضبطه بلى قد كان شرف عطارد حتى اجتمع من أنواع البلاغة عندي كل شارد وأما خطه فكما قال الصاحب بن عباد أهذا خط قابوس أم جناح الطاوس أو كما قال أبو الطيب

من خطه في كل قلب شهوة * حتى كأن مداده الاهواء

وأنا أقول ما هو أبدع وأبرع وفي هذا الباب أنفع وأجمع بل هو حظ أمان من الزمان والبراءة من طوارق الحدثان والحرز الحريز والكلام الحر الابريز والجوهر النفيس العزيز وأما الكتاب نفسه فقد حسدني عليه اخواني واستبشر به أهلي وخلاني

وان

وكان تقبيلي لا ماليه أكثر من تطرى فيه شوقا الى تقبيل يد وشيته وحشيته واعتياد اللثم أنامل يسيته وسيته وأما البراعة فلاشك انها ينبوع البراعة حتى جرى من سحر البلاغة منها ما جرى فجاء الكتاب كسحر العيون * فاراح يسبي عقول الورى وينادي باحراز خصل السبق من الثريا الى الثرى ولم أر كتابا قبل تكون محاسنه متداخلة مترادفه ولطائفه وبدائعه متضاعفة متراصفه وذلك لانه سرد من غرر درره الاحاسن وورد على يد رأس أحبابنا تاج بني محاسن

اولئك قوم أحرزوا الحسن كله * فمامنهم الافتى فاق في الحسن

وكما قلت فيهم أيضا

فبنو المحاسن بيننا * كبيض النجم في السحابه
فهم القرابة ان عدمت من الانام هوى القرابة
فيهم محاسن جمة * منها الخطابة والكتابه

ثم لم يكتف سيدي وشيخي بما أنعم به وأحسن بكتبه من كتابه المزين بخطه المبين بضبطه المسمى بين أهل الوفاء بكتاب الاكتفاء والاصطفاء حتى أضاف اليه كتاب الشفاء في بديع الاكتفاء كانه لم يرض طبعه الشريف المفرد المستثنى الا أن تكون حسناته لدى أحبابه مثنى مثنى حتى كان مراده بتضعيف هذا الاكرام والاحسان تعجيز العبد عن أداء خدمة الحمد بحصر البيان وعقد اللسان اذ ليست ذات السانين حتى أؤدي شكر احسانين وغاية البليغ في هذا المضمار الخطير أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير ومن فصول هذا الكتاب ما نصه ومن باب ادخال السرور على سيدي وشيخي وبركتي خير المدرسة الداخلية التي تصدى لها ذلك المولى العظيم والسيد الحكيم صدر الموالي ورونق الايام والليالي سيدي وسندي وعمادي ومعتمدي الفهامة شيخي أفندي المعروف بالعلامة حفظه الله ووقاه وأبقاه الذي صدق عليه وعلى قول الاول

ولي صديق ما مسني عدم * مذ وقعت عينه على عدمي
أغنى وأقنى فما يكلفني * تقبيل كف له ولا قدم
قام بأمري لما قعدت به * ونمت عن حاجتي ولم ينم

وقول الثاني

صديق لي له أدب * صداقة مثله نسب
رعى لي فوق ما يرعى * وأوجب فوق ما يجب
فلو نقدت خلائقه * لبهرج عندها الذهب

ولعمري انه كذلك قد تصدى لحاجتي فقضاها وعني فأمضاها ولم يكن لي في الروم سواه وسواها وما أصنع بالروم اذا تخلف عني ما أروم أبى الله الا أن ينفعني ذلك الحر الكريم بنهيه وأمره وأن يكون بياني وبناني مرتبطين بحمده وشكره وهذه حاجة في نفسي قضيتها وأمنية رضيت بها وأرضيتها ولله الحمد ولست أحصي ولا استقصي يا سيدي ومولاي شوق أخيكم سيدي ومولاي المفتي العمادي حفظه الله تعالى واياكم وقد بلغ به

شوقه وغرامه وتعطشه وهيامه وأوامه أن أورد لجناب مولانا كتابا يستجلب مفخرا وجوابا اذ الشام كما رأيتم عبارة عن وجوده الشريف والسلام وكذلك أولاده الكرام تلامذتكم يقبلون الاقدام وأما محبكم وصديقكم الشيخ البركة شيخ الاسلام مولانا عمر القارى فقد بلغته سلام سيدى فكان جوابه الدعاء والثناء مع العزيمة على أن أبالغ لجنابكم الكريم فى تأدية سلامه وتبليغ ما يتضمنه من المحبة الخالصة فصيح كلامه وأما الكريمان ولدكم محمد أفندى وأخوه سيدى أكمل الدين فهما التقبيل اقدامكم من المستعدين وكذلك لا أحصى ما عليه من الدعاء والثناء لجنابكم الكريم العالى تلميذاكم بل عبداكم ولدنا الشيخ يحيى ابن سيدى أبى الصفا وولدنا الشيخ محمد ابن سيدى تاج الدين المحاسنيان وأما عبداكم وتلميذاكم ولداى الشيخان الداعيان الاخوان الشيخ عبد السلام والقاضى نعمان فليس لهما وظيفة الا الدعاء والثناء فى كل صباح ومساء لان كلا منهما خليقى والاشتغال بالدعاء لسيدى وظيفتى ولا يقنعان بتقبيل اليدين الكريمتين ولا بد من تقبيل القدمين المباركتين وبعد فلا يقضى عجبى من بلاغة كتابكم الشريف الوارد لجناب أخيكم المفتى العمادى حفظكم الله تعالى واياه ولا كان من يشناك ويشنآه وعجبه به أعظم وأكبر اذ هو حفظه الله بفهم كلام سيدى أحق وأجدر فلا عدمنا تلك الانفاس الملكية الفلكيه من كل منكما اذ هى والله البغية والامنيه كما قلت

ليس فخرى ولا اعتدادى بدهر * غير دهر أرى كما من بنيه

اللهم اختم هذا الكلام للقبول التام بالصلاة على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

* ومن فصول هذا الكتاب ما صورته أطال الله يا سيدى بقاءك ولا كان من يكره لقاءك ورعاك بعين عنايته ووقاك وأدام لك وأبقاك وضمن لك جزاء الصبر وعوضك عن مصابك الخير والاجر ولقد كنت عزمت على أن أجعل فى مصاب سيدى بأمه متعه الله تعالى بعمره وعلمه ودفع عنه سورة همه وغمه قصيدة تكون مرثيه تتضمن تعزية وتسليه فنظرت فى مرثية أبى الطيب المتنبى لامه وا كتفيت بنظمها ونثرها وعقدها وحلها وانتخبت قوله منها

لك الله من مفجوعة بحبيبها * قتيلة شوق غير ملحقها وصما
ولو لم تكونى بنت أكرم والد * لكان أباك الضخم كونك لى أما
لئن لذ يوم الشامتين بيومها * لقد ولدت منى لانفهم رغما

فقلت هذه حال مولانا الراغم لانوف الاعدا المجدد لاسلافه حمدا ومجدا القائل بشوقه لا خمدا ولا عمدا ثم لما رأيت قوله فى مرثية أخت سيف الدولة

ان يكن صبر ذى الرزية فضلا * تكن الافضل الاعز الاجلا
أنت يا فوق أن تعزى عن الاحباب فوق الذى يعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فاذا عزاك قال الذى له قلت قبلا
قد بلوت الخطوب حلوا ومرا * وسلكت الايام حزنا وسهلا

وقلت

وقلت الزمان عليها غاية شرب قولا وما يجيد فعلا

قلت هذه والله حلى مولانا الاستاذ الذى عرف للزمان فعله وفهم قوله قد استعارها أبو الطيب وحلى بها مخدومه سيف الدولة وكيف استطيع ارشاد شيخى لطريق الصبر وأذكره بالثواب والاجر وكيف وأنا الذى استقيت من ديمه واهتديت الى سبيل المعروف بشيمه وسلكت جادة البراعة بهداية ألفاظه وارتقيت الى سماء البلاغة برعاية ألحاظه وهل يكون التلميذ معلما وهل يرشد الفرخ قشعما وكيف يعضد الشبل الاسد وهو ضعيف المنة والمدد ومن يعلم الثغر الابتسام والصدر الالتزام ويختبر الحسام وهو مجرب صمصام وهل تفتقر الشمس فى الهداية الى مصباح وهل يحتاج البدر فى سراه الى دلالة الصباح ذلك مثل شيخى ومثل من يرشده الى فلاح أو نجاح وانما نأخذ عنه ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنه ونحذو حذوه فى الطريق الموصلة الى الجنه ثم لما وصلت فى هذه القصيدة الى قول أبى الطيب

ان خير الدموع عينا الدمع * بعثته رعاية فاستهلا

رأيته قد أبدع فيه كل الابداع ونظم ما يكاد يجرى الدمع من طريق السماع فقلت انا لله وأكثرت الاسترجاع وقلت فى نفسى ان ذلك الدمع الذى بعثته رعاية الحقوق هو دمع شيخى الذى حى الله قلبه الشفوق من العقوق للمصيبة فى الام التى حزنها بالغ ومصابها بادغ وكيف لا يعمنا مصابها وقد كمل للمصيبة كفاها الله بعزتها نصابها هذا مع الفقد للسليلة الجليله والكريمة الخليله وأى دمع لم تبعثه تلك الرعايه وأى نفس لا تتمنى أن تكون لسيدنا من كل ما يكره وقايه وأى كبد قاسيه لم تكن لاحبابها مواسيه وأنى يتسنى للعبد المعنى تسلية شيخه وهو الصبور الشكور العارف بالامور العالم بتصاريف الدهور وما ظننت أن بنانى يساعدنى على تحرير بيانى لتعزية شيخى حفظه الله تعالى فى أصله وفرعه وضرعه وزرعه وقرعه ونبعه وأمه وبنته أما الوالدة الماجدة فانى ان أمسكت عن بيان كرم أصلها يسمو بها كرم فرعها ونسلها فرحم الله تعالى سلفها وأبقى خلفها ولا حرم سيدى ثمرة رضاها ورضى عنها وأرضاها وأما المخدرة الصغيره فالمصيبة بها كبيره اذ العمومة مقربه والخؤلة وفاتيه فهى ذات النجارين وجائزة الفخارين كأن سيدى أعزه الله تعالى لم يرض لها كفؤا ومهرا فاختار القبر أن يكون له صهرا وخطبة الحمام لا يمكن ردها وسطوة الايام لا يستطاع صدها كما قال أبو الطيب المتنبى أيضا

خطبة للحمام ليس لها رد وان كانت المسماة ثكلا

واذا لم تجد من الناس كفؤا * ذات خدر أرادت الموت بعلا

اسأل الله تعالى أن تكون هذه الخطبة قافية الخطوب وهذا الندب المبرح آخر الندوب وأن يعوض سيدى عن حبيبه المبرقع المقنع حبيبا معمما تحرى النجابة منه المصنع وأن يبدله عن ذات الخمار والخضاب بمن يصول بالحراب ويسطو باليراع ويشتغل بالكتاب (شعر)

وما التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمن فقدنا * لفضلت النساء على الرجال

اللهم يا أرحم الراحمين انى أتوسل اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم وآله الطيبين الطاهرين أن تأخذ بيد عبدك شيخي المقرى فى كل وقت وحين آمين * ومن فصول هذا الكتاب ما صورته ولما وصلنى سيدى بهديته التى أحسن بها من كتاب الاكتفاء داخل طبعى الصفاء ونشطت الى نظام بيتين فيهما التزام عجيب لم أرمثله وهو أن يكون اللفظ المكتفى به بمعنى اللفظ المكتفى منه فان الاحتفاء والاحتفال بمعنى الاعتناء كما أفاده شيخي فيكون على هذا الاكتفاء وعدمه على حد سواء اذ لو قطع النظر عن لفظ الاحتفال لاغنى عنه لفظ الاحتفاء مع تسمية النوع فيهما وهما

ان احتفال المرء بالمرء لا * أحبه الا مع الاكتفا
مبالغات الناس مذمومة * فاسلك سبيل القصد فى الاحتفا

ولقد انقطع الثلج أيام الخريف وكانت الحاجة اليه شديدة بعد غيبة سيدى حفظه الله تعالى عن دمشق فتذكرت شغف شيخي به فزاد على فقده غرامى وفاض عليه تعطشى وأوامى فجعلت فى ذلك عدة مقاطيع وأحببت عرضها على سيدى أولها

ثلج يا ثلج يا عظيم الصفات * أنت عندى من أعظم الحسنات
ما بياض بدا بوجهك الا * كبياض بدا بوجه الحياة

ثانيها

قد قلت لما ضل عنى رشدى * وما رأيت الثلج يوما عندى
لا تقطع اللهم عن ذا العبد * أعظم أسباب الثنا والحمد

ثالثها

ثلج يا ثلج أنت ماء الحياة * ضل من قال ضر ذا الذاتى
ما بياض بدا بوجهك الا * كبياض قد لاح فى المرآة
قد رأى الناس وجههم فى المرايا * وأنا فيك شمت وجه حياتى

وما عللت سيدى هذا التعليل الا لا شوقه الى نسيم دمشق الذى خلفه سيدى حفظه الله عليلا وهو على الصحة غير عليل ولم يشف أعزه الله تعالى منه الغليل ولسيدى الدعاء بطول البقاء والارتقاء وهذه أبيات أحدثها العبد فى وصف القهوة طالبا من سيده أن يغفر خطأه فيها وسهوه

وقهوة كالعنبر السحيق * سوداء مثل مقلة المعشوق
أتت كمسك فائح فتيق * شبهتها فى الطعم بالرحيق
تدنى الصديق من هوى الصديق * وتربط الود مع الرفيق
فلا عدمت مزجها بريق

ومازلت ألهج بما أفادنيه شيخي من أماليه وأتصفح الدهر الذى جمعته فيه من أسافله الى أعاليه وأستشكل على الاحباب والاصحاب فى أثناء المسامره ما أفادنيه سيدى

من تسمية المرحوم القاضي التنوخي كتابه نشوار المحاضره حتى ظفرت بأصلها في القاموس في مادة نشر فاذا هي عربية محضة فانه قال ونشورت الدابة نشوارا أبقت من علفها ولقد تعجبت من بلاغة هذه التسمية وعذوبتها وحسن المجاز فيها مع سلاستها وسهولتها وأحببت عرضها على شيخي حفظه الله تعالى ليفرح لي بين تلامذته كما فرح طبق به حفظه الله تعالى بين أساتذته وليعلم أني لم أنس ما أفادنيه في خلال المحاوره أيام المؤانسة والمجاوره فوالله انه سميري في ضميري وكليي ما بين عظمي وأديمي

يديرونني عن سالم وأديرهم * وجلدة بين العين والانف سالم

الطرس طما وما مضت قصتنا * لاذنب لنا حديثنا لذ فطال

وحرر يوم السبت المبارك غرة جمادى الآخرة من شهور سنة ثمان وثلاثين بعد الالف أحسن الله ختامها بحرمة محمد وآله الطيبين الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير والحمد لله وحده عبده الفقير الحقير المشتاق المذنب المقصر لسيده عن اللحاق الذي لم يبرح عن العهد المتين أحمد الشاهي بن شاهين انتهى ولو تتبعت ماله حفظه الله تعالى من النظام والنثر اللذين غاب فيهما بلغاء أهل العصر بالشام ومصر وغيرهما من الاقطار لازال مقامه مقضى الاوطار لاستوعبت الاسفار * وفي الاشارات ما يغني عن الكلام * وقد تقدم في خطبة هذا التأليف ذكر شيء من نظمه ونثره وأنه هو السبب الداعي الى جمع هذا التصنيف والله سبحانه يديم جنابه السري الشريف ويبوئه من العز الظل الوريف فلقد أوفى من الحقوق ما لا نؤدي بعضه فضلا عن كله وناهيك بما جلبناه من كلامه دليلا على شرفه وفضله ورسالته هذه التي كانت جوابا عن مكتوب كتبته اليه من جملته

يا من له طائر صيت علا * في الجو فاصطاد الشريد الشديد

يا نجل شاهين البديع الحلى * تمل بالعز الطويل المديد

وفز بخصل السبق بين الملا * وسر بنهج للمعالي سديد

ورد مع الاحباب عذبا حلا * منتظما من الاماني البديد

وارفل على طول المدى في ملا * مسرة راقت وعز جديد

والوالد المحروس بالله لا * بعدة الخلق ولا بالعديد

ومن نثرها سيدي الذي في الاجياد من عوارفه أطواق وفي البلاد من معارفه ما تشهد به القطر السليمة والاذواق وتشتد الى مجده المطنب الذي لا يحط له رواق الاشواق وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الاسواق وتنقطع دون نداه السحب السواكب وتقصر عن مداه في السمو الكواكب والله سبحانه له واق المولى الذي ألقت اليه البلاغة افلاذها واتخذت البراعة طاعته عصمتها وملاذها اذ بذ أفرادها وأفذاذها وأمطرت سماء أفكاره على كل محب أوكاره طائر في جو أو مستقر في أوكاره صيبها ورذاذها وفاخرت دمشق بملاه وحلاه أقطار البسيطة وبغداذها * ومنها أبقاه الله تعالى وحقيقة وعوده ينفقها المجاز وحقيقة سعوده لا يطرقها المجاز * ومنها فأنت

الذى نفهت عنى مخنقا وأصفيت مشربى وكان مرنقا وكاثرت بما به آثرت وما استأثرت رمل النقا فلو أن المأمون بن الرشيد لعلم انك المتمنى ببيتى الغناء الذى غنى به والنشيد

وانى لمشتاق الى قرب صاحب * يروق ويصفو ان كدرت لديه

عذيرى من الانسان لاان جفوته * صفالى ولاان كنت طوع يديه

ولم يقل أعطى هذا الصديق وخذمنى الخلافه وأنا أقول قد ظفرنا به بحمد الله ولم أجد أحدا فى دهره وافق الغرض فلم نر خلافه * ومنها فهذه يا ابن شاهين أياديك البيض تفرخ لك الشكر وتبيض فلا دليل على ولائى كاملائى ولا شاهد لما فى أحنائى كثنائى ولا حجة على ودادى كتكرارى ذكرك وتردادى * وهى طويلة لا يحضرنى الآن منها سوى ما ذكرته ولنقتصر من مكاتبات أعيان العصر من أهل دمشق المحروسة على هذا المقدار ونسأل الله تعالى أن يحفظهم جميعا فى الايراد والاصدار * وفى تاريخ ورود هذه المكاتيب الشامية السابقة على اتفق ورود كتب من المغرب وجهها جماعة من أعيانه الى * فمن ذلك كتاب كتبه لى الاستاذ المجوّد الاديب الفهامة معلم الملوك سيدى الشيخ محمد بن يوسف المراكشى التاملى نصه الحمد لله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى من المحب المخلص المشتاق الى السيد الذى وقع على محبته الاتفاق وطلعت شموس معارفه فى غاية الاشراق وصارله فى ميدان الكمال حسن الاستباق الصدر الكامل والعالم العامل الفقيه الذى تهتدى الفقهاء بعلمه البليغ الذى تقتدى البلغاء ببراعه وقلمه ناشر ألوية المعارف ومسدى أنواع العوارف العلامة امام العصر بجميع أدوات الحصر سيدى أحمد بن محمد المقرى قدس الله السلف كما بارك فى الخلف سلام من النسيم أرق وألطف من الزهر اذا عبق وبعد فان أخباركم دائما ترد علينا وتصل الينا بما يسر الخاطر ويقر الناظر مع كل وارد وصادر والعبد يحمد الله تعالى على ذلك ويدعو الله بالاجتماع معكم هنالك * ويرحم الله عبدا قال آمينا * كتبته اليكم أيها السيد من الحضرة المراكشية مع كثرة أشواق لا تسعها أوراق كتبكم الله سبحانه فيمن عنده كما جعلكم ممن أخلص فى موالاة الحق قصده وودّى اليكم غض الحدائق مستجل فى مطلع الوفاء بمنظور رائق لا يحيله عن مركز الثبوت عائق وحقيق بمودة ارتبطت فى الحق وللحق معاقدها وأسست على المحبة فى الله قواعدها أن يزيد عقدها على مرّ الايام شدّه وعهدها وان شط المزار جدّه وأن تدخر للاخرى عدّه وانى ويعلم الله تعالى لممن يعتقد محبتكم وموالاتكم عملا صالحا يتقرب من الله تعالى ويزلف اليه ويعتقدها وزرا يعوّل فى الآخرة يوم لاظل الا ظله عليه فانكم والله قد أخلصتم فى الولا وعرفتم الله تعالى فقمتم بحقوق الصحبة على الولا معرضين فى تلك كم الآخرة عن غرض الدنيا وعرضها موفين بشروط نفلها ومفترضها الى أن قضى الله تعالى بافتراقنا وحقوقكم المتأكدة دين علينا والايام تطل بقضائها عنا وتوجه الملام الينا فآونة أقف فأقرع السنّ على التقصير ندما وآونة أستنيم الى فضلكم فأتقدم قدما وفى أثناء هذا الا يخطر بالبال حق لكم سابق الا وقد كرّ عليه منكم آخر له لاحق حتى وقفت موقف العجز وضاقت علىّ العبارة عن حقيقة

مقاصدكم

مقامكم في النفس فكدت لا أتكلم الا بالرمز اجلالا لمحلكم الرفيع واشفاقا من التقصير المطيع وقد كنت كتبت أعزكم الله تعالى اليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عجالة قصائد كالعصائد لا كالثريد من الكلام ككلامكم السلس الكثير الفوائد فعذرا فمن كان أخرس من حكه وأشد تخبطا من طائر في شبكه فما عرفت أوصل شيء من ذلك أم حصل في أيدي المعاطب والمهالك وما رأيت غير رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يوما بالحضرة المراكشية فقال لي الشيخ الامام المقري يسأل عنك وقد أرسل معي كتابا اليك فوقع في البحر مع جملة ما وقع فقلت له لا غرابة في ذلك فقد رجع الى أصله ومن ظلمة البحار تستخرج الدرر وقد جاء في كتاب من بعض الاخلاء الصديقين وهو الحاج الصالح السيد أبو بكر من مكة المكرمة شرفها الله تعالى وذكر لي فيه انه متعه الله تعالى بلقائكم وأخبرني بسؤالكم عني كثيرا والى الآن بانهم السيد انما عرفته بما كتبته لسيادتكم تعريف تذكر لا تعريف منه فأصفوني الحكم عليكم في عدم الجواب بما ألفته الادباء شريعة وسنه وبالجملة ففؤادي لجدكم صحيح لا سقيم واعتدادي بودكم منتج غير عقيم والله تعالى يجعل الحب في ذاته الكريمه ويقضي من الاحبة دين المحبة فيوفي كل غريم غريمه ويصلكم ان شاء الله تعالى هذا المرقوم وبه سؤال منظوم لتتفضلوا بالجواب عنه بعد حمد الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الى المقري الحبر صدر الائمة * من المخلص الوداد أزكى تحية
فذالك يا صدر الصدور عجالة * لتسمح بالجواب عما أكنت
فتى قدر أى عند العذ الى فتية * محرمة عند الزوال تخلت
وعادت حراما عند عصر فعندما * عشاء أتى عادت حلالا تجلت
وفي صبح ثاني اليوم عادت محرما * وزالت زوالا منه من غير مرية
وفي ظهره حلت فطابت قريرة * وفي عصره محرما قد تبدت
وعند العشاء بالضرورة حلت * وذلك بعد غرم مال كفدية
وفي صبحه عادت حراما ترى به * بروق سيوف لامعات بسنة
وكان يضيق حسرة وتأسفا * وحلت له وقت العشاء وتمت
وعن أمة أيضا عن تسريها * قد أولدها في ملكه بعد وطأة
وعادت لمملوك السري حليلة * بعقد نكاح بعد من غير شبهة
فجاءت ببنت هل لها من تزوج * بنجل السري بينوا الى قصتي
فان السيوري مانع من تزوج * لها بنسبة منها بتلك القضية
وما الفرق بينها و بين التي أتى * بها ابن أبي زيد بأوضح حجة
وعن مشتر مملوكة غير محرم * ومسلمة شرا صحيحا بشرعة
وليس بملكه لها وطؤها يرى * جوازا على التأبيد من حين حلت
وما طالق من عدة خرجت ولا * يجوز على التأبيد في خير ملة
نكاح لها من واحد ومطلق * لها غير معصوم ترى في الشريعة

وعت بحمد الله صبديه لكم * سلاما كما أبدته في صدر طلعة

وتقرير السؤال الثاني أمة أولدها سيدها فصارت حرة فمات عنها السيد ثم تزوجها عبد سيدها [فأتت بنت أمالولد سيدها أن يتزوج هذه البنت فان الرجل له أن يتزوج بنت زوجة أبيه من رجل غيره وهذه سرية أبيه قال الامام السيوري يمنع هذه المسئلة وما الفرق بينهما وتسلكم ان شاء الله تعالى بحالة رجزيه في ما تركم السنيه ضمنتها أشطارا من الالفيه فتفضلوا بالاغضاء وحسن الدعاء أن يجمع الله شملنا بكم في تلك الاماكن المشرفة ثم المأمول من سيدنا ومولانا أن يتفضل علينا بكتاب طبقات القراء للامام الحافظ الداني اذ ليس عندنا منه نسخة وأما تأليفكم الكثير الفوائد المسمى بأزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض فقد انتشر في هذه الاقطار المراكشية وانتسخت منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدي أحمد بن عبد العزيز ابن الولي سيدي أبي عمرو وكسا الله سبحانه تأليفكم المذكور جلباب القبول فما رآه أحد الا نسخه وعندي النسخة التي كتبها بخطه السيد أحمد المذكور بخط حسن وعلى هامشها في بعض الاماكن خطكم الرائق وبعض التنبيهات من كلامكم الفائق وأعلمونا بتأليفكم الذي سميتموه قطف المهتصر من أفنان المختصر هل خرج من المبيضة أم لا ووددنا لو اتصلنا منه نسخة وقد اشتاق فقهاء هذا الاقليم اليه غاية كالفقيه قاضي القضاة محبكم سيدي عيسى وغيره من أخلاء خليل في كل محفل جليل الى آن قال وأنا أتمثل بكلام مولانا علي كرم الله وجهه حيث يقول تبرك به

رضيت بما قسم الله لي * وفوضت أمري الى خالقي

كما أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقي

ولي حفظكم الله تعالى تخميس على البيتين وذلك انه نزلت بي شدة لا يمكن الخلاص منها عادة فما فرغت من تخميسهما الا وجاء الفرج في الحين ونصه

اذا أزمة نزلت قبلي * وضقت وضاقت بها حيلي

تذكرت بيت الامام علي * رضيت بما قسم الله لي

وفوضت أمري الى خالقي

لان الاله اللطيف قضى * على خلقه حكمه المرتضى

فسلم وقل قول من فوضا * كما أحسن الله فيما مضى

كذلك يحسن فيما بقي

فعذرا أعزكم الله سبحانه ونفع بأنفاسكم عن اغباب المراسلة بالمكاتبة عذرا وصبرا على بعد اللقاء صبرا فان يقدر في هذه الدار نلنا فيهما ما نحب والا فلن نعدم بفضل الله جزاء الحسنى ولقاء لا يبيد ولا يفنى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ايمانا بالوعد وتحقيقا فمن أوجب له محبته أدخله جنته وأحضر مأدبته وكذل له أمنيته جعلنا الله من المتحابين في جلاله بكرمه وافضاله وكتبه محبكم ومعظمكم الواصل حبل وده بودكم المشرف لعهدكم المنوه

يفخر كم

بفخركم ومجدكم العبد الفقير الحقير المشفق على نفسه من التقصير والذنب الكبير محمد ابن يوسف التاملي غفر الله ذنبه وستر عيبه وجبر قلبه وجمعه بمن أحبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في عاشوراء المحرم فاتح سنة ثمانية وثلاثين وألف انتهى وصحبة هذا المكتوب ورقة نصها بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

لله درّ العالم الجياني * كأنما ينظر بالعيان
للمقرى العالم المفضال * منظرا بأحسن المثال
وعالم بأنني من بعده * أشير في نظامنا لقصده
وها أنا بالله أستعين * مضمنا وربنا المعين
بالشطر من ألفية ابن مالك * أيدنا الله لنسج ذلك
قال محمد عبيد المالك * وسالك الاحسن من مسالك
نشير بالتضمين للتحرير * المقرى الفاضل الشهير
ذاك الامام ذو العلاء والهمم * كعلم الاشخاص لفظا وهم عم
فلن ترى في علمه مثيلا * مستوجبا ثنائي الجميلا
ومدحه عندي لازم أتى * في النظم والنثر الصحيح مثبتا
أوصاف سيدي بهذا الرجز * تقرب الاقصى بلفظ موجز
فهو الذي له المعالي تعتزي * وتبسط البذل بوعد منجز
رتبته فوق العلا يا من فهم * كلامنا لفظ مفيد كاستقم
وكم أفاد دهره من تحف * مبدى تأول بلا تكلف
لقد رقى على المقام الظاهر * كطاهر القلب جميل الظاهر
وفضله للطالبين وجدا * على الذي في رفعه قد عهدا
قد حصل العلم وحرر السير * وما بالا أو بانما انحصر
في كل فن ماهر صفه ولا * يكون الا غاية الذي تلا
سيرته جرت على نهج الهدى * ولا يلي الا اختيارا أبدا
وعلمه وفضله لا ينكر * عماية عنه مبينا يخبر
يقول دائما بصدر انشرح * اعرف بنا فاننا نلنا المنح
يقول مرحبا لقاصديه من * يصل الينا يستعن بنا يعن
صدق مقالاتي وكن متبعا * ولم يكن تصريفه ممتنعا
وانهض اليه فهو بالمشاهده * انخبر الجزء المتم الفائده
والزم جنابه واياك الملل * ان يستطل وصل وان لم يستطل
واقصد جنابه ترى ما آثره * والله يقضي بهبات وافره
وانسب له فانه ابن معطى * ويقتضي رضا بغير سخط
واجعله نصب العين والقلب ولا * تعدل به فهو يضاهي المثلا

قد طالما أفاد علم مالك * أحمد ربى الله خير مالك
وحاسد له ومبغض زمن * وهالك وميت به قمن
وليس يشفى مبغض له أعل * عينا وفى مثل هراوة جعل
يقول عبد ربه محمد * فى نحو خير القول انى أحمد
وهو بدهره عظيم الامل * مروع القلب قليل الحيل
فادع له وسادة قد حضروا * وافعل أو افق تغتبط اذ تشكر
واجبره بالدعا عساه يغتنم * بجبره وفتح عينه التزم
أنشدت فيكم ذا وقال قائل * فى نحو نعم مايقول الفاضل
أدعو لكم بالستر فى كل زمن * لكونه بمضمر الرفع اقترن
ما آثر لكم كثيرة سوى * ما مر فاقبل منه ما عدل روى
قد انتهى تعريف ذا المعرف * وذو تمام ما برفع يكتفى
لانتم تاج الائمة الاول * وما بجمعه عنيت قد كمل
فالله يبقيكم لدينا وكفى * مصليا على الرسول المصطفى
تترى عليه دائما منعطفا * وآله المستكملين الشرفا انتهى

ومن ذلك ما كتبه لى بعض الاصحاب ممن كان يقرأ على بالمغرب وصورته سيدنا وسيد أهل الاسلام حامل راية علوم الائمة الاحمدية على صاحبها الصلاة والسلام آية الله فى المعانى والمعالى وحسنة الايام والليالى وواسطة عقود الجواهر واللآلى امام مذهب مالك والاشعرى والبخارى والواقدى والخليل العلامة القدوة السيد الكبير الشهير الجليل ذو الاخلاق العذبة المذاق والشمائل المفصحة عن طيب الاصول والاعراق كبير زمانه دون منازع وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا ومولانا شيخ الشيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقرى المغربى التلمسانى نزيل فاس ثم الديار المصرية حفظه الله تعالى فى مواطن استقراره ورفع درجته باشادة فخاره على مناره عن شوق يوثله الكاتب أن لو كان فى طى كتابه وتوق الى مشاهدتكم هو الغاية فى بابه بعد اهداء السلام المحفوف بأنواع التحيات والكرامات والبركات الدائم مادامت فى الوجود السكنات والحركات لمقامكم الاكبر ومحفلكم الاشهر ومن تعلق بأذيالكم أو كان مستمطر النوالكم أوصبت عليه شآبيب افضالكم من أهل ومحب وصاحب وخديم هذا وانه ينهى الى الوداد القديم أن أهل الغرب الادنى والاقصى حاضرة وبادية كلهم يتفكهون بل يتقوتون بذكركم ويشتاقون لرؤية وجهكم ويتلذذون بطيب أخباركم وان كان المغرب الآن فى تفاقم أحوال وتراكم أهوال فى الغاية مدائن وبوادى لاسيما مدينة فاس فانها فى شر عظيم وأميرها مولاى عبد الملك مات فى السنة السابعة والثلاثين بل فى ذى الحجة قبلها وفى المحرم من سنة سبع وثلاثين توفى ملك المغرب السلطان أبو المعالى زيدان وبويع من بعده ابنه مولاى عبد الملك وتقاتل مع أخويه الاميرين الوليد وأحمد وهزمهما والى الله عاقبة الامور وأهل داركم

بفاس

بفاس بخير وعافيه ونعم صافيه سوى ما أدركهم من طول الغيبه نسأل الله تعالى أن يعلا بقدومكم العيبه ومحبكم الأكبر ووليكم الأصغر سيد أهل المغرب اليوم وشيخ الطريقه والمربي في سلوك أهل الحقيقه العارف بالله الشيخ الرباني ذو الكرامات والمقامات سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي يحييكم ويعظم قدركم ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر وهو على خير وقد اجتمعت من بركتكم في مدينة سلا على جماعة من طلاب العلم وفتح الله تعالى على بتآليف عديدة منها كفاية الطالب النبيل في حل ألفاظ مختصر خليل ومنها شرح على المنهج المنتخب للزقاق في قواعد مالك ومنظومة في أكثر من ألف بيت في السير والشمائل ومنها في رجال البخاري ولا كنسخ الكلاباذي ومنها خطب وغير ذلك والكل من بركتكم ونسبته اليكم في صحيفتكم والسلام من ولدكم المقتر بفضلكم تراب نعالكم علي بن عبد الواحد الانصاري لطف الله تعالى به وحامله كبير كبراء قومه ممن يحبكم ويعزكم وما تفعلوا معه من خير فلن تكفروه والسلام انتهى

*ومنها كتاب وافاني من عالم قسمطينه وصالحها وكبيرها ومفتيها سلالة العلماء الأكابر ووارث المجد كابرا عن كابر المؤلف العلامة سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله نصه بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن وانك لعلى خلق عظيم وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم من مدنس الازار المتسربل بسرابيل الخطايا والاوزار الراجي للتنصل منه رحمة العزيز الغفار عبد الله سبحانه عبد الكريم بن محمد الفكون أصلح الله بالتقوى حاله وبلغه من متابعة السنة النبوية آماله الى الشيخ الشهير الصدر النحرير ذي الفهم الثاقب والحفظ الغزير الاحب في الله المؤاخي من أجله سيدي أبي العباس أحمد المقري أحمد الله عاقبتي وعاقبته وأسبل على الجميع عافيته أما بعد فاني أحمد الله اليك وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا زائد الا صالح الدعاء وطلبه منكم فاني أحوج الناس اليه وأشدهم في ظني الحاحا عليه. لما تحققت من أحوال نفسي الامارة واستبطنت من دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغراره كأنها عميت عن الاهوال التي أشابت رؤس الاطفال وقطعت أعناق كل الرجال فتراها في لجج هواها خائضه وفي ميدان شهواتها راكضه طغت في غيها وما لانت وجمحت فما انقادت ولا استقامت فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح وتنشر الفضائح ومنادي العدل قائم بين العالمين وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فالله أسأل حسن الالطاف والستر عما ارتكبناه من التعدي والاسراف وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤف الرحيم ولنكف من القلم عنانه لما أرجو من أجله ثواب الله سبحانه وقد اتصل بيدي جوابكم أطال الله في العلم بقاءكم فرأيت من عذوبة ألفاظكم وبلاغة خطابكم ما يذهل من العلماء فحولها وينيلها الذي اليه تتوق لسماعه سؤلها ومأمولها بيد ما فيه من أوصاف من أمره قاصر وعن الطاعة والاجتهاد فاتر عما أصدق قول فيه عند مخبره ومرآه أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه لكن يجازيكم المولى

بحسن النيه البلوغ في بحبوحة الجنان غاية الامنيه وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها على أني غير قائم بفرضها ونفلها فالله تعالى يمدكم بمعونته ويجعلكم من أهل مناجاته في حضرته ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منادمته وقد ساعد البنان الجنان في اجابتكم بوزنها وقافيتها والعذر لي أني لست من أهل هذا الشان والاعتراف بأني جبان وأي جبان والكمال لكم في الرضا والقبول والكريم يغضي عن عورات الاحمق الجهول وظننا حققه الله تعالى أن تجعل على منظومتكم الكلامية يعني اضاءة الدجنة تقييدا أرجو من الله توفيقا وتسديدا بحسب قدري لا على قدركم وعلى مثل فكري القاصر لا على عظيم قدركم وان ساعد الاوان وقضى بتيسيره رب الزمان فآتي به ان شاء الله الا آجل مني لاني بالاشواق الى حضرة راكب البراق ومخترق السبع الطباق وكنت عازما على أن أبعث لكم من الابيات أكثر من الواقع الاان الرفقة أعجلت وصادفتني أيام موت قعيدة البيت فلم يتيسر عاجلا الا ماذكر وعلى الله قصد السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل

يا نخبة الدهر في الدرايه * علما تعاضده الروايه
لازلت بحرا بكل فن * يروى به الطالبون غايه
لقد تصدرت في المعالي * كما تعاليت في العنايه
من فيك تنتظم المعاني * بلغت في حسنها النهايه
وفاك مولاك كل مرقى * تحوى به القرب والولايه
اعجوبة مالها نظير * في الحفظ والفهم والهدايه
يا أحمد المقرى دامت * بشرا لك تصحبها الرعايه
بجاه خير العباد طرا * والآل والصحب والنقايه
صلى عليه الاله تترى * تكفي بها الشر والغوايه

وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب بغاية عجلة يوم السبت سابع أو ثامن رجب من عام ثمانية وثلاثين وألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام انتهى * والمذكور عالم المغرب الاوسط غير مدافع وله سلف علماء ذوو شهرة ولهم في الادب الباع المديد غير أن المذكور مائل الى التصوف ونعم ما فعل تقبل الله تعالى عملي وعمله وبلغ كلا منا أمله ولاشهر أسلافه العلامة الشيخ حسن بن علي بن عمر الفكون القسمطيني أحد أشياخ العبدري صاحب الرحلة قصيدة مشهورة عند العلماء بالمغرب وهي من در النظام وحر الكلام وقد ضمنها ذكر البلاد التي رآها في ارتحاله من قسمطينة الى مراكش وأولها

ألا قل للسري بن السري * أبي البدر الجواد الاريحي

ومنها

وكنت أظن ان الناس طرا * سوى زيد وعمرو غير شي
فلما جئت ميلة خير دار * أمالتني بكل رشا أبي

وكم

وكم أورث ظباء بني اواو * أوار الشوق بالريق الشهيّ
وجئت بجاية فجلت بدورا * يضيق بوصفها حرف الرويّ
وفي أرض الجزائر هام قلبي * بمعسول المراشف كوثريّ
وفي مليانة قد ذبت شوقا * بلين العطف والقلب القسيّ
وفي تنس نسيت جميل صبري * وهمت بكل ذي وجه وضيّ
وفي مازونة مازات صبا * بوسنان المحاجر لوذعيّ
وفي وهران قد أمسيت رهنا * بظامي الخصر ذي ردف وريّ
وأبدت لي تلمسان بدورا * جلين الشوق للقلب الخليّ
ولما جئت وجدة همت وجدا * بمخنث المعاطف معنويّ
وحلّ رشا الرباط رشا رباطي * وتيمني بطرف بابليّ
وأطلع قطر فاس لي شموسا * مغاربهنّ في قلب الشجيّ
وما سكاسة الاكناس * لاحوى الطرف ذي حسن سنيّ
وان تسأل عن أرض سلا ففيها * ظباء كاسرات للكميّ
وفي مراكش يا ويح قلبي * أتى الوادي فطمّ على القريّ
بدور بل شموس بل صباح * بهيّ في بهيّ في بهيّ
أبحن مصارع العشاق لما * سعين به فكم ميت وحيّ
بقامة كل أسمر سمهريّ * ومقلة كل أبيض مشرفيّ
اذا أنسينني حسنا فاني * أنسيهم هوى غيلان ميّ
فها أنا قد تخذت الغرب دارا * وأدعى اليوم بالمرّا كشيّ
على أنّ اشتياقي نحو زيد * كشوقك نحو عمرو بالسويّ
تقسمني الهوى شرقا وغربا * فيا للمشرقيّ المغربيّ
فلي قلب بأرض الشرق عان * وجسم حلّ بالغرب القصيّ
فهذا بالغدو يهيم غربا * وذاك يهيم شرقا بالعشيّ
فلولا الله متّ هوى وشوقا * وكم لله من لطف خفيّ

وقد خرجنا بالاستطراد الى الطول وذلك منا استرسال مع جاذب الادب فلنمسك العنان والله المستعان وما عددناه من القصائد والمقطعات في مدح دمشق الشام فهو غيض من فيض وفي نيتي أن أجمع في ذلك كتابا حافلا أسميه نشق عرف دمشق أو مشق قلم المدح لدمشق ولسان حالي الآن ينشد قول بعض الاكابر

نحن في مصر رهن شوق اليكم * هل لديكم بالشام شوق الينا
فعجزنا عن أن تروا لديكم * وأبيتم عن أن نرا كم لدينا
حفظ الله عهد من حفظ العهد ووفى به كما قد وفينا

وقول ابن الصائغ

وددت لو أن عيني * مكان كتبي اليكم
حتى أراكم وأملى * أخبار شوقى عليكم

*(رجع الى ابن جبير) رحمه الله تعالى ومن شعره قوله

اياك والشهرة فى ملبس * والبس من الاثواب أسمالها
تواضع الانسان فى نفسه * أشرف للنفس وأسمى لها

وقال

تنزه عن العوراء مهما سمعتها * صيانة نفس فهو بالحر أشبه
اذا أنت جاوبت السفيه مشاتما * فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه

وقال

أقول وقد حان الوداع وأسلمت * قلوب الى حكم الاسى ومدامع
أيا رب أهلى فى يديك وديعة * وما عدمت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور

لابى الحسين مكارم لو أنها * عدت لما فرغت ليوم المحشر
وله على فضائل قد قصرت * عن بعض نعماها عظام الابحر

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها

يا وفود الله فزتم بالمنى * فهنيئا لكم أهل منى
قد عرفنا عرفات بعدكم * فلهذا برح الشوق بنا
نحن فى الغرب ويجرى ذكركم * بغروب الدمع يجرى هتنا

ومنها

فيناديه على شحط النوى * من لنا يوما فقلت ملنا
سر بنا يا حادى الركب عسى * أن نلاقى يوم جمع سربنا
ما دعا داعى النوى لما دعا * غير صب شفه برح العنا
شم لنا البرق اذا لاح وقل * جمع الله بجمع شملنا
علنا نلقى خيالا منكم * بلذيذ الذكر وهنا علنا
لو حنى الدهر علينا القضى * باجتماع بكم بالمنحنى
لاح برق موهنا من نحوكم * فلعمرى ما هنا العيش هنا
أنتم الاحباب نشكو بعدكم * هل شكوتم بعدنا من بعدنا

وله رحمه الله تعالى من قصيدة مطولة أولها

لعل بشير الرضا وانة ول * يعلل بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة وهى ثلاثة وثلاثون بيتا من الغر أولها

أقول وآنست بالليل نارا * لعل سراج الهدى قد أنارا
والا فما بال أفق الدجى * كأن سنى البرق فيه استطارا
ونحن من الليل فى حندس * فما باله قد تجلى نهارا

*وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالادب دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها وقال صاحب الملتمس فى حقه الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير ممن لقيته وجالسته كثيرا ورويت عنه وأصله من شاطبة وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ذكره أبو الربيع فى تاريخه ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه وتولع بغرناطة فسكن بها قال وعما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد باشبيلية

أبا عمران قد خلفت قلبي * لديك وأنت أهل للوديعه
صحبت بك الزمان أخا وفاء * فها هو قد تنمر للقطيعه

قال وكان من أهل المروآت عاشقا فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الاخوان والمبادرة لايناس الغرباء وفى ذلك يقول

يحسب الناس بأنى متعب * فى الشفاعات وتكليف الورى
والذى يتعبهم من ذاك لى * راحة فى غيرها لن أفكرا
و بودى لو أقضى العمر فى * خدمة الطلاب حتى فى الكرى

قال ومن أبدع ما أنشده رحمه الله تعالى أول رحلته

طال شوقى الى بقاع ثلاث * لاتشد الرحال الا اليها
ان للنفس فى سماء الامانى * طائرا لايحوم الا عليها
قص منه الجناح فهو مهيض * كل يوم يرجو الوقوع لديها

وقال

اذا بلغ العبد أرض الحجاز * فقد نال أفضل ما أمله
فان زار قبر نبى الهدى * فقد أكمل الله ما أمله

وعاد رحمه الله تعالى الى الاندلس بعد رحلته الاولى التى حل فيها دمشق والموصل وبغداد وركب الى المغرب من عكا مع الافرنج فعطب فى خليج صقلية الضيق وقاسى شدائد الى أن وصل الاندلس سنة ٥٨١ ثم أعاد المسير الى المشرق بعد مدة الى أن مات بالاسكندرية كما تقدم ومن شعره أيضا

لى صديق خسرت فيه ودادى * حين صارت سلامتى منه ربحا
حسن القول سيئ الفعل كالجزار * يسمى وأتبع القول ذبحا

وحدث رحمه الله تعالى بكتاب الشفاء عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى عن القاضى عياض ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى وأبو الحسين يحيى بن على القرشى * وتوفى ابن جبير بالاسكندرية يوم الاربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ والدعاء عند قبره مستجاب قاله ابن الرقيق رحمه الله تعالى وقال ابن الرقيق فى السنة بعدها * وقال أبو الربيع بن سالم أنشدنى أبو محمد عبد الله بن التميمى البجائى و يعرف بابن الخطيب لابى الحسين بن جبير وقال وهو مما كتب به الى من الديار المصرية فى رحلته الاخيرة لما بلغه ولايتى قضاء سبتة وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك وتوفيت هنالك زوجته بنت أبى جعفر الوقشى فدفنها بها

بمدينة لى سكن فى الثرى * وخل كريم اليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوا * فزرت بها الحى والميتا

وأنشد ابن جبير رحمه الله تعالى لنفسه عند صدوره عن الرحلة الاولى الى غرناطة أو فى طريقها قوله

لى نحو أرض المنى من شرق اندلس * شوق يؤلف بين الماء والقبس

الى آخرها ومن شعره قوله

يا خير مولى دعاه عبد * أهمل فى الباطل اجتهاده
هب لى ما قد علمت منى * يا عالم الغيب والشهاده

وقال رحمه الله تعالى

وانى لاوثر من أصطفى * وأغضض عن زلة العاثر
وأهوى الزيارة ممن أحب * لاعتقد الفضل للزائر

وقال رحمه الله تعالى

عجبت للمرء فى دنياه تطمعه * فى العيش والاجل المحتوم يقطعه
يمسى ويصبح فى عشواء يخبطها * أعمى البصيرة والآمال تخدعه
يغتر بالدهر مسرورا بصحبته * وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه * وقد درى انه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه * وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة * من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال

صبرت على غدر الزمان وحقده * وشاب لى السم الذعاف بشهده
وجربت اخوان الزمان فلم أجد * صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته * فما دام لى يوما على حسن عهده
وكم غرنى تحسين ظنى به فلم * يضئ لى على طول اقتداحى لزنده
وأغرب من عنقاء فى الدهر مغرب * أخو ثقة يسقيك صافى وده
بنفسك صادم كل أمر تريده * فليس مضاء السيف الا بحده
وعزمك جرد عند كل مهمة * فما نافع مكث الحسام بغمده
وشاهدت فى الاسفار كل عجيبة * فلم أر من قد نال جدا بجده
فكن ذا اقتصاد فى امورك كلها * فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
وما يحرم الانسان رزقا لعجزه * كما لا ينال الرزق يوما بكده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة * جرت بقضاء لا سبيل لرده

وقال

الناس مثل ظروف حشوها صبر * وفوق أفواهها شئ من العسل
تغر ذائقها حتى اذا كشفت * له تبين ما تحويه من دخل

وقال

وقال

تغير اخوان هذا الزمان * وكل صديق عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة * فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم * فصرت أطالع باب البدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله

شكات أخلاء هذا الزمان * فعندي مما جنوه خلل
قضيت التعجب من شأنهم * فصرت أطالع باب البدل انتهى

ولابن جبير رحمه الله تعالى

من الله فاسأل كل أمر تريده * فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم * من الكبر في حال تموج بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة * فقد قيل عنها انها السجدة الصغرى

وهو نحو قول القائل

قل لنصر والمرء في دولة السلطان أعمى ما دام يدعى أميرا
فاذا زالت الولاية عنه * واستوى بالرجال عاد بصيرا

وقال ابن جبير رحمه الله تعالى

أيها المستطيل بالبغي أقصر * ربما طأطأ الزمان الرؤسا
وتذكر قول الاله تعالى * ان قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندته من قرى مصر

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة * باحواز مصر والاحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى جد بمدمع * فليس لنا الا المدامع قربان

وقال

قد أحدث الناس امورا فلا * تعمل بها انى امرؤ ناصح
فما جاء الخير الا الذي * كان عليه السلف الصالح

وقال

وب ان لم تؤتني سعة * فاطوعني فضلة العمر
لا أحب اللبث في زمن * حاجتي فيه الى البشر
فهم كسر لمجبر * ما هم جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير رحمه الله تعالى الى مكة ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التي أولها

بلغت المنى وحللت الحرم * فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمكة أهلا بها * وشكرا لمن شكره يلتزم

وهي طويلة وسيأتي بعضها وقال رحمه الله تعالى عند تحركه للرحلة الحجازية

أقول وقد دعا للخير داع * حننت له حنين المستهام
بحرام أن يلذ لى اغتماض * ولم أرحل الى البيت الحرام
ولا طاقت بى الآمال ان لم * أطف ما بين زمزم والمقام
ولا طابت حياتى لى اذا لم * أزر فى طيبة خير الانام
وأهديه السلام وأقتضيه * وضا يدنى الى دار السلام

وقال

هنيئا لمن حج بيت الهدى * وحط عن النفس أوزارها
وان السعادة مضمونة * لمن حج طيبة أو زارها

واختم ترجمته بقوله

أحب النبى المصطفى وابن عمه * عليا وسبطيه وفاطمة الزهرا
هم أهل بيت أذهب الرجس عنهم * وأطلعهم أفق الهدى أنجما زهرا
موالاتهم فرض على كل مسلم * وحبهم أسنى الذخائر للاخرى
وما أنا للصحب الكرام بمبغض * فانى أرى البغضاء فى حقهم كفرا
هم جاهدوا فى الله حق جهاده * وهم نصروا دين الهدى بالظبا نصرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم * لدى الملا الاعلى وأكرم به ذكرا

وقوله فى آخر الميمية

نبى شفاعته عصمة * فيوم التنادى به يعتصم
عسى أن تجاب لنا دعوة * لديه فنكفى بها ما أهم
ويرعى لزواره فى غد * ذماما فما زال يرعى الذمم
عليه السلام وطوبى لمن * ألم بتربته فاستلم
أخى كم تتابع اهواءنا * ونخبط عشواء نا فى الظلم
رويدك جرت فعج واقتصد * أمامك نهج الطريق الاعم
وتب قبل عض بنان الاسى * ومن قبل قرعك سن الندم

ومنها

وقل رب هب رحمة فى غد * لعبد بسيما العصاة اتسم
جرى فى ميادين عصيانه * مسيئا ودان بكفر النعم
فيارب صفحك عما جنى * ويارب عفوك عما اجترم

* (ومن الراحلين الى المشرق من الاندلس الاديب أبو عامر بن عيشون قال الفتح رجل حل المشيدات والبلاقع وحكى النسرين الطائر والواقع واستدر خلفى البؤس والنعيم وقعد مقعد البائس والزعيم فتارة فى سماط وأخرى بين درانك وأنماط ويوما فى ناوس وأخرى فى مجلس مأنوس ورحل الى المشرق فلم يحمد رحلته ولم يعلق بأمل نحلته فارتد على عقبه وارتد من حبالة الفوت الى منتظره ومرتقبه ومع هذا فله تحقق فى الادب وتدفق طبع اذا مدح أو نسب وقد أثبت له ما تعلم حقيقة نفاذه وترى

سرعة وخيذه فى طريق الاحسان واغذاذه ثم قال وأخبرنى انه دخل مصر وهو سار فى ظلم البوس عار من كل لبوس قد خلا من النقد كيسه وتخلى عنه الا تعذيره وتنكيسه فنزل بأحد شوارعها لا يفترش الا نكده ولا يتوسد الا عضده وبات بليلة ابن عبدل تهب عليه صرصر لا ينفع منها عنبر ولا مندل فلما كان من السحر دخل عليه ابن الطوفان فأشفق لحاله وفرط امحاله وأعلمه أن الافضل بن أمير الجيوش استدعاه ولو ارتاد بجوده بقطعة يغنيها له لاخصب مرعاه فصنع له فى حينه

قل للملوك وان كانت لهم همم * تأوى اليها الامانى غير متئد
اذا وصلت بشاهنشاه لى سببا * فلن أبالى بمن منهم نفضت يدى
من واجه الشمس لم يعدل بها قمرا * يعشو الى ضوئه لو كان ذا رمد

فلما كان من الغد وافاه فدفع اليه خمسين مثقالا مصرية وكسوة وأعلمه انه غناه وجود الاظهار للفظه ومعناه وكرره حتى أثبته فى سمعه وقرره فسأله عن قائله فأعلمه بقلته وكلمه فى رفع خلته فأمر له بذلك وله أيضا رحمه الله تعالى

قصدت على أن الزيارة سنة * يؤكدها فرض من الود واجب
فألفيت بابا سهل الله اذنه * ولكن عليه من عبوسك حاجب
مرضت ومرضت الكلام تثاقلا * الى أن الى أن خلت انك عاتب
فلا تتكلف للعبوس مشقة * سأرضيك بالهجران اذ أنت غاضب
فلا الارض تدمير ولا أنت أهلها * ولا الرزق ان أعرضت عنى جانب

وله يستعتبنى

كتبت ولو وفيت بر كحقه * لما اقتصرت كفى على رقم قرطاس
ونابت عن الخط الخطا وتبادرت * فطورا على عينى وطورا على راسى
سل الكاس عنى هل أديرت فلم أضع * مديحك الا ناويسوغ بها كاسى
وهل نافح الآس الندامى فلم أذع * ثنائى اذكى من منافحة الآس

*(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق أبو مروان الطبنى وهو عبد الملك بن زيادة الله قال فى الذخيرة كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام وحملة ألوية الاقلام من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر أراهم طرؤا على قرطبة قبل افتراق الجماعه وانتثار شمل الطاعه وأناخوا فى ظلها ولحقوا بسروات أهلها وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أول من بنى بيت شرفهم ورفع فى الاندلس صوته بنباهة سلفهم قال أبو حيان وكان أبو مضر نديم محمد بن أبى عامر أمتع الناس حديثا ومشاهدة وأنصفهم ظرفا وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة وآخذهم بقلوب الملوك والجلة وأنظمهم لشمل افادة وتجعة انتهى المقصود منه ثم قال فى الذخيرة فأما ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ورحل الى المشرق وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة انتهى وقد ذكر قصة قتله المستبشعة واتهم باغتياله ابنه ومن نظم أبى مروان الطبنى المذكور ما وجده

صاحب الذخيرة في بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد ابن أبي عامر على الحذلي في مجلسه وضربه ضربا موجعا وأقر بذلك أعين مطالبيه قال أبو مروان الطبني فيه

شكرت للعامري ما صنعا * ولم أقل للحذيلي لعا
ليث عرين عدا بعزته * مفترسا في وجاره ضبعا
لا برحت كفه ممكنة * من الاماني فنعم ما صنعا
وددت لو كنت شاهد الهما * حتى ترى العين ذل ما خضعا
ان طال منه سجوده فلقد * طال لغير السجود ما ركعا

قال ابن بسام وابن رشيق القائل قبله

كم ركعة ركع الصفعان تحت يدي * ولم يقل سمع الله لمن حمده

ثم قال ابن بسام في الذخيرة ما نصه والعرب تقول فلان يركع لغير صلاة اذا كنوا عن عهر الخلوة ومن مليح الكناية لبعض المتقدمين يخاطب امرأته

قلت التشيع حب أصلع هاشم * فترفضي ان شئت أو فتشيعي
قالت أصيلع هاشم وتنفست * بأبي وأمي كل شئ أصلع

ولما صنت كتابي هذا من شين الهجاء وكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء أجريت ههنا طلقا من مليح التعريض في ايجاز القريض مما لا أدب على قائليه ولا وصمة عظمى على من قيل فيه والهجاء ينقسم قسمين فقسم يسمونه هجو الاشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مقذعا ولا هجوا مستبشعا وهو طالما قديما من الاوائل وثل عرش القبائل انما هو توبيخ وتعيير وتقديم وتأخير كقول النجاشي في بني عجلان وشهرة شعره منعتني عن ذكره واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأنشدوه قول النجاشي فيهم فدرأ الحد بالشبهات وفعل ذلك بالزبرقان حين شكا بالحطيئة وسأله أن ينشد ما قال فيه فأنشده قوله

دع المكارم لا ترحل لبغيتها * واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

فسأل عن ذلك كعب بن زهير فقال والله ما أود بما قال له حمر النعم وقال حسان لم يهجه ولكن سلح عليه بعد أن أكل الشبرم فهم عمر رضي الله تعالى عنه بعقابه ثم استعطفه بشعره المشهور * وقال عبد الملك بن مروان يوما احسابكم يا بني أمية فما أود أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وان الاعشى قال في

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم * وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال أنحن نفعل هذا بجارا تنا ودعا عليه فاطلك بشئ يبكي علقمة بن علاثة وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال حس وقد كان الراعي يقول هجوت جماعة من الشعراء وما قلت فيهم ما تستحي العذراء أن تنشده في خدرها ولما قال جرير

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

أطفأ مصباحه ونام وقد كان بات ليلته يتململ لانه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه قال الراعي فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب الا وسمعنا البيت قد سبقنا اليه حتى أتينا حاضر بني نمير فخرج الينا النساء والصبيان يقولون قبحكم الله وقبح ما جئتمونا به * والقسم الثاني هو السباب الذي أحدثه جرير أيضا وطبقته وكان يقول اذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ولا عيرت به قبيلة وهو الذي صنا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه فان أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ماشانه اسمه وبقي عليه اثمه * ومن مليح التعريض لاهل أفقنا قول بعضهم في غلام كان يصحب رجلا يسمى بالبعوضة

أقول لشادنكم قولة * ولكنها رمزة غامضه
لزوم البعوض له دائما * يدل على انها حامضه

وأنشدت في مثله قول بعض أهل الوقت

بيني وبينك سر لا أبوح به * الكل يعلمه والله غافره

* وحكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال عاتبت بعض الاخوان عتابا شديدا عن أمر أوجع فيه قلبي وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت

واني على ما هاج صدري وغاظني * ليأمنني من كان عندي له سر

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ولم يزل يقلق به حتى بكى الي منه بالدموع وهذا الباب ممتد الاطناب ويكفي ما مر ويمر منه في أضعاف هذا الكتاب انتهى كلام ابن بسام في الذخيرة بلفظه ولا خفاء انه عارض بالذخيرة يتيمة الثعالبي ولذا قال في خطبة الذخيرة أما بعد حمد الله ولي الحمد وأهله والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله فان ثمرة هذا الادب العالي الرتب رسالة تنثر وترسل وأبيات تنظم وتفصل تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الازهار وتتصل هذه اتصال القلائد في نحور الخرائد ومازال في أفقنا هذا الاندلسي القصي الى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين قوم هم ما هم طيب مكاسر وصفاء جواهر وعذوبة موارد ومصادر لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى بجفون المؤرق وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الاعشى ببنات المحلق فصبوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم وباهوا غرر الضحى والاصائل بعجائب الاشعار والرسائل نثر لو رآه البديع لنسي اسمه أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح الا أن أهل هذا الافق أبوا الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا يد فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات

عبد الله الكنزاني وكان شاعرا مجيدا أتته امرأة مات ولدها فسألته أن يرثيه فقال

تبكي عليه بشجو * فقلت لا تندبيه
هذا زمان عجيب * قد عاش من مات فيه

وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع بن سالم وقال انه توفي بعد التسعين وخمسمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونة الخزاعي العابد من أهل قسطنطانية عمل دانية أخذ القرا آت عن ابن هذيل وسمع منه ومن ابن النعمة ببلنسية ورحل حاجا فأدى الفريضة ودخل الاسكندرية مرافقا لمن سمع من السلفي ولم يسمع منه هو شيأ قال ابن الابار فيما علمت وقفل الى بلده مائلا الى الزهد والاعراض عن الدنيا وكان شيخ المتصوفة في وقته وعلا ذكره وبعد صيته في العبادة الا انه كانت فيه غفلة قال ابن الابار رأيته اذ قدم بلنسية لاحياء ليلة النصف من شعبان سنة احدى عشرة وستمائة وتوفي عن سن عالية تقارب المائة منتصف ذي قعدة سنة أربع وعشرين وستمائة وشهد جنازته بشر كثير من جهات شتى وانتاب الناس قبره دهرا طويلا يتبركون بزيارته الى حين اجلاء الروم من كان بشاركهم من المسلمين ببلاد شرق الاندلس التي تغلبوا عليها وذلك في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة *(ومنهم أبو جعفر النحوي أندلسي نزل مصر وكان من رؤساء أهل العلم بالنحو وممن له حال جليلة ذكره الطبني فيما حكاه ابن الابار *(ومنهم أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله الخزرجي القرطبي وكناه بعضهم أبا الفضل سمع ببلده من أبي محمد بن عتاب وغيره ورحل حاجا فأدى الفريضة وكان أديبا ناظما كتب عنه أبو محمد العثماني بالاسكندرية بعض شعره *(ومنهم أبو الحسن جهور بن خلف بن أبي عمر بن قاسم بن ثابت المعافري رحل حاجا الى المشرق فأدى الفريضة وسمع بالاسكندرية من أبي طاهر السلفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وسمع أيضا من غيره وطال مكثه هنالك وهو فيما رجحه بعضهم من أهل غرب الاندلس *(ومنهم أبو علي الحسن بن حفص ابن الحسن البهراني الاندلسي رحل وتجول ببلاد المشرق فسمع أبا محمد عبد الله بن حموية وأبا حامد احمد بن محمد بن رجاء بسرخس وأبا محمد بن أبي شريح بهراة وأبا عبد الله الحسين بن عبد الله المقلي بالاهواز وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادي وأبا حامد أحمد بن الخليل وأبا حاتم حامد بن العباس وأبا محمد الحسن بن رشيق بمصر وقدم دمشق فروى عنه من أهلها تمام بن محمد وبنيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربي وغيره وذكره ابن عساكر وقال أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن علي بن فطيمة وأبو القاسم زاهر بن طاهر قالا انا أبو بكر أحمد بن منصور انا أبو علي الحسن بن جعفر القضاعي انا الحسن بن رشيق بمصر انا المفضل بن محمد الجندي انا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري قال سمعت مالك بن أنس يقول لا يحمل العلم عن أهل البدع كلهم ولا يحمل العلم عمن لم يعرف بالطلب ومجالسة أهل العلم ولا يحمل عمن يكذب في حديث الناس وان كان في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا لان الحديث والعلم اذا سمع من العالم فقد جعل حجة بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى وانما قال فيه القضاعي لانه بران من قضاعة

قوله ابن جعفر هكذا في النسخ وهو مخالف لما في صدر الترجمة من انه ابن حفص فلعل أحدهما محرف عن الآخر وليحرر اه مصححه

قضاعة *(ومنهم أبو علي) الحسن بن خلف بن يحيى بن ابراهيم بن محمد الاموي من أهل دانية ويعرف بابن برنجال سمع من أبي بكر بن صاحب الاحباس وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما وله رحلة حج فيها وسمع من أبي اسحق ابراهيم بن صالح الهروي وببيت المقدس من أبي الفتح نصر بن ابراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة وبعسقلان من أبي عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد التجيبي وأخذ عنه كتاب الوقف والابتداء لابن الانباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه وكان فقيها على مذهب مالك وولي الاحكام ببلده وحدث وأخذ عنه وسمع الناس منه بالاسكندرية سنة تسع وستين ثم بدانية سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة وتوفي في نحو الخمسمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو علي) الحسن بن ابراهيم ابن محمد بن يقي الجذامي المالقي روى بقرطبة عن أبي محمد بن عات وعن أبي سكرة الصدفي بمرسية سنة ثمان وخمسمائة وصحب أبا مروان بن مرة وكان من أهل الرواية والتقييد وكانت له رحلة سمع فيها من أبي الطاهر السلفي مجالسه التي أملاها بسلماس برجب سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما ألفي بخط السلفي وفي رحلته لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزيل مكة وحدث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتنوخي من أهل الاسكندرية بكتاب الاستيعاب لابن عبد البر وأجازه له اجازة عامة في السنة السابقة وقال ابن عساكر في تاريخه وذكر أبا ذر الهروي سمعت أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ الاندلسي بنيسابور يقول سمعت أبا علي الحسن بن علي الانصاري البطليوسي قال ابن عساكر وقد لقيته ولم أسمعها منه قال سمعت أبا علي الحسن بن ابراهيم بن يقي الجذامي المالقي يقول سمعت بعض الشيوخ يقول قيل لابي ذر الهروي أنت من هراة فمن أين تمذهبت لمالك والاشعري فقال اني قدمت بغداد أطلب الحديث فلزمت الدارقطني فلما كان في بعض الايام كنت معه فاجتاز به القاضي أبو بكر بن الطيب فأظهر الدارقطني من اكرامه ما تعجبت منه فلما فارقه قلت أيها الشيخ الامام من هذا الذي أظهرت من اكرامه ما رأيت فقال أو ما تعرفه قلت لا فقال هذا سيف السنة أبو بكر الاشعري فلزمت القاضي منذ ذلك واقتديت به في مذهبه انتهى *(ومنهم أبو علي) الحسن بن علي بن الحسين بن عمر الانصاري البطليوسي رحل الى المشرق فأدى الفريضة وتجول هنالك ولقي أبا الحسن ابن الفرج الصقلي وأبا عبد الله الفراوي فسمع منهما الصحيحين بعلو وسمع من أبي الفتح ناصر بن أبي علي الطوسي سنن أبي داود وحدث بالموطا عن أبي بكر الطرطوشي وله أيضا رواية عن زاهر بن طاهر الشحامي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وأبي محمد الحريري سمع منه مقاماته الخمسين ببستانه من بغداد ونزل بمكة وجاور بها وحدث فيها وفي غيرها وأسن وكان ثقة مسندا روى عنه أبو عبد الله بن أبي الصيف اليمني وأبو حفص ابن شراحيل الاندلسي وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الاربلي وسمع منه في صفر سنة ست وستين وخمسمائة وقد لقيه أبو القاسم بن عساكر الحافظ وروى عنه *(ومنهم أبو علي) الحسن بن محمد بن الحسن الانصاري من أهل المرية عمل بلنسية ويعرف بابن الرهيل سمع من أبي الحسن بن النعمة كثيرا واختص به وعنه أخذ القراآت وسمع من ابن هذيل أيضا

ثم رحل حاجا فلقي بالاسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السلفي وأبا عبد الله بن الحضرمي وسمع منهما وجاور بمكة وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري وكان يرويه عن أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي عن أبيه وسمع أيضا من أبي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي وأجازه أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمي وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي بجاية عند صدره في ربيع الاول سنة سبع وسبعين وقفل الى بلده فلزم الانقطاع والانقباض عن الناس والاقبال على ما يعنيه وكان قد خطب به قبل رحلته وحكى التجيبي أن طلبة الاسكندرية تزاحموا عليه لسماع التيسير لابي عمرو المقرى منه بروايته عن ابن هذيل سماعا في سنة ثلاث وخمسين وصارت له بذلك عندهم وجاهة وبعد قفوله أصابه خدر منعه من التصرف وكان الصلاح غالبا عليه وتوفي غدوة الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى * (ومنهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حي التجيبي القرطبي أخذ علم العدد والهندسة عن أبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن برغوث وكان كلفا بصناعة التعديل وله زيج مختصر ذكره القاضي صاعد ونسبه وحكى انه خرج من الاندلس في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة بعد أن نالته بها وبالبحر محن شداد ولحق بمصر ثم رحل عنها الى اليمن واتصل بأميرها فحظي عنده وبعثه رسولا الى القائم بأمر الله الخليفة ببغداد ونال هنالك دنيا عريضة وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ست وخمسين وأربعمائة رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو يوسف حماد بن الوليد الكلاعي أخذ بقرطبة عن ابي المطرف القنازعي وغيره ورحل الى المشرق وحدث بالاسكندرية فسمع منه بها يحيى بن ابراهيم بن عثمان بن شبل شرح الاعتقاد من تأليفه ورسالة قمع الحرص وقصر الامل والحث على العمل وذلك في سنة سبع وأربعين وأربعمائة ولقيه هنالك أبو مروان الطبني فسمع منه بعض فوائده * (ومنهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد الله بن جبير من أهل طرطوشة يعرف بالجبيري وهو والد أبي عبيد القاسم بن خلف الجبيري الفقيه وكانت له رحلة الى المشرق ومعه رحل ابنه وهو صغير وكان من أهل العلم والنزاهة وعليه نزل القاضي منذر بن سعيد بطرطوشة في ولايته قضاء الثغور الشرقية قال ابو عبيد نزل القاضي منذر بن سعيد على أبي بطرطوشة وهو يومئذ يتولى القضاء في الثغور الشرقية قبل أن يلي قضاء الجماعة بقرطبة فأنزله في بيته الذي كان يسكنه فكان اذا تفرغ نظر في كتب أبي فقرع على يديه كتاب فيه ارجوزة ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم ولم يذكر عليا فيهم ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان الى عبد الرحمن بن محمد فلما رأى ذلك منذر غضب وسب ابن عبد ربه وكتب في حاشية الكتاب

أوما علي لا برحت ملعنا * يا ابن الخبيثة عندكم بامام

رب الكساء وخير آل محمد * داني الولاء مقدم الاسلام

قال أبو عبيد والابيات بخطه في حاشية كتاب أبي الى الساعة وكانت ولاية منذر للثغور مع الاشراف على العمال بها والنظر في المختلفين من بلاد الافرنج اليها سنة ثلاثين

وثلثمائة

وثلثمائة *(ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف الغرناطي) له رحلة روى فيها بالاسكندرية عن مهدي بن يوسف الوراق وحدث عنه أبو العباس بن عيسى الدالي بالتلقين للقاضي عبد الوهاب *(ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن خلاون القنطري) من قنطرة السيف وسكن بطليوس ويعرف بابن الروية رحل حاجا فأدى الفريضة ولقي بمكة رزين بن معاوية الاندلسي فحمل عنه كتابه في تجريد الصحاح سنة خمس وخمسمائة وفيها حج وقفل الى بلده بعد ذلك وكان فقيها مشاورا حدث عنه ابن خير في كتابه اليه من بطليوس في نحو الثلاثين وخمسمائة *(ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الاندلسي) رحل حاجا الى المشرق وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلثمائة وأبا بكر ميسرة بن مسلم الصدفي حدث وأخذ عنه *(ومنهم طاهر الاندلسي) من أهل مالقة يكنى أبا الحسين رحل الى قرطبة وخرج منها لما دخلها البرابر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة فلم يزل بمكة الى حدود الخمسين وأربعمائة وكان من أصحاب أبي عمر الطلمنكي وملازميه لقراءة القرآن وطلب العلم مع أبي محمد الشنتجالي وأبي أيوب الزاهد امام مسجد البكوانيين بقرطبة وجاور بمكة طويلا وأقرأ على مقربة من باب الصفا وكان الشيوخ يكرمونه ويفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام ذكره الطبني قال ابن الابار وأحسبه المذكور في برنامج الخولاني والذي قرأ لهم أكثر المدونة على أبي عمر أحمد بن محمد الزيات انتهى *(ومنهم أبو الطاهر الاندلسي) من أهل لبلة نزل مصر وكانت له حلقة بجامع عمرو بن العاص وكان رحمه الله تعالى نحويا له شعر وترسيل وتعلق بالملوك للتأديب بالنحو ثم ترك ذلك *(ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش المنصفي المخزومي) والمنصفي نسبة الى قرية بغربي بلنسية ويكنى أيضا أبا الحسن رحل قبل العشرين وخمسمائة فأدى الفريضة وجاور بمكة وسمع بها من أبي عبد الله الحسين ابن علي الطبري ومن الشريف أبي محمد عبد الباقي الزهري المعروف بشقران أخذ عنه كتاب الاحياء للغزالي لمؤلفه وسمع بالاسكندرية من أبي بكر الطرطوشي وأبي الحسن ابن مشرف وأبي عبد الله الرازي وأبي طاهر السلفي وغيرهم ثم قفل الى بلده فحدث وأخذ الناس عنه وسمعوا منه وكان شيخا صالحا عالي الرواية ثقة قال ابن عباد لم ألق أفضل منه وكان مجاب الدعوة وحدث عنه بالسماع والاجازة جلة منهم أبو الحسن بن هذيل وأبو محمد القاسي وأبو مروان بن الصيقل وأبو العباس الاقليشي وأبو بكر بن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبد الحق الاشبيلي وأبو بكر بن جزي وغيرهم ثم رحل ثانية الى المشرق مع صهره أبي العباس الاقليشي وأبي الوليد بن خيرة الحافظ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وقد نيف على السبعين فأقام بمكة مجاورا الى أن توفي بها عن سن عالية رحمه الله تعالى سنة تسع وأربعين وخمسمائة *(ومنهم محمد بن ابراهيم بن مزين الاودي) من أهل اكشونية غربي الاندلس يكنى أبا مضر ولاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة وذلك في المحرم سنة سبعين ومائة وأقام أشهرا ثم استعفى فأعفاه ورحل حاجا فأدى الفريضة وسمع في رحلته امامنا مالك بن أنس وانصرف ومات

قوله ابن خير في نسخة ابن جبير اه

قوله الشنتجالي في نسخة الشنتجالي اه

قوله أبا الحسن في نسخة أبا الحسين اه

قوله هذيل في نسخة زهير اه

قوله الصيقل في نسخة الصقيل وفي أخرى وأبو مروان الصيقلي اه

عن سنّ عالية سنة ثلاث وثمانين ومائة وذكره ابن شعبان فى الرواة عن مالك وحكى انه روى عنه من قطع لسانه استوثى به عاما وأن مالكا قال له قد بلغنى أن بالاندلس من نبت لسانه فان لم ينبت أقيد انتهى •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد حيازالشاطبى الاوسى) قدم مصر وكان أخذ عن ابن برطلة وابن البراء وغيرهما وعمل فهرسة شيوخه على حروف المعجم وحج وعاد الى بلده ومات يوم الجمعة حادى عشر رجب سنة ثمانى عشرة وسبعمائة رحمه الله تعالى وغفرله •(ومنهم القاضى أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن على بن شريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمى الاندلسى الاشبيلى) قال أبو شامة هومن بيت كبير بالاندلس يعرف ببنى الباجى مشهور كثير العلماء والفضلاء وأصلهم من باجة القيروان وليس منهم القاضى أبو الوليد الباجى الفقيه فانه من بيت آخر من باجة الاندلس وقدم أبو مروان ساجا من بلاده فى البحر الى عكا من ساحل دمشق ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية وجده الاعلى أحمد بن عبد الله ابن محمد بن على قدم الى الديار المصرية وحج منها ومعه ولده محمد أخو عبد الملك ويعرف بصاحب الوثائق وسمعا بها من جماعة من العلماء وذكر أبو عبد الله الحميدى أحمد بن عبد الله هذا فى المقتبس وكناه أبا عمر وذكر انه سكن اشبيلية وأثنى عليه كثيرا وقال مات فى حدود الاربعمائة وروى عنه ابن عبد البر وغيره وأبوه عبد الله بن محمد بن على يعرف بالرواية ذكره الحميدى أيضا وذكر ابن بشكوال فى الصلة عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم وأثنى عليه وقال توفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وكان هذا الشيخ أبو مروان حسن الاخلاق فاضلا متواضعا محسنا وسمعته يقول وقد سئل اعارة شئ فبادر اليه ثم قال عندى فى قوله تعالى ويمنعون الماعون هو كل شئ واستفدنا من هذا الشيخ فائدة جليلة وهى معاينة قدر مد النبى صلى الله عليه وسلم وهو عندهم متوارث وقد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم فى كتابه المحلى وعايرت بذلك المد المد الذى لنا بدمشق حينئذ وهو المكيل الكبير فوجدت مدنا يسع صاعين الا يسيرا ووجدته تحوطا يسع صاعا ونصفا وشيأ فيكون مدان ثلاثة آصع زائدة وقرأت فى كتاب المحلى لابن حزم قال أبو محمد وخرط لى مدعلى تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن على الباجى وهو عند أكبرهم لا يفارق داره أخرجه الى ثقتى الذى كلفته ذلك على بن عبد الله ابن أحمد بن عبد الله بن على المذكور وذكر انه مد أبيه وأن جده أخذه وخرطه على مد أحمد بن خالد وأخبره أحمد بن خالد انه خرطه على مد يحيى بن يحيى على مد مالك قال أبو محمد ولاشك أن أحمد بن خالد صححه أيضا على مد محمد بن وضاح الذى صححه ابن وضاح بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام قال أبو محمد ثم كلته بالقمح الطيب ثم وزنته فوجدته رطلا واحدا ونصف رطل بالفلفلى لا يزيد حبة وكلته بالشعير الا انه لم يكن بالطيب فوجدته رطلا واحدا ونصف أوقية وسألت عن الرطل الفلفلى فقيل لى هو ست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم وفى تقدير ابن حزم نظر وتوفى هذا الشيخ بالقاهرة سنة

خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحج رحمه الله تعالى انتهى كلام أبي شامة وبعضه بالمعنى *(ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد الواعظ الاشبيلي ثم المصري) فاضل شرح الصدور بلفظه ومتكلم أحيا القلوب بوعظه أحواله مشهوره ومجالسه بالذكر معموره وله معرفة بالادب وخبرة بالشعر والخطب وكلام وجهه حسن ونظم يمتاز به على كثير من أرباب اللسن قاله ابن حبيب الحلبي قال وهو القائل

من أنت محبوبه من ذا يعبره * ومن صفوت له من ذا يكدره
هيهات عنك ملاح الكون تشغلني * والكل أعراض حسن أنت جوهره

وقال

اكشف البرقع عن بكر العقار * واجل في ليلك مع شمس النهار
وانهب العيش ودعه غلطا * ينقضي ما بين هتك واستتار
ان تكن شيخ خلاعات الصبا * فالبس الصبوة في خلع العذار
وارض بالعار وقل قبد آن لي * في هوى خمار كاسي لبس عار

وقال

حثوا الى نجد نياق الهوى * فثم واد جوه معشب
وانتظروا حتى يلوح الحمى * فالعيش فيه طيب طيب

وتوفي سنة أربع وثمانين وستمائة هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب ثم بعد كتبها حصل لي شك هل هو ممن ارتحل بنفسه من الاندلس أو ولد بمصر وانما ارتحل اليها بعض سلفه والله تعالى أعلم وكذا ذكر آخر يقول في سنة سبع وثمانين وستمائة وفيها توفي الامام زكي الدين أبو اسحق ابراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن علي الاشبيلي المالكي محدث عالم زاهد فيما ليس بدائم كثير الخير جزيل البر كان حسن المناهج قاضيا للحوائج محببا الى الصيامت والمعرب مقصد المن يرد من الحجاز والمغرب سمع بمصر ودمشق وحلب وأفتى ودرس مفيد الذوي الطلب ولم يبرح بعين بأياديه ويغيث وهو أول من باشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث وكانت وفاته بدمشق عن نيف وسبعين سنة انتهى *(ومنهم الاحق بالسبق والتقدم بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن القرطبي الاندلسي) الحافظ أحد الاعلام وصاحب التفسير والمسند أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن عيسى الاعشى وارتحل الى المشرق ولقي الكبار وسمع بالحجاز مصعبا الزهري وابراهيم بن المنذر وطبقتهما وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عباد وطائفة وبدمشق ابراهيم بن هشام الغساني وصفوان بن صالح وهشام بن عمار وجماعة وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته وبالكوفة يحيى بن عبد الحميد الحماني ومحمد بن عبد الله بن نمير وأبا بكر بن أبي شيبة وطائفة وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد وعني بالاثر عناية عظيمة لا مزيد عليها وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثلاثون رجلا وكان اماما زاهدا صوّاما صادقا كثير التهجد مجاب الدعوة قليل المثل مجتهدا لا يقلد بل يفتي بالاثر ولد في رمضان سنة احدى ومائتين وتوفي في جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين قال ابن حزم

قوله سنة ٦٨٤ في نسخة سنة ٦٨٢ اه

أقطع انه لم يؤلف في الاسلام مثل تفسيره لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره وكان محمد بن عبد الرحمن الاموي صاحب الاندلس محبا للعلوم عارفا بها فلما دخل بقي بن مخلد الاندلس بمصنف ابن أبي شيبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه وقام جماعة من العامة عليه ومنعته من قراءته فاستحضره الامير محمد واياهم وتصفح الكتاب جزأ جزأ حتى أتى على آخره ثم قال لخازن كتبه هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه فانظر في نسخه لنا وقال لبقي انشر علمك وارو ما عندك ونهاهم أن يتعرضوا له قال ابن حزم مسند بقي روى فيه عن ألف وثلثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف وما أعلم هذه الرتبة لاحد قبله مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم اربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد ابن منصور ثم ذكر تفسيره فقال فصارت تصانيف هذا الامام الفاضل قواعد الاسلام لا نظير لها وكان متخيرا لا يقلد أحدا وكان جاريا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي وذكر القشيري أن امرأة جاءته فقالت له ان ابني قد أسرته الفرنج واني لا انام الليل من شوقي اليه ولي دويرة أريد أن أبيعها لافتكه بها فان رأيت أن تشير الى من يأخذها ويسعى في فكاكه فليس لي ليل ولا نهار ولا صبر ولا قرار فقال نعم انصرفي حتى ننظر في ذلك ان شاء الله تعالى وأطرق الشيخ وحرك شفتيه يدعو الله عز وجل لولدها بالخلاص فذهبت فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها فقالت اسمع خبره يرحمك الله تعالى فقال كيف كان أمرك فقال اني كنت فيمن يخدم الملك ونحن في القيود فبينا انا ذات يوم أمشي اذ سقط القيد من رجلي فأقبل علي الموكل بي فشتمني وقال فككت القيد من رجليك فقلت لا والله ولكن سقط ولم أشعر فجاؤا بالحداد فأعاده وسمر مسماره وأيده ثم قمت فسقط أيضا فسألوا رهبانهم فقالوا ألك والدة فقلت نعم فقالوا انه قد استجيب دعاؤها له فأطلقوه فأطلقوني وخفروني الى أن وصلت الى بلاد الاسلام فسأله بقي عن الساعة التي سقط القيد من رجليه فيها فاذا هي الساعة التي دعا له فيها فرحمه الله تعالى * (ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الازدي المعروف بالمغامي من أهل قرطبة وأصله من طليطلة وهو من ذرية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وروى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته وارتحل الى مصر وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي وعاد الى الاندلس وكان فقيها نبيلا فصيحا بصيرا بالعربية ثم بعد عوده من مصر أقام بقرطبة أعواما ثم عاد الى مصر وأقام بها وسمع الناس منه وعظم أمره بالبلاد المشرقية ثم انه عاد الى المغرب فتوفي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين وبين بمصر الواضحة لابن حبيب وصنف شيأ في الرد على الشافعية في عشرة أجزاء وألف كتاب فضائل مالك رضي الله تعالى عنه والذي يرتضى أن من قلد اماما من المجتهدين لا ينبغي له أن يغض من قدر غيره وان كان ولا بد من الانتصار لمذهبه وتقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الائمة رضي الله تعالى عنهم فانهم على هدى من ربهم وقد ضل بعض الناس

فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقد حكى أبو عبد الله الوادي آشي حسبما رأيته بخطه أن القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ألف كتابا النصرة لمذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة جزء وسماه النصرة لمذهب امام دار الهجرة فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر فغرقه في النيل فقضى الله تعالى أن السلطان فرج بن برقوق سافر الى الشام ومعه القضاة الاربعة وغيرهم من الاعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد فلم يستطع شيأ وهزم الى مصر وتفرقت العساكر وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم ذلك القاضي فبقي في اسر تيمورلنك الى أن ارتحل عن الشام فأخذه معه أسيرا الى أن وصل الى الفرات فعرق فيه أعني القاضي فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور والجزاء من جنس العمل والله تعالى أعلم وقد نجى الله تعالى من هذه الورطة قاضي القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المالكي صاحب كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر فانه كان من جملة القضاة الحاضرين في الهزيمة فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون قدموني للكلام تنجوا ان شاء الله تعالى والا فأنتم أخبر فقدموه وعليه زي المغاربة فلما رآه تيمورلنك قال له ما أنت من هذه البلاد وتكلم معه فغلبه ابن خلدون بلسانه وكان آية الله الباهرة ثم قال لتيمورلنك اني ألفت كتابا في تاريخ العالم وحليته بذكرك أو كما قال ويقال ان تيمورلنك هو الذي قال له بلغني انك ألفت كتابا في تاريخ العالم ثم قال له تيمورلنك كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بخت نصر مع أنا خرشنا العالم فقال له ابن خلدون أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوي المراتب الجسيمة أو نحو هذا من العبارات فأعجبه ذلك وقيل انه لما أنس بابن خلدون قال له باخوند ما أسفي الا على كتاب ألفته في التاريخ وأنفقت فيه أيام عمري وقد تركته بمصر وان عمري الماضي ذهب ضياعا حيث لم يكن في خدمتك وتحت ظل دولتك والآن أذهب فآتي بهذا الكتاب وأرجع سريعا حتى أموت في خدمتك ونحو هذا من الكلام فأذن له فذهب ولم يعد اليه وقال بعض العلماء انه لم ينج من يد ذلك الجبار أحد من العلماء غير ابن خلدون ورجل آخر وقد ذكر ذلك ابن عربشاه في عجائب المقدور وقد طال عهدي به فليراجع وحكى غير واحد أن تيمورلنك لما أخذ حلب على الوجه المشهور في كتب التاريخ جمع العلماء فقال لهم على عادته في التعنت قتلى منا ومنكم جماعة فمن الذي في الجنة قتلانا أو قتلاكم وكان مراده ابراز سبب لقتلهم لانهم ان قالوا أحد الامرين هلكوا فقال بعض العلماء وأظنه ابن الشحنه دعوني أجيبه والا هلكتم فتركوه فقال له باخوند هذا السؤال أجاب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنه فغضب وقال كيف يمكن أن يجيب عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن لم نكن في زمانه أو كلاما هذا معناه فقال العالم المذكور روينا في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل ليذكر ويرى مكانه في الذي في الجنة فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الذي في الجنة

أو كما قال صلى الله عليه وسلم فتعجب تيمورلنك من هذا الجواب المفحم المسكت وحق له أن يتعجب منه فان هذا من الاجوبة التى يقل نظيرها وفيها التخلص على كل حال بالانصاف وقد وفق الله تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى يتخلص على يده أولئك الاقوام من الطاغية الجبار العنيد الذى جعل الله تعالى فتنته فى الاسلام وفتنة جنكزخان وأولاده من أعظم الفتن التى وهى بها المسلمون وذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما أقبل على تيمورلنك قال له دعنى أقبل يدك فقال ولم فقال له لانها مفاتيح الاقاليم يشير الى انه فتح خمسة أقاليم وأصابع يده خمسة فلكل اصبع اقليم وهذا أيضا من دهاء ابن خلدون وقد كدنا نخرج عن المقصود فى هذه الترجمة فلنصرف العنان والله سبحانه المستعان *(ومن الراحلين من الاندلس الامام الحافظ أبو بكر بن عطية رحمه الله تعالى قال الفتح شيخ العلم وحامل لوائه وحافظ حديث النبى صلى الله عليه وسلم وكوكب سمائه شرح الله تعالى لحفظه صدره وطاول به عمره مع كونه فى كل علم وافر النصيب مياسرا بالمعلى والرقيب رحل الى المشرق لاداء الفرض لابس برد من العمر الغض فروى وقيد ولقى العلماء وأسند وأبقى تلك المآثر وخلد نشأ فى بنية كريمه وارومة من الشرف غير مرومه لم يزل فيها على وجه الزمان أعلام علم وأرباب مجد ضخم قد قيدت مآثرهم الكتب وأطلعتهم التواريخ كالشهب وما برح الفقيه أبو بكر يتسنم كواهل المعارف وغواربها ويقيد شوارد المعانى وغرائبها لاستضلاعه بالادب الذى أحكم أصوله وفروعه وعمر برهة من شبيبته ربوعه وبرز فيه تبريز الجواد المستولى على الامد وجلى عن نفسه به كما جلى الصقال عن النصل البرد وشاهد ذلك ما أثبته من نظمه الذى يروق جلية وتفصيلا ويقوم على قوة العارضة دليلا فمن ذلك قوله يحذر من خطأ الزمان وينبه على التحفظ من الانسان

كن بذئب صائد مستأنسا * واذا أبصرت انسانا ففر
انما الانسان بحر ماله * ساحل فاحذره اياك الغرر
واجعل الناس كشخص واحد * ثم كن من ذلك الشخص حذر

وله فى الزهد

أيها المطرود من باب الرضا * كم يراك الله تلهو معرضا
كم الى كم أنت فى جهل الصبا * قد مضى عمر الصبا وانقرضا
قم اذا الليل دجت ظلمته * واستلذ الجفن أن يغتمضا
فضع الخد على الارض ونح * واقرع السن على ما قد مضى

وله فى هذا المعنى

قلبى يا قلبى المعنى * كم أنا أدعى فلا أجيب
كم أتمادى على ضلال * لا أرعوى لا ولا أنيب
ويلاه من سوء ما دهانى * يتوب غيرى ولا أتوب
واأسفى كيف برء دائى * دائى كما شاء الطبيب

لو كنت اذنبت لكنت اشكو * ما أنا من بابه قريب
أبعدني منه سوء فعلي * وهكذا يبعد المريب
مالي قدر وأي قدر * لمن أحاطت به الذنوب

وله في هذا المعنى أيضا

لا تجعلن رمضان شهر فكاهة * تلهيك فيه من القبيح فنونه
واعلم بأنك لا تنال قبوله * حتى تكون تصومه وتصونه

وله في مثل ذلك

اذا لم يكن في السمع مني تصاون * وفي بصري غض وفي مقولي صمت
فحظي اذا من صومي الجوع والظما * وان قلت اني صمت يوما فما صمت

وله في المعنى الاول

جفوت أناسا كنت آلف وصلهم * وما في الجفا عند الضرورة من باس
بلوت فلم أحمد وأصبحت آيسا * ولا شئ أشفى للنفوس من الياس
فلا تعذلوني في انقباضي فانني * رأيت جميع الشر في خلطة الناس

وله يعاتب بعض اخوانه

وكنت أظن أن جبال رضوى * تزول وأن ودك لا يزول
ولكن الامور لها اضطراب * واحوال ابن آدم تستحيل
فان يك بيننا وصل جميل * والا فليكن هجر طويل

وأما شعره الذي اقتدحه من مرخ الشباب وعفاره وكلامه الذي وشحه بما رب الغزل وأوطاره فانه نسي الى ما تناساه وتركه حين كساه العلم والورع من ملابسه ما كساه فمما وقع من ذلك قوله

كيف السلو ولي حبيب هاجر * قاسي الفؤاد يسومني تعذيبا
لما درى أن الخيال مواصلي * جعل السهاد على الجفون رقيبا

وله أيضا

يا من عهودي له تراعي * اما على عهدك الوثيق
ان شئت أن تسمعي غرامي * من مخبر عالم صدوق
فاستخبري قلبك المعنى * يخبرك عن قلبي المشوق

انتهى كلام الفتح وأبو بكر بن عطية المذكور هو والد الحافظ القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير رحمه الله تعالى الجميع قال في الاحاطة في حقه ما ملخصه الشيخ الامام المفسر عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي فقيه عالم بالتفسير والاحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والادب حسن التقييد له نظم ونثر ولي قضاء المرية سنة تسع وعشرين وخمسمائة في المحرم وكان غاية في الذكاء والدهاء والتهمم بالعلم سري الهمة في اقتناء الكتب توخى الحق وعدل في الحكم وأعز الخطة روى عن أبيه وأبوي علي الغساني والصدفي وطبقتهما وألف كتابه الوجيز في التفسير فأحسن فيه وأبدع وطار

بحسن نيته كل مطار وبرنامجا ضمنه مروياته وأسماء شيوخه فخر وأجاد ومن نظمه يندب عهد شبابه

سقيا لعهد شباب ظلت أمرح في * ريعانه وليالي العيش أسحار
أيام روض الصبا لم تذو أغصنه * ورونق العمر غض والهوى جار
والنفس تركض في تضمير شرتها * طرفا له في زمان اللهو احضار
عهدا كرعنا فيه أردية * كانت عيانا ومحت فهي آثار
مضى وأبقى بقلبي منه نار أسى * كوني سلاما وبردا فيه يانار
أبعد أن نعمت نفسي وأصبح في * ليل الشباب لصبح الليل اسفار
وقارعتني الليالي فانثنت كسرا * عن ضيغم ماله ناب وأظفار
الا سلاح خلال أخلصت فلها * في منهل المجد ايراد واصدار
أصبو الى روض عيش روضه خضل * أو ينثني بي عن العلياء اقصار
اذا فعطلت كفي من شبا قلم * آثاره في رياض العلم أزهار

مولده سنة احدى وثمانين وأربعمائة وتوفي في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة بلورقة قصد ميورقة يتولى قضاءها فصد عن دخولها وصرف منها الى لورقة اعتداء عليه رحمه الله تعالى انتهى وقال الفتح في حقه مانصه فتى العمر كهل العلاء حديث السن قديم السناء لبس الجلالة بردا ضافيا وورد ماء الاصالة صافيا وأوضح للفضل رسما عافيا وثنى من ذهنه للاغراض ثنانا فصدا وجعل فهمه شهابا رصدا سما الى رتب الكهول صغيرا وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيرا فسباها معنى وفصلا وحواها فرعا وأصلا وله أدب يسيل رضراضا ويستجل ألفاظا مبتدعة وأغراضا وقال فيه أيضا نبعة دوح العلاء ومحرز ملابس الثناء فذ الجلاله وواحد العصر والاصاله وقار كما رسا الهضب وأدب كما اطرد السلسل العذب وشيم تتضاءل لها قطع الرياض وتبادر الطرق به الى شريف الاغراض سابق الامجاد فاستولى على الامد بعبابه ولم ينض ثوب شبابه أدمن التعب في السود جاهدا فتى تناول الكواكب قاعدا وما اتكل على أوائله ولا سكن الى راحات بكره وأصائله أثره في كل معرفة علم في رأسه نار وطوالعه في آفاقها صبح أو منار وقد أثبت من نظمه المتبدع ما ينفح عبيرا ويتضح منيرا فمن ذلك قوله من قصيدة

وليلة جبت فيها الجذع مرتديا * بالسيف أسحب أذيالا من الظلم
والنجم حيران في بحر الدجى غرق * والبرق في طيلسان الليل كالعلم
كأنما الليل زنجي بكاهله * جرح فيثعب أحيانا له بدم انتهى

المقصود منه وهو أعني أبا بكر أحد مشايخ عياض حسبما ألمعت به في أزهار الرياض

(ومنهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح بالحاء المهملة ابن أحمد بن محمد الامام الحافظ الزاهد بقية السلف اللخمي الاشبيلي الشافعي أسره الافرنج سنة ست وأربعين وستمائة وخلص وقدم مصر سنة بضع وخمسين وقيل انه تمذهب للشافعي وتفقه على الشيخ

عز الدين بن عبد السلام قليلا وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الانصاري الحموي والمعين أحمد بن زين الدين واسمعيل بن عزوز والنجيب بن الصيقل وابن علان وبدمشق من ابن عبد الدائم وخلق وعني بالحديث واتقن ألفاظه وعرف رواته وحفاظه وفهم معانيه واتقى لبابه ومبانيه قال الصفدي وكان من كبار أئمة هذا الشان وممن يجري فيه وهو طلق اللسان هذا الى ما فيه من ديانه وورع وصيانه وكانت له حلقة اشتغال بكرة بالجامع الاموي يلازمها ويحوم عليه من الطلب حوائمها سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبي واستفاد منه وروى في تصانيفه عنه وعرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فأباها ولم يقبل حباها وكان بزي الصوفيه ومعه فقاهة بالشافعيه ولم يزل على حاله حتى أحزن الناس ابن فرح وتقدم الى الله وسرح وشيع الخلق جنازته وتولوا وضعه في القبر وحيازته وتوفي رحمه الله تعالى تاسع جمادي الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة وله قصيدة غزلية في ألقاب الحديث سمعها منه الدمياطي واليونيني وسمع منه البرزالي والمقاتلي والنابلسي وأبو محمد ابن الوليد ومات بتربة أم الصالح بالاسهال والقصيدة المذكورة هي

غرامي صحيح والرجا فيك معضل * وحزني ودمعي مطلق ومسلسل
وصبري عنكم يشهد العقل أنه * ضعيف ومتروك وذلي أجمل
ولا حسن الا سماع حديثكم * مشافهة يملى علي فأنقل
وأمري موقوف عليك وليس لي * على أحد الا عليك المعول
ولو كان مرفوعا اليك لكنت لي * على رغم عذالي ترق وتعدل
وعذل عذولي منكر لا أسيغه * وزور وتدليس يرد ويهمل
أقضي زماني فيك متصل الاسى * ومنقطعا عما به أتوصل
وها أنا في أكفان هجرك مدرج * تكلفني ما لا أطيق فأحمل
وأجريت دمعي بالدماء مدبجا * وما هو الا مهجتي تتحلل
فمتفق جفني وسهدي وعبرتي * ومفترق صبري وقلبي المبلبل
ومؤتلف شجوي ووجدي ولوعتي * ومختلف حظي وما منك آمل
خذ الوجد عني مسندا ومعنعنا * فغيري بموضوع الهوى يتحيل
وذي نبذ من مبهم الحب فاعتبر * وغامضه ان رمت شرحا أطول
عزيز بكم صب ذليل لعزكم * ومشهور أوصاف المحب التذلل
غريب يقاسي البعد عنك وماله * وحق الهوى عن داره متحول
فرفقا بمقطوع الوسائل ماله * اليك سبيل لا ولا عنك معدل
فلا زلت في عز منيع ورفعة * وما زلت تعلو بالتجني فانزل
أوري بسعدى والرباب وزينب * وأنت الذي تعني وأنت المؤمل
فخذ أولا من آخر ثم أولا * من النصف منه فهو فيه مكمل
أبر اذا أقسمت اني بحبه * أهيم وقلبي بالصبابة يشعل

وقد ذكرت شرحها في الجزء الثلاثين من تذكرتي انتهى كلام الصفدي وظاهر كلامه انه ابن فرح بفتح الراء والذي تلقيناه عن شيوخنا انه بسكون الراء وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم وهي وحدها دالة على تمكن الرجل رحمه الله تعالى *(ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر أبو الاصبغ الاموي الاندلسي سمع بمكة وبدمشق ومصر وغيرها وحدث عن سليمان بن أحمد بن يحيى بسنده الى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل بني أب عصبة ينتمون اليها الا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتي خلقوا من طينتي ويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله وحدث عن أبي العباس أحمد بن محمد البرذعي بسنده الى عبد الله بن المبارك قال كنت عند مالك بن أنس وهو يحدثنا فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرة ومالك يتغير لونه ويتصبر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس عنه قلت له يا أبا عبد الله قد رأيت منك عجبا قال نعم أنا صبرت اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد أبو الاصبغ المذكور بقرطبة وتوفي ببخارى سنة ٣٦٥ قال الحاكم أبو عبد الله رأيت أبا الاصبغ في المنام في بستان فيه خضرة ومياه جارية وفرش كثيرة وكأني أقول انه اله فقلت يا أبا الاصبغ بماذا وصلت اليه أبالحديث فقال اي والله وهل نجوت الا بالحديث قال ورأيته أيضا وهو يمشي بزي حسن ماذا يكون فقلت أنت أبو الاصبغ فقال نعم قلت ادع الله تعالى أن يجمعني واياك في الجنة فقال ان أمام الجنة أهوالا ثم رفع يديه وقال اللهم اجعله معي في الجنة بعد عمر طويل انتهى *(ومنهم القاضي أبو البقاء خالد البلوي الاندلسي رحمه الله تعالى وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد البلوي ووصفه الشاطبي بأنه الشيخ الفقيه القاضي الاعدل انتهى وهو صاحب الرحلة المسماة تاج المفرق في تحلية أهل المشرق ومما أنشده رحمه الله تعالى فيها لنفسه

ولقد جرى يوم النوى دمعي دما * حتى أشاع الناس انك فاني
والله ان عاد الزمان بقربنا * لكففت عن ذكر النوى وكفاني

وهذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرائد وقد قال رحمه الله تعالى فيها في ترجمة الولي نجم الدين الحجازي رضي الله تعالى عنه ما نصه وذكر لي رضي الله تعالى عنه قال مما أوصى به الجد الاكبر أبو الحجاج يوسف المذكور يعني سيدي أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحيم الاقصري القطب الغوث رضي الله تعالى عنه وأعاد علينا من بركاته وخواصه وأصدقائه قال اذا أدركتم الضرورة والفاقة فقولوا حسبي الله ربي الله يعلم اني في ضيق قال وذكر لي أيضا رضي الله تعالى عنه قال رأى هذا الجد يوسف المذكور النبي صلى الله عليه وسلم في النوم بعد أن سأل الله تعالى ذلك وقد كان أصابته فاقة فشكا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا رب يا رحيم يا رب يا رحيم الطف بي في قضائك ولا تول أمري أحدا سواك حتى ألقاك فلما قالها أذهب الله تعالى عنه فاقته قال وكان رحمه الله تعالى يوصي بها أصحابه

وأحبابه . انتهى ونسب بعضهم القاضي خالدا المذكور الى انتحال كمال العماد في البرق الشامي لان خالدا أكثر في رحلته من الاسجاع التي للعماد فلذا قال لسان الدين بن الخطيب فيه

خليلي ان يقض اجتماع بخالد * فقولا له قولا ولن تعدوا الحقا
سرقت العماد الاصبهاني برقه * وكيف ترى في شاعر سرق البرقا

وأظن أن لسان الدين كان منحرفا عنه ولذلك قال في كتابه خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف عندما جرى ذكر قنتورية وقاضيها خالد المذكور ماصورته لم يتخلف ولد عن والد وركب قاضيها ابن أبي خالد وقد شهرته النزعة الحجازيه ولبس من خشن الحجازيه وأرخى من البياض طيلسانا وتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا والبداوة تسمه على الخرطوم وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم انتهى ومن نظم أبي البقاء خالد البلوي المذكور قوله

أتى العيد واعتاد الاحبة بعضهم * ببعض وأحباب المتيم قد بانوا
وأضحى وقد ضحوا بقربانهم وما * لديه سوى حمر المدامع قربان

وقال في رحلته انه قال هذين البيتين بديهة بمصلى تونس في عيد النحر من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ومن نظمه أيضا قوله رحمه الله تعالى

ومستنكر شيبي وماذهب الصبا * ولا جف ابناع الشبيبة من غصني
فقلت فراق للاحبة مؤذن * بشيبي وان كنت ابن عشرين من سني

ومحاسنه رحمه الله تعالى كثيرة وفي الرحلة منها جملة * (ومنهم برهان الدين أبو اسحق بن الحاج ابراهيم النميري الغرناطي وهو أيضا مذكور في ترجمة ابن الخطيب بما يغني عن تكرير اسمه هنا وقال رحمه الله تعالى في رحلته أخبرني شيخنا ومفتي الشيخ الامام الصالح أبا عبد الله محمد المعروف بخليل التوزري امام المالكية بالحرم الشريف رضي الله تعالى عنه قال اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كفا للشر تي عن الناس خصوصا أذى الغيبة نحو خمسين ليلة أردت أن أدعو لطائفة من أصحابي بمطالب مختلفة كل بحسب نظري فيه يومئذ فأدركتني حيرة في التمييز والتخصيص فألهمت أن قلت بديهة

شهدنا بتقصير ألبابنا * لحسن اختيارك أولى بنا
وأنت البصير بأعدائنا * وأنت البصير بأحبابنا

قال ثم أردفتها بدعاء وهو اللهم يامن لا يعلم خيره الا هو أنت أعلم بأعدائنا وأوداتنا فافعل بكل منهم ما يناسب حسن اختيارك لنا حسبما علمته منى وكفى بك عليما وكفى بك قديرا وكفى بك بصيرا وكفى بك لطيفا وكفى بك خبيرا وكفى بك نصيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا * وقال ابن الحاج المذكور في الرحلة المذكورة اذا التقى الرجل بعدوه وهو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف كهيعص حمعسق وليعقد بكل حرف منها اصبعا يبدأ بابهام يده اليمنى ويختم بابهام يده اليسرى فاذا قرب من عدوه فليقرأ في نفسه سورة الفيل فاذا وصل الى قوله ترميهم

فليكررها وكلما كررها فتح اصبعا من أصابعه المعقودة تجاه العدو فيكررها عشر مرات ويفتح جميع أصابعه فاذا فعل ذلك أمن من شره ان شاء الله تعالى وهو مجرب انتهى

ومن بديع نظم أبي اسحق بن الحاج النميري المذكور قوله

يارب كأس لم يسغ شمولها * فاعجب لها جسما بغير مزاج
لما رأينا السحر من اشكالها * جسلا انسبناه الى الزجاج

وله فيما أظن

له شفة أضاعوا النشر فيها * بلثم حين سدت ثغر بدري
فما أشهى لقلبي ما أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

وهو تضمين حسن *(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق امام النحاة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي الاثري الغرناطي) قال ابن مرزوق الخطيب في حقه هو شيخ النحاة بالديار المصريه وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصوريه انتهت اليه رياسة التبريز في علم العربية واللغة والحديث سمعت عليه وقرأت وأنشدني الكثير واذا أنشدني شيأ ولم أقيده استعاده مني فلم أحفظه وأنشدني وكنت أظنه لنفسه ارتجالا الى أن أخبرني أحد أصحابنا عنه انه أخبره انهما لابي الحسن التجاني أنشدهما له بيته بالمدرسة الصالحية رحمه الله تعالى

ان الذي يروي ولكنه * يحفظ ما يروي ولا يكتب
كصخرة تنبع أمواجها * تسقي الاراضي وهي لا تشرب

قال ورويت عنه تآليف ابن أبي الاحوص منها التبيان في أحكام القرآن والمعرب المفهم في شرح مسلم ولم أقف عليه والوسامه في أحكام القسامه والمشرع السلسل في الحديث المسلسل وغير ذلك وحدثني بسنن أبي داود عن ابن خطيب المزه عن أبي حفص بن طبرزذ عن أبي البدر الكرخي ومفلح الرومي عن أبي بكر بن ثابت الخطيب عن أبي عمر الهاشمي عن اللؤلؤي عن أبي داود وبسنن النسائي عن جماعة عن ابن باقا عن أبي زرعة عن أبي حمد الدوسي عن أبي نصر الكسار عن ابن السني عن النسائي وبالموطا عن أبي جعفر بن الطباع بسنده وشكوت اليه يوما ما يلقاه الغريب من اذاية العداة فأنشدني لنفسه

عداتي لهم فضل علي ومنة * فلا أذهب الرحمن عني الاعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها * وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وأنشدني أيضا من مداعباته وله في ذلك النظم الكثير مع طهارته وفضله

علقته سبجي اللون قادحه * ما ابيض منه سوى ثغر حكى الدررا
قد صاغه من سواد العين خالقه * فكل عين اليه تدمن النظرا

وأنشدني في جاهل لبس صوفا وزهي فيه

أيا كاسيا من جيد الصوف نفسه * ويا عاريا من كل فضل ومن كيس
أتزهى بصوف وهو بالامس مصبح * على نعجة واليوم أمسى على تيس

قوله فلم أحفظه هكذا في النسخ ولعله محرف والاصل حتى أحفظه أو لاحفظه أو نحو ذلك تأمل اه مصححه

انتهى

انتهى ما اختصرته من كلام الخطيب بن مرزوق وأنشد الرحالة ابن جابر الوادى آشى لابى حيان قوله

وقصر آمالى مآلى الى الردى * وانى وان طال المدى سوف أهلك
فصنت بماء الوجه نفسا أبية * وجادت يمينى بالذى كنت أملك

ووقفت على أعيان العصر وأعوان النصر للصفدى فوجدت فيه ترجمة أبى حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد وهى الشيخ الامام العالم العلامة الفريد الكامل حجة العرب مالك أزمة الادب أثير الدين أبو حيان الاندلسى الجيانى بالجيم والياء آخر الحروف مشددة وبعد الالف نون كان أمير المؤمنين فى النحو والشمس السافرة شتاء فى اليوم الصحو والمتصرف فى هذا العلم فاليه الاثبات والمحو لو عاصر أئمة البصرة لبصرهم أو أهل الكوفة لكف عنهم اتباعهم السواد وحذرهم نزل منه كتاب سيبويه فى وطنه بعد أن كان طريدا وأصبح به التسهيل بعد تعقيده مفيدا وجعل سرحة شرحه جنة راقت النواظر توريدا ملأ الزمان تصانيف وأمال عنق الايام بالتآليف تخرج به أئمة فى هذا الفن وروق لهم فى عصره منه سلافة الدن فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضا غير حبيب أو عيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو محدب أو الخليل لكان بعينه قذاه أو سيبويه لما تردى من مسئلة الزنبورية برداه أو الكسائى لاعراه حلة جاهه عند الرشيد وأناسه أو الفراء لفر منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه أو اليزيدى لما ظهر نقصه من مكامنه أو الاخفش لاخفى جملة من محاسنه أو أبو عبيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية أو أبو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق بعربيته أو السكرى لما راق كلامه فى المعانى ولا حلا أو المازنى لما زانه قوله ان مصابكم رجلا أو قطرب لما دب فى العربية ولا درج أو ثعلب لاستكن بمكره فى وكره وللمخرج أو المبرد لاصبحت كواه مفترة أو الزجاج لامست قواريره مكسرة أو ابن الوزان لعدم نقده أو الثمانينى لما تجاوز حده أو ابن باب لعلم أن قياسه ما اطرد أو ابن دريد ما بلع ريقه ولا ازدرد أو ابن قتيبة لاضاع رحله أو ابن السراج لمشى اذ رأى وحله أو ابن الخشاب لاضرم فيه نارا ولم يجد معه نورا أو ابن الخباز لما سجر له تنورا او ابن القواس لما أغرق فى نزعه أو ابن يعيش لاوقعه فى نزعه أو ابن خروف لما وجد له مرعى أو ابن اياز لما وجد لاوازه وقعا أو ابن الطراوة لم يكن نحوه طريا أو الدباج لكان من حلته الرائعة عريا وعلى الجملة فكان امام النحاة فى عصره شرقا وغربا وفريد هذا الفن الذى بعدا وقربا وفيه قلت

سلطان علم النحو استاذنا الشيخ اثير الدين حبر الانام
فلا تقل زيد وعمرو فما * فى النحو معه لسواه كلام

خدم هذا العلم مدة تقارب الثمانين وسلك من غرائبه وغوامضه طرقا متشعبة الافانين ولم يزل على حاله الى أن دخل فى خبر كان وتبدلت حركاته بالاسكان وتوفى رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة فى يوم السبت بعد العصر الثامن والعشرين من صفر سنة

خمس وأربعين وسبعمائة ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر وصلى عليه بالجامع الاموي بدمشق صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر ومولده بمدينة مطخشارش في أخريات شوال سنة أربع وخمسين وستمائة وقلت أنا أرثيه رحمه الله تعالى

مات أثير الدين شيخ الورى * فاستعر البارق واستعبرا
ورق من حزن نسيم الصبا * واعتل في الاسحار لما سرى
وصادحات الايك في نوحها * رثته في السجع على حرف را
يا عين جودي بالدموع التي * يروى بها ما ضمه من ثرى
واجرى دما فالخطب في شأنه * قد اقتضى أكثر مما جرى
مات امام كان في فنه * يرى اماما والورى من ورا
أمسى منادى للبلى مفردا * فضمه القبر على ما ترى
يا أسفا كان هدى ظاهرا * فعاد في تربته مضمرا
وكان جمع الفضل في عصره * صح فلما أن قضى كسرا
وعرّف الفضل به برهة * والآن لما أن مضى نكرا
وكان ممنوعا من الصرف لا * يطرق من وافاه خطب عرا
لا أفعل التفضيل ما بينه * وبين من أعرفه في الورى
لا بدل عن نعته بالتقى * ففعله كان له مصدرا
لم يدّغم في اللحد الا وقد * فك من الصبر وثيق العرى
بكى له زيد وعمرو فمن * أمثلة النحو ومن قررا
ما أعقد التسهيل من بعده * فكم له من عسرة يسرا
وجسر الناس على خوضه * اذ كان في النحو قد استبحرا
من بعده قد حال تمييزه * وحظه قد رجع القهقرى
شارك من قد ساد في فنه * وكم له فن به استأثرا
دأب بني الآداب أن يغسلوا * بدمعهم فيه بقايا الكرى
والنحو قد سار الردى نحوه * والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده * يلقى الذي في ضبطها قررا
تفسيره البحر المحيط الذي * يهدى الى وراده الجوهرا
فوائد من فضله جمة * عليه فيها نعقد الخنصرا
وكان ثبتا نقله حجة * مثل ضياء الصبح ان أسفرا
ورحله في سنة المصطفى * أصدق من يسمع ان أخبرا
له الاسانيد التي قد علت * فاستفلت عنها سوامي الذرا
ساوى بها الاحفاد اجدادهم * فاعجب لماض فاته من طرا
وشاعرا في نظمه مفلقا * كم حرر اللفظ وكم حبرا
له معان كلما خطها * تستر ما رقم في تسترا

أفديه من ماض لامر الردى * مستقبلا من ربه بالقرى
ما بات فى أبيض أكفانه * الاوأضحى سندسا أخضرا
تصافح الحور له راحة * كم تعبت فى كل ما سطرا
ان مات فالذكر له خالد * يحيا به من قبل أن ينشرا
جادثرى واراه غيث اذا * مساه بالسقى له بكرا
وخصه من ربه رحمة * توردهـ فى حشره الكوثرا

وكان قد قرأ القرا آت على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن على بن عبد الله نحوا من عشرين ختمة افرادا وجمعا ثم على الخطيب الحافظ أبي جعفر أحمد الغرناطي المعروف بالطباع بغرناطة ثم قرأ السبعة الى آخر سورة الحجر على الخطيب الحافظ أبي على الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الاحوص بمالقة ثم انه قدم الاسكندرية وقرأ القرا آت على عبد النصير بن على بن يحيي المربوطي ثم قدم مصر فقرأ بها القرا آت على أبي الطاهر اسمعيل بن هبة الله المليجي وسمع الكثير على الجم الغفير بجزيرة الاندلس وبلاد افريقية والاسكندرية وديار مصر والحجاز وحصل الاجازات من الشام والعراق وغير ذلك واجتهد فى طلب التحصيل والتقييد والكتابة ولم أرفى أشياخى أكثر اشتغالا منه لانى لم أره قط الا يسمع أو يشتغل أو يكتب ولم أره على غير ذلك وله اقبال على الطلبة الاذكيا وعنده تعظيم لهم ونظم ونثر وله الموشحات البديعة وهو ثبت فيما ينقله محرر لما يقوله عارف باللغة ضابط لالفاظها وأما النحو والصرف فهو امام الناس كلهم فيهما لم يذكر معه فى أقطار الارض غيره فى حياته وله اليد الطولى فى التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم خصوصا المغاربة وتقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من امالة وترقيق وتفخيم لانهم يجاورون بلاد الافرنج وأسماؤهم قريبة من لغاتهم وألقابهم كذلك وقيده وحرره وسأله شيخنا الذهبي أسئلة فيما يتعلق بذلك وأجابه عنها وله التصانيف التى سارت وطارت وانتشرت وما انتثرت وقرئت ودريت ونسخت وما فسخت أخلقت كتب الاقدمين وألهت المقيمين بمصر والقادمين وقرأ الناس عليه وصاروا أئمة وأشياخا فى حياته وهو الذى جسر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ورغبهم فى قراءتها وشرح لهم غامضها وخاض بهم لججها وفتح لهم مقفلها وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب هذه نحو الفقهاء وكان التزم أن لا يقرئ أحدا الا ان كان فى كتاب سيبويه أو فى التسهيل لابن مالك أو فى تصانيفه ولما قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين رحمه الله تعالى كثيرا وأخذ عنه كتب الادب وكان شيخنا حسن العمة مليح الوجه ظاهر اللون مشرب الحمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر فيها لم تكن كثة عبارته فصيحة بلغة الاندلس يعقد القاف قريبا من الكاف على انه لا ينطق بها فى القرآن الا فصيحة وسمعته يقول ما فى هذه البلاد من يعقد حرف القاف وكانت له خصوصية بالامير سيف الدين أرغون كافل الممالك ينبسط معه ويبيت عنده فى قلعة الجبل ولما توفيت ابنته نضار طلع الى السلطان الملك الناصر محمد وسأل منه أن يدفنها فى بيته داخل القاهرة فى البرقوقية فأذن له فى ذلك وكان أولا

يرى رأى الظاهرية ثم انه تمذهب للشافعى رضى الله تعالى عنه بحث على الشيخ علم الدين العراقى المحرر للرافعى ومختصر المنهاج للنووى وحفظ المنهاج الايسيرا وقرأ أصول الفقه على أستاذه أبى جعفر بن الزبير بحث عليه من الاشارة للباجى ومن المستصفى للغزالى وعلى الخطيب أبى الحسن بن فضيلة وعلى الشيخ علم الدين العراقى وعلى الشيخ شمس الدين الاصبهانى وعلى الشيخ علاء الدين الباجى وقرأ شيأ من أصول الدين على شيخه ابن الزبير وقرأ عليه شيأ من المنطق وقرأ أشياء من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادى وقرأ عليه شيأ من الارشاد للعميدى فى الخلاف ولكنه برع فى النحو وانتهت اليه الرياسة والمشيخة فيه وكان خاليا من الفلسفة والاعتزال والتجسيم وكان أولا يعتقد فى الشيخ شمس الدين بن تيمية وامتدحه بقصيدة ثم انه انحرف عنه لما وقف على كتاب العرش له قال الفاضل كمال الدين الادفوى ويجرى على مذهب كثير من النحويين فى تعصبه للامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه التعصب المتين قال حكى لى انه قال لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ان عليا رضى الله تعالى عنه عهد اليه النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق أتراه ما صدق فى هذا فقال صدق قال فقلت له فالذين سلوا السيوف فى وجهه يبغضونه أو يحبونه وغير ذلك قال وكان يسىء الظن بالناس كافة فاذا نقل له عن أحد خبر لا يتكيف به ويثنى عنه حتى عمن هو عنده مجروح فيقع فى ذم من هو بألسنة العالم ممدوح وبسبب ذلك وقع فى نفس جمع كبير منه ألم كثير انتهى قلت أنا لم أسمع منه فى حق أحد من الاحياء والاموات الا خيرا وما كنت أنقم عليه شيأ الا ما كان يبلغنى عنه من الحط على الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد على أنى أنا ما سمعت فى حقه شيأ نعم كان لا يثق بهؤلاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوما يا سيدى فكيف تعمل فى الشيخ أبى مدين فقال هو رجل مسلم دين والا ما كان يطير فى الهواء ولا يصلى الصلوات الخمس فى مكة كما يدعى فيه هؤلاء الاغمار وكان فيه رحمه الله تعالى خشوع يبكى اذا سمع القرآن ويجرى دمعه عند سماع الاشعار الغزلية وقال كمال الدين المذكور قال لى اذا قرأت أشعار العشق أميل اليها وكذلك أشعار الشجاعة تستميلنى وغيرهما الا أشعار الكرم ما تؤثر فى انتهى قلت كان يفتخر بالبخل كما يفتخر غيره بالكرم وكان يقول لى أوصيك احفظ دراهمك ويقال عنك بخيل ولا تحتج الى السفل وأنشدنى من لفظه لنفسه

وحاولك فلسا قد غدا فى حبائلى	* فتيصار جاه للنتاج من العقم
أأتعب فى تحصيله وأضيعه	* اذن كنت معتاضا من البرء بالسقم

قلت والذى أراه فيه انه طال عمره وتغرب وورد البلاد ولا شىء معه وتعب حتى حصل المناصب تعبا كثيرا وكان قد جرب الناس وحلب أشطر الدهر ومرت به حوادث فاستعمل الحزم وسمعته غير مرة يقول يكفى الفقير فى مصر أربعة أفلس يشترى له بائتة بفلسين وبفلس زيبا وبفلس كوزماء ويشترى ثانى يوم ليمونا بفلس يأكل به الخبز وكان يعيب على مشترى الكتب ويقول الله يرزق عقلا تعيش به أنا أى كتاب أردته

استعرته من خزائن الاوقاف واذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجد ذلك وأنشدني له اجازة

ان الدراهم والنساء كلاهما * لا تأمنن عليهما انسانا
ينزعن ذا اللب المتين عن التقى * فترى اساءة فعله احسانا

وأنشدني له من أبيات

أتى بشفيع ليس يمكن رده * دراهم بيض للجروح مراهم
تصير صعب الامر أهون ما يرى * وتقضي لبانات الفتى وهو نائم

ومن حزمه قوله عداني لهم فصل البيتين وقد مدحه كثير من الشعراء والكبار الفضلاء فنهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله

قد قلت لما أن سمعت مباحثا * في الذات قررها أجل مفيد
هذا أبو حيان قلت صدقتم * وبررتم هذا هو التوحيدي

وكان قد جاء يوما الى بيت الشيخ صدر الدين بن الوكيل فلم يجده فكتب بالجص على مصراع الباب فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال

قالوا أبو حيان غير مدافع * ملك النحاة فقلت بالاجماع
اسم الملوك على النقود وانني * شاهدت كنيته على المصراع

ومدحه شرف الدين بن الوحيد بقصيدة مطولة أولها

اليك أبا حيان أعملت أنيق * وملت الى حيث الركائب تلتقي
دعاني اليك الفضل فانقدت طائعا * ولبيت أحدوها بلفظي المصدق

ومدحه نجم الدين اسحق بن الملي التركي وسأله تكملة شرح التسهيل وأرسلها اليه من دمشق وأولها

تبدى فقلنا وجهه فلق الصبح * وكمله باليمن فيه وبالنجح
وسهلت تسهيل الفوائد محسنا * فكن شارحا صدري بتكملة الشرح

ومدحه مجير الدين عمر بن الملطي بقصيدة أولها

ياشيخ أهل الادب الباهر * من ناظم يلفى ومن ناثر

ومدحه نجم الدين يحيي الاسكندري بقصيدة أولها

ضيف ألم بنا من أبرع الناس * لا ناقض عهد أيامي ولا ناسي
عار من الكبر والادناس ذو شرف * لكنه من سرابيل العلا كاسي

ومدحه نجم الدين الطوفي بقصيدتين أول الاولى

أتراه بعد هجران يصل * ويرى في ثوب وصل مبتذل
قمر جار على أحلامنا * اذ تولاها بقد معتدل

وأول الثانيه

اعذروه فكريم من عذر * قرنه ذات بوجه كالقمر

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمي بقصيدة أولها

ان الاثير أبا حيان أحيانا * بنشره طى علم مات أحيانا

ومدحه القاضى ناصر الدين شافع بقصيدة أولها

فضضت عن العذب النمير ختامها * وفتحت عن زهر الرياض كمامها

ومدحه جماعة آخرون يطول ذكرهم وكتبت أنا اليه من الرحبة سنة ٧٢٩

لو كنت أملك من دهرى جناحين * لطرت لكنه فيكم جنى حينى
ياسادة نلت فى مصر بهم شرفا * أرقى به شرفا ينأى عن العين
وان يرى لسما كيوان ذكر علا * أحلنى فضلهم فوق السما كين
وليس غير أثير الدين آئلة * فساد ما شاد لى حقا بلا مين
حبر ولو قلت ان البحر رتبتها * من قبل صدقك الاقوام فى ذين
أحيا علوما أمات الدهر أكثرها * مذ جلدت خلدت ما بين دفتين
ياواحد العصر ماقولى بمتهم * ولا أحاشى امرأ بين الفريقين
هذى العلوم بدت من سيبويه كما * قالوا وفيك انتهت ياثانى اثنين
قدم لها وبودى لو اكون فدى * لما ينالك فى الايام من شين
ياسيبويه الورى فى الدهر لا عجب * اذا الخليل غدا يفديك بالعين

يقبل الارض وينهى ماهو عليه من الاشواق التى برحت بآلامها وأجرت الدموع دما وهذا الطرس الاحمر يشهد بدمها وأربت سحبها على السحائب وأين دوام هذه من ديمها وفرقت الاوصال على السقم لوجود عدمها

فياشوق ماأبقى ويالى من النوى * ويادمع ماأجرى ويا قلب ماأصبا

ويذكر ولاءه الذى تسجع به فى الارض الحمائم ويسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمائم وثناءه الذى يتضوع كالزهر بين الكمائم ويتسنم تسنم هامات الربا اذا ابتسمت من الربيع ملوّنات العمائم ويشهد الله على ماقد قلته والله سبحانه نعم الشهيد فكتب هو الجواب عن ذلك ولكنه عدم منى وأنشدته يوما لنفسى

قلت للكاتب الذى ماأراه * قط الا ونقط الدمع شكله
ان تخط الدموع فى الخط شيأ * مايسمى فقال خط ابن مقله

وأنشدنى هو من لفظه لنفسه

سبق الدمع بالمسير المطايا * اذ نوى من أحب عنى نقله
وأجاد الخطوط فى صفحة الخد ولم لا يجيد وهو ابن مقله

وأنشدنى فى مليح نوتى

كلفت بنوتى كأن قوامه * اذا يتثنى خوط من البان ناعم
مجاذفه فى كل قلب مجاذب * وهزاته للعاشقين هزائم

وأنشدته أنا لنفسى

ان نوتى مركب نحن فيه * هام فيه صب الفؤاد جريحه
أقلع القلب عن سلوى لما * أن بدا ثغره وقد طاب ريحه

وأنشدته

قوله نوّيتنا الخ البيتان من مخلع البسيط ويتطر فى وزن الشطر الاول من البيت الثانى اه مصححه

وأنشدته لنفسى أيضا

نوّيتنا حسنه بديع * وفيه بدر السماء مغرى
ماحك برّا الاوقانا * ياليت أنا نحك برّا

فأعجباه رحمه الله تعالى وزهزه لهما وأنشدنى هو لنفسه فى مليح أحدب

تعشقته أحدبا كيسا * يحاكى محبا حنين النعام
اذا كدت أسقط من فوقه * تعلقت من ظهره بالسنام

فأنشدته لنفسى

وأحدب رحت به مغرما * اذ لم تشاهد مثله عينى
لا غرو ان هام فؤادى به * وخصره مابين ردفين

وأنشدنى من لفظه لنفسه فى أعمى

ماضر حسن الذى أهواه أن سفى * كريمتيه بلا شين قد احتجبا
قد كانتا زهرتى روض وقد ذوتا * لكن حسنهما الفتان ماذهبا
كالسيف قد زال عنه صقله فغدا * أنكى وآلم فى قلب الذى ضربا

وأنشدته لنفسى فى ذلك

ورب أعمى وجهه روضة * تنزهى فيها كثير الديون
فى خده ورد غنيناه به * عن نرجس مافتحته العيون

وأنشدته أيضا لنفسى فى ذلك

فيا حسن أعمى لم يخف حد طرفه * محب غدا سكران فيه وماصحا
اذا ماادخل بات يرعى خدوده * غدا آمنا من مقلتيه الجوارحا

وكتبت اليه استدعاء وهو المسؤل من احسان سيدنا الامام العالم العلامة لسان العرب ترجمان الادب جامع الفضائل عمدة وسائل السائل حجة المقلدين زين المقلدين قطب المؤملين أفضل الآخرين وارث علوم الاولين صاحب اليد الطولى فى كل مكان ضيق والتصانيف التى تأخذ بمجامع القلب فكل ذى لب اليها شيق والمباحث التى أثارت الادلة الراجحة من مكامن أماكنها وقنصت أوابدها الجامحة من مواطئ مواطنها كشاف معضلات الاوائل سباق غايات قصر عن شأوها سحبان وائل فارع هضبات البلاغة فى اجتلاء اجتلابها وهى فى مرقى مرقدها سالب تيجان الفصاحة فى اقتصاء اقتضائها من فوق فرقدها حتى أبرز كلامه جنان فضل جنان من بعده عن الدخول اليها جان وأتى ببراهين وجوه حورها لم يطمثهن انس قبله ولا جان وأبدع خمائل نظم ونثر لاتصل الى أفنان فنونها يد جان أثير الدين أبى حيان لازال ميت العلم يحييه وهل عجب ذلك من أبى حيان

حتى ينال بنو العلوم مرامهم * ويحلهم دار المنى بأمان

اجازة كاتب هذه الاحرف مارواه فسح الله تعالى فى مدته من المسانيد والمصنفات والسنن والجاميع الحديثيه والتصانيف الادبيه نظما ونثرا الى غير ذلك من أصناف العلوم على

اختلاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها مما تلقاه ببلاد الاندلس وافريقيه والاسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازيه وغيرها من البلدان بقراءة أو سماع أو مناولة أو اجازة خاصة أو عامة كيفما تأدى ذلك اليه واجازة ماله أدام الله افادته من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثية والادبية وغيرها وماله من نظم ونثر اجازة خاصة وأن يثبت بخطه تصانيفه الى حين هذا التاريخ وأن يجيزه اجازة عامة لما يتجدد له من بعد ذلك على رأى من يراه ويجوزه منعما متفضلا ان شاء الله تعالى فكتب الجواب رحمه الله تعالى أعزك الله ظننت بانسان جميلا فغاليت وأبديت من الاحسان جزيلا وما باليت وصفت من هو القتام يظنه الناس سماء والسراب يحسبه الظمآن ماء يا ابن الكرام وأنت أبصر من يشيم أمع الروض النضير رعى الهشيم أما أغنتك فضائلك وفواضلك ومعارفك وعوارفك عن نغبة من دأما وتربة من يهما لقد تبلجت المهارق من نور صفحاتك وتأرجت الاكوان من أريج نفحاتك ولانت أعرف من يقصد للدرايه وأنقد من يعتمد عليه في الروايه لكنك أردت أن تكون من مبارفك وتتفضل من تالدك وطارفك وتجاوا الخامل في منصة انباهه وتنقذه من لكن الفهاهه فتشيدله ذكرا وتعلى له قدرا ولم يمكنه الا اسعافك فيما طلبت واجابتك فيما اليه نديت فان المالك لا يعصى والمتفضل المحسن لا يتصى وقد أجزت لك أيدك الله تعالى جميع ماروينه عن أشياخي بجزيرة الاندلس وبلاد افريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك بقراءة أو سماع اومناولة واجازة بمشافهة وكتابة ووجادة وجميع ما أجيز لي ان أرويه بالشام والعراق وغير ذلك وجميع ما صنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نظما ونثرا وجميع ما سأنات في هذا الاستدعاء فمن مروياتي الكتاب العزيز قرأته بقراءة السبعة على جماعة من أعلاهم الشيخ المسند المعمر فخر الدين أبو الطاهر اسمعيل بن هبة الله بن علي بن هبة الله المصري المليجي آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبي الجود والكتب الستة والموطأ ومسند عبد ابن حميد ومسند الدارمي ومسند الشافعي ومسند الطيالسي والمعجم الكبير للطبراني والمعجم الصغير له وسنن الدارقطني وغير ذلك وأما الاجزاء فكثيرة جدا ومن كتب النحو والآداب فأروي بالقراءة كتاب سيبويه والايضاح والتكملة والمفصل وجمل الزجاجي وغير ذلك والاشعار الستة والحماسة وديوان حبيب والمتنبي والمعري وأما شيوخي الذين رويت عنهم بالسماع أو القراءة فهم كثير واذكر الآن منهم جماعة فمنهم القاضي أبو علي الحسن بن عبد العزيز بن أبي الاحوص القرشي والمقري أبو جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الانصاري واسحق بن عبد الرحيم بن محمد بن عبد الملك بن درباس وأبو بكر بن عباس بن يحيى بن غريب القواس البغدادي وصفي الدين الحسين بن أبي منصور بن ظافر الخزرجي وأبو الحسين محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الاشعري ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الازدي بن الدهان وقطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني ورضي الدين محمد بن علي بن يوسف الانصاري الشاطبي اللغوي ونجيب الدين محمد بن

أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني ومكي بن محمد بن أبي القاسم بن حامد الاصبهاني الصفار ومحمد بن عمر بن محمد بن علي السعدي الضرير بن الفارض وزين الدين أبو بكر محمد بن اسمعيل بن عبد الله الانماطي ومحمد بن ابراهيم بن ترحم بن حازم المازني ومحمد بن الحسين بن الحسن بن ابراهيم الدارمي بن الخليلي ومحمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف الانصاري بن الخيمي ومحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر العنسي عرف بابن التين وعبد الله ابن محمد بن هرون بن عبد العزيز الطائي القرطبي وعبد الله بن نصر الله بن أحمد بن رسلان ابن قتيبان بن كامل الخزمي وعبد الله بن أحمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن فارس التميمي وعبد الرحمن بن يوسف بن يحيى بن يوسف بن خطيب المزة وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي المصري السكري وعبد العزيز بن عبد المنعم بن علي بن نصر بن الصيقل الحراني وعبد العزيز بن عبد القادر بن اسمعيل الغساني الصالحي الكتاني وعبد المعطي ابن عبد الكريم بن أبي المكارم بن منجي الخزرجي وعلي بن صالح بن أبي علي بن يحيى ابن اسمعيل الحسيني للبهنسي الجاور وغازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الحلاوي والفضل بن علي بن نصر بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الخزرجي ويوسف بن اسحق ابن أبي بكر الطبري المكي واليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر القشيري ومؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي وشامية بنت الحافظ ابي علي الحسن بن محمد بن محمد التيمية وزينب بنت عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي وممن كتبت عنه من مشاهير الادباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن علي ابن الفرج المالقي بن المرحل وأبو الحسن بن حازم بن محمد بن حازم الانصاري القرطاجني وأبو عبد الله بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الله الهذلي التطيلي وأبو عبد الله محمد بن محمد بن زنون المالقي وأبو عبد الله محمد بن عمر بن جبير الجياني العكي المالقي وأبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى الانصاري الجزار وأبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تولو القرشي وأبو حفص عمر بن محمد بن أبي علي الحسن المصري الوراق وأبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن ياسين الكومي التلمساني وأبو العباس أحمد بن أبي الفتح نصر الله بن باتكين القاهري وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن حماد بن محسن الصنهاجي البوصيري وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم المغرزي وممن أخذت عنه من القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد ابن عبد الرحمن الخشني الابذي وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي ابن الضائع وأبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفي وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري اللبلي وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن محمد ابن نصر الحلبي بن النحاس وممن لقيته من الظاهرية أبو العباس أحمد بن علي بن خالص الانصاري الاشبيلي الزاهد وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهري الشنتمري وجملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمائة شخص وخمسين وأما الذين أجازوني فعالم كثير جدا من أهل غرناطة ومالقة وسبتة وديار افريقية وديار مصر والحجاز والعراق والشام

قوله وعبد الرحمن في نسخة وعبد الرحيم اهـ

قوله الغسالي في نسخة الغساني اهـ

قوله الحسيني في نسخة الحسني اهـ

قوله ابن عبد الله في نسخة ابن عبد الوهاب

وأما ما صنفته فمن ذلك البحر المحيط فى تفسير القرآن العظيم اتحاف الاديب بما فى القرآن من الغريب كتاب الاسفار الملخص من كتاب الصفار شرحا لكتاب سيبويه كتاب التجريد لاحكام سيبويه كتاب التذييل والتكميل فى شرح التسهيل كتاب التخييل الملخص من شرح التسهيل كتاب التذكرة كتاب المبدع فى التصريف كتاب الموفور كتاب التقريب كتاب التدريب كتاب غاية الاحسان كتاب النكت الحسان كتاب الشذا فى مسألة كذا كتاب الفضل فى أحكام الفصل كتاب اللمحة كتاب الشذرة كتاب الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء كتاب عقد اللآلى كتاب نكت الامالى كتاب النافع فى قراءة نافع الاثير فى قراءة ابن كثير المورد الغمر فى قراءة أبى عمرو الروض الباسم فى قراءة عاصم المزن الهامر فى قراءة ابن عامر الرمزه فى قراءة حمزه تقريب النائى فى قراءة الكسائى غاية المطلوب فى قراءة يعقوب قصيدة الابر الجلى فى قراءة زيد بن على الوهاج فى اختصار المنهاج الانور الاجلى فى اختصار المحلى الحلل الحاليه فى أسانيد القرآن العاليه كتاب الاعلام بأركان الاسلام نثر الزهر ونظم الزهر نطر الحسى فى جواب أسئلة الذهبى فهرسة مسموعاتى نوافث السحر فى دمائث الشعر تحفة الندس فى نحاة الاندلس الابيات الوافيه فى علم القافيه جزء فى الحديث مشيخة ابن أبى المنصور كتاب الادراك للسان الاتراك زهو الملك فى نحو الترك نفحة المسك فى سيرة الترك كتاب الافعال فى لسان الترك منطق الخرس فى لسان الفرس وما لم يكمل تصنيفه كتاب مسلك الرشد فى تجريد مسائل نهاية ابن رشد كتاب منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك نهاية الاعراب فى علمى التصريف والاعراب رجز مجانى الهصر فى آداب وتواريخ لاهل العصر خلاصة التبيان فى علمى البديع والبيان رجز نور الغبش فى لسان الحبش المخبور فى لسان اليخمور قاله وكتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف ابن حيان وأنشدنى الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه فى صفات الحروف

اناها رلمستطيل أغن * كلما اشتد صارت النفس رخوه
أهمس القول وهو يجهر بى * واذا ما انخفضت أطهر علوه
فتح الوصل ثم أطبق هجرا * بصفير والقلب قلقل شجوه
لان دهرا ثم اغتدى ذا انحراف * وفشا السر مذ تكررت نحوه

وأنشدنى أيضا لنفسه

يقول لى العذول ولم أطعه * تسل فقد بدا للعب لحيه
تخيل أنها شانت حبيبى * وعندى أنها زين وحليه

وأنشدنى لنفسه أيضا

شوقى لذا المحيا الزاهر الزاهى * شوق شديد وجسمى الواهن الواهى
أسهرت طرفى وولهت الفؤاد هوى * فالطرف والقلب منى الساهر الساهى
نهبت قلبى وتنهى أن أبوح بما * يلقاه واشوقه للناهب الناهى

بهرت

بهرت بكل مليح بالبهاء فما * فى النيرين شبيه الباهر الباهى
لهجت بالحب لما أن لهوت به * عن كل شئ فويح اللاهج اللاهى

وأنشدنى من لفظه لنفسه

راض حبيبى عارض قد بدا * ياحسنه من عارض رائض
وظن قوم أن قلبى سلا * والاصل لا يعتد بالعارض

وأنشدنى من لفظه لنفسه

تعشقته شيخا كأن مشيبه * على وجنتيه ياسمين على ورد
أخا العقل يدرى ما يراد من الهوى * أمنت عليه من رقيب ومن صد
وقالوا الورى قسمان فى شرعة الهوى * أسود اللحى ناس وناس الى المرد
الا انى لو كنت أصبو لامرد * صبوت الى هيفاء مائسة القد
وسود اللحى أبصرت فيهم مشاركا * فأحببت أن أبقى بأبيضهم وحدى

وأنشدنى من لفظه لنفسه

الا ان ألحاظا بقلبى عوابثا * أطن بها هاروت أصبح نافثا
اذا رام ذو وجد سلوا منعنه * وكن على دين التصابى بواعثا
وقيدن من أنهى عن الحب مطلقا * وأسرعن للبلوى بمن كان رائثا
بروحى رشا من آل خاقان راحل * وان كان ما بين الجوانح لابثا
غدا واحدا فى الحسن للفضل ثانيا * وللبدر والشمس المنيرة ثالثا

وأنشدنى لنفسه ومن خطه نقلت

أسحر لتلك العين فى القلب أم وخز * ولين لذاك الجسم فى اللمس أم خز
وأملود ذا القد أم أسمر غدا * له أبدا فى قلب عاشقه هز
فتاة كساها الحسن أفخر حلة * فصار عليها من محاسنها طرز
وأهدى اليها الغصن لين قوامه * فماس كأن الغصن خامره العز
يضوع أديم الارض من نشر طيبها * ويخضر من آثارها تربه الجرز
وتختال فى برد الشباب اذا مضت * فينهضها قد ويقعدها عجز
أصابت فؤاد الصب منها بنظرة * فلا رقية تجدى المصاب ولا حرز

وأنشدنى اجازة فى مليح ابرص ومن خطه نقلت

وقالوا الذى قد صرت طوع جماله * ونفسك لاقت فى هواه نزاعها
به وضح تاباه نفس أولى النهى * وأفظع داء ما ينافى طباعها
فقلت لهم لا عيب فيه يشينه * ولا علة فيه يروم دفاعها
ولكنها شمس الضحى حين قابلت * محاسنه ألقت عليه شعاعها

وأنشدنى من لفظه لنفسه فى فحام

وعلقته مسود عين ووفرة * وثوب يعانى صنعة الفحم عن قصد
كأن خطوط الفحم فى وجناته * لطاخة مسك فى جنى من الورد

وأنشدني اجازة ومن خطه نقلت

سأل البدر هل تبدى أخوه * قلت يابدر لن تطيق طلوعا
كيف يبدو وأنت يابدر باد * أو بدران يطلعان جميعا

وأنشدني من لفظه لنفسه موشحة عارض بها شمس الدين محمد بن التلمساني

عاذلي في الاهيف الانس * لو رآه الآن قد عذرا
رشا قد زانه الحور
غصن من فوقه قمر
قمر من سحبه الشعر
ثغر من فيه أم درر
يال بين الدر واللعس * خمرة من ذاقها سكرا
وجنة بالردف أم كسل
ريقة بالثغر أم عسل
وردة بالخد أم خجل
كحل بالعين أم كحل
يالها من أعين نعس * جلبت لناظري سهرا
مذ نأى عن مقلتي وسني
ما أذيقا لذة الوسن
طال ما ألقاه من شجن
عجبا ضدان في بدن
بفؤادي جذوة القبس * وبعيني الماء منفجرا
قد أتاني الله بالفرج
اذ دنا مني أبو الفرج
قمر قد حل في المهج
كيف لا يخشى من الوهج
غيره لو صابه نفسي * ظنه من حره شررا
نصب العينين لي شركا
فانثنى والقلب قد ملكا
قمر أضحى له فلكا
قال لي يوما وقد ضحكا
أتجي من أرض اندلس * نحو مصر تعشق القمرا

وأما موشحة ابن التلمساني فهي

قم بجا او دجى الغلس * بهر الابصار مذ ظهرا
أمن من شينة الكاف

ذبت من حبه بالكلف
لم يزل يسعى الى تلفى
بركاب الدل والصلف
آه لولا أعين الحرس * نلت منه الوصل مقتدرا
يا أميرا جار مذ وليا
كيف لاترثى لمن بليا
فبثغر منك قد جليا
قد حلا طعما وقد حليا
و بما أوتيت من كيس * جد فما أبقيت مصطبرا
بدر تم فى الجمال سنى
وا لهذا لقبوه سنى
قد سبانى لذة الوسن
عجبا باهر حسن
هو خشفى وهو مفترسى * فاروعن أعجوبتى خبرا
لك خد يا أبا الفرج
زين بالتوريد والضرج
وحديث عاطر الارج
كم سبى قلبا بلا حرج
لورآك الغصن لم يمس * أورآك البدر لاستترا
يا مذيبا مهجتى كمدا
فقت فى الحسن البدور مدى
يا كحيلا كحله اعتمدا
عجبا أن تبرى الرمدا
و بسقم الناظرين كسى * جفنك السحار وانكسرا
وأنشدنى من لفظه لنفسه أيضا
ان كان ليل داج * وخاننا الاصباح * فنورها الوهاج * يغنى عن المصباح
سلافة تبدو * كالكوكب الازهر
مزاجها شهد * وعرفها عنبر
وحبذا الورد * منها وان اسكر
قلبى بها قد هاج * فتارانى صاح * عن ذلك المنهاج * وعن هوى يا صاح
وبى رشا أهيف * قد لج فى بعدى
بدرفلا يخسف * منه سنى الخد
بلحظه المرهف * يسطو على الاسد

كسطوة الحجاج * فى الناس والسفاح * فاترى من ناج * من لحظه السفاح
علل بالمسك * قلب رشا أحور
منعم المسك * ذى مبسم أعطر
رياه كالمسك * وريقه كوثر
غصن على رجراج * طاعت له الارواح * فحبذا الا راج * ان هيت الارواح
مهلا أبا القاسم * على أبى حيان
ماان له عاصم * من لحظك الفتان
وهجرك الدائم * قد طال بالهيمان
فدمعه أمواج * وسره قد باح * لكنه ماعاج * ولا أطاع اللاح
يارب ذى بهتان * يعذل فى الراح
وفى هوى غزلان * دافعت بالراح
وقلت لا سلوان * عن ذاك يا لاح
سبع الوجوه والتاج * هى منية الافراح * فاخترلى يا زجاج * تعال وزوج أقداح

وأنشدنى من لفظه لنفسه القصيدة الدالية التى نظمها فى مدح النحو والخليل وسيبويه ثم خرج منها الى مدح صاحب غرناطة وغيره من أشياخه وأولها

هو العلم لا كالعلم شئ تراوده * لقد فاز باغيه وأنجح قاصده

وهى قصيدة جيدة تزيد على مائة بيت وحكى لى أن الشيخ أثير الدين رحمه الله تعالى ضعف فتوجه اليه جماعة يعودونه وفيهم شمس الدين بن دانيال فأنشدهم الشيخ رحمه الله تعالى القصيدة المذكورة فلما فرغت قال ابن دانيال يا جماعة أخبركم أن الشيخ قد عوفى ومابقى عليه باس لانه لم يبق عنده فضلة قوموا باسم الله وأنشدنى من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى قصيدته السينية التى أولها

أهاجك ربع حائل الرسم دارسه * كوحى كتاب أضعف الخط دارسه انتهى

نص الصفدى وماذكره رحمه الله تعالى فى موضع ولادة أبى حيان غير مخالف لما ذكره فى الوافى انه ولد بغرناطة الا أن قوله بمدينة مطخشارش فيه نظر لانه يقتضى انها مدينة وليس كذلك وانما هى موضع بغرناطة ولذا قال الرعينى ان مولد أبى حيان بمطخشارش من غرناطة ونحوه لابن جماعة انتهى وهو صريح فى المراد وصاحب البيت أدرى بالذى فيه على انه يمكن أن يرد كلام الصفدى لذلك والله تعالى أعلم وذكر فى الوافى انه تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية والاقراء بالجامع الاقمر قال الصفدى وقال لى لم أر بعد ابن دقيق العيد أفصح من قراءتك وكان ذلك حين قرأت عليه المقامات الحريرية بمصر جماعة انتهى وماوقع فى كلام كثير من أهل المغرب أن أبا حيان توفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة غير ظاهر لان أهل المشرق أعرف بذلك اذ توفى عندهم وقد تقدم انه توفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة فعلى كلام أهل المشرق فى هذا المعول والله أعلم وكانت نضار بنت أبى حيان حجت وسمعت بقراءة العلم البرزالى على بعض الشيوخ وحدث

بشيء من مروياتها وحضرت على الدمياطي وسمعت على جماعة وهي بضم النون وتخفيف الضاد وأجازها من المغرب أبو جعفر بن الزبير وحفظت مقدمة في النحو ولما توفيت عمل والدها فيها كتابا سماه النضار في المسلاة عن نضار وكان والدها يثني عليها كثيرا وكانت تكتب وتقرأ قال الصفدي قال لي والدها انها خرجت جزءا لنفسها وانها تعرب جيدا وأظنه قال لي انها تنظم الشعر وكان يقول دائما ليت أخاها حيان كان مثلها وتوفيت رحمها الله تعالى في جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ في حياة والدها فوجد عليها وجدا عظيما ولم يثبت وانقطع عند قبرها بالبرقوقية ولازمه سنة ومولدها في جمادى الآخرة سنة ٧٠٢ قال الصفدي وكنت بالرحبة لما توفيت فكتبت لوالدها بقصيدة أولها

بكينا باللجين على نضار * فسيل الدمع في الخدين جاري
فيا لله جارية تولت * فنبكيها بأدمعنا الجواري   انتهى

وقال الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الاندلسي في برنامجه عند ذكره شيخه أبا حيان زيادة على ما قدمناه ما ملخصه ان أبا حيان قال سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والاسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلة وطهرمس والجيزة ومنية ابن خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس وبعيذاب من بلاد السودان وينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة ثم فصل من لقيه في كل بلد الى أن قال وبمكة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن عبد الله بن عساكر الى أن قال فهذه نبذة من شيوخي وجملة من سمعت منهم نحو خمسمائة والمجيزون أكثر من ألف وعد من كتب القراآت التي أخذ تسعة عشر كتابا وقال في حق المليجي انه أعلى شيوخي في القراآت وان آخر من روى عنه السبع أبو الجود غياث بن فارس المنذري اللخمي واجازته منه سنة ٦٠٤ قال وقرأت البخاري على جماعة أقدمهم اسنادا فيه أبو العز الحراني قرأته عليه بلفظي الا بعض كتاب التفسير من قوله تعالى ويسألونك عن المحيض الى قوله سبحانه ولولا فضل الله عليكم ورحمته في سورة النور فسمعته بقراءة غيري قال أنبأنا به أبو المعالي أحمد بن يحيى بن عبد الله الخازن البيع سماعا عليه سنة ستمائة ببغداد أنبأنا أبو الوقت بسنده وكمل له رحمه الله تعالى جامع الترمذي بين قراءة وسماع على ابن الزبير بغرناطة وسمعه على محمد بن ترحم أنبأنا ابن البناء أنبأنا الكروخي بسنده وقرأ السنن لابي داود بغرناطة على أبي زيد عبد الرحمن الربعي عرف بالتونسي أنبأنا به سهل بن مالك وقرأه بالقاهرة على أبي الفضل عبد الرحيم بن خطيب المزة عن أبي حفص ابن طبرزد عن أبي بدر الكروخي ومفلح الرومي عن أبي بكر بن ثابت الخطيب أنبأنا أبو عمر الهاشمي أنبأنا اللؤلؤي أنبأنا أبو داود وقرأ الموطأ على أبي جعفر بن الطباع عن أبي القاسم بن بقي عن ابن عبد الحق عن ابن الطلاع بسنده وهذا أعلى سند يوجد عن يونس ابن مغيث في عصره وسمع أبو حيان الاجزاء الخلعيات والغيلانيات والقطيعيات والنهروانيات والمحامليات والثقفيات وسداسيات الرازي بعلو قرأها على صفي الدين

عبد الوهاب بن الفرات عن أبي الطاهر اسمعيل بن ياسين الجبلي وهو آخر من حدث عنه عن أبي عبد الله الرازي سماعا وقرأ جزء الانصاري على أبي بكر بن الاغماطي بسماعه حضورا في الرابعة على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزار سنة ٥٣٢ أنبأنا ابراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي قراءة عليه في رجب سنة ٤٤٥ أنبأنا عبد الله بن ابراهيم بن ماس أنبأنا أبو مسلم الكشي البصري أنبأنا محمد بن عبد الله الانصاري وقرأ جميع كتاب سيبويه على البهاء بن النحاس المشهور بالنحو في مصر والشام بقراءته على علم الدين أبي محمد القاسم بن أحمد بن الموفق بقراءته على التاج أبي اليمن الكندي أنبأنا أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد البغدادي مؤلف كتاب المبهج أنبأنا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن محمد بن يعقوب عرف بابن الدباس أنبأنا أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن عمر بن برهان الاسدي أنبأنا القاسم علي بن عبيد الله الرقي أنبأنا علي بن عيسى بن عبد الله الرماني أنبأنا أبو بكر ابن السراج أنبأنا أبو العباس المبرد أنبأنا أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني قالا أنبأنا أبو الحسن الاخفش أنبأنا سيبويه به قال الشيخ أبو حيان ولا أعلم راويا له بمصر والشام والعراق واليمن والمشرق غيري ورويته عن الاستاذين أبوي علي بن الضائع وابن أبي الاحوص وأبي جعفر اللبلي عن أبي علي الشلوبين وسنده مشهور بالمغرب ووقع لابي حيان تساعيات كثيرة وأغرب ما وقع له ثلاثة أحاديث بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ثمانية أخبره المحدث نجيب محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني بقراءته عليه والجليلة السلطانية مؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي قراءة عليه وهو يسمع قالا أنبأنا أبو الفخر أسعد بن سعيد بن روح في كتابه أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله ابن أحمد الجوزدانية أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن رندة الضبي الاصبهاني أنبأنا الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمي الطبراني أنبأنا عبيد الله بن رماحس القيسي برمادة الرملة سنة ٢٧٤ أنبأنا أبو عمرو زياد بن طارق وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة قال سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمي يقول لما أسرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم هوازن أتيته فقلت

امنن علينا رسول الله في كرم * فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر * مشتت شملها في دهرها غير
أبقت لنا الدهر هتافا على حزن * على قلوبهم الغماء والغمر
ان لم تداركهم نعماء تنشرها * يا أرجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها * اذ فوك تملؤه من محضها الدرر
اذ أنت طفل صغير كنت ترضعها * واذ يريبك ما تأتي وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته * واستبق منا فانا معشر زهر
انا لنشكر للنعماء اذ كفرت * وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه * من امهاتك ان العفو مشتهر

يا خير من مرحت كمت الجياد به * عند الهياج اذا ما استوقد الشرر
آنا نؤمل عفوا منك تلبسه * هذى البرية اذ تعفو وتنتصر
فاعف عفا الله عما أنت راهبه * يوم القيامة اذ يهدى لك الظفر

فلما سمع صلى الله عليه وسلم هذا الشعر قال ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقالت قريش ما كان لنا فهو لله ولرسوله وقالت الانصار ما كان لنا فهو لله ولرسوله قال أبو القاسم الطبرانى لا يروى عن زهير الا بهذا الاسناد وتفرد به عبيد الله بن رماحس وبالاسناد الى الطبرانى أنبأنا جعفر بن حميد بن عبد الكريم بن فروخ بن ديزج بن بلال ابن سعد بن بلال بن سعد الانصارى الدمشقى قال حدثنى جدى لامى عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدنى قال أرانى انس بن مالك الوضوء أخذ ركوة فوضعها عن يساره وصب على يده اليمنى فغسلها ثلاثا ثم أدار الركوة على يده اليمنى فغسلها ثلاثا وثلاثا ومسح برأسه وأخذ ماء جديدا الصماخيه فقلت له قد مسحت أذنيك فقال يا غلام هل رأيت وفهمت أو أعيد عليك فقلت قد كفانى وقد فهمت قال فهكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ قال الطبرانى لم يرو عمر بن أبان عن أنس حديثا غير هذا وبالاسناد الى الطبرانى حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصرى أنبأنا بشار بن عبد الله مولى أنس بن مالك حدثنى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن رآنى وآمن بى ومن رأى من رآنى وآمن بى ومن رأى من رأى من رآنى ثم قال الرعينى وتصانيف أبى حيان تزيد على خمسين ما بين طويل وقصير ثم قال الرعينى وخرج أبو حيان من الاندلس مفتتح سنة ٦٧٩ واستوطن القاهرة بعد حجه وأنشد لشيخه أبى الحسن الدباج

رضيت كفافى رتبة ومعيشة * فلست أسامى موسرا ووجيها
ومن جر أثواب الزمان طويلة * فلا بد يوما أن سيعثر فيها

وأنشد باسناده لموسى بن أبى تليد

حالى مع الدهر فى تقلبه * كطائر ضم رجله شرك
فهمه فى خلاص مهجته * يروم تخليصها فتشتبك

ثم أورد الرعينى جملة من نظم أبى حيان منها قوله

أريد من الدنيا ثلاثا وانها * لغاية مطلوب لمن هو طالب
تلاوة قرآن ونفس عفيفة * واكثار أعمال عليها أواظب

وقوله

أرحت روحى من الايناس بالناس * لما غنيت عن الاكياس بالياس
وصرت فى البيت وحدى لا أرى أحدا * بنات فكرى وكتبى هن جلاسى

وقوله

وزهدنى فى جمع المال أنه * اذا ما انتهى عند الفتى فارق العمرا
فلا روحه يوما أراح من العنا * ولم يكتسب حمدا ولم يدخر أجرا

قوله سنة ٦٧٩ فى نسخة سنة ٦٢٨ اهـ

وقوله

يظن الغمر أن الكتب تجدي * أخا ذهن لادراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها * غوامض حيرت عقل الفهيم
اذا رمت العلوم بغير شيخ * ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الامور عليك حتى * تصير أضل من توما الحكيم

وله لغز في قيراط زاعما انه لا يفك

وما اسم خماسي اذا ما فككته * يصير لنا فعلين أمرا وماضيا
بعكس وهو كل وجزء وجمعه * بابدال عين جاز فيه التناهيا
ومع كونه فردا وجمعا فأول * وآخره أضحى لشخص معاديا
وفي عكسه صوت فتثنيه صيغة * وتبني بمعناه وما أنت بانيا
فكم فيه من معنى خفي وانما * عنيت بذكرى للذي ليس خافيا

ثم قال الرعيني وهو شيخ فاضل ما رأيت مثله كثير الضحك والانبساط بعيد عن الانقباض جيد الكلام حسن اللقاء جميل المؤانسة فصيح الكلام طلق اللسان ذو لمة وافرة وهمة فاخرة له وجه مستدير وقامة معتدلة التقدير ليس بالطويل ولا بالقصير انتهى ما لخصته من كلام الرعيني ولما قدم الاستاذ أبو حيان الى مصر أوصى أهله بقوله ينبغي للعاقل أن يعامل كل أحد في الظاهر معاملة الصديق وفي الباطن معاملة العدو في التحفظ منه والتحرز وليكن في التحرز من صديقه أشد في التحرز من عدوه وأن يعتقد أن احسان شخص الى آخر وتودده اليه انما هو لغرض قام له فيه يتعلق به يبعثه على ذلك لا لذات ذلك الشخص وينبغي أن يترك الانسان الكلام في ستة أشياء في ذات الله تعالى وما يتعلق بصفاته وما يتعلق بأحوال أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وفي التعرض لما جرى بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين وفي التعرض أيضا لائمة المذاهب رحمهم الله تعالى ورضي عنهم وفي الطعن على صالحي الامة نفع الله بهم وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه وأن لا يقصد أذى أحد من خلق الله سبحانه وتعالى الا على حسب الدفع عن نفسه وأن يعذر الناس في مباحثهم وادراكاتهم فان ذلك على حسب عقولهم وأن يضبط نفسه عن المراء والاستهزاء والاستخفاف بأبناء زمانه وأن لا يبحث الامع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث وأن لا يغضب على من لا يفهم مراده ومن لم يدرك ما يدركه وأن يلتمس مخرجا لن ظاهر كلامه الفساد وأن لا يقدم على تخطئة أحد ببادي الرأي وأن يترك الخوض في علوم الاوائل وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة ولا ينكر على الفقراء وليسلم لهم أحوالهم وينبغي للعاقل أن يلزم نفسه التواضع لعبيد الله سبحانه وتعالى وأن يجعل نصب عينيه أنه عاجز مفتقر وأن لا يتكبر على أحد وأن يقل من الضحك والمزاح والخوض فيما لا يعنيه وأن يتظاهر بكل ما يوافقه فيما لا معصية لله تعالى فيه ولا خرم مروءة وأن يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند الجمهور وأن لا يظهر الشكوى لاحد من خلق الله تعالى وأن لا يعرض بذكر أهله

ولا حد

ولا يجري ذكر حرمه بحضرة جليسه وأن لا يطلع أحدا على عمل خير يعمله لوجه الله تعالى وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التغاضي وأن لا يركن الى أحد الا الى الله تعالى وأن يكثر من مطالعة التواريخ فانها تلقح عقلا جديدا والله سبحانه وتعالى أعلم انتهت وصية أبي حيان الجامعة النافعة وقد نقلتها من خط الشيخ العلامة أبي الطيب ابن علوان التونسي المالكي الشهير بالمصري وهو ممن أخذ عن تلامذة الشيخ أبي حيان رحمه الله تعالى قلت وبما في هذه الوصية من نهيه عن الطعن في صالحي الامة نفع الله تعالى بهم وأمره بالتسليم لاحوالهم وعدم الانكار عليهم تعلم أن ما نقله الصفدي عنه فيما تقدم من قوله ان الشيخ أبا مدين الى آخره كلام فيه نظر لان أبا حيان رضي الله تعالى عنه لا ينكر كرامات الاولياء كيف وقد ذكر رحمه الله تعالى منها كثيرا فمن ذلك ما حكى عنه تلميذه الرعيني بسنده الى الفقيه المقرى الصالح أبي تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيد بونة الخزاعي حدث انه زار قبر أبي الحسن بن جالوت ولم يكن زاره قبل فاشتبه عليه فتركه فسمع النداء من قبر معين يا غالب أعشى وما زرتني فزار ذلك القبر وقعد عنده ثم جاء ابن أبي الحسن المذكور فسأله عن القبر فقال هو الذي قعدت عنده وغالب هذا وابن جالوت هما من أصحاب الشيخ أبي أحمد بن سيد بونة الخزاعي وهو من أصحاب الشيخ أبي مدين انتهى فكيف ينكر أبو حيان كرامات الصالحين وهو ينهى عن الطعن فيهم ويحكي كراماتهم نعم قول الصفدي قبل ذلك الكلام انه كان ينكر على فقراء الوقت كلام صحيح في الجملة لكثرة الدعاوى الباطلة ممن ليس من أهل الصلاح وأما انكار الكرامات مطلقا فمقام أبي حيان يجل عن ذلك والله تعالى أعلم وقد أورد ابن جماعة له من قطعة قوله في اهل عصره

ومن يك يدعي منهم صلاحا * فزنديق تغلغل في الضلال

وأول هذه القطعة

حلبت الدهر أشطره زمانا * وأغناني العيان عن السؤال
فما أبصرت من خل وفي * ولا ألفيت مشكور الخلال
ذئاب في ثياب قد تبدت * رائيها بأشكال الرجال
ومن يك يدعي منهم صلاحا * فزنديق تغلغل في الضلال
ترى الجهال تتبعه وترضى * مشاركة بأهل أو بمال
فينهب مالهم ويصيب منهم * نساءهم بمقبوح الفعال
ويأخذ حاله زورا فيرمى * عمامته ويهرب في الرمال
ويجرون التيوس وراء رجس * تقرمط في العقيدة والمقال

أي اعتقدوا رأى القرامطة ومذهبهم مشهور فلا نطيل به فظهر بما ذكر أن أبا حيان انما أنكر على أهل الدعاوى لا على غيرهم والله تعالى أعلم وقد أورد قاضي القضاة ابن جماعة للشيخ أبي حيان من النظم غير ما قدمناه ذكره قوله

اما انه لولا ثلاث أحبها * تمنيت أني لا أعد من الاحيا
فمنها رجائي أن أفوز بتوبة * تكفر لي ذنبا وتنجح لي سعيا

ومنهن صونى النفس عن كل جاهل * لئيم فلا أمشى الى بابه مشيا
ومنهن أخذى بالحديث اذا الورى * نسوا سنة المختار واتبعوا الرأيا
أتترك نصا للرسول وتقتدى * بشخص لقد بدلت بالرشد الغيا

وقوله

سال فى الخد للحبيب عذار * وهو لاشك سائل مرحوم
وسألت التثامه فتجنى * فأنا اليوم سائل محروم

وقوله

أمدعيا علما ولست بقارئ * كتابا على شيخ به يسهل الحزن
أتزعم أن الذهن يوضح مشكلا * بلا موضح كلا لقد كذب الذهن
وان الذى تبغيه دون معلم * كموقد مصباح وليس له دهن

وقوله عداى البيتين قال وأخذ هذا المعنى من قول الطغرائى

من خص بالود الصحاب فاننى * أحبو بخالص ودى الاعداء
جعلوا التنافس فى المعالى ديدنى * حتى وطئت بأخمصى الجوزاء
ونعوا الى مثالبى فحذرتها * ونفيت عن أخلاق الاقذاء
ولربما انتفع الفتى بعدوه * كالسم أحيانا يكون دواء

ومن نظم أبى حيان

يامنتضى الطرف فى ميدان لذته * وناضى الطرف بين الراح والرود
ستشربه الروح راح الوقت كارهة * ويذهب الجسم بين الترب فى الدود

وله رحمه الله تعالى قصيدة سماها بالمورد العذب فى معارضة قصيدة كعب وقصيدة فى مدح الامام الشافعى مطلعها غذيت بعلم النحو اذ درّ لى ثديا وله رحمه الله تعالى من قصيدة فى مدح أم ولده حيان

جننت بها سوداء لون وناظر * ويا طالما كان الجنون بسوداء
وجدت بها برد النعيم وان يكن * فؤادى منها فى جحيم ولأواء
وشاهدت معنى الحسن فيها مجسدا * فاعجب لمعنى صار جوهر أشياء
أطاعنة من قدها بمثقف * أصبت وما أغنى الفتى لبس حصداء
لقد طعنت والقلب ساه غادرى * أبالقد منها أم بصعدة سمراء

ثم غير البيت الاول وأنشد

جننت بها سوداء شعر وناظر * وسمراء لون تزدرى كل بيضاء

وقال بهى قال ابن جماعة خاطبنى به ارتجالا عند ولادة ابى عمر بعد بنتين

حييت بريحانتى روضة * وبعدهما جاء نجل أغر
وسميته اسم امام اذا * رآه أبو مرة منه فر
ولا عجب منك عبد العزيز * اذا كان نجلك سمى عمر
تفرعتما من امام الهدى * وبدر الدجى ورئيس البشر

فلازال يوضح سبل الهدى * ولازلنا نقتفو ان الاثر

وقال

لقد زادني بالناس علماً تجاربي * ومن جرّب الايام مثلي تعلما
واني وتطلابي من الناس راحة * لكالمبتغي وسط الجحيم تنعما
سأزهد حتى لا أرى لي صاحبا * وأنجد حتى لا ألاقي متهما

قال ابن جماعة وقال في املائه على ابن قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي وكان جميل الصورة على أختي شقيقتي فاطمة

هنيأ بتأليف غريب نظامه * لقد حار في أوصافه نظم عارف
غدت شمس حسن بنت بدر سيادة * تزف لبدر نجل شمس معارف
سميان للزهرا البتول وللرضا * علي ونجلا الاكرمين الغطارف
فدام علي عالي الجد سيدا * ولازال في ظل من العيش وارف

وقال يخاطب شيخه ابن النحاس وقد أغب زيارته

أعيس حياتي والذي بقائه * بقائي لقد أصبحت نحوك شيقا
أقت بقلبي غير أنك لقائي * برؤيتك الحظ الذي يذهب الشقا
وما كان ظني أنك الدهر تاركي * ولو أنني أصبحت بين الورى لقا
لطائف معنى في العيان ولم تكن * لتدرك الا بالتزاور واللقا

وقال يخاطب قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي وقد أعيد الى منصب القضاء وكان يتطلع اليه رجل يدعى نجم الدين

ذووا سعم في الدنيا نجوم زواهر * وانك فيها الشمس حقا بلا لبس
اذا لحت أخفى نوركم كل نير * ألم تر أن النجم يخفى مع الشمس

وقال

لم أؤخر عن أحبة كتابي * لقلى فيه أو لترك هواه
غير أني اذا كتبت كتابا * غلب الدمع مقلتي فمحاه

وقال

تذكرى للبلى في قعر مظلمة * أصارني زاهدا في المال والرتب
أني أسير بحال سوف أسلبها * عما قريب وأبقى رهنة الترب

وقال

أتيت وما أدعى وأقبلت سامعا * فوالله مولى سيد ماجد ندب
وأحضر جمعا أنت فيه جماله * أشنف سمعي منك باللؤلؤ الرطب

وقال

لنا غرام شديد في هوى السود * نختارهن على بيض الطلا الغيد
لون به أشرقت أبصارنا وحكى * في اللون والعرف نفح المسك والعود
لاشئ أحسن من آس تركبه * في آبنوس ولا أشفى لمبرود

لانها بيضاء لون الجص واسم الى * سوداء حسناء لون الاعين السود
فى جيدها غيد فى قدها ميد * فى خدها صيد من سادة صيد
من آل حام حمت قلبى بنار جوى * من هجرها وابتلت عينى بتسهيد

وقال فى عكسه

اذا مال الفتى للسود يوما * فلا رأى لديه ولا رشاد
أتهوى خنفساء كأن زفتا * كسا جلدا لها وهو السواد
وما السوداء الا قدر فرن * وكانون وفحم أو مداد
وما البيضاء الا الشمس لاحت * تنير العين منها والفؤاد
سبيكة فضة حشيت بورد * يلذ السهد معها والرقاد
وبين البيض والسودان فرق * لدى عقل به اتضح المراد
وجوه المؤمنين لها ابيضاض * ووجه الكافرين به اسوداد

وقال رحمه الله تعالى

أعاذل ذرنى وانفرادى عن الورى * فلست أرى فيهم صديقا مصافيا
ندماى كتب أستفيد علومها * أحباى تغنى عن لقائى الاعاديا
وآنسها القرآن فهو الذى به * نجاتى اذا فكرت أو كنت تاليا
لقد جلت فى غرب البلاد وشرقها * أنقب عمن كان لله داعيا
فلم أر الا طالبا لرياسة * وجماع أموال وشيخا مرائيا
قبضت يدى عنهم وآثرت عزلة * عن الناس واستغنيت بالله كافيا

قال العز بن جماعة وخاطب والدى وقد أبل من ضعف أشيع فيه موته مهنئا له

أدام الاله لك العافيه * وصير دور العدا عافيه
اذا لاح من بدركم نوره * فكل النجوم به خافيه
تخذت كلام الاله الدوا * فآياته كانت الشافيه
تشوف ناس لمنصبكم * ورتبتهم للعلا نافيه
فأين العلوم وأين الحلوم * وخلق موارده صافيه
هم عصبة لاتنال العلا * ولو انها قد سعت حافيه
اذا كان خرق تداركته * وليست لما خرقت رافيه
فان عن خطب ثبت له * وآراؤهم عنده هافيه
سجاياك اللين ورفق بنا * وأخلاقهم كلها جافيه
تصلى على سبعة منهم * وثامنهم نفسه طافيه
يقيمون فى تربهم همدا * وتسفى على قبرهم سافيه
فلازلت فى صحة دائما * تجر ذيول السنى ضافيه
ويورد الله عين الحياة * فتحيا بها مائة وافيه
فان زاد عشرا فذا المنى * وعشرون أيضا هى الكافيه

وهذى

وهذى القوافى أتت كلا * فلم تبق لى بعدها قافيه

وقال رحمه الله تعالى أيضا

خلق الانسان فى كبد * بوجود الاهل والولد
كل عضو فيه نافعه * غير عضو ضر للابد
منتج ذلا وفقد غنى * وفراغا جمة العدد
من يمت منهم يذقه أسى * أو يعش ألقاه فى نكد
عاش فى امن فتى عزب * مستريح الفكر والجسد

وقال رحمه الله تعالى أيضا

جن غيرى بعارض فترجى * أهله أن يفيق عما قريب
وفؤادى بعارضين مصاب * فهو داء أعيا دواء الطبيب

وقال

سعت حية من شعره نحو صدغه * وما انفصلت من خده ان ذا عجب
وأعجب من ذا أن سلسال ريقه * برود ولكن شب فى قلبى اللهب

وقال

طالع تواريخ من فى الدهر قد وجدوا * تجد خطوبا تسلى عنك ما تجد
تجد أكابرهم قد جرعوا غصصا * من الرزايا بها كم فتتت كبد
عزل ونهب وضرب بالسياط وحبس ثم قتل وتشريد لمن ولدوا
واذ وقيت بحمد الله شرهم * فلتحمد الله فى العقبى كما حمدوا

وقال رحمه الله تعالى يمدح البخارى وكتابه الصحيح

أسامع أخبار الرسول لك البشرى * لقد سدت فى الدنيا وقد فزت فى الاخرى
تشنف آذانا بعقد جواهر * تود الغوانى لو تقلده النحرا
جواهر كم حلت نفوسا نفيسة * فحلت بها صدرا وجلت بها قدرا
هل الدين الا ما روته أكابر * لنا نقلوا الاخبار عن طيب خبرا
وأدوا أحاديث الرسول مصونة * عن الزيف والتصحيف فاستوجبوا الشكرا
وان البخارى الامام لجامع * بجامعه منها اليواقيت والدرا
على مفرق الاسلام تاج مرصع * أضاء به شمسا ونار به بدرا
وبحر علوم يلفظ الدر لا الحصا * فأنفس بها درا وأعظم به بحرا
تصانيفه نور ونور لناظر * فقد أشرقت زهرا وقد أينعت زهرا
محاسنة المختار ينظم شتها * يلخصها جمعا ويخلصها تبرا
وكم بذل النفس المصونة جاهدا * فجازلها بحرا وجاب لها برا
فطورا عراقيا وطورا يمانيا * وطورا حجازيا وطورا أتى مصرا
الى أن حوى منها الصحيح صحيحه * فوافى كتابا قد غدا الآية الكبرى
كتاب له من شرع أحمد شرعة * مطهرة تعلو السماكين والنسرا

قلت وتتصل روايتي عن الامام أبي حيان من طرق عديدة منها عن عمي ولي الله العارف به شيخ الاسلام مفتي الانام الخطيب الامام ملحق الاحفاد بالاجداد سيدي سعيد ابن احمد المقري التلمساني عن شيخه العالم أبي عبد الله التنسي عن والده حافظ عصره سيدي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي ثم التلمساني الاموي عن عالم الدنيا أبي عبد الله بن مرزوق عن جده الرئيس الخطيب سيدي أبي عبد الله محمد بن مرزوق عن الاثير أبي حيان بكل مروياته فمنها أن أبا حيان قال حدثنا ابن أبي الاحوص عن قاضي الجماعة أبي القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد ابن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد القرطبي عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه الامام بقي بن مخلد عن أبي بكر المقدمي عن عمر ابن علي وعبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين أحدهما يدعون الله ويدعون اليه والآخر يتعلمون العلم ويعلمونه فقال كل المجلسين خير وأحدهما أفضل من الآخر أما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل وأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون اليه ان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأنا بعثت معلما ثم جلس معهم قال أبو حيان قلت لا أعرف حديثا اجتمعت فيه رواية الابناء عن الآباء بعدد ما اجتمع في هذا الا ما أخبرنا به أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن بن مامة بقراءتي عليه أنبأنا أبو المعالي الابرموي أنبأنا أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن سابور القلنسي أنبأنا أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب التميمي قال سمعت أبي أبا الفرج عبد الوهاب يقول سمعت أبي أبا الحسن عبد العزيز يقول سمعت ابي أبا بكر الحرث يقول سمعت أبي أسدا يقول سمعت أبي الليث يقول سمعت أبي سليمان يقول سمعت أبي ابا الاسود يقول سمعت أبي سفيان يقول سمعت أبي يزيد يقول سمعت أبي أكينة يقول سمعت أبي الهيثم يقول سمعت أبي عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما اجتمع قوم على ذكر الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة انتهى قلت قال الحافظ ابن حجر في فوائده ما اجتمع حديث فيه من عدد الآباء أكثر من هذا انتهى ورأيت بخط الحفاظ على قول أبي أكينة ما صورته صوابه أكينة انتهى فليحرر ومنها أن أبا حيان قال أنبأنا الاستاذ أبو جعفر الزبير صاحب الصلة انبأنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الازدي أنبأنا عبد الله بن محمد بن حسن بن عطية ح قال أبو حيان وأنبأنا الاصولي أبو الحسين ابن القاضي أبي عامر بن ربيع الاشعري عن أبي الحسن أحمد بن علي الغافقي قال أنبأنا عياض ح وكتب لنا الخطيب أبو الحجاج يوسف بن أبي ركانة عن القاضي أبي القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمحون بن عبد الله بن عطية قال هو وعياض أنبأنا القاضي أبو بكر بن العربي أنبأنا أبو محمد هبة الله الاكفاني أنبأنا الحافظ عبد العزيز الكتاني الدمشقي أنبأنا أبو عصمة نوح بن الفرغاني قال سمعت أبا المظفر عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن قث الخزرجي وأبا بكر محمد بن عيسى البخاري قالا سمعنا أبا ذر عمار بن

محمد بن مخلد التميمي يقول سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخاري يقول لما عزل أبو العباس الوليد بن ابراهيم بن يزيد الهمداني عن قضاء الري ورد بخاري سنة ٣١٨ لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي فنزل في جوارنا فحملني معلمي أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم الختلي اليه فقال له أسألك أن تحدث هذا الصبي ما سمعته من مشايخك فقال مالي سماع فقال وكيف وأنت فقيه فما هذا قال لاني لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي الى طلب الحديث ورواية الاخبار وسماعها فقصدت محمد بن اسمعيل البخاري ببخاري صاحب التاريخ والمنظور اليه في علم الحديث وأعلمته مرادي وسألته الاقبال على ذلك فقال لي يا بني لا تدخل في أمر الا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره فقلت عرفني رحمك الله تعالى حدود ما قصدتك له ومقادير ما سألتك عنه فقال لي اعلم أن الرجل لا يصير محدثا كاملا في حديثه الا بعد أن يكتب أربعا مع أربع كأربع مثل أربع في أربع عند أربع بأربع على أربع عن أربع لاربع وكل هذه الرباعيات لا تتم الا بأربع مع أربع فاذا تمت له كلها هان عليه أربع وابتلي بأربع فاذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع وأثابه في الآخرة بأربع قلت له فسر لي رحمك الله تعالى ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صاف بشرح كاف وبيان شاف طلبا للاجر الواف فقال نعم أما الاربع التي تحتاج الى كتبها فهي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وشرائعه والصحابة رضي الله تعالى عنهم ومقاديرهم والتابعين وأحوالهم وسائر العلماء وتواريخهم مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمانهم كالتحميد مع الخطب والدعاء مع التوسل والبسملة مع السورة والتكبير مع الصلوات مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات في صغره وفي ادراكه وفي شبابه وفي كهولته عند فراغه وعند شغله وعند فقره وعند غناه بالجبال والبحار والبلدان والبراري على الاحجار والاخزاف والجلود والاكتاف الى الوقت الذي يمكنه نقلها الى الاوراق عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه وعن كتاب أبيه يتيقن انه بخط أبيه دون غيره لوجه الله تعالى طلبا لمرضاته والعمل بما وافق كتاب الله عز وجل منها ونشرها بين طالبيها ومحبيها والتأليف في احياء ذكره بعده ثم لا تتم له هذه الاشياء الا بأربع هي من كسب العبد أعني معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو مع أربع هي من اعطاء الله تعالى أعني القدرة والصحة والحرص والحفظ فاذا صحت له هذه الاشياء كلها هان عليه أربع الاهل والولد والمال والوطن وابتلي بأربع بشماتة الاعداء وملامة الاصدقاء وطعن الجهلاء وحسد العلماء فاذا صبر على هذه المحن أكرمه الله جل وعلا في الدنيا بأربع بعز القناعة وبهيبة النفس وبلذة العلم وبحياة الابد وأثابه في الآخرة بأربع بالشفاعة لمن أراد من اخوانه وبظل العرش حيث لا ظل الا ظله ويسقي من أراد من حوض نبيه صلى الله عليه وسلم وبجوار النبيين في أعلى عليين في الجنة فقد أعلمتك يا بني بمجملات جميع ما سمعت من مشايخي متفرقا في هذا الباب فاقبل الآن على ما قصدتني له أودع فهما الى قولي فسكت متفكرا وأطرقت متأدبا فلما رأى ذلك مني قال وان لم تطق حمل هذه المشاق كلها

فعليك بالفقه يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قار ساكن لا تحتاج الى بعد الاسفار ووطء الديار وركوب البحار وهو ذا ثمرة الحديث وليس ثواب الفقيه دون ثواب المحدث في الآخرة ولا عزه بأقل من عز المحدث فلما سمعت ذلك نقص عزمي في طلب الحديث وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه الى أن صرت فيه متقدما ووقفت منه على معرفة ما أمكنني من علمه بتوفيق الله تعالى ومنته فلذلك لم يكن عندي ما أمليه لهذا الصبي يا أبا ابراهيم فقال له أبو ابراهيم ان هذا الحديث الواحد الذي لا يوجد عند غيرك خير للصبي من ألف حديث يجده عند غيرك انتهى وجاء أبو حيان الى ابن تيمية والمجلس غاص فقال يمدحه ارتجالا

لما أتينا تقي الدين لاح لنا * داع الى الله فرد ماله وزر

على محياه من سيما الالى صحبوا * خير البرية نور دونه القمر

حبر تسربل منه دهره حبرا * بحر تقاذف من أمواجه الدرر

قام ابن تيمية في نصر شرعتنا * مقام سيد تيم اذ عصت مضر

فأظهر الحق اذ آثاره درست * وأخمد الشر اذ طارت له الشرر

كنا نحدث عن حبر يجيء فها * أنت الامام الذي قد كان ينتظر

ثم انحرف أبو حيان فيما بعد عن ابن تيمية ومات وهو على انحرافه ولذلك أسباب منها انه قال له يوما كذا قال سيبويه فقال يكذب سيبويه فانحرف عنه رحم الله تعالى الجميع وحضر الشيخ أبو حيان مع ابن بنت الاعز في الروضة فكتب الى أبي حيان ووجهه مع بعض غلمانه

حييت أثير الدين شيخ الادبا * أقضى له حقا كما قد وجبا

حييت فتى بطاق آس نضر * كالقد بدا ملئت منه طربا

قال فانشدته

أهدى لنا غصنا من ناضر الآس * أقضى القضاة حليف الجود والباس

لما رأى سقمي أهداه مع رشا * حلو التثني فكان الشافي الآسي

ولما أنشد الشيخ أبو حيان قول نور الدين القصري في روضة مصر

ذات وجهين فيهما قسم الحسـ * ـن فأضحت بها القلوب تهيم

ذا يلي مصر فهو مصر وهذا * يتولى وسيم فهو وسيم

قد أعادت عصر التصابي صباها * وأبادت فيها الغموم الغيوم

زاد فيها بيتا وهو

فبلج البحار يسجون * و بفج القفار يسفح ريم

قال أبو حيان وكنت ماشيا بين القصرين مع ابن النحاس فعبر علينا صبي يدعى شهرته بجمال وكان مصارعا فقال البهاء لينظم كل منا فيه ثم قال

مصارع تصرع الآساد شهرته * تهيا فكل مليح دونه سمج

لما غدا رابحا في الحسن قلت لهم * عن حسنه حدثوا عنه ولا حرج

فنظمت أنا

سبانى جمال من مليح مصارع * عليه دليل للملاحة واضح
لئن عز منه المثل فالكل دونه * وان خف منه الخصر فالردف راجح

وسمع العزازى نظمنا فقال وأنشدنيه

هل حكم ينصفنى فى هوى * مصارع يصرع أسد الشرى
مذ فزت فى الصبر فى حبه * حكى عليه مدمعى ما جرى
أباح قتلى فى الهوى عامدا * وقال كم لى عاشق فى الورى
رميته فى أسر حبى ومن * أجفان عينيه أخذت الكرى

وقال لسان الدين فى الاحاطة كان أثير الدين أبو حيان نسيج وحده فى ثقوب الذهن وصحة الادراك والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية امام النحاة فى زمانه غير مدافع نشأ فى بلدة غرناطة مشارا اليه فى التبريز بميدان الادراك وتغبير السوابق فى مضمار التحصيل ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق واستقر بمصر فنال بها ما شاء من عز وشهرة وتأثل وافر وحظوة وأضحى ابن حل بساحته من المغاربة ملجأ وعدة وكان شديد البسط مهيبا جهوريا مع الدعابة والغزل وطرح التسمت شاعرا مكثرا مليح الحديث لا يمل وان أطال وأسن جدا فانتفع به قال لى بعض أصحابنا دخلت عليه وهو يتوضأ وقد استقر على احدى رجليه لغسل الاخرى كما تفعل البرك والاوز فقال لى لو كنت اليوم جار شلير ما تركنى لهذا العمل فى هذا السن ثم قال لى بعد كلام حدثنا عنه الجلة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبى يزيد خالد بن عيسى والمقرى الخطيب أبى جعفر الشقورى والشريف أبى عبد الله بن راجح وشيخنا الخطيب أبى عبد الله بن مرزوق قال حدثنا شيخنا أبو حيان فى الجلة سنة ٧٣٥ بالمدرسة الصالحية بين القصرين بمنزله حدثنا الاستاذ أبو جعفر بن الزبير سماعا من لفظه وكتبه من خطه بغرناطة عن الكاتب أبى اسحق بن عامر الهمدانى الطوسى بفتح الطاء حدثنا أبو عبد الله بن محمد العنسى القرطبى وهو آخر من حدث عنه أنبأنا أبو على الحسن ابن محمد الحافظ الجيانى أنبأنا حكم بن محمد أنبأنا أبو بكر بن المهندس أنبأنا عبد الله ابن محمد أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال بن جعفر سمعت أبا امامة الباهلى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اكفلوا الى بست أكفل لكم بالجنة اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا اتمن فلا يخن واذا وعد فلا يخلف غضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم ثم قال ابن الخطيب ان أبا حيان حملته حدة الشبيبة على التعرض للاستاذ أبى جعفر الطباع وقد وقعت بينه وبين استاذه ابن الزبير الوحشة فنال منه وتصدى للتأليف فى الرد عليه وتكذيب روايته فرفع أمره للسلطان فامتعض له ونفذ الامر بتنكيله فاختفى ثم أجاز البحر مختفيا ولحق بالمشرق يلتفت خلفه ثم قال وشعره كثير يتصف بالاجادة وضدها فمن مطولاته قوله

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول * العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمرا من خوط قامتها * فما انثنى الصب الا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البديع لها * فكم لها جمل منه وتفصيل

فالنحر مرمرة والنشر عنبرة * والثغر جوهرة والريق معسول
والطرف ذوغنج والعرف ذوأرج * والخصر مختطف والمتن مجدول
هيفاء يستن في الخصر الوشاح لها * درماء تخرس في الساق الخلاخيل
من اللواتي غذاهن النعيم فما * يشقين آباؤها الصيد البهاليل

الى أن قال وقوله

بوريخــــــدك أم توقد نار * وضنى بجفنك أم فتور عقار
وشذا بريقك أم تأرج مسكة * وسنى بثغرك أم شعاع درارى
جمعت معانى الحسن فيك فقد غدت * قيد القلوب وفتنة الابصار
متصاون خفــــرا اذا ناطقته * أغضى حياء فى سكون وقار
فى وجهه زهرات روض تجتلى * من نرجس مع وردة وبهار
خاف اقتطاف الورد من وجناتها * فأدار من آس سياج عذار
وتسللت نمل العذار بخده * ليردن شهدة ريقه المعطار
وبخــــده نارحته وردها * فوقفن بين الورد والاصدار
كم ذا أوارى فى هواه محبتى * ولقد وشى بى فيه فرط أوارى

وقال ابن رشيد حدثنا أبو حيان قال حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجونى بمدينة عيذاب من بلاد السودان وبرجونة قرية من قرى دار السلام قال كنت بجامع لولم من بلاد الهند ومعنا رجل مغربى اسمه يونس فقال لى اذكر لنا شيأ فقلت له قال على رضى الله تعالى عنه اذا وضع الاحسان فى الكريم أثمر خيرا واذا وضع فى اللئيم أثمر شرا كالغيث يقع فى الاصداف فيثمر الدر ويقع فى فم الافاعى فيثمر السم فما راعنا الا ويونس المغربى قد أنشد لنفسه

صنائع المعروف ان أودعت * عند كريم ذكت النعما
وان تكن عند لئيم غدت * مكفورة موجبة اثما
كالغيث فى الاصداف در وفى * فم الافاعى يثمر السما

قال أبو حيان فلما سمعت هذه الابيات نظمت معناها فى بيتين وهما

اذا وضع الاحسان فى الخب لم يفد * سوى كفره والحر يجزى به شكرا
كغيث سقى أفعى فجاءت بسمها * وصادف أصدافا فأثمرت الدرا

قال ابو حيان وأنشدنا الامير بدر الدين ابو المحاسن يوسف بن سيف الدولة أبى المعالى بن رماح الهمدانى لنفسه بالقاهرة

فلا تعجب لحسن المدح منى * صفاتك أظهرت حكم البوادى
وقد تبدى لك المرآة شخصا * ويسمعك الصدى ماقدتنادى

وبعد كتبى مانقله ابن رشيد عن أبى حيان رأيت لبعضهم أن أبا حيان هذا الذى ذكره ابن رشيد ليس هو أبو حيان النحوى الاندلسى وانما هو شخص آخر وفيه عندى نظر لا يخفى والذى أعتقده ولا ارتاب فيه انه أبو حيان النحوى وقال ابن رشيد وأنشدنى

ابو

أبو حيان لنفسه

أذا غاب عن عيني أقول سلوته * وان لاح حال اللون فاضطرب القلب
يهيجني عيناه والمبسم الذى * به المسك منظوم به اللؤلؤ الرطب

وقال الشريف بن راجح رأيت أن ماوضعه الشيخ أبو حيان فى تقديم لسان الاتراك تضييع عمره وقلت

نفائس الاعمار أنفقتها * أناوأمثالى على غير شى
شيوخ سوء ليس يرضى بما * ترضى به من المخازى صبى

ومن نظم أبى حيان قوله

ان علما تعبت فيه زمانى * باذلا فيه طارفى وتلادى
لجدير بأن يكون عزيزا * ومصونا الاعلى الاجواد

وقوله

ومالك والاتعاب نفسا شريفة * وتكليفها فى الدهر ماليس يعذب
أرحها فعن قرب تلاقى حمامها * فتنعم فى دار البقا أوتعذب

واستشكل هذان البيتان بأن ظاهرهما خلاف الشرع واجيب بأن مراده أمر الرزق لا أمر التكليف وأفاد غيرواحد أن سبب رحلة الشيخ أبى حيان عن الاندلس انه نشأ شر بينه وبين شيخه أحمد بن على بن الطباع فألف أبو حيان كتابا سماه الالماع فى افساد اجازة الطباع فرفع ابن الطباع أمره للامير محمد بن نصر المدعو بالفقيه وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه فنشأ شر عن ذلك وذكر أبو حيان انه لم يقم بفاس الا ثلاثة أيام وأدرك فيها أبا القاسم المزيانى وخرج أبو حيان من الاندلس سنة تسع وسبعين وستمائة وكان جماعة من أعلام الاندلس رحلوا منها فلما وصلوا الى العدوة أقاموا بها ولم يذهبوا الى البلاد المشرقية منهم الشيخ النحوى الناظم الناثر أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى وهو القائل يمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس

أمن بارق أورى بجنح الدجى سقطا * تذكرت من حل الاجارع فالسقطا
وبان ولكن لم يبن عنك ذكره * وشط ولكن طيفه عنك ماشطا
حبيب لو أن البدر جاراه فى مدى * من الحسن لاستدنى مدى البدر واستبطا
اذا انتجعت مرعى خصيبا ركابه * غدا لحظ عينى يشتكى الجدب والقحطا
لقد أسرعت عنى المطى بشادن * تسرع فى قتل النفوس وما أبطا
ظعنت الفلا دار ابن ذى يزن بها * وخلت المحاريب الهوادج والغبطا
فكم دمية للحسن فيها وصورة * تروق وتمثال من الحسن قد خطا
حمائل لاحت كالحمائل بهجة * سقيط الحيا فيهن لا يسأم السقطا
توسد غزلان الاوانس والمها * به الوشى والديباج لا السدر والارطى
ولم يسب قلبى غير أبهرها سنى * وأطولهن جيدا وأخفقهن قرطا

أيا ربة الاحداج سيرى فتعلمى * ومابك جهل أن سهمك ما أخطا
فقى تستبينى ما بعينيك من عنا * بجسمى وعنوان الهوى فيه مختطا
فلم أر أعدى منك لحظا وناظرا * لقلبى ولا أعدى عليه ولا أسطا
سقى الله عيشا ادّ سقتنا من الهوى * كؤسا بمعسول اللمى خلطت خلطا
وكم جنة قد ردت فى ظل كافر * فلم أجز ما أولاه كفرا ولا غمطا
وكم ليلة قاسيتها نابغية * الى أن بدت شيبا اذوائبها شمطا
وبت أطارق الشهب مثلى لها هوى * وأغبطها فى طول الفتها غبطا
على انها مثلى عزيزة مطلب * ومن ذا الذى ما شاء من دهره يعطى
كأن الثريا كاعب أزمعت نوى * وأمت بأقصى الغرب منزلة شحطا
كأن نجوم الهقعة الزهر هودج * لها عن ذرى الحرف المناخة قد حطا
كأن رشاء الدلو رشوة خاطب * لها جعل الاشراط فى مهرها شرطا
كأن السها قد دق من فرط شوقه * اليها كما قد دق الكاتب النقطا
كأن سهيلا اذ تناءت وأنجدت * غدا يائسا منها فأتهم واشحطا
كأن خفوق القلب قلب متيم * تعدى عليه الدهر فى البين واشتطا
كأن كلا النسرين قد ريع اذ رأى * هلال الدجى يهوى له مخلبا سلطا
كأن الذى ضم القوادم منهما * هوى واقعا للارض أو قص أو قطا
وكان أخاه رام فوتا أمامه * فلم يعد أن مد الجناح وأن مطا
كأن بياض الصبح معصم غادة * جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطا
كأن ضياء الشمس وجه امامنا * اذا ازداد بشرا فى الوغى واذا أعطى
محمد الهادى الذى أنطق الورى * ثناء بما أسدى اليهم وما أنطى
امام غدا شمس المعالى وبدرها * وقد أصبحت زهر النجوم له رهطا
جميل المحيا مجمل طيب ذكره * يعاطى سرورا كالحيا ويستعطى
اذا ما الزمان الجهد أبدى تجهما * أرانا الحياء الطلق والخلق السبطا
كلا أبوى حفص نماه الى العلا * فأصبح عن مرقاته النجم منحطا
بسيماه تدرى أن كعبا جدوده * وان هو لم يذكر رزاحا ولا قرطا
اذا قبض الروع الوجوه فوجهه * يزيد لكون النصر نصلا له بسطا
به تترك الابطال صرعى لدى الوغى * كأن قد سقوا من خمر بابل اسفنطا
تراه اذا يعطى الرغائب باسما * له جذل يربى على جذل المعطى
وكم عنق قد قلدت بنواله * فريدا وقد كانت قلادتها لطا
متى ما تقس جود الكرام بجوده * فبالبحر قايست الوقيعة والرقطا
يشف له عن كل غيب حجابه * فتحسبه دون المحجب ما لطا
تطيع الليالى أمره فى عصاته * وتردى أعاديه أساودها نشطا
وتقضى عليهم سيفه وسنانه * فتبرى الكلى طعنا وتفرى الطلى قطا

فيكف

فكيف ترجت عزة منه فرقة * غدا عزها ذلا ورفعتها هبطا
وكم بالنهى والحلم غطى عليهم * الى أن جنوا ذنبا على العلم قد غطى
فامطاهم دهم الحديد وطالما * أنالهم دهم الجياد وما أمطى
ورام لهم هديا ولكنهم أبوا * بغيهم الا الضلالة والخبطا
وكان لهم يبغى المثوبة والرضا * ولكن أبوا الا العقوبة والسخطا
ولو قوبلت بالشكر منه مآرب * لما اعتاض منها أهلها الاثل والخمطا
هو الناصر المنصور والملك الذى * أعاد شباب الدهر من بعد ما اشمطا
أصاخت له الايام سمعا وطاعة * وأحكمت الدنيا له عهدها ربطا
فلا بد من أن يملك الارض كلها * وأن تملأ الدنيا ايالته قسطا
ويغزو فى آفاق اندلس العدا * بجيش يخط الارض من قبله خطا
وكل جواد خف سنبكه فما * يمس الثرى الا مخالسة فرطا
يؤم بها الاعداء ملك أمامه * من الرعب جيش يسرع السير ان ابطا
ويرمى جبال الفتح من شط سبتة * بها فتوافى سبقا ذلك الشطا
بحيث التقى بالخضر موسى وطارق * وموسى به رحلا لغزو العدا حطا
وسعيك ينسى ذكر سعيهما به * ويوسع سعى المشركين به حبطا
ويوقع فى الاعداء أعظم وقعة * بها تملأ الاسماع طير الملا لغطا
تجاوب سحم الطير فيه وشهبها * كما راطن الزنج النبيط أو القبطا
وتنكر فيها الجو والارض أعين * ترى الجو نارا والصعيد دما عبطا
فتخضب منهم من أشابت بخوفها * نصول ترى منها بفود الدجى وخطا
ويحسم أدواء العدا كل صارم * حسام اذا لاقى الطلى حده قطا
وكل كمى كلما خط صفحة * بسيف غدا بالرمح ينقط ما خطا
شجاع اذا التف الرماحان مثل ما * تعلق فى أسنان مشط يد مشطا
اذا ما رجت منه أعاديه عزة * رأت دون ما ترجو القتادة والخرطا
فيجدع آناف العداة بسيفه * وينشقها بالرمح ريح الردى قسطا
يبيد الاعادى سطوة ومكيدة * فيحكى الاسود الغلب والاذؤب الملطا
سرى فى طلاب المعلوات فلم يزل * يمد يدا مبسوطة وندى بسطا
ولو نازعت يمناه جذبا شماله * لبوسا من الماذى لانفتق وانعطا
يصول بخطى اكل مرشة * به أثر يعزوه للعبة الرقطا
فتى تبصر الاكام فرعا كواسيا * بهن وقد أبصرن عادية مرطا
اذا نسبت للخط أو لردينة * نسبن الى العليا ردينة والخطا
كماة حماة ما يزال الى الوغى * حنين لهم ما حن نضو وما أطا
عليهم نسيج السابغات كأنها * جلود عن الحيات قد كشطت كشطا
اذا لمع للشمس لاحت عليهم * رأيت صلالا ألبست حللا رقطا

تزحزح كالزاروق لينا ومثله * ترى نقطة من بعد ما طرحت خطا
جروش اذا غطى البلاد عبابها * وأمواجها غطت نفوس العدا غطا
فكم قد حكت في حصر حصن ومعقل * وشاشا على حصر فأسعفه ضغطا
وخيل كأمثال النعام تخالها * لافراط لولا اللجم تبغى لها مرطا
تخيلها فخا اذا ارتعت وان * سجن بماء خلتها خفقة بطا
فينعق منها مرط كل عجاجة * مرارع لا يسأمن مرّا ولا مرطا
وكم خالطت سمر الرماح وأوردت * مياها غدت حمر الدماء لها خلطا
يجزونها ليل السرى فاذا دعوا * نزال امتطوا منهن أفضل ما يعطى
فكم جنبوها خلف معتادة السرى * عوارف لم تسمع لها أذن خطا
وقد وسمت أعناقهن أزمة * بطول السرى حتى تظن لها علطا
اذا أوقدت نارا بقذف الحصا حكت * وبحر الدجى طام سفينا رمت نفطا
امام الهدى أعليت للدين معلما * وسمت العدا من بعد رفعتهم حطا
وألحقتهم عقم المنى عن خيالها * فما ولدت عقما ولا انتجت سقطا
وصيرتم في عقلة سارح العدا * وسرحتم الآمال من عقلها نشطا
ومن كان يشكو سطوة الدهر قد غدا * بعدلك لا يعدى عليه ولا يسطى
فتى كل حال تؤثر القسط جاريا * على سنن التقوى وتجتنب القسطا
فبوركت سبطا جده عمر الرضا * وبورك من جد غدوت له سبطا
تلوت الامام العدل يحيى فلم تزل * تزيد أمور الخلق من بعده ضبطا
فزدتم وضوحا بعده واستقامة * وتوطئة نهج السبيل الذى وطا
وما كان أبقى غاية غير أنه * حبيت بما لم يحب خلق ولم يعطا
اذا درر الاملاك في الفخر نظمت * على نسق عقدا فدولتك الوسطى

وله أيضا فيه

في كل أفق من صباح دجاكم * نور جلا خيط الظلام بخيطه
وافت محاسن مجدكم فبهرن ما * كسيت من حبر المديح وريطه

وله رحمه الله تعالى عدة تآليف وولد سنة ٦٠٨ وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس وممن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهري وذكره في رحلته وأثنى عليه كما أثنى عليه العبدري في رحلته فقال حازم وما أدراك ما حازم وقد عرفت به في أزهار الرياض بما يغني عن الاعادة وكان هو والحافظ أبو عبد الله بن الابار فرسي رهان غير أن ابن الابار كان أكثر منه رواية وهو الامام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الاندلسي البلنسي كتب ببلنسية عن السيد أبي عبد الله ابن السيد أبي حفص ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ثم عن ابنه السيد أبي زيد ثم كتب عن الامير أبي مردنيش ولما نازل الطاغية بلنسية بعثه الامير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة

للسلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص وفى ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدو وأنشد السلطان قصيدته السينية التي مطلعها

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا

وقد ذكرناها في غير هذا الموضع ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله الى تونس غبطة باقبال السلطان عليه فنزل منه بخير مكان ورشحه لكتب علامته في صدور مكاتباته فكتبها مدة ثم أراد السلطان صرفها لابي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها بالخط المشرقي وكان آثر عند السلطان من المغربي فسخط ابن الابار انفة من ايثار غيره عليه وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بانشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه وأن يبقي موضع العلامة منه لكاتبها فجاهر بالرد ووضعها استبدادا وأنفة وعوتب على ذلك فاستشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد متمثلا

اطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فنمي ذلك الى السلطان فأمر بلزومه بيته ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه اليه عد فيه من عوتب من الكتاب وأعتبه وسماه اعتاب الكتاب واستشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته وأعاده الى الكتابة ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر الى حضور مجلسه ثم حصلت له أمور معه كان آخرها انه تقبض عليه وبعث الى داره فرفعت اليه كتبه أجمع وألفى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها

طغى بتونس خلف * سموه ظلما خليفه

فاستشاط السلطان لها وأمر بامتحانه ثم بقتله فقتل قعصا بالرماح وسط محرم سنة ٦٥٨ ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه وكان مولده ببلنسية سنة ٥٩٥ وقال في حقه ابن سعيد في المغرب ما ملخصه حامل راية الاحسان المشار اليه في هذا الاوان ومن شعره قوله يصف الياسمين

حديقة ياسمين لا * تهيم بغيرها الحدق

اذا جفن الغمام بكى * تبسم ثغرها اليقق

فأطراف الاهلة سا * ل في أثنائها الشفق

وكتب الى الوزير أبي عبد الله بن أبي الحسين بن سعيد يستدعي منه منثورا

لك الخير أتحفني بخيري روضة * لانفاسه عند الهجوم هبوب

أليس أديب الروض يجعل ليله * نهارا فيذكو تحته ويطيب

ويطوى مع الاصباح منشور نشره * كما بان عن ربع المحب حبيب

أهيم به عن نسبة أدبية * ولا غرو أن يهوى الاديب أديب

وقوله في الخسوف

نظرت الى البدر عند الخسوف * وقد شين منظره الازين

كما سفرت صفحة للحبيب * يحجبها برقع أدكن

وقوله في المعنى

ألم تر للخسوف وكيف أبدى * بــدر التم لماع الضياء
كمرآة جلاها القين حتى * أنارت ثم ردت في غشاء

وقوله

والثريا بجانب البدر تحكي * راحة أومأت لتلطم خدا

وقوله

من عاذري من بابلي طرفه * ولعمره ما حل يوما بابلا
أعتده خوط العيني ناعما * فيعود خطيا القتلى ذابلا

وهو حافظ متقن له في الحديث والادب تصانيف وله كتاب في مختصر الاشعار سماه قطع الرياض وتكملة الصلة لابن بشكوال وهداية المعترف في المؤتلف والمختلف وكتاب التاريخ وبسببه قتله صاحب افريقية وأحرقت كتبه على ما بلغنا رحمه الله تعالى وله تحفة القادم في شعر الاندلس والحلة السيراء في أشعار الامراء ومن شعره قوله

أمري عجيب في الامور * بين التوارى والظهور
مستعمل عند المغيب * ومهمل عند الحضور

وسبب هذا ان ملك تونس كان اذا أشكل عليه شئ أو ورد عليه لغز أو معمى أو مترجم بعث به اليه فحله واذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت اليه ووجد في تعاليقه ما يشين دولة صاحب تونس فامر بضربه فضرب حتى مات وأحرقت كتبه رحمه الله تعالى وكان اعداؤه يلقبونه بالفار وحصلت بينه وبين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري البلنسي مهاجاة فقال فيه

لا تعجبوا لمضرة نالت جميـ * ـع الناس صادرة عن الابار
أوليس فارا خلقة وخليقة * والفار مجبول على الاضرار

فاجابه ابن الابار

قل لابن شلبون مقال تنزه * غيري يجاريك الهجاء بجار
انا اقتسمنا خطتينا بيننا * فحملت برة واحتملت بفار

وهذا مضمن من شعر النابغة الذبياني انتهى ما لخصناه من كلام أبي سعيد في حقه ومن شعر ابن الابار أيضا

لو عن لي عون من المقدار * لهجرت للدار الكريمة داري
وحللت أطيب طيبة من طيبة * جارا لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للابصار * لما استثار حفائظ الانصار
يا زائرين القبر قبر محمد * بشرى لكم بالسبق في الزوار
أوضعتم لنجاتكم فوضعتم * ما قادكم من فادح الاوزار
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذي * حلتم شوقا الى المختار
أذر السلام سلمتم وبرده * أرجو الاجارة من ورود النار

اللهم أجرنا منها يا رحيم يا رحمن يا كريم واختم ترجمته بقوله

وجدت الله في للأ واءاما * بلوت الناس من ساء ولاء

فمن يك سائلا عني فاني ٭ غنيت بالافتقار الى الهى

وقد جردت ترجمته في ازهار الرياض في أخبار عياض فليراجع ذلك فيه من شاء *(رجع الى ما كان فيه من ذكر المرتحلين من الاندلس الى المشرق)* (ومنهم الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مسدى وهو أبو بكر محمد ويقال أبو المكارم ابن أبي أحمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن مسدى المهلبي الازدي الاندلسي شيخ السنة وحامل راياتها وفريد الفنون ومحكم آياتها عرف الاحاديث وميز بين شهيرتها وغريبتها وكان الملقى راية السنة بيمين عرابتها طلع بمغربه شمسا قبل بزوغه بأفق المشرق وملأ جزيرته الخضراء من بحر علومه المتدفق وأنعمها بنوئه المشرق وطاف البلاد الاسلاميه المغربية والمشرقيه فعقدت على كماله الخناصر وجعله أرباب الدراية لمقلة الدين الباصر ولقي أعيان الشيوخ في القطرين وأخذ عنهم ما تقر به العين ويدفع به عن القلب الرين مع فصاحة لسان وطلاوة بيان وبنان وخلال حسان وبلاغة سحبته على سحبان وظهر أزهار بان وفوضت اليه خطابة الحرم الشريف بمكة فكان كما يقال هذا السوار لمثل هذا المعصم فكم وشي بها من مطارف للبلاغة وكم عمم حتى يظن الرائي عود منبره من وعظه مائسا ولئن مال من سجع الحمام رطبا فقد مال من سجع هذا الامام يابسا وترجم على من لقي من الاعيان بسحر البيان وفصل أحوالهم بأحسن تبيان وعدتهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل في أرسان وأرى تحقيق قول القائل جمع الله تعالى العالم في انسان وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر وله مسند غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدمين والمتأخرين وهو أشهر من نار على علم وكان يكتب بالقلمين المغربي والمشرقي وكلاهما في غاية الجودة ومثل هذا يعد نادرا توفي شهيدا مطعوما من أناس كانوا يحسدونه فختم الله تعالى له بالشهاده وبوئ بها دار السعاده وتوفي سنة ٦٦٣ بمكة ومولده سنة ٥٩٨ رحمه الله تعالى ونفعنا بأمثاله (ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقي القبوري بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح التاء ثالثة الحروف وسكون الواو وبعدها راء الاشبيلي المولد والمنشا ولد في شوال سنة ٦١٥ وقرأ على الاستاذ الدباج كتاب سيبويه والسبع وله باع مديد في الترسل مع التقوى والخير وله اجازة من الرضي بن برهان والنجيب بن الصيقل وكتب لامير سبتة وحدث بتونس عن العراقي وجاور زمانا وتوفي بالمدينة سنة ٧٠٤ وحج مرتين قال أبو حيان قدم القاهرة مرتين وحج في الاولى وأنشد من لفظه لنفسه

قوله بمكة ساقط في بعض ا ه

أسيلي الدمع ياعيني ولكن ٭ دما ويقل ذلك لي أسيلي

فكم في الترب من طرف كحيل ٭ لترب لي ومن خد أسيل

وقال

ماذا جنيت على نفسي بما كتبت ٭ كفي فياويح نفسي من أذى كفي

ولو يشاء الذي أجرى على يدها ٭ قضاءه الكف عني كنت ذا كف

وقال

واحسرتا لامور ليس يبلغها * مالي وهن منى نفسي وآمالي
أصبحت كالآل لا جدوى لدي وما * ألوت جهدا ولكن جدّي الآلي

وقال العلامة فتح الدين بن سيد الناس انه أنشده لنفسه بالحرم الشريف النبوي سنة ثلاث وسبعمائة

رجوتك يا رحمن انك خير من * رجاه لغفران الجرائم مرتجي
فرحمتك العظمى التي ليس بابها * وحاشاك في وجه المسيء بمرتج

وقد أنشد له أبو حيان كثيرا من نظمه رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل الاموي الاشبيلي النباتي المعروف بابن الرومية كان عارفا بالعشب والنبات صنف كتابا حسنا كثير الفائدة في الحشائش ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم ورحل الى البلاد ودخل حلب وسمع الحديث بالاندلس وغيرها وقال البرزالي في حقه انه كان يعرف الحشائش معرفة جيدة وسمع الحديث بدمشق من ابن الحرستاني وابن ملاعب وابن العطار وغيرهم وقال بعضهم اجتمعت به وتفاوضت معه في ذكر الحشائش فقلت له قصب الذريرة قد ذكر في كتب الطب وذكروا انه يستعمل منه شئ كثير [redacted] على انه كان موجودا كثيرا وأما الآن فلا يوجد ولا يخبر عنه بخبر فقال هو موجود وانما لا يعلمون أين يطلبونه فقلت له وأين هو فقال بالاهواز منه شئ كثير انتهى وأجاز البحر بعد سنة ٨٠ • للقاء ابن عبيد الله ببجاية فلم يتهيأ له ذلك وحج رحمه الله تعالى في رحلته الاولى ولقي كثيرا وروى عن عدد من الرجال والنساء ضمنهم التذكرة وله مختصر كتاب الكامل لاحمد بن عدي في رجال الحديث وله كتاب المعلم بما زاده البخاري على كتاب مسلم ويعرف بالنباتي لمعرفته بالنبات ومولده في نحو سنة ٥٦١ وتوفي رحمه الله تعالى باشبيلية منسلخ ربيع الثاني سنة ٦٣٧ وقد رثاه اناس من تلامذته وألف بعضهم في التعريف به وسمع من ابن زرقون وابن الجد وابن عفير وغير واحد كأبي ذر الخشني وسمع ببغداد من جماعة وحدث بمصر أحاديث من حفظه ويقال له الحزمي بفتح الحاء نسبة الى مذهب ابن حزم لانه كان ظاهري المذهب وكان زاهدا صالحا وحكى بعضهم عنه انه كان جالسا في دكانه باشبيلية يبيع الحشائش وينسخ فاجتاز به الامير أبو عبد الله بن هود سلطان الاندلس فسلم عليه فرد عليه السلام واشتغل بنسخه ولم يرفع اليه رأسه فبقي واقفا منتظرا أن يرفع اليه رأسه ساعة طويلة فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى وله كتابان حسنان في علم الحديث أحدهما يقال له الحافل في تكملة الكامل لابن عدي وهو كتاب كبير قال ابن الابار سمعت شيخنا أبا الخطاب بن واجب يثني عليه ويستحسنه والثاني اختصر فيه الكامل لابي أحمد بن عدي كما سبق في مجلدين وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعة من أصحاب الحافظ أبي الوقت السجزي وأبي الفتح بن البطي وأبي عبد الله الغراوي وغيرهم من الائمة وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالاندلس من روايته بالمشرق وكان متعصبا لابن حزم بعد أن تفقه في المذهب المالكي على ابن زرقون أبي الحسين وطالت

قوله ابن عبيد الله في نسخة أبي عبد الله اه

قوله ربيع الثاني في بعض النسخ ربيع النبوي ولعل المراد به ربيع الاول لما لا يخفى وليحرر اه

قوله والموصل في نسخة بدله ومصر اه

صحبته له وكان بصيرا بالحديث ورجاله كثير العناية به واختصر كتاب الدارقطني في غريب حديث مالك وغيره أضبط منه وفاق أهل زمانه في معرفة النبات وقعد في دكان ليبيعه قال ابن الابار وهنالك رأيته ولقيته غير مرة ولم آخذ عنه ولم أستجزه وسمع منه جل أصحابنا ومولده في شهر المحرم سنة ٥٦٧ وتوفي باشبيلية ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر سنة ٦٣٨ وقال ابن زرقون منسلخ شهر ربيع الاول وحكى ذلك عن والده أبي النور محمد بن أحمد انتهى *(ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الاشبيلي الشهير بالمسيلي رحل حاجا وقفل الى بلده وحدث عنه أبو بكر بن خير بوفاة القاضي ابن أبي حبيب وروى عن أبي محمد بن أبي السعادات المروزي الخراساني وأنه أنشده بثغر الاسكندرية عند وداعه اياه قال أنشدني أبو تراب جندل عند الوداع لبعضهم

السم من السن الافاعي * أعذب من قبلة الوداع
ودعتهم والدموع تجرى * لما دعا للوداع داع

*(ومنهم أبو العباس ويقال أبو جعفر أحمد بن معدّ بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد ويعرف بابن الاقليشي صاحب كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم عارض به كتاب القضاعي وأصل أبيه من اقليش وضبطها بعضهم بضم الهمزة وسكن دانية وبها ولد ونشأ سمع أباه وأبا بكر وأبا العباس بن عيسى وتلمذ له ورحل الى بلنسية فأخذ العربية والآداب عن أبي محمد البطليوسي وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق بن يعيش والحافظ أبي بكر بن العربي وأبي الوليد بن خيرة وابن الدباغ ولقي بالمرية أبا القاسم بن ورد وأبا محمد عبد الحق بن عطية وولي الله سيدي أبا العباس بن العريف ورحل الى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وجاور بمكة سنين وسمع من أبي الفتح الكروخي جامع الترمذي برباط أم الخليفة العباسي سنة سبع وأربعين ثم كر راجعا الى الغرب فقبض في طريقه وحدث بالاندلس والمشرق وكان عالما عاملا متصوفا شاعرا مجودا مع التقدم في الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها والاقبال على العلم والعبادة وله تصانيف منها كتاب الغرر من كلام سيد البشر وكتاب ضياء الاولياء وهو أسفار عدة وحمل الناس عنه معشراته في الزهد وكتبها الناس وكان يضع يده على وجهه اذا قرأ القارئ فيبكي حتى يعجب الناس من بكائه وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن يمينه وشماله وقد وصف غير واحد امامته وعلمه وورعه وزهده وروى عنه أبو الحسن ابن كوثر وابن بيش وغيرهما ومن شعره قوله

أسير الخطايا عند بابك واقف * له عن طريق الحق قلب مخالف
قديما عصى عمدا وجهلا وغرة * ولم ينهه قلب من الله خائف
تزيد سنوه وهو يزداد ضلة * فها هو في ليل الضلالة عاكف
تطلع صبح الشيب والقلب مظلم * فما طاف منه من سنى الحق طائف
ثلاثون عاما قد تولت كأنها * حلوم تقضت أو بروق خواطف
وجاء المشيب المنذر المرء انه * اذا رحلت عنه الشبيبة تالف

فيا أحمد الخوان قد أدبر الصبا * وناداك من سن الكهولة هاتف
فهل أرق الطرف الزمان الذى مضى * وأبكاه ذنب قد تقدم سالف
فجد بالدموع الحمر حزنا وحسرة * فدمعك ينبى أن قلبك آسف

وقد وافق فى أول هذه القطعة قول أبى الوليد بن الفرضى أو أخذه منه نقلا وتوفى فى صدوره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر فى عشر الخمسين وخمسمائة ودفن عند الجيزة التى فى المقبرة التالية لسوق العرب وقال ابن عباد انه توفى سنة خمسين أو احدى وخمسين بعدها رحمه الله تعالى وقد نيف عن الستين *(ومنهم أبو العباس أحمد بن عمر المعافرى المرسى وأصله من طلبيرة ويعرف بابن افرند روى عن أبى الحسين الصفدى وغيره كالقاضى الحافظ أبى بكر بن العربى وأبى محمد الرشاطى وأبى اسحق بن حبيش وغيرهم وله رحلة حج فيها ولقى أبا الفتح بن الرنداقانى بلد بين سرخس ومرو من أصحاب أبى حامد الغزالى وأنشد عنه مما قاله فى وداع اخوانه بالبيت المقدس

لئن كان لى من بعد عود اليكم * قضيت لبانات الفؤاد لديكم
وان تكن الاخرى ولم تك أوبة * وحان حمامى فالسلام عليكم

وقد روى هذين البيتين أبو عمرو بن عياد وابنه محمد عن ابن افرند هذا وكان صالحا زاهدا متصوفا رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى الضبى من أهل لورقة رحل حاجا وكان منقبضا زاهدا صواما قواما وأقرأ القرآن وأسمع الحديث وممن حدث عنه الحافظان أبو سليمان وأبو محمد بن حوط الله ولقيه أبو سليمان بلورقة سنة ٥٧٥ وتوفى رحمه الله تعالى سنة ٥٧٧ وقد قارب المائة *(ومنهم أبو عمر بن عات وهو أحمد بن هرون بن أحمد بن جعفر بن عات النفرى من أهل شاطبة سمع أباه وأبا الحسن بن هذيل وأبا عبد الله بن سعادة وابن حبيش وغير واحد وطائفة كثيرة ورحل الى المشرق فأدى الفريضة وسمع أبا الطاهر السلفى وأبا الطاهر بن عوف وغيرهما ممن يطول ذكره وأجازله أبو الفرج بن الجوزى وغيره ممن أخذ عنه وسمع منه وقد ضمن ذكر أشياخه وجملة صالحة من مروياته عنهم برنامجيه اللذين سمى أحدهما بالنزهه فى التعريف بشيوخ الوجهه وهو كتاب حافل جامع والآخر بريحانة النفس وراحة الانفس فى ذكر شيوخ الاندلس قال ابن عبد الملك المراكشى فى الصلة حدثنا عنه شيخنا أبو محمد حسن بن على بن القطان وكان من أكابر المحدثين وجلة الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة يسرد الاسانيد والمتون ظاهرا فلا يخل بحفظ شئ منها متوسط الطبقة فى حفظ فروع الفقه ومعرفة المسائل اذلم يعن بذلك عنايته بغيره فكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوى عمر بن عبد البر وابن عات وكان على سنن السلف الصالح فى الانقباض ونزارة الكلام ومتانة الدين وأكل الخشن ولزوم التقشف والتقلل من الدنيا والزهد فيها والمثابرة على كثير من أفعال البر كالاذان والامامة وبذل المعروف والتوسع بالصدقات على الضعفاء والمساكين وحكى انه حضر فى جماعة من طلبة العلم لسماع السير على بعض شيوخهم فغاب الكتاب أو القارى بكتابه فقال أبو عمر أنا أقرأ لكم فقرأ لهم من حفظه وقال أبو عمر عامر بن نذير

لازمته مدة ستة أشهر فلم أر أحفظ منه وحضرت اسماع الموطا وصحيح البخاري منه فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضا بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح لا يتوقف في شيء من ذلك انتهى وقال بعض المؤرخين انه كان آخر الحفاظ للحديث يسرد المتون والاسانيد ظاهرا لا يخل بحفظ شيء منها موصوفا بالدراية والرواية غالبا عليه الورع والزهد على منهاج السلف يلبس الخشن ويأكل الخشف وربما أذن في المساجد وله تآليف دالة على سعة حفظه مع حظ من النظم والنثر وشهد وقعة العقاب التي أفضت الى خراب الاندلس بالدائرة على المسلمين فيها وكانت السبب الاقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة قال ابن الابار وهو ممن أجاز له المذكور فيما رواه أو ألفه رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حنون البهراني من ساكني اشبيلية وأصله من لبلة روى عن أبيه وابن الجد وابن زرقون وابن جهور وغيرهم من أعلام الاندلس ثم رحل الى المشرق فسمع ببغداد من أبي حفص عمر بن طبرزد وبخراسان من المؤيد الطوسي وبهراة من أبي روح عبد المعز وبمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني ومن جماعة غير هؤلاء وسمع أيضا بدمشق من أبي الفضل الخرستاني وسواه وبها توفي قبل العشرين وستمائة فيما نقل ابن الابار عن ابن نقطة وقال غيره انه مات سنة خمس وعشرين وستمائة *(ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن محمد ابن أحمد المخزومي من أهل قرطبة ويعرف أبوه بكوزان روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده ورحل حاجا فلقي بالاسكندرية أبا الحسن بن المقدسي وسمع منه وأنشد من لفظه بعض أصحاب الآثار قال أنشدني شرف الدين أبو الحسن علي بن الفضل المقدسي قال أنشدتني تقية بنت غيث بن علي الارمنازي لنفسها

لا خير في الخمر على انها * مذكورة في صفة الجنه
لانها ان خامرت عاقلا * خامره في عقله جنه
يخاف أن تقذفه من علا * فلا تقي مهجته جنه

*(ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش الكناني المرسي سمع من ابن بشكوال موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى والقعنبي وابن بكير بقراءة محمد بن حوط الله ورحل الى المشرق سنة تسع وسبعين وخمسمائة فحج سنة ثمانين بعدها وأقام بالحجاز والشام مدة ولقي أبا الطاهر الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات الحريري وأخذها الناس عنه ومما أفاد وزاد في قول الحريري اذا ما حو يت جنى نخلة الابيات قوله

ولا تأسفن على خارج * اذا ما المحت سنى الداخل
ولا تكثر الصمت في معشر * وان زدت عيا على باقل

وسمع من أبي القاسم بن عساكر السنن للبيهقي ومن أبي حفص الميانشي جامع الترمذي وقفل الى الاندلس في سنة سبع وتسعين وحدث بيسير وكان يحسن عبارة الرؤيا وكف بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها وتوفي على اثر ذلك ومولده سنة اثنتين

قوله الارمنازي في نسخة لارمناوي اه

قوله بيسير في نسخة بكثير اه

وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن حصن بن أحمد ابن حزم الغافقي* ويقال فيه ابراهيم بن حصن بن عبد الله بن حصن اندلسي* سكن دمشق وولي الحسبة بها ويكنى أبا اسحق سمع ببغداد من أبي بكر بن مالك القطيعي* وطبقته وبدمشق من عبد الوهاب الكلابي* ويوسف بن القاسم الميانجي* وبمصر من أبي طاهر الذهلي* وأبي أحمد الغطريفي* وله أيضا سماع بالرملة واطرابلس والدينور وغيرها من البلدان وحدث بيسير روى عنه أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الوهاب بن عبد الله الجبائي* من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكتاني* وكان مالكيا وقيل انه يذهب الى الاعتزال وكان صارما في الحسبة ووليها سنة خمس وتسعين وثلثمائة في أيام الحاكم العبيدي* وتوفي بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وأربعمائة قبل ثاني عيد الاضحى وقيل غير ذلك ذكره ابن عساكر رحمه الله تعالى قلت ما سمعت بمالكي* معتزلي* غير هذا ولعله كان مالكيا بالمغرب فلما دخل في خدمة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبته لمذهب الاعتزال فالله تعالى أعلم *(ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد الغافقي* من أهل المرية ونزل مرسية سمع ببلده من ابن شفيع وأخذ عنه القرا آت ومن الحافظ ابن سكرة وابن رغبة وعبد النادر بن الحناط وبقرطبة من ابن عتاب وابن طريف وأبي بحر الاسدي* وأبي مغيث وغيرهم ورحل حاجا فسمع بمكة من أبي علي* بن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان سنة ست وعشرين وسمع أيضا من أبي الفتح سلطان بن ابراهيم المقدسي* وقفل الى بلده وانتقل بعد الحادثة عليه الى مرسية وولي القضاء والخطبة هنالك وحدث وأخذ عنه وكان فقيها مشاورا وقيل ان ابن حبيش سمع منه الاحاديث النسطورية وأسمع صحيح البخاري* آخر الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة وكان يحدث به عن سلطان بن ابراهيم عن كريمة المروزية وحكى رحمه الله تعالى عن أبي ذر* الهروي* أنه قال عند موته عليكم بكريمة فانها تحمل كتاب البخاري* من طريق أبي الهيثم رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو القاسم بن فورتش وهو اسمعيل بن يحيى بن عبد الرحمن السرقسطي* وأخوه القاضي محمد ابن يحيي وكانا جميعا زاهدين لهما رحلة سمعا من أبي ذر* الهروي* بمكة وعادا الى بلدهما وولي محمد منهما القضاء وقد لقيهما القاضي الحافظ أبو علي* بن سكرة وله سماع منهما ويرويان عن أبي عمر الطلمنكي* وأبي الحزم بن درهم وتوفي أبو القاسم بعد الخمسمائة *(ومنهم أبو الطاهر اسمعيل بن أحمد بن عمر القرشي* العلوي* الاشبيلي* رحل حاجا ودخل العراق والموصل وقيد الكثير ورواه وسمع من أبي حفص الميانشي* بمكة سنة ٥٧٠ وحدث بالموطا عن أبي الحسن علي* بن هابيل الانصاري* عن أبي الوليد الباجي* وحدث أيضا عن غيره بما دل على انه كان يخلط ولا يضبط وكذلك قال أبو الصبر كان له في الموطا اسناد عال جدا فتصفحته فوجدته ينقص منه رجل واحد فاسترتبت في الرواية عنه بعد تحسين الظن به ولم ينبه أبو الصبر لان ابن هابيل وغيره من شيوخه مجهولون هذا أبو الصبر ممن روى عن المذكور وهو أبو الصبر السبتي* والله تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل *(ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن عبد الله

قوله الحناط في نسخة الخياط

ابن

ابن ابراهيم بن خليل المقرى الحيرى التاكرنى قال فى تاريخ اربل كان شابا متأدبا فاضلا قدم مصر وله شعر حسن وقال الحافظ عبد العظيم المنذرى أنشدنا المذكور لنفسه

يا قلب مالك لا تفيق من الهوى * أوما يقر بك الزمان قرار
ألكل ذى وجه جميل صبوة * ولكل عهد سالف تذكار

وله

يارب أغصبة سوداء سالكة * لم ترع فى البيد الا الشمس والقمرا
تخال باطنها فى اللون ظاهرها * فهى الغداة كزنجى اذا كفرا

ولد سنة ٥٩٠ بتاكرنا من بلاد الاندلس وهى من قطر قرطبة وتوفى بأرزن من ديار بكر سنة ٦٣٩ عائدا من آمد رحمه الله تعالى ومن بديع شعره

ان أودع الطرس ما وشاه خاطره * أبدى لعينيك أزهارا وأثمارا
وان تهدد فيه أو يعد كرما * بث البرية آجالا وأعمارا

وتاكرنا بضم الكاف والراء وتخفيفها وشد النون وورد المذكور اربل سنة سبع وعشرين وستمائة وله أبيات أجاز فيها أبيات شرف الدين عمر بن الفارض فى غلام اسمه بركات قال الاسدى الدمشقى ومن خطه نقلت كنت حاضرا هذه الواقعة بالقاهرة بالجامع الازهر اذ قال ابن الفارض

بركات يحكى البدر عند تمامه * حاشاه بل شمس الضحى تحكيه

فقال أبو الروح وأنشدنى ذلك

هذا الكمال فقل لمن قد عابه * حسدا وآية كل شئ فيه
لم تدر واحدى زهر تيه وانما * كملت بذا الملاحة التشبيه
وكأنه رام يغلق جفنه * ليصيب بالسهم الذى يرميه

وقال ابن المستوفى فى تاريخ أربل أنشدنى أبو الروح

أوصيت قلبى أن يفر عن الصبا * ظنا بأنى قد دعوت سميعا
فأجابنى لا تخش سقى بعدما * أقلت من شرك الغرام وقوعا
حتى اذا نادى الحبيب رأيته * آوى اليه ملبيا ومطيعا
كذبالة أخمدتها فاذا دنا * منها الضرام تعلقته سريعا

قال وأنشدنى

وزائر زارنى والليل معتكر * والطيب يفضحه والحلى يشهره
أمسكت قلبى عنه وهو مضطرب * والشوق يمنعه والصون يزجره
فبت أصدى الى من لا يعللنى * والورد صاف ولا شئ يكدره
تراه عينى وكفى لا تلامسه * حتى كأنى فى المرآة أنظره

قال وانشدنى قال أنشدنى الامام أبو عمرو بن غياث الشريشى لنفسه رحمه الله تعالى

صبوت وهل عار على الحب ان صبا * وقد نغر الاربعين الى الصبا
وقالوا مشيب قلت واعجبا الكم * أيذكر صبح قد تخلل غيهبا

وليس مشيبا ماترون وانما * كميت الصبا المجرى عاد أشهبا

وتوفى أبو عمرو سنة ٦٢٠ عن تسعين سنة قال ابن المستوفى وأنشدنى المذكور قال أنشدنى أبو عمرو أيضا لنفسه

أودع فؤادى حسرة أودع * نفسك تؤذى انت فى اضلعى
أمسك سهام اللحظ أوفارمها * أنت بمارمى مصاب معى
موقعها القلب وأنت الذى * مسكنه فى ذلك الموضع

قال وأنشدنى قال أنشدنى مطرف الغرناطى

أناصب كانشاء وتهوى * شاعر ماجد كريم جواد
سنة سنها قديما جميل * وأتى المحدثون مثلى فزادوا

قال وأنشدنى أيضا المطرف

وفى فروع الايك ورق اذا * بل الندى أعطافها تسجع
أو هزها نفح نسيم الصبا * شاقك منها غرد شرع
كأنما ريطتها منبر * وهى خطيب فوقه مصقع
ان شبها فى طرف لوعة * يجرى لها فى طرف مدمع

أخذه من قول عبد الوهاب بن على المالقى الخطيب

كان فؤادى وطرفى معا * هما طرفا غصن أخضر
اذا اشتعل النار فى جانب * جرى الماء فى الجانب الآخر

تم طبع الجزء الاول بعون من عليه الاعتماد والمعول من
كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب
وكان تمام طبعه وحسن تمثيله
ووضعه بالمطبعة الميرية
المصريه فى الايام
السعيديه
م

ويليه الجزء الثانى أوله ومن المرتحلين من الاندلس الى المشرق
الامام النحوى اللغوى نور الدين أبو الحسن

هذا الجزء خالص الكمرك